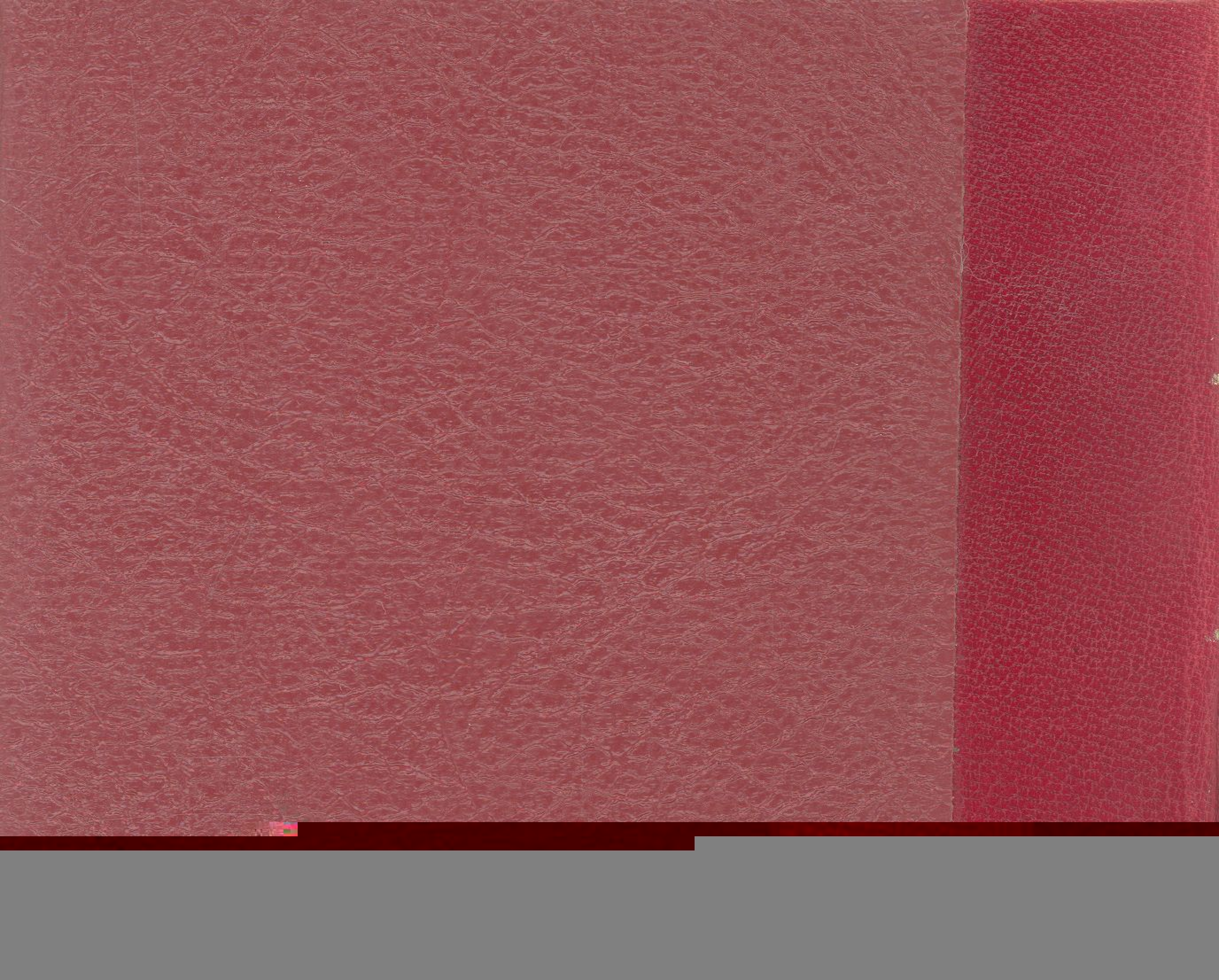


اقرأ

الدكتور حبيب صادر

هذا الإنسان

دار المعارف بمصر

هذا الإنسان

الدكتور حبيب صادر

هذا الإنسان

اقرأ ١٤٦

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٤٦ – فبراير سنة ١٩٥٥



توطئة

الإنسان ضعيف بالطبع

يظن الإنسان أنه إذا كان سليم الحواس صحيح البنية يستطيع بواسطة حواسه هذه لمس حقيقة الموجودات فيتمكن مثلا من معرفة طبيعة الأشياء بمجرد رؤيتها أو سماع الاهتزازات التى هى أصل الصوت بصورة قياسية ولا يخطر له أبداً أن قواه وإن كانت صحيحة سليمة ليست بأهل لتؤخذ واسطة تعرف بها حقائق الأشياء . فهى لم توجد لتقوم بهذه الوظيفة بل خلقت لتخدم الإنسان فى أمرين اثنين : وهما حفظ كيانه وتخليد جنسه وليس الإنسان بطبيعة حاله إلا آلة وضعت لهذا الغرض فقط . وأما ما بقى من الوظائف التى يتكلفها الإنسان فليست إلا كمالية ، فإذا حمل نفسه مثلاً أثقال المشقات فى البحث عن ماهية الكائنات يعرضها حتما للغلط . فعليه إذاً أن يذكر دائماً عجزه وضعف حواسه ويجتنب المغالاة فى علمه وادعاء العصمة .

فعينه التى هى نافذة عقله والتى يشرف منها على العلوم وبواسطتها ينقل صور الموجودات إلى عقله . لا تبصر الأشياء

كما هى بشكلها الطبيعى بل تبتدع لها هيئة غريبة عنها لتمنحها شكلا يميزها عن غيرها فقط . يبصر الإنسان البدر فى الرقيع ليلا شبه قرص مستدير لامع ملصوق على صفحة زرقاء . لكنه لو نظر إليه من وراء المنظار (التلسكوب) الذى يُدنى رؤية الأشياء البعيدة لأبصره مغايراً تماماً لصورته فى العين المجردة ، ولوقف نوعاً ما على حقيقة تركيبه ، ولأدرك آنئذ حجم ذلك الجسم العظيم الكروى السابح فى الفضاء ، ولما توهمه قرصاً صغيراً مسطحاً .

وكذلك الأمر فى رؤية النجوم فمنها ما حجمه يزيد عن حجم الأرض والقمر أضعافاً وأعيننا تبصرها نقطاً صغيرة مشعة فى السماء .

وليس بعد المسافة فقط هو الذى يظهر ضعف عين الإنسان بل السرعة أيضاً . فلا تعود العين قادرة على تمييز الأشياء بعضها من بعض إذا مرت أمامها بسرعة تزيد عن جزء من ثلاثين من الثانية فلو أخذت جمرة وحركتها بسرعة فى الظلمة راسما بها دائرة فى الفضاء لأبصرت دائرة نار وليس جمرة واحدة ، أعنى تبصر الجمرة فى كل موضع مرت به وقبلما تنتقل من هذا الموضع لتبقيه فارغاً ترجع إليه بسرعة تزيد على جزء من ثلاثين من الثانية ، وهكذا تبصر العين

الجمرة الواحدة جمرات متعددة وبعبارة أوضح تبصر الجمرة دائرة من نار .

وكذلك لو رسمت عصفوراً على قطعة ورق مقوّى (كارتون)أبيض فى إحدى صفحتيها وفى الثانية قفصاً وجعلتها تدور على نفسها بسرعة تزيد على ثلاثين مرة فى الثانية لرأيت العصفور فى القفص .

وعلى هذا الترتيب أيضاً تجرى الصور المتحركة (السينمائية) فإنك ترى مثلا إنساناً يمشى فى الرسم على اللوحة الفضية[١] والحقيقة هى أن الرسم بكامله ينتقل بسرعة تزيد على ثلاثين مرة فى الثانية ويحل محله رسم آخر يشبهه ولا يختلف عنه إلا بشكل وضعية الإنسان فقط . فعندما تمرّ هذه الثلاثون رسما فى ثانية واحدة لا تقدر العين على تمييز عدد الرسوم بل تراها كلها رسماً واحداً .

فلو افترضنا أن الإنسان يخطو خطوة واحدة فى الثانية وأخذ له ثلاثون رسماً فى أثناء هذه الخطوة فعندئذ تكون كلها متشابهة لا تختلف إلا بوضعية رجله المتنقّلة . فالرسم الأول يظهر الإنسان فيه منتصباً ، والثانى مثل الأول لكن وضعية الرِّجْل تكون قد تغيرت قليلا فبدلا من أن تكون دائسة الأرض

(١) الستار الأبيض الذى تعرض عليه الرسوم فى قاعة السينما .

تكون قد ارتفعت قليلا عنها . وهكذا إلى النهاية . فيكون الرسم الثلاثون قد أخذ والرجل قد اجتازت الخطوة .

والعين السليمة تعجز أيضاً عن تمييز الحركة البطيئة كعجزها عن تمييز الحركة السريعة . فكم نشعر بهذا الضعف مراراً كثيرة في اليوم الواحد . إننا ننظر إلى الساعة كل يوم في الصباح فنبصر عقاربها ثابتة لا تبدى حراكاً . ثم نرجع إليها عند الظهر . فرغماً عن جمود العقارب نراها قد اجتازت نصف الدائرة ومع ذلك نرمق ملياً فنتحقق أنها لا تزال واقفة عن السير .

إن العقارب المذكورة تتحرك بصورة مستمرة لكن عين الإنسان ضعيفة فلا تشعر بالحركة لبطئها . فلو حكمنا بجمود العقارب مستندين إلى ما شاهدته العين وتحققته لكان حكمنا خطأ مبيناً . وليس هذا الخطأ فقط هو الوحيد الذى ترتكبه حواس الإنسان وبالأجدر قواه التى يستعين بها على اكتشاف المكنونات . بل إن خطأها فى الأمور أكثر عدداً من إصابتها فيها . وما العلم إلا نتيجة جهود هذه القوى الإنسانية ولهذا نرى جديده يناقض دائماً قديمه ويلاشيه . وما كان يسمى منذ ألف سنة علماً ظهر اليوم وهماً وخرافة . كما أن علمنا الحالى الذى نكابر فى صحة آرائه ونغالى فى حقيقة بيناته سيكون مستقبله

كما هى الآن حالة العلوم القديمة من الوهن والخطأ . فلا غرو فى ذلك وعلومنا نتيجة قوى وحواس خطؤها أضعاف صوابها .

وليس بعد المسافة والسرعة والبطء هى وحدها التى تؤثر فى قوة الحس فى العين لكنها هى بطبيعتها ضعيفة . إنك تنظر إلى هذه الأسطر السود التى تطالعها على الورقة البيضاء والتى لا تبعد عن عينك إلا مسافة خمسة عشر سنتيمتراً فقط ، فتبصرها شبه خطوط ملتوية مسطحة ليس لها حجم على الإطلاق ممتدة على بقعة بيضاء ملساء مسطحة تسطيحاً كلياً خالية من كل تحديب وتقعير . لكن الحقيقة هى نقيض ما تراه . فلو نظرت إليها من وراء العدسة المكبرة لأبصرت الخطوط المسطحة تتألف من ذرات صبغ سوداء ذات حجم كروى متفرقة بعضها عن بعض ومتدحرجة بين الألياف القطنية والخشبية التى تتركب منها الورقة كالحصى الملقى على حزمة من الأغصان .

كما أنك لو نظرت من وراء عدسة مكبرة وأقوى تأثيراً إلى لون بنفسجى على صورة رُسمت ببعض الألوان الزيتية مثلا ، لرأيت اللون البنفسجى الواحد مركباً من لونين أى من ذرات صغيرات الحجم بعضها ذو لون أحمر وبعضها أزرق . فنظراً

لاختلاط هذه الذرات المختلفة الألوان ولضعف حاسة البصر تعمى العين عنها فتبصر لوناً جديداً غريباً عن حقيقة ما تراه . وبالأحرى تعطيها شكلا يميزها عن غيرها فقط وذلك لتؤدّى وظيفتها . أعنى لا تبصرها لتعلم ماهيتها بل لتتمكن من تمييزها فتفرّ منها إذا كانت مضرة أو تميل إليها إذا كانت مفيدة طبقاً لناموس تنازع البقاء وتخليد الجنس .

فيستنتج مما تقدم أن العين تنظر ولا تبصر ولو لم تستعن بالآلات البصرية كالمجهر والمنظار لما علمت ضعفها ولما عرفت خطأها . وما أدراك ما سوف تكون فى المستقبل حالة مكتشفات هذه الآلات الحالية ؟ ألا يحق لنا أن نقابلها مع حالة اكتشافات العين المجردة وأن نعتبر صحتها نسبية وأن هذه النسبة تميل إلى الخطأ ميلها إلى الحقيقة لكونها موازية لكمال هذه الآلات التى ليست إلا وليدة علم لا يزال قاصراً فى بدء تطوره ؟

والأذن تضاهى العين فى ضعفها بل إنها تزيد عليها وهناً . إنها تسمع زئير الأسد عن بعد ميلين تقريباً ولا تسمع مواء الهر إلا عن بعد ربع ميل . فلماذا هذا الفرق ؟ ذلك لأن الصوت ما هو إلا اهتزازات تتموّج بين جواهر الأجسام فتنتقل إلى مسافة تبعد نسبة للقوة الباعثة فكلما كانت القوة المولّدة للصوت قوية كان الصوت المنبعث منها أعلى . فتلتقطه

الأذن عن مسافة أبعد . وكلما ازدادت سرعة الاهتزازات زاد ارتفاع الصوت — لكن إلى درجة معينة — أعنى ضمن حدود لا تتجاوزها قوة حس الأذن .

فالحدود السفلى — حسبما قال (هلمولتز) — هى من الست عشرة اهتزازة مضاعفة[1] فى الثانية فما فوق . أى أنك لو أخذت قضيباً وهززته ست عشرة مرة فى الثانية لسمعت أخفض صوت فى الأنغام الموسيقية فلو كانت الاهتزازات أقل عدداً من هذا — فلنفترض اثنتى عشرة مثلا فقط — ومرّت على الأذن وهزتها كما مرت الاهتزازات الست عشرة لعجزت الأذن عن سماع صوتها ، مع أن هذه الاهتزازات لو مرت على أذن حصان لكان من المحتمل أن يسمع لها صوتاً لأن أذن الحصان تحسّ لدرجة تفوق أذن الإنسان . كما أنه لو مرت اهتزازات صوت بعيد على آذان الفارس والحصان معاً عند حد ينتهى فيه سماع أذن الفارس لبقى الحصان يسمع ذلك الصوت ويوجه أذنيه إلى جهته . وكثير من الحيوانات أيضاً كالكلاب وغيرها آذانها أكمل من آذان الإنسان وأقوى سمعاً .

فعليه ليست أذن الإنسان ناقصة بالنسبة لاهتزازات الصوت

---

(١) أى أن الخطران يتألف من الذهاب والإياب كخطران رقاص الساعة مثلا .

فقط بل كذلك بالنسبة لآذان باقى الحيوانات .

وكذلك حاسة الذوق فهى حاسة لم توجد فى اللسان وبالأحرى فى الفم عند مدخل الجسم إلا لتستقبل كل ما يدخل إلى الجسم فما كان مرّ المذاق أو مالحه يقذفه اللسان بعنف إلى الخارج ولا يعود إلى ذوقه مرة ثانية لأنه مضر للجسم الذى يحافظ عليه . وما يكون حلو المذاق لذيذه فيأمر اللسان بازدراده لأنه نافع . وتنحصر وظيفة هذه الحاسة أيضاً فى التمييز بين ما هو مضر وسمّ بواسطة كراهة طعمه وبين ما هو نافع ومغذ بواسطة اللذة عند ذوقه بقطع النظر عن تركيبهما وماهيتهما فالأغذية تؤخذ تقريباً كلها من المواد العضوية أعنى مما يكون أصله مادة نباتية أو حيوانية وهذه كلها على اختلاف أنواعها تتركب من أربعة أجسام وهى : الكاربون والهيدروجين والأوكسجين والآزوت . فالسكر وزلال البيض والدهن واللحوم والحبوب وغيرها من الأغذية كلها تتركب من هذه الأجسام الأربعة . كما أن المورفين والكوكايين والأركوتين[1] وغيرها من السموم العضوية التى تقتل الجسم بمقدار قليل للغاية ، كلها تتألف أيضاً من ذات العناصر الأربعة . فهذه السموم وتلك الأغذية لا تختلف عن بعضها إلا بترتيب كمية هذه

---

(١) Ergotine وهو أحد السموم .

الأجسام الأربعة فمنها ما يزيد به الآزوت ويقل الأوكسجين ، ومنها ما ينقص فيه الكاربون ويزداد الأوكسجين وقس عليه . فاللسان لم يستطع أن يبين لنا وحدة تركيب هذه السموم والأغذية بل أفادنا بأنها متناقضة تناقضاً كلياً . واستمرّ الإنسان على هذا الاعتقاد إلى أن جاءت الكيمياء وكشفت القناع عن حقيقة تركيب هذه المواد المتناقضة بالظاهر والمتساوية بالعناصر الطبيعيّة . واللسان لا يفرق أيضاً بين المورفين والكوكايين لأن كليهما مر المذاق . فلو قلنا إن الذى يهم أمره ليس معرفة عناصرهما بل يكفى اللسان أن يعلم مثلا أن المورفين والكوكايين كليهما سمّ زعاف فينبه الجسم إلى الخطر من أكلهما ، فنجيب أن الأركوتين سمّ أقوى من المورفين ولا يمتنع اللسان عن بلعه بل يزدرده بكل شهية لأنه ليس بمرّ المذاق .

فهذا القصور ما هو إلا نتيجة ضعف حاسة الذوق . فقوّتها نسبيّة . ودرجة نسبتها لا تمكن اللسان من القيام بهذه الوظيفة المهمّة حق القيام فشعورها بالمرارة والملوحة والحلاوة وخلافها لا يدل مطلقاً على فاعلية الأجسام التى يأكلها الإنسان ولذلك هى سريعة الانخداع لأن كثيراً من السموم التى تقتل الجسم مثل ساليسيلات الصودا وغيرها هى حلوة المذاق لكنها سمّ ناقع ومع هذا يسمح لها اللسان بالدخول إلى الجسم فيأكلها

الإنسان ويموت . وبعكس ذلك كثير من الأغذية المفيدة ، التى مع فائدتها تكون كريهة الطعم فيقذفها ولا يرضى بأن تدخل الجسم . وعلى هذا النمط تشعر باقى حواس الإنسان .

والنتيجة أن العين والأذن والذوق وسائر الحواس لم توجد لتدرك حقيقة ما يؤثر فيها . بل إن قوتها ما هى إلا نسبية فلا تشعر إلا بما هو نافع أو مضر فقط . فصور الأشياء وألوانها وكل الأصوات على اختلاف درجاتها وماهية الذوق بأنواعها كلها اهتزازات منعكسة لا تختلف إلا بسرعتها وقياسها ومكان وقعها . فالحواس لم تقدر على تمييز حقيقة هذه المؤثرات بل ميزتها بالنسبة إلى ما هو نافع أو ملاشٍ فقط . وكل مؤثر إن لم تكن نتيجة تفاعله النفع أو الملاشاة لا يشعر الإنسان به أى لا يتألم منه ولا يلتذ به فى حين أنه يؤثر فيه فاهتزازات صوت الآلة الموسيقية تلتذ الأذن بها ، واهتزازات صوت المدفع تتألم منها لكن اهتزازات القضيب الذى يتحرك ببطء فى الفضاء تمرّ على الأذن مثل الاثنتين الأوليين وتقرعها بذات الطريقة ومع ذلك لا تشعر بها لأنها ليست بكافية لتوجد لها اللذة ولا بقوية لتؤلمها أى لا تفيدها ولا تؤذيها .

إذاً فالإنسان يشعر ولا يدرك وحواسه ليست إلا آلة يدافع بها عن نفسه لحفظ كيانه وتخليد جنسه . أمّا ما تبقى

من الوظائف التى يقلدها إياها كالبحث عن المجهولات وغيرها من العلوم فهى حتما عرضة للخطأ .

فعلم الجغرافية والطبيعيات والكيمياء وعلم الحيوان وغيرها من العلوم التى هى بنظرنا الآن حقائق راهنة وغير قابلة التكذيب لابد من أن تنتقل إلى غير حالتها الحاضرة وتتطور تطوراً جديداً يناقض قديمه بدلا من أن يكمله .

فالجغرافية المصرية كانت تعلم أن الأرض هى شبه مائدة مسطحة مستطيلة الشكل ، وأن السماء مؤلفة من قبة معدنية زرقاء اللون صلبة تعلوها المياه المتلاطمة ، وأن النجوم معلقة فى تلك القبة الزرقاء كمصابيح تنير الأرض ، وأن المطر لا يتساقط إلا إذا فتحت نوافذ السماء . كما أن الجغرافية البابلية والفارسية لم تمتازا عن المصرية بشىء .

وظل العلماء يعتقدون بإجماع الرأى أن العلم الصحيح هو أن الأرض مسطحة وثابتة وأن الشمس تدور حولها . والذين ارتأوا غير هذا الرأى ذاقوا من العذاب أنواعاً شتى ، ولا أحد يجهل نصيب « غاليليو » منها . واستمروا على هذه الحال إلى أن جاء «كوبرنيكوس»وأعلن نظريته سنة ١٥٠٠ وهى أن الشمس ثابتة والأرض كروية تدور حولها ، ومن بعده ظهر منظار غاليليو فى سنة ١٦١١ وأثبت ما قاله كوبرنيكس وكان

كولمبس قد اكتشف القارة الجديدة . فثبت عندئذ أن العلوم الجغرافية السابقة التى كانت بنظر العالم بأجمعه حقيقة راهنة — مثل الجغرافية الحديثة بنظرنا الآن ، لم تكن إلا حديث خرافة . وكان اكتشاف آلة واحدة كافياً لكى تتداعى أركانها ساقطة . فكيف بعلومنا الحاضرة تجاه اكتشافات العلم المتعددة فى المستقبل ؟

إن الإنسان نظراً لضعف قواه يجب عليه أن يقر بإمكان الخطأ فى كل ما يسميه حقيقة راهنة ، وأن يجتنب الادعاء بالعصمة فى كل علومه على اختلاف مواضيعها ، وأن يذعن للحق — وإن كان ذلك الإذعان سبباً لإظهار أخطائه ، وأن يقف تجاه الحقائق المحسوسة موقف شك وارتياب لا موقف مكابرة وادعاء وعصمة .

ولم أقصد من الإشارة إلى عجز العلوم الحاضرة وقصورها ، محبذاً مبدأ الشكوك إلا لأنبه القراء إلى تجنب التسليم الأعمى بنظريات العلم الحديث وإلى ملاحظة أن العلم هو بذاته غير أهل ليقف أمام تيار الزمان الذى يستعرض للإنسان بعض أشباح الحقيقة . فمن الغرور إذاً أن نسلم سريعاً وبغير إمعان بنظريات هذا العلم التى لا تزال فى طور الحدس والافتراض . .

الفصل الأول

١ – العلم وأصل الإنسان

إن الفيل العظيم الجثة ذا الأنياب الضخمة العاجية والجلد الثخين الكبير الحجم ، والعظام القائمة فى هيكله كالأعمدة المنحوتة . كان فى البدء ببيضة جامدة صغيرة .

والذرّة الخفيفة الوزن ، الدائمة الحركة ، ذات القوائم الشعرية النحيفة والجسم المرن الخالى من العظام . والّتى تعيش مع أترابها جماعات أسِّسَت على قوانين وأنظمة لا تتغير ، كانت فى الأصل ببيضة جامدة شديدة الشبه بالفيل .

إن الحوت الكبير الذى يربو على البواخر بحجمه ، ويضاهى الصخور بعظامه ، ويزدرد أكبر الأسماك بسهولة ، ويسبر أعماق الأوقيانوسات بسرعة هائلة ، ويمخر لجج البحار كالإله «نبتون» ، لم يكن فى ابتداء حياته إلا ببيضة جامدة وصغيرة للغاية .

والضفدع الصغير البطىء الحركة ، والسريع العطب الذى يعيش فى الماء وعلى اليابسة على حد سواء . كان فى أول أمره ببيضة تماثل ببيضة الحوت الكبير .

إن الإنسان العاقل ذا الدماغ المفكر الذى يخترع ويقلد ،

يبنى ويهدم ، يصلح ويفسد ، يحب ويبغض ، يؤمن ويكفر ، يعدل ويظلم ، ذلك الإنسان الذى قد امتاز فى كونه ذا يدين (فصيلة ثنائية الأيدى) وتتوج بدماغه ملكاً على كل الكون ، وتسلح بأنامله الناعمة التى هى أحدّ من مخالب السبع الضارى وأخف من جناح الطير المحلق فى الفضاء ، وألطف من زعانف السمكة المنزلجة ، تلك الأنامل التى بمهارتها قد لونته بالملابس كالحرباء ، وأوجدت له الكهرباء كالسمك الكهربائى ، واخترقت له الجبال كالجرذ ، واجتازت به السهول الفسيحة بسرعة تفوق سرعة الغزال ، ونزلت به إلى أعماق البحار كالحيتان لم يكن فى بدء حياته إلا ببيضة صغيرة خرجت من مبيض المرأة والتصقت بالرحم .

والإسفنج ذلك الحيوان المتلوى الشكل المتخذ هيكله مسكناً له يعيش فيه منتظراً القدر الذى يرسل له مع مجارى المياه ما يقتات به . ذلك الحيوان العاجز عن الانتقال ، الذى يترقب حركة الماء لتأتيه بشىء جديد يتغذى به ، أو يتريث حتى يجىء حيوان متنقل يتبادل وإياه المنفعة كالسرطان مثلا[1] — ذلك

---

(١) يدنو السرطان من الإسفنج إلى أن يلتصق به ثم يحمله ويسير به فتعود المنفعة إلى الاثنين . لأن السرطان يستتر بالإسفنج لينجو من عدوه أو ليترصد لفريسته . والإسفنج عند انتقاله على ظهر السرطان يلتهم ما يصادفه من الغذاء فى أثناء رحلته . فيكون مثلهما مثل المقعد والأعمى فى الكرم .

الحيوان الدنىء الرتبة كان أولا ببيضة تشبه ببيضة الإنسان المتسنم أعلى رتب الحيوان .

والجراثيم العائشة فى عالم المجهر . تلك الحيوانات الغير المرئية بالعين المجردة والتى منها ما هو بشكل عصية كجرثومة الحمى التيفوئيدية . وآخر بشكل العنقود كالجرثومة التى تمنع التئام الجروح . وآخر بشكل سلسلة كالتى تسبب حمى النفاس . وأخرى متغيرة الشكل بصورة مستمرة — كالأميبا — كانت كلها فى أول دور من أدوار حياتها ببيضات صغيرة تشبه ببيضة الحوت والإنسان والفيل .

كانت الحيوانات فى الأصل على اختلاف أنواعها ببيضة جامدة . كان الكل ببيضة جامدة كروية وهذه البييضة ليست إلا شكلا عرضياً للحيوان يتخذه واسطة إما لتخليد جنسه أو لتنازع البقاء . وهذه الحالة العرضية هى الخطة الرئيسية التى تجرى عليها الكائنات الحية لتخليد جنسها بالتناسل. فنرى حجم بييضة الفيل وبييضة الذرة واحداً فى الاثنين تقريباً . وبييضة الحوت وبييضة الضفدع يتفقان بالشكل والقياس نوعاً ما . وبييضة الإنسان تماثل بييضة الجراثيم المجهرية تماثلا مدهشاً . نرى كل البييضات الحيوانية واحدة تقريباً . ورغماً عن تباينها عند البلوغ ترتد فى الأصل إلى شكل واحد .

والبييضة أيضاً هى أهم الوسائل التى عرفها الحيوان لتنازع البقاء . فالجراثيم إذا توافرت لها طرق المعيشة وأسباب التكاثر تتوالد بالانشطار أى تنقسم الجرثومة على ذاتها إلى قسمين ، ثم إلى أربعة فثمانية إلخ . لكن إذا تعسر عليها النمو وكان المحيط يميل إلى ملاشاتها فإنها تتحول عندئذ حالا من شكلها الحاضر إلى شكل بييضة . كجرثومة داء الكزاز[1] مثلا التى تتحول فى مثل هذه الظروف من شكل عصية إلى شكل بييضة .

ففائدة هذا التحوّل تكون من عدة وجوه . فالبييضة مفيدة بكرويتها لأن الشكل الكروى لكل جسم هو أصغر حجم يمكن أن يشغله هذا الجسم فى الفضاء ، مفيدة بحالتها الحيوية ، فالبييضة أقدر من الحيوان الذى باضها على احتمال العوامل الملاشية .

أما من جهة التغذية فهى لا تحتاج إلى غذاء على الإطلاق لأن الحياة فيها بطيئة الاحتراق وهى عبارة عن سبات عميق فأفراخ الدجاجة لا تحتمل الجوع أكثر من أسبوع واحد مثلا ثم تموت بعده . لكن بيضها تحيا بغير أكل أسابيع عديدة . فلا تحتاج إلى غذاء وتبقى محافظة على القوة الحيوية طوال الشهور .

وعلى هذا النمط تسير الحيوانات الدنيا . فجراثيم الأمراض عندما تصادف مرعى ناجعاً فى دم الإنسان تنتقل بسرعة من

---

(١) (Bacille de tétanos)

حالة البييضة إلى شكل العصية أو خلافها . ثم تتكاثر بالانشطار إلى أن تشعر بخطر يدهمها كنقص الغذاء أو بعض عوامل المحيط الملاشية فتأخذ حالا شكل بييضة . وعندئذ تمسى غنية عن الغذاء وأقوى على احتمال العوامل المذكورة .

ومقدرة البييضة على الدفاع ضد العوامل الملاشية يعرفها الجرّاحون جيداً ولا سيما عند تعقيم آلاتهم . فبييضة جرثومة الكزاز والمرض الفحمى[1] تتحملان حرارة ١٢٨ درجة سنتغراد فوق الصفر . لكن عصيتهما تموت أكيداً بحرارة درجة الغليان أى درجة المائة فوق الصفر .

٢ ـ الأساطير اليونانية وأصل الإنسان

الأسطورة ليست إلا خرافة أو سلسلة خرافات ملفقة تصف حوادث نسبت إلى كائنات فائقة الطبيعة . كالأرواح أو الجن أو الآلهة أو الأمساخ أو الجبابرة والأسطورة قد وجدت أو بالأحرى توجد عند كل الشعوب . فهى عند الشرقيين كما هى عند الغربيين على حدّ سواء . فالأساطير الهندستانية والصينية والكلدانية لا تختلف عن المصرية واليونانية بشيء

---

(١) (la maladie du charbon.) وهو أحد الأمراض العفنة .

إلا ببعض الأسماء فقط فمآلها كلها واحد تقريباً .

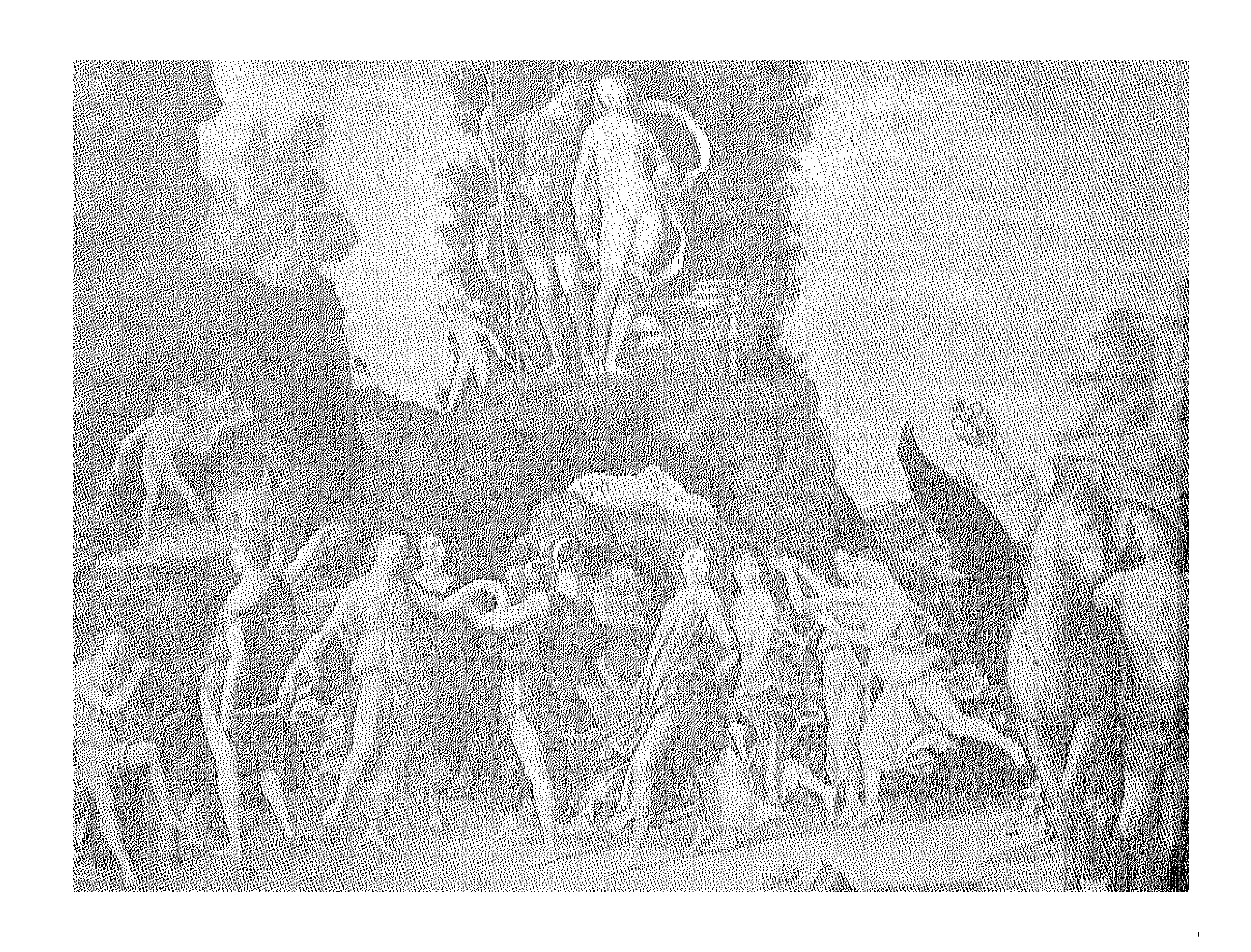
فعليه أكتفي بتلخيص الأساطير اليونانية فقط حسبما نقلها اللاتينيون .

أصل الأساطير

حب الأساطير نشأ عند الإنسان فى البدء مع نمو عقله ، « فهو ميل يحثه دائماً إلى تعليل الحوادث الطبيعية واستكشاف أسرارها . فكان المتوحش يشعر به كالمتمدن . والجاهل كالعالم والفقير كالغنى . كان كل منهم يتساءل عن بدايته ونهايته . عن مصيره بعد الموت . عن ماهية الحياة . عن دوران الكواكب فى الرقيع . عن جريان الفصول . عن هطل الأمطار . عن فيضان الأنهار . عن قصف الرعد وهزيم العواصف . كل ذلك كان يدهشه ويخيفه .

كان الإنسان جاهلاً . لذلك عجز عن تفسيرها تفسيراً معقولا وتاه فى عالم الخيال جاداً فى طلب قوة تساعده على إدراك كنه هذه الأسرار ، فألجأه حبّ الاستفسار إلى تخيل كائنات فائقة الطبيعة نسب إليها كل الحوادث التى أعجزته . صورها على شبهه ومثاله وخصها بمزايا تفوقه بها درجة كالقوة البدنية وكمال الفضائل وما شاكلها وزينها بأخلاق تتغير مع

٢٣



برناس أو جبل الآلهة فى بلاد اليونان القديمة

بينما كان هرمز — إله الفصاحة والتجارة و إله السارقين — فى تأمل عميق مستنداً إلى حصانه المجنح - باكاس — (Pagas) — كانت أفروديت ترأس الحفلة الراقصة و الإلهات الشعر كن يرقصن قمات حلقات . (متحف اللوفر — هاشت)

كل فرد منها . فأصبح هذا التباين باعثاً إلى إثارة الحروب وغيرها من القوى الطبيعية .

أخيراً تأصلت هذه الخيالات فى عقله إلى أن آمن إيماناً



إلهة الحب (الزهرة)

إنها ترضع الصغار المجنحين الحاملين أسهماً يرشقون بها قلوب العباد

(بريشة روبنسن)

ثابتاً فى صحة وجودها . فأضحت ملجأه الوحيد يستمد منه المعونة عند الضعف .

ونلاحظ أيضاً أن كل الجماعات البشرية على اختلاف أوطانها وأزمانها كان مرجعها واحداً بالنسبة للأساطير . فأسلاف الغاليين والرومانيين واليونانيين والمصريين والهنود فسروا الحوادث الطبيعية كما يفسرها الآن سكان أواسط إفريقيا وأستراليا وهنود أميركا الهمجيون . فقد اعتقدوا بأنه لا فرق بين الإنسان والحيوان والنبات . وأقرّوا أن الأشجار والنبات والصخور والقمر والرياح والطيور والأسماك وما يحيط بها كلها متساوية بالحياة والشهوات والفهم والفصاحة وقوة التناسل ومعرفة الخير والشر . وآمنوا بأن السحرة والأنبياء يتصلون مباشرة وحسب مشيئتهم بهذه الكائنات الفائقة الطبيعية المستترة ، إما داخل شجرة السنديان الضخمة أو وراء قرص الشمس الذهبى ، أو فى أعماق لجج البحار . ورأوا من المعقول أن أنفس الموتى تتقمص فتدخل فى أجسام الحيوانات والنباتات أو فى بعض الكواكب .

وبما أن درجة العلم عند الأقدمين تماثل حالة هنود أميركا الحاليين أو سكان أستراليا لذلك نرى أن أساطير أولئك القدماء لا تمتاز عن خرافات هؤلاء ومعتقداتهم على الإطلاق .

لكن نظراً لتفاوت السرعة فى التقدم والرقى اتسع نطاق

الأساطير اليونانية حتى ملأت مجلدات كثيرة . وكانت فى الجيل الثانى عشر قبل المسيح سائدة على كل العلوم . وكان اليونانيون يحترمونها احتراماً دينيًّا ويغالون فى صحة وجودها . وكانوا كلما ازدادت الخرافة غرابة ازدادوا هم إيماناً بها . وبما أن عدد هذه الأساطير لا يحصى اقتصرت على ذكر ما كان منها أهم تعلقاً بالموضوع :

التكوين :

إن أول ما عالجه الأقدمون من الأبحاث كان فى أصل الكون والأرض والسماء والأقيانوس والكواكب والنور والماء والفضاء إلخ . ونظراً لقصورهم عن إدراكها ، تخيلوا لها أشخاصاً فائقة الطبيعة وسموها آلهة وخصوا كل إله بقوة معينة ثم جعلوه مثالا لحادث خاص .

فى البدء كان إله الفضاء كاوو (Chaos) أى الفضاء الممتد الحدود إلى اللانهاية مع المادة بحالة الجمود . ومن كاوو خرجت أولاجيا الأرض (Géa) ثم إله المحبة إيروس (Eros) مبدأ الحب وأساس الخليقة ومثال الجاذبية الذى يربط العناصر كلها ويلصقها بعضها ببعض وبعد ذلك يبعث منها الحياة . ثم اقترن (كاوو) بـ (جيا) . فولدا كل الكون .

كان بكرهما إله الظلمة إيريب (Erèbe) . وبعده جاءت هيميرا إلهة النور (Himeéra) . وبعد تكوين النور ابتدأت الخليقة تنمو تدريجياً بتأثير إيروس (إله الحب) البالغ منتهى الكمال والمالك زمام الآلهة والبشر والذى اقترن بشقيقته جيا (الأرض) فولدا :

أولا : أورانس إله السماء (Ouranas) أى السماء المرصّعة بالكواكب والتى هى مقر الآلهة .

وثانياً : بونتس إله البحار والجبال (Pantos) .

فعادت (جيا) واقترنت ثالثة بابنها الأول (أورانس) فولدت أوسيان إله الأقيانوسات والأنهار (Océan) ثم فيبا (إلهةالشمس Phœbé) المتوجةبالذهب . وبعدهاتيتيس (إلهة الأمواج Thetys) ملكة الأمواج المزبدة . وكرونس (إله الزمان Cronas) . وسيكلوب (Cyclope) إله البرق والرعد والعواصف . وأخيراً ولدت الجبابرة الثلاثة كوتوس (Kottos) وبرياري (Briaré) وجايس (Gyés) ذوى الأجسام الهائلة المسلحة بخمسين رأساً ومائة ذراع وكانوا مثال الشياطين السود والغيوم المتلبدة والظلمة المخيفة حاربوا أباهم أورانس ولم يخضعوا لسلطانه فزجهم فى أحشاء الأرض المحرقة. عندئذ هيجت عاطفةالأمومةغضب والدتهم جيا (الأرض) فتآمرت مع كرونس على اغتيال أورانس ففتكوا به وأفنوا ملكه .

ثم اقترنت جيا للمرة الرابعة بابنها الثانى بونتس (إله البحار والجبال) فولدت كل الآلهة التى تمثل القوى المتوحشة من عوامل البحار والأنهار والينابيع .

واقترن أيضاً كاوو إله الفضاء بـ (نوى Nuit) إلهة الليل وابنة (إبريب إلهة الظلمة) فولدا تناتوس (إله الموت Tanatos) - وهيبنوس (إله النوم Hypnos) والإلاهات الأحلام المتعددة والإلاهات الثلاث اللواتى إحداهن تغزل خيط الحياة والثانية تلفه والثالثه تقطعه بالموت . وولدا أيضاً نيمزيس (إلهة الانتقام Némésis) والإلاهات الشيخوخة والفتنة والخداع والفسق . أى رموز كل العواطف والمبادئ التى تتعلق مباشرة بكيان الإنسان والذى سيأتى بعد الآلهة عاجلا .

وبعيد اضمحلال ملك أورانس حل محله سلطان كورونوس (إله الزمان) الذى اقترن بأخته ريا (ابنة أورانس وإلهة الأرض Rhéa) التى ولدت هاديس (إله جهنم Hadès) ونبتون (إله البحر Neptune) وزيوس (أبا الآلهة والبشر Zeus) .

وبما أن كرونس قد فتك بأبيه كان يوجس خيفة فى نفسه من أولاده فتدبر الأمر بحكمة . وارتأى أن يبتلعهم واحداً واحداً حالا عقب الولادة . ولكن رغماً من اتخاذه كل التدابير اللازمة قد نجا واحد منهم فقط . وهو زيوس الذى اختلسته والدته ريا

وفرت به فى جنح الليل المظلم إلى كريت (جزيرة كبيرة فى بحر آجيا قرب بلاد اليونان) حيث استقرت على قمة الجبل (إيدا) وهناك أودعت طفلها إلى جيا (الأرض) التى خبأته فى أعماق أحد الكهوف ثم رجعت إلى بعلها كرونس وقدمت له



كرونس يفترس أولاده

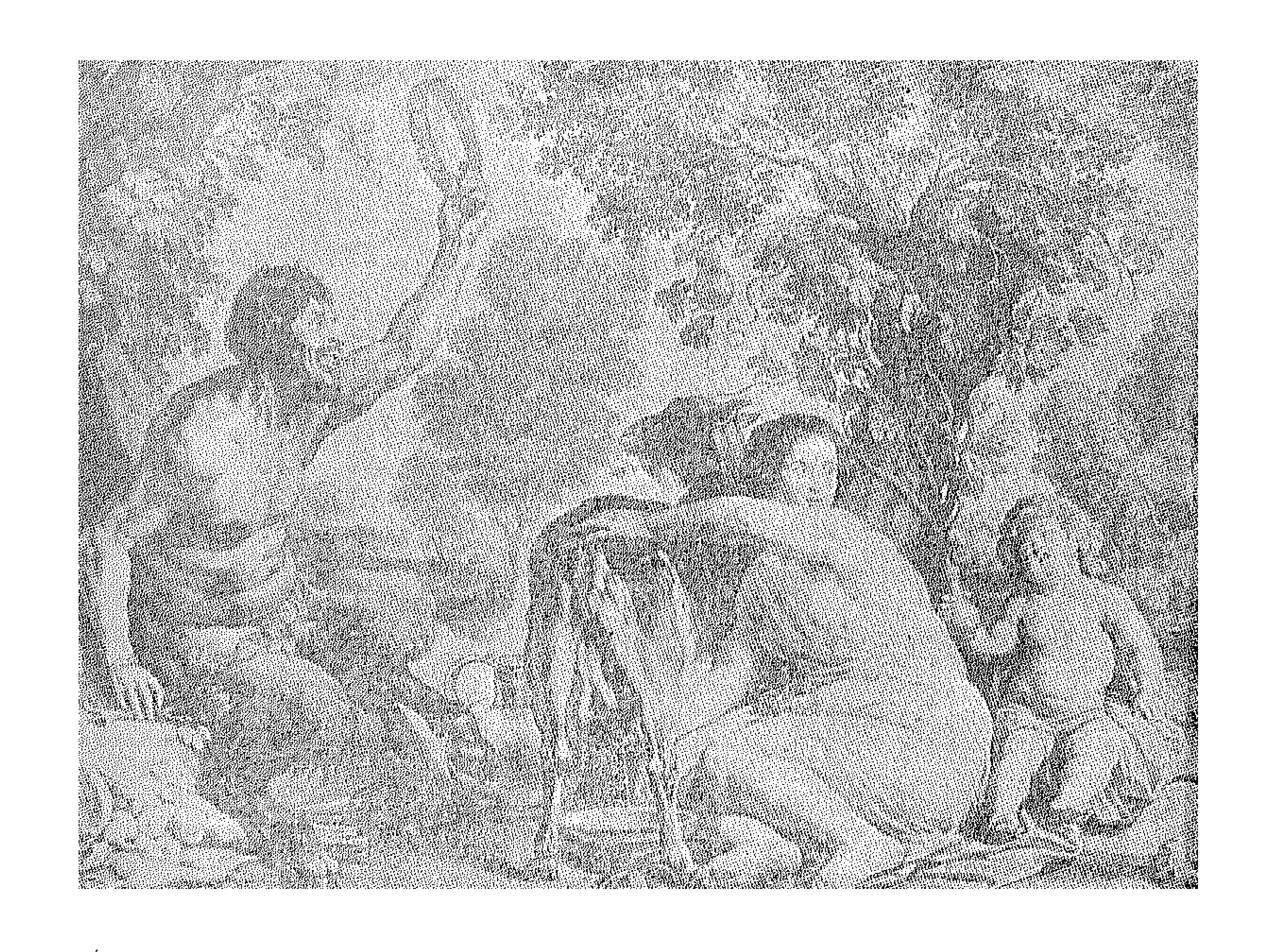
صخرة أدرجتها بالقماط فابتلعها اعتقاداً منه بأنها المولود الجديد لكنه لم يعلم أن ابنه هذا سيقهره يوماً ما ويستولى على ملكه .

وفعلاً كان زيوس يكبر يوماً فيوماً مستتراً وراء أشجار الغابات الكثيفة حيث كانت العنزة (أمالته Amalthée) تعوله بحليبها وحيث كان كوريت (كهنة بنت السماء Curètes) ينقرون على الدفوف لكى يخفوا صراخه .

وعند ما بلغ زيوس أشده تغلب على والده وأكرهه على أن يتقيأ الصخرة وكل أولاده الذين قد ابتلعهم . ثم طرده من السماء وزجه فى أعماق الكون أسيراً يضغط عليه ثقل الأرض والبحار .

حينئذ صفا الزمان لزيوس فأسس مملكته على جبال الأولمب (Olympes) مقرّ الآلهة حيث يحيط به كل إخوته ويحرسونه. لكن الجبابرة (تيتان — أبناء جيا وأورانس Titans) كانوا يناوئونه بين آن وآخر . فحاربهم بالصواعق والبرق ومن جراء هذه الحرب نشأت الأرض والسماء والبحار . واستمر على هذه الحال إلى أن تغلب عليهم وسجنهم تحت أثقال البراكين (الجبال النارية) حيث يهيجون أحياناً فيحدثون الزلازل وانفجار الجبال النارية وما شاكلها من الحوادث التى تعترى الكرة الأرضية .

وهكذا بواسطة هذه الأساطير توصّل الأقدمون إلى تفسير الحوادث الطبيعية تفسيراً آمنوا بصحته إيماناً ثابتاً .



زيوس تعوله حورن

اختلسته والدته وفرت به من وجه أبيه كرونس (إله الزمان) الذى كان يفترس أولاده حالا عقب الولادة وذلك صيانة لملكه . وطارت به فى جنح الليل المظلم إلى جزيرة كريت حيث استقرت على قمة جبل (إيدا). وهناك أودعته جيا (الأرض) التى خبأته فى أعماق أحد الكهوف. ثم كلفت الحور تربيته . فشرع ينمو مستقراً وراء أشجار الغابات الكثيفة حيث النحل يغذيه بالعسل . والعنز (أمالته) تعوله بحليبها . بينما كوريت (كهنة بنت السماء) كانوا يوقعون النقر على الدفوف ليستروا صراخه . والأمساخ (ساتير [1]) يسلونه بمساخرهم .

---

(١) ساتير (Satyre) إله الخيال والخرافة . وهو مسخ ذو جسم إنس وقوائم ماعز .

خلق الإنسان :

خلق الإنسان مع الآلهة وهو أيضاً مثلهم ابن جيا (الأرض). إذ تشققت جذوع السنديان فخرج منها عندئذ الإنسان الأول . لكن هذا القول ليس بواحد عند كل الأساطير . فبعضها يصرّح بأن زيوس (أبا الآلهة والبشر) جبل المرأة الأولى من التراب ثم زينتها مينرڤا (إلاهة الحكمة) وأفروديت (إحدى إلاهات ــ الجمال) والشاريت (إلهات النعم Charites) والأور (إلهات ــ الفصول ــ Heures). ثم زفها إلى زوجها إيبماتى Epiméthée) فأصبحت أم البشر جميعهم .

وبعد ذلك الحين قضى البشر من الحياة أطيبها فكانوا عائشين فى عصرهم الذهبى . كانوا مثل الآلهة بعيدين عن كل الهموم والآلام والموت ، كانت الأرض تعطيهم خيراتها دون أن تكلفهم عناء العمل . كانوا متمتعين بالسعادة الأبدية .

أخيراً اضمحل هذا الجيل فعقبه العصر الفضى . فكان أبناء هذه السلالة ضعفاء خاملين . وكانت معظم حياتهم تنقضى بطفولة سقيمة . فسخر لهم زيوس أرواحاً لحراستهم تسهر عليهم وعلى أعمالهم وتجازيهم على فضائلهم . وكان برومتى (promethée) أخو أبيهم (إيبيماتى) قد اختلس فى تلك الأثناء من زيوس

النيران الأبدية ، فسطعت منها الأنوار على أبناء هذا الجيل وكانت لهم مثالا للتقدم المستمر . عندئذ تخلصوا من حالة الجمود والأسر وتفننوا فى طرق التعدين . فأوجدوا لهم الأسلحة ليدافعوا بها عن أنفسهم .

ثم عقبه العصر النحاسى . وكان القوم قد ورثوا من أسلافهم المعدات والأسلحة النحاسية وتحصنوا فى مآو نحاسية فاستطاعوا عندئذ أن يميزوا بين الضعف والقوة فتمرّدوا على الآلهة وكفوا عن تقديم واجبات العبادة على مذابح هياكلهم .

كان زيوس يراقب كل أعمالهم فاستاء جداً من هذا الكفر باسمه . فسخط على (برومثى) وسمره على قمة جبل القوقاز وسلط عليه نسراً ينهش كبده الخالد إلى الأبد . ثم حلّ قيود الأمواج فزحفت على اليابسة إلى أن غطت رؤوس الجبال الشاهقة . فغرق كل البشر فى الطوفان إلا (ديكاليون — Deucalion) بن برومثى وامرأته — بيرا Pyrrha) فقد نجوا من الغرق .

وبعد انسحاب الماء ارتد ديكاليون وامرأته عن كفرهما ورجعا إلى عبادة زيوس فقدما له القرابين وطلبا منه أن يعيد إلى قيد الحياة من قد هلك من البشر فرأف بهما ونشر الأموات . فأشارت عليهما تيميس (إلهة العدالة — Thémis) أن يطرحا وراءهما وهما ساتران وجهيهما — عظام والدتهما أى حجارة يقتلعونها من جيا (الأرض)

فاستحالت الحجارة التي كان يطرحها ديكاليون إلى رجال وحجارة بيرا إلى نساء .

وبعد ذلك جاء العصر الحديدى أى عصرنا الحالى . فكانت الشرارة الإلهية التي وهبها برومتى للبشر تنعش البشرية الجديدة وتهديها إلى معرفة الخير والشر وترقيها تدريجاً إلى أن يأتى يوم تتساوى فيه الآلهة والبشر . عندئذ يسترد الإنسان السعادة الأبدية التي قد أضاعها ، ويتمتع بالعصر الذهبى الأول .

هذا هو مختصر أهم الأساطير اليونانية التي تتعلق بالبحث عن أصل الإنسان .

٣ ـ النشوء وأصل الإنسان

لنرجع الآن إلى سير التطور فى البحث عن أصل الإنسان. فعند ما جاء موسى ونشر تعاليمه فى سفر التكوين باحثاً عن أصل الإنسان والكون اعتقد الناس فى موحياته هذه . واستمر هذا الاعتقاد سائداً إلى أن ظهر (دروين) فى القرن الثامن عشر مبشراً بنظرية النشوء . فبحث عن أصل الإنسان متخذاً طريقاً غير الطريق الذى سلكه زرادشت وكنفوشيوس وبرهما وموسى ، أى غير الوحى والتنزيل .

لكن أول من افترض نشوء الحيوانات هو أرسطاطاليس .

فقال بنشوء العضويات العليا تدرجاً من صور دنيا، وإن فى الطبيعة مبدأ يسوقها نحو الكمال . أما كلامه هذا فلم يتجاوز حد الذكر فقط وبعد ذلك أصبح نسياً منسياً .

ولما كثر اللاهوتيون وشرعوا يفسرون سفر التكوين وأعملوا العقل والمنطق باحثين عن طريقة خلق الإنسان والحيوان لاحظوا ما لاحظه القديس أغوسطينوس حيث قال فى تعليقاته على سفر التكوين : « لو افترضنا أن الله جبل الإنسان من التراب بواسطة يدين عضويتين ذات أنامل وأظافر لكان افتراضنا نتيجة فكرة صبيانية . فإن الله لم يخلق الإنسان بواسطة يدين عضويتين ولم ينفخ على وجهه بواسطة حلقوم أو شفتين عضويتين أيضاً . »

ولما تقدم علم الحيوان واكتشفت ألوف الأنواع رأوا من الصعب جداً التوفيق بينها وبين القول فى حملها فى سفينة نوح . ثم اكتشف الكانغورو فى أستراليا ذلك الحيوان الذى لا يوجد إلا فى هذه القارة فازداد الأمر إشكالا . عندئذ حار اللاهوتيون فى تعليل وجود هذا الحيوان فى سفينة نوح واجتيازه بعد الطوفان فى البحر تلك المسافة الشاسعة التى تفصل آسيا عن أستراليا وامتناع باقى الحيوانات المختصة بقارة آسيا (كالجمال) وخلافها عن اللحاق به إلى تلك الناحية من الكرة الأرضية .

لكن القديس توما اللاهوتى جاء بتفسير آخر ، قال فيه :

« ما من شيء خلقه الله بعد الأيام الستة الأولى من أيام الخلق وكان جديدا بمعنى الجدة بل لابد من أن يكون مندمجاً فى الأعمال التى تمت فى تلك الأيام الستة. فالأنواع الجديدة التى تظهر بعد هذا الحين لابد من أن تكون قد وجدت فى خصائص معينة ضمن أنواع المخلوقات التى سبقتها بعض الحيوانات من المواد المنحلة».

ثم نشر فى سنة ١٧٤٨ كتاب للعلامة بنوادى ميليه (Benoît De Maillet) يقول فيه : «إن أنواع الحيوانات الحاضرة قد تحولت بتغيير أعضائها تدريجاً عن أنواع أخرى» .

وفى أواخر القرن الثامن عشر قام العلامة لينيوس عند بلوغه سن الشيخوخة مبشراً بأن الأجناس المتعددة لم تكن فى البدء إلا نوعا واحداً .

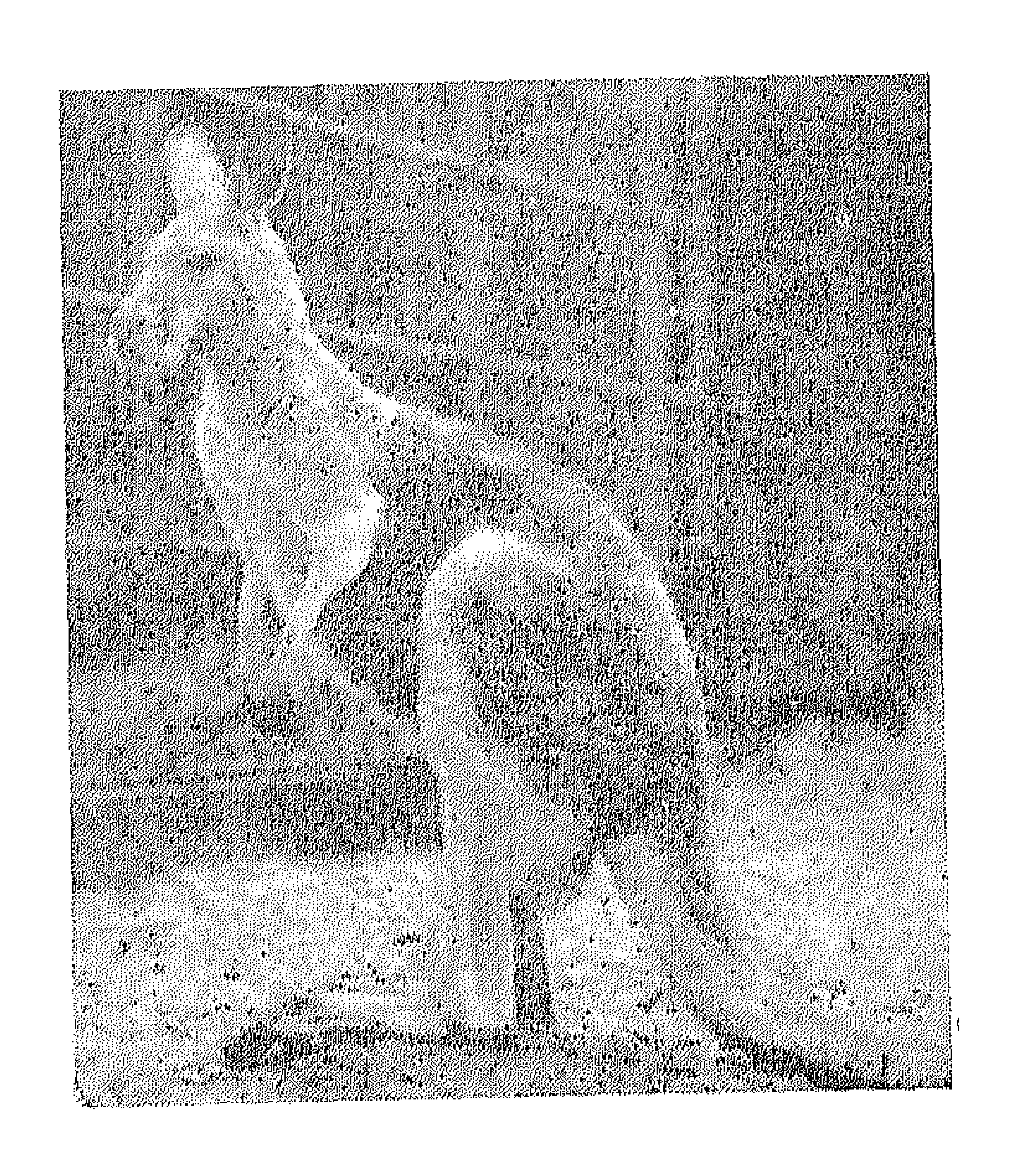
وفى أوائل القرن التاسع عشر أعلن الأستاذ ويلز (Wells) نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعى .

وفى أوائل شهر تموز (يوليو) سنة ١٨٥٨ ألقى داروين محاضرته الشهيرة التى بين فيها نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعى ، وبعد ذلك أصدر كتابه « أصل الأنواع » الذى أيد فيه ثلاث نظريات وهى :

أولا : التنازع على البقاء .

ثانياً : بقاء الأصلح :

ثالثاً : انتقال الصفات إلى النسل بواسطة الوراثة . مستنداً



الكانغورو حيوان لا يوجد إلا فى قارة أستراليا

فى ذلك إلى الأبحاث التى قام بها فى تلقيح بعض النباتات أو إلى الاكتشافات التى ظهرت فى علم الأجنة (أمريولوجيا) .

ثم توالت الاكتشافات والنظريات التى تؤيد مبدأ النشوء ومن جملتها أبحاث هيكسلى ومولر وهيكل وغيرهم .

هذا مختصر بعض ما توصلت إليه المدنيات البشرية فى البحث عن أصل الإنسان منذ ابتداء التأريخ حتى يومنا هذا .

الفصل الثانى

كيف تتناسل الحيوانات

إن العلماء قد قسموا الحيوانات بالنسبة إلى الطريقة التى تتناسل بها إلى ضربين : ولودة أى يخرج صغيرها من الأنثى كامل النشوء كالبقر مثلا . وبيوضة أى يخرج الصغير من بطن الأم قبل نشوئه الكامل لكنه مجهز بكل ما يحتاج إليه من الأغذية اللازمة له فى أثناء تطوره إلى أن يبلغ آخر درجة من نموّه ، كالدجاجة مثلا .

لكن لو استقصينا الأمر فى كيفية تناسل الحيوانات لوجدناها كلها بيوضة ، أى أن كل إناث الحيوانات ولودة كانت أو خلافه تبيض صغارها بيضاً . وبعد خروج البييضة من مبيض الأنثى يتم لقاحها فى عضو آخر يكون بجانبه . وبعد ذلك يختلف سير التناسل مع اختلاف الحيوان فيتفرع إلى ثلاث خطط رئيسية :

فإما أن تلتصق هذه البييضة الصغيرة فى عضو خاص مجهز لاستقبالها ويدعى الرحم ، فيتولد هنالك شرايين وأوردة

جديدة وعضو جديد يدعى المشيمة ، ثم تتصل هذه البييضة بدم الأم ، وبعدها ينمو الجنين فى الرحم إلى أن يكمل نشوءه فيقذفه الرحم خارجاً ، فيقال عندئذ أن الأنثى قد ولدت صغيراً. وهذه السنة التناسلية هى طبيعية شأن كل الحيوانات اللبونة فيطلق عليها اسم الولودة ، ومن جملتها الإنسان والقرد والبقر والسباع وغيرها من الحيوانات التى ترضع إرضاعاً .

وإما أن يتجمع حول البييضة بعد اللقاح مواد زلالية أو ما شاكلها من المواد الغذائية اللازمة لنشوء الجنين . ثم يحيط بكل هذه المواد غشاء صلب وأحياناً جامد يدعى (القشرة) . وهذا الغشاء يقى البييضة من تأثير العوامل الخارجية . فتتشكل عندئذ البيضة الكاملة ، وبعدها تبيضها الأنثى قبل ابتداء نمو الجنين فى داخلها . ثم يتم نشوءه فى هذه البيضة خارجاً عن جسم الأنثى ، وهذه الحيوانات تدعى بيوضة .

وتتغير كمية هذه المواد الغذائية الموجودة داخل البيضة بتغير أنواع الحيوان . فكلما كان الجنين ضخم الجثة كانت البيضة كبيرة الحجم . ومع ذلك فهى لا تمتاز عن بيضة الحيوانات الولودة إلا بكمية المواد الغذائية فبيضة الدجاجة هى أضعاف بييضة المرأة مع أن الاثنتين تتفقان فى التركيب على أن الفرق ينحصر فقط فى المادة الزلالية التى توجد فى بيضة الدجاج دون

ببيضة المرأة . والزلال هو لفرخ الدجاجة مثل الدم للجنين عند المرأة .

أما الطريقة الثالثة فتتوسط بين الاثنتين الأوليين . فهى تشبه البيوضة لأن الأنثى تبيض البيضة كاملة ثم يتم نشوء الجنين فيها مكتفياً بما يحيط به من المواد الغذائية وغنياً عن دم الأم . وهى تماثل الولودة أيضاً لأن الحضانة تتم فى عضو داخل جسم الأم . بيد أن وظيفة هذا العضو ليست كوظيفة الرحم لأن الجنين والبيضة يبقيان منفصلين عن الرحم انفصالا تاماً ولا يستخدمان هذا العضو إلا كملجأ فقط . أى لا يتصل دم الجنين بدم الأم على الإطلاق . وبعد انتهاء مدة الحضانة يخرج الجنين من البيضة فيتوهم الناظر أن هذه الأنثى قد ولدت ولادة كما تلد إناث اللبونة . وهذا خطأ ، فبعض الأفاعى والزحافات والبرمائية [١] كالضفادع ، والصدفيات [٢] وكثير من الديدان الطفيلية [٣] وصلبان البحر [٤] . وبعض أنواع الذباب والتريخين [٥]

---

(١) الحيوانات التى تعيش على اليابسة وفى الماء كالضفادع .

(٢) الأصداف البحرية .

(٣) ديدان الأمعاء .

(٤) حيوانات مائية من الشعاعيات تكون بشكل صليب.

(٥) الديدان التى تعيش فى لحم الخنزير وتسبب داء قتالا عضالا لا يمكن شفاؤه .

تتناسل بهذه الطريقة .

وملخص البحث هو أن الحيوانات كلها بيوضة ؛ وأن أصل جميع الحيوانات هو البييضة . فإما أن تكون هذه البييضة كبيرة الحجم أى محتوية على الجرثومة الحيوية وعلى كل ما تحتاج إليه من الغذاء لغاية نهاية التطور أى إلى أن تغدو حيواناً كاملا ؛ فهذه تدعى البيضة المركبة كبيضة الدجاجة مثلا . وإما أن تكون مجردة من المواد الغذائية ولا تحتوى إلا على الجرثومة الحيوية فقط ، فهذه تدعى البيضة البسيطة أو البييضة . كبييضة المرأة مثلا . فعليه تعتبر كل الإناث على الإطلاق بيوضة . فالمرأة تبيض فى كل ثمانية وعشرين يوماً بيضة واحدة . والدجاجة تبيض طوال أيام الربيع والصيف كل يوم بيضة . والحمامة تبيض فى كل شهر زوجاً ، وقس عليه .

١ ــ الطور الأول

الإنسان والأميبا[١]

أو الإنسان فى طبقة ذوات الخلية الواحدة

إن الرجل الذى ينيف وزنه على الخمسين أقة يتركب من كائنات حية صغيرة لا تبصر بالعين المجردة وتكون مركبة من

(١) Amibe

نواة تحيط بها الهيولى وكلاهما داخل غشاء رقيق يدعى الغمد . وهذا الكائن بكامله هو ما يعرف بالخلية[١] فهى بتكاثرها ونموّها تكون جميع الأجسام العضوية نباتية كانت أم حيوانية كالإنسان والحيوان والأشجار والنباتات وغيرها ، وهذه الخلية يتغير شكلها بالنسبة إلى الأعضاء وأنواعها . فالخلية العصبية تتشعب وتمتد تشعباتها من المراكز العصبية كالدماغ والحبل الشوكى إلى كل أطراف الجسم . أما الخلية المتكونة فى مبيض المرأة فهى مستديرة الشكل وكروية نوعاً ما .

ولم يكن الإنسان فى بدء تكونه إلا خلية بسيطة صغيرة . وما هذا الكائن الصغير إلا بيضة المرأة (وهى العنصر المؤنث) التى عندما تلتقى فى نفير فالوب قرب الرحم بحييون المنى[٢] (وهو العنصر المذكر) تجذبه نحوها . وعلى أثر اختراقه لها يحدث اختلاطهما معاً . ومن ثم يتجزأ حييون المنى ويتحد مع جويصل الإنتاش وآنئذ تتكون البزرة أو الخلية الأولى التى هى الأساس الأول لجميع الكائنات الحية . وأخيراً تتجزأ البزرة وتنقسم على ذاتها فتغدو خليتين وهكذا ينقسم كل فرد إلى اثنين حتى ينتهى بناء الجنين . وكل هذه الحوادث تسمى فعل اللقاح .

فنستنتج من كل ما تقدم أن الإنسان قد قضى ردحاً

---

(١) Cellule

(٢) Spermatozoide

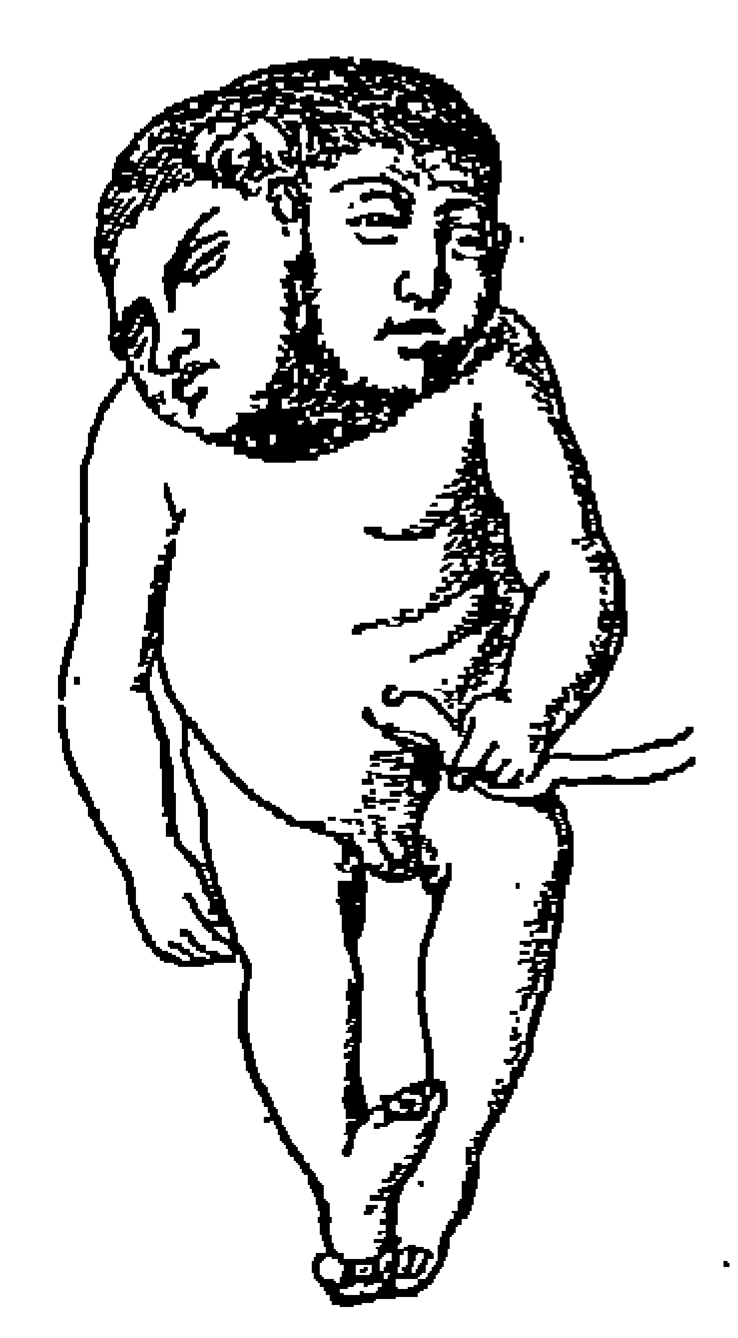
من حياته لم يكن فيه إلا خلية واحدة فقط . ولم يمتز حينذاك لا فى معيشته ولا فى تشريحه عن ذوات الخلية الواحدة .

فلو قابلنا بين تشريح الأميبا وبين تشريح الإنسان فى طوره الأول لألفيناها لا تختلف عنه بصفة من الصفات المختصة به أو بميزة من الميزات التى يتمتع بها . فكما أن الإنسان فى هذا الطور يتركب من خلية واحدة تشتمل على النواة ويحيط بها الهيولى كذلك نجد أن الأميبا تتكون من خلية واحدة داخلها النواة وحولها الهيولى معدومة من جميع الأجهزة التنفسية والهضمية والعصبية والدموية التى للحيوانات العليا. تمتص غذاءها من الأشياء التى تدنو منها مصادفة مع المحيط ، ولا تعيش إلا فى المواد الرطبة.

كذلك الإنسان فقد كان فاقداً لجميع هذه الأجهزة يمتص بعض غذائه مما يحيط به من إفرازات أغشية الأعضاء التناسلية ولا يقدر على المعيشة إلا فى المواد الرطبة . وبالأحرى كان كالجماد تديره يد الأقدار كيفما شاءت ، وهو لا يفقه من ذلك شيئاً . فتنازع البقاء وحب الذات لم يكونا موجودين ليمنحاه شيئاً من وسائل الدفاع . كان ضعيفاً لاحول له ولا قوة وكان إذا جبهه فى سبيله أقل قوة فإنها تقضى عليه وتحرمه الحياة وترجعه من حيث أتى . كتلة صغيرة متجمعة من أوساخ الرحم تسد أمامه نفير (فالوب) وتقف فى وجهه عقبة كأداء وتحرمه الحياة .

وخلاصة القول أن الإنسان فى طوره الأول لا يمتاز بمعيشته ولا بتشريحه ولا بصفاته عن ذوات الخلية الواحدة (كالأميبا مثلا) نصيبه فى هذا الطور من الحياة نصيب بقية هذا النوع المنحط المحروم عظمة الإنسان ومجده .

فلو قدر أن يتم تلقيح البييضة بحييوانَىْ منى بدلا من واحد فقط ففى هذه الحالة يتكون جنينان فى الرحم . ونظراً لضيق المكان فى الرحم وطوعاً لتنازع البقاء ينمو أحدهما أكثر من الآخر فيتغلب على أخيه . فإما يميته وعندئذ يعيش حراً وليس من مزاحم يزاحمه ويقاسمه الغذاء ، أو يضيق عليه فقط فيعيشان معاً . إلى أن يخرجا خارج الرحم حيين .



إينوديم (Inodime)
أى جسم واحد ذو رأسين

وفى بعض الأحيان يلتف حوله ويحفظه داخل أحشائه كما حصل لتلك الابنة التى رجمت لأنها أفرزت من بطنها هيكلا عظميا وهى فى الثالثة عشرة من عمرها فظنوه ابنها وبالحقيقة لم يكن إلا أخاها الذى قتلته لما كان جنيناً . وسبب ذلك هو أنه لما كانا فى ابتداء نموهما مات أحدهما وبقى الآخر مستمراً فى نشوئه.

فلضيق المكان اضطرت هذه الابنة حينئذ أن تلتف حول رفيقها فتحول بعد موته إلى هيكل عظمى صغير للغاية . وهكذا حفظته بين الجلد وطبقات العضل فى جدار بطنها الأمامى . وبعد بلوغ الثالثة عشرة من عمرها أثرت عندئذ هذه الكتلة العظمية فى الأعضاء المحيطة بها فسببت شبه دمل (خراج) ومن جرائه تقرح الجلد وانشق . فخرج الهيكل العظمى الصغير منه .

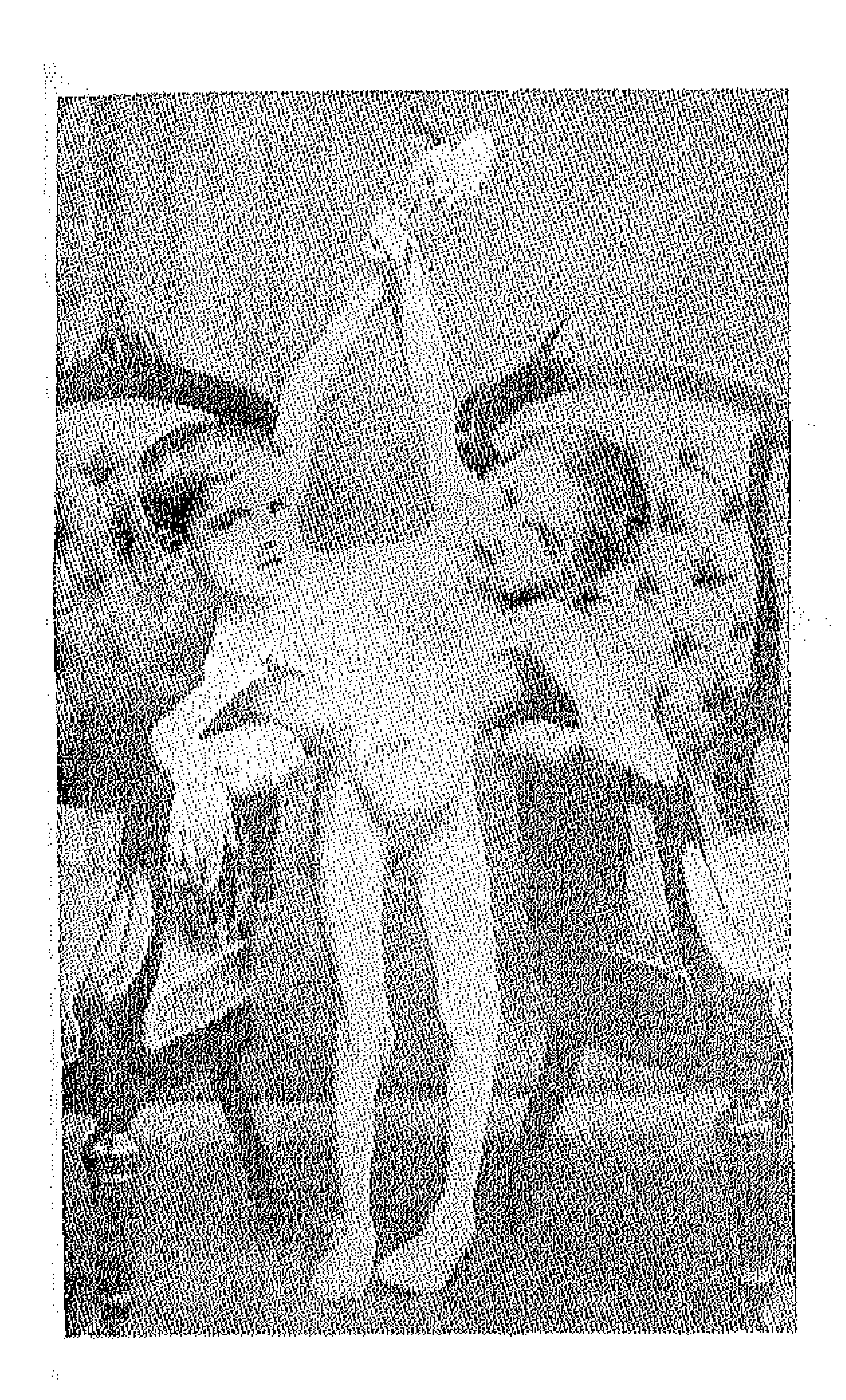
وهذا التنازع يمكن حدوثه فى كل أطوار الحياة الجنينية فلو لم يتح لأحد الجنينين إماتة الآخر مثلا فإنه يضيق عليه فقط تضييقاً يمنعه من المعيشة وحده فيلتصقان معاً وبهذا الالتصاق يتعسر على بعض الأعضاء النمو فيولدان أمساخاً [١] .

وقد لا يبقى من الجنين الأول إلا الرأس ملتصقاً برفيقه . فيصبحان بهذه الحالة جسما واحداً ذا رأسين وهذا ما يدعى بلسان الطب إينيوديم (Inodime) أى جسم ذو رأسين . وفى بعض الأحيان لا يختفى منه إلا الرأس فقط فيؤلفان جسمين برأس واحد ويدعيان (اشتراك أخوين) وبلسان الطب هيتراداف

---

(١) ملاحظة : المسخ (Monstruosité) هو شذوذ يطرأ على سير نمو الأجنة داخل البيضة أثناء الحضانة فى الرحم عند اللبونة أو خارجاً عنه عند البيوضة فيمسخ الأجنة مسخاً أى يحول صورتها إلى أقبح منها كما يقال مثلا : مسخه الله قرداً ؛ وكما قد استبان لنا أيضاً من البحث الأخير .

(Hétéradelphe) أو يضمحل منه نصفه السفلى كله فيتكون شخصان بصدرين وأربع أذرع ورأسين وتكون باقى الأعضاء كما فى الفرد فيطلق عليه لفظة (توأم ذى رقبتين) وبلسان الطب ديروديم (Dérodyme) .



ديروديم (Dérodyme)
أو توأم ذو رقبتين



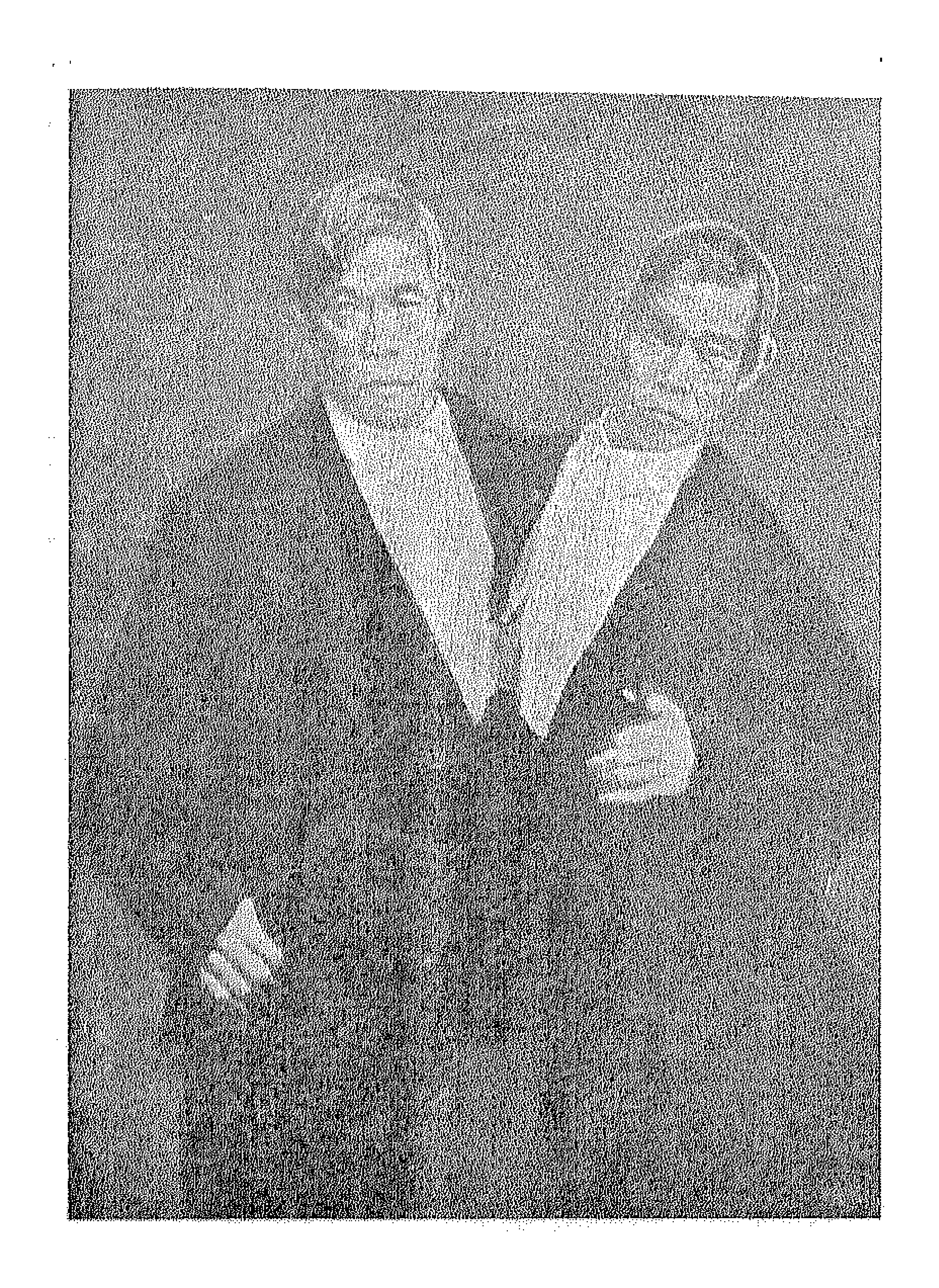
هيترادلف (Heteradelphe)
يطلق على المسخ الذى يتألف
من جسمين و رأس واحد

أو يذهب الثانى بكامله ويستعاض عنه برجل واحدة وهذا النوع من المسخ يسمى (عضو فى الردف) وفى اللاتينية بكوميل (Pygomèle) والرسم المنشور لهذا النوع من الأمساخ هو لرجل إيطالى كان يدعى (فرنك لنتينى) وكان له اثنا عشر أخاً وكلهم ذوو بنية تامة ثم تزوج أيضاً وولدت امرأته ولداً صحيح البنية.



المسخ المسمى بيكوميل

أو يلتصقان فقط التصاقاً سطحياً ويحفظان كل أعضائهما فيكون هذا الالتصاق إما بصدريهما كالأخوين السياميين — أنغ وشنغ — ويدعيان (متصلين بالقص) وبلسان الطب إكسيفوباج (Xiphopage)



الأخوان السياميان

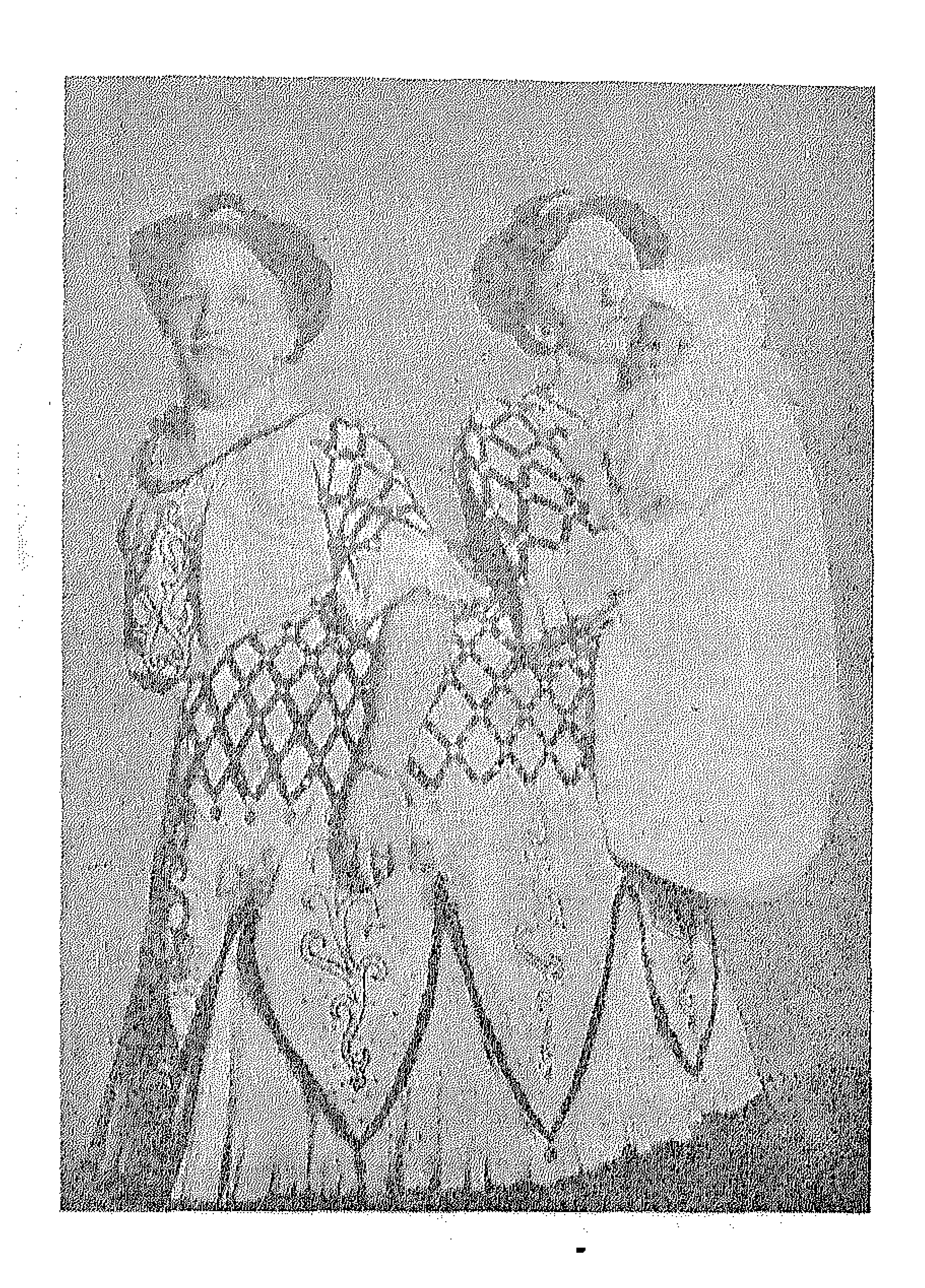
وقد كان هذان الأخوان متحدين بواسطة جلد الصدر الذى استطال مع السن . تحت تأثير الجذب ؛ فلذلك أصبحا قادرين على الوقوف أحدهما بجانب الآخر . ومن غريب أمرهما أنهما كانا مشتركين فى الحس عند لمس القسم الوسط من الغشاء الواصل ، وإذا مال اللمس لجهة أحدهما لا يعود يشعر به الآخر .

وينقل عنهما على سبيل الفكاهة أنهما كانا مختلفى الطباع ، فشانغ كان بشوشاً طلق المحيا ، وأنغ عبوساً حزيناً ، وتزوجا أختين فالأولى ولدت ستة أولاد والثانية سبعة. وكانوا كلهم متمتعين بصحة جيدة .

ومن لطائف أخبارهما أن أنغ كان محباً للدرس والمطالعة مجتنباً الهزل والسخرية رصيناً وقوراً . وبعكسه شنغ فقد كان ميالا للهو والطرب سكيراً مغرماً بالمداعبة والفضول .

وفى سنة ١٨٥٤ توفى شنغ على أثر نزلة صدرية ومات أنغ بعد أخيه بساعات قلائل دون أن يتأثر بمرض أخيه . وحسب رأى الأستاذ (بودان) أنه لو كان أجرى الكشف على الجثتين لكان ظهر أن الدورة الدموية عند الاثنين كانت واحدة ولذلك توفى الثانى على أثر موت الأول .

ويكون الاتصال بالردف أيضاً كالأختين (روزا) و(جوزيفا) وتدعيان (متصلتين بالردف) وبلسان الطب بيكوباج (Pygopage)



الأختان روزا وجوزيفا المتصلتان بردفيهما

أو لا يتصلان إلا بجلد ذراعيهما فقط فيكون للاثنتين ثلاث أيد لا غير ويطلق عليهما اسم (متصلتين بالجلد) وبلسان الطب إكتوباج (Ectopages) أو يشتركان فى رأسيهما وصدريهما وليس لهما إلا رجلان فقط ويدعيان بلسان الطب جانيسبس (Janiceps)

والخلاصة هى أنه يمكننا القول بأن الإنسان الذى ذلل جميع الصعاب وغاص البحار وامتطى السحاب وكشف مكنونات الطبيعة يعد وهو فى طوره الأول نوعاً من أنواع طبقة ذوات الخلية الواحدة . ولا يختلف عنها إلا بصفات سطحية طفيفة ، فهو أشبه بالأميبا أكثر منه بباقى أخواتها (أى أنواع حيوانات هذه الطبقة) .

٢ — الطور الثانى

الإنسان والهيدرا

أو الإنسان فى طبقة الحيوانات الجوفية

على أثر تلقيح البييضة بحييوان المنى يحدث من امتزاجهما أفعال المجاذبة ، وعندها تتجزأ نواة الخلية وتنقسم أجزاؤها إلى قسمين وذلك أن البييضة تنتقل من حالة الخلية الواحدة إلى خليتين ثم إلى أربع فثمان إلى أن تتجاوز الألوف .

وعقيب هذا التجزؤ تتنسق هذه الخلايا وتصف على جدران البييضة تاركة في الوسط فراغاً مملوءاً بالمادة المغذية . فتكوّن بشكلها كرة مجوفة وتدعى الكتلة المبزرة أو (النطفة) وبعد ذلك تندمج هذه النطفة في ذاتها فتأخذ شكل قارورة وتسمى عندئذ العلقة أو المعيدة (Gastrula) ومن هذا الاندماج تتولد ثلاث طبقات :

أولا : الجليد الخارجي وهو الذى سوف يولد الجلد وغدده والجهاز العصبي والحواس الخمس وأغشية الفم والأنف والعين والأمعاء .

ثانياً : الجليد الداخلي .

ثالثاً : الجليد الوسط الذى يتكوّن بين الجليدين الداخلي والخارجي . فالجليدان الداخلي والوسط هما اللذان ينشئان كل ما تبقى من أعضاء الجسم . وهذه الطبقات بأجمعها تتغذى من المائع المتجمع داخل العلقة البشرية .. ليس الإنسان في هذا الطور إلا عدة خلايا انتظمت بشكل قارورة وكل واحدة من هذه الخلايا سوف تعطى في المستقبل عضوا كاملا في الجسم فهي كالفعلة الذين يقتسمون ما بينهم وظائف بناء الجنين وهي أيضاً تأتي بأعمال دقيقة الصنع يعجز أمهر الفنانين عن تقليدها .

فالإنسان في طوره الثاني لا يمتاز بخاصة ما عن حيوانات

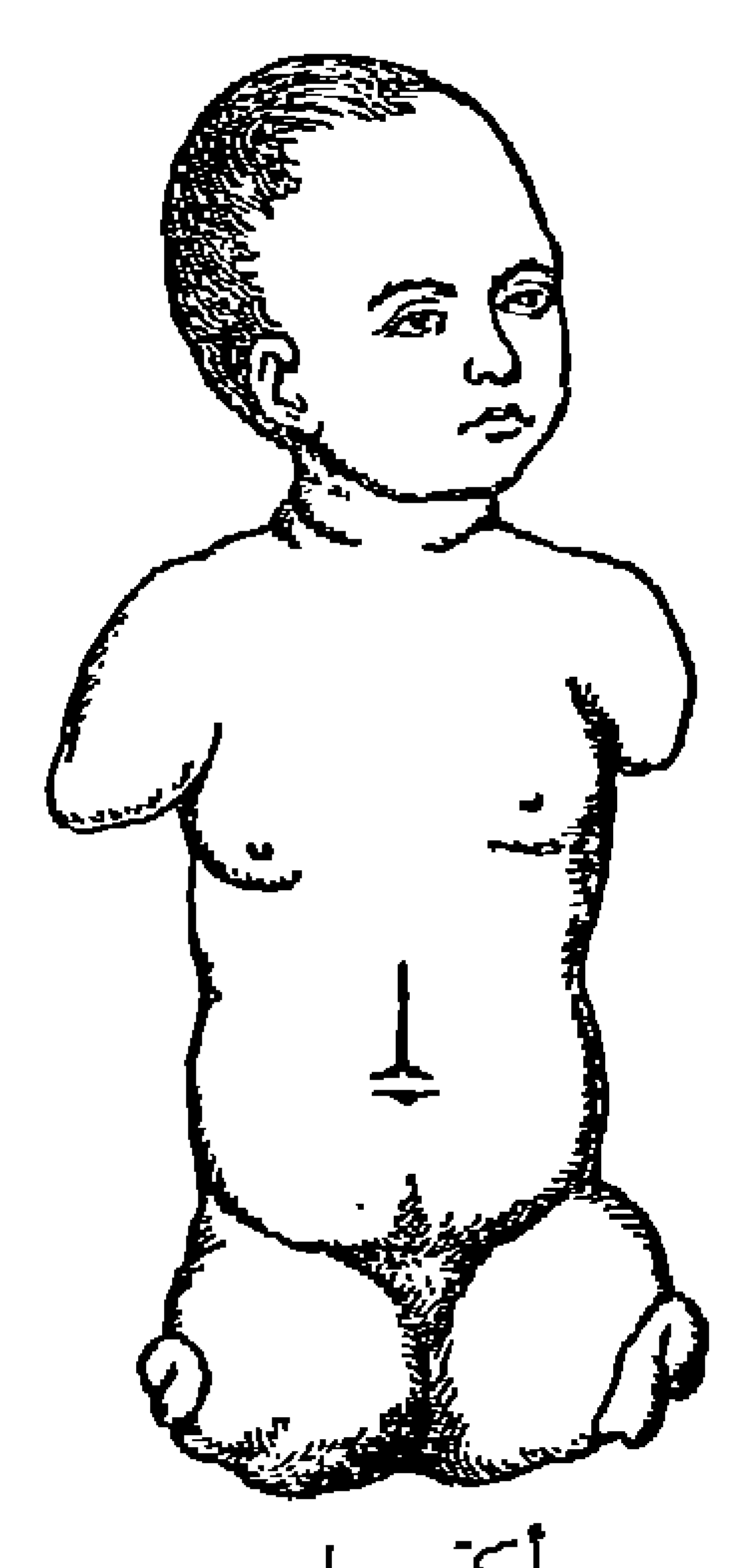
الطبقة الجوفية . فالهيدرا التى هى إحدى أنواع هذه الطبقة تشبه القارورة أيضاً وجدرانها تتألف من ثلاث طبقات وهى الجليد الخارجى والوسط والداخلى وتتغذى من المواد المختلطة فى الماء الداخل إلى جوفها من الفوهة وتتناسل بواسطة براعيم تنبت على الجليد الخارجى . ثم تنمو فتتحول إلى هيدرا كاملة .

فيتبين مما ذكر بأن الهيدرا لاتتغير جوهرياً عن العلقة البشرية أو الإنسان فى الطور الثانى . أما الأهداب النامية حول فوهة الهيدرا وبعض الغدد التى لا تظهر إلا عرضياً لحفظ كيانها والتى تعطيها شكلا يختلف عن هيئة العلقة البشرية فما هى إلا صفات ثانوية وليست بميزة فارقة . ومع ذلك يقول الأستاذ (روجى) إنه توجد فى جليد الهيدرا الخارجى خلايا منتهية بأهداب تقوم مقام الجهاز العصبى وتعطى الحيوان قوة الحس ، فهذه الخلايا تظهر فى الجنين أيضاً فى أثناء مروره بالطور الثانى وهى التى تتشعب فتؤلف الأعصاب المنتشرة فى كل أنحاء الجسم .

فعليه لافرق إذاً بين تشريح الهيدرا وتشريح جسم الإنسان وهو فى طوره الثانى وبالأحرى العلقة البشرية .

وإننا لو أمعنا النظر فى نتيجة التأثيرات التى تعترى الإنسان وهو فى طوره الثانى لرأينا أنه إذا أصابه أقل مؤثر فإنه يفقده

جانباً عظيماً من أعضائه ويحرمها الحياة وذلك لسرعة عطبه . فأحياناً يولد بدون أطراف ويسمى باصطلاح الطب إكترّوميل (Ectromèle) أى معدوم الأطراف . ومراراً بدون دماغ ويدعى بسيدنسيفال (Pseudencéphale) . أى دماغ غير حقيقى . والذى يولد على هذه الحالة لا يعيش مطلقاً بل إنه يموت قبل رؤيته النور وقبلما يستنشق أول نسمة من الحياة .



أكترّوميل
وهو مسخ بدون أطراف



بسيدنسيفال
رأس مسخ بغير دماغ

٣ ــ الطور الثالث

الإنسان ودودة الخراطين

أو الإنسان فى الطبقة الحلقية

يلبث الإنسان مثابراً على تطوره متدرجاً فى نموه فيتشكل فيه بهمة الخلايا الأولى أعضاء جديدة لم تكن ظاهرة فيه وهو فى طوره الثانى ، ويظهر أيضاً فى هذا الطور بعض الأجهزة . فالأوعية الدموية هى كناية عن أنبوب يتفرع منه عروق ينساب فيها الدم إلى كل جهات الجسم . أما القناة المضمية فهى فى غاية البساطة وتمتد على خط مستقيم إلى الطرف المؤخر من الجسم ويليها تجويفان فى قسمها الوسط ، غير أن الجهاز التنفسى لم يكن قد تصور بعد ، والهيكل العظمى ينوب منابه ما يشبه الفقر وهى سلسلة ليفية النسيج مؤلفة من أقراص قاتمة اللون وأقراص صافية منتظمة متناوبة تقوم مقام العمود الفقرى وتحيط بالأنبوب العصبى ممتدة من رأسه إلى طرفه الأسفل . ويقابل كل قرص من هذه الشبيهة بالفقر عقدة عصبية (وهى أصل كل الأعصاب) متصلة بجميع خلايا الجسم ، وهذه الأقراص تقسم المضغة إلى حلقات متساوية .

فإننا لو شرحنا الحراطين (أى دودة الأرض الحمراء التى هى نوع من أنواع الطبقة الحلقية والتى يعثر عليها غالباً عند حراثة الجنائن والبساتين والتى يتركب جسمها من أكثر من مائة حلقة متماثلة) لرأينا أن لها جهازاً دموياً فى غاية البساطة. وهو كناية عن قناتين متصلتين بشكل حلقة يجرى الدم فيهما، وليس لها قلب ولا شرايين.

أما قناتها الهضمية فتمتد من الرأس إلى الطرف المؤخر وهى تبدأ ببلعوم ضيق يتلوه انتفاختان تدعيان الحوصلتين والباقى هو المعى. وتتنفس هذه الدودة بواسطة مسام فى الجلد تصل أحشاءها بالخارج وليس لها رئة ولا خياشيم كما أن حلقاتها المرنة الليفية تقوم مقام الهيكل العظمى فترتبط بعضها ببعض بواسطة ألياف ومفاصل تمكنها من الالتواء على ذاتها. ويقابل كل واحدة من هذه الحلقات عقدة عصبية ومن هذه العقد تتفرع الأعصاب إلى باقى الجسم.

فمن ذلك يتحقق لدينا أن تشريح الإنسان فى الطور الثالث وتشريح الحراطين هو واحد تقريباً وأن الإنسان يشبه الحراطين فى هذا الطور أكثر مما يشبه أبويه.

٤ ــ الطور الرابع

الإنسان فى طبقة الأسماك

فى هذا الطور ينتقل الإنسان من أصل الحيوانات غير الفقارية ويدخل فى أصل الفقارية . وفى هذا الطور تتولد أعضاء جديدة لم تكن وجدت من قبل. فيظهر القلب فى الجهاز الدموى مركباً من تجويفين فقط أى بطين واحد وأذين واحد يفد إليه الدم من كل جانب متجمعاً فى الأوردة المتكونة حديثاً ثم ينصب فى أقنية جوفيه ومنها إلى الأذين ثم يأتى إلى البطين الذى يدفعه إلى الجذع الشريانى ومن هناك يتحول إلى الشريان السرى ، ومنه يذهب إلى الأم ، ثم يرجع بالوريد السرى حاملا الأوكسجين والأغذية التى تحولت فى جسم الأم ومنه ينصب فى الجذع الشريانى الذى يوزعه على باقى أنحاء الجسم . وهكذا تكون دورة الدم كاملة أى لا يتجه أدنى مقدار من الدم الوريدى فى الجسم إلا بعد استحالته إلى دم شريانى .

أما القناة الهضمية التى كانت أنبوباً ذا تجويفين فقد ضاقت من الطرف العلوى وكونت ما يدعى بالبلعوم . وهذا يتلوه مرىء قصير جداً . وقد تمدد التجويف الأول فكون المعدة

كما أن التجويف الثانى قد أوجد المعى الذى لا يزال مستقيما وذلك لأن تلافيفه لم تكن قد تكونت بعد . إلا أنه قد ضاق فى أسفله فأعطى الشرج .

وفى هذا الطور يظهر شبه أثر للجهاز التنفسى وهو عبارة عن عدة أنابيب متفرعة من أنبوب واحد وهذه الأنابيب سوف تتحول إلى رئة كاملة فى المستقبل وهى الآن ليست إلا الرئة فى بدء تطورها لكنها بصفة أثر ليس إلا .

ومن الجهاز العصبى قد تصور الدماغ والحبل الشوكى فقط وهما ضمن قناة ليفية تدعى بالحبل الظهرى . وهذه القناة محاطة بالعمود الفقرى الذى لايزال غضروفيًّا أى لم يتكلس حتى الآن . إلا أنه يبقى فى الدماغ النصفان المخيان الكرويان ملتصقين ولا ينفصلان إلا فى نهاية الأسبوع الخامس . كما أن المخيخ والبصلة يشغلان القسم الأكبر من دماغ الجنين كما هى الحالة عند الأسماك وبعكس ما هو عليه دماغ الرجل البالغ الرشد . فعليه يكون دماغ المضغة فى هذا الطور أشبه بدماغ الأسماك منه بدماغ الإنسان .

والأطراف الأربع التى لم نقف لها على أثر فى الطور السابق قد برزت الآن فى حيز الوجود . وهى لا تفترق جوهرياً عن زعانف السمك لأن هذه ما هى إلا الأعضاء الأربعة مكيفة

حسبما يقتضيه المحيط .

كما أن العضوين الأسفلين لم ينبتا عند العجز أى فى نهاية العمود الفقرى كما هى الحالة عند الإنسان بل بجانب الفقار القطنية وهكذا يبقى الذنب فى المضغة ظاهراً مثل أذناب الحيوانات.

والعينان مكشوفتان وليس لهما جفون تسترهما ولا أهداب تحميهما وذلك لأن الجنين يعيش فى سائل داخل الرحم وهذا السائل يدرأ عن عينيه الخطر ويحرسهما من كل صدمة قد تعتورهما . وهما موضوعتان على جانبى الجمجمة وليس فى الوجه أى أنهما ثابتتان بإزاء العظم الصدغى بدلا من العظم الجبهى حيث هو محلهما الاعتيادى فى وجه الإنسان .

والأذنان لم تزالا فى دور بدايتهما غير أنهما مستمرتان فى الارتقاء والنمو ولم يصنع منهما إلا الأذن الداخلية فقط . وهى عبارة عن نُقَيْر وثلاث قنوات هلالية . أما الأذن الوسطى والأذن الخارجية فلم تزالا فى عالم الغيب .

وقد تكوّن الجلد وكسا كل الجسم ولم ينقصه إلا الغدد الجلدية والشعر فقط .

وكذلك الكبد والبنكرياس فقد بلغا درجتهما النهائية من النمو تقريباً . لكن الطحال وغدد الفم لم يوجد لهما صورة قط . والمسالك البولية قد تكونت نوعاً ما وأخذت مجراها .

فلو درسنا السمك درساً تشريحياً لوجدناه لا يختلف عن الإنسان وهو فى هذا الطور مطلقا .

فالسمك هو من الحيوانات الفقارية ويعيش فى سائل يدعى الماء . وقلبه فى تجويف تحت الحلقوم ويفصله عن البطن الحجاب الحاجز ، وتقيه العظام البلعومية من الأعلى والقوسان الخيشوميتان من الجانبين وهو أيمن أى ذو أذين واحد وبطين واحد . ولذلك فتى اكتسب الدم الأكسجين أى أصلح بواسطة التنفس انصب مباشرة فى جذع شريانى كائن فى أسفل العمود الفقرى يسمى بالشريان الظهرى . وهذا الجذع يتكون من تفاريغ الأوردة الخيشومية ولما كانت وظيفته كوظيفة القلب الأيسر كان يرسل الدم إلى جميع أجزاء الجسم ثم يعود منه إلى القلب بالأوردة فتكون الدورة الدموية إذاً كاملة .

أما قناة السمك الهضمية فهى عبارة عن مرىء قصير ومعدة تشبه الأمعاء القصيرة ويعسر تمييزها من القناة المعوية القصيرة أى أنه ليس فيها تلافيف كما هى الحالة عند الإنسان وبعض الحيوانات اللبونة .

والسمك له كبد وبنكرياس أيضا لكن ليس له طحال ولا غدد فى الفم . كما أن جلده عار من الغدد الدهنية ولا ينبت عليه الشعر . ويتنفس بواسطة الحياشيم وهى عبارة عن دريقات

معلقة فى أقواس وملتصقة بالعظم االامى وكل دريقة مكوّنة من عدة صفائح مغطاة بالأوعية الدموية .

والدماغ والحبل الشوكى هما فى تجويف وقناة غضروفيتين كما أن النصفين الكرويين المخيين هما صغيرا الحجم بعكس المخيخ فهو كبير نسبياً .

وأطراف السمك لا تزيد عن الأربعة : اثنان منها أماميان وهما بمثابة الذراعين فى الإنسان ، واثنان خلفيان بمثابة الساقين فيه . كما أن ذنبه يتحول إلى زعنفة فيستطيل مستديراً أسطوانياً أو مضغوطاً أفقياً أو من الجانبين . وهيكل الجسم غضروفى كما هى الحالة عند القريش . والأذنان موضوعتان غالباً فى تجويف الجمجمة إلى جانبى المخ ومكونتان من نُقَيْر ومن ثلاث قنوات هلالية تتلقّى اهتزازات الأغشية ومن جدران القحفية فقط . وبيان ذلك أن لكل منهما أذناً داخلية فقط وليس لهما ما يقابل الأذن الوسطى والأذن الخارجية وهما لا تتأثران إلا بالأصوات القوية جداً .

وللعينين الجامدتين المحملقتين قرنية شفافة مفلطحة جداً والرطوبة المائية قليلة فيهما . وليس لهما أجفان متحركة ولا غدد دمعية .

ومصب المسالك البولية يظهر خلف الشرج ولا يمر بالمثانة لعدم وجودها .

فإذا قابلنا بين تشريح المضغة وهى فى أواخر الأسبوع السادس من الحياة الجنينية وبين تشريح السمكة ألفيناهما متشابهين تشابهاً كلياً . ومن الغريب أن هذا التشابه هو أن المضغة تعيش فى سائل وتتنفس بغير الرئتين والسمك يعيش فى سائل أيضاً وهو عديم الرئتين أيضاً أى يتنفس بواسطة الخياشيم التى بها يمتص الهواء من الماء . والنوعان كلاهما لا يقدران على التصويت هذا فضلا عما هما عليه من التماثل فى باقى أعضاء الجسم المار شرحها آنفاً .

إذاً فيجدر بنا الإقرار بأن الإنسان مرّ بتطور كان فيه يشبه الأسماك وكان يعد أحد أنواعها . ولا يمكننا القول بأنه كان سمكة أو سوف يقدر له أن يتحول إلى سمكة وذلك لعدم وجود الأدلة الكافية التى تتطلب مدة طويلة من الزمن تقاس بألوف الملايين من السنين .

٥ ــ الطور الخامس

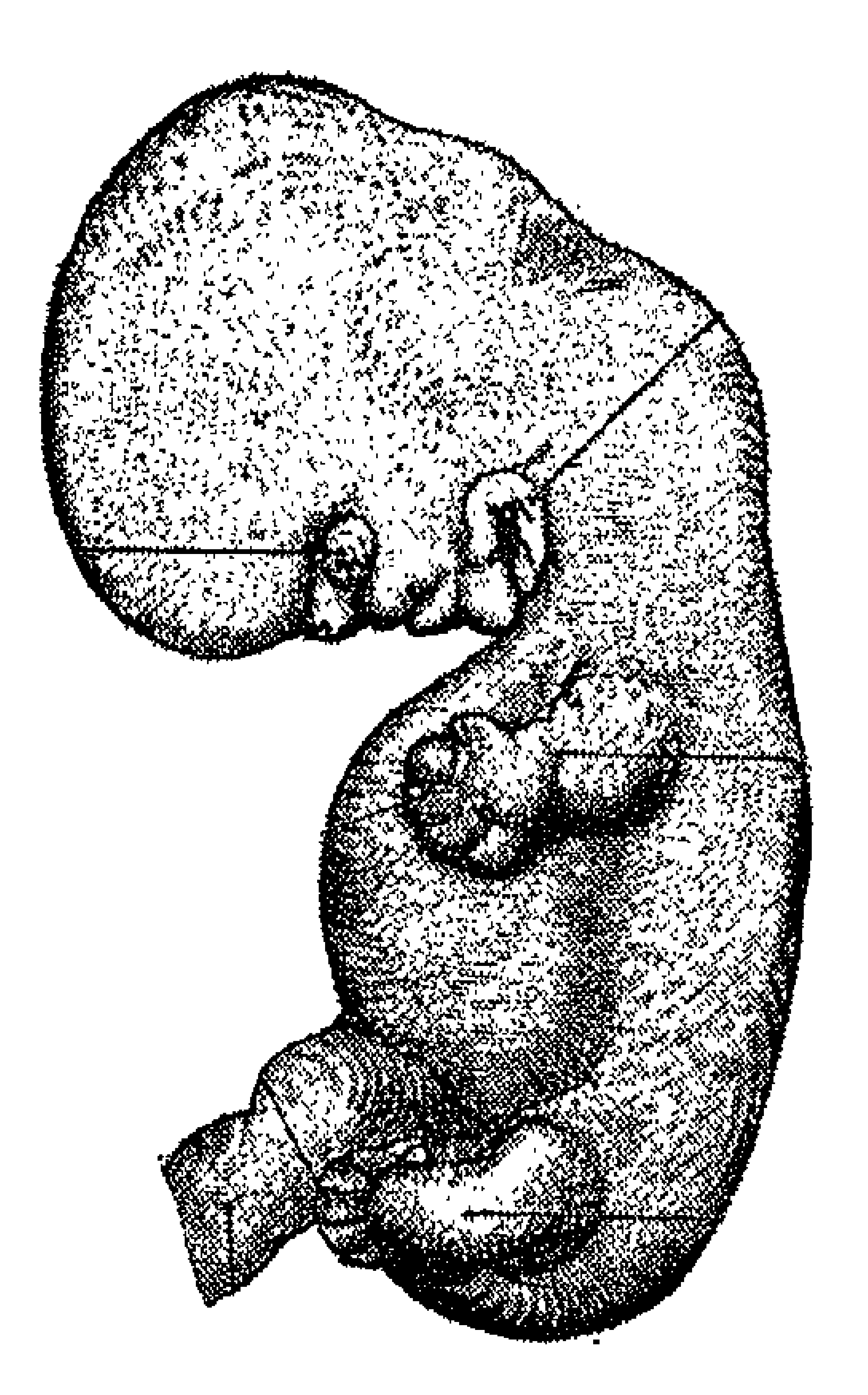
الإنسان والضفدع

أو الإنسان فى طبقة البرمائية

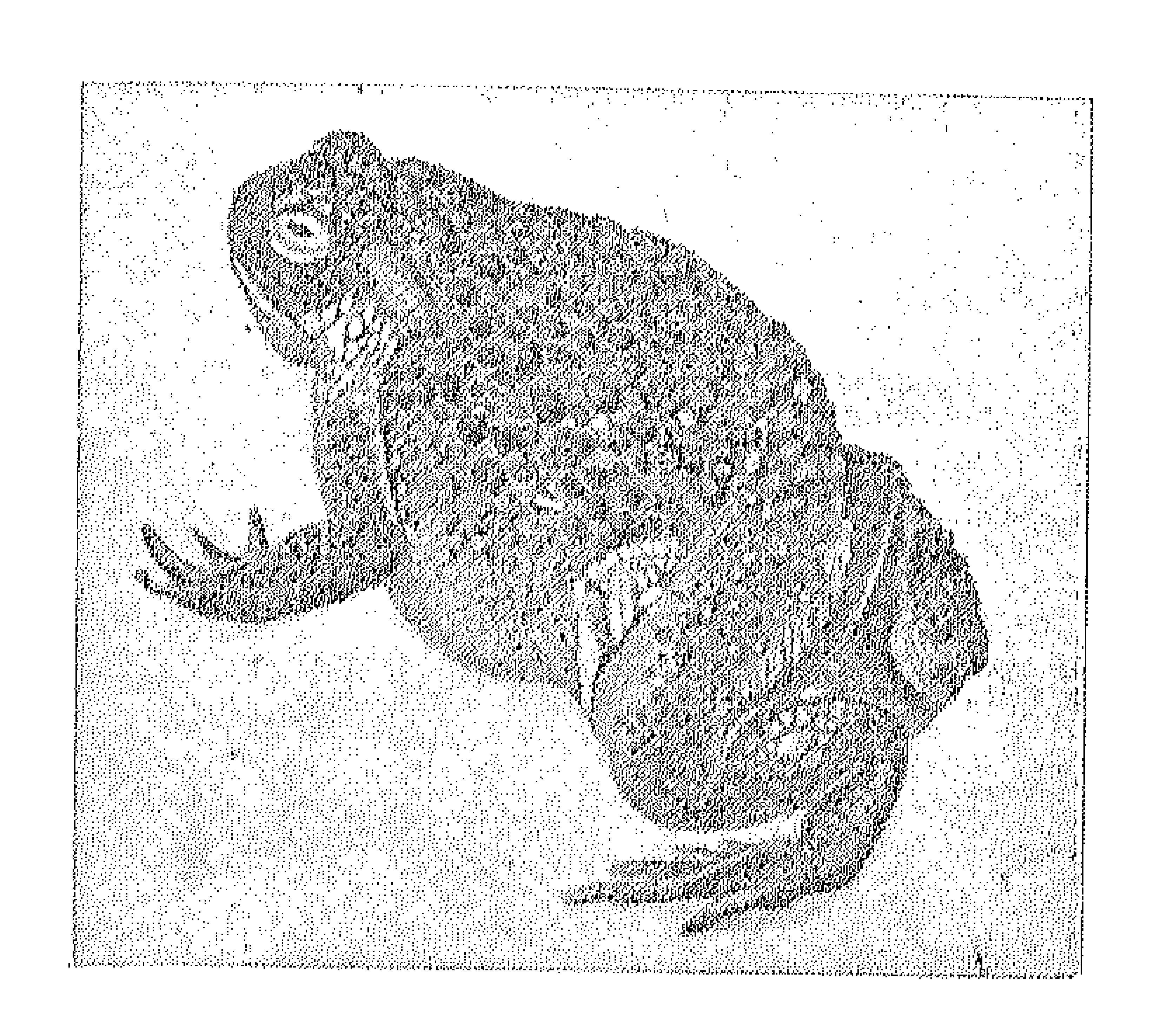
من غريب المصادفة أن الإنسان بعد ما كان يشبه السمك

فى طوره الرابع تحولت الآ ن أعضاؤه إلى أشكال تماثل أعضاء الضفدع . فهو ضفدع بقلبه وبدماغه ، بعينيه وبأذنيه ، بجلده وبذنبه وبكل أعضائه ، لقد ارتقى صاعداً سلم المملكة الحيوانية تابعاً ترتيباً قياسياً فصعد من رتبة الأسماك إلى الرتبة التى تليها . وسيثابر إلى أن نراه متسنما رأس المملكة الحيوانية . إنه لأمر يستجلب العبرة .

لم يمض على الإنسان ستة أسابيع من حياته الجنينية إلا وقد تدرج صاعداً درجات السلسلة الحيوانية بسرعة مدهشة. ومع كل ذلك فهو لم ينجز حتى الآ ن كل ما عليه من العمل .


المضغة البشرية
فى نهاية الأسبوع الخامس

لقد نما القلب وتكون فى داخله غشاء حاجز فقسمه إلى ثلاثة تجاويف ونظراً لعدم انفصالها تماماً صار الدم النقى الآ تى



الضفدع

من الشريان السرى يختلط بالدم الفاسد فيدفعه إلى الوتين (الأبهر) الذى يوزعه على الشرايين المكونة حديثاً . فتحمل هذه الشرايين الدم إلى الرأس والأطراف الأمامية وإلى باقى الجسم . ومن جراء هذا الاختلاط تكون الدورة الدموية غير كاملة . أما القناة الهضمية فلم تزل على حالتها السابقة تقريباً ولم يطرأ عليها تغيير ما إلا فى المعى الذى ظهرت تلافيفه ، وأصبح يصب إفرازاته فى جراب يتصل بالمجارى البولية .

أما الرئتان فقد تم صنعهما تقريباً غير أنهما لم يباشرا بعد

أداء وظيفتهما . ومع هذا فليس لهما تأثير رئيسى على حياة الجنين ، وذلك بعكس الإنسان الكامل التطور فإنه لا يقدر أن يعيش دقيقة واحدة بدون رئتيه لأن المضغة لم تزل تتنفس بواسطة الأم التى تعطيها الأكسجين من دمها الوافد بالعروق السرية .

وفى هذا الطور أيضاً قد انتقل الهيكل العظمى من الحالة الغضروفية إلى حالة العظم الكامل التركيب فتكلس فى بعض أجزاء العمود الفقرى والجمجمة وعظام الأطراف الأربع وقد ظهرت الأصابع الخمس فى الأيدى والأقدام . كما أن الطرفين الأسفليين قد اقتربا من طرف العمود الفقرى المؤخر ولذلك لم يعد الذنب طويلا كما كان فى الطور السابق .

والدماغ أصبح أتم تركيباً ونما حجم النصفين الكرويين المخيين فغدوا ثلثى حجم الدماغ أى أشبه شىء بدماغ الحيوانات البرمائية . والحبل الشوكى قد تضخم عند منبت أعصاب الرجلين .

وانحرفت العينان قليلا من الجانب إلى الأمام وصارت الواحدة منهما كبيرة بارزة وتسلحت بجفون عارية من الأهداب .

أما الأذن فلم تتدرج كثيراً فى نموها إذ أنه لم يتخلق لها صوان الأذن ولا القناة الأذنية الظاهرة . أما الأذن المتوسطة (ويقال لها صندوق الطبلة) مع الأذن الباطنة أو الحلزون فقد أدركتا منتهى الكمال . كما أن الأذن المتوسطة قد اتصلت بالفم بواسطة

تجويف يدعى قناة (استاخ) .

وقد أضيف إلى الكبد والبنكرياس عضو جديد كان ناقصاً فى الطور السابق وأريد به الطحال .

إن الجلد لا يزال عارياً من الزغب والشعر ومع ذلك صار يفرز مادة دهنية بيضاء تدل على تكون الغدد الجلدية فيه .

فلو أمعنا النظر فى تركيب الضفدع التى هى إحدى أنواع طبقة البرمائية لرأينا أن القلب فيها يتركب من بطين واحد وأذينين اثنين . فينبعث الدم النقى من الرئة والجلد إلى أحد الأذينين ومنه إلى البطين . وينبعث الدم الفاسد من الأذين الآخر إلى ذات البطين أيضاً فيمتزج آنئذ الدم الفاسد بالدم النقى ويتوزع فى الشرايين وهو على هذه الحالة إلى سائر الأعضاء وهكذا تكون الدورة الدموية غير كاملة أيضاً .

أما القناة الهضمية فتتألف من مرىء قصير ومعدة شبه كيس بسيط وبعض تلافيف الأمعاء التى هى صغيرة للغاية إن فى الحجم وإن فى العدد .

والرئتان هما عبارة عن جراب خال من الخلايا والنسيج الرئوى ولذلك لو نزعناهما من الضفدع لعاش بدونهما متنفساً بالجلد مدة ستة أسابيع تقريباً (وهذه المدة ليست بقليلة نسبة إلى عمر الضفدع) لأن الأكسجين يأتيها ليس من الرئة فقط

بل من الجلد أيضاً بواسطة الشرايين الجلدية .

كما أن لها كبداً وبنكرياساً وطحالا أيضاً . ولها فى كل واحدة من قائمتيها الأماميتين أربع أصابع وأثر للإبهام . أما فى قائمتيها الخلفيتين فخمسة أصابع .

وهيكلها عظمى وليس غضروفى . وذنبها قصير للغاية . وعضلات الفخذ والساق قريبة الشبه من عضلات الإنسان .

والدماغ بسيط كدماغ السمك إلا أنه أكمل منه نوعاً ما لأن حجم النصفين الكرويين المخيين أكثر نمواً والحبل الشوكى متضخم أيضاً عند منبت أعصاب الرجلين .

وعينا الضفدع كبيرتان بارزتان وذواتا جفون إلا أنهما بدون أهداب وهما تشبهان عيون السمك بما فى سطحها الأمامى من التسطح وبعمق عدستيها .

والأذن عبارة عن ثقب فى العظم الصدغى ومحرومة صوان الأذن والقناة الأذنية الظاهرة . وتتألف من الأذن الباطنة والأذن المتوسطة فقط وهذه لها طبلة وتجويف وعضلات وتتصل بالفم بواسطة تجويف يشبه قناة (استاخ) .

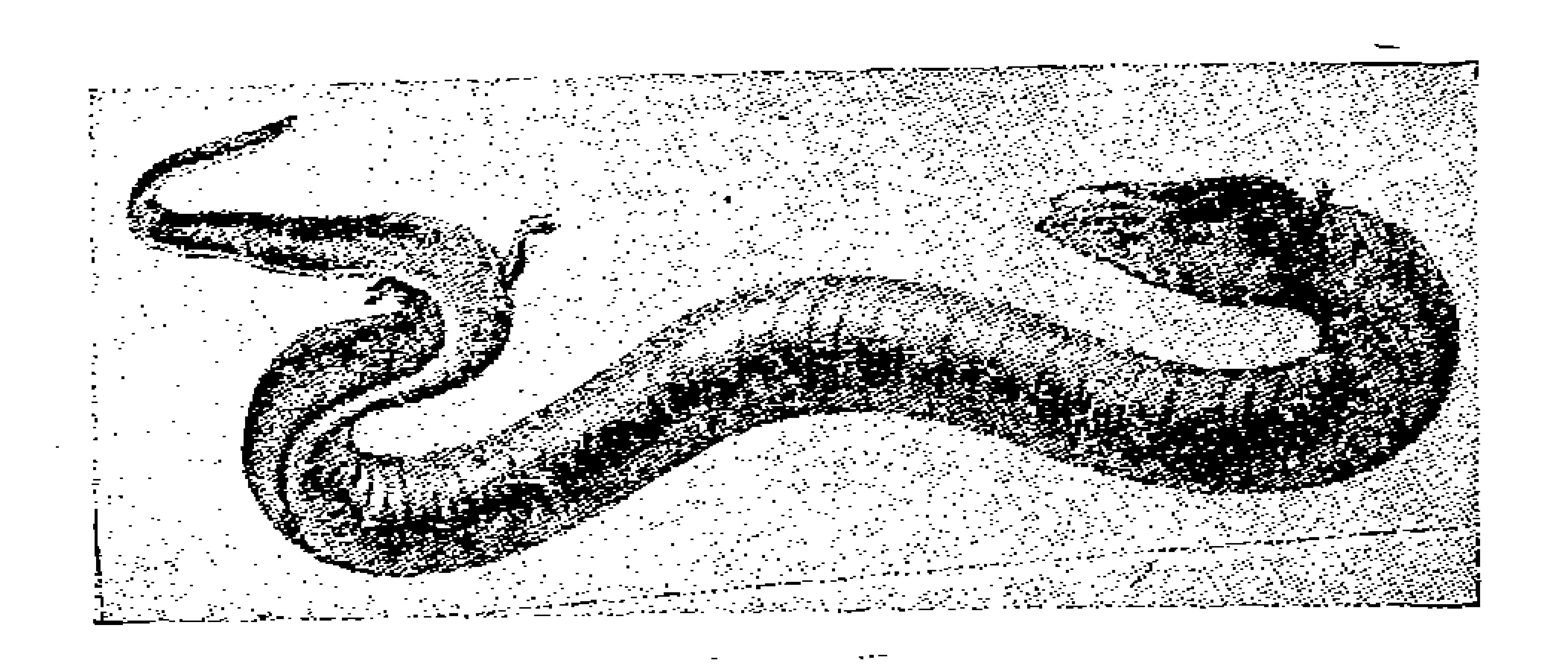
وجلد الضفدع ناعم أملس وغدده تفرز مادة خثرة لونها ضارب إلى البياض وقد تكون حريفة لذاعة ونتنة فى الكثير من أنواعها .

فيتضح لنا من كل هذا الشرح وهذه المقابلة أنه لا فرق بين أجهزة الضفدع وأجهزة الإنسان فى الطور الخامس إلا فى بعض الأعضاء التى ليست برئيسية . فلو قيل إن للضفدع أسناناً صغيرة وأظافر ونتوءات فى الجلد إلخ . وإن هذه لاتوجد عند الإنسان وهو فى هذا الطور أو بالأحرى ما هى إلا بحالة أثرية فقط . نقول إن الفرق بين الضفدع وبين (الأنفيوم) مثلا وهو أحد أنواع رتبة الضفادع هو أكثر تبايناً من الفرق البسيط الحاصل بين الضفدع وبين الإنسان فى الطور الخامس .

فالأنفيوم يزيد على الضفدع البرى بذنبه و بطول جسمه وليس له نتوءات فى الجلد الخالى من الغدد الجلدية فيخال الناظر إليه أنه يرى زحافة . كما أن الضفدع يختلف عنه بأطرافه الأربعة الطويلة وبصغر حجم رأسه نسبة إلى جسمه وبالعمود الفقرى الجامد القصير الغير المتحرك وباختلافات أخرى كثيرة لكن مع كل هذا الخلاف هما من رتبة واحدة .

إذا فالإنسان فى طوره الخامس يعد نوعاً من أنواع طبقة البرمائية لأن وجوه الشبه بينه وبين الضفدع أكثر بكثير من التى بين الضفدع والأنفيوم .

والخلاصة هى أن الإنسان عند مروره بالطور الخامس



الأنفيوم – أحد أنواع رتبة الضفادع

يشبه البرمائية شبهاً تاماً فى أكثر خاصياتها إلى حد أنه حينذاك يجوز أن يعتبر واحداً منها .

٦ – الطور السادس

الإنسان والقرد

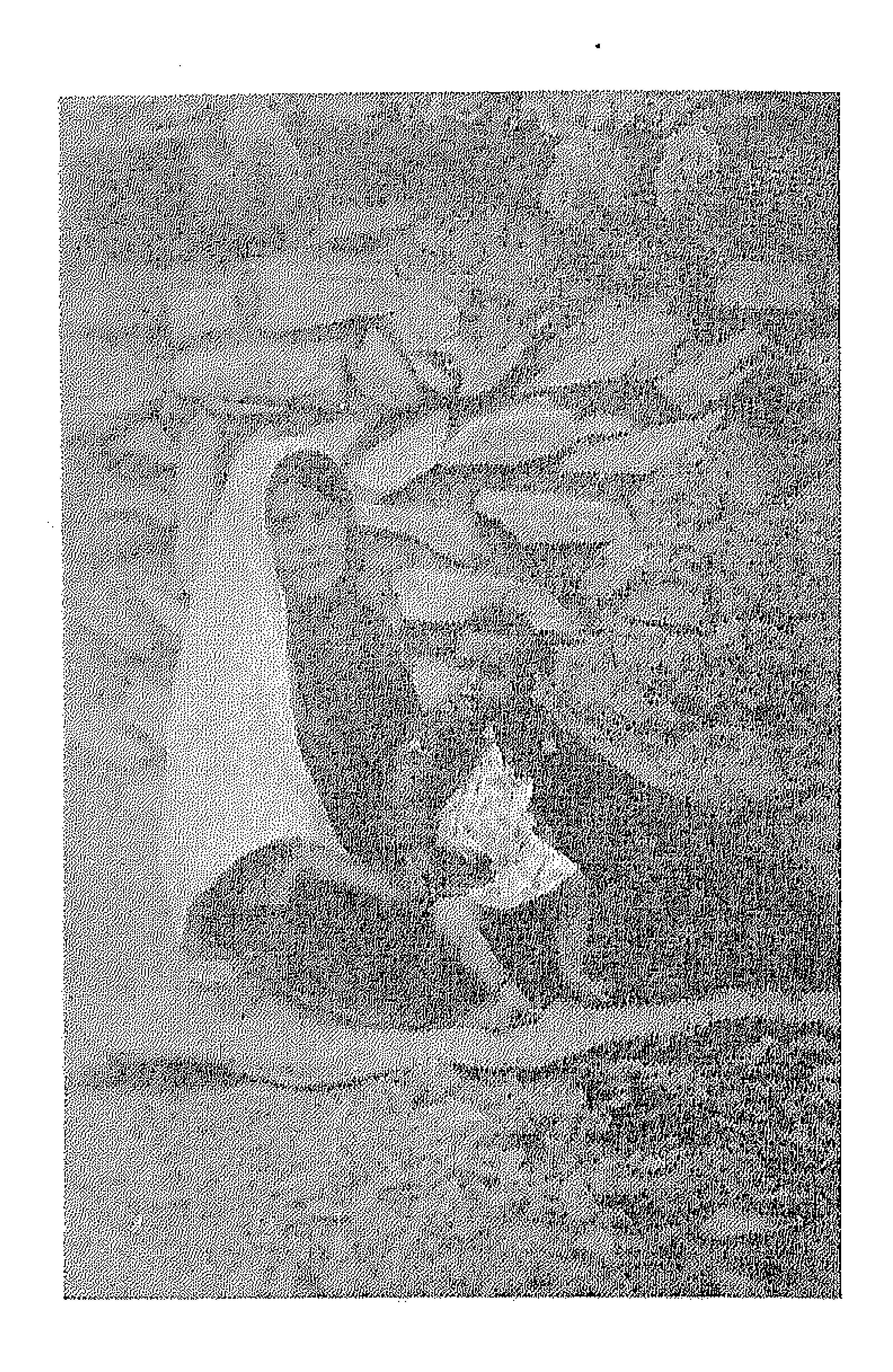
أو الإنسان فى عائلة رباعية الأيدى

فى هذا الطور يرتقى الإنسان إلى طبقة اللبونة ويدخل فيما بين أنواع طائفتها العليا التى تتألف من عائلتين : الثنائية الأيدى

أى الإنسان ، والرباعية الأيدى أى القرود . ونظراً لتدرج الإنسان فى النمو لا يمكنه وهو فى هذا الطور أن يتسنم أعلى درجة فى طبقة اللبونة بل يميل شبهاً إلى الرباعية الأيدى أكثر منه إلى الثنائية .

ويقسم هذا الطور إلى قسمين : القسم الأول وهو من الطور الخامس إلى الولادة ، والقسم الثانى ويبتدئ فى الولادة وينتهى عند حصول الطفل على قوة الإدراك والتمييز وعلى قوة التكلم وعند انتقاله من الدبيب على القوائم الأربع إلى المشى على قدميه منتصباً .

ففى القسم الأول تتحول المضغة إلى جنين وتدخل فى أحط درجات اللبونة . ولهذا الانتقال التدرجى أهمية كبيرة إذ هو شرط من شروط الارتقاء . وعندئذ ينبت الشعر على الجلد حسب ترتيبه ، ويظهر الثديان فى الصدر . وتتكون الأعضاء التناسلية مختلفة الشكل عند الذكر والأنثى دالة بهيئتها على أنها تختص بالحيوانات اللبونة أى أنها صالحة للولادة وليس للبيض . ويظهر فى الدماغ بعض تلافيف وتعاريج فى النصف الكروى المخى الذى لا يزال صغير الحجم نسبيا فيكون بشكله أقرب إلى دماغ الكلب منه إلى دماغ الإنسان . كما أنه أقل كمالا من دماغ القرد .



الإنسان فى الطور السادس أو الطفل



القرد الصغير مع والدته

فالإنسان وهو فى هذا الطور يكون قد توافرت فيه كل الصفات التى تؤهله ليكون فى عداد طبقة اللبونة وفرداً من أفرادها.

ثم تتدرج أعضاؤه بالنمو مجسمة حجمها ومكيفة شكلها ابتداء من نهاية الطور الخامس حيث تركناها إلى وقت الولادة

أى عبارة عن سبعة أشهر ونيف . وعندئذ يدخل الجنين فى الطور الثانى .

الولادة هى خروج الجنين من الرحم وابتداء الحياة خارجاً عن الرحم . فيدعى الجنين آنئذ طفلا .

وينتقل الجنين إلى حالة الطفل ثم يتغير عليه المحيط فجأة فيخرج من المائع الذى كان يحيط به داخل الرحم والذى لا تسقط درجة حرارته عن حرارة جسم الأم أى ٣٧,٥ سنتغراد فينجو من الحياة المائية ويعتنق الحياة الهوائية التى معدل درجة الحرارة فيها نحو ٢٠ درجة سنتغراد . وينفصل أيضاً عن والدته التى كانت تغنيه عن وظيفتى التنفس والتغذية ويضطر إلى استعمال أعضاء لم تكن قد اشتغلت بعد . فيحدث فى هذه الأعضاء تطور فجائى مدهش .

فالرئة تتلقى الهواء للمرة الأولى فتتمدد حالا الشعب الكبيرة والشعب الدقيقة وتسمح العروق للدم بالمرور فيلتقى مع الأكسجين ثم تدفع عضلات التنفس الهواء الفاسد خارجاً فيصرخ الولد أول صرخة عند أول نفس يخرج من صدره . وهكذا يصير الطفل جديراً بوظيفة التنفس فيحيا .

كذلك القلب يتحول إلى أربعة تجاويف منفصلة عن بعضها انفصالا تاماً كما هى الحالة عند اللبونة . ويسد ما يسمونه

بثقب (بوتال) الذى كان يصل الأذينين معاً . فيعتزل الدم الشريانى النقى عن الدم الوريدى الفاسد وتعود الدورة الدموية تامة ثانية كما كانت عليه فى الطور الرابع . ويقتضى لسد هذه الثقب ثلاثة أو أربعة أيام تقريباً . ولهذا السبب تبقى بشرة الطفل فى هذه المدة ملونة بالاحمرار الضارب إلى السواد أى لون الدم الفاسد . وسببه هو اختلاط الدم الشريانى الأحمر الذهبى بالدم الوريدى المائل إلى السواد .

والقناة الهضمية وإن لم تكن قد استعملت بعد فهى فى حالة نموها التام . إنها تستقبل اللبن وتفرز لهضمه المنفحة وكل الإفرازات اللازمة لهضم المأكولات وتمثيلها .

وفى الدماغ تظهر كل تلافيف وتعاريج النصف الكروى المخى . لكن وإن كانت هذه التلافيف كاملة فى الوضع والعدد والشكل فلا يمكن أن تكون قد تكاملت تماماً فى نموها كما هى عند الإنسان العاقل البالغ الرشد . والبرهان على ذلك هو قصورها عن القيام بوظيفتها فى الأشهر الأولى من حياة الطفل التى تمر عليه وهو لا يبدى حين ذاك أدنى فعل يدل على قوة عقله . إذاً فيجب أن تكون هذه التلافيف وبالأحرى النصف الكروى المخى أقل كمالا عما هى عليه فى دماغ الرجل وأنقص نمواً عنه . فمن هنا يتضح لنا أن السر فى قصور الحركة العقلية عند الطفل

عقيب ولادته إنما يرجع إلى الضعف فى نشأة دماغه فى ذلك الحين.

وهكذا نرى أن الجنين على أثر خروجه من الرحم تكون الدورة الدموية قد تغيرت منه . وقد قامت الرئة بوظيفة التنفس أحسن قيام ، وقد اعتاد الجهاز الهضمى وعى الحليب فأصبح أهلا لتحضير الأغذية وتمثيلها . والهيكل العظمى والمسالك البولية والثديان وشعر الرأس والأهداب والأظافر وكل ما يقى الجلد من العوامل الخارجية قد نالت من الكمال أعلى درجة ممكنة . أما الجهاز العصبى مع كل ما هو عليه من الكمال فى الظاهر فيجب أن يكون ناقصاً فى الحقيقة لأنه كما قلنا سابقاً يعيش الطفل كالحيوان تقوده الغريزة أى الميل الطبيعى فقط . ليس له قوة إرادية على الإطلاق. فلسانه رغم احتوائه على كل عضلات لسان الإنسان الناطق وعلى كل أعصابه وعلى نفس الأجزاء التشريحية لا يؤهله أن ينبس ببنت شفه بل يبقى صامتاً كالحيوان . وكذلك عضلات جسمه وقامته فمع كل ما هما عليه من الإتقان والرشاقة أى كعضلات وقامة أبيه لا يؤهلانه للوقوف منتصباً بل يدب على الأربع كالحيوان معفراً وجهه بالتراب. كذلك أصابعه فهى وإن كانت تفوق لطافة ومرونة أصابع أبيه النحات أو الخطاط أو الرسام أو الفنان فهو يستخدمها للمشى فقط ولإيصال الغذاء إلى الفم أحياناً .

فالنتيجة إذن هى أن الولد من الولادة إلى عهد الإدراك والتمييز تكون أفعاله كلها لا إرادية ولا سيما فى الأيام الأولى من حياته : يبكى إذا تألم ، وينام إذا اكتفى . لا يكتسب من التجربة ولا يتذكر تأثيرات العوامل وبالأحرى كل أعماله تصدر غريزياً وإغرائياً لا تدخل للإرادة أو العقل فيها .

لكن بعد مضى الخمسة الأشهر أو الاثنى عشر شهراً الأولى يكون نموّ تلافيف الدماغ قد كمل نوعاً ما فتظهر فى أعماله بعض أمارات التمييز . يعرف والدته مثلا ويميزها عن باقى النساء . يتذكر طعم المأكولات فيبتعد عن التى يرغب عنها . يخاف ويحزن ويفرح . يكون اللسان قد تدرب أيضاً على اللفظ فيأخذ أسهل وأبسط وضعية قد اعتاد عليها فى أثناء الرضاعة فيلفظ (بابا . أو نانا . أو ماما) بصوت كالحيوان . ويكون قد جرب الوقوف فينتصب أحياناً موقتاً ليرجع بعدها إلى الدبيب على الأربع .

فيا ترى لماذا هذا الخرس عند الطفل ؟ هل يتسبب عن نقص فى عضلات لسانه فلا يقدر على تحريكه . أو عن انسداد فى أذنيه فلا يشعر باهتزازات الصوت ؟ أو عن كثافة فى مقلتيه فلا يرى وضعية الشفاه عند التكلم؟ كلا . إنه يسمع ويرى ويحرك لسانه كيفما شاء لكن مراكز السمع والبصر فى

القشرة المخية أى فى تلافيف الدماغ لم تكن قد كملت . فهو يسمع لكنه لا يدرك معنى الكلام ويبصر ولا يفهم ما هية الأشياء لذلك لا يقدر أن يأمر عضلات لسانه لتأخذ الوضعية اللازمة عند النطق وتفى بالمطلوب .

فلو طرأ حينئذ على أذنيه مرض ما وأعدمهما قوة السمع لبلغ الولد سن الرشد وهو أصم أبكم أعنى أنه يصبح ليس عديم السمع فقط بل أخرس منعقد اللسان . فلماذا يصاب بالبكم ولسانه وأوتار صوته فى حالة الصحة التامة ؟ أليس هو أبكم لأنه بانفصاله عن عالم الصوت قد خسر مركز قوة السمع فى القشرة المخية ومن جراء ذلك غدا من العسير عليه أن يأمر عضلات لسانه وأوتار صوته لتأخذ الوضعية اللازمة حتى ينطق بما يريده من الكلام ؟ إن لفظ الكلام قوة مكتسبة وليست قوة غريزية كحاسة الذوق مثلا . فإذا كان الإنسان أصم لا يمكنه أن يعرف ماهية الصوت وإذا قصر عن معرفته لا يقدر على تقليده فيبقى أبكم . فعليه كل أصم فى هذا الطور هو أبكم لا محالة .

إن البكم عند الأصم فى الصغر مع وجود عضلات اللسان وأوتار الصوت صحيحة سالمة وكذلك فقدان السمع والبصر مع سلامة الأذن والعين كل ذلك ناشىء عن تعطيل المراكز العصبية المقابلة لها فى تلافيف النصف الكروى المخى فى الدماغ . فعليه

يكون فقدان قوة النطق عند الطفل وفقدان إدراك ما يسمعه وما يبصره مع سلامة الحواس الخارجية عنده دليلا واضحاً على أن تلافيف النصف الكروى المخى فى دماغ ذلك الطفل لم تزل ناقصة وليست مثل التى فى دماغ الإنسان العاقل . فهى وإن كانت تشبهها شبهاً تاماً فى الشكل والعدد فيجب أن تكون مغايرة لها فى التركيب والنمو والتشريح لأنها لا تماثلها فى الوظيفة .

ونستنتج أيضاً أن الإنسان لو جرد عن دماغه لأضحى حيواناً وحشياً . وأن الحيوان لو منح هذا الدماغ لضاهى الإنسان العاقل . ولذلك يصح أن نقول : لو أعطى القرد مثلا تلافيف النصف الكروى المخى التى هى للإنسان لتطورت أعضاؤه لدرجة تخوله التكلم بفصاحة والتعلم بإدراك . وكل شخص عديم العقل وإن كان دماغه فى الظاهر يشبه دماغ العاقل لا يمكن أن يكون بكماله فى التركيب . فدماغ الطفل الذى هو غير ناطق بالرغم عن كماله فى عدد التلافيف لا يمكنه أن يكون بكمال دماغ أبيه فى التركيب والتشريح بل إنه ينقص عنه نوعاً ما فى هذه الصفات .

وفى الطور السادس أيضاً لا يقف الإنسان على قدميه مستوياً بل يبقى شبيهاً بالحيوان يدب على قوائمه الأربع . ومن أغرب الأمور هنا أن عضلاته وكيفية اندماجها ، وعظامه ونسبة بعضها

إلى بعض وترتيب مفاصلها توجد كما هى بالذات عند الرجل الذى يمشى على قدميه أميالا . وأصابعه ويداه لا تختلف بتركيبها عن أيدى وأصابع أمهر الفنانين . ومع كل ذلك نراه لا يستعملها إلا لالتقاط الأغذية والمشى فقط .

فلماذا هذا التأخر عند الطفل إذا كانت أعضاؤه هذه تضاهى فى الكمال أعضاء أبيه البالغ الرشد ؟ أليس ذلك لأن مراكز الإدراك لم تكن قد تهذبت بعد ؟ أليس لأنها لا تزال ناقصة فلا تسمح للإنسان وهو فى طوره السادس بأن يكون إنساناً كاملا لأنه يختلف عن الكامل بفقده مراكز القوى العقلية فى تلافيف النصفين الكرويين المخيين ؟ أليس لأن دماغ الطفل لا يشبه دماغ الإنسان العاقل ولأن تركيب ذاك أقل كمالا من تشريح هذا ؟

إذاً فالإنسان فى طوره السادس أى الطفل يغاير الإنسان فى الطور السابع أى الإنسان البالغ الرشد فى ثلاثة أمور وهى :

أولا : عدم الإدراك ونقص التركيب فى الدماغ فيعيش خاضعاً للميل الغريزى .

ثانياً : عدم النطق .

ثالثاً : دبيبه على قوائمه الأربع مستخدماً يديه للمشى وإن يكن ذلك عرضياً .

فهو حيوان غير عاقل وغير ناطق ويدب على أربع .

فلو لاحظنا القرود ودرسنا أحوالها كالغوريلا أو إنسان الغاب مثلا لرأينا هذا القرد حاوياً كل خصائص الإنسان فى الطور السادس فيتركب تشريحياً من نفس الأجهزة كالأوعية الدموية والقناة الهضمية والتنفس والحواس . ودماغه لا يخالف دماغ الإنسان العاقل إلا بعدد وشكل تلافيف النصف الكروى المخى فقط فهو يشبهه نوعاً ما فى حجم النصفين الكرويين المخيين وفى شكل التلافيف فيهما نسبة إلى الأجهزة العصبية عند باقى الحيوانات فمثله إذاً مثل الطفل نظراً إلى الكمال فى نمو الدماغ ؛ لأننا قد تأكدنا أن الطفل فى الشهر الأول من عمره لابد أن يكون دماغه ناقصاً فى تركيبه نسبة لدماغ الإنسان البالغ .

وكفى القرد فخراً هذا التقارب لأنه هو الحيوان الوحيد الذى يقارب مخه مخ الإنسان قليلا . والذى يماثل دماغه دماغ الطفل فى نقصانه عن دماغ الإنسان العاقل وفى كماله نسبة إلى باقى الحيوانات . وبالرغم من هذا التقارب فهو غير عاقل ، وغير ناطق ويدب على قوائمه الأربع إلا أنه لا يستعمل يديه الأماميتين للمشى إلا عرضاً فيدوس الأرض بوجه الأصابع الوحشى وليس كباقى الحيوانات التى تطأ بالوجه الإنسى . وذلك لينبئنا أن استعمالها للمشى ما هو إلا وقتى وبطريق العرض . وهو أيضاً

يغاير الإنسان العاقل بثلاثة أمور ويتفق مع الإنسان غير العاقل – الطفل – بالحصول عليها . وهى :

أولا : عدم الإدراك فيعيش هذا الحيوان خاضعاً للميل الغريزى .

ثانياً : عدم النطق فيقضى حياته صامتاً كباقى الحيوانات .

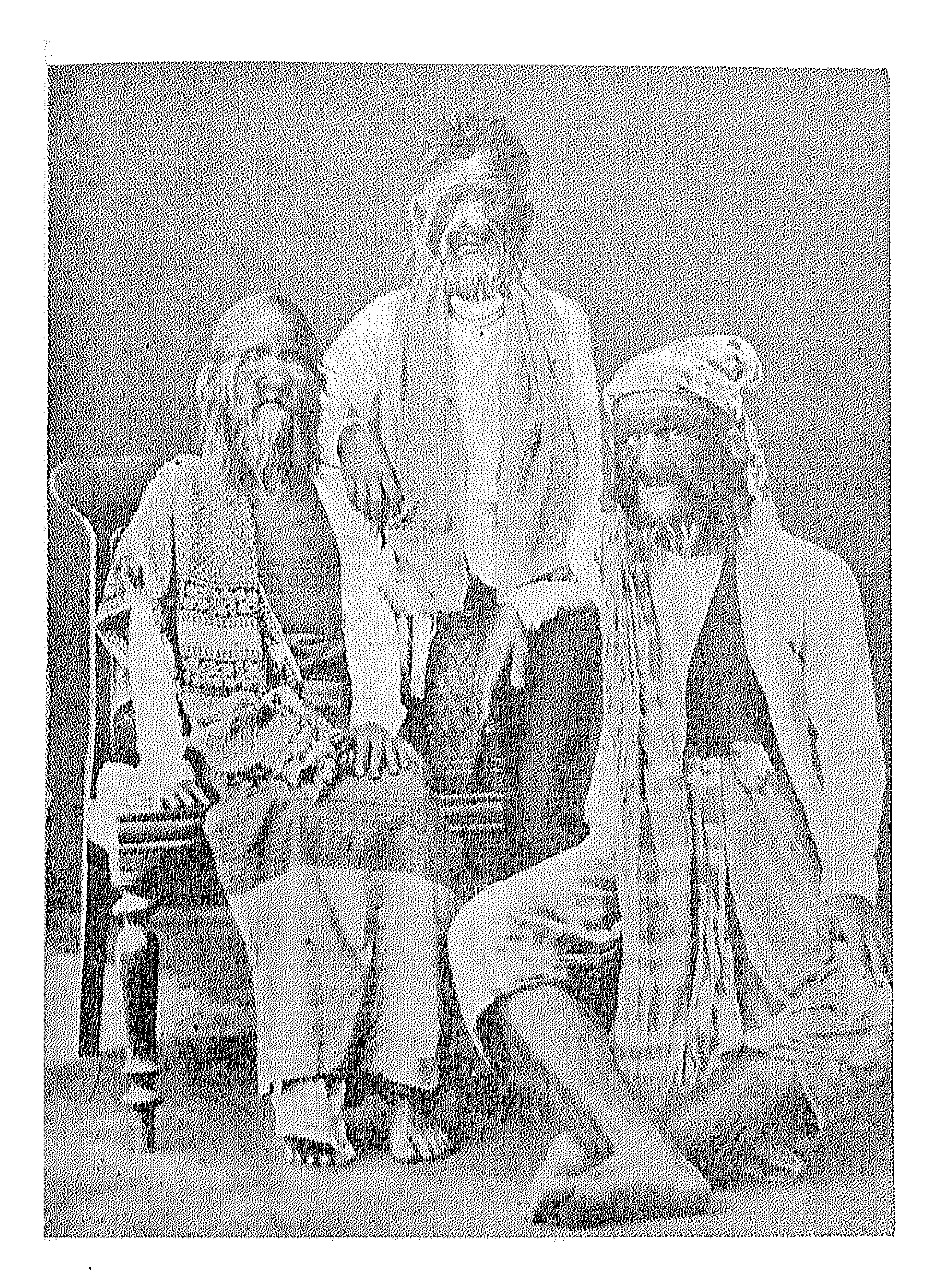
ثالثاً : دبيبه على قوائمه الأربع مستعملا يديه للمشى إلا أن استعمالهما هذا ليس إلا على سبيل العرض .

أما مغايرته للإنسان بطريقة المشى وبعدم التكلم فهما أيضاً نتيجة نقصان دماغه لأن أعضاءه اضطرت أن تتطور طبقاً لحاجة قوى الدماغ .

فمن هنا نرى أن (الإنسان فى الطور السادس) يتفق بخاصياته الرئيسية مع القرد اتفاقاً مدهشاً . وكلاهما يختلفان اختلافاً عظيما عن الإنسان فى الطور السابع أى الإنسان العاقل .

ومع كل ذلك لا يخلو الإنسان من الفرق فى الطور السادس عن القرد فى بعض الصفات التى ليست بذات أهمية كاستعمال الأرجل للقبض عند القرد ، أو كترتيب نبت الشعر على الجسم وخلافهما .

وهذا الاختلاف الناشىء بينهما عن ترتيب نبت الشعر لا يعد



سكان بعض جزائر أستراليا وهم أناس ينبت الشعر على جلودهم
كما هو عند القرود

فرقاً على الإطلاق ، ففى الجنس البشرى أناس ينبت الشعر على جلودهم كما هو عند القرود وبذات الترتيب وبذات الكثافة وهذه الفئة من الناس تقطن بعض جزائر أستراليا . ومنهم « جوجو » الملقب برأس الكلب الذى التقطه أحد الصيادين ونقله إلى إنكلترة وكان فى السادسة والعشرين من عمره . وبواسطته أيضاً جمع ذلك الصياد ثروة عظيمة . وكذلك نساء هذه القبائل فينبت الشعر فى وجوههن كالرجال . ويقطن فى المقاطعات الجبلية فى جزائر فيليبين ، وفى شمال مانيليا وجزيرة فرموزة القريبة من ساحل الصين أناس صغار الجثة عراض الوجوه لهم أذناب قصيرة . وعددهم ينيف على العشرة ملايين ونساؤهم لهن شعر فى وجوههن أيضاً كالرجال .



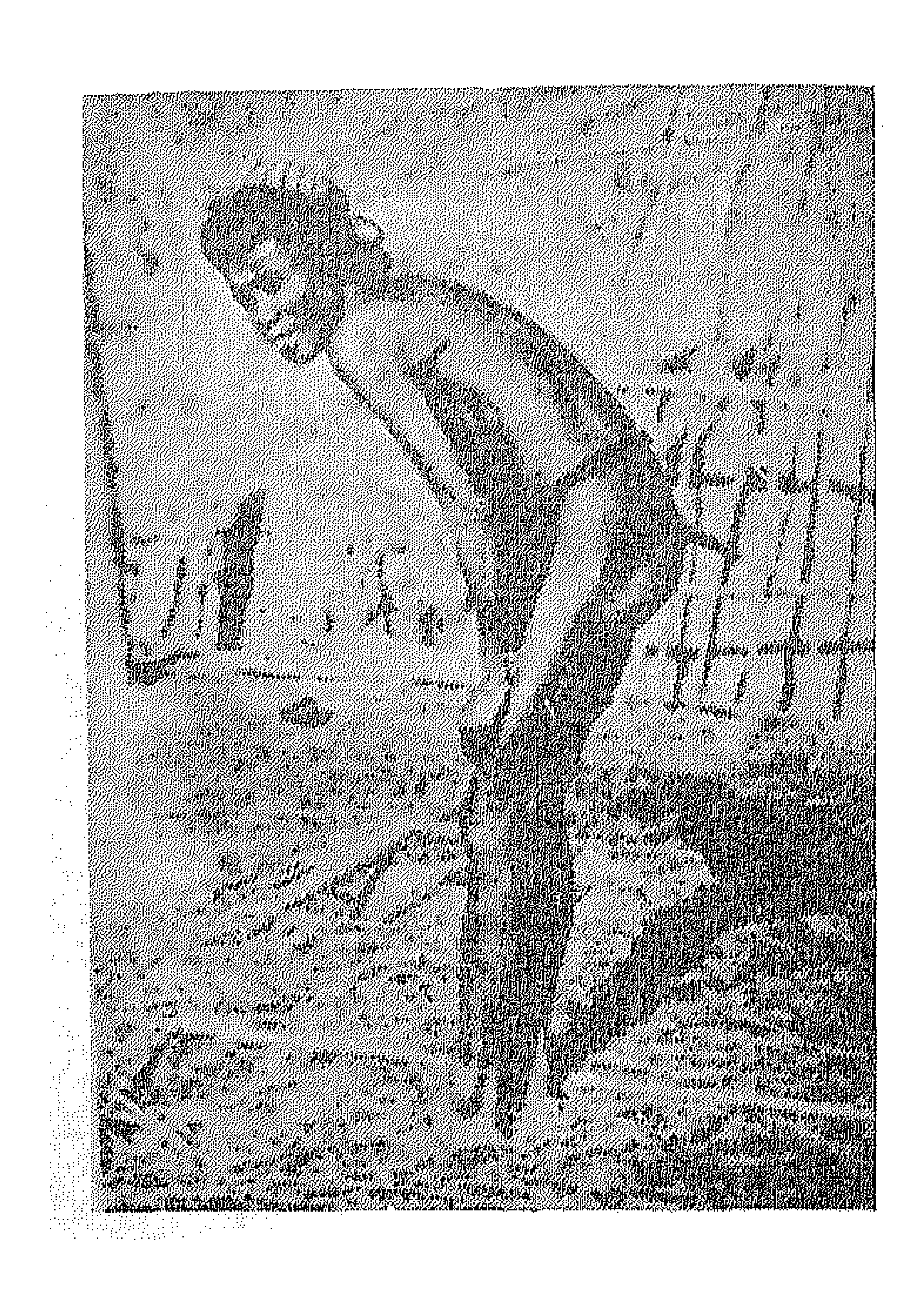
الإنسان جوجو الملقب برأس الكلب

وسكان جزائر ماريانا هم أيضاً قبائل جافية وقيل إنه قبل دخول الأوربيين لم يكن عندهم نار ولذلك ذهلوا ذهولا

عظيما لما شاهدوا لأول مرة النار التى أضرمها (ماكلان) فى إحدى جزائرهم . ويقتاتون كالقرود بأصول النبات وبالثمار .

ومع هذا كله فلم يكن شعر سكان هذه القبائل ولا أذنابها ولا طرق معيشتها صفة كافية لتفصلها عن الجنس البشرى وتضعها فى مصاف القرود ، هذا من جهة التغاير . أما من جهة أخرى فنسبتها إلى الإنسان فى الطور السابع هى كنسبة القرود إلى الإنسان فى الطور السادس فهذه الاختلافات بين القرد والطفل ليست إلا سطحية كالتباين الذى بين الإنسان الأبيض البالغ الرشد وبين سكان بعض جزائر أستراليا المذكورين آنفاً .

فالإنسان فى طوره السادس يجمع كل ما هو جوهرى من صفات عائلة رباعية الأيدى ويميل شبهاً إلى أنواعها أى إلى القرود أكثر من ميله إلى أنواع عائلة ثنائية الأيدى أى البشر . وعلى هذا فالطفل أشبه بالقرد منه بأبيه .



الإنسان المذنب الذى يقطن جزائر فيلبين

٧ – الطور السابع

الإنسان العاقل

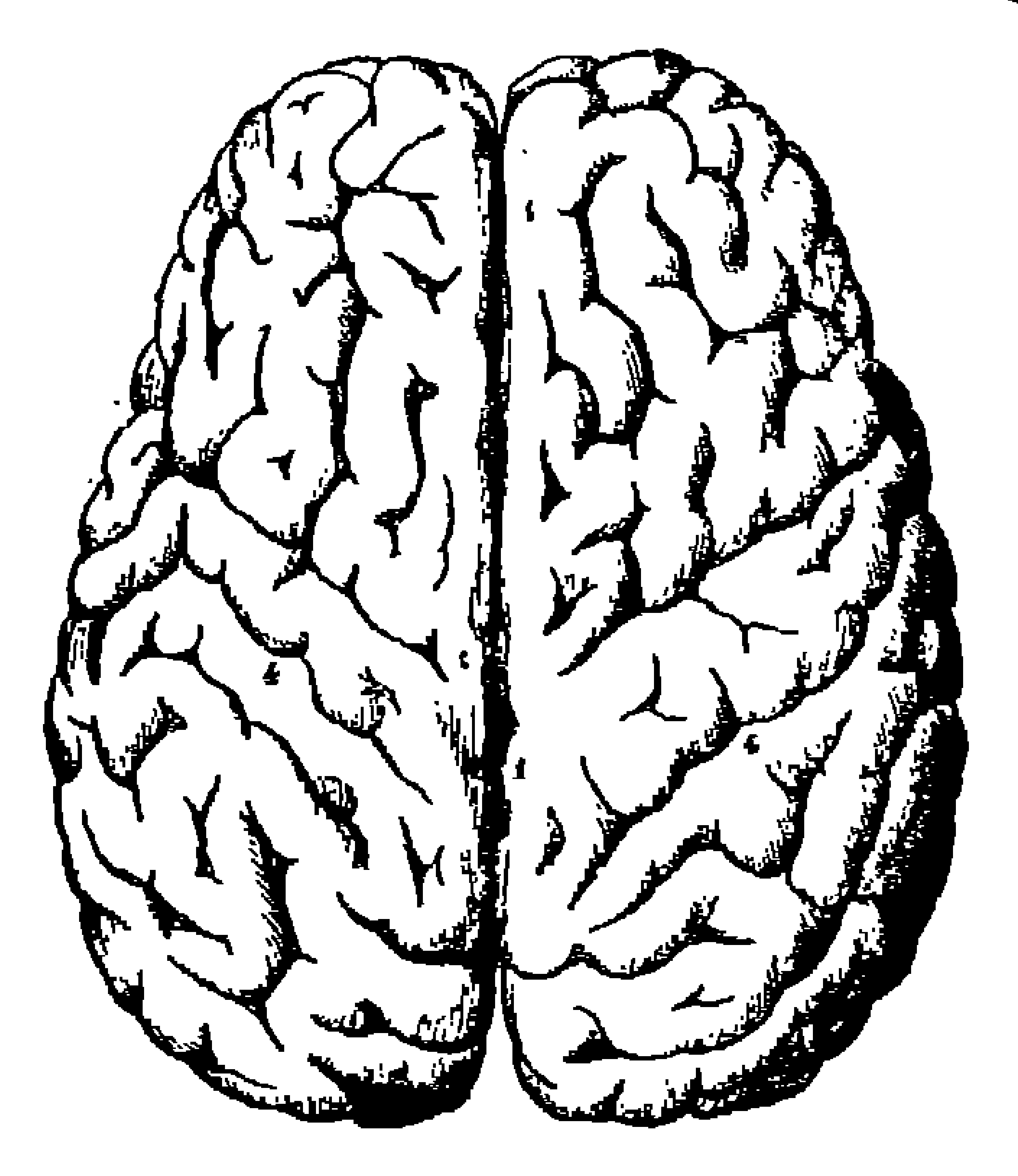
أو الإنسان فى رأس المملكة الحيوانية

جلس الإنسان على سدة ملكه واعتز بما هو عليه من الأنفة والعظمة والقدرة والعلم . وتزين بأعضاء تختص به دون سواه فى كل المسكونة، فحق له الترفع عن باقى طبقات الحيوان لانقطاع نظيره فى كل ما يحيط به . تمت أعضاؤه بكاملها ، وتسلح بدماغه فأعطاه قوة الإدراك والتمييز وأبعده مسافة شاسعة عن الحيوانات فى الرقى والعمران ، فتكاثر ونما إلى أن بلغ ١٦٦٠ مليون نسمة منتشرين على وجه البسيطة . نصفها فى آسيا وربعها فى أوربا وأكثر من تُسعها فى أمريكا وأقل من تُسعها فى أفريقيا والباقى فى أستراليا عدا من هم فى المقاطعات الهمجية كجبال تيبيا وأواسط أفريقيا وغيرها .

إن هذه الكتلة العصبية منحته قوة غريبة فسابق الطير فى طيرانه ، ورافق الأسماك فى أعماق البحار ، واستخدم البخار ، وأنطق الجماد ، واستنار فى الظلمة ، واخترق طبقات الأرض ، وقرب إليه الأجرام السماوية فدرسها ولاحظ نظام سيرها ، واختراع

الآلات ، وصنع العجائب ، فهى وحدها كافية لترفع منزلته فوق رتبة الحيوان .

بلغ المخ منتهى درجات كماله فتفرد بتلافيفه وحجمه وعندئذ



دماغ الإنسان

هذا هو عجيبة الدهر الذى فى تلافيفه بنيت المختبرات واستنبطت الاختراعات ، وبين تعاريجه أسست معاهد العلم ، وعلى تحاديبه نصبت ميادين الطيارات والسيارات . وداخل تجاويفه سطعت الكهربا ومثلت السينما .

كتلة صغيرة وسعت ما ضاق به الكون الفسيح ، وأنشأت فقلبت وجه البسيطة جمعاء .

هذا هو رافع الإنسان إلى أعلى رتب الحيوان وهذا هو أساس العلم والعمران .

حاز الإنسان قوة القوى أى العقل ، فنطق وتآلف فشكل الهيئة الاجتماعية ، ثم ألزمته الحاجة فتعلم وارتقى إلى ما هو عليه من المدنية فى الحالة الحاضرة .

وجد الإنسان عارياً ، مركباً من نفس وجسد ، مهملاً من القوة التى فطرته ، وحيداً فريداً ليس له من ينذره بحاجاته إلا حواسه فعلمته واجباته التى لا تنبهه إليها إلا ضرورياته .

تاه فى البرارى غير مختبر الماضى ولا مستدرك المستقبل شبيهاً بالحيوانات مرشداً ومداراً بعواطف طبيعته فقط . دفعه الجوع نحو الغذاء فهيأ منه قوته ، وتغيرت حرارة الجو فألزمته أن يغطى جسده فحاك له ألبسة واكتسى بها . وشعر بجاذب لذة قوية أدنته من كائن نظيره فخلد نسله .

وعلى هذا النمط كانت التأثيرات التى تحتك به تنبه قواه فتنمى عقله وترفعه إلى التعلم درجة درجة .

غباوته واحتياجاته أحيت صناعته ، آلامه وأخطاره ولدت شجاعته فميز بين الأعشاب المضرة والعقاقير النافعة . ومارس مقاومة العناصر والقبض على الفريسة والمدافعة عن حياته فخفف شقاءه . وهكذا كان الإنسان فى أول الطور السابع شريداً طريداً تائهاً بين الأحراش وعلى ضفاف الأنهر مطارداً الوحش والسمك يصطادها والأخطار محدقة به والأعداء تهاجمه والجوع والزحافات

والوحوش الضارية تزعجه فشعر بضعفه الشخصى .

فالاحتياج للأمن العمومى وعاطفة المواساة عند وقوع الأذى حركاه فتآلف مع أبناء جنسه وعاشوا جماعة وضموا قواهم ووسائطهم . فكانوا إذا داهمت الأخطار واحداً منهم يساعدونه على النجاة منها ويعاونونه على إزالتها . وإذا نقص القوت عند أحدهم كان رفيقه يقاسمه الفريسة . وهكذا تآلف الإنسان ليؤمن حياته ويضاعف قواه ويحافظ على ملذاته . فقواه العقلية كانت الأساس الوحيد لتلك الألفة .

ثم إن اختبار الحوادث المتكررة ، ومشقات الحياة المتنقلة ، والكسل والبطالة ، وشجن القحط المتواتر ، كل هذا علمه ففكر فى نفسه قائلا : لماذا أطلب ثماراً متفرقة على أشجار شائكة ولماذا أوهن ذاتى بمطاردة الفريسة التى تفر منى هاربة بين الأحراش وفى البحار ، ولماذا لا أجمع بين يدى الحيوانات أقتات بها ولماذا لا أخصص كل اعتنائى بنموها وحمايتها فأتغذى بلحومها وأكتسى بجلودها ثم أعيش خالياً من مشقات الحاضر وهموم المستقبل .

عندئذ شعر البشر بضرورة التضافر فوحدوا سعيهم وتمكنوا من القبض على الجدى النشيط والنعجة الوجلة وأسروا الجمل الصبور والثور القوى البنية والحصان الشديد الحمية . فعاشوا

ببهجة وحبور مفتخرين بهذه الصناعة التى أوجدوها وذاقوا طعم راحة العيش وهنائه .

ولما أضحت حياتهم محتوية على قليل من المسرات وجدوا فى التمتع ببعض الملذات حق لهم الافتخار واستحق كل منهم أن يقول : أنا ، بنفسى ، قد حصلت على الخيرات المحيطة بى . وعقلى سبب سعادتى . مساكن أمينة وملابس ناعمة وأغذية غزيرة وأرياف ضاحكة وتلال مخصبة وممالك مأهولة كل هذا صنع يدى وبدونى تعود الأرض إلى ما كانت عليه من الخراب فتصبح مستنقعاً قذراً وحرشاً موحشاً وصحراء شنيعة .

وبينما كان الإنسان يقضى أوقاته فى العطلة حدق ملياً بالكواكب ودورانها ، والأرض ومناخها فلاحظ جريان الفصول وتأثير العناصر وخواص الأثمار والأعشاب ووجه كل جهده إلى إنماء ملذاته . ورأى أن بعض البذور تحتوى رغم حجمها الصغير على مادة مفيدة وأنها أهل لكى تنقل وتحفظ لوقت الحاجة فجمعها واختزنها وقلد منهاج الطبيعة فزرع الشعير والحنطة والأرز واستغلها حسب مشيئته .

ولما وجد طريقة للحصول على مؤونة كافية لمدة طويلة فى بقعة صغيرة من الأرض ، صنع لنفسه مآوى ثابتة فبنى البيوت والقرى والمدن ، ورتب الشعوب والأمم ، فحب الذات أحدث

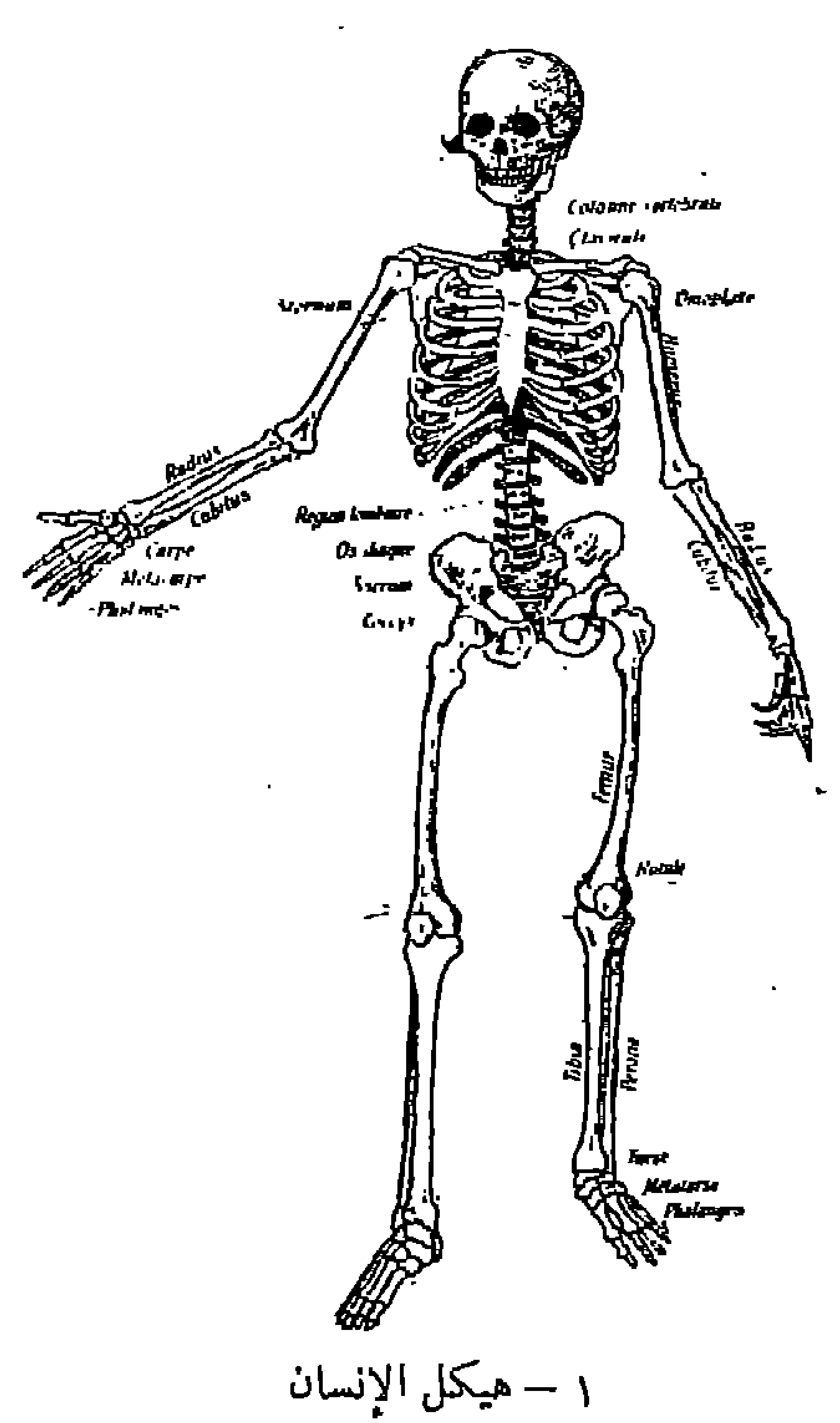
نمو العقل وكماله . ثم عرف بمساعدة العقل كيف يرتقى إلى أعالى ثروته المدهشة الحالية .

هذا من جهة تأثير العقل فى الاجتماع أما من جهة ما أحدثه فى تطور الجسم فهو ما يأتى :

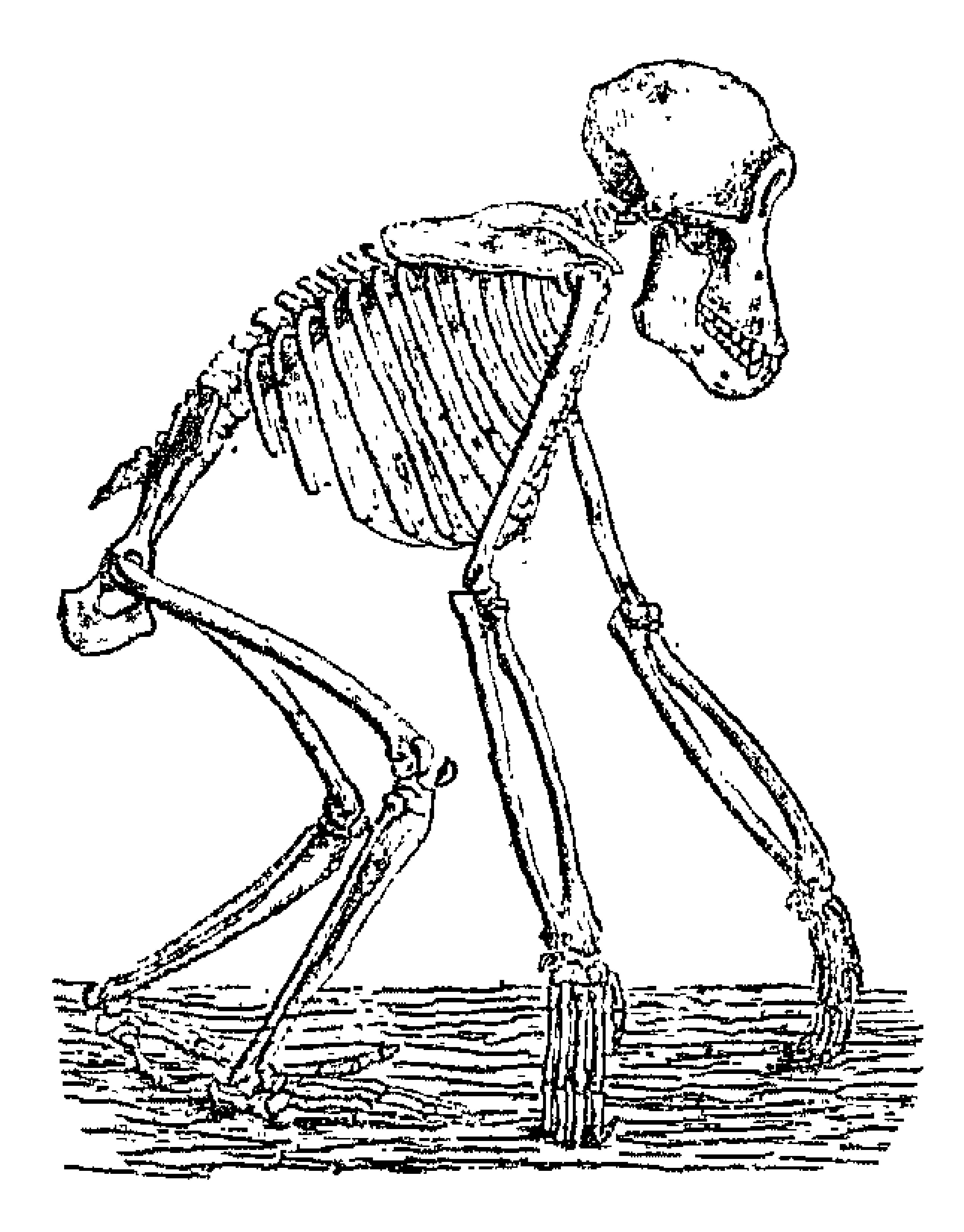
بما أن العقل قد تغلب على الغريزة — والعقل دأبه التقليد — تطورت أعضاء الإنسان تطوراً يخولها القيام بواجب هذا العمل الجديد . عندئذ اتخذ هذا الحيوان العاقل الأصابع الناعمة بدلا من مخالب السبع الحادة وحوافر الحصان الصلبة وزعانف الفقمة العريضة وأجنحة النسر القوية . وهذه الأصابع ما هى إلا أعضاء يسمح لها تركيبها بتقليد عمل هذه الأنواع المختلفة من الأطراف الأمامية المار ذكرها .

ولتقوم بهذه الوظيفة الحادثة الصعبة المراس أحسن قيام أطلق لها عنان الحرية فاستقالت من الوظيفة القديمة — وظيفة حمل الجسم ورفعه عن الحضيض — فتطورت القدم وأخذت شكلا يضمن لها جدارتها بحمل الجسم والمشى والتنقل مستغنية عن معونة الأيدى استغناء تامًّا . فانحازت الإبهام عن مركزها الأول والتصقت بأخواتها باقى الأصابع — وهكذا تسطحت القدم وصلحت وحدها لحمل الجسم ونقله فصار الإنسان وحيداً بيديه ورجليه لا نظير له فى كل طبقات الحيوان .

وليحفظ الجسم توازنه فوق هذه القدم الحديثة الشكل استوى منتصباً فأخذ وضعاً لم يسبقه أحد من المخلوقات ، فتقوس العمود الفقرى تقعيراً وتحديباً . وركز الرأس فى أعلاه ، وكلاهما ارتفعا فوق الحوض والعجز والعصعص . وانتصب الكل فوق



١ — هيكل الإنسان



٢ – هيكل القرد

عظام الفخذ والساق والقدم على خط مستقيم .

أليس هذا كله نتيجة قوى الدماغ – وبالأولى العقل – فى الإنسان .

إذاً فلو فحصنا الإنسان فحصاً تشريحيًّا مدققاً لرأينا أنه لا يختلف جوهرياً عن القرد إلا بتلافيف المخ وحجم الدماغ . فمعدل وزن الدماغ عند الإنسان هو ١٣٦٠ غراماً لكنه عند القرد لا يتجاوز ٣٦٠ غراماً فقط . فيبلغ دماغ إنسان واحد مجموع أربعة أدمغة عند القرد حجماً ووزناً . وهذا الاختلاف

كاف ليجعل الفرق بينهما عظيما . وكاف أيضاً ليمنح الإنسان أعلى رتبة ممكنة فى المملكة الحيوانية .

وهكذا ارتفع الإنسان إلى أعلى درجات التطور .

فهل يمكنه أن يستمر فى الارتقاء أم هو ثابت على هذه الحالة إلى الأبد ؟ وهل ترتقى الحيوانات التى هى أحط درجة منه إلى أعلى من رتبتها ؟ لا نقدر أن نجزم بثبوت الإنسان والحيوان على حالة واحدة إلى الأبد لأن عوامل البيئة ومرور الزمن يؤثران فيهما فيكيفانهما تكييفاً بطيئاً . فإنسان البلاد الحارة مثلا هو أسود اللون عار من الشعر بعكس إنسان المناطق المتجمدة فهو أبيض البشرة كثيف الشعر . وكذلك إنسان الشرق الأقصى هو بعيد عن الاثنين بقامته وبلونه وبهيئة أعضائه مع أن العلماء كلهم متفقون بإجماع الرأى على أن كل البشر رغم اختلاف أنواعهم هم من أرومة واحدة .

كذلك حيوانات الصحراء الغبراء اللون كالجمل والغزال وأكثر الطيور كلها ذات لون أغبر . أما حيوانات أوربا أو بعبارة أوضح حيوانات الأرياف فهى متعددة الألوان . وهذا ما نلاحظه فى الحيوانات الداجنة أيضاً . فهى مختلفة الألوان مع أنها لم تكن فى الأصل إلا ذات لون واحد فقط أى لون بيئتها الأولى . فالكلاب الداجنة الظريفة لم تفترق قبل تدجينها

عن الذئب القبيح المنظر بصفة ما على الإطلاق . وكل هذا ما هو إلا نتيجة ما يتأثر به الحيوان من عوامل البيئة والزمن معاً . نعم إن هذه التأثيرات طفيفة و بطيئة لكن لو تضاعفت المدة لتضاعف هذا التغيير السطحى البطىء . فلا يعتم أن يغدو تطوراً جوهرياً ينقل الحيوان من درجة إلى درجة أعلى . لذلك لا يمكن أن يكون حيوان ما ثابتاً على حالته لأن ثبوته يتعلق بالمحيط . والمحيط لا يستقر أبداً على حال . فيضطر هو أيضاً أن يجارى انقلابات المحيط كيلا ينقرض جنسه ويتلاشى عن وجه البسيطة فيتكيف تكيفاً سطحياً وبطيئاً للغاية أى لدرجة أبطأ من أن تشعر به حواسنا فنخاله ثبوتاً . غير أن هذا الثبوت ما هو إلا وهمى . ومثله فى ذلك مثل من يلمح عقرب الساعة المتحرك . إننا كلنا نبصره ثابتاً فى مكانه والحقيقة أنه يتحرك بصورة دائمة متنقلا من برج إلى آخر فى منازل دائرة هذه الآلة دالا بين كل آن وآخر عما قد مر من وحدات الوقت المصطلح عليها. وأيضاً لو نظرنا إليه بعد ساعة مثلا لرأيناه قد اجتاز جزءاً من اثنى عشر من الدائرة ثم لو رمقناه مليًّا لتحقق لدينا ثانية أنه لا يزال جامداً . وهكذا نرى تطور هذه الحيوانات البطىء المستمر ثبوتاً وجموداً .

إن العقرب المذكور يتحرك بصورة دائمة لكن العين ضعيفة فلا تشعر بالحركة لبطئها . وإن الحيوان والإنسان على تطور

مستمر لكن قوانا العقلية والحسية ضعيفة فنتوهمه ثابتاً . وذلك لأننا للآن لم نراقب هذا التطور أكثر من آلاف معدودة من السنين. وهذه المدة نسبتها إلى بطء حركة التطور فى الحيوانات كنسبة لحظة العين إلى بطء انتقال عقرب الساعة المتحرك فهى لا تمكننا من مشاهدة هذا الانتقال . وحكمنا بثبوت الحيوان والإنسان على حالة واحدة هو كرأينا فى جمود عقرب الساعة المتحرك . فإن هذا يكون صحيحاً إذا محّصنا الأمر بعين بصيرة وراقبناه المدة الكافية . وإنه لوهم يخفى الحقيقة إذا لاحظناه بعين قاصرة تنخدع بظواهر الأشياء وتتسرع ببت الحكم قبل التروى . غير أنه من الجائز أن نرى الحيوان والإنسان بعد مراقبتهما ملايين الملايين من السنين قد اجتازا طورهما مثلما قد تحول عقرب الساعة الثابت بنظر أعيننا والمتحرك نسبة إلى الحقيقة والزمان والمنتقل من الرقم الأول إلى الرقم الثانى بعد مرور ساعة من الوقت .

وفى بحثنا المار رأينا أيضاً كيف أن الإنسان ابتدأ كباقى الحيوانات ببيضة ثم ارتقى فى مدارج التطور متنقلا من طور إلى آخر . فكان يشبه الأميبا فالحراطين ثم القرش ثم الضفدع ثم القرد حتى انتهى إلى حالته الحاضرة. وكل ذلك يدلنا على أنه لم يكن ثابتاً .

ولهذا الثبوت الوهمى شروط تسدل عليه حجاباً كثيفاً يخفى ما به من حراك فيظهر كأنه ثبوت حقيقى .

وهذه الشروط هى النواميس التى سُنّت ليجرى عليها التطور والتى تتسلط على الإنسان والحيوان فتغصبهما بعض خصائصهما . وهذه النواميس أيضاً ليست إلا التناسل مقيداً بالوراثة ومنحصراً فى النوع ومتأثراً بعوامل البيئة .

واستناداً إلى ما قد جاء فى هذا الفصل عن تطور الإنسان المستمر قد بنى بعض العلماء قصوراً فى الهواء متخيلين الإنسان الآتى تحت شكل كرة عصبية متضخمة . غذاؤها العقاقير ومحركها الآلات التى تستنبطها هذه الكتلة العصبية . فرأوا من الواجب أن تضمر المعدة والأمعاء وتذهب الأسنان نظراً للاستغناء عن وظائفها . وأن تدق العضلات وتذوب العظام فلا حاجة لاستعمالها . وأن تتقلص مقلة العين ويزول صوان الأذن لأن المخترعات الحديثة تنوب عنهما إلخ . ثم أطلقوا على هذا الإنسان الذى منشؤه الخيال وجملته الحدس اسم (السبرمان) — أى الإنسان الأكمل (فسبر) معناها (أعلى) و (مان) يقصد بها (رجل) — الذى سوف يتغذى بالسبركحول والسبرستركنين مثلا ويسافر بالسبرموتور ويبصر بالسبرميكروسكوب إلخ .

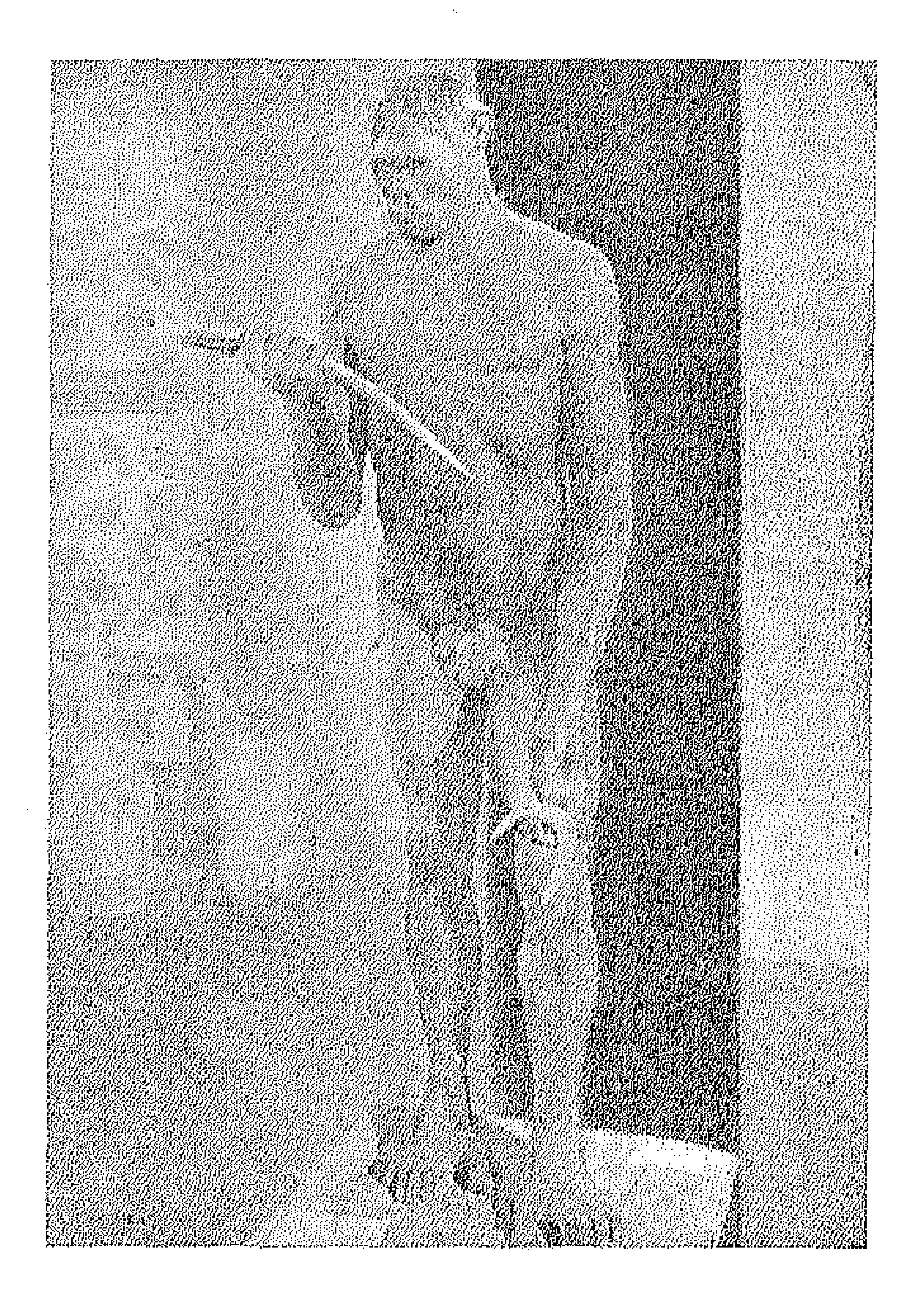
ومنهم من تخيل الإنسان بعد عشرة آلاف سنة فقط . فقال بتكييف أعضائه مستنداً إلى نمو القوى العقلية والدماغ وضمور الأعضاء الهضمية والعضلية . فرأى أن أحفادنا بعد العشرة آلاف

سنة سوف يكونون أطول قامة وأكثر هزالا وستصبح الجمجمة أرق عظاماً والرقبة أشد غلظاً لأن حملها أى الجمجمة سوف يكون أثقل . والعروق التى تمر فيها سوف تتضخم لأن كمية الدم التى تأتى بها إلى الرأس سوف تصبح أغزر . وأن الشعر سيسقط معظمه . وأن العيون سوف تكون عميقة والأنف طويلا والذقن بارزة ونبضات القلب سريعة . والأسنان صغيرة وأقل قوة والفم صغيراً . ومن نتائج أبحاث السير (أرثركيث) فى جماجم البشر القديمة والحديثة أن فم الإنسان الحالى أصغر من فم الإنسان القديم .

واستطراداً لهذه النظرية قد جربوا أيضاً أن يصوروا جد الإنسان الحالى وبعبارة أوضح الإنسان المنقرض . فتخيلوه رجلا قبيح المنظر يقرب بشكل وجهه وبإبهام قدمه وبقامته من القرود وسموه أيضاً بيثكنتروب (Pithécanthrope) أى الإنسان القردى .

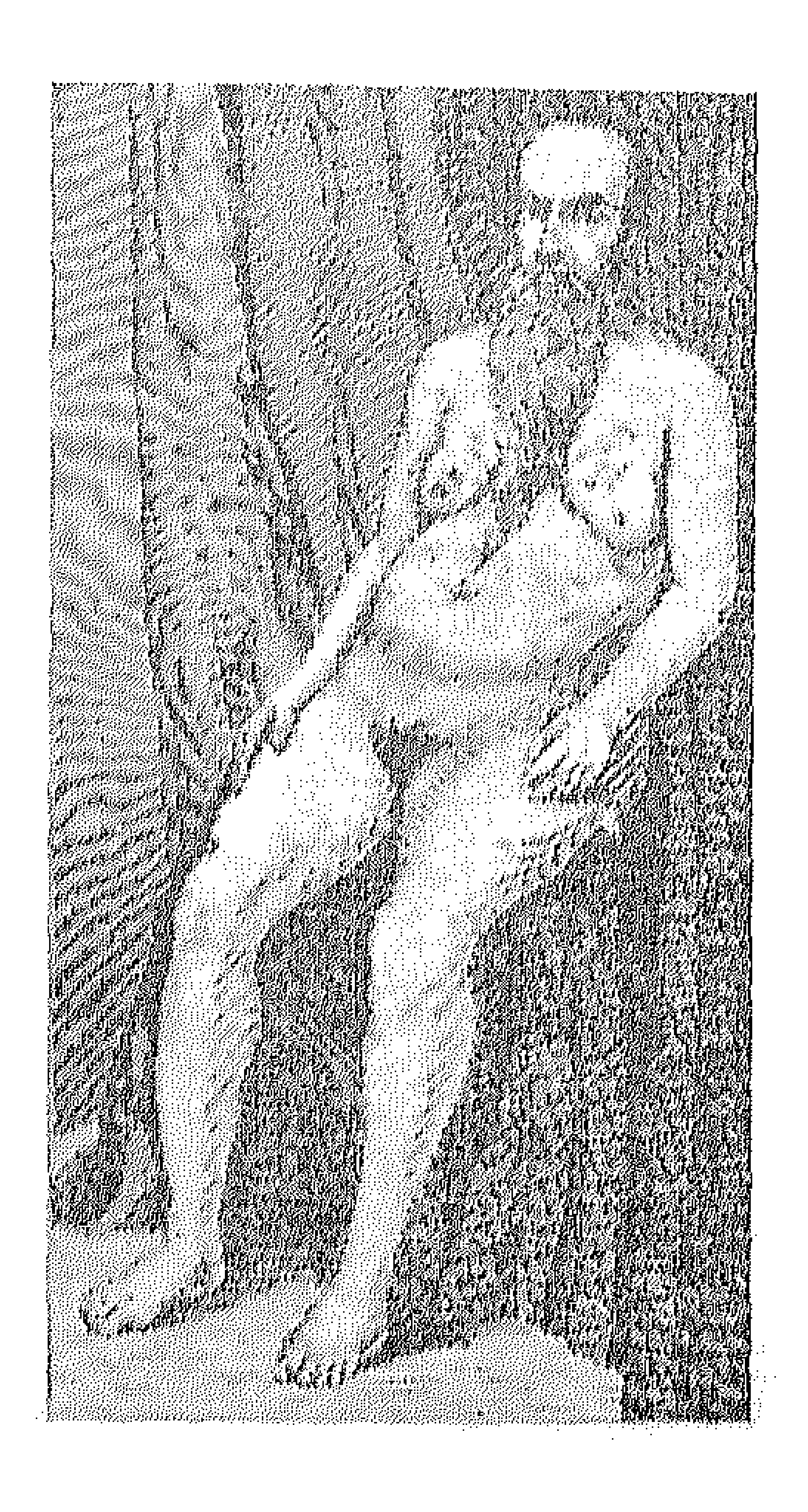
واستنتجوا هذا الرسم من بعض عظام الجمجمة ومن الفك التى عثر عليها علماء الأثريات فى جزيرة (جافا) سنة ١٨٩٢ . وفى هيدلبرج سنة ١٩٠٧ وفى بتدون (Pit-Down) سنة ١٩١٢ وهى جمجمة تتوسط بشكلها بين جمجمة الإنسان وجمجمة القرد دالة بهيئتها على أنها تختص بحيوان لا هو إنسان ولا هو قرد بل هو كائن منقرض يملأ الفراغ الموجود بين الاثنين فى السلسلة الحيوانية. لكن هذه الأدلة واهنة وغير كافية لتبنى عليها نتيجة أكيدة .

البيثكنتروب (Pithécanthrope)
أو الإنسان القردى



إن اكتشاف بعض العظام فى مدينة جافا جرأ بعض العلماء أن يفترضوا وجود كائن منقرض يتوسط بتشريحه وتركيب أعضائه بين الإنسان والقرد وسموه الإنسان القردى أو البيثكنتروب (Pithécanthrope)

الخنثى



ماري مادلين

يطلق هذا الاسم على الشخص الذى له عضوا الرجل والمرأة معاً نسبة للتناسل . والاسم الإفرنجي للخنثى هو هرمافروديت

(Hermaphrodite) وأصل هذه الكلمة أسطورة يونانية ومفادها أنه بينما كان هرمان ابن المريخ والزهرة ذاهباً فى بعض أسفاره عرج على عين ماء ليشرب . واتفق أن كانت المعبودة (افروديت) هناك فلما رأت هرمان أعجبها جماله ومن غرامها به طلبت من الآلهة أن تتحد به كيلا يفترقا إلى الأبد . فاستجابت الآلهة دعاءها وتم اتحادهما فصارا جسما واحداً محتوياً على عضوى التأنيث والتذكير وبعبارة أوضح أصبحا خنثى . لكن هرما فروديتس لكى ينتقم لنفسه طلب من الآلهة أن كل من يمر بقرب هذا الينبوع يمسى خنثى . وهكذا صار هرمافروديتس خنثى .

والخنثى من النبات هو القياس . فتكون عادة آلة التذكير وآلة التأنيث فى زهرة واحدة أو فى أزهار متعددة على ساق واحدة . والقسم الأكبر من الحيوانات غير الفقارية هو غالباً خنثى كامل كالسمك المسمى (استينوفور) أو كديدان الأمعاء العريضة وحلزون الكبد والعلق ودود الأرض وغيرها .

وفى بعض الحيوانات الخنثى الكاملة يتم اللقح بفعل عضوى التناسل فى حيوان واحد . كالعلق مثلا فإنك لو وضعت علقة فى مكان تتوافر فيه معيشتها ثم جئتها بعد حين لوجدتها قد تكاثرت وأضحت علقات كثيرة غير أن طريقة هذا التناسل

نادرة الحدوث والغالب هو أن يتم اللقح بفعل حيوانين خنثيين يلقح كل واحد منهما الآخر . كالحلزون الكبير مثلا فلا يتمكن الواحد من أفراد هذا الحيوان أن يخلد نسله كما هى الحالة عند أفراد العلق بل ينبغى أن يلتقى فردان من الحلزون حتى يتم اللقاح لكن كل فرد من هذا النوع وبغير تمييز بين الذكر أو الأنثى هو أهل لإتمام اللقح .

أما عند الإنسان فيعد الخنثى من خوارق الطبيعة . وقد نسب إلى بقراط أنه صرح فى بعض مقالات بوجود امرأة صارت رجلا.

ويقسم الخنثى عند الإنسان إلى قسمين حقيقى وغير حقيقى فغير الحقيقى يكون ظاهرياً فقط وينشأ عن خلل تركيب آلة الذكر أو آلة الأنثى ويحدث فى الغالب عند الإناث بنمو بعض أعضائهن نمواً زائداً .

والحقيقى هو أنه يجتمع فى شخص واحد عضوا التناسل للذكر والأنثى اجتماعاً كاملا أو غير كامل . فالكامل لا يحدث عند الإنسان بل هو بصورة قياسية عند النبات والحيوانات الدنيئة . وغير الكامل هوما كان من خوارق الطبيعة فى الحيوان كالإنسان الخنثى . فهو دائماً غير كامل .

وسبب حدوث الخنثى هو خلل فى نمو أعضاء التناسل عند تطورها فى الحياة الجنينية .

تطور الشعر



الشعر القليل

يكون الشعر أحياناً فى نهاية الجعودة يتراكب بعضه فوق بعض ويسمى بالقليل كما فى الهوتنتوت والبشمن والميلانيزين وهذا الرسم يمثل أحد سكان جزائر (فيجى) التابع للقبائل الميلانيزية .

الشعر أجسام قرنية أسطوانية تنبت على الجلد لتقيه العوامل الخارجية وهو من الأجزاء الإضافية للبشرة كالريش للطير والحراشف للسمك . ويؤلف من كريات شبيهة بكريات

البشر فكلما أخذت فى النمو اندفعت إلى الأمام وتلونت بأصباغ تأتيها من غدد الجلد فتكسبها لونها الخاص .

والشعر يتوزع على سائر سطح الجلد ما عدا راحة الكف وإخمص القدم وأطراف أنامل اليد وأصابع الرجل ويكثر بالقحف ويسمى بالجمة ووظيفته رد اللطمات عن الجمجمة ومنع سرعة تغيير الحرارة الخارجية عن الدماغ .

وينبت أيضاً على طرف الأجفان السائب ويدعى الأهداب وهى عبارة عن حاجز يقى العين الأجسام الصغيرة المتطايرة فى الهواء وما شاكلها . وينبت فوق العين وهو الحاجب فيرد عنها كل ما يتساقط من شعر الرأس كالأوساخ وخلافها وينبت أيضاً على المنكب ويدعى اللمة . ويغشى الجبهة وهو الطرة . ويغطى الرأس فيقال له الجمة والغفرة . ويكسو الذقن فيسمى اللحية وهذه تقوم مقام الترس للعنق من الجهة الأمامية . وينبت أيضاً على الشفة العليا وهو الشارب فيلتقط كل ما يسقط من الأنف ويقف حاجزاً لكل جسم يدخله من الخارج . وعلى الشفة السفلى وهو العنفقة . وفى الخلاء الإبطى حيث تمر كل أعصاب وعروق الطرف العلوى إذ لا شىء صلب يرد عنها الأشياء الخارجية ليقيها الصدمات ويمنع أيضاً احتكاك الجلد ببعضه . وينبت أيضاً حول سائر الفوهات الطبيعية فى الجسم . وقد يظهر على الصدر ويسمى

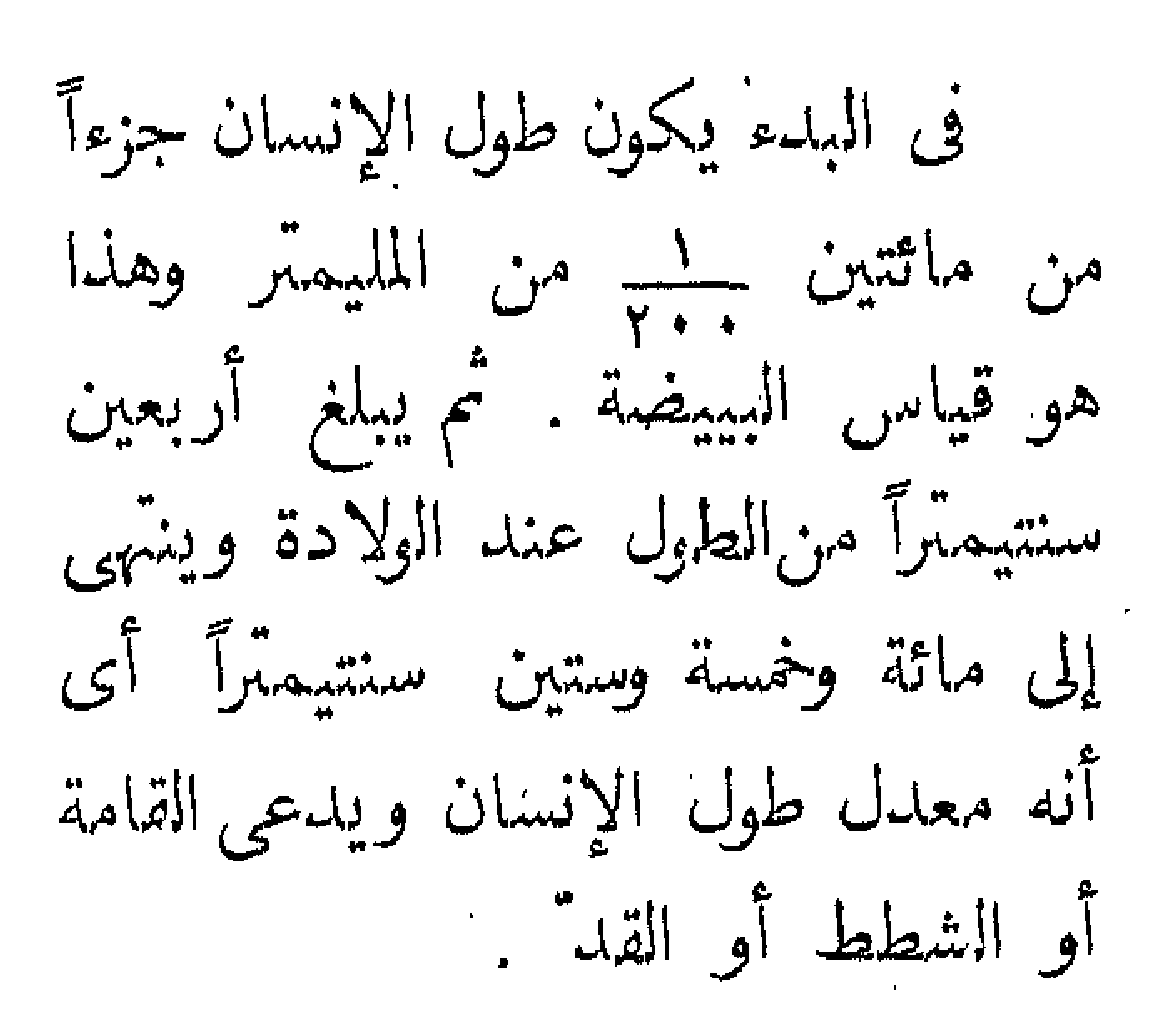
المسربة . وعلى بدن الرجل وهو الزبب .

وتختلف الأمم فى الزى بضفر الشعر وإرساله وما يحسب مستحسناً لدى أمة قد يكون مستقبحاً عند الأخرى . فالعبرانيون واليونانيون والعرب كانوا يميلون إلى الشعر الطويل . والمصريون يستحسنون جعودته ونساء الرومانيين كنّ يؤثرن الشعر الصناعى ويصبغن شعورهن ويرششن عليها غبار الذهب . وغيرهن يفضلن اللبوس المستعارة .

أما لون الشعر فيتغير حسب البيئة ولون الجلد . وأحياناً يتسبب تلوينه عن عاهة مرضية أو خلل فى الجسم فالشعر الأصبح الذى يشوب بياضه حمرة خفيفة ويصحبه النمش بالوجه هو دليل على حالة مرضية . لكن لون الشعر الأشقر أو الأسود قد يشوبهما حمرة خفيفة فى حالة الصحة أيضاً .

ويشيب الشعر عند الهرم أى يخسر لونه الطبيعى فيبيض وذلك لتأثير السن بعدما تموت الغدة الصابغة الموجودة بقرب الشعرة ، وأحياناً يتسبب عن علة ما كفقد الصبغين (المادة التى تعطى الألوان الحمراء للدم والسوداء أو خلافها لقزحية العين والشعر . إلخ) فى الوضح وما شاكل ذلك .

تطور القامة





السقعطرى و بحتر

فى البدء يكون طول الإنسان جزءاً من مائتين $\frac{١}{٢٠٠}$ من المليمتر وهذا هو قياس البييضة . ثم يبلغ أربعين سنتيمتراً من الطول عند الولادة وينتهى إلى مائة وخمسة وستين سنتيمتراً أى أنه معدل طول الإنسان ويدعى القامة أو الشطط أو القدّ .

ويتغير قياس القامة مع الجنس فمعدله مائة وسبعون سنتيمتراً عند الذكور ومائة وسبعة وخمسون عند الإناث . كما أنه يختلف أيضاً مع اختلاف المناطق والبلدان . فإما أن تزداد القامة طولا وغاية ما تصل إليه مائتان وثلاثة وثمانون سنتيمتراً كما هى الحالة عند السقعطرى ؛ أو تنقص عن الوسط المفروض وغايتها إلى ثمانية وثلاثين سنتيمتراً وصاحبها يسمى قزماً .

فالسقعطرية داء سببه خلل يعترى الجسم النخامى — لا سيا

فى الفص الخلفى منه — وهو واقع فى قاعدة المخ ومركزه السرج التركى فى الجمجمة .

وهى تنقسم أيضاً إلى قسمين :

١ — طبعية كالجبابرة ففى مثل هذه الحالة تنمو الأعضاء نمواً زائداً لكنه متناسب وصحيح التركيب .

٢ — مرضية ، وهذه نوعان . فإما أن ينحصر التمدد والتضخم فى العظام الطويلة فقط مثل عظام الساق والفخذ والذراع فيغدو الإنسان طويلا خارق العادة ذا وجه مخروطى وسائر أعضائه نحيفة وركيكة البنية . وهذا النوع يمثل السقعطرية الحقيقية (Gigantisme)

وإما أن تتضخم الأطراف فقط كالقفندر أو الافتنح (Acromigalique) ففى هذا النوع تتضخم الأيدى والأقدام والأنف والشفتان واللسان . ودائماً ينتاب المريض صداع وإغماء واضطراب فى حاسة البصر . ويعالج هذا الداء بواسطة خلاصة الجسم النخامى لكن مع الأسف بدون طائل تقريباً .

والأبحاث الحديثة تدل على أن تضخم الجسم النخامى إذا حصل قبل البلوغ يحدث السقعطرية وإذا صادف الإنسان بعد البلوغ يصيبه الفتنح .

أما القزم فأسبابه مختلفة منها الكساح والمهرمة وغيرهما .



القزم الدرقى

فبعض الناس يولدون أقزاماً ويستمرون على هذه الحال طوال حياتهم فهم أقزام فى عهد الطفولة وأقزام بعدها. ومنهم من يولدون كاملى النشوء ويعيشون متمتعين ببنية قوية إلى أن يعتريهم مرض ما فيوقفهم عن النمو فجأة ثم يثبتون على هذه الهيئة كل أيام حياتهم . فعليه يكون القزم إما عمومياً أو موضعياً .

فالعمومى يتناول جميع أعضاء الجسم بحيث تكون كلها صغيرة ولكن متناسبة القياس . وهذا النوع من القزم نادر جداً وعلى الأخص فى قارة أوربا . وقامة هؤلاء الأقزام لا تزيد على المتر الواحد عادة . فمنهم من يلتحى ومنهم من يبقى أجرد فعند

الأولين لا تخط اللحية فى الوجه إلا بعد الخامسة والعشرين من العمر . كما أن الأعضاء التناسلية تنمو متأخرة ومع ذلك تقوم أحياناً بوظيفتها وبعض الإناث الأقزام يولدن صغاراً .

أما الآخرون فيثبتون على حالة الولودية طوال حياتهم وتكون أمارات وجوههم وأصواتهم المؤنثة دليلا واضحاً على ذلك . وعندما يتجاوز السنة الحادية والعشرين تتخدد وجوههم وتتورم جفونهم وتستدق عظامهم . والقزم الموضعى أنواع كثيرة :

١ ــ التقزم الحندلى ــ وهذا الداء سببه الحندلية ــ وهو مرض يعترى الجنين فيوقف عظامه عن النمو نسبة للطول وليس نسبة للغلظ . وهؤلاء الأقزام يكونون ذوى رؤوس كبيرة ولكن أذرعتهم وسيقانهم تكون قصيرة جداً وأيديهم وأقدامهم مربعة الشكل وأطراف عظامهم متضخمة . فكل قزم منهم أركب أى عظيم الركبة دقيق الساق .

والأعضاء التناسلية عندهم صحيحة عادية . والقوى العقلية فى هذا النوع من الأقزام سليمة أيضاً وأحياناً خارقة العادة . وهؤلاء هم البغمة ــ الأقزام ــ الذين كانوا يضحكون الرومانيين فى أعيادهم وأوقات أفراحهم .

٢ ــ القزم الناشىء عن التورم الدرقى .

ويتسبب غالباً عن خلل فى إفرازات الغدة الدرقية عند

المرأة فى أثناء حملها . ولا تظهر هذه العاهة فى الطفل إلا بعد الفطام .

أعراضه : رأس مسنم لا سيما من الخلف وكبير الحجم أيضاً . جبهة ضيقة . وجه منتفخ . جلد متورم . أجفان غليظة . فم مفغور دائماً . شفتان غليظتان . رأس منحن . عنق قصير . سيماه تدل على البله . بطىء فى الدورة الدموية والتنفس مع آلام مبرحة فى الجهاز الهضمى وضعف فى العظام . وهؤلاء الأقزام ليسوا بأذكياء كأقزام الحندليين بل هم مأفونون . وفى فتور مستديم .

٣ — القزم المليني (Ostéomalacie) والملينة هى ارتخاء فى العظام يحدث عند المرأة على أثر الحمل المتواتر وسببه نقصان فى كمية المواد الكلسية فى العظام . وهذا النوع نادر جداً لأن الملينة لا تحدث عادة إلا بعد سن العشرين .

٤ — القزم الكساحى (Rachitique) وهذا القزم يمتاز عن الباقين بساقيه المعوجتين وبركبتيه الكبيرتى الحجم . وبشكل أضلاعه الملتوية وببطنه الدحداحى وبوجهه القصع الكادى . وبجسمه النحيل .

٥ — القزم المهرمى (Senil) والمهرمة داء يدعو أو يسوق إلى الهرم والعجز . إن الأستاذ فاريو قد ذكر فى إحدى خطبه

التى قدمها إلى جمعية طب الأطفال ابنة قزمة من النوع المهرمى ونحن الآن ننقل عنه هذه الملاحظة .

« كانت ابنة بالغة الخامسة عشرة من عمرها وزنها أحد عشر كيلوغراماً وطولها متر واحد فقط . ذات محيا ممسوخ وسيماء هرمة . وكان جلدها مجرداً تجريداً كاملا . ومخدداً فى كل أنحائه . وكان خشن الملمس مع ذبول شديد . وجمجمتها كانت صغيرة الحجم لكنها كبيرة نسبة إلى وجهها الشاحب الصغير . وعيناها كانتا جاحظتين عاريتين من الأهداب والحواجب . وأنفها أذلف وفمها أشرق وأسنانها ناقصة وغير منتظمة ورقبتها ضارعة . وصدرها أفق وساقاها ركيكتان فى وسطهما ومنتفختان عند المفاصل . وأصابعها كالمسلات » . والمجمل من ذلك أن هؤلاء الأقزام يمثلون أعراض هذه العاهة أصدق تمثيل .

٦ — القزم الناشئ عن داء السل وهذا اسمه سل العمود الفقرى الذى يلوى الظهر ويحدبه . غير أن سائر أعضاء الجسم تكون فى الغالب صحيحة .

ويوجد أيضاً أنواع أخرى من القزم لا يتسع المقام لذكرها .

وبعض العلماء يعزون السبب فى حدوث القزم عند سكان أفريقيا كالبشمن والزنوج وغيرهم لتغذيتهم بالأعشاب التى تنبت

فى تلك المناطق والتى قد تمنع الجسم عن النمو . لأنه يوجد بين الزنوج قبائل أفرادها طوال القامة مع أنهم كلهم يرجعون فى الأصل إلى أرومة واحدة والذى يختلف عندهم هو الغذاء والموطن فقط . وأيضاً نرى البشر يتغير طول قامتهم وقصرها مع المناطق وليس مع السلالة . فالقصار هم كما ذكرنا سابقاً فى أفريقيا كالبشمن والبغمة من الزنوج . وطوال القامة هم أهالى أوربا الشمالية وأمريكا الشمالية وجزر بولونيا وكثير من القبائل الزنجية أما القامة الربعة فهى نصيب أمم آسيا ما عدا شمالى الهند وأقصى الشرق كما أنها نصيب أمم أوربا الجنوبية .

فالبغمة الأقزام والزنوج الطوال التامة هم جميعهم من سلالة واحدة تقريباً وسكان أوربا الجنوبية وأهالى أوربا الشمالية يرجح كيانهم من أرومة واحدة . إنما يختلفون فقط بطريق التغذية لأن كل فرقة منهم تعيش غالباً على ما تعطيه من الغذاء تلك البقعة التى تقطن فيها . وعلى الفرق الحاصل بين الأغذية يتأسس الفرق بين النمو وبالأحرى الفرق بين أبعاد الأجسام .

الفصل الثالث
الوراثة الطبيعية

الوراثة هى أهلية طبيعية تقضى على الوالدين حتماً بنقل خصائصهم بعضها أو كلها إلى أنسالهم بطريقة التسلسل وغايتها حفظ النوع واستمرار صفاته المميزة فى فروعه . وهى أيضاً فعل عمومى على الإطلاق يحدث عند كل الكائنات الحية نباتية كانت أم حيوانية من ذوات الخلية الواحدة إلى أكمل الحيوانات.

نظرة تاريخية

كانوا قديماً يظنون أن الوراثة محاطة بأسرار غامضة ويستحيل على الإنسان أن يكشف الستار عن مكنوناتها لكن العلم الحديث قد شرع يخوض غمارها ، فاهتدى إلى طريقة تساعده على حل مشكلاتها وعرف القليل من بعض نواميسها . والأرجح أن مسألة الوراثة قد عولجت منذ ابتداء الحياة الاجتماعية وأنها أساس كل القوانين الاجتماعية الأولى التى رتبت العائلة ونظمتها . وأنها أيضاً الدليل الفعال الذى كانت الأديان تستعين به فى تعاليمها وتحاريمها .

لقد جاء فى كتاب (مانافاد هرما سسترا) عدة قوانين سنها (مانو) الهندى مأخوذة عن ملاحظة الحوادث الوراثية . فكانت

هذه القوانين تعاقب بصرامة كل من يتزوج امرأة ليست من أبناء أمته . وكانت تحتقر الشخص المولود بهذه الطريقة وتدعوه زنيا . وكانت تعده ناقصاً ومحروماً العواطف الشريفة وغير أهل لتتميم واجباته الدينية والدنيوية لأنه – باعتبارها – لا يرث منهما إلا المزايا السيئة فقط بدلا من الحسنة . ولهذا كانت توصى بالابتعاد عن العائلة التى :

أولا : تدنس الأسرار .

ثانياً : لا تلد ذكوراً .

ثالثاً : لا تطالع الكتب .

رابعاً : ذات بشرة مغطاة بالزغب .

خامساً : عندها داء البواسير .

سادساً : فيها داء الجذام .

سابعاً : مريضة بداء السل إلخ . . .

فيستبان من ذلك أن مانو الهندى قد درس مسألة الوراثة بدقة ووقف على شيء من حقيقة أمرها . بيد أن علماء هذا العصر لم يصلوا إلى معرفة اليسير من غوامضها إلا بعد عناء طويل وتجارب كثيرة .

وقد جاء فى التوراة أيضاً تعاليم جمة تستند إلى المبادئ الوراثية منها : الآباء أكلت الحصرم والأبناء ضرست . فيتبين منها

أن الذين صنفوا هذا الكتاب قد راقبوا الوراثة واتخذوها دليلا لهم فى تعاليمهم . كما أن أفلاطون قد عرف شيئاً عنها فحدّ بعض أنواعها . وأرسطو درسها فى كتاب (دى جنيسر اسيونه ـ الأمم الحاضرة) درساً كافياً وأطلق على أفراد السلالات المتتابعة لفظة (أنفال) . ثم أتى من بعدهم (بوفون) و (لينى) فأكملوا شرحها نوعاً ما . أما (لامارك) فهو أول من درس الوراثة دراسة علمية تجريبية . وبعده جاء دروين فأكمل هذا البحث ورتب له النواميس التى بناها على أسس المراقبة والتجريبية وأقام له الأدلة الواضحة والبراهين الراهنة . ثم جاء أخيراً (مندل) و (نودن) ودرساها على زهور الجلبان فاكتشفا كيفية انتقال سماتها من الآباء إلى الأبناء تابعة نسبة عددية لا تحيد عنها .

نواميس الوراثة

تنحصر نتيجة أبحاث وتجارب المدققين فى هذا العلم مثل دروين ومندل وبرون وغيرهم فى ثلاثة نواميس وهى :

أولا : ناموس التساوى ـ وهو أن مواليد السلالة الأولى تكون كلها متشابهة تشابهاً كلياً .

ثانياً : ناموس الانفساخ ـ فمن مواليد السلالة الثانية وصاعداً تظهر العلامات والأشكال التى وجدت فى الأجداد والتى قد

اختبأت في الآباء . وهذا ما يسمونه بالعود على البدء أو الارتداد إلى الأصل .

ثالثاً : ناموس النسبة العددية — وهي أن عدد المواليد المختصة بهذه العلامات والأشكال يتبع نسبة محدودة لا يحيد عنها .

ومع ذلك فإن كل الحوادث الوراثية لا تنحصر في هذه النواميس الثلاثة لكن الأكثر حدوثاً منها يجري على النمط المذكور. لذلك فهي ليست بعمومية ولا بمطلقة . فتساوي مواليد السلالة الأولى وانفساخ مواليد الثانية يمكن نقصانها أحياناً . كما أن النسبة المحدودة لا يستحيل بطلانها غير أن حدوثها المتواتر على القياس المذكور آنفاً ساعد على تنظيم النواميس الثلاثة المأخوذة عن مراقبة الحوادث والمنسقة على الطرق الآتية :

١ — الطريقة الجلبانية

إذا لُقِّح جُلُّبان ذو زهرة حمراء بجلبان ذي زهرة بيضاء ينشأ من هذه النغولة بذور تعطي أزهاراً حمراء فقط . وكل واحدة من هذه الأزهار تدعى نغل السلالة الأولى وتكون كلها متماثلة ومماثلة أيضاً لأحد أبويها بتلونها بالاحمرار . ثم لو لقحنا أنغال الجلبان في السلالة الأولى بعضها ببعض لأعطت جلباناً ذا زهرة حمراء وجلباناً ذا زهرة بيضاء بنسبة ثلاثة إلى واحد أي ثلاثة أزهار

حمراء وواحدة بيضاء فقط .

فلو لقحت الأزهار البيضاء الأخيرة مع أخواتها البيضاء فقط لما أعطت إلا جلباناً ذا زهرة بيضاء نقية ناصعة مساوية لأحد جديها الأولين بتلونها بالبياض . إذاً فهى لا تخلد إلا نسل الجلبان الأبيض وليس الأحمر . أما الأزهار الحمراء الباقية فتقسم إلى قسمين بنسبة واحد إلى اثنين فالثلث الأول لا يعطى إلا أزهاراً حمراء مساوية لأحد جديها تماماً بتلونها بالاحمرار وهى لا تخلد إلا نسل الجلبان الأحمر وليس الأبيض والثلثان الباقيان هما أنغال تعطى جلباناً ذا زهرة بيضاء بنسبة واحد إلى ثلاثة أى زهرة بيضاء وثلاث حمر .

والخلاصة أن الانفساخ فى السلالة الثانية يعطى :

$\frac{1}{4}$ أحمر	$\frac{2}{4}$ أحمر	$\frac{1}{4}$ أبيض
(سمة غالبة محضة)	(أنغال)	(سمة زائلة محضة)

فالأحمر الأول ذو السمة الغالبة المحضة (المعندة)[1] لا يخلد إلا أحد الأبوين أى الأحمر فقط ولا يظهر اللون الأبيض فى كل السلالات التى تنشأ منه على الإطلاق . والأبيض الأخير ذو السمة الزائلة المحضة لا يخلد إلا أحد الأبوين أى الأبيض فقط وهو من هذا القبيل يماثل ذو السمة المعندة . لكن الأزهار

(١) انظر هذه اللفظة فى كشف الظنون للتهانوى فهى تؤدى المعنى الفنى المطلوب

الحمراء الباقية (الأنغال) تعطى دائماً مواليد حمراء وبيضاء بنسبة واحد إلى ثلاثة . أى واحد أحمر (ذو سمة معنده) وواحد أبيض (ذو سمة زائلة) واثنان حمراوان (أنغال) .

وهكذا يتتابع التناسل فى مواليد السلائل المتوالية فتجرى على النمط نفسه الذى اتبعته فى السلالتين الأولى والثانية .

إن غياب اللون الأبيض فى أفراد السلالة الأولى ليس بدليل على اضمحلاله لأنه سيظهر فى السلالة الثانية عند الانفساخ . ولذلك يقال للون الأحمر (السمة المعنده) لأنه يظهر فى كل السلالات . وللون الأبيض (السمة الزائلة) لأنه يختفى أحياناً .

والسمة المعنده هى السمة الأصلية الطبيعية التى يرتد الكائن الحى إليها فى حالة العود على البدء .

فلو تركنا يد الأقدار تعمل بالجلبان حسب مشيئتها لاختفى اللون الأبيض من بين أزهار هذا النبات ولساد اللون الأحمر . كذلك لو جمعنا بين عدة أصناف من الخيول العربية والإنكليزية وماشاكل ذلك وتركناها إلى شهوتها لارتدت إلى الصنف الذى كانت عليه قبل إيلافها للإنسان أى إلى حالة الحصان البرى .

والكلاب أيضاً ترتد إلى نوع يشتق من الذئب أو من ابن آوى.

وهكذا كل الحيوانات الأليفة ترجع إلى حالتها الوحشية الأصلية .

إن العلامة (مندل) ينسب هذه الحوادث الوراثية إلى خاصية الخلايا البييضية والطلعية . فيعتقد أن كل نغل يصنع عناصر كثيرة مميزة لجنس أبويه . منها للذكر ومنها للأنثى . وأن كل جنس لابد أن يحتوى على أحد السمات فقط . فالنغل ذو الزهرة الحمراء يصنع مثلا خلايا التذكير وخلايا التأنيث يتضمن بعضها السمات الحمراء وبعضها الآخر السمات البيضاء فقط .

ويرجح (مندل) أيضاً أن النغل يصنع هذه السمات المختلفة بكميات متساوية . وعندما تلتقى هذه العناصر المتباينة تتحد اثنين اثنين قدراً واتفاقاً . ونتيجة هذا الاتحاد تتعلق بتصادف العناصر فإذا كان العنصران يملكان ذات السمة يكون المولود كريم المحتد وخالص الأصل . مثل الزهرة البيضاء فى السلالة الثانية عند الجلبان . وإذا كانا كلاهما يحتويان على السمتين يكون المولود نغلا مشترك الأصل مثل الزهرة الحمراء فى السلالة الأولى .

٢ ــ طريقة الذرة

إن الطريقة الجلبانية مع كل ما عليه من الانتشار فى تناسل الكائنات الحية ليست بطريقة عمومية إذ أنه يوجد قسم ليس بالقليل من هذه الكائنات لا يتبع هذه الخطة الوراثية بل يحيد عنها نوعاً ما . فلو لقحنا صنفاً من الذرة ذا بذور زرقاء

مع صنف آخر بذوره صفراء لحصلنا على بذور ذات لون بنفسجي ، إذاً فأنغال السلالة الأولى تشابه بعضها بعضاً لكنها تباين أبويها الاثنين فتأخذ هيئة جديدة متوسطة . ثم لو زرعت هذه البذور البنفسجية لأعطت نباتاً ذا بذور زرقاء ونباتاً ذا بذور بنفسجية ونباتاً ذا بذور صفراء بنسبة $\frac{١}{٤}$ و $\frac{٢}{٤}$ و $\frac{١}{٤}$. وهكذا نرى أن هذه الهيئة المتوسطة لاتدوم بل تختص بالأنغال فقط لتميزها عن السمات الغالبة والزائلة .

ثم تنفسخ هذه الأنغال قياسياً من ابتداء السلالة الثانية فصاعداً كما هي الحالة في الطريقة الجلبانية . فالأنغال البنفسجية تخلد البذور الزرقاء والصفراء والنفسجية أيضاً حسب النسبة المار ذكرها ، لكن البذور الزرقاء لا تعطي إلا بذوراً زرقاء . والصفراء لاتخلد إلا صفراء .

وطريقة الذرة لا تنحصر في النبات فقط بل تحدث عند الحيوان أيضاً . فمواليد دجاجة سوداء حالكة وديك أبيض ناصع تكون ذات لون رمادي مائل إلى الزرقة . لكن هذا اللون الظاهر للعين المجردة بوحدة لونه لو نُظر إليه من وراء العدسة المكبرة لاستبانت حقيقة تركيبه . فما هو إلا شبه فسيفساء مؤلفة من نقط بيضاء ونقط سوداء . وهي في ائتلافها تظهر في لون واحد وهو اللون الرمادي . وهذا الإيلاف يعرفه الرسامون جيداً

عند استعمال الألوان الزيتية . فللحصول على اللون الرمادى يخلطون المادة الصبغية البيضاء بالمادة السوداء بنسبة معينة . وأحياناً تكون هذه النقط البيضاء والنقط السوداء كبيرة فتظهر آنئذ للعين المجردة بكل وضوح كما فى الدجاجة الرقشاء التى هى سلالة ديك أبيض مع دجاجة سوداء أو بالعكس .

ونرى فى هذه الطريقة الوراثية أن السمات الأصلية المتباينة فى الأبوين — أى السمتين المعنده والزائلة — لا يسود بعضها على بعض كما هى الحالة فى الطريقة الجلبانية . بل تختلط معاً فتعطى لوناً جديداً . أو بالأحرى أن السمة المعنده ليست بغالبة حقيقة بل هى ثابتة فقط فهى لا تستطيع أن توارى السمة الزائلة بل تمتزج بها . ثم يأخذان كلاهما شكلا واحداً جديداً .

هذا هو كل الفرق بين الطريقة الجلبانية وطريقة الذرة .

٣ — طريقة السلسلة المتتابعة

فى هذه الطريقة التى تجرى عليها الوراثة تتغاير أنغال السلالة الأولى بعضها عن بعض على خلاف ما مرّ فى الطريقتين السابقتين حيث تكون كلها متساوية . فهنا تنتظم سلسلة متتابعة مبتدئة فى صورة أحد الأبوين ومنتهية فى صورة الآخر .

لقح نودن — أحد علماء الوراثة — النبات المدعو داتورا

سترامنيوم(Datura Stramonium)ذا الأثمار الشائكة مع صنف آخر ذى أثمار ملساء . فأتت أنغال السلالة الأولى بعيدة فى الشبه بعضها عن بعض ومتوسطة فى الشكل بين الأثمار الشائكة والأثمار الملساء . فمنها ما كان ذا أشواك قصيرة . ومنها ما كان أملس من جهة وشائكاً من جهة أخرى وكان بها أحياناً بعض سنف الثمار شائكاً وبعضها أملس .

كذلك الدجاجة ذات العرف البسيط الشبيه بكتلة صغيرة مستديرة الشكل والديك الكبير العرف المسنن كالمنشار تكون أفراخ سلالتهما الأولى منها ماله عرف بسيط ومنها ما له عرف كبير مسنن . والباقى متوسط الأعراف بين الحالتين . وهذا التغاير لا يستطاع تمييزه فى السلائل المتوالية التى تأتى بعد السلالة الثانية فيتعذر تنسيق سماتها على تسمية قياسية كما هى الحالة فى الطريقتين المارتين . ثم تتوارى باختلاطها المستمر فيعسر آنئذ تفريق السمات الأولى بين أفراد هذه الأرومة .

فلماذا لا تجرى إذن الأنغال فى هذه الطريقة الوراثية على قياس النسبة العددية المار ذكرها فى الطريقتين السابقتين ؟

ذلك لأن الحصول على هذه النسبة العددية ينبغى له أن تكون السمات الوراثية متقابلة ومتناقضة على خط مستقيم وبدون ما التباس . كاللون الأحمر واللون الأبيض فى أزهار الجلبان أو

كاللون الأزرق واللون الأصفر فى بذور الذرة . فهذه السمات المتقابلة المتناقضة تدعى « السمات المندلية » نسبة إلى مكتشفها العلامة (مندول) . إلا أن التشوك والتملس فى أثمار الداتورا . والأسنان وغيابها فى عرفى الديك والدجاجة ليست بسمات مندلية لذلك لا تتبع فى حدوثها ناموس النسبه العددية التى وضعها مندل لكنها تتوسط بشكلها بين حالتى الأب والأم . ولذلك أيضاً نرى صغار الإنسان بعضهم يشبه الأم والبعض يشبه الأب وأحيانا لا يشبهونهما إلا ببعض المزايا فقط . وغالباً يكون الشبه عائداً إلى الأجداد أو الأخوال إلخ . . .

لكن هذا التغاير يبقى منحصراً فى صفات تختص بتلك الأرومة للدرجة أنها تؤلف سلسلة متتابعة تتراوح بشكلها بين صفات الأبوين كما هى الحالة فى أثمار الداتورا وعرف الدجاج. لأن هذه السمات المختصة بأرومة تلك العائلة المعينة ليست بسمات مندلية لتتبع ناموس النسبة العددية التى وضعها مندل . وإلا كانت صفات الأولاد الظاهرة والباطنة تعرف قبل ولادتهم قياساً على هذا الناموس واستنتاجاً من صفات الوالدين .

كذلك لو كان مثلا ابيضاض البشرة واسودادها عن الأبوين من الجنس البشرى سمة مندلية لجاء الأولاد فى السلالة الأولى كلهم خلاسيين . ولحصل الانفساخ عندهم فى السلالة

الثانية كما هى الحالة فى الطريقة الجلبانية . وهذا خلاف الواقع. لكن المحتمل أن هذين اللونين فى الجنس البشرى ليسا بسمة مندلية . فلذلك يعتبر الخلاسى اللون من الحالات المتوسطة الخالدة.

٤ ـ الحالات المتوسطة الخالدة

إن أشهر العلماء فى هذا البحث قد أثبتوا فى خلال القرن المنصرم أنهم قد حصلوا على أنغال متوسطة بين الأب والأم توسطاً تاماً فى القياس واللون وما شاكلهما من السمات المندلية . مستمرة فى ظهورها فى كل السلالات التى تلى السلالة الأولى بصورة خالدة أبدية .

فلو زاوجنا مثلا أرانب ذات آذان طويلة مع أرانب ذات آذان قصيرة لجاءت آذان الأنغال فى السلالة الأولى بحالة من الطول متوسطة تماماً بين آذان الأب وآذان الأم . أى أنها تزيد عن آذان الأم القصيرة بمقدار ما تنقص عن آذان الأب الطويلة .

وفى السلالة الثانية ــ حيث يحصل الانفساخ ــ يختلف قياس الآذان عند كل فرد منها . وإنما يبقى هنالك أفراد آذانها ذات قياس متوسط . وهذه هى التى تخلد فقط شكل أبويها والأنغال معاً .

وكذلك كل الحيوانات المزينة بألوان أو خطوط غريبة فى جنسها . أو المزركشة بريش جميل غير اعتيادى فى نوعها

فكل هذه التنوعات ما هى إلا حالات متوسطة خالدة . كما أنه باختلاط أصناف النوع البشرى كاختلاط الصنف الأبيض بالصنف الأسود ينتج ما يسمونه بالخلاسى الذى لون بشرته متوسط بين البياض والسواد وما هو أيضاً إلا حالة متوسطة خالدة.

٥ — بعض طرق متنوعة

بعض الحيوانات تجرى وراثياً على طرق ونواميس متغيرة وغير قياسية . وذلك لأن شروط المحيط وبالأحرى حالة البيئة هى فى انقلاب مستمر فتضطر هذه الحيوانات أن تحاذى بيئتها فتخسر بعضاً من السمات الوراثية وتستبدل بها سمات مكتسبة فنتوهم حينذاك أنها حادت عن مقتضيات النواميس الوراثية العامة فعليه توجد طريقة وراثية أخرى — تدعى التغلب المؤقت — يأخذ فيها الكائن الحى هيئة أبويه الاثنين تدريجياً وتناوباً .

والأستاذ جيار هو أول من تحقق أن الأنغال الناشئة عن تصالب أبى رعاية (وهو طائر صغير من طائفة الدورى ذو ألوان جميلة ويدعى باللغة العامية الحسون) مع نوع آخر من الطائفة نفسها يسمى السرين (طائر يشبه الكنارى) كانت تكتسى بريش أبى رعاية إلى نهاية الانسلاخ الأول ثم كانت تبدله بعدئذ بريش السرين . وسميت بالاعتناد الموقت لأن سمة

أحد الوالدين تتغلب مؤقتاً على سمة الآخر فتظهر وحدها تقريباً لكنها لا تعتم أن تضمحل ويحل محلها سمة الوالد الثانى . وفى بعض الظروف يحدث ما يدعى الاعناد المؤبد — إذ أن المواليد تتزيا بزى جديد غريب عن الجدين .

إن العالم « كوتانى » لما زاوج فى سنة ١٩٠٢ دود القز المبرقش بدود القز الفرنسى ذى اللون الأبيض الناصع حصل فى السلالة الأولى على فراش لونه ضارب إلى السواد ثم انتخب من هذه الأنغال الفراش الأشد سواداً وزاوجها معاً فحصل على فراش ذى سواد حالك . فهذا اللون الأسود الحالك لم يكن موجوداً فى الأجداد ومع ذلك ظهر فى الأحفاد بكل وضوح وهو يبقى ثابتاً عند الفراشة منذ ابتداء الحياة فيها إلى منتهاها .

فهذه السمة السوداء تتغلب على سائر السمات تغلباً مؤبداً فتلازم الفراش طوال الحياة . أما السمات الأخرى فتختفى مؤبداً أيضاً من هذا الكائن الحى .

٦ — الوراثة بالأرساخ

الوراثة بالأرساخ هى حادث بواسطته تنقل الأنثى الملقحة من الذكر الأول إلى سليل الذكر الثانى خاصيات الأول . والعدد الكبير من الأطباء وعلماء الحيوان والنبات — ولا سيما من كان

منهم من أصحاب المواشى – قد سلموا بصحة هذه الطريقة الوراثية واستندوا إلى المراقبة للاهتداء إلى شروطها وأنظمتها . وأهم الملاحظات التى وردت فى هذا الباب هى :

إن العلامة دروين قد راقب عدداً ليس بالقليل من أمهار اللورد مورتن . ثم نشر نتيجة مراقباته فى مؤلفاته . ومنها أنه لقح فرساً عربية الأصل بذكر حمار الوحش (أو الفرا وهو حصان برىّ من حيوانات أفريقيا مخطط بخطوط سمراء قاتمة) فولدت نغلا يشبه أباه الفرا . وبعد مدة من الزمن لقحت هذه الفرس بحصان أدهم عربى الأصل فولدت مهراً ساقاه وعنقه مخططة شبه أخيه السابق أى ابن الفرا وسبيب ذؤابته قصير صلب منتصب كما هى الحالة تماماً عند الفرا .

كذلك لو لقحت نعجة بيضاء بكبش ملون لوضعت سخلة مختلفة الألوان . ثم لو لقحت تلك النعجة بعد حين بكبش أبيض ناصع مثلها لولدت ثانية حملا مختلف الألوان كالكبش الأول الملوّن.

كما أنه لو لقحت بقرة ليس لها قرون بثور أقرن لولدت عجلا أقرن . ثم بعد مدة لو لقحت بثور ليس له قرون لأعطت عجلا أقرن أيضاً .

وقد ورد كثير من هذه الأخبار عن الجنس البشرى منها أن امرأة جميلة من سكان أوربا هاجرت إلى إفريقيا وهناك

اقترنت برجل أسود اللون . وبعد حين مات هذا الرجل عن ابنتين سوداوين . فتركتهما تلك الأم البيضاء وفرت هاربة إلى قارة أوربا . ثم تزوجت ثانية برجل أبيض وعقيب ذلك حملت منه وولدت ابناً خلاسياً (أسمر اللون) . فادعى زوجها بأن هذا الخلاسى لم يكن من صلبه لانتفاء من يشبهه بعائلته . فرفع شكواه إلى المحكمة وطلب طلاقها بهذه الحجة . والمحكمة قررت الحكم عليها أيضاً بأنها زانية نظراً لفقدان الأدلة التى تبين أن هذا الولد الأسمر اللون هو بالفعل ابن ذاك الرجل الأبيض وبعد مضى عدة سنوات على هذه الحادثة ظهرت نظرية دروين فى الوراثة بالأرساخ . عندئذ عادت المرأة إلى المحكمة وطلبت نقض الحكم مستندة إلى هذه النظرية . مدعية أن لون ابنها الخلاسى لم يأت إلا من زوجها الشرعى السابق الأسود اللون . وأنها حفظته فقط بتأثير الوراثة بالأرساخ . وعلى ذلك أعلنت المحكمة براءتها . وكثيراً ما يحدث مثل هذه الغرائب فى المحيط الذى نعيش فيه ولا نعيرها أقل انتباه .

وكثيراً ما تصادف الوراثة بالأرساخ عند النساء الأرامل أو النساء الطوالق اللواتى تزوجن ثانية . فى غالب الأحيان نرى أولادهن يميلون شبهاً إلى الزوج السابق أكثر منه إلى أبيهم الحقيقى ولو لاحظنا هذا الحادث فى العائلات التى نعرفها لعثرنا عليه غالباً .

فالبعض يفسرون الأرساخ عند الأنثى الحامل بشدة الوحام . أى أن المرأة هى مثل سائر الحيوانات تتذكر ما اعتراها من ألم أو لذة فى الماضى . فتذكر حتما ذاك الرجل الذى قضت معه مدة من الزمن . ولا سيما إذا كانت هذه المدة من ألذ أدوار حياتها . كما أنها تتأثر أيضاً بما تراه فى أثناء حملها فتنقله إلى ابنها.

والوحام إثباته لا يحتاج إلى برهان لأن تأثير البيئة على الحامل أمر واضح . وهو يحدث أيضاً بصورة مستمرة عند الحيوانات الداجنة المختلفة الألوان . فهذه جميعها لم تكن فى الأصل إلا كالحيوانات الوحشية ذات لون واحد . فإن تأثير البيئة على الإناث أو بالأحرى تأثير الوحام أوصلها إلى ما هى عليه الآن من الاختلاف فى الألوان . وهذا الأمر قد عُرف من زمن بعيد للغاية . فالتوراة تذكر أن يعقوب لما كلفه خاله لابان رعى أغنامه واشترط عليه أن يعطيه لقاء تعبه كل المواليد الملوّنة التى تلدها تلك الأغنام . كان عندما يردها إلى الماء يضع لها حول المورد خيالات مكسوة بأثواب ملوّنة . ويفيد نص التوراة أن أكثر مواليد الأغنام فى تلك السنة كانت ملونة .

والأرجح أن اختلاف الجنس البشرى فى لون البشرة لم يكن إلا نتيجة الوحام . وأن البيئة لم تسبب ذلك إلا بتأثيرها على الأنثى فى أثناء حملها . فأخذت البشرة بعد ذلك اللون الأصفر

عند الصينيين ثم الأسود عند الأفريقيين . ثم الأحمر عند الهنود الأمريكيين .

الوراثة والبيئة

يحدث دائماً وبلا انقطاع تبادل مستمر بين الجسم وبين البيئة . ويتغير الجسم تبعاً لتقلبات المحيط ويلازم نفس الحركات والتطورات التي يجرى عليها فى أثناء سير التطور . أى أنه يتطور تطوراً مدهشاً إذا طرأ تغير فجائى أو خلافه على البيئة التي يعيش فيها .كما أنه يستقرعلى حالة واحدة ما دام المحيط مستقراً على حاله .

وعند تطور المحيط تتبدل معه وسائط التأثير فيضطر الجسم أن يتحول أيضاً إلى هيئة أخرى وشكل آخر . ولا يعتم أن ينتقل شكله الجديد إلى نسله وراثياً . كما أن قوى التناسل تختلف طرائقها أيضاً مع اختلاف شروط البيئة . وهاك عدة أمثلة لذلك:

أهمها تجارب العالم « تينان » فهى مدهشة للغاية إذ أنها تبين كيفية هذا التحول الفجائى . فلما كان أحد أنواع التوتيا المسمى باصطلاح علم الحيوان — توكسو بنيست فاريكاتوس[1] يتم لقاحه مع نوع آخر من ذات طائفته الشعاعيات المسمى — هيبونوى إسكولانه — فى مياه البحر العادية ، كان التغليب

---

(١) حيوان بحرى من طائفة الشعاعيات .

يميل لجهة الهيبونوى وكانت الأنغال لا تختلف عنه بتاتاً . ولم يكن فيها سمة ما تدل على أنها من أصل التوكسوبنبست . لكن إذا كان اللقاح يقع في ماء البحر المحتوى على قليل من الحامض كان التغليب ينتقل إلى جهة التوكسونبيست ولم تكن الأنغال تشبه أباها الهيبونوى على الإطلاق .

وقد أعلن أيضاً أحد معاونى « كمرار » فى معهد العضويات التجريبية قرب مدينة « فينيه » بعض تجارب اختبرها على « البروته » (Protée) . وأهمها أن هذا الحيوان كان عندما تسقط حرارة بيئته عن ١٥ درجة سنتغراد يتناسل كالحيوانات الولودة . وتضع أنثاه صغاراً عددهم لا يتجاوز الاثنين ويبلغ طول الواحد منهما اثنى عشر سنتيمتراً ولهما شكل وهيئة أبويهما تماماً . أما البيض الذى كانت تضعه الأنثى معهما فكانا يستخدمانه لتغذيتهما . لكن لما كانت الحرارة ترتفع عن ١٥ درجة سنتغراد كانت تنتقل (البروته) عن حالة الولودة إلى حالة البيوضة وعندئذ كانت الأنثى تبيض ما ينيف عن الخمسين بيضة يخرج من كل واحدة منها دودة صغيرة لا يزيد طولها عن السنتيمتر الواحد عارية من الأطراف التى هى بمثابة الأرجل عند والديها . وفضلا عن ذلك يقتضى لها أن تنسلخ مراراً كثيرة إلى أن ترتقى إلى درجتهما .

ومن المعلوم أيضاً أن هذا الانقلاب لا ينحصر فى الحوادث الوراثية فقط بل هو حادث عمومى أيضاً ويطرأ على جميع الكائنات الحية فى كل آن .

فعند بعض النباتات تتغير هيئة أعضائها مع البيئة . فأوراق سهام الماء مثلا تأخذ شكلا يختلف مع المحيط . فالأوراق المغمورة بالماء تستدق وتستطيل . والطافية منها تتسع وتستدير . والمرتفعة فى الهواء تأخذ شكل السهام .

إن الحرارة والرطوبة هما أيضاً من أعظم عوامل التحويل تأثيراً . فالعالم ستندفوس(Standfuss) قد راقب ٤٢٠٠٠ فراشة فى خلال اثنتى عشرة سنة ، ونشر نتيجة أبحاثه سنة ١٨٩٨ . فكان بواسطة تغيير الحرارة فقط يحصل على مواليد تختلف عن آبائها فى الشكل واللون . ولاحظ أن هذا التغيير ينبغى أن يكون على نوعين : خفيف وشديد . فالتغيير الخفيف للحرارة ينحصر بين ٣٧ و ٣٩ درجة سنتغراد . وللبرودة بين ٤ و ٦ درجات سنتغراد والتغيير الشديد للحرارة بين ٤٠ و ٤٥ درجة سنتغراد . وللبرودة بين الصفر و ١٨ تحت الصفر . وتأكد أن التغيير الخفيف لم يحدث إلا تطوراً طفيفاً للغاية لكنه لم يمت إلا القليل من هذه الحشرات . وأن التغيير الشديد كان يسبب تطوراً مدهشاً لكنه كان يتلف أكثر أفرادها . وقال أيضاً إن النوع المسمى

باصطلاح الفن فانيسالابانا (Vanessa de Lapanie) كان يأخذ فى الربيع هيئة تختلف عن التى كان عليها فى الخريف .

والعالم فيشر (Fesher) لما استعمل سنة ١٩٠٧ تغيير الحرارة الشديد عند أحد أنواع الفراش : أركسيا كاجا (Arctia Caja) شاهد تطوراً واضحاً فى لون أجنحتها . وهذا اللون فى الأجنحة هو الواسطة التى بها يعرف الذكر من الأنثى إذ أن الذكر يكون عادة أشد سواداً من الأنثى . وهذا العالم قد صالب من الفراش المذكور ١٧٣ فرداً . فلم يطرأ التغير إلا على ١٧ من سلالتها فقط ، أى العشر تقريباً . وكان لون الأجنحة فى هذه أشد سواداً مما هو فى آبائها .

والعالم (كامرار) عالج أيضاً هذه القضية ودرسها على السلمندر[1] فرأى نفس النتائج التى نشرها ستندفوس وفيشر .

والعالم (توّار) قد صالب عدة أنواع من الحشرات فحصل على أشكال متعددة نسبة إلى درجة الحرارة والرطوبة أيضاً . فإحدى الحشرات المسماة باصطلاح علم الحيوان (ليبتوترسا) كانت تعطى صغاراً تتغير بشكلها مع انتقال درجتى الحرارة . وكلا الوالدين كانا يتبعان وراثياً تارة الطريقة الجلبانية وطريقة التغليب المؤبد .

---

(١) السلمندر Salamandre حيوان يشبه السام أبرص . لكنه يعيش فى الماء وهو من طبقة البرمائية .

وطوراً طريقة الذرة .

إن العالم « فيدرلى » صالب نوعاً من الفراش المعروف فنًّا باسم (بيكورابيكرا) على نوع آخر يسمى (بيكوراكورتيلا) فأعطتا فى الربيع فراشاً يشبه البيكرا وفى الصيف يشبه الكورتيلا فقط .

فيمكننا أن نستنتج إذن من هذه الملاحظات أن التغير الذى يطرأ على الأجسام الحية يتعلق بالبيئة ويتقيد بكيفية تأثيرها عليها . وأنه لا ينحصر فى النواميس الوراثية فقط بل إنه فعل عام شامل . وإلا كان التساوى والانفساخ والأرساخ وغيرها من النواميس الوراثية تكفى وحدها لتمنع الأفراد النوعية عن التحول من صورة إلى صورة أخرى . وإن حالة البيئة هى التى لها الأهمية الكبرى فى حفظ النوع أو انقراضه .

ومن المحتمل أيضاً أنه لو استمرت البيئة على التحول تدريجياً وببطء زائد — فى مدة طويلة تقاس بألوف ألوف القرون مثلا — إلى أن تنقلب إلى حالة أخرى ، لاضطر النوع رغم بطء هذه الانقلابات أن يتحوّل — موازياً إياها — إلى نوع آخر . لكن هذا القول لا يتحدى الافتراضات النظرية . ويعتبر ضرباً من ضروب الحدس فقط . وذلك نظراً لقصور العلم عن إثباتها تجريبياً وسببه عجز الإنسان عن المراقبة طوال هذه المدة المذكورة.

الوراثة وعلاقتها
بالذكورة والأنوثة

إن هذه العلاقة قد لفتت نظر الكثيرين من جهابذة هذا الفن وشغلت قسماً كبيراً من وقتهم . ورغم كثرة تدقيقهم وشدة تمحيصهم لم يحصلوا إلا على بعض النظريات الافتراضية وإلى القارئ أهمها .

النظرية الأولى — نظرية فنفلت — وهى : أن أضعف الوالدين هو الذى يغلب عند تخليد الجنس . ويذهب صاحب هذه النظرية فى تعليله إلى أن المولودين يتبعون فى جنسيتهم — نسبة إلى الذكورة والأنوثة — أضعف الأبوين . أى أن الجنس الأقرب إلى الملاشاة هو الذى يعقب الوالدين فى ذلك اللقاح وقاية لحفظ الجنس الضعيف ولتخليده فى هذا الكون .

وهو يبرهن على صدق نظريته بالتعديلات التى أحصاها بين المواليد الذين جاءوا فى سنى الحروب . فإن أكثرهم كانوا ذكوراً ونسبة الإناث فيهم قليلة جداً ، وأسباب ذلك هو أن الرجال الأقوياء والشبان ذوى الفتوة كانوا مشتغلين فى ساحة القتال ولم يبق يومئذ إلا الشيوخ المهازيل قرب نسائهم .

وفى بعض البلدان حيث الرجال يقومون بالأشغال الشاقة

الصعبة المراس يكون عدد الذكور فى مواليدهم أكثر من الإناث وتنعكس النتيجة فى البلدان التى يقوم فيها النساء بالقسط الأوفر من الأعمال الصعبة . فالرجال حينذاك يكونون أكثر محافظة على قواهم فيربو عدد النساء عندهم على عدد الذكور.

كما أن كل عائلة يكون الرجل فيها أكبر سناً وأضعف قوة من المرأة تزيد نسبة المواليد فى ذكورها وينقص عدد الإناث وتنعكس الحالة فيما إذا كانت المرأة أكبر سناً من الرجل . أو قد أنهكها الحبل المتواتر . ولو راقبنا هذه الملاحظة فى العائلات التى نعرفها لثبتت لدينا حقيقة وقوعها فى غالب الأحيان .

وقد عرف أصحاب المواشى هذا المبدأ الذى يساعد على تحديد جنس المولود قبل الولادة وبالأحرى قبل التلقيح فطبقوه واستطاعوا أن يعينوا جنس المولود حسب مشيئتهم . والآن إذا أرادوا مثلا أن تلد البقرة أنثى . يعمدون إلى فصد تلك البقرة قبل التلقيح لكى تخسر مقداراً من دمها ويكررون هذه العملية إلى أن تهن قواها . وبالفعل يكون المولود عجلة أنثى ؛ أما إذا رغبوا فى الحصول على ذكر . فإنهم يفصدون الثور — كما فعلوا بالأنثى — وذلك ليضعفوا الجنس كما أسلفنا. وبهذه الطريقة يكونون قد أجبروا الطبيعة على الاهتمام بتخليد الجنس فيتجدد الضعيف الأقرب إلى الملاشاة .

النظرية الثانية – وهى ناموس طورى – فيقول إن البييضة الملقحة بعد بلوغها بعدة أيام تنتج ذكراً . والملقحة عند بلوغها مباشرة تعطى أنثى .

إن هاتين النظريتين هما أقرب للواقع من سواهما لأنهما مبنيتان على التعديل والإحصاء ليس إلا . أما الباقى من النظريات فجميعها ليس إلا ضرباً من الحدس ونضرب صفحاً عنها الآن لأنها لا تزيد هذا البحث إلا غموضاً والتباساً . لكنى أذكر للقارئ خلاصة ما قد استنتجته مما عثرت عليه من النظريات فى هذا الصدد . وهو :

إن أكثر العلماء اتفقوا على الإقرار بوجود جزءين متقابلين متساويين بالكمية فى عنصرى التذكير والتأنيث . فعند اللقاح يندمج هذان العنصران مع بعضهما . وعلى أثر ذلك تتولد ظروف جديدة . فإما أن تكون موافقة لنمو العنصر المذكر فيتغلب على الجزء المؤنث ويكون المولود ذكراً . أو بعكس ذلك . فبعد ما تتم عملية اللقاح . يكون الحمل وقتئذ تحت تأثير هذه العوامل الناشئة عن ظروف جديدة لها أكبر العلاقات فى تكييف جنس المولود . ظروف تتعلق فى قوة جسم الأم وضعفه وفى حالة العنصرين الحيوية . وفيما يطرأ على اللقاح من العوامل الموافقة أو الملاشية . فإن وافقت تلك الظروف لنمو الجزء المذكر يتغلب

حالا على الجزء المؤنث ويكون المولود ذكراً . أما إذا كانت موافقة للجزء المؤنث دون المذكر يجيء المولود أنثى .

فلو أخذنا عدداً معيناً من بيض الدجاج فى أثناء الحضانة وسلطنا عليها الأشعة المجهولة مدة معينة من الزمن لمات كل الذكور فى هذا البيض . وبعد انقضاء الواحد والعشرين يوماً — المدة اللازمة لإتمام الحضانة — لا يخرج من البيض إلا الإناث فقط والباقى منها لا يعطى شيئاً . فهذا يدلنا على أن الظروف والعوامل الخارجية تكيف جنس الجنين حسب مشيئتها . وتستطيع أن تحوله من حالة الذكورة إلى حالة الأنوثة وذلك بإبادة أعضاء الذكورة أو أعضاء الأنوثة لأن كل المخلوقات الحية تكون فى الأصل خنثى أى أن عضوى الذكورة والأنوثة يوجدان فى كل مضغة حية . وأن الجنين يمسى ذكراً إذا توقفت أعضاء الأنوثة عن النمو . ويضحى أنثى إذا توقفت أعضاء الذكورة . ومن التجربة السابقة قد شاهدنا كيف أن العوامل الخارجية ساعدت على نمو الإناث فى بعض الدجاج الذى سلط عليه الأشعة المجهولة . فهى قد اعترضت للذكور وأعرضت عن الإناث .

إن التجارب التى تتعلق بهذا الموضوع لا تحصى . وأهمها تجربة العالم « بوراج » التى نشرها فى سنة ١٨٩٨ وهى :

إن نوع الشجر المسمى باصطلاح علم النبات كاريكا

بابايا (Carica papaya) الذى من خاصيته أن عضوى الذكورة والأنوثة لا يلتقيان فيه على ذات الساق بل يكون عادة شجرة للتذكير وشجرة للتأنيث . وبذره يحتوى على مادة من خاصيتها هضم اللحوم وتدعى بابايين (Papaïne) وهى أشبه شىء بالعصير الذى فى المعدة لهضم اللحوم – أيضاً لما عالجه العالم بوراج بقطع ساق الشجرة الحاملة عضو التذكير ، كانت النتيجة بعد حين أن الغصن الجديد الذى نبت على تلك الساق المقطوع أعلاها أصبح شجرة تأنيث . وحصل عكس ذلك عندما قطع ساق شجرة التأنيث فاستحالت أغصانها الجديدة إلى شجرة تذكير .

وهذا مما يدلنا على أنه عندما يطرأ على الكائن الحى ظروف جديدة ينتقل أحياناً من حالة التذكير إلى حالة التأنيث .

وشاهد العالم « كاير » أن بعض أنواع الحشرات المسماة بلسان علم الحيوان (آفيس) والتى تتناسل عادة بالتوالد الزوجى أى أن التناسل لا يتم إلا باجتماع الذكر والأنثى كانت إذا وُضعت بغرفة دافئة تتناسل بالتولد الفردى ، وهذا النوع من التولد يحدث عند الكائنات الخنثى طبيعياً والتى لا تكون أفرادها ذكراً وأنثى إنما كل فرد منها يحتوى على عضوى الذكورة والأنوثة معاً ويكفى وحده فقط لحفظ النسل وذلك لأن عضو الذكورة يلقح عضو الأنوثة فى ذات الحيوان .

فعليه لا يسوغ لنا أن نعتبر الذكورة أو الأنوثة كأنها سمة مستقلة ثابتة فى الكائن الحى منفردة عن سائر صفاته. بل إنها واحدة منها فقط. ومجمل القول فى علاقة الوراثة بالذكورة والأنوثة إنما هو ينحصر فى أمرين: أولا فى العناصر التى يتركب منها الجسم. ثانياً: فى التبادل الذى يحدث بين الجسم وبين البيئة. والأخيرة هى الأهم.

هذا من جهة النظريات التجريبية. أما حسب النظريات التعديلية فهذه العلاقة ما هى إلا إحدى طرق الدفاع لحفظ الجنس فالطبيعة تساعد على تحديد الذكور عند ملاشاة الذكور وعلى ولادة الإناث عند اضمحلال الإناث.

الوراثة والسمات المكتسبة

إن السمات التى يكتسبها الكائن الحى عند اجتيازه أطوار الحياة تنتقل أحياناً وراثياً إلى أنساله. ولكى يتم هذا الانتقال يجب أن تكون السمات مسببة عن تأثير قوة طبيعية ملازمة للجسم ومستمرة الحدوث. أعنى أن تكون هذه السمة من ضروريات حياته وألا يكون له طاقة على المعيشة بدونها. أما السمات العرضية الكمالية التى تحدثها القوى الطبيعية عرضاً واتفاقاً. كالتشويه من السقوط مثلا. أو التى تسببها يد الإنسان أحياناً كالوشم للزينة أو بتر الأعضاء مثلا. أو لسبب آخر ليس له تأثير فى

حفظ النوع كالختان . فى مثل هذه الأحوال لا تنتقل السمات المكتسبة وراثياً على الإطلاق . كما أن السمات المكتسبة فى طور الحياة الجنينية التى نجهل كيفية حدوثها لا تورث كلها بل أكثرها .

إن الأستاذ « بارو » لاحظ عند عائلة فرنسية تلقب حالياً باسم « دريو » من « الفلامند » فى إحدى نواحى فرنسا كانت مهنة أجدادها القدماء منحصرة فى الفروسية (ركوب الخيل) فشاهد عند اثنى عشر شخصاً من أربعين شخصاً بين أفرادها الحاليين لطخة سوداء واسعة (خال) واقعة على أفخاذهم للجهة الداخلية حيث تحتك عادة فخذ الفارس بسرج الحصان . بيد أن هؤلاء الأشخاص لم يتعاطوا قط ركوب الخيل . وجل ما هنالك أن الفروسية كانت مهنة سلفهم منذ القديم ليس إلا . وهذا العالم يعتقد أن هذا الخال منتقل وراثياً من أجداد هذه العائلة إلى أحفادهم . وأنه ناشىء عن حرفة الفروسية ، وأن هذه السمة قد انتقلت وراثياً من الجدود إلى الآباء ثم إلى الأولاد فالأحفاد أيضاً ذلك بالرغم عن كونها سمة مكتسبة . وأن هذه اللطخة السوداء (الخال) ما هى إلا طريقة دفاع ولدها الجلد لحفظ الجسم . فكانت لازمة لكى تبقى الأجداد فى عائلة دريو فى قيد الحياة . لأنهم كانوا يمارسون حرفة الفروسية طوال حياتهم . وبما أن هذه المهنة كانت سبباً لمعيشتهم نقلتها الطبيعة حينذاك وراثياً

إلى أنسالهم ليتسلحوا بها على أساس أن هذه السمة لازمة لهؤلاء أيضاً مثلما كانت ضرورية لأسلافهم . لأن الفارس إذا لم يتولد على فخذه هذه الطبقة القرنية التى تقى الجلد الاحتكاك بالسرج ، لا يستطيع ذلك الفارس مزاولة مهنته .

والمؤلف « بارو » قد شاهد أيضاً عين الحادثة فى عائلة أخرى تتعاطى الملاحة فى « فلاندرا » داخل تخوم فرنسا . فكان أفراد هذه العائلة موسومين بلطخة سوداء تظهر بين الترقوة اليمنى والثدى الأيمن . لطخة سببها حرفة الجد الذى كان ملاحاً والملاح عند دفع القارب يسند كتفه الأيمن من الأمام إلى أحد طرفى المجذاف ويلقى الطرف الآخر على اليابسة ثم يدفعه . ومن تأثير هذا الضغط ينشأ تضخم فى الجلد المقابل لطرف المجذاف . أي أن كتلة قرنية تتولد هنالك فتبطن الجلد لتقيه تأثير الاحتكاك . فلأجله نقلت الطبيعة وراثياً هذه السمة المكتسبة إلى السلالات التالية . لأنها كانت ضرورية ومستمرة الحدوث عند الأجداد .

وقد لاحظ الأستاذ (بارو) أيضاً مثل هذا الحادث عند عائلة بنائين كانوا موسومين بوسام ناشئ عن ضرورة الصناعة ومنتقل وراثياً أيضاً .

لقد قلنا سابقاً إن الوراثة لا تنقل إلا السمات المكتسبة

الضرورية لحفظ حياة الكائن الحى . وإنها لا تنقل السمات المكتسبة الكمالية والغير الضرورية . فبناء عليه لا نرى الوراثة تنقل الختان من الأب إلى الابن فى حين أن اليهود مثلا يختتنون من أمد بعيد للغاية — من نحو أربعة آلاف سنة تقريباً . ولا يزالون يستعملون الختانة حتى الآن . ومع ذلك فجميع أطفالهم يلدون بغرلة كاملة ليس عليها أثر ما يدل على ختانة الأجداد .

وعلى ذات النمط يجرى بتر الأعضاء. فطبيًّا كان أم عرضياً لا تنقله الوراثة أبداً . لكن التشوهات التى تنتقل وراثياً من الآباء إلى الأبناء . والتى تنشأ عن أمراض وراثية . ليست هى نفسها بمنتقلة . بل هى العلة . وبالأحرى أن الذى ينتقل هو المرض ومن جرائه تحدث تلك التشوهات. كالتهاب العصب البصرى مثلا. فإننا نراه يولد مع الطفل وراثياً لكن الحقيقة هى أنه ناشىء عن تضخم ميزاب السرج التركى فى قاعدة الجمجمة المشرف على مجمع العصبين البصريين والمتصل من كل جهة بالقناة البصرية . وبتضخمه هذا يضغط على العصب البصرى فيميته . وبالنتيجة يذهب بالبصر . فتضخم الميزاب هو الذى ينتقل وراثياً وليس العمى .

ولقد استطاع العالم « توّار » بواسطة تجاربه التى أجراها على بعض أنواع الفراش وبتغيير درجتى الحرارة والرطوبة أن يبدل هيئتها ولاحظ أيضاً أن هذه الهيئة المكتسبة الجديدة قد انتقلت وراثياً إلى صغارها .

والعالم « بورداج » نقل فى سنة ١٩٠٠ شجرة دراق (خوخ) من بلاد معتدلة الحرارة حيث تسقط أوراق الأشجار فى فصل الخريف إلى ناحية من الأرض ذات حرارة واحدة لا تتغير مع السنين حيث لا تتناوبها حرارة الفصول المختلفة . فشرعت أشجار الدراق المنقولة تحافظ وقتئذ على أوراقها فى فصل الخريف بصورة تدريجية . وبعد انقضاء عشرين سنة أضحت أغصانها الجديدة ذات أوراق خالدة — أى أن الأغصان غدت تحافظ على الأوراق كل مدة الخريف — وعندما أصبح الدراق ذا أوراق خالدة نقل بذوره إلى البلاد التى تسقط فيها أوراق تلك الأنواع من الشجر فى وقت الخريف وزرعها هناك فنمت وأورقت وبقيت محافظة على أوراقها فى كل الفصول مثل آبائها البعيدين عنها وليس كأجدادها القريبين منها .

وأركان جمعية علم العضويات التجريبى شاهدوا أن أحد أنواع الزحافات المسمى بلسان علم الحيوان سلمندر (Salmandre) كان يتغير لونه محاكياً البيئة وكان يحفظ هذا اللون المكتسب وينقله وراثياً إلى صغاره .

فيتلخص مما تقدم أن السمات المكتسبة تنتقل وراثياً إذا كانت ناشئة من تأثير قوة طبيعية تلازم الجسم ويستمر حدوثه مدة طويلة لكنها تضمحل مع الأبوين إذا كانت قد وقعت عرضاً واتفاقاً .


دار المعارف
تقدم
للأولاد في جميع البلاد
سندباد
المجلة الأولى للأولاد فى الشرق العربي ، بل المشروع الأول من نوعه فى البلاد العربية .
يقبل عليها الأولاد بشغف ولذة لما فيها من متعة وتسلية وفائدة .
لم تحز رضا الأبناء وحدهم ، بل رضى عنها الآباء والأمهات ، وشجعها المدرسون ورجال التربية والتعليم .
فريدة فى جمال اخراجها بالالوان الجذابة ، وصورها المبتكرة وعباراتها الشائقة - فهى متعة للعين والقلب والفكر .
تصدر أسبوعية منذ عام ١٩٥٢ - وتظهر يوم الخميس من كل أسبوع
ثمن النسخة ٢ قرشان
السنة الأولى مجلدان : ثمن كل مجلد منهما ٧٠ قرشا
السنة الثانية مجلدان : ثمن كل مجلد منهما ٦٠ قرشا

اقرأ

عيسى الناعوري

مارس يحرق معداته

دار المعارف بمصر

مارس يحرق معداته

عيسى الناعوري

مارس يحرق معداته

اقرأ ١٤٧
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٤٧ – مارس سنة ١٩٥٥



الإهداء

إلى ذوى النفوس النبيلة الصافية
الذين يسعون بصدق وإخلاص
لخدمة الحرية والسلام
ولتحقيق السعادة البشرية
أقدم هذه الرواية

ع . ن

أشخاص الرواية

مارس	— إله الحرب عند الرومان
فينوس	— إلهة الحب والجمال
سيريس	— إلهة الحقول والزراعة والحصاد
جوبيتر	— ملك الآلهة
سافيو	— شيخ قرية مانيا وزعيمها
أنطونيو	— ابن سافيو
لونا	— خطيبة أنطونيو
سلفيو	— كاهن المعبد
ديانا	— والدة لونا
فلافيوس	— رفيق أنطونيو ولونا فى زيارة روما

القريتان

مانيا وجونو

تمهيد وتعريف

هذا العالم المضطرب ، القائم على فوهة بركان عظيم ، والذى تسيطر فيه السياسة والسياسيون ، عالم الحروب والثورات ، والتدمير وسفك الدماء ، وخنق الحريات . هذا العالم المجنون ليس بالعالم الذى تطمئن إليه النفس ، أو يستريح إليه القلب أو الضمير ؛ فهو لا ينتهى من الاستعداد للحرب ، إلا ليزجّ البشرية فى نيرانها ، ثم ليجلس على الأطلال ورماد الحرائق ، ليمسح جراحه ، ويسترد أنفاسه من آثار الحرب ؛ فهو للحرب يعمل ، وللحرب يعيش .

والحرب أشنع جريمة يرتكبها البشر نحو البشرية ، لأن الذى ينتج عنها هو القضاء على كل ما ينشئه البشر من خير وجمال وعمران؛ هو تدمير الحضارات والمدنيات التى يتعب البشر فى بنائها ، ويجهد العقل البشرى نفسه فى خلق أسبابها ومقوّماتها؛ وهو بالتالى القضاء على أعزّ ما من أجله يحب البشر الحياة : المثل الإنسانية العليا ، وآيات الفن والإبداع الفكرى ، والمال ، والبنين ، والممتلكات .

لذلك يقول بنجامين فرانكلين :

«أتمنى أن أرى اكتشاف وسيلة تستميل الأمم ، أو

تجبرها على أن تحلّ منازعاتها ، بدون أن تعمد الواحدة إلى حزّ عنق الأخرى أولا ؛ وعندئذ يقتنع الناس بأنه ، حتى الحروب الظافرة تصبح فى النتيجة شؤماً على أولئك الذين أثاروها ظلماً ، والذين هللوا لها بعمى فى وقت ظفرهم ، بدون أن يروا جميع عواقبها » .

ومعنى هذا أن الحرب هى أبشع تشويه ، وأسوأ مسخ لوجه الحياة ؛ فهى تزيل بهجتها من النفوس ، ولذتها من القلوب ، وتجعل البشرية تعيش بخوف دائم من هذه الجريمة البشعة التى تذهب بسلام الحياة وراحتها وسعادتها ، وتذهب بكل معنى من معانى الاستقرار الذى تنشده البشرية .

والخوف من الحرب ، أو عدم استقرار الحياة ، يجعل البشرية تصرف همها إلى تأمين وسائل الحماية أولا ، فلا يعود يمكنها أن تخدم تقدم المدنية والحضارة ، وازدهار الفنون والآداب والنشاط الفكرى ، بضمير مستريح وقلب مطمئن ، وتخدم قضية السلام والسعادة والرفاهية .

فليس غريباً إذن أن ترتفع أصوات المفكرين والأحرار ، والراغبين فى سعادة البشرية ، فى وسط جنون الخوف الذى تثيره السياسة العالمية وأطماعها الكبيرة ، داعية إلى قتل الأطماع والقضاء على العوامل التى تثير الحروب ، وتبعث الخوف فى نفوس البشر ، وإلى سيادة السلام والتعاون فى العالم .

ولو انصرف الناس إلى استغلال الأرض . واستثمار كنوزها ودفائنها بثقة وتعاون متبادلين ، لتوصلوا بدون شك إلى تحقيق أقصى حدٍّ من السعادة لجميع الناس ، ولعاشوا بحب وسلام دائمين .

إن صلة المواطن بالأرض ، هي أساس صلته بالوطن وهي بالتالي أساس صلته بالإنسانية التي هو جزء منها ، ويؤيد هذه الحقيقة ما لمسناه بأنفسنا في مأساة فلسطين ، من أن أعمق الناس شعوراً بالمأساة بين اللاجئين ، هم الذين تركوا وراءهم أرضاً وبيوتاً وبيارات ؛ فالأرض هي الرابط الأقوى للشعب بوطنه ، لأنها هي نفسها الوطن ، وسعادة الشعب بوطنه باستمرار سلامه معها .

هذه الحقيقة هي التي دفعتني إلى وضع هذه الرواية ، وهي التي أوحت إليَّ في أول الأمر بعنوانها « مارس يحرق معداته » ثم هيأت لخيالي موضوعها الكامل بعد ذلك .

لقد رأيت أن الحرب هي السبب الأهم في عدم تحقيق السعادة البشرية ، فرأيت أن أجعل روايتي دعوة إلى تقبيح الحرب ، وتحبيب السلام ؛ فاخترتُ أن أجعل إله الحرب الأسطوري عند الرومان القدماء ، يندم على أعماله القبيحة في إثارة الحروب ، وقذف البشرية بالويلات المريعة ، فيحرق أدوات حربه ، وينزل إلى الأرض ليعيد إليها السلام الذي فقدته بسبب جريمته . ولم أجد أوقع في النفس من تقبيح الحرب ، من ندامة إله على إثارته لها .

ولما كان مارس إلهاً أسطوريًّا ، فقد كان لا بدّ من أن تكون الرواية كلها أسطورية ؛ ثم لما كان مارس إلها رومانيًّا ، فقد كان لابد من أن تكون بقية الآلهة رومانية أيضاً ، وأن تكون بيئة الرواية رومانية كذلك ، وأن تقع حوادثها فى عهد الرومان .

وما دامت الرواية لم توضع لمجرد العبث والتسلية ، ولا لإبراز البراعة الأدبية والفنية ، وإنما لتخدم فكرة وهدفاً إنسانيين ، لذلك لم أجد أى مانع من أن أختار للرواية بيئة رومانية ، وآلهة وأشخاصاً رومانيين . وسواء أكان مدار الرواية على الرومان فى عهدهم القديم ، أم على العرب فى عصرهم الحاضر ، فلن يغير ذلك من الروح العامة ، التى لأجلها وُضعت الرواية .

ولقد أعرب بعض الأصدقاء عن اعتقادهم بأن وقائع الحياة الحقيقية ، واختيار أشخاص حقيقيين ، قريبين إلى واقعنا الحى ، يزيد فى تأثير الرواية ، ويجعلها ذات لون وطابع أقرب إلى قلوب القراء ، وأكثر مساساً بحياة المجتمع الذى نعيش فيه . وقد حبّذ بعضهم أن ينقلب مارس الحرب إلى إنسان حقيقى يندم على جريمته .

إلا أننى — وقد بينتُ سبب الصبغة الأسطورية للقصة — أقول إن ندامة أى إنسان ، مهما بلغ من علوّ المنزلة الاجتماعية ، لن يكون لها من التأثير فى نفس القارئ ما لندامة إله ، ولاسيما الإله المختص بإثارة الحروب ، وإنزال الكوارث بالبشر . وهذا

من أهم الدوافع إلى جعل الرواية كلها أسطورية .

على أن من المؤكد أن الهدف الاجتماعى والإنسانى الذى تعالجه الرواية ، بارز فيها كل البروز ، بحيث يخرج القارئ منها مطمئناً إلى أنها أدّت غرضها بشىء غير قليل من النجاح .

قد أكون أخفقت فى بعض النواحى فى هذه الرواية ، فلستُ أدّعى لنفسى العصمة ، ولا الموهبة الفائقة ، ولكننى أعتقد بأننى أسهمت فى الخدمة الإنسانية بجهد متواضع ، لا يخلو من جوانب تستحق التقدير .

ولقد تلقيتُ رسالة من الصديقة الأديبة السيدة سلمى خضرا الجيوسى — وقد أقامت فى روما مدة غير قصيرة — تعلق فيها على هذه الرواية بعد أن أطلعت عليها قبل نشرها ، تقول فيها ما يلى :

« لقد قرأت قصتك بشغف ، وهى بلا شك قصة جميلة ، طريفة الموضوع ، وعنوانها يسترعى الانتباه . أما من حيث وضع القصة البيئى ، فإن البيئة تذكرنى بضواحى روما ، والعجيب أنك قد وصفت القرية الجميلة تماماً كما كان يمكننى أن أصف قرية (مُنتانا) قرب روما ، مثلا . وبالطبع إنك اخترت بيئة رومانية ، لتكون البيئة المناسبة لوجود مارس وبقية الآلهة . وبلا شك إن أهل روما وضواحيها ، وكذلك أهل باقى المدن الإيطالية ، ما زالوا إلى اليوم مولعين بإحياء هذه المهرجانات

الدينية ، التى يحتفلون بها فى أوقاتها المعينة ، دون انقطاع . وهى اليوم تُعنى بإحياء ذكرى القديسين ، و (المادونا) ، بعد أن كانت تحتفل بسيريس ، وڤينوس ، وغيرهما ؛ مما يبرهن على أن الإنسان مولع بتكريم ما يعبد ، لإشباع رغبته فى نفسه هو » .

وفى هذه الشهادة ما يجعلنى أطمئنّ بعض الاطمئنان إلى شيء من هذا العمل الأدبى الصغير .

وإنى أقدم روايتى هذه — أول عمل أو جهد فنى أضعه فى حقل الرواية الأدبية — راجياً أن يجد فيه القراء ما يستحق منهم وقتاً قصيراً ينفقونه فى مطالعتها ؛ فلا يشعرون أنهم أضاعوه فى غير نفع ؛ بل يلمسون أننى خدمت فيها أهدافاً نبيلة ، وأفكاراً إنسانية تعتلج فى نفوسهم وعقولهم ، ويرتاحون إلى وجود أقلام تتولى لهم التعبير عنها .

عمان   عيسى الناعورى

١

الغيوم البيضاء المتقطعة تتناثر فى الفضاء الأزرق الرحيب ، كحملان صغيرة بريئة ترعى فى مرج فسيح أخضر ؛ وشمس الأصيل تلقى بأشعتها الفاترة على المروج والجبال والأودية ، فتصبغها بصفرة النضار . وعلى غيمة كبرعم القطن المتفتح جلست إلهتان فاتنتان ، تنظران إلى سرب من الصخور على الأرض، جلس على صخرة صغيرة منه فتى وفتاة فى ميعة الشباب المشرق .

فقالت إحدى الإلهتين للأخرى : انظرى يا رفيقتى إلى السعادة التى يطفح بها وجه ذلك الفتى ورفيقته، وهما يتناجيان بين السنابل المتماوجة . لقد غمرتُ حياتهما بالعافية والشباب المرح ، فكان لا بدّ للحب من أن يجد فى قلبيهما فراشاً دافئاً ناعماً ، وللسعادة من أن ترطب أيامهما بنفحاتها المسكرة .

فقالت الأخرى :

وأنا زرعتُ فى طريقهما الخصب والخضرة التى لا تموت ؛ فلا تقع عيونهما إلا على جمال ؛ فالأعشاب تضحك لهما ، والسنابل تتمايل وتتهامس بغرامهما ، والأشجار والصخور تفيء عليهما ظلالها ، لئلا تضايقهما حرارة الشمس . فأنا وأنت

شريكتان فى سعادتهما ؛ أنا زرعت لهما الخصب ، وأنت زرعت فى قلبيهما الحب ، وبفضلنا معاً سيستظلان بالسعادة الغامرة.

فأجابت الأولى : أنا سعيدة بك يا رفيقتى الرحيمة ، فإن عملى وحده لا يكفى ليمنح الناس السعادة. أنت وأنا اليدان اللتان تبذرانها فى حياة الناس ؛ وأنت وأنا الإناءان اللذان تنسكب منهما الغبطة والبهجة . أنت تطبعين البسمة المشرقة على وجه الأرض ، وأنا أعكسها حبًّا وغبطة فى قلوب أبناء الأرض .

وابتسمت الإلهتان الجميلتان ، وهما تنظران إلى حيث يجلس أنطونيو ولونا تحت شجرة سنديان كبيرة تظللهما ؛ هو يطوّق خصرها بإحدى يديه ، والثانية تعبث بشعرها ، فى حين يستريح رأسها ويدها اليمنى على صدره ؛ وأغصان شجيرات الورد على جانبيهما ، وسنابل القمح ، ودوالى العنب التى تملأ الأرض أمام أعينهما ، جميعها تشترك فى توفير الغبطة لهما ، بما تنفحهما به من الشذا ، وما تشيعه فى نفسيهما من إحساس الجمال والأمن وبركة الحياة .

ولم تكن سعادة الإلهتين ، فينوس وسيريس ، أقل من سعادة الحبيبين ، وهما يتهامسان بنجوى قلبيهما على سمع السنابل والدوالى وشجيرات الورد ، ويتأملان منحة الخير والخصب والبركة ، التى وهبتها الأرض الطيبة لهما ولأهل قريتهما . .

وانفلت أنطونيو من فتاته بلطف ، ومضى فمدّ يده إلى

عنقود من العنب فى دالية قريبة ، كان فى بواكير النضوج .
فتناوله بيده وعاد به ، وقال وهو يعود إلى الجلوس فى مكانه إلى جانبها : لنكن أول من يذوق باكورة العام فى كرومنا .

ومضت يده تتحسس الحبات الزبرجدية فى العنقود . حتى وقعت على أنضج حبة فيه ، فقطعها منه ومدّ يده بها إلى لونا . وقال مكملا كلامه : ولتكن الحبة الأولى من نصيبك أنت .

فابتسمت لونا بدلال وقالت : بل ستكون لك أنت .

فأجاب أنطونيو :

بل الأولى لك أنت . إن سعادتى لهى فى أن أقدم إليك أجمل الأشياء وألطفها ؛ وباكورة العام من عناقيد دوالينا هى بعض هذه الأشياء الجميلة اللطيفة . وهل نسيت أن ليديك الصغيرتين تعباً فيها ؟ ! افتحى فاك !

ولكن لونا أصرت على أن تكون الحبة له ، فقال باسما :

إذن نقتسمها بأسناننا معاً ، فافتحى فاك . . .

فضحكت لونا ، وانفرجت شفتاها وأسنانها لتتلقى حبة العنب من بين أصابع أنطونيو ، وعيناها ترمقانه بحب ووله ، وقلبها يرقص بين ضلوعها بفرحة الحب والشباب .

وقرّب أنطونيو فمه إلى فمها ، وأمسك بطرف الحبة بين أسنانه ، فى حين التقت شفتاهما بقبلة سريعة عابثة . ثم راح الاثنان يبحثان فى العنقود عن الحبات البادئة بالنضوج ، فيقطعانها ويتناولانها .

وقال أنطونيو وهو يرمى بقية العنقود إلى الأرض :

ما ألذ التعب متى كانت نتيجته ثماراً لذيذة حـــلوة .

فأجابت لونا ، وقد مضت عيناها تتأملان الكروم والحقول المترامية أمامها بلذة وحنين : حينما أقطف عنقوداً من دالية ، أو سنبلة من حقل ، أشعر بأن كل ما تحملته من حرّ الصيف وبرد الشتاء ، يزول ويتحول فى نفسى إلى رغبة فى المزيد من العناء والعرق .

وعاد أنطونيو يطوقها من جديد بذراعيه ، فتلقى برأسها على صدره ، ويعودان إلى التأمل من جديد فى كل ما حولهما ؛ فتراءى لهما كل شىء يضحك بغبطة وجمال : من خضرة الكروم والحقول ، إلى زرقة الأفق البعيد ، إلى أشعة الشمس البريئة المرحة . . .

إن فى صدريهما لسعادة غامرة ، وفرحاً لا يوصف ؛ فهذه الأرض لهما فيها عرق مسفوح ، ككل فرد آخر من أبناء قريتهما . فليس فى القرية من لا يشعر بأن للأرض جذوراً عميقة فى قلبه ودمه ، فهم جميعاً يبذلون عرقهم بملء الغبطة لهذه الأرض الخيرة ، التى لا تبخل عليهم بخيراتها وعطاياها ، بل تقدم إليهم بدل كل قطرة عرق يسقونها شبعاً وريًّا ، وتوفر لهم متعة القلب والسمع والبصر .

إنها فى خضرة دائمة ، لا تفرغ مروجها أبداً فى الفصول

الأربعة ، وعناقيد أشجارها لا تنتهى ؛ فهم معها فى حلف شريف لا يمين ، وهى معهم فى أحب ما تشتهى وما يشتهون من وفاق وسلام ، لا تخلف لهم ظناً ، ولا تخيب لهم أملا .

إنهم يسعدون بالشمس والقمر ، وليالى الشتاء لا تحمل إليهم غير السلام ، وإلى مزارع العرق المعصور من جباههم وسواعدهم غير البركة والرخاء .

الشيخ يتجدد شبابه برؤية الأشجار التى غرسها فى جراح ترابها ، فملأت عينه وحسه ، كما ملأت معدته .

والكهل لا يرى فى ساعديه خيراً إن لم يجعل قوتهما للعمل فى الأرض ، ولا يرى كرامة لنفسه إن لم يُرِق عرق جبينه غزيراً حاراً بين شقوق التراب ، حيث تنحدر البذور والحبوب ، لتعود إليه أشجاراً وسنابل مكتنزة القطوف والرؤوس .

والفتاة والشاب ، لا سعادة لهما ولا حياة بدون الأرض ، فشبابهما وقف على خدمتها ، وعافيتهما منها ولها . وما يطيب لهما الحب والنجوى ، إلا والأرض تضحك لهما ، وتبارك حبهما ؛ فالضحكة الخضراء فى وجه الأرض ، هى التى تنعكس ابتسامات سعادة فى وجوه أهل الأرض ، ورفرفات غبطة فى قلوبهم ؛ أما الأرض العابسة الجافة ، فما توحى بغير العبوس والانقباض والكآبة .

حتى الأطفال فى ألعابهم الصبيانية المرحة ، كانوا يقلدون

الكبار فى حب الأرض ؛ فلكل منهم آلاته الصغيرة لينبش التراب ، وما يكاد الواحد منهم يبلغ سن العاشرة ، حتى يسهم فى حمل الرفش والمعول ، يشق بهما الأرض بيديه الطفلتين ، ويغمر ثلومها بالماء ، لتمنحه وتمنح والديه خيراتها .

وما كان أشدّ سعادة الإلهة الطيبة سيريس بهذا النشاط ، وبهذا الحب العميق للأرض ، إنها لتبارك هؤلاء الناس الطيبين المخلصين ، المنصرفين عن كل شيء إلى العمل وحده ، وتوفر لهم من خيرات الأرض ما يزيد كثيراً عن حاجتهم ، فيمضى الشبان والفتيات كل يوم إلى القرى والمدن المجاورة ، ليبيعوا ما يفيض عن حاجتهم من غلات أرضهم وخيراتها ، ومن إنتاج مواشيهم ودواجنهم ، فيوفرون بذلك القوت اللذيذ لجيرانهم .

وفى طريق عودتهم إلى القرية ، تتردد فى الجبال والأودية أصداء أغانيهم السعيدة ، فتطرب على وقعها الحقول الخضراء ، وتترنح السنابل والشجيرات والدوالى ، المشرئبة أعناقها على التلال الغارقة فى الجمال والسكون .

* * *

كانت لونا وأنطونيو فى مجلسهما ذاك يتمتعان بسعادة غامرة : في قلبيهما حب برىء لذيذ مسكر ، وأمام عيونهما متعة الجمال المترقرق فى الطبيعة المشرقة . وعينا فينوس الجميلة ترعيانهما وتباركانهما ، كما ترعى عينا سيريس خصب

الحقول ، وخضرة المروج والتلال .

ولقد ذهبا فى صباح ذلك اليوم يبيعان فى القرية المجاورة بعض ثمار أراضيهما ، ولم يعودا من هناك إلا منذ ساعة ، أو بعض ساعة . وفى غمرة الحنين الروحى ، وتحت نداء الجمال الذى يتردد فى السهول والجبال الضاحكة ، والمروج التى يندفق منها الطيب ، والوديان السائلة بسبائك اللجين ، خرجا معاً يتمليان من رحيق الحب ، ومن نشوة التأمل فى السحر المشرق البديع ؛ هذا السحر الذى أسهمت أيديهما فى خلقه ، وأسهم عرقهما فى سقيه وإنمائه .

وعاد أنطونيو يقول ، وعيناه ماتزالان حائمتين على الحقول المترامية أمامه : آه ! لكم يؤلمنى ما أراه دائماً لدى جيراننا من جفاف الأرض ، وما أراهم يعيشون فيه من خمول وبطالة .

فقالت لونا : مساكين ! إننى أرثى لحالهم كثيراً ، وأتألم لحياتهم . إنهم لا يدركون قيمة العمل وفائدته لأجسامهم ونفوسهم ، ولحياتهم كلها .

ــ كلما ذهبت أبيع فى أسواقهم شيئاً من خيرات أرضنا شعرتُ بأن ليس لدى جيراننا ما يربطهم بالوطن ، وبالحياة المستقرة الشريفة .

ــ حقاً إن الأرض هى الرابطة الكبرى للمواطن الصالح بشعبه ووطنه ؛ ومن لم ترسخ صلته بها لا يستطيع أن يكون

قوى الصلة بوطنه ، ولا بشعب وطنه ، ويسهل عليه أن يعيش في كل أرض ، بلا حبّ ، وبلا أمل ، وبلا عاطفة جميلة . وروما العظيمة لا يمكنها أن تعيش حرة قوية بشعب لا يرتبط بها برباطات حبّ الأرض ، وحبّ كل ما فى الأرض من ذكريات وروابط .

— لو أهدِىَ إلىّ العالم كله لأتخلى عن حقلى وبيتى فى قريتنا هذه ، لرفضت الهدية ، لأنه ليس فيها شىء من عاطفتى ولا من عرق جبينى ، ولا من تعب يدى .

— إن الإنسان لا يستطيع أن يجد أية لذة فى مكان أو شىء إلا إذا كان لقلبه صلة متينة به ؛ وصلته هذه إذا رسخت فى أعماق قلبه . علمته القوة ، ودفعته إلى كل تضحية فى سبيل المحافظة على ما يحبه . أما إذا خلا القلب من كل حب أو صلة فى مكان ما ، فليس من الممكن أن يجد ما يدفعه إلى التمسك به ، أو بشىء فيه .

— لقد أرمَضَت نفسى كثيراً رؤية أطفال جيراننا ، بثيابهم الرثة ، وهم يلعبون بالتراب ، على أرض جرداء لا يضحك فيها عشب ولا زهر ، ولا يفىء فيها شجر . آباؤهم عاشوا كسالى فاقدى الهمة والنشاط ، فجاءوا هم يشقون بنتائج ذلك الكسل البليد المجرم .

— الشكر لإلهتنا الجميلة سيريس ، التى تتعهد حقولنا

وبساتيننا بالرعاية فتخصب ، وتغمرها بابتساماتها الحلوة ، فتفيض بالبركة والخير .

* * *

وانحدرت الشمس نحو الأفق البعيد ، لتغيب فى مياه المحيط الدافئة الزرقاء . وشاهدت خيوطها المتراجعة الأخيرة جماعات العمال العائدين من الحقول ، والرعاة يسوقون أغنامهم من المروج البعيدة ، والعصافير العائدة إلى رءوس الأشجار ، تملأ الفضاء زقزقة مرحة حلوة .

ومن الروابى الخضراء ، تنزل أفواج المتنزهين السعداء ، والعشاق الهائمين ، فى طريقها إلى القرية ، لتستسلم بعد ساعات إلى الأحلام والرؤى ، ولتستعيد نشاطها ليوم جديد تقدم فيه للأرض الطيبة قرابين من العرق الغزير الحار ، وجهود السواعد القوية النشيطة .

ونهض أنطونيو عن الصخرة التى كان يجلس عليها مع فتاته ، والتى كانا يدعوانها « صخرة الحنين » ، وكانا قد نقشا فى لقائهما الأول على أحد جوانبها الحرفين الأولين من اسميهما ، وتعاهدا بقبلة طويلة حارّة على الإخلاص والوفاء ، وعلى أن تكون هذه الصخرة ملتقاهما كل مساء .

ثم مد أنطونيو يده إلى لونا لينهضها وهو يقول :

هلمى بنا نعود قبل أن يهبط الظلام .

فقفزت لونا عن الصخرة كالأرنب الرشيق ، ويدها فى يدى أنطونيو ، وقالت: إن خلواتنا السعيدة تمر بسرعة غريبة .

ــ وددتُ لو كان العمر كله خلوة واحدة ، لا نفترق فيها لحظة .

ثم مضيا يجمعان باقتين من الأزهار ، من بين الصخور ومن أطراف الحقول ؛ حتى إذا امتلأت أيديهما بها ، ألقيا على صخرتهما الحبيبة وسربها الجميل نظرة تفيض بالسعادة ، وراحا ينحدران ليختلطا بجموع العائدين إلى بيوت القرية ، وفى يد كلّ منهما باقة صغيرة من عروق الأزهار البرية ، ليضعاها على قدمى ڤينوس فى معبد القرية ، فى طريق عودتهما .

وشهدت بقايا أشعة الشمس الغاربة أذرع إلهتين فوق الغيوم ، تمتد لتبارك الشاب والفتاة السائرين فى الطريق ، وتحيطهما بحنانها العذب الدافئ .

٢

كان أنطونيو شاباً فى ميعة الزهو ، وإشراق الجمال المرح ، لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره . وكانت لونا فتاة ريّا الصبى العذب ، والجمال الريفى ؛ وهى فى التاسعة عشرة من العمر . وقد جمعت بينهما الجيرة فى المنزل . والجيرة فى الحقل ، كما جمعت بينهما رفقة الطريق إلى القرى المجاورة ، حينما يذهبان ليبيعا غلات الأرض ، الزائدة عن حاجتهما وحاجة أسرتيهما ، من حين إلى آخر .

وكانت الألفة والجيرة ورفقة الطريق ، تجعل من ظهور أنطونيو ولونا معاً فى كل مكان ، أمراً مألوفاً وطبيعيّاً فى القرية ، فلم يكن اجتماعهما ليثير ريبة ، أو يدفع إلى همس ؛ لا سيما أنه ليس فى القرية كلها من لا يثق بهما ، وينظر إلى شبابهما ونشاطهما وإخلاصهما ، بملء الإعجاب والرضا .

وكانا لا يكادان يجدان من وقتهما ساعة فراغ ، حتى يهرعا فيها إلى الحقول ، يقطفان الأزاهير البرية الجميلة ، ويعودان بها الى حيث يقف تمثال ڤينوس ، حارسة جمالها وراعية أحلامهما ، فينثرانها على قدميها الجميلتين العاريتين ؛ أو ينصرفا إلى قضاء لحظات على الصخرة الصغيرة التى نقشا

عليها وثيقة حبهما البرىء .

وكانت علاقتهما هذه تثير الغبطة العميقة فى قلب والد أنطونيو ، وقلب والدة لونا ؛ فقد كان من أعذب أمانيهما أن يريا أنطونيو ولونا يجتمعان فى عش واحد ، ويؤلفان أسرة سعيدة جديدة ، وينجبان للأرض أيدياً جديدة أخرى تعمل لخصبها واستدرار خيرها ، وللحياة مولودات جديدة تزيد فى بهجتها وروعتها ولذّتها .

وحينما كانا يريان أنطونيو ولونا يتضاحكان فى الحقل ، أو يعدوان بين الأشجار كالغزلان المرحة ، كان ينظر كلٌّ من الوالدين السعيدين إلى الآخر ، معرباً عن فرحه الكبير بهذه الألفة الحلوة بين ولديهما .

وأخيراً رأى والد أنطونيو أنه قد آن له أن يخطب له لونا فى حفلة تفرح فيها القرية كلها ، وتفرح معها القرى المجاورة أيضاً ؛ ولذلك تواعد هو والسيدة « ديانا » ، والدة لونا ، على موعد لحفلة الخطوبة ، وأخذا يعدّان لها العدة .

* * *

كان والد أنطونيو شيخاً جليلا اسمه « سافيو » ، يحبه جميع أهل القرية ويحترمونه ، فقد كان لهم المثال الأروع فى العمل والسيرة ، وكان بحكمته يرشدهم ويوجههم . وبفضل مشورته سادت القرية كلها شعور الألفة والمحبة ، وروح التعاون والعمل

المخلص للخير العام . وهذا كان الأساس الذى قامت عليه سعادة القرية ورخاؤها ، والبركة التى تمرح فى أراضيها .

ولقد ربّى ذلك الشيخ الكريم أولاده على أنبل السجايا . وكان أنطونيو هو الوحيد الباقى منهم ، بعد أن توفى إخوته الثلاثة الذين سبقوه فى الولادة ، فتركوا فى نفس الوالد الشيخ جراحاً دميت فى قلبه ، ولكنه تجلد عليها ، وكتمها بالعمل الدائب فى الأرض ، وفى تربية ابنه الوحيد الباقى ، وتنشئته على أخلاق الرجولة ، ومزايا النبل والشهامة .

ولقد كان يوصيه دائماً بأن يتشبه بالأرض فى أخلاقه ، فكان يقول له : تعلم ، يا ابنى ، من الأرض ، فهى تقدم لك أروع الدروس فى السخاء ، وفى الحلم ، وفى الابتسام . ومن استطاع أن يتشبه بها فى كل هذه الدروس ، استطاع أن يضمن السعادة لنفسه ولمن حوله .

وكان يوصيه كذلك بحب العمل ، وعدم الملل منه. فكان يقول له : العمل ، يا بنىّ ، هو الوسيلة الوحيدة الشريفة للحياة الرخية الراضية ، والذى يحبّ العمل ، وينصرف إليه بإخلاص ، لا يمكنه أن يجد وقتاً للعداوات ، وتبرأ نفسه من الحسد ، والطمع والظلم ، والعدوان ، ومن كل رذيلة أو نقيصة خلقية ، ويجب أن يرى الجميع يعملون مثله ، ويسعدون معه . وإذا امتلأ قلبه بالهم أو الحزن ، فلن يجد وقتاً للتفكير فى همومه وأحزانه ، بل

يسلوها بالعمل فى وقت قصير . والعمل المخلص هو سبيل سعادة الأوطان والشعوب ، فاعمل يا بنىّ بجد وأدب ، وحرّض الآخرين دائماً على حب العمل الدائب .

ولذلك نشأ أنطونيو كما تنشأ الزهرة فى الأرض الريّا : جميلا نشيطاً ، مشرقا بالشباب والحيوية والمرح .

لقد قويت بالعمل عضلات جسمه الريان ، كما قويت نفسه بالفضائل ، فكان شجاعاً ، صبوراً ، وكان شهماً يسرع إلى النجدة والإغاثة حيثما تطلبهما موقف أو ظرف . فكان لكل ذلك زهرة فى العيون ، وعطراً فى القلوب والنفوس ؛ تضاحكه صبايا القرية ، وعلى شفاههن ابتسامة الوردة الندية ، كما يضاحكه القمر فى ليالى الصحو الجميلة ، وتدعو له الأمهات والعجائز بأعمق ما فى قلوبهن ، لتحفظ الآلهة شبابه وجماله . وبين رفاقه الشبان كان دفقة من حيوية ، وعبقة من حبور ؛ ولمجالسه بينهم صدى وحديث فى جميع بيوت القرية ، فتباركه الشفاه ، وتدعو له القلوب .

ولم تكن لونا ، فى عيون أهل القرية ، دونه منزلة ؛ فهى مسك وطيب على كل لسان ، وصلاة دافئة فى كل قلب ، ولا سيما فى قلوب الشبان والأمهات . أما أطفال القرية ، فكلهم حبيب إلى قلبها ، وهى حبيبة إلى قلوبهم جميعاً ، لا ترى طفلا فى بيت أو فى حقل ، أو فى طريق ، إلا وتنحنى عليه لتلاعبه

وتضاحكه ، وتطعمه مما قد يكون معها من حلوى أو ثمار .
وما كان يراها طفل أمام بيتها ، أو سائرة فى الطريق ، أو خارجة إلى الحقل ، حتى يرفع صوته منادياً ببراعة ليلفت إليه انتباهها :
– لونا ! . . . لونا ! . . .

فتجيبه لونا بابتسامة حلوة ، وترفع يدها فوق رأسها تحييه بحركات أناملها ، إذ كانت ماضية لأمر يتطلب السرعة ، أو تنحرف نحوه لتقبله وتضاحكه ، ثم تمضى لحالها ، ويدها تلوّح له فى الفضاء بتحية طويلة .

ولم يكن لها سوى أمها وأخ أصغر منها بسنة واحدة ، كان هو رَجُل البيت ، فكانت تشترك معه هى وأمها فى أعمال الحقل ، وتمضى غالباً وحدها إلى القرى المجاورة لبيع الغلال والفواكه .

ولقد تفتحت كبرعم الوردة الغضّ على ندى الفجر ، فكانت فتنة العيون ونشوة الأرواح . وتفتحت نفسها على لمسات الحب الناعمة ، حب أنطونيو ؛ فكانت لذلك تجد الحياة كلها حلوة جميلة ، حتى العمل فى الحقل بيديها الناعمتين ، أو حمل الفواكه والبقول على رأسها لبيعها فى القرى المجاورة ، كل ذلك كان جميلا حلواً ، لأن فرح قلبها ، ونشوة روحها ، كانا يجمّلان لها كل شىء ، ويسيغان فى نفسها كل شىء .

إنها لتغدو مع الفجر لأعمالها ضاحكة فرحة ، وتأوى فى

المساء إلى فراشها دافئة القلب بحلاوة الحياة . وكالفراشات في خضرة الربيع ، وفي تفتح البراعم ، كذلك كانت تشعر بأن في نفسها أجنحة ترفرف ، وفي كل ما حولها ربيعاً أخضر ، وبراعم متفتحة ، وأنساماً بليلة ، تحمل إلى روحها أحلى ما في الربيع والزهر من شذا وبهجة .

وكانت لونا تجد في أنطونيو خير معين ، وخير رفيق ، فقد كان يهتم بعملها أكثر مما يهتم بشئونه الخاصة . وكان يسعده كثيراً أن يحمل عنها الفأس أحياناً وهي تعمل في الحقل ، ليريحها ، ويتابع هو عملها ليسمح لها بلحظات راحة تنشّف فيها قطرات العرق الحارّة المنحدرة في سيول رفيعة على وجهها .

وأما في السوق فقد كان يبيع بضاعتها قبل بضاعته ، ثم يعود معها إلى القرية هانئاً سعيداً ، لأن فتاته إلى جانبه ، ولأنها تسعد بما يبذله لها من حنان وحبّ ، فتفيض سعادة روحها ابتسامة غبطة على ثغرها ، يُشرق لها وجهها الملائكي الجميل .

٣

كان اسم القرية « مانيا » ، وكانت تقوم على ثلاثة تلال متقابلة ، بينها واد عريض ، تنحدر إليه أودية أخرى أصغر منه من بين التلال . وتصب فيه مياه القنوات التى تنساب إليه من عيون القرية وينابيعها المتعددة . وكانت مياه الوادى صافية ضحلة فى الصيف ، فلا يجرى فيه غير ما تحمله إليه القنوات فى العيون ، أما فى الشتاء فكانت مياه الأمطار تتدفق إليه من الجبال والسهول ، فتندفع إليه بعنف وهى تهدر هديراً صاخباً حتى إذا وصلت إلى الشلال العريض العالى ، عند الطرف الغربى من القرية ، تزحلقت عنه بجلبة عظيمة ، أشبه بضوضاء عشرات الآلات الضخمة .

وتحت الشلال كانت تمتد وتترامى إلى مسافات بعيدة ، كروم العنب ، وحدائق التين والرمان والخوخ والسفرجل ، وغيرها من الأشجار المثمرة ، ينساب الوادى بينها متغنيا بخريره العذب ؛ حاملا معه دفقات الحياة فى عروق الشجر ، وفى جذور الحشائش والأعشاب والأزاهير البرية .

وفى كل حديقة أو حقل ، تقوم الأكواخ المصنوعة من الطين ، أو من الخشب ؛ والعرائش الصيفية المصنوعة من عروق

الأشجار ، يقيم فيها النواطير والحراس ، أو يقيم فيها الفلاحون فى وقت القطاف أو الحصاد ، حين يخرجون إلى الحقول ليستمتعوا طويلا بضوء القمر والنجوم فى الليالى الصافية ، ويستمتعوا بنسيم الحقول المنعش ، وحرية الفضاء العريض الجميل غير المحدودة .

وتترامى خلف التلال ، إلى جميع الجهات ، سهول فساح تدر الخيرات فى جميع فصول السنة ، بفضل ما يبذله فيها أهل القرية — صغاراً وكباراً — من النشاط والعناء والجهود المباركة ؛ فهى حقول للحبوب والخضر الموسمية ، أو كروم للعنب .

وأما السكان فقد كان الأمن والسلام والتعاون سائدة بينهم ، كأروع وأحلى ما يكون الوئام فى الأسرة الواحدة :

الكل يحبون الأرض ، والكل يعملون فيها ولها . وليس بينهم إلا كل قانع بقسمته ، مقبل على أرضه ، يبذل فيها نشاطه وعرقه ، فتعطيه من كنوزها ما يجعله يعيش راضياً عن نفسه وعن حياته ، وعن أرضه وقريته ، وعن جيرانه ؛ لا يطمع فى ما لغيره ، ولا يخشى أن يطمع غيره فى ما لديه . كل منهم يحبّ أرضه ، ويحب عمله ، ويقدر شعور الآخرين فى حب أرضهم وعملهم .

وليس بينهم من يشعر بأنه عالة على الآخرين ؛ فإذا أقعدت الأيام أحدهم ، وأعجزته عن مواصلة العمل ، ولم يكن

له من يعمل فى مكانه من أسرته ، تطوع أهل القرية بالعمل فى أرضه ، كل منهم فى وقت فراغه ، أو أحضروا له عاملا من أبناء القرى المجاورة ، ليستثمر له أرضه ، لقاء جزء معين من محصولها ؛ وهكذا تظل أرضه تدر له الخير كعهده بها فى قوته ونشاطه .

وما كان أسعدهم بهذا التعاون الكريم ، فقد كانوا يشعرون بأن جوع أحدهم هو جوعهم جميعاً ، وأن شقاءه هو شقاؤهم ، وأن سعادته هى سعادتهم ؛ فما يمكن أن تشبع القرية وفيها جائع ، أو تنعم وفيها شقى ، أو تستريح وفيها متعب .

* * *

وكان فى مانيا معبد أنيق كبير ، تنتصب فى جوانبه تماثيل كبيرة جميلة من الرخام للآلهة ؛ فى الصدر تمثال ضخم لجوبيتر ، وعلى جانبيه تمثالان أصغر منه ، أحدهما على يمينه للإلهة جونو زوجته ، والثانى على يساره ، للإلهة فستا ، حامية العائلة والحياة الزوجية .

وإلى الجهة اليمنى من المعبد تمثال من المرمر النقى الناصع للإلهة سيريس ، إلهة الخصب والزرع والحصاد ، يقابله على الجهة اليسرى تمثال آخر رائع الجمال للإلهة ڤينوس ، إلهة الجمال والحب ، وحامية العذارى .

وكان يقوم على خدمة هذه الآلهة كاهن شيخ اسمه

سيلفيو ، ولكن أهل القرية كانوا يدعونه « الأب المقدس » ، وهم يثقون به ثقة كبيرة ، ويؤمنون بأنه الوسيط بينهم وبين الآلهة . ولم يكن له من عمل سوى أن يصلى ، وأن يرفع القرابين التى يقدمها أهل القرية فى أوقات متفرقة إلى الآلهة ؛ فهذه زوجة سعيدة تقدم بواسطته قربانها للإلهة قستا ؛ وهذه فتاة عذراء سعد قلبها بدفء الحب ، ترفع قربانها إلى ڤينوس ؛ وذلك شيخ شبع من العمر ، يقدم قربانه الى جوبيتر ، ملتمساً منه أن يرأف بروحه عند الموت القريب ؛ وأمثال هذه القرابين من غير هؤلاء .

وكانت الصبايا يستشرنه فى شئون الحب ، فيكشف لهن مخبآت الغيب التى كثيراً ما كانت تتحقق كما يكشفها ، أو قريبة جداً مما يكشفها ؛ ويعقد صلات الهوى بين قلوبهن وقلوب من يحببن بالتعاويذ والرقى .

ولكن المواسم التى كانت القرية كلها تشترك فيها بمهرجانات عظيمة ، كانت مواسم الغلال والثمار . إذ ذاك كان الجميع يمضون إلى المعبد حاملين السنابل وقطوف الثمر ، ليضعوها على قدمى سيريس ، قرباناً زكيًّا يعبّر عن عمق شكرانهم لها ، لأنها تضع البركة دائماً فى حقولهم وبساتينهم ، وتهبهم الخصب والرخاء .

ولم يكن أحد من أهل القرية يتخلف عن هذا الاحتفال ،

فى جميع مواسمه . حتى الأطفال الصغار ، كانوا يرفعون السنابل الصفراء أو عناقيد العنب ، بأيديهم الصغيرة . وهم يرتلون فرحين ، ليضعوها على أقدام حارسة حقولهم ومباركة غلالهم .

وفى مواسم الورود والأزهار ، كانت الصبايا يتسابقن إلى عقد الباقات حول قدمى ڤينوس فى المعبد ، وكان الشبان لا ينفكون يغمرون تمثالها بالباقات الجميلة ، كما يغمرون أيضاً تماثيل الإلهة سيريس ، المنصوبة على التلال الثلاثة التى تقوم عليها القرية .

لقد كانت « مانيا » على أحبّ ما يكون الوئام والسلام مع الآلهة ، كما كان كلّ من فيها على أحبّ ما يكون السلام والوئام مع نفسه ، ومع جيرانه فى قريته . وحيثما يكن الوئام والسلام ، تكن البركة والخير وسعادة الحياة .

* * *

وعلى مسافات غير بعيدة من قرية مانيا ، كانت تقوم قرى أخرى ، أقربها قرية اسمها « جونو » ، دعاها أهلها كذلك على اسم الإلهة جونو ، زوجة كبير الآلهة جوبيتر .

ولكن أهل جونو كانوا على نقيض جيرانهم أهل مانيا ؛ فهم لا يعملون فى الأرض ، ويعتبرون العمل فيها شيئاً حقيراً لا يليق بهم ؛ ولذلك كانت أراضيهم جرداء قاحلة ، إذا نبت فيها العشب والحشيش والأزاهير البرية من فعل الطبيعة وحدها ، فلا تعيش إلا زمناً قصيراً جداً . وتكاد العين لا تقع على سنبلة

فى حقل ، أو شجرة فى حديقة ، أو سوسنة فى مرج ، إلا إذا وفد على قريتهم غريب ممن يعرفون قيمة الأرض ، وقيمة البذرة التى تنحدر فى شقوق التراب . ولكن أمثال هذا الغريب لم يكونوا يستطيعون البقاء طويلا هناك ، لأن اهتمامهم بالأرض كان يجلب عليهم سخرية النساء والرجال والأطفال فى جونو .

ولكن كان فى القرية أفراد قلائل يتعاطون التجارة . وكان الشبان يترقبون نشوب حرب هنا أو هناك ليلتحقوا بها مأجورين ، ويعود من يعود منهم إلى القرية بعدها بشىء من الغنائم أو الأسلاب ، ليعيش بها مع أهله وذويه مدة أخرى . وكان هناك شبان آخرون يذهبون إلى بعض المدن ، ليعملوا فى خدمة الأغنياء مدة ما ، ثم يعودون إلى القرية لقضاء فترات من البطالة والخمول .

وهكذا كان أهل جونو يعيشون على ما يحمله إليهم شبان مانيا وصباياهم من الثمار والبقول والحبوب ، ونتاج المواشى والدواجن ، يبيعونها لهم ويبتاعون منهم ما يحتاجون إليه من ملابس وأمتعة أخرى ، إذا وجدت فى متاجرهم الصغيرة .

ولكم كان الجونيون ينظرون إلى وجوه شبان جارتهم مانيا ، فيرون الحياة والبشر يتدفقان منها ، وإلى أجسامهم فيرونها تتماسك لفرط العافية والقوة ، فكانوا يحسدونهم على البشر والعافية ، ويتجاهلون — أو هم لا يعلمون — أن الأرض التى يحبونها ويخلصون فى خدمتها ، هى التى تمنحهم هذه المنح الجميلة

السخية ، إلى جانب ما تقدمه لهم من خيراتها وكنوزها .

ولكن صبايا مانيا وشبانها لم يكونوا يفطنون إلى نظرات الحسد من جيرانهم ، لأن قلوبهم البريئة المسالمة لم تكن تعرف الغش والحسد لإنسان . ولكنهم على العكس من ذلك كانوا لا ينفكون يفصحون عن ألمهم العميق لانصراف الجونيين عن استغلال أراضيهم ، ويودّون لو كانت أراضى جارتهم دائماً ممرعة ضاحكة كأراضيهم ، وحقولها تطفح بالخصب والحياة مثل حقولهم.

وكثيراً ما كان المانيون يدعون جيرانهم إلى قريتهم ، ويقدمون لهم من خيرات أرضهم ، ويحاولون جاهدين أن يبثوا فيهم حب الأرض والعمل .

وكان الشيخ ساڤيو لا يفتأ يزورهم ، ويجتمع بشيوخهم ، أو يستقبلهم فى بيته وحقله ، ويكثر لهم من النصح .

كان يصوّر لهم أرضهم جنات ممرعة فى الصيف والشتاء ، وفى الربيع والخريف ، كأراضى قريته ، ويمنيهم بالثمار الطيبة ، والخمور اللذيذة ، والحياة الحلوة ؛ ويشرح لهم جمال العمل وما يبعثه فى النفس من حب الحياة ، ومن الحيوية والنشاط المتدفق ، وما يثيره فى محبيه من حب للآخرين ، ومن رغبة فى السلام مع الجميع ، وفى التعاون مع الأقربين والأبعدين .

كان يقول لهم إن مَن يحب أرضه وعمله ، لا يمكنه أن يعرف معنى للكراهية ، أو للاعتداء على الآخرين ، أو لرغبة

الشرّ والأذى لإنسان ؛ وإن البطالة هى الشرّ كله ؛ وإن جفاف الأرض الدائم لا يوحى فى النفوس بغير الجفاف من الخير والفضيلة والسلام ، ولا يثير فيها إلا الشرّ والمكر وحب الأذى .

كان يقول لهم كل ذلك ، ويفهمهم أن السلام مع الأرض هو أساس السلام مع الحياة والناس .

ولكن الأيدى التى اعتادت الراحة ، والنفور من خشونة الفأس والمعول والرفش ، كانت تأبى الرضى بالتدرب على استعمالها ؛ والعيون التى اعتادت أن ترى جفاف التراب مدى السنين الطوال ، كان من العسير عليها أن تألف الخضرة والربيع بعد ذلك .
وكان ذلك يحز فى نفسه كثيراً ، كما كان مبعث ألم دائم للمانيين ، الذين اعتادوا أن يحبوا الخير للآخرين ، كما يحبونه لأنفسهم .

٤

كان الموعد الذى اتفق الشيخ سافيو والسيدة ديانا ، على أن يعقدا فيه خطوبة أنطونيو ولونا ، هو عندما يغمر النوّار أشجار اللوز ، وتكون بشائر الربيع قد أطلّت على الأرض ، وشرعت يده الصناع تنسج للأرض رداء عريضاً ، ذا ألوان بهيجة زاهية ، وتتوّج رؤوس أشجار اللوز والتفاح والكمثرى بتيجان النوار الأبيض والزهرى ، وتنشر على أذرع هذه الأشجار المبسوطة أوراقاً خضراء طرية .

وجاء الموعد ، فمضى فتيان مانيا إلى القرى المجاورة ، يدعون أهلها إلى حفلة الخطوبة ، التى ستكون فرحة للقرية كلها ، لأن الشيخ الذى فجعته الأيام بثلاثة من أبنائه فى السابق ، ولم تترك له سوى ابنه أنطونيو ، أراد أن يقيم لهذا الابن الوحيد الحبيب حفلتين كبيرتين ، يتجدد فيهما فرحه ، ويتجدد شباب روحه : أحدهما للخطوبة ، والثانية بعدها بأشهر قليلة فى موسم الحصاد ، وهى حفلة الزواج . وأفراح الشيخ الزعيم وابنه أنطونيو ، هى أفراح القرية كلها ، تستعد لها ، وتهيىء جميع دواعى السرور . ومن أهم هذه الدواعى أن يشترك معهم جيرانهم فى أفراحهم .

وتدفقت الخمور فى بيت الشيخ سافيو ، من عصير كروم

القرية ، ومن صنع أيدى أبنائها . فشرب المانيون وضيوفهم من أبناء جونو والقرى الأخرى . وغنّى الشبان والشابات ، ورقصوا ، وصدحت آلات الطرب ، حتى دارت نشوة الخمر ونشوة الفرح فى الرؤوس والنفوس .

وحمل الخطيبان باقتين من أغصان اللوز ذات النوار الجميل المتفتح ، ومضيا فى مقدمة الجمع الغفير إلى المعبد ، حيث سجدا ، ووضعا إحدى الباقتين على قدمى ڤينوس ، والثانية ، على قدمى الإلهة ڤستا ، حامية العائلات ، واشترك الأب المقدس والعروسان فى صلاة الشكر ، وردد الجميع صلاتهما ، ثم عادت الأغانى والهتافات إلى بيت الشيخ ساڤيو . وعقدت الصبايا أكاليل النوار على رأس العروس ، ونثرت أزاهير الربيع الصغيرة على قدميها . وعادت الخمور تتدفق من جديد ، الثمار المجففة ، من خيرات العام الماضى ، تملأ الموائد . واشترك الشبان والشابات فى الغناء والرقص .

وبينما وقف الخطيبان ليشتركا فى الرقص ، مال الشيخ ساڤيو على أذن السيدة ديانا ، والدة العروس ، يقول لها :

ـــ الآن يطلع الربيع فى قلبى ويتجدد شبابى .

فتجيبه المرأة : وأنا أشعر بأن حياتى تمرع كأغصان اللوز المورقة !

ـــ لن يعرف الربيع فراشتين أسعد منهما ، ترفرفان على حقول مانيا .

ـ ولا غزالين يتطاردان فى مروجها ورباها .

ثم رفع الشيخ عينيه ويديه إلى السماء وقال : الشكر للآلهة العظيمة ! إنها لا تبخل علينا بالخير والسعادة .

ونهض الشيخ والمرأة ، فطبع كل منهما قبلتين حارتين على خدى الخطيبين ، وشفاههما تتمتم بدعوات السعادة والبركة لهما

* * *

وبعد أن انتهت الحفلة ، وتفرق المحتفلون ، رجع أبناء القرى المجاورة إلى قراهم ، ولا حديث لهم إلا ما رأوه فى القرية من الفرح والسعادة ، ومن الخير الغامر الذى يعيش فيه المانيون ، وينثرون منه على من حولهم .

وفى طريق جونو كانت تنطلق أحاديث فيها غير قليل من الحسد ، يشترك فيها الشيوخ والشبان .

قال أحد الشبان :

ـ إنهم سعداء ، هؤلاء المانيون الذين تمتلىء موائدهم بمختلف أصناف الثمار المجففة والطازجة ، وأرضهم تدر لهم الخير بدون حساب .

فأجابه شاب آخر : وتتدفق الخمور على موائدهم كالأنهر الجارية ، لأن كرومهم تسخو عليهم بالعناقيد الشهية العصير .

وأجاب شاب ثالث : ونحن فى جونو نجوع فلا نجد ثمرة واحدة أو سنبلة نتبلغ بها !

وقال آخر : ونظمأ إلى الماء الصافى فلا نكاد نقع عليه ، أما هؤلاء فيرتوون من الخمور الشهية ، جديدة ومعتقة !

وارتفع صوت أحد الشيوخ يقول : لو أنصفت الآلهة لجعلت لنا نصيباً من هذا الخير المتدفق على مانيا !

فأجابه شيخ آخر : إن الآلهة معهم . مساكين نحن ! نعيش على فضلات السعداء !

ثم ارتفع صوت أحد الشبان يقول : الذى يحيرنى ويدهشنى فيهم هو هذا التعاون الغريب بينهم . لقد كان الفرح للقرية كلها ، وليس لأنطونيو ولونا ووالديهما فقط !

فأجابه آخر : حقاً لقد كان كل شىء يُشعرنا بأننا كنا ضيوفاً على القرية ، وبأن الفرح كان لكل بيت ، ولكل شخص فى مانيا .

وقال أحد الشيوخ : لقد رأيت الشيخ سافيو ، برغم السبعين من سنيه ، يبدو فى مرح الشباب وحيويته . وعلى الرغم من أنه قد فقد زوجته منذ أعوام ، فإن كل شىء فى بيته وفى حياته كان يبدو على أحسن ما يرام !

فأجابه شيخ آخر : إن القرية كلها تخدمه بسرور ورغبة ، فكأنهم جميعاً أبناؤه : النساء منهم والرجال .

وقال ثالث : بل قل كأنهم جميعاً خدمه أو عبيده ! إنهم لا يعصون له أمراً ، ولا يخيبون له رجاء ، ولا يفوّتون فرصة

أو وسيلة لإدخال السعادة إلى نفسه !

ولكن صوتاً مرتجفاً بضعف الشيخوخة قال :

– ليتكم تتمنون أن يصيبكم مثل نشاطهم وتعاونهم ! إن أرضهم تعطيهم بعض ما يمنحونها من حبّ ، وتكافئ تعاونهم وإخلاصهم وسلامهم بخيراتها .

فتطلعت العيون كلها إلى الشيخ المتكلم بغضب واحتقار ... أيهينهم جميعاً ، ويدافع عن المانيين ؟ !

ألا يكفيهم احتقار أرضهم لهم ، وشحّها عليهم ، حتى يقرّعهم شيخ منهم ؟

ولكنه لم يبال بنظراتهم ، واستغرق فى سعال طويل ، وتركهم يتهامسون ويتمتمون بكلام لا يسمعه ، ولا كان يهمه أن يسمعه .

* * *

وبينما كانت طريق جونو تستمع إلى أحاديث الحسد والغضب من أفواه العائدين إليها ، كان أنطونيو ولونا يجاسان بين والديهما ، وكان الشيخ ساڤيو يقول : ما أطيب قلوب جيراننا ! لقد كملت أفراحنا بحضورهم .

فأجاب أنطونيو : حقاً لقد كانت حفلة أنيسة جدًّا بحضورهم .

وقالت لونا : لقد كبرت أسرتنا بهم ، فلم تكن مقصورة على أبناء قريتنا وحدهم ، بل ضمت معهم إخواناً آخرين .

وقال الشيخ : مساكين ! إن أكثر من أتألم لهم من بينهم هم

الجونيون ، أولئك الذين تأبى أيديهم معانقة الفأس ، وتأنف نفوسهم من محبة التراب السخيّ .

فقال أنطونيو : إن أرضهم لا تقل جودة وخصباً عن أرضنا ، لو كانوا يفلحونها كما نفلح نحن أرضنا .

— نعم يا ولدى ، فليتهم يقتدون بنا !

— بودى يا والدى أن أعاود الجهود التى طالما قمت أنت بها ، ولم يقدّر لها النجاح من قبل ، فأطوف فى القرى القريبة كلها ، لأؤلف من بين شبانها جماعات ترتبط معنا بحب الأرض ونطلق عليها اسم « أصدقاء الأرض » ، ونجعل من هذه الجماعة — مهما تكن صغيرة — نواة تعمل على غرارنا ، لسعادة شعبنا .

— أتمنى أن توفقك الآلهة يا بنى فى مسعاك .

— إن ازدهار الأرض ، يا والدى ، هو الوسيلة الأولى لحب الوطن ، ولحب الحياة والناس. والمواطن الصالح هو الذى يعرف كيف يُصلح أرض وطنه ، ويجعل منها جنات تفيض حياة وخيراً.

— لو عمل كل إنسان بهذا المبدأ ، يا ولدى ، لما بقى فى الأرض محتاج ، ولا بقى فى الناس قلبٌ يضمر شراً ولا حقداً . فالسعيد بنفسه يطلب السعادة لجميع الناس ، والمحتاج شقى بنفسه ، لذلك لا بد له من أن يضمر الشقاء للآخرين .

— إذن سأبدأ مساعىّ حالا ، يا أبت ، لأؤلف من أبناء جيراننا جماعة « أصدقاء الأرض » ، وعسى أن أنجح فى هذا

المسعى ، فأخلق لدى جيراننا دافعاً قويًّا يجذبهم إلى ترابهم ، حين أحول ذلك التراب إلى ثمار وخمور وربيع أخضر .

– ستفعل ذلك يا ولدى متى عُدت من رحلتك القصيرة ؛ فبهت أنطونيو ، وسأل والده بلهفة : رحلة ؟ ! وإلى أين يا أبى ؟

فضحك الشيخ وقال : لقد اتفقنا : أنا والسيدة ديانا ، على أن نسمح لك باصطحاب خطيبتك لزيارة روما لمدة أسبوعين ؛ إنكما فى حاجة إلى رحلة كهذه ، تستريحان فيها من عناء العمل المتواصل وتتمتعان فيها بما فى عاصمة الإمبراطورية من وسائل التسلية والمتعة ، وتبدلان جو القرية الذى لم تفارقاه إلى الآ ن .

فهلل أنطونيو فرحاً ، وقفز من مكانه ليطوق عنق أبيه بذراعيه ، وهو يقول : أنت كريم جداً يا أبى !

ثم أسرع بعد ذلك نحو والدة فتاته يقبل يدها ويقول : وأنت أيضاً يا عمتى ؛ إنك كريمة جدًّا كوالدى . شكراً لكما .

ولم تكن لونا أقل من أنطونيو فرحاً بهذه الفرصة ، فأسرعت تطوق عنق أمها بذراعيها ، وتمطرها بالقبل الحارة . ثم تنهال على يد الشيخ تلثمها شاكرة .

ثم قالت له : ولكنك يا جدى العزيز بأشد الحاجة إلينا لخدمتك ومساعدتك . . .

فقاطعها الشيخ قائلا : لا تفكرى بهذا الآ ن ، فسأكون بخير إلى أن تعودا من رحلتكما . فامضيا لتهيئة لوازم السفر .

٥

كان أنطونيو ولونا يشعران ، لشدة فرحهما ، بأن الإمبراطورية كلها تكاد لا تسعهما ، وبأنها جميعها ترقص لفرحهما بهذه الفرصة الطيبة ، التى أتاحها والداهما الطيبان . فمضيا يحزمان أمتعتهما لهذه الرحلة التى ستستغرق أسبوعين يقضيانهما فى عاصمة الإمبراطورية ، بل عاصمة الدنيا فى ذلك الحين . ولم يكن قد قُدِّر لهما ، إلى ذلك الوقت ، أن يبتعدا عن محيط القرية ، وعن حياة القرويين ، فكل تنقلاتهما لم تتجاوز قط محيط جونو والقرى القليلة الأخرى القريبة من مانيا ؛ وإن شوقهما إلى رؤية المدينة لعظيم جداً .

لقد كانا يسمعان كثيراً جداً من الحكايات الجميلة الغريبة عن المدينة ، من أبناء القرية الآخرين ، الذين أتيح لهم زيارتها ، وكانا يتشوقان كثيراً إلى رؤيتها روما لأجل ذلك كله . وها هى ذى الفرصة تتحقق الآن ، وليس ليوم واحد أو يومين ، بل لأسبوعين كاملين ، يريان فى خلالهما كل ما يرغبان فى رؤيته هناك ، فى عاصمة الدنيا ، وسيدة مدن العالم ؛ ويعودان بعد ذلك ليرويا لأهل القرية كل ما رأياه وما سمعاه من حوادث وأمور تخلب الألباب .

وبعد أن ودّعا والديهما خارج القرية ، واختفيا عن الأنظار ، التفت الشيخ سافيو إلى والدة لونا ، وقال :

ــ لقد رغبتُ فى أن أتيح لهما هذه الفرصة ، لكى يكتسبا بها خبرة جديدة ؛ فحياة القرية وحدها قليلة الاختبارات ، قليلة التجارب . ولقد ألفا ههنا حياة السلام والرخاء ، واعتادا رؤية الناس البسطاء الطيبين المتحابين ، الذين يعيشون على التعاون وحب العمل ؛ فيجب أن يعرفا أن هناك دنيا يعيش فيها الناس على غير هذا كله .

فأجابت السيدة : وستكون هذه الرحلة لهما فرصة لكسب مشاعر إنسانية جديدة للمستقبل أيضاً . ستعلمهما الشعور مع الآخرين المتألمين كما ستعلمهما كيف ينظران إلى الأمور ، ويقارنان بينها بعقل وحكمة .

ــ حقاً ، كل هذا قصدته من إتاحة هذه الرحلة لهما . وسترين كيف سيعودان بمشاعر واختبارات ونظرات جديدة ، كثيرة النضوج والوعى . ولكن هذا كله ضرورى لهما ، فما يكفيهما أن يعرفا وجوه الخير وحدها ، بل يجب أن يدركا وجوه الشر كذلك ، ليتخذا لنفسيهما مناعة ضدّ الشرّ ، ويعرفا كيف يجنبان قريتهما ، من بعدنا ، الوقوع فيها . فنحن لن نعيش لهما إلى الأبد . وأنا أشعر بأن أيامى على الأرض أصبحت قصيرة .

ــ وقتك الآلهة أيها السيد النبيل . . . إنه لمما يصعب علىّ احتماله ، أن أومن بهذه الحقيقة الأليمة ، وهو أنك لن تستطيع

أن تظلّ تقود خطاهما وخطى القرية كلها بحكمة فى طريق السعادة . فلابد لهما من الاختبار والإدراك بنفسيهما . إنك لفى منتهى الحكمة وطيبة القلب يا سيدى .

ــ إن روما تعج بكل ما يدهش العقل من آيات الفنون والعمران ، ومظاهر الجلال والفخامة ؛ ولكن فيها إلى جانب ذلك كلّ ما يقذى العيون ويرمض القلوب ، من دناءات وموبقات وجرائم ؛ واطلاعهما على كل ذلك عن كثب ، سيكون عظيم الفائدة لهما ، وسنرى بعد عودتهما كيف كان استقبالهما لكل هذه المتناقضات الجديدة .

* * *

أما أنطونيو ولونا فقد انطلقا إلى أحدى القرى القريبة ، ومن هناك استأجرا عربة يجرها جوادان قويان ، مضت بهما تنهب الطريق إلى روما . وكانت المسافة تستغرق نحو يومين إلى هناك ، فكان لابد لهما من أن يعرجا على مدينة أخرى خلال الرحلة ، ليقضيا فيها الليل . وكانت هذه أول مرة يبيتان فيها خارج قريتهما ، بعيدين عن ذويهما . ولذلك كانت مشاعرهما كلها جديدة لهذه التجربة . إلا أنهما كانا سعيدين جداً بهذه الرحلة ، وما ستتيحه لهما من مشاعر واختبارات لم يكن لهما بها عهد . وقد أحسا بأنهما يبدآن بهذه الرحلة حياة النضوج والاستقلال التى تقتضيها سنهما ، وما هما

مقبلان عليه من تأليف أسرة جديدة بعد أشهر قليلة .

كان الطقس جميلا فى أثناء رحلتهما ، وإن يكن الشتاء لم يلفظ أنفاسه بعد ، فقد كان الوقت إذ ذاك فى الشهر الأخير من فصل الشتاء ، وهو الوقت الذى يختلط فيه الربيع وهواؤه المنعش ، بالشتاء وبرده الشديد .

وكان هواء الربيع يرفرف بأجنحة ناعمة خفية على وجهيهما والعربة منطلقة بهما فى العاصمة العظيمة . وكانت عيونهما طوال الطريق تتأمل كل ما يمر أمامهما من سهول وتلال ، ومن أناس وحيوانات ؛ فينشرح صدراهما لكل منظر جميل ، ولكل رابية شجراء ، أو حقل تتمايل فيه عروق الحنطة الصغيرة الخضر ، أو مرج تتراقص فيه ذؤابات الحشائش القصيرة ؛ كما كانا ينقبضان كلما مرت بهما أرض جافة التراب ، لم يشقها محراث ، ولا ضحكت عليها عشبة خضراء أو زهرة أقحوان ، أو كلما مر بهما قروى حافى القدمين ، أو طفل قذر الوجه واليدين ، أو طفلة ممزقة الثياب ، أو خروف هزيل أو كلب بادى العظام من الجوع .

وأخيراً ها هى ذى روما . . .

قباب عالية هنا وهناك ، ترتفع سامقة فى الفضاء ؛ وقصور عظيمة لم يريا مثلها قط ، ولكن طالما صورت لهما أخيلتهما مثلما ، لدى سماعهما ما كان يرويه لهما القرويون

العائدون من روما ؛ وحدائق لا تنقطع فيها الخضرة والزهر يوماً واحداً طوال العام ؛ ومياه متدفقة ، وتماثيل كبيرة تفتن الألباب حينما تقع وتتكسر عليها أشعة الشمس الربيعية الدافئة ، فى الشوارع ، وعلى مداخل القصور الفخمه ، فى المعابد والساحات العامة ؛ وحركة بشرية دائبة متزاحمة لا تنقطع ؛ وعربات تجرها خيول قوية عديدة ، تروح وتجىء فى الشوارع الواسعة العريضة تحمل النبلاء والعظماء ؛ وعربات أخرى يجرها . . .

ــ أواه ! هذا منظر فظيع ! . . . انظر يا أنطونيو ! عربة يجرها آدميون شبه عراة ! . . . يا للمساكين !

وكان أنطونيو ينظر إلى حيث تلفته لونا ، فيقشعر جسمه لبشاعة المنظر وقسوته ، وكأنما شعر بأنه كان بين أولئك المناكيد يتألم معهم ؛ وإذا به يهتف بألم :

ــ آخ ! . . . ولم هذه السياط تنزل على ظهورهم ؟ عفوك أيتها الآلهة ! آخ ! . . .

والتصقت لونا بصدر أنطونيو مذعورة ، وهى تلتفت نحو العبيد المجدين فى سيرهم ، وهم يجرون عربة ضخمة ، تتربع فى قلبها سيدة أنيقة شديدة الترف ، بينما تنزل السياط على جلود حيواناتها الآدمية بلا رحمة أو شفقة .

ــ هلم بنا نعود إلى القرية يا أنطونيو ! هذا فظيع ، لا أستطيع رؤيته !

ولكن أنطونيو أمسك بكتفيها بحنان ، وظلت عيناه عالقتين بغضب شديد بأصحاب تلك السياط المتلوية على ظهور المساكين وكان يحس فى صدره بثورة عظيمة ، ويود لو يقفز من العربة وينهال بجميع تلك السياط على جلود أصحابها ، لينقذ أولئك التعساء من ظلمهم وأذاهم .

ولكن سائق العربة أحس بما يجرى خلفه . فالتفت إلى أنطونيو ، وقال له هامساً :

— لا تبد حركة يا سيدى ، وإلا جنيت على نفسك وعلى السيدة التى معك .

— ومن هم هؤلاء ؟ وما ذنبهم ؟

— إنهم عبيد يجرون عربة سيدة من نبيلات روما . وهكذا يعامل العبيد فى هذه المدينة .

— وماذا تعنى بالعبيد ؟

— إنهم من الذين أسرهم جنود روما فى الحروب ، وهم يسخرونهم فى كل أعمالهم القاسية الشاقة ، ويتخذونهم بدلا من الحيوانات لجر عربات نسائهم ، أو لحراسة بيوتهم ومزارعهم والعمل فى حقولهم وأراضيهم بدون رحمة . والسادة ههنا يشترون منهم أعداداً كبيرة ، ويسومونهم كل مذلة وإرهاق ، ويتركونهم ينامون كالأغنام فى حظائر غير مسقوفة ، ويجلدونهم بالسياط بدون سبب ، كما تريان . وفى حفلات المصارعة التى يقيمونها

كثيراً للتسلية ، يختارون الأشداء من بينهم ليتلذذوا برؤيتهم يتفانون بوحشية مؤلمة ، أو يقدمونهم فريسة للأسود الجائعة فى حفلات تسليتهم الجنونية .

فنظر أنطونيو ولونا ، كل منهما فى عينى الآخر ، وكأنما يتساءل : « أمن الممكن أن تنحدر الإنسانية إلى هذا المستوى من الهمجية والتوحش ؟ »

أما السائق فمضى يقول ، وبصوته المنخفض : ستريان الكثير من هذه الفظائع . هل ستطول إقامتكما فى روما ؟

فأجاب أنطونيو : أسبوعين ؛ ولكن قل لى : هل يقيمون مثل هذه الحفلات كثيراً ههنا ؟

ــ نعم يا سيدى . ستريان الكثير جداً ، وستتألمان كثيراً ما دمتما رقيقى القلب إلى هذا الحد . ولكننى أنصح لكما بإخلاص أن لا تحاولا التعرض لأحد ، أو إبداء مشاعركما نحو مظلوم ، لأننى أخشى عليكما سوء العاقبة ، فالناس ههنا لا يرحمون ، ولا يفهمون معنى الشعور الإنسانى ؛ يهمهم أن يتلذذوا على حساب المساكين الضعفاء .

ــ شكراً على النصيحة .

وعادت لونا تقول ، وهى لا تزال ملتصقة بصدر أنطونيو ، وعيناها تنظران إليه بضراعة وخوف :

ــ عُد بنا يا أنطونيو إلى القرية ، لا أطيق أن أرى

هذا ، فكيف إذا كان هناك ما هو أقسى وأشد إيلاماً للنفس ، كالذى تحدث عنه السائق ؟ عُد بنا ، أرجوك !

فهز أنطونيو رأسه ، وما يزال فى عينيه صرامة وتحديق بعيد عنيف : كلا ، لن نعود الآن يا لونا . يجب أن نرى كل شيء فقد بدأت أشعر بأن فى الدنيا شقاء لم نعرفه نحن. يجب أن نبقى ونرى كل شيء .

ـ ولكن هذا فظيع يا حبيبى ، وأخشى أن لا تمسك أعصابك أمام أحد المشاهد ، فتسوء العاقبة ، كما يقول السائق .

فقال السائق قبل أن يتمكن أنطونيو من الإجابة :

ـ الذى سيقع فى هذه الحالة أن يكون جزاء السيد لدى الرومانيين ، كأحد أولئك العبيد ؛ أن يأسروه ، أو يلقوه إلى ساحة الوحوش ، أو إلى ساحة المصارعة . وتصبحين أنت من حظايا أحد السادة الرومانيين بعد ذلك .

فصاحت لونا مذعورة : أواه ! هذا مستحيل ؛ أنطونيو . . .

ولكن أنطونيو أجابها مطمئناً :

ـ كلا . سأحتفظ بأعصابى هادئة . ثقى من هذا .ولكن يجب أن أرى بعينى كلّ ما يمكننى رؤيته من شقاء المظلومين والمعذبين . لقد مرّت حياتى الماضية كلها بهدوء وسعادة ، كالحلم الجميل ، وكنت أظن الدنيا كلها تعيش مثلنا. أما الآن فقد بدأت أعرف غير هذا . يجب أن نبقى معاً .

ووصلت العربة إلى فندق ينزل فيه كثير من القرويين الوافدين على المدينة الكبيرة . فالتفت السائق إلى أنطونيو ، وهمس فى أذنه قائلا :

— ما دمت ترغب فى رؤية الشقاء الإنسانى على حقيقته ، فامض لمشاهدة حفلات الصراع التى يتفانى فيها الرجال ويتعذبون لتبتهج برؤية عذابهم نفوس عظماء روما ونبلائها ؛ واشهد مصارعة هؤلاء الأشقياء للوحوش المفترسة ؛ واسأل عن أحياء العمال والفقراء ، وتجول بينها لترى أى نوع من الحياة يحيون . فى كل هذا سترى العجائب والأهوال .

— شكراً . سأفعل كل ذلك .

* * *

ونزل الحطيبان فى الفندق الصغير ، بين جماعة من القرويين الذين يبدو على بعضهم أنهم مثلهما لم يزوروا المدينة قبل هذه المرة . وأمضيا بقية ذلك النهار فى الاستراحة من عناء الرحلة الطويلة الشاقة .

كان كلّ ما مرّ بهما فى المدينة مثيراً غريباً : الأزقة الضيقة التى اجتازاها قبل الوصول إلى الفندق ، كانت تبعث الكرب فى النفس ، فالشمس لا تمنحها من نورها ما تمنحه لأهل قريتهما ؛ والهواء لا يعطيها من طلاقته ما يكفى ليمنح النشاط والعافية للناس ، كما فى قريتهما . أما القصور الفخمة التى

تتربع فى قلب المدينة وفى أطرافها ، فهى وحدها التى تستأثر بأكبر نصيب من نور الشمس وطلاقة الهواء ، ويستأثر أهلها بالعافية وبسائر متع الحياة .

وكان أنطونيو ولونا قد أحضرا معهما طعاماً ، وفواكه ولحوماً مجففة ، وقليلا من الشراب زاداً للطريق ؛ وقد بقى لديهما بعض هذا إلى الآن . فنهضت لونا رأخرجت الطعام والشراب من بين أمتعتهما ، وجلسا يأكلان ويتحدثان .

قالت لونا : كنت أحسب أن كل ما فى روما سيكون باعثاً على البهجة ، وسيضاعف من سعادتنا ، فنقضى فرصة من أمتع ما فى العمر .

ــ وقد وجدت الآن العكس ؛ أليس كذلك ؟

ــ حقاً ، هذا ما أردت أن أقوله .

ــ نحن لا نزال فى اليوم الأول من اختبارنا لحياة روما يا حبيبتى ؛ وأهلها يعيشون فيها منذ زمن طويل ؛ وهم بشر مثلنا ، ويبدو أنهم يستمرئون حياتهم فيها برغم ما يسوؤنا نحن منها ، فلا بد أن يكون فيها إلى جانب المسىء أشياء أخرى حسنة سارة .

ــ أنا لا أنكر أن روما هى أم الإمبراطورية وعاصمتها ، ومصدر عزها وعظمتها . ولكننى كنت أود أن تحترم كرامة الآخرين ، كما يحترم سادتها كرامة نفوسهم .

ـ لقد ساءك ما رأيت من معاملة العبيد المساكين . ولكن يبدو أن هذه سنة الأقوياء كلهم ، وليست سنة روما وأهلها وحدهم .

ـ ولكنها سنة مجرمة ، لقد أصبحت أعتقد الآن أن كل شر يقع فى الأرض ، لا يكون سببه إلا أطماع السادة الأقوياء ولذاتهم . ولأجل إشباع هذه الأطماع واللذات الحمقاء تقع الحروب ، ويشقى البشر ، وتضيع حرياتهم . كل هذا يقع ضرره على الملايين ، لتطيب به نفوس جماعات قليلة فقط !

ـ حقاً إنها لسنة حيوانية وحشية . إننى لا أخالفك فى هذه النظرة ، بل إننى لأشمئز منها وتثور نفسى ثورة شديدة . ولقد كان منظر العبيد ، وهم يجرون العربة ، والسياط تلهب ظهورهم بلا ذنب ، أبشع منظر رأته عيناى . وفى يقينى أن مثل هذه المعاملة يجب أن يُعدم أصحابها ، لأن الإنسانية تبرأ منهم .

ـ نحن لا نرضى لأنفسنا بمثل هذا الهوان والحقارة .

ـ الشكر للآلهة ! إننا بعيدون عن مثل هذا النصيب التعس . ولكن مَن يدرى ؟ ألم يقل السائق إن هؤلاء العبيد أغلبهم من أسرى الحروب التى انتصر فيها جنودنا على أعدائهم ؟ فلو أننى كنت اشتركت فى حرب ، ووقعت أسيراً فى يد الأعداء أفما كان مصيرى لديهم مثل مصير هؤلاء التعساء ههنا ؟

فذعرت لونا كما لو كان الذى يقوله أنطونيو قد وقع فعلا ،

وهتفت : لا ! لا يمكن ذلك !

ــ بل هذا ما كان يمكن أن يحدث . ولذلك أستطيع أن أفهم الآن من معنى السعادة ، ومن قيمة الحرية ، أكثر مما كنت أفهم من قبل أن أزور روما . ومن يدرى ماذا سأكسب من تجارب فى الأيام المقبلة ؟

ــ حقاً إنه لاختبار شديدة القسوة والمرارة !

ــ ولكننى أتقبله راضياً ، لأنه سيعلمنى دائماً كيف أكون إنسانا حقيقياً . وكيف أدافع عن كرامة كل إنسان ، وعن حقه فى الحياة السعيدة .

وفيما كان أنطونيو ولونا ماضيين فى حديثهما ، كان هناك رجل قريب منهما ، وقد سمع قسما من حديثهما . فتقدم منهما ، وحياهما بانحناءة وابتسامة ، وقال :

ــ يبدو لى أنكما غريبان عن روما ؟ !

فالتفتا معاً نحوه ، وأجاب أنطونيو :

ــ أجل ! وهذه أول مرة نزورها فيها .

ــ إنها مدينة عظيمة ، أليس كذلك ؟

ــ بلى ، إنها تختلف كثيراً عن القرية التى جئنا منها ، وعن جميع القرى التى رأيناها . إنها تختلف بعماراتها وطرقها وأهلها . ويبدو لى أنها تختلف كذلك فى كل شىء .

ــ لا شك فى ذلك . إن البساطة والهدوء ومعاشرة الشمس

والهواء التى يعرفها رفاق الحقل ، لا يمكن أن يوجد منها شىء فى روما ؛ فهى مدينة يعيش فيها الإمبراطور والحكومة والجيش والنبلاء ؟ وهؤلاء جميعاً لهم أعمال وأهداف ومتع لا يمكن أن تقترب بشىء من أهداف القرية وأعمالها وتسلياتها الهنيئة البريئة وهذه القصور التى تريانها . . .

وخفض المتحدث صوته وهو يتابع قائلا : إنها ملأى بالدسائس والمؤامرات الكبيرة ، وبالمخازى أيضاً . . .

فسأله أنطونيو بدهشة : أية دسائس ومؤامرات ومخاز تعنى ؟ !

ــ إن قادة روما لا ينفكون يدبرون المؤامرات بعضهم لبعض ، لهدم سلطة قائد أو عظيم ، وتسليط آخر مكانه ، والنبلاء لاهمّ لهم إلا تدبير الدسائس والمؤامرات فى سبيل النفوذ والثراء والجاه والنساء . وما أكثر الجرائم الأخلاقية التى تغرق فيها قصور روما بلا انقطاع .

فالتفت أنطونيو إلى فتاته ، كما التفتت هى إليه ، وفى عيونهما استغراب وتساؤل حائر : ماذا ؟ أفى كل لحظة خبر جديد عن أحداث المدينة العظمى وأهلها ؟ . . .

ثم قال أنطونيو : أشياء طريفة ومثيرة ، يا لونا ؛ أليس كذلك؟

ولكن لونا لم تجب بشىء . لقد انطلق خيالها يدخل قصور روما ، ويتأمل خفاياها وأسرارها . . . إنها إذن مخازن أسرار ، تلك البنايات الضخمة الجميلة التى تبدى العظمة والذوق والثراء؟ !

ونظر أنطونيو إلى محدثه ، وسأل : هل السيد من روما ؟

ـ كلا ؛ إنني قروى مثلكما ، ولكنني أكثر التردد على روما ، وقد عرفتُ من شؤونها وأمور أهلها الشيء الكثير . واسمى «فلاڤيوس» .

ـ تشرفنا أيها السيد .

قال أنطونيو ذلك ، ثم أشار إلى فتاته وقال يقدمها ثم يقدم نفسه إلى فلاڤيوس :

ـ لونا ، خطيبتى . واسمى أنطونيو ، من قرية مانيا التى تبعد عن روما مسيرة نحو يومين إلى الشمال .

ـ يسرنى كثيراً أن أتشرف بمعرفتكما . هل تأذنان لى بالجلوس معكما ؟

ـ بكل سرور . تفضل .

ثم سأله أنطونيو قائلا : هل سيقيم السيد ههنا طويلا ؟

ـ أسبوعاً واحداً ، لقضاء حاجات بسيطة لابد منها ، ثم أعود إلى أهلى .

ـ هل يستطيع السيد أن يتيح لنا شرف مرافقته فى أوقات فراغه ؟ إننا سنبقى هنا أياماً أخرى ، أكثر من أسبوع .

ـ بكل سرور أنا فى خدمتكما

ـ شكراً يا سيدى .

ـ يمكنك أن تدعونى باسمى . طابت ليلتكما .

ـ طابت ليلتك يا فلاڤيوس .

وحينما غادرهما الرجل ، التفت أنطونيو إلى اونا ، وقال :

ـ يبدو أن زيارتنا لروما لن تذهب عبثاً ما دمنا قد وقعنا على رفيق طيب يعرف المدينة جيداً .

٦

في صبيحة اليوم التالى خرج أنطونيو ولونا من الفندق وحدهما ، يتجولان فى شوارع المدينة العظيمة ، ويتفرجان على مظاهر الحياة والعظمة ومجالى الفنون الجميلة فيها ، فبهرتهما هذه العظمة المتجلية فى كل شيء ، وهذه الحركة الدائبة الكثيرة فى الشوارع .

أناس عديدون كالنمل يذهبون ويجيئون . . . عمال ، جنود ، رجال ، نساء ؛ بعضهم يسيرون على أرجلهم ، وبعضهم يركبون العربات . وحوافر الجياد المسرعة تضرب الشوارع ضرباً عنيفاً ، يُسمع من بعيد .

وفى مدخل القصور وحدائقها نساء ورجال ، عبيد يروحون ويجيئون صامتين ، وفى صمتهم عُبوس وكآبة ومذلة ، كان يتفطر لها قلبا الفتى وخطيبته .

وعرّجا على مكان قريب يتناولان طعاماً خفيفاً ، ومن هناك يرقبان المارة فى الشارع ، ويتأملان حركة المدينة الكبيرة

قالت لونا : شتان ما بين هدوء مانيا فى مثل هذا الوقت من الصباح ، وهذا الضجيج الكبير ههنا .

ــ إن النفس الغريبة لتشعر بالحنين إلى ذلك الجوّ الهادئ .

لقد قضيت الليلة الماضية هناك فى أحلامى . وجدتنى طائراً غريباً لا يطيق هذا القفص الكبير ، فيطلق جناحيه فى الفضاء، ويجتاز الأبعاد والحواجز ليعود إلى عشه الصغير ، بين أوراق الأشجار الخضراء .

ــ صحيح ؟ كنت أود أن أخبرك بأننى قضيتُ الليلة على هذه الحال أيضاً ! لقد عادت بى أحلامى إلى حقولنا ، وهناك رأيتنى أتناول من شجرة لوز كنا نجلس تحتها ، أنت وأنا ، حفنة من الثمار الطرية ، فقدمت لك بعضها ، وجعلنا نتسلى بأكلها .

ــ إن روما مدينة عظيمة ، ولكنها لم تخلق للطيور الحرة . إنها ليست لنا ، ولكنها للذين يعشقون الفراغ واللهو ، والذين تملأ رؤوسهم أحلام العظمة الجوفاء ، والثروة الطائلة ، بعيدين عن بساطة الروح والضمير وحريتهما . ولكن من المفيد للبسطاء الطيبين أمثالنا أن يعيشوا فيها مدة ما ، ليعودوا بعد ذلك إلى القرية أنقى جوهراً وأصفى نفوساً ، وأقدر على فهم الحياة ، ومعرفة الأمور ، مما كانوا .

وفيما هما يتحدثان بهذا وقف بها شيخ أعمى ممزق الثياب ، يعتمد على كتف طفلة قذرة الجسم والملابس ، ومدّ إليهما يده يطلب إحساناً ؛ فالتفت كل منهما إلى الآخر ، وفى عيونهما فيض من الألم والإشفاق . ثم مدّ أنطونيو يده إلى الفتاة بالرغيف

الذى كان أمامه وتناول من جيبه قطعة نقود دفعها إلى الشيخ فأخذها هذا وانصرف وهو يدعو للمحسن الكريم دعوات حارة .

فقال أنطونيو يخاطب فتاته :

ــ لقد كان مثل هذا المنظر ، الذى طالما رأينا أمثاله فى جونو وغيرها من القرى ، وفى من كانوا يفدون بكثرة على قريتنا من المتسولين ، هو مبعث الألم الوحيد الذى كنتُ أشعر به من مظاهر الشقاء البشرى . وها هوذا المنظر نفسه يتكرر لنا فى المدينة العظيمة . فأى فرق بين روما ــ عاصمة الدنيا ــ وجونو ــ القرية الصغيرة الفقيرة ــ مثلا ، ما دام يتساوى فى كليهما بعض الناس بالحاجة والحرمان إلى هذا الحد ؟

فقالت لونا بامتعاض شديد :

ــ من العار أن يعيش محروم بهذا الشكل فى مثل روما ، ذات القصور العظيمة ، والبذخ الذى يذهل العقول ، والملاهى الغارقة فى الترف واللذاذات . ولو كانت حكومة روما حكومة الشعب ، وليست حكومة السادة وحدهم ، لفرضت الضرائب والغرامات الكثيرة على ملاهى السادة ومتعهم الباذخة ، لتأوى بهذه المبالغ المتجمعة أبناء الشعب البؤساء والمحرومين .

فضحك أنطونيو ضحكة ساخرة متألمة معاً ، وقال :

ــ ولكن يبدو لى أن مظاهر الترف فى روما مقصورة على قلة من الناس فقط ، بينما الأكثرية العظمى تتألف من العبيد

والعمال والجياع والمحرومين ، وهؤلاء جميعاً مسخرون لخدمة القلة المترفة وإمتاعها ، وهم يختفون فى ليل روما ، فلا يبقى فيها من مظاهر الحياة إلا المترفون من عشاق اللهو ؛ وفى النهار ينزوون فى أعمالهم أو سجونهم ، أو يتسللون فى الأزقة للاستعطاف ! فلا تظهر لذلك بجلاء إلا مظاهر القوة والثراء والبذخ ، التى تتمثل فى العربات العديدة ، وفى ثياب القواد والجنود الذين تغص بهم الشوارع ، وفى المتاجر العديدة ، والتماثيل المنصوبة فى كل مكان .

– إن الفقراء هم ضحايا الحياة دائماً ؛ والمجتمع الذى لا يأخذ بأيديهم ليمنحهم الحياة والكرامة ، هو مجتمع لا يعرف قيمة نفسه ، ولا يفهم من الكرامة إلا أنها بهيمية حرة ، تعيش على شقاء الآخرين .

– لقد برئنا نحن فى مانيا من هذه النقائص كلها . وسنسعى بعد اليوم لنبرئ غيرنا منها مثلنا ، إن روما لن تكون جديرة بالعظمة وفيها جائع أو محروم أو أسير مظلوم ؛ ولن تكون حرة كريمة وفيها استغلالى كسلان ، يتآمر على سلب الآخرين حقوقهم وثمرات جهودهم ، لينعم هو بها دون جهد أو عرق شريف .

وكانت لونا تنظر إلى الشارع أمامها . فأشارت بيدها وهى تقول لأنطونيو :

ــ انظر يا أنطونيو ؛ هذه امرأة تحمل طفلا هزيلا وتقترب منا . إن البؤس يخط على وجهها ووجه طفلها أعمق آثاره .

فجاءها جواب أنطونيو يقول مشيراً إلى جهة أخرى :

ــ وانظرى هناك ، أولئك الأطفال الذين يلاحقون المارة ، ولا ينفكون يتوسلون إليهم بأحرّ ضراعة !

ــ يبدو أن هذه المناظر وأمثالها لن تنتهى . مساكين ! إن الحياة قاسية جداً عليهم . هيا بنا إلى الفندق ، فإن نفسى تكاد تتمزق من الألم أمام هذه المشاهد العديدة .

فأجابها أنطونيو وهو يربت على كتفها باسما :

ــ يجب أن نهيئ نفسينا لاحتمال كل مشهد مؤلم فى هذه المدينة ، لأنه يبدو لى أننا سنشهد الكثير جداً منها .

* * *

عند الظهر التقى أنطونيو ولونا بفلاڤيوس ، رفيق الأمس ، فى الفندق ، فقال لهما مبتهجاً :

ــ ستشهدان بعد ساعات قليلة مشهداً سيهمكما كثيراً !

فقال أنطونيو : أرجو ألا يكون مشهداً مؤلماً جداً ؟ !

وقالت لونا بما يشبه اللهفة : أى مشهد تراك أعددت لنا هذا النهار ؟ !

فأجاب فلاڤيوس :

ــ ستشهدان فى ساحة المصارعة كيف يتصارع الإنسان

والوحش . . . الإنسان الأعزل الذليل ، والوحش الجائع الضارى

فانقبضت نفس لونا ، واكفهرّ وجهها ، وجعلت تنظر إلى أنطونيو بعينين فيهما رجاء وخوف . ولكنّ أنطونيو ربت على كتفها وقال : لا تجزعى ! فقد قلتُ لك هذا الصباح إن علينا أن نهيئ نفسينا لاحتمال كل مشهد مؤلم ، مهما يبلغ من شدة القسوة والإيلام .

ثم التفت إلى فلاڤيوس وقال : سيسرنا كثيراً أن نرافقك إلى الساحة . هل سيكون هناك كثيرون ؟

— جميع سادة روما وأشرافها . وسيكون الإمبراطور والإمبراطورة هناك فى المقدمة .

ثم تابع كلامه هامساً :

وسيكون إلى جانب الإمبراطورة عشيقها القائد الشاب أيضاً . . .

— عشيقها ؟ !

قال أنطونيو ذلك مستغرباً . فأسرع الرجل يقول مستمراً فى الهمس : روما جميعها تتحدث عن هذا القائد الجميل ، الذى يلازم الإمبراطورة كظلها . إن زوجها رجل شديد الضعف أمامها ، حتى إنها لتمضى فى استهتارها مع عشيقها بدون مبالاة به . وهذا العشيق هو صاحب الكلمة النافذة فى روما .

— إحدى فضائح القصور فى روما العظيمة . . . التى

حدثتنا عن انتشارها أمس ! . . .

ــ نعم ؛ هي واحدة لها مثيلاتها في كثير من قصور روما ؛ القصور الغارقة في الترف والدعارة .

ــ تريد أن تقول : الترف الذي لا يؤدي إلى غير الدعارة ؟!

ــ هو كذلك تماماً .

* * *

وبعد ساعة كان الثلاثة يغادرون الفندق إلى الملعب الكبير . وكان الملعب يعجّ بالألوف من الرجال والنساء ؛ فلم يكد الثلاثة يجدون مكاناً بين هذه الجماهير الغفيرة ، إلا بعد جهد كبير جداً .

وتفرس أنطونيو ولونا فيّ هذه الجماهير ، فإذا هي صنفان من الناس : سادة تبدو عليهم مظاهر العظمة ، يتربعون على المدرجات الواسعة المريحة ؛ وجماهير تنتشر على جوانب الساحة الكبيرة ، تبدو عليها الكآبة والمهانة .

أما الأولون فقد جاءوا يتلذذون برؤية الوحوش الضارية وهي تنطلق من أقفاصها هائجة ، وتنقض على العشرات من المساكين الذين يقفون في حلقة مسوّرة في وسط الملعب ، والذين شاءت لهم إرادة الأقوياء أن يكونوا طعاماً مريئاً لها .

وأما الآخرون فهم أولئك المساكين الذين ينتظر كل منهم أن تمتد إليه يد السادة بالظلم ، وقد لا يبعد أن يصبحوا في يوم من الأيام من طعام هذه الوحوش ، حينما تقضي بذلك

شريعة الغاب التى يحكم بها سادة الرومان . وقد جاءوا يشهدون — كما يجيئون فى كل مرة — كيف تتحجر النفوس والضمائر أمام اللذات المجرمة ، وكيف تنتحر الإنسانية بأيدى أبنائها .

عوامل نفسية متناقضة ، تلك التى كان أنطونيو يتصورها تصطرع فى نفوس الجماهير التى تملأ الملعب الكبير . جماهير السادة المترفين والقادة العظماء ، من جهة ، وجماهير العبيد الأرقاء ، والعمال الجائعين ، والفلاحين البسطاء ، من الجهة الأخرى .

ولكنها صورة روما الحقيقية ، التى يعيش بعض الناس فيها وينعمون ، على حساب شقاء السواد الأعظم من الناس فى إمبراطوريتها الكبيرة . أو هى صورة العسف الأهوج فى كل زمان ، حيث لا تراعى للضعيف حرمة ولا كرامة .

وكان فى الصف الأمامى من المدرج الكبير عدد من المقاعد التى لا تزال خالية . ولما سأل أنطونيو رفيقه عنها ، أجابه هذا بأنها مقاعد الإمبراطور والإمبراطورة وصاحبها ، وبعض الحاشية .

وبعد فترة قصيرة تعالى الهتاف من مقاعد النبلاء ، فنظر أنطونيو ولونا ، وإذا الإمبراطور وزوجته ورجال الحاشية يسيرون بين الصفوف إلى مقاعدهم . وشعر الخطيبان بفتور وقلة اهتمام لمرأى الإمبراطورين .

إنها أول مرة يشاهدانهما فيها ، وكانت قبل اليوم رؤيتهما

أمنية عزيزة لديهما ، لما كان يثيره فى نفسيهما مجرد ذكر اسميهما من الروعة والجلال . أما الآن فإنهما لا يريان فيهما تلك العظمة الحقيقية .

إن مجىء الإمبراطورين الآن ليس ليجلسا على مقعد العدالة للدفاع عن حرية شعبهما وكرامته ؛ ولكن ليجلسا فى المكان الذى أنشئ لتسلية وحشية ، وليكونا قدوة سيئة لسادة الرومان ، فى الاستمتاع بمثل هذه اللذة المنحرفة ، لذة المتفرج على الوحوش الجائعة وهى تمزق أجساد مَن يدعونهم بالعبيد من أسراهم ورعاياهم .

ورفع الإمبراطور يده ثم أنزلها بإشارة خاصة ، فإذا الأسود فى وسط الساحة المسوّرة تنطلق مزمجرة هائجة من أقفاصها ، وتنطلق معها صيحات الجماهير المتفرجة تعرب عن اللذة الوحشية ، والحماسة الجنونية .

فنظرت لونا كما نظر أنطونيو إلى قلب الساحة برعب شديد وقد أخذ قلباهما يضطربان فى صدريهما كحيوانين مذبوحين ؛ وانفتحت عيونهما بحملقة مذعورة . وسرعان ما سقطت لونا بين يدى فتاها من الخوف والتأثر ، وغابت عن الوعى . أما أنطونيو فقد أخذ العرَق الحارّ ينحدر غزيراً عن جبينه ، وشعر بأن قواهُ تخونه ، فيرتمى واهناً إلى جانب فتاته . فبادر فلاڤيوس وبعض المتفرجين من الفلاحين إلى العناية بهما ، فحملوهما

من وسط الجماهير ، وابتعدوا بهما عن الملعب ، وجعلوا يرشون على وجهيهما ماءً بارداً، ويفركون جسميهما ليستردا الحياة.

وبعد مدة لا يدريان كم طالت ، استردا وعيهما ، وفتحا أعينهما ببطء وخوف ، فوجدا نفسيهما بعيدين عن ساحة الوحوش ، وحولهما رفيقهما وجماعة من الرومانيين البسطاء . وعلى وجوههم جميعاً علامات التأثر الشديد لهما .

وأسرع فلاڤيوس يطمئنهما ويسندهما للجلوس . ثم قال :

ـــ لقد انتهى كل شيء . أنا آسف جداً لاصطحابي إياكما إلى هنا ، ولكنني لم أكن أعتقد بأن المشهد يسبب لكما الإغماء .

فقالت لونا : هل افترستهم الوحوش جميعهم ؟

ـــ نعم يا سيدتي . لم يكن من هذا بدّ . وماذا يفعل العبيد العزّل أمام الأسود الجائعة ؟

فأخفت لونا وجهها بيديها ، كأنما تمثل لها المشهد حياً من جديد ، حتى لقد كاد يعاودها الإغماء وتقع على الأرض ، لولا أن أسرع أنطونيو وفلاڤيوس يسندانها وينعشانها .

وقال أنطونيو وهو يعصر صدغيه بكلتا يديه :

ـــ هذا فظيع جداً . إنني لم أتصور مطلقاً أن الإنسان يمكنه أن يتحجر في صدره الضمير والشعور إلى هذا الحدّ . . . هيا بنا يا لونا نعود إلى الفندق ؛ فنحن في أشد الحاجة إلى الراحة ، بعد هذا المشهد المريع .

* * *

فى اليوم التالى جاء فلافيوس يزورهما ، وإذ دخل عليهما فى الغرفة بادرهما قائلا وهو يبتسم :

ــ أرجو أن تكونا الآن أحسن حالا .

فأجابه أنطونيو : شكراً لك . إننا الآن بخير . لقد رافق مشهد الأمس الرهيب أحلامنا طوال الليل ؛ فقضينا ليلة شديدة الرعب . ولكننا الآن أحسن حالا .

ــ إذن سأكفر عن رعب الأمس بمشاهدة مبهجة هذا المساء . هل أنتما مستعدان لمرافقتى ؟

فسألت لونا : إلى أين هذه المرة ؟

فقال : اطمئنى إلى أن ما ستشهدينه مساء اليوم سيعجبك كثيراً ، وستتمنين لو كانت جميع حفلات روما وسهراتها من طرازه .

وقال أنطونيو :

ــ لقد أصبحت أشك فى أن يكون فى روما احتفال يبعث على الارتياح ؛ فالقلوب التى يتحجر فيها الشعور الإنسانى إلى الحد الذى رأيناه أمس ، غريب عليها أن تأتى أمراً جميلا ، يرضى الضمير النزيه .

فقال فلافيوس : بل سترى أنها قادرة على أن تخلق الأشياء الجميلة كذلك فاستعدا لمرافقتى عند المساء إلى المسرح .

فسألت لونا : المسرح ؟ وماذا هناك ؟

– سترين رواية يمثلها رجال ونساء ، ويرافقها عزف وغناء . وقد تجدين فيها فصولا مضحكة ومسلية . إن هذه متعة عقلية لطيفة ، يُقبل عليها الرومانيون الذين يحبون أن يستمتعوا استمتاعاً عقلياً بريئاً .

– إذن ستكون على استعداد عند المساء ، فشكراً لك .

* * *

كان المسرح يقوم فى قاعة كبيرة رحيبة جداً . وقد ركزت على جوانبها مشاعل ومصابيح عديدة ، تحول الظلام إلى نهار . وكانت القاعة تغصّ بمئات المقاعد التى يجلس عليها جماهير من عشاق المسرح .

وجلس الثلاثة بين الجماهير فى انتظار بدء التمثيل . ومضى فلاڤيوس يحدّث رفيقيه عن أثر الروايات المسرحية فى تثقيف الجماهير . وذكر لهما أن الرومان قد أولعوا بهذا الفن الجميل ، بعد أن قبسوه عن اليونان ، فصاروا يقلدونهم فيه ، ويمثلون كثيراً من المسرحيات اليونانية . وقد وجدوا فى الإكثار من هذا الفن تسلية بريئة وفائدة عقلية ، فى آن واحد . ولكن الشعراء الذين يوفقون فى تقديم هذا اللون الفنى للجماهير قلائل جداً ، وأقل براعة من شعراء اليونان القدماء ؛ وهم يلاقون الإجلال من جميع الرومانيين ، وتصبح رواياتهم وأقوالهم أغانى يتغنى بها عشاق الفن الجميل ، والمرهفو الإحساس من الرومان .

ثم بدأ التمثيل ، بعد أن أزيح الستار عن المسرح ، فشاهد أنطونيو ولونا لأول مرة فى حياتهما تسلية لطيفة من هذا النوع ، وأخذا بروعة التمثيل والموسيقى والغناء ، وضحكا كثيراً للمشاهد الفكهة التى تخللت الرواية ، حتى لقد تمنيا لو تطول السهرة كثيراً ، كما تمنيا لو تزور فرقة التمثيل قريتهم من حين إلى آخر ، ليشهد القرويون حفلاتها الجميلة ، ويستمعوا إلى أغانيها ومعزوفاتها اللذيذة المرحة .

ولما خرجوا من الحفلة ، قالت لونا :

— ما أجمل هذه الليلة ! ما ضرّ لو كانت ليالى روما وحفلاتها كلها من مثل هذا النوع البرىء المسلى المهذب للجميع ، والذى لا جور فيه ، ولا اعتداء ، ولا وحشية ؟

فقال فلاڤيوس : إن أنواع التسلية البريئة كهذه ، قليلة جداً فى المدينة . والذين يتاح لهم أن يستمتعوا بها قلائل جداً بالنسبة إلى عدد السكان الكبير؛ فأبناء الطبقات الفقيرة العاملة، محرومون — أو يكادون يكونون محرومين جميعهم — من كل متعة جميلة، بل إنهم هم أنفسهم وسائل التسلية واللذة لغيرهم . . .

وسأل أنطونيو : لقد انتهى يوم أمس بشره ، وانتهى هذا اليوم بخيره ، فما تخبىء لنا للغد ؟

فضحك فلاڤيوس وقال :

— لستُ أظنكما ستسران فى غد كما سررتما هذه الليلة ...

وكانوا قد وصلوا إذ ذاك إلى مكان ملىء بالأضواء الساطعة ، تتعالى منه أصوات ضوضاء وصخب ومجون وعربدة . فسأل أنطونيو : ماذا هنا ؟

فقال فلاڤيوس :

ـ إنها حانة يعربد فيها جنود الإمبراطورية المختلفو الأقوام والبلدان ، الذين يكثر وفودهم على روما للترفيه عن أنفسهم بالشراب والنساء الداعرات . إنهم خليط من الشرق والغرب ، من جميع البلدان التى يمتد عليها ظلّ روما . وهم يعلمون أن أيام لذاتهم قليلة ، لأن الحروب لا تسمح لهم بأكثر منها ؛ ولذلك يمنحون أنفسهم فيها الحرية المطلقة ، وينفقونها فى أنواع المتع الممكنة ، حراماً أو حلالا ؛ حتى لقد يقتلون من يحاول أن يقف فى سبيل لذة يبتغونها ، وحيثما اجتمع منهم فريق ، سمعت لهم مثل هذه الضوضاء ، التى يختلط فيها الضحك بالزعيق ، والسباب بالمغازلات الماجنة .

فقال أنطونيو مدهوشاً :

ـ ألا تستطيع روما أن تقدم لجنودها وسائل التسلية البريئة ، التى تصان فيها الحشمة والوقار والآداب ؟

ثم صمت الثلاثة ، ومضوا يقطعون الطريق القصيرة الباقية إلى الفندق . وقبل أن ينصرف كل منهم إلى غرفته ، قال أنطونيو لفلاڤيوس : كنا قد سألناك عن برنامجك للغد ،

ثم نسينا أن نستمع إلى جوابك . . . فماذا عندك للغد ؟
ـ أوه ! . . . لقد نسيت فى الحقيقة .
ـ ما رأيكما فى أن نذهب غداً إلى سوق العبيد ، لتريا كيف يباع هؤلاء الناس هناك ؟
فالتفت أنطونيو إلى فتاته متسائلا ، فرآها هى أيضاً تنظر إليه متسائلة ، فقال لها : هل يغمى عليك هناك أيضاً ؟ !
فسألته هى أيضاً ضاحكة :
ـ وأنت . . . ألا تخونك قواك أيضاً ؟ !
فضحك الثلاثة معاً ، وأجاب أنطونيو :
ـ كلا ؛ سأكون أكثر تجلداً لرؤية مآسى الإنسانية المعذبة البريئة .
فأجابت لونا :
ـ وسأكون أنا أيضاً كذلك... أقصد أننى سأحاول أن أتجلد.
فسألهما فلاڤيوس قائلا :
ـ أستطيع إذن أن أحزم أمرى على هذا للغد ؟
فجاء الجواب منهما معاً :
ـ أجل ، نحن موافقان . إلى اللقاء ، وشكراً لك .
ـ وشكراً لكما كذلك . إننى أحسّ بمزيد من السرور لمرافقتكما . طابت ليلتكما
ـ طابت ليلتك أيها الصديق .

٧

في صباح اليوم التالي استيقظت لونا وهي تشعر بتهدم شديد في جسمها ، وصداع شديد في رأسها . فاضطرت إلى ملازمة الفراش ، واضطر أنطونيو إلى البقاء معها طول النهار للقيام على خدمتها ريثما تسترد نشاطها ، وعندما جاء فلاڤيوس ليأخذهما قرب الظهر إلى مكان بيع العبيد ، اعتذرا إليه بلطف ، ووعدا بأن يرافقاه حالما تسترد لونا نشاطها وعافيتها .

قالت لونا :

ـ إنني شديدة الرغبة في أن أرى كيف يباع هؤلاء التعساء . وعسى أن أكون في الغد أحسن حالا ، فنمضي معك .

فقال فلاڤيوس :

ـ أتمنى لك العافية ، وأنا دائماً في خدمتكما ، إنكما إنسانان طيبان ؛ والمرء لا يجد الناس الطيبين كثيراً في هذه الدنيا . طاب يومكما !

ـ شكراً لك أيها الصديق الكريم . إن وجودك في روما ، كان مصدر غبطة لنا . ولولاك ما كنا عرفنا كيف نتصرف بوقتنا بشكل مجد ، في هذه المدينة التي نزورها لأول مرة .

وتركهما الرجل ومضى لشأنه ، في حين انصرف أنطونيو

إلى العناية بفتاته ، فأحضر لها طعاماً خفيفاً وشراباً منعشاً ، وجلس إلى جوارها يؤنسها .

وعند الأصيل أخذها إلى شرفة الفندق ، وجعلا ينظران من هناك إلى الشارع الكبير المكتظ بالمارة . وبعد قليل سمعا أصوات أوامر عسكرية عالية تقترب من هناك ، ورأيا المارة يهرعون كلهم إلى جانبي الشارع .

فسأل أنطونيو صاحب الفندق عن سبب ذلك ، فأخبره بأن طوابير من الجند تمر الآن من هناك فى عرض عسكرى .

فسأله أنطونيو :

— وإلى أين يذهبون ؟

— إنهم من الفرق الجديدة التى جهزها الرومان من أبنائهم ومن أبناء الشعوب التى يسيطرون على بلادها ، لإرسالها إلى الشرق ، وقوداً جديداً لحروب الإمبراطورية هناك .

فشكره أنطونيو على هذه المعلومات ، ومضى يرقب الشارع هو وفتاته . فمرت الجيوش من أمامهما ، بين هتافات الجماهير . وكانت ألوفاً من الجنود الشبان ، هيأتهم روما لمذابح جديدة .

وقال أنطونيو يخاطب فتاته :

— هذه أيضاً تسلية أخرى من تسليات طغاة روما . إنهم يقذفون بالشباب إلى النار لاكتساب ما يدعونه أمجاداً وطنية ، بالبطش والدماء . وكذلك . فيما يبدو لى ، طبيعة الدول والأمم

القوية ، المتنافسة على السلطان .

ــ البشرية لاتستطيع أن تسعد، ما دامت أطماع السلطان والعظمة والتوسع تعيش وتفرخ فى نفوس أقويائها . ولست أدرى أية أمجاد أعظم من أن يتعاون الناس على توفير السعادة لأنفسهم فى الحياة ، بالعمل ، وباستغلال كنوز الأرض وخيراتها بعدل ومحبة ؟ إن الأرض تكفى أبناء الجنس البشرى كله ، لو عرفوا كيف يحبونها ، ويتعاونون على استغلالها .

وبعد لحظات من الصمت ، شرد فيها خيال لونا إلى القرية ، وإلى ذويها وذوى فتاها هناك ، قالت :

ــ لقد أتاح لنا والدك هذه الرحلة ، متحملا الكثير فى سبيل توفير الراحة والتسلية لنا ، على الرغم من حاجته الشديدة لمساعدتك فى العمل .

فقال أنطونيو بتأثر شديد :

ــ حقاً إنه لفى أشد الحاجة إلىّ . فالسبعون المرهقة التى اجتازها إلى الآن ، لم تترك فى يديه وجسمه من القوة ما يكفى لأعمال الحقل والبيت ، ولكنه لن يعدم من يعينه من أهل القرية ، ريثما نعود .

ــ صحيح أن القرية كلها تخدمه ، ولكنك تعرف أنه يأبى أن يستغل أحداً ، كما أن حبه الطويل العميق للأرض والعمل لا يسمح له بالاعتماد على أحد ؛ فهو لا يطيق الابتعاد

عن العمل يوماً واحداً، برغم حاجته الشديدة إلى الراحة في هذه السن .

ــ مسكين أبى ! كم هو كريم هذا الشيخ الطيب !

ــ لقد أشتقت إليه كثيراً، وإلى والدتى وأخى كذلك . يجب أن نختصر هذه الإجازة قليلا ، لنعود إليهما . ألا توافقنى على هذا يا حبيبى ؟

ــ بلى يا حبيبتى ، يجب أن نتخلص من المؤلمات العديدة فى روما ، ونعود إليهم بأسرع ما يمكن .

قال أنطونيو هذا وهو ساهم ، شارد الفكر . ثم أردف يقول :

ــ ولكن بعد أن نرى سوق العبيد غداً . إننى أريد أن أشهد بعينىّ هذا النوع من مآسى البشر المساكين .

ــ حسناً ، سنبقى إلى الغد . ولكنّ نفسى قد شبعت من الألم . وفى القرية سننسى كل شىء ، وسنطوى صفحة روما ، فلا نذكرها بعد الآن ، لأن ذكرها سيعيد إلينا أسوأ رحلة يمكن أن نقوم بها، إذ تذكرنا بالكثير من مآسى البشر المعذبين، مآسى الملايين الذين يشقون ويتعذبون ويموتون ، فى سبيل راحة الآحاد أو العشرات ، وإمتاعهم بأكثر اللذات وحشية وهمجية .

ــ بل سنظل نذكر روما ومآسى الإنسانية فيها دائماً ، لأن ذكرها سيحفزنا دائماً إلى أن نشعر مع المتألمين والمعذبين ،

فنسعى إلى التخفيف من آلامهم ، إن استطعنا ، أليس كذلك ؟ !

ـ أنت على حق يا حبيبي . أنا متأسفة ؛ لم أقصد هذا ...

* * *

فى الغد كانت لونا قد استردت نشاطها وصحتها . فلما جاء فلاڤيوس عند الظهر ، كانت هى وأنطونيو على استعداد للخروج معه .

وكانت السوق التى يباع فيها العبيد ، بعيدة عن الفندق مسافة غير قليلة ، فاستأجر الثلاثة عربة أوصلتهم إلى هناك .

وفى الطريق قال أنطونيو يخاطب فلاڤيوس :

ـ لقد صممنا ، لونا وأنا ، على أن نقصر إقامتنا فى روما ، فنسافر غداً ، بدلا من البقاء أسبوعاً آخر .

ـ لماذا ؟ هل سئمتما روما وعظمتها وجمالها ؟

ـ لا شك فى أن أسباب السآمة والألم فيها أكثر من أسباب التسلية والمتعة البريئة . فجمالها وفخامتها وحدائقها ومسارحها ، إنما تخفى وراءها أموراً أخرى شديدة الوقع على النفس المرهفة ؛ وقد شاهدنا منها القليل ، فاكتفينا وشبعنا .

ـ هذا مما يؤسفنى كثيراً . لقد كنت أود أن أطيل إقامتى ههنا لأجلكما ؛ فهناك أشياء كثيرة جداً كنت أحبّ أن ترياها ؛ فمثلا ....

فقاطعه أنطونيو قائلا :

ــ مثلا ماذا ؟ أشياء جميلة أم مؤلمة ؟ !

ــ كلاهما . . . فهناك مثلا النزهة بالقارب فى نهر التيبر . إنكما لم تتمتعا بعد بنزهة جميلة كهذه ؛ وهناك أيضاً . . .

فنظر كلّ من أنطونيو ولونا إلى الآخر متسائلا . . . ثم قالت لونا مقاطعة كلام فلافيوس :

ــ لا حاجة للإيضاح ... ستكون نزهة النهر آخر ما نفعله فى روما ، لكيما نغادرها بعد مشهد جميل ، ترتاح إلى تذكره نفوسنا فى طريق العودة ، كما سترتاح لذكر ليلة المسرح ؛ وبذلك نعوض عن المشاهد المريعة الأخرى ، وآثارها فى نفسينا .

وقال أنطونيو :

ــ سنخصص لهذه النزهة النهرية يوماً كاملا . وليكن ذلك غداً . ما رأيك فى هذا ؟

فقال الرجل :

ــ ولكن هناك شيئاً آخر سيهمك أن تراه ، وإذا عُدْت بدون رؤيته ، ظلت رحلتك ناقصة .

فسألت لونا بدهشة واستغراب :

ــ ماذا هناك أيضاً ؟

فضحك الرجل وقال :

ــ إنه لن يكون من الأشياء الجميلة ، ولكنه من الأمور البارزة المشهورة فى حياة روما . أقصد من المظالم التى تشتهر بها...

ـ مظالم أخرى ؟ !

ـ بل هى لا تقل هولا وبشاعة عما رأيتماه فى ساحة الأسود . وهى تقام فى الملعب نفسه أيضاً . . .

فارتعبت لونا ، ونظرت إلى أنطونيو ، كأنما تستنجد به . وقال أنطونيو للرجل :

ـ ما الذى تريد أن تقوله ؟ أفصح يا سيدى !

ـ أريد أن أقول إنكما لم تشاهدا حفلات المصارعة ، التى يتمتع بها طغاة روما حين يرون الأسرى والعبيد يتفانون بالسلاح أمامهم . إنها حفلات قتال وحشى عنيف ، ستشهدان فيها حرباً دموية يخر ضحيتها عشرات من الشبان ، بدون ذنب ، وفى وقت قصير جداً . إنها إحدى مُتع سادة روما المألوفة . وغداً تقام حفلة منها ! فما رأيكما فى شهودها ؟

فأمسكت لونا بكتف أنطونيو بخوف ، وقالت :

ـ أنطونيو ! لا أريد . . . لا أريد . . . أخشى أن يُغمى علىّ إذا رأيت عملا وحشياً كهذا ؟

فهدأ أنطونيو روعها ، وقال :

ـ تشجعى يا حبيبتى ، فما تستطيع رقتنا وحدها أن تمنع غداً هذا المأساة ؛ ورؤيتنا لها ستزوّدنا بمشاعر جديدة للمستقبل ؛ يجب أن نذهب غداً لمشاهدة هذه الحفلة الدموية .

فقال فلافيوس :

ـ لقد كنت واثقاً من أنها ستثيركما ، وتحفزكما إلى مشاهدتها ، برغم ما فيها من بشاعة وهول . وبعد غد سنستأجر قارباً وننزل إلى التيبر ، نغسل بجماله وهوائه آثار هذه الحفلة المؤلمة فى نفوسنا .

ووقفت بهم العربة أمام ساحة كبيرة ، فيها عدد من الخيام ، وقد انتشر فيها مئات من الخلق ، يتفرجون على أسراب من الرجال والنساء والسبايا المعروضين للبيع . فقال فلاڤيوس لأنطونيو ولونا اللذين وقفا ينظران إليهم بألم شديد :

ـ القسم الأكبر من هؤلاء الرجال هم من الأسرى الذين تبيعهم الحكومة للأغنياء ، ليعملوا فى حقولهم ومزارعهم بقسوة متناهية . وهناك قسم آخر ممن سباهم القراصنة ، وجاؤوا بهم يبيعونهم إلى أشراف روما بأثمان بسيطة . أما النساء فكلهن من سبايا القراصنة ، وهم يختارونهن من ذوات الجمال الباهر ، كما تريان ، ويبيعونهن بأثمان عالية ، فيتخذ منهن سادة الرومان حظايا وجوارى ومغنيات فى قصورهم . والسوق ههنا لا تتوقف أبداً ، لأن الأسرى لا تنقطع سيولهم ، والدولة تسخر منهم من تشاء فى شؤونها الحقيرة أو الشاقة ، أو تسلى سادة الرومان بتقديم جماعات من هؤلاء الأسرى المساكين للوحوش ، أو بدفعهم إلى المصارعة ؛ وتبيع الباقى إلى النبلاء والأغنياء ، فيصبحون لديهم فى مقام البهائم أو السلع أو المتاع الحقير ، يتصرفون بهم كما

يشاؤون ، ويختارون من بينهم الأشداء أحياناً لحفلات المصارعة العامة .

وكانت لونا تتفرس فى هذه المعروضات البشرية . وتتأمل فى مذلتها ، فرأت بينها فتيات رائعات الجمال ينتحبن ، ويتضرعن طالبات الرحمة بهن وبأعراضهن من المهانة ، ولكن قلوب النخاسين القاسية لم تكن ترق لضراعاتهن ودموعهن ، وأيدى المشترين والمتفرجين ، لا تنفك تقلبن بعبث وسخرية ، وهم يساومون على أثمانهن .

وأما الأسرى من الرجال ، فقد كان المشترون يختارون من بينهم أقواهم أجساماً ، وأشدهم عضلات ، ليصلحوا لأعمالهم الشاقة المرهقة ! ثم يمضون بهم يجرّونهم بالسلاسل كالكلاب.

وأشد ما كان يمزق قلبى لونا وأنطونيو من هذه السوق ، منظر انفصال الأبناء عن آبائهم ، حين يصبح كل منهم عبداً لسيد غير سيد الآخر ؛ وانفصال الفتيات عن أمهاتهن كذلك .

لقد كانت تلك المشاهد بالغة حدّ التأثر المؤلم . ولكن النخاسين وطغاة الحكم ، كانوا قد اعتادوا مثلها فلم يأبهوا لها قط .

فلم يطق الخطيبان الطيبان البقاء طويلا أمام هذه المشاهد الأليمة ، فأسرعا فى ركوب العربة من جديد ، وأخذا معهما فلاڤيوس ، وعاد الجميع إلى الفندق ، ولكن من طريق آخر غير الذى جاءوا منه ، لأن رفيقهما أراد أن يرفه عن نفسيهما

قليلا بجولة صغيرة فى أحياء روما الجميلة .

وكان من أبرز الأمور التى استلفتت انتباه لونا ، كثرة التماثيل الرخامية والحجرية فى مداخل القصور ، وفى الساحات العامة ، والشوارع . فسألت عنها ، فحدثها فلاڤيوس بأن البعض منها تصنعه أيد رومانية ، ولكن القسم الأكبر منها — وهو يؤلف أعداداً ضخمة جداً — تماثيل مختلفة لشعوب و بلاد متعددة ، مما يحمله جنود روما إليها من البلاد التى يستولون عليها . فهم يستولون على كل ما هو جميل ونفيس فى البلاد المحتلة ، ويحملونه إلى روما . ومن ذلك ألوف التماثيل الجميلة ، المتعددة الأشكال والألوان والأنواع .

فسألت لونا بشىء من الحدة والغضب :

— هل يعنى هذا أن جنود الإمبراطورية يعملون فى الحرب واللصوصية معاً ؟ !

فأجاب الرجل بصوت شديد الانخفاض :

— هذه هى الحقيقة يا سيدتى ؛ فالحرب عندهم لا يمكن أن ترافقها رحمة ولا فضيلة ولا خلق نبيل .

فهزت لونا رأسها ولم تقل شيئاً . ونظرت إلى أنطونيو ، فإذا هو شارد الفكر فى ما يمر به من مناظر جميلة مختلفة .

ومروا بجانب نهر التيبر الجميل ، فطلب أنطونيو إلى السائق أن يقف العربة قليلا ، ليستنشقوا الهواء البليل الذى

تبعثه مياه النهر الصافية . ونزل الثلاثة يغسلون أيديهم ووجوههم بمائه .

وقالت لونا وهى تقف بعد ذلك لتجفف الماء عن يديها ووجهها :

– إن التبر لهو الشىء الوحيد الجميل ، الذى سيظل خالداً فى روما . أما ملاهيها وفظائعها وقسوتها فستزول كلها ، ويظل هو ليمجد بصمته الأبدى العدل والرحمة ، ويسبح الجمال الحقيقى وسلام الضمير ، ويؤذن الأقوياء على مدى الأجيال بأن لكل قوة نهاية ، إلا قوة العدل والحق ، وقوة التعاون المخلص فى سبيل خير البشرية وصلاح الأرض .

فنظر إليها فلاڤيوس بإعجاب شديد ، وأجاب :

– كلامك جميل يا سيدتى . وهو الحقيقة التى تبحث عنها البشرية ، ولكنها ستتعب طويلاجداً قبل أن تحققها كما يجب .

وعاد الجميع إلى ركوب العربة ، وقبل أن تسير بهم نحو الفندق ، رفع أنطونيو يده تحية للنهر وقال :

– إلى اللقاء بعد غد ، أيها النهر الجميل .

* * *

كان اليوم التالى شديد البرد فى الصباح ، وقد اكفهرت السماء ، وتوقع الناس قبل الظهر أن ينهمر المطر غزيراً . ولكن

ما كاد ينتصف النهار حتى تبددت الغيوم ، وعادت الشمس ترسل أشعتها إلى الأرض من جديد ، دافئة جميلة ، وكأنما عزّ عليها أن تفسد على سادة روما متعتهم التى يترقبونها بعد ظهر ذلك النهار ؛ أو لعلها شاءت أن يستمر الطقس لطيفاً طوال المدة التى يقضيها أنطونيو ولونا فى عاصمة الإمبراطورية .

وقبل موعد الحفلة كان الخطيبان ورفيقهما يهبطان من العربة أمام مدخل الملعب العظيم ، الغاص بالألوف من الرومانيين ، والغرباء الذين جاؤوا يشهدون الحفلة العنيفة . واتخذ الثلاثة أماكن لجلوسهم ، وراحوا ينظرون إلى العشرات من الشبان الأقوياء الواقفين فى قلب الساحة ، تحت نظر المتفرجين جميعهم ؛ بأيديهم الخناجر والسيوف والفؤوس ، وعلى أجسامهم ورؤوسهم الدروع والخوذات ، وهم يترقبون الإشارة لبدء المصارعة ، لينقض كل منهم على الآخر بأعنف ما ما يستطيع ، وكأن بينهم ثارات قديمة لا يمحوها سوى الدم ؛ وما كان بهم من ثأر ، ولكنها إرادة أسيادهم ، ولذاتهم المجرمة التى لا تتم بغير هذه الوحشية الغريبة .

وحينما أعطيت إشارة البدء ، انقض المتصارعون بعضهم على بعض ، وراحت الجثث تتساقط متتابعة ، والدماء تتناثر على تراب الساحة ، فتترك فى التراب بركاً صغيرة ؛ بينما كانت تتعالى من مقاعد المتفرجين صيحات الحماسة العظيمة ، تعرب

عن مدى التلذذ والتشفى !

– على رأسه يا شيبيو !

– فى صدره . . . آه . . . هكذا . . . ضربة أخرى يا ريموس !

ولا تلبث أن تملأ الجو صيحات الفرح الكبير كلما سقط على التراب جسد جديد .

ولم تطق لونا النظر إلى هذه المعارك الوحشية ، فدفنت وجهها فى صدر أنطونيو لتتفادى الإغماء . أما أنطونيو فقد ظل يحدق فى الساحة ، وفى نفسه ثورة تشبه الزوبعة الهائلة من النقمة والاشمئزاز .

فلاحظ فلاڤيوس علامات النقمة على وجهه ، فوضع يده على ركبته ليحذره من التورط فى عمل أو إشارة يسىء بها إلى نفسه وإلى فتاته . وقد جاء تحذيره فى الوقت المناسب ، فتغلب أنطونيو على ثورة نفسه ، وظل ينظر إلى الملعب بصمت ، ويداه تمسكان بذراعى لونا المستندتين إلى كتفه .

وكانت لونا كلما رفعت وجهها عن صدره ونظرت إلى الملعب ، لا تلبث أن تعود فتدفن وجهها فى صدره من جديد . فأحس أنطونيو بأن بقاءها ههنا قد يفضى بها إلى الإغماء ، أو إلى الإجهاد الشديد . فطلب إلى رفيقه أن يعود بهما إلى الفندق ، فقد كفى ما رأياه ، ولم يعد بهما حاجة إلى البقاء إلى

أن يفنى جميع المتصارعين .

فنهض الثلاثة وركبوا العربة وعادوا إلى الفندق . فما إن دخل الخطيبان غرفتهما حتى استلقى كل منهما على فراشه بإعياء بالغ من أثر ما شاهداه فى الملعب الدموى .

وطافت بخيال لونا صور كل ما شاهدته فى روما منذ اليوم الأول ، فكان كل شىء هائلا :

عبيد يجرون عربة سيدة مترفة والسياط تلهب جلودهم بلا ذنب . . . وآخرون يطرحون طعاماً للوحوش لتسلية سادة روما . . . وبدون ذنب أيضاً . . . وغيرهم يتفانون بوحشية ليستمتع بذلك أشراف الرومان . . . وبدون ذنب كذلك . . .

وماذا بعد ؟

أليس فى الدنيا شىء آخر غير السيادة والعبودية ؟ أو ليس ثمت شىء غير القوة والضعف ؟ وما الذى يميز بين السادة والعبيد من مزايا الإنسانية ؟!

لا شىء ! لا شىء مطلقاً ! فعلام هذا كله ؟!

حقاً إن هناك ما يميز كلا الفريقين . . . فالقوى تميزه قوته وأطماعه ولذاته ؛ والضعيف يميزه ضعفه وخنوعه وهوانه . ومتى أتيح للضعيف أن يتغلب على مزايا ضعفه ، فلن يعود ضعيفاً ، ولكنه سيصبح نداً للأقوياء ، وستكون له حريته وكرامته وحقه فى الحياة الرخية مثلهم ، ويعلمهم كيف ينظرون

إليه كإنسان مساو لهم فى الإنسانية .

* * *

لم يبق على أنطونيو ولونا من برنامج الرحلة سوى نزهة النهر . وها هما أولاء يتهيآن لها ، ثم يخرجان مع رفيقهما إلى حيث يستأجرون قارباً ، وينزلون إلى الماء .

كان الجو صحواً ، والهواء لطيفاً ؛ وكان منظر المياه الزرقاء الجارية يبعث فى النفس أعمق شعور بالجمال والراحة والسعادة. فشعرت لونا بانتعاش فى نفسها ، وحيوية دافقة فى جسمها ، كانت تعبر عنهما برغبتها الجادة فى المرح والضحك والحديث . وقد سرت العدوى منها إلى أنطونيو ، فكأنما نسى الاثنان مشاهد الأمس وما قبله ، فلم يعودا يذكران سوى أنهما يستمتعان بنزهة جميلة فى عاصمة الدنيا ، بين زرقة الماء والسماء ، وأنهما سيعودان غداً إلى القرية ، وفى جسميهما نشاط ، وفى صدريهما اغتباط سيعينانهما على العودة إلى أعمال الحقل بلذة ونشاط .

أما فلاڤيوس فقد كان يكتم فى نفسه شعوراً كان يعذبه منذ أن وقعت عيناه على لونا فى الفندق للمرة الأولى . وهو الآن كلما رآها فى مرحها وحيويتها ، وهى فى نزهتها النهرية الجميلة ، شعر بقلبه يخفق ويضطرب بشدة ، فلا يستطيع إلا أن يسكته ، بأن يخفض بصره دونها ، لئلا تفضحه عيناه .

إنه لا يريد أن يعكر على الشابين السعيدين حبهما

وسعادتهما . فليكبت شعوره فى صدره ، وليعش بعد اليوم على حرمانه القاسى ، ويترك لها أن تذكره دائماً كصديق تطيب ذكراه فقط .

وتذكر أنطونيو والده ، فابتسم وقال يخاطب لونا :

ـ إنه الآن فى انتظار عودتنا . . . يخيل إلى أنه يحسب لعودتنا الساعات !

فقالت لونا :

ـ إنك تعنى أباك ، بلا شك ! ما أشد شوقى إلى تقبيل جبينه المتغضن ، ويديه المتجعدتين المعروقتين ! سنحدثه متى عدنا عن نزهتنا هذه ، وسنفيض فى وصف جمال الماء ورقة الهواء ؛ وعن الخضرة التى تحف بالشاطئين ؛ والقوارب الصغيرة التى يتنزه بها السعداء فى النهر ؛ والأمواج الصغيرة الناعمة التى تشبه غضون وجهه النبيل . سنحدثه بكل هذا ؟ أليس كذلك يا أنطونيو ؟ !

ـ وبماذا أيضاً ستحدثينه ؟

ـ دعنا الآن ننسى كل شىء عدا هذه النزهة .

وظل القارب يجرى مع النهر نزولا وصعوداً ، حتى تجاوز الوقت منتصف النهار . فرأى أنطونيو ولونا أن يعودا لكى يبتاعا من الأسواق بعض الهدايا الجميلة الخفيفة ، ويتأهبا للسفر الطويل فى صباح الغد . فخرجا إلى الشاطئ ، وألقيا على التيبر

تحية الوداع . ثم مضيا مع فلاڤيوس ، وابتاعا من السوق ما طاب لهما من الهدايا ، ثم قصدا إلى الفندق ليستريحا ويحزما أمتعتهما لرحلة الغد .

وقبل أن يفترقا عن رفيقهما الطيب عند باب غرفته فى الفندق ، صافحاه بحرارة ، وشكراه على الرفقة الطيبة التى أتاحها لهما. ودعواه إلى زيارتهما فى«مانيا» ليقوما نحوه بواجب الخدمة التى يستحقها . فوعد بالزيارة .

ولمحت لونا فى عينيه شبح دمعتين تجولان ، فتزجرهما كبرياؤه عن النزول . ولاحظت أنه يود أن يحدق فيها طويلا ، وأنه حين صافحها ، أبقى يدها فى يده مدة أطول من المألوف . ولكنها لم تفطن إلى الحقيقة كما هى ، وإنما اعتبرت ذلك مظهراً من مظاهر الطيبة والوفاء اللذين لقياهما منه فى هذه المدينة.

أما هو فقد كان فى صدره بركان يريد أن ينفجر . لقد شعر فى هذه الأيام القليلة التى عرف فيها لونا بسعادة لم يشعر بمثلها قط . ولكنه سيئ الحظ جداً ، فقد وقع قلبه على حبة فى فم طائر آخر سبقه إلى التقاطها . وتأبى عليه أخلاقه ونبله أن ينتزعها من فمه اقتساراً . ثم إنها ، فيما يظهر ، شديدة الحب لفتاها ، فمن النذالة أن يحاول معها أية محاولة ؛ كما أن من المؤكد أن أية محاولة من جانبه ، ستخفق حتماً ، وستكون نتيجتها أن ينقلب احترام الفتاة وخطيبها له إلى احتقار أليم .

وإذن . . . ليس له إلا أن يكتم ما بقلبه ، ويعالج آلامه بصبر ورجولة . . . أما لونا وفتاها فلتبارك الآلهة حبهما ؛ إنهما طيبا القلب جداً ، وجديران بالحب والسعادة .

وفى صباح الغد ، حينما كانت لونا تجلس فى مكانها من العربة إلى جانب خطيبها ، ليعودا إلى مانيا ، كان فلاڤيوس يتزود منها بآخر نظرة من نافذة الفندق . فلما مضت الجياد بالعربة لتختفى بمن فيها فى زحام الشارع ، عاد إلى غرفته ينتحب بحرارة ، ويودع سعادة القلب التى طارت وراء المسافرين السعيدين .

* * *

بعد يومين كان الشيخ ساڤيو والسيدة ديانا وابنها يستقبلون الخطيبين العائدين من روما . وكان عناق حار وفرح عظيم باللقاء. وقال الشيخ :

ـ أرجو أن تكونا قد شاهدتما الشيء الكثير فى روما ، وسررتما بزيارتكما .

فجعل أنطونيو ولونا يتناوبان الحديث عن مشاهداتهما ، ويبديان بين الحين والحين امتعاضهما وألمهما للمشاهد العنيفة والمؤلمة التى رأياها . وفى نهاية الحديث قال أنطونيو :

ـ لقد وجدت روما تعيش بروح القتل والقتال وحدهما ؛ فهى دائماً فى حروب أو استعدادات للحروب فى الخارج ،

وأما فى الداخل فهى تتلذذ بالقتل والبطش فى ملاعبها العامة ، وفى معاملاتها للناس . وهذا يجعلنى أقدر قيمة السعادة الحقيقية التى نعيش نحن فيها ههنا ، بعيدين عن روما ، وعن روح سادة روما .

فضحك الشيخ وقال :

ـ أنا سعيد جداً بأنك قد عدت إلينا باختبارات جديدة نافعة . وستفيدك هذه الاختبارات فى ما كنت عازماً عليه قبل رحلتك ، من السعى مع إخواننا فى القرى المجاورة ، لتأليف جماعة « أصدقاء الأرض » . هل نسيت ذلك ؟

ـ كلا يا أبت ؟ بل لقد أصبحت الآن أكثر تصميماً منى قبل الرحلة . فالشقاء الإنسانى الذى لمسته فى روما ، يدفعنى بكل قوة إلى أن أجنب جيرانى مثله بقدر ما أستطيع .

فاقترب الشيخ من ولده ، وتناول وجهه بين يديه ، وقال له بملء الحنان والفخر ، وهو يطبع على جبينه قبلة حارة :

ـ أنا شديد الفخر بك أكثر مما كنت دائماً . فلتباركك الآلهة ؛ ولتقد فى طريق النجاح خطاك يا بنى ! إن شيخوختى تستطيع الآن أن تطمئن كل الاطمئنان إلى أن ابنى ، وذخر شيخوختى ، قد أصبح رجلا وإنساناً حقيقياً .

* * *

بعد أن استراح أنطونيو نحو أسبوع من رحلته ، وأنجز

ما تأخر من أعمال والده بسبب غيبته ، شرع يمضى كل يوم من أيام فراغه إلى القرى المجاورة ، فيتصل بشبابها وشيوخها ، فيحاول معهم نفس المحاولة التى فشل فيها والده من قبله ، ويدعوهم بحماسة وحرارة إلى العمل وحب الأرض ، وإلى التعاون فى خدمتها لضمان السعادة والرزق الحلال والعيش الشريف . وكان يقص عليهم ما شاهده من هوان البشرية الضعيفة ، ويؤكد لهم أن لا سبيل إلى السعادة ولا إلى الحرية أو الكرامة بدون الأرض ، وبدون التعاون المخلص فى العمل فيها .

فكان الناس فى البداية يقابلون حماسته بالبرودة ، وحرارته بالسخرية . ولكنه لم يلبث أن وجد بعد ذلك استعداداً لدى عدد من الشبان فى ثلاث من القرى ، كانت جونو واحدة منها . فراح يشترك هو وبعض أقرانه من المانيين فى تدريبهم على العمـــل والغرس وإصلاح الأراضى وريها وما إلى ذلك .

وكان سروره وسرور والده بهذا النجاح الصغير عظيماً جداً ، وصار لا يدخر وسعاً فى رعيه وإنمائه ليضمن من بعده النجاح الكبير . وكان كلما زار قرية من هذه القرى الثلاث ، ورأى رجلا مجداً فى العمل ، يبتسم ابتسامة القائد المنتصر ، ويربت على كتف الرجل مشجعاً ومستزيداً .

ولكن الأيام لم تبق على فرحته كاملة ، وفرحة والده ، فقد صار الكسالى والحساد ، من الجونيين وحدهم يعتدون فى ظلمة الليل على الأراضى التى كان يتعب بها « أصدقاء الأرض » ، فيتلفونها وينتزعون ما فيها من غراس فيحطمونها ويرمونها بعيداً . أما القريتان الأخريان فقد استمر العمل فيهما ينجح ويتقدم بكثير من البطء والتؤدة .

وكان تكرر الحوادث المزعجة فى جونو ، سبباً فى فتور همم العاملين النشيطين فيها ، ورجوعهم عن العمل فى الأرض ، لئلا تظل جهودهم تذهب سدى على هذا الشكل .

وكانت خيبة أنطونيو لذلك عظيمة ، وكان حزنه عظيماً أيضاً ، فقد رأى أن من العبث أن يستمر فى دعوته فى جونو ؛ فانصرف عنها وفى نفسه جراح عميقة من أثر الخيبة .

ولكن الشيخ سافيو شاء أن يعزيه ، فقال له :

ـ لا حاجة لليأس يا ولدى ، فقد كان إخفاقى السابق أمرّ وأقسى من إخفاقك . ومع ذلك فإننا سنظل نعمل ههنا بنشاط وهمة ، ونتعهد نشاط إخواننا فى القريتين الباقيتين ؛ فعسى أن يعدي نشاطنا هذا جيراننا الجونيين مع طول المدة ، فيقبلون مثلنا على العمل من تلقاء أنفسهم ، حين يروننا دائماً فى خير دافق ، ويرون أنفسهم دائماً فى حاجة إلى ثمر جهودنا ، وخيرات أرضنا ، أو على الأصح إلى فضلاتنا .

وسمع الشيخ ولده يتمتم لنفسه :

ـ كنت أحب أن أنتزع كل بذرة شريرة من نفوس الجونيين ، ولكننى أخفقت فى هذا . وخوفى عظيم من أن تنمو بذور الشر هذه نمواً كبيراً يؤدى إلى شرور عظيمة ! . .

٨

كان موسم الحصاد . . . الموعد الذى اعتادت مانيا أن تقيم فيه مهرجانها لتقديم القرابين إلى الآلهة . وهو فى الوقت نفسه ــ هذه المرة ــ الموعد الذى يترقبه أنطونيو ولونا بشوق عظيم ، لاستكمال فرحتهما بالزواج ، بعد الانتهاء من مراسيم المهرجان وقرابين الآلهة .

وكانت سعادة الخطيبين غامرة دافقة ، كما كانت فرحة الشيخ ساڤيو والسيدة ديانا بقرب الزفاف عميقة جداً .

واجتمعت القرية كلها فى مهرجانها العظيم المألوف ، لتقديم القرابين من غلال الأرض فى معبد القرية ، إلى الإلهة سيريس ، قبل البدء بالحصاد . وانتشر الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والعجائز ، فى المروج والحقول القريبة ، يقطفون السنابل الصفراء ، ويحزمونها باقات صغيرة ، ثم يعودون ليجتمعوا فى وسط القرية ، حتى إذا تكامل الجمع ، ساروا بعد ذلك جماعة واحدة إلى المعبد ، وهم ينشدون أناشيدهم المعتادة فى شكر الآلهة ، وطلب استمرار الخصب والبركة فى حقول القرية .

وكان الكاهن الشيخ ينتظر وصولهم داخل المعبد ، وقد

ارتدى ثياب المراسيم الدينية ، استعداداً للبدء فى إجراء هذه المراسيم .

ووصل المهرجان إلى باب المعبد :

جموع فرحة مرتلة ، تطفح وجوهها بالبشر والسعادة ، وتفيض قلوبها بالشكر والعرفان للآلهة التى تغمرهم بالعطايا والبركات . وكانوا جميعهم فى ثياب الحقل ؛ فقد كانوا يؤمنون إيماناً عميقاً بأن ثوب العمل المغبّر ، هو الثوب المقدس الذى يليق بجلال العبادة ، وقداسة الروح وخشوعها ؛ وهو وحده الذى يدل على النشاط وحب الحياة وحب العمل .

وخرج الأب المقدس يستقبلهم على الباب .

لقد كان يبدو أن هذا أروع أعياد القرية ؛ فكانت التراتيل تنطلق حلوة حلوة ، كجنى الحقول ، من حناجر الأطفال والصبايا ، والشيوخ والشبان . وكان الشيوخ والعجائز يشعرون بتجدد الشباب وحيوية الروح فى ذلك المهرجان الإلهى الرائع .

وأخذ الكاهن من يد الشيخ سافيو باقة صغيرة من السنابل الصفراء ، وسار أمام المهرجان إلى داخل المعبد ، حيث يقوم تمثال الإلهة الجميلة ، حارسة الحقول وربة الحصاد والخصب . ورفع الباقة بيديه ، ورفع عينيه إلى وجه التمثال العالى لكى يبدأ صلاة تقديم القربان . ولكن . . .

ولكنه سرعان ما ارتدت يداه إلى جانبيه ، وقد سرت فى جسده النحيل المتداعى رعشة عنيفة . فصمتت التراتيل والأناشيد ، وجف الفرح فى وجوه الجميع . ونظر الجميع إلى وجه التمثال ، فرأوا ما ملأ قلوبهم فزعاً . . .

لقد كان على وجه التمثال كآبة شديدة الوضوح ، وكان فى عينيه دموع . . . دموع حقيقية ! . . فمن أين جاءت هذه الدموع ؟ ! وهل يبكى الرخام ؟!

والتفت الجميع إلى تمثال فينوس ، على الجهة المقابلة ، فإذا هو مثل تمثال سيريس كآبة ودموعاً . . .

فأطرقت الجموع أسًى وحيرة ، وانصبت الأنظار جميعها على الأب المقدس .

ألا ليته يتكلم ! فقد يستطيع أن يفسر لهم هذه الظاهرة الغريبة !

إن مثل هذا لم يقع قط فى قريتهم ، ولا علم أحد منهم بوقوع مثله قط فى أي مكانٍ آخر . . . فماذا عسى أن يكون معناه ؟ !

واستدار الأب المقدس أخيراً إلى الجمع ، وما يزال مطرقاً إلى الأرض ، ممتلئ النفس بالألم ، والكآبة تخط أقسى خطوطها فى وجهه المتغضن . ثم قال لهم بلهجة مفعمة بالحزن ، وبدون أن يرفع إليهم رأسه :

– صلّوا معى ليمنع عنكم جوبيتر الشر . إن كارثة عظيمة ستقع فى قريتنا ؛ وليست دموع إلهتينا العظيمتين سوى نذير بالكارثة .

ثم استدار إلى حيث تمثال جوبيتر ، وجثا أمامه بخشوع عميق . ففعل الجميع مثله ، وانطلقت من جميع الأفواه ، ومن أعماق جميع القلوب ، صلاة حارة ردّدوها وراء الأب المقدس :

« أيها الرب جوبيتر العظيم ! ارفع غضبك عنا ، وليستمر السلام فى أرضنا ، لنظل نعبدك بإيمان وطمأنينة ، فلا يعوقنا شىء عن عبادتك ! »

* * *

وخرج الجميع من المعبد ، وقد طارت من النفوس بهجة العيد ، ونشوة المهرجان .

لقد تحوّل كل شىء فى نفوسهم إلى سواد ، فما فى قلوبهم سوى التوجس فى شر قريب غير منظور .

عاد الجميع إلى بيوتهم يبحثون فى قرارة نفوسهم عن سبب يمكن أن يؤدى إلى وقوع الشر بهم وبقريتهم ؛ فلم يجدوا السبب . . .

إنهم على أتم وئام مع الآلهة ومع الناس ؛ وموسم الغلال والثمار يبعث على الارتياح العظيم ، فإنه يكفيهم ويكفى جميع القرى المجاورة لهم . فما الذى سيقع إذاً حتى تبكى إلهتاهم سيريس

وفينوس دموعاً حقيقية من عيون التمثالين المرمريين ؟ !

أما أنطونيو ولونا فقد كانت الصدمة فى نفسيهما مزدوجة ، وكان وقعها شديداً جداً ، فقد طارت بالفرحة التى بنيا على لذتها أحلاماً بعيدة كلها سعادة وجمال ولذة . فانطويا على نفسيهما ، وفى عينى كل منهما دموع لا يستطيعان لها حبساً .

لقد كانا يحبان قريتهما حباً يعادل حبهما المتبادل ؛ ولم يكن وقع الصدمة فى نفوس أهل القرية إلا ليضاعف وقعها فى نفسيهما ، ويضاعف من ذهولهما لها ، وحيرتهما من الكارثة المرتقبة . . .

ولكن أحداً منهما ومن أهل القرية لم يستطع أن يرقى بظنه إلى الحقيقة المرعبة . . . وأى حقيقة مرعبة هى ؟ ! . . .

لقد ملّ إله الحرب (مارس) من طول ما ضايقه السلام الطويل الذى نعمت فيه مانيا ، فأراد أن يحرك فوقها صواعقه .

إنه إله جبار ، لا يعيش إلا فى قلب الصواعق ، وعلى ظهور الرعود والبروق . ولذلك صمم على أن يلقى من صواعقه المرعبة شراراً فى هذه القرية الوادعة الآمنة .

فلما علمت سيريس بعزمه هالها الأمر ، ورأت أن كل ما وفرته للقرية من خير ودعة وسلام ، سيتلاشى ولن يعقب غير الدمار والحزن والفجائع . . .

ستجفّ الأرض فلا تطلع عشباً ، ولا غلالا ، ولا ثماراً ،

ولا أزاهير ؛ لأن صواعق مارس تحرق كل ما تقع عليه .

فأسرعت تصب النبأ الصاعق فى أذن رفيقتها ڤينوس ؛ قالت :

ـ نفسى حزينة جداً يا أختاه ؛ فإن رفيقنا مارس قد عزم على أن يبدأ عمله فى مانيا . ومعنى هذا أنه سيدمر رعايتى الطويلة ، وجهود القرية كلها التى بذلت فيها السنين الطوال فى دأب مستمر . ستجف الأرض فلا تعطى خيراتها ، وستضيع السعادة من حياة الناس ، ويموت الفرح فى قلوبهم . لقد شاء مارس أن يسخر صواعقه لتدمير سعادة مانيا الجميلة . لقد لبس خوذته ودرعه ، بعد أن خلعهما فترة ما ؟ ولم يبق إلا أن يحمل سيفه ، ويمس به الغيوم ، لتبدأ الصواعق عملها .

فانتفضت ڤينوس فزعاً وألماً لهذا النبأ المرعب ، وقالت بحدة ومرارة معاً :

ـ وستجف كذلك البشاشة والنضارة فى وجوه الشبان والعذارى ، والحب فى قلوبهم . وسينهدم كل ما وفرته للشبان والصبايا والأزواج الأوفياء من سلام الروح وهوى القلب ، ومن جمال الحب وسعادة الحياة . . . أنت وأنا يا أختاه ، ستمسح صواعق مارس كل ما عملناه على الأرض من خير ، وما أشعناه من سلام . . .

وأسرعت الإلهتان ترفعان ضراعتهما إلى الإله الأكبر

جوبيتر . فقالت سيريس :

ـ أيها الرب العظيم ! أنت أبونا وأبو البشر جميعاً ، وأنت سبب سعادة الحياة . فلن يرضيك أن يقع الشر على أيدى الآلهة . فمر بأن يقف مارس عن عزمه ، وأن تستمر السعادة فى حياة الناس ، والخصب والخير فى حقولهم .

وقالت ڤينوس :

ـ نعم ، أيها الإله الأكبر ، مر بأن تظل صواعق مارس خرساء ؛ فلا تدمر بيتاً ، ولا تخرس لحناً فى حنجرة طائر ، ولا غضارة فى غصن شجرة ، ولا بشاشة فى برعم سوسنة ، ولا بسمة على ثغر فتاة ، ولا ثغاء فى لهاة حمل . . . مر بأن تظل حياة الناس حبًّا وجمالا وفرحاً ، وعبادة مخلصة لاسمك القدوس ومجدك الأعظم . . .

ثم شخصت عيون الإلهتين بضراعة حارة إلى وجه الإله الأكبر ، تنتظران حكمه وأمره ، وفى نفسيهما لهفة محرقة . وكان جوبيتر يصغى إلى تضرعاتهما ، وعلى ثغره ابتسامة تقطر ألماً .

إنه يحب أن تسود السعادة فى الأرض ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يريد أن يمنع الآلهة الآخرين من التصرف كما يشاؤون . ولذلك أجاب الإلهتين بقوله :

ـ إن محبتكما لأبنائى وعبادى تبعث الرضى فى قلبى الكبير . ولكن زميلكما الإله مارس سيغضب وسيتألم كثيراً إن

نحن حاولنا أن نحدّ من حريته ، ونعطل إرادته . . . أنتما تمارسان عملكما كما تشاءان ، وهو كذلك يمارس عمله كما يشاء ، لأن الآلهة حرة فيما تعمل . والأرض التي تذوق من فضلنا الفرح والسعادة طويلا ، لا بد لها من أن تحس — من فضلنا أيضاً ! ! — بلذعة الحزن والشقاء كذلك . وإن طول السعادة قد يبطر بعض الناس ، فينسيهم ذكرنا وعبادتنا ، كما يلهيهم عن الشعور بمآسي الآخرين . ولهذا قد يكون الشر تذكيراً لهذا البعض بأن الآلهة موجودة ، وقادرة ؛ وبأن فى الأرض مآسى يجب أن ينصرفوا إلى تخفيفها عن أصحابها . . . فليفعل مارس ما يشاء ، فإن صواعقه التى يوزعها بلا انقطاع فى دنيا البشر ، قد تحرق من الأرض — فى كثير من الأحيان — مفاسد كثيرة ، ومن نفوس البشر خبائث كثيرة أيضاً . . . وإذا كان أهل مانيا لا يستحقون غضبه ، فقد يكون الشر الذى يقع عليهم ، سبباً فى تطهير آخرين غيرهم . . . إن الآلهة يجب أن تظهر مقدرتها من حين إلى آخر ، وبشىء من الشر ، لكى يظل الناس يتذكرونها ويخشونها ؛ لأن إخلادهم إلى عدلنا ورحمتنا وحناننا وحدها ، ليس سوى تدليل وتخدير لنفوسهم . . .

فأجابت سيريس بكثير من الكآبة والضراعة :

— ولكننا أظهرنا للناس عظمة الآلهة ومقدرتها ، بما أشعناه بينهم من بركة وخير وسعادة . أفلا يكفى الخير ، يا سيد

الآلهة ، ليظهر عظمتنا للناس ، ويكسبنا عبادتهم وتمجيدهم بلا انقطاع ؟ ! أليس عمل الخير أجدر بنا نحن الآلهة ؟ !

وقالت ڤينوس :

ــ إن الناس فى مانيا لا يفترون عن شكرنا وعرفان جميلنا ، أيها الإله الأعظم . وهذا دليل صادق على أن الخير والرحمة لا يخدّران النفوس ، بل يبعثان فيها نبل الإحساس ، وصدق العرفان . وأخشى أن تنقلب عبادتهم كفراً ، وعرفانهم نقمة ، يوم تتحول رحمة الآلهة انتقاماً غير عادل !

ولكن جوبيتر لم يشأ المضى فى الحديث ؛ فهز رأسه وقال :

ــ فليفعل مارس ما يشاء ! إنه إله مثلكما ، وله كامل الحرية فى أن يمارس عمله الإلهى العظيم بالشكل الذى يريده ! ...

وبينما كانت الإلهتان تهمان بالانصراف بخيبتهما ، ظهر مارس بسحنته المقطبة الصارمة ، كقائد شرس يستعد لخوض معركة هائلة . وكان يضرب بقدميه الضخمتين هامات الغيوم فترتجف وتميد من وقعهما . فوقفت الإلهتان ، وقال جوبيتر يخاطبه :

ــ لقد جئت فى الوقت المناسب . فقد جاءت هاتان الإلهتان ترجوان أن تقف غضبك عن مانيا ، وتتركها تكمل أفراحها ، ويسعد أهلها بخيراتها ؛ فلا تنغص عليهم فرحة المهرجان ، وبهجة الموسم ، وغبطة العرس .

فلاح على شفتى إله الحرب المطبقتين شبح ابتسامة صارمة ساخرة ، وأجاب قائلا :

ــ ليست الحرب شيئاً غريباً على أهل الأرض ، فهى من الظواهر المألوفة لديهم ، وهم يتوقعون حدوثها فى كل حين . ولا تجهل الإلهتان الكريمتان أن الأرض كلها أتون مشتعل بالحروب فى كل حين ؛ وها أناذا أسوق أبناء الإمبراطورية الرومانية إلى كل أرض ، فى الشرق والغرب ، لأغذّى بأجسامهم النيران المندلعة التى أشعلها ، وأحافظ على استمرار اضطرامها .

فنظرت إليه سيريس باستعطاف ، وقالت :

ــ ولكن أهل مانيا قوم مسالمون ، لا جريرة لهم ، ولا يتوقعون اعتداء من أحد عليهم ، لأنهم لا يفكرون فى الاعتداء على غيرهم . أفلا تقتضى العدالة الإلهية أن يتجنب هؤلاء الأبرياء ويلات الحرب ، ما داموا لا يسيئون إلى أحد ، ولا يستحقون شرًّا من أحد ؟ !

ــ ليس كل الذين تصيبهم الشرور يستحقونها . إن الشرور تصيب المجرم والبرىء على السواء . . . كذلك كانت إرادتنا نحن الآلهة منذ الأزل ، وكذلك ستظل إلى الأبد ! ..

ــ ولكن عدالة الآلهة لا تستقيم إذا هى قبلت مثل هذا الجور المستمر ؟!

ــ ليس فى ما تقضى به الآلهة جور . إن الآلهة هى التى

أوجدت الشر إلى جانب الخير منذ الأزل ، وهى التى سمحت بوجود الأشرار إلى جانب الأخيار فى كل أرض ؛ وهى كذلك التى جعلت الحرب سنة تجرى على أهل الأرض ، وسخرت الصواعق والرعود والبروق ، لتستخدمها فى أحيان كثيرة للخراب والتدمير وهلاك البشر .

— إننى أرجوك لأجل مانيا وحدها ، لتتم أفراح مهرجاناتهم ومواسمهم وأعراسهم .

— ليس المانيون سوى أناس كسائر البشر ، يجرى عليهم من نواميس الخير والشر ما يجرى على الآخرين ، بدون تفريق . فإذا كانت تصيبهم الأمراض ، أو الزلازل ، أو الفيضانات ؛ وإذا كان يجرى عليهم الموت ، أو الألم ، أو الخسارة ؛ وتتهدم بيوتهم ، أو تحترق زروعهم ، أو تنفق حيواناتهم بالطاعون ، أحياناً ، أو بفعل العناصر الطبيعية أحياناً أخرى ، فليس ثمت غرابة فى أن تصيبهم الحرب كذلك كما تصيب غيرهم .

وتوقف الإله الجبار لحظة ، وهو ينظر إلى الإلهتين ليرى وقع كلامه فى نفسيهما . فلما رآهما لا تحيران جواباً أمام هذا البرهان الظالم ، الذى لا يعتمد على شىء من العدالة والحق ، راح يقول متابعاً :

— إن واجبى ، أيتها الإلهتان الطيبتان ، أن أبقى دولاب

الشرور فى العالم فى حركة دائبة ، وأن أثير الحروب بين الشعوب ، والمنازعات بين الأفراد والجماعات ؛ كما أن واجبكما رعاية الخير والجمال والحب . إن عملكما هذا يجعلكما إلهتين محبوبتين لدى الجميع ، أما أنا فعملى يجعلنى محتقراً لديهم . ولكنكما لا تجهلان أن عملكما وعملى معاً ضروريان لتتعادل كفتا الخير والشر فى الأرض . . .

فقالت ڤينوس :

ـ إن عملنا يزرع العبادة والحب للآلهة جميعها فى نفوس أهل الأرض جميعاً ؛ أما أنت فإنك تقتل فى قلوبهم كل خير ، وكل فضيلة ، وكل جمال ، وكل معنى للعبادة .

فعاد مارس يبتسم من جديد ابتسامته الصارمة الساخرة ، وقال :

ـ أرجو أن تطمئن الإلهتان إلى أن الاختبار الطويل قد أثبت لى أن أعمالى فى الأرض تزيد من عبادة الناس لنا . . . إن أهل الأرض يلجأون إلى التعلق بنا ، والرهبة منا ، فى أوقات الشرور والمصائب الكبيرة ، أكثر مما يفكرون بنا فى الرخاء والخير .

فتمتمت سيريس لنفسها تقول :

ـ شتان بين العبادة التى يقودها الحب ، والعبادة التى تسوقها سياط الخوف .

أما ڤينوس فقد تمتمت لنفسها أيضاً تقول :

— إن صلاة قصيرة ، أو ركعة واحدة ، مع الفرح والحب ، خير من ألف صلاة مع الخوف والحاجة !

ومضت الإلهتان من حضرة جوبيتر ومارس تجرّران خيبتهما وآلامهما الشديدة .

ولما رأتا أن ضراعتهما لم تفد شيئاً ، لم يسعهما إلا أن تنذرا القرية بما بدا على تماثيلهما فى المعبد من الكآبة ، وبالدموع التى ترقرقت فى محاجرهما .

وفى الليل ، بعد أن استسلم أهل القرية إلى النوم ، هطل من السماء مطر غير قليل ، ازداد له عجبهم وتشاؤمهم ، وقوى إحساسهم بالخطر الداهم ؛ إنهم لم يعرفوا قط أن المطر ينزل بهذا الشكل فى موسم الحصاد . . . ولكنهم حائرون ، لا يعرفون نوع الخطر الذى سينزل بهم ، ولا كيف يتّقونه أو يمنعون وقوعه .

ولكنهم لم يعلموا أن المطر لم يكن سوى دموع الإلهتين الطيبتين ، ذرفتاها من قلب الغيوم ، لعجزهما عن منع الشر الكبير المرتقب .

* * *

٩

لم يكن أهل مانيا يعلمون أن جيرانهم من شبان جونو ، الذين كانوا يزورونهم كل يوم ، طوال الأسبوع المنصرم ، إنما كانوا يجيئون لكى يتجولوا فى حقولهم وبساتينهم ، وفى مراعيهم وحظائر مواشيهم ، وفى مرابى دواجنهم ، فيعرفوا كل شىء عنهم ، وينقلوا أخبار الخصب والثروة التى لديهم إلى شيوخ جونو وزعمائها .

لقد بلغ حسد الجونيين لهم أقصى مداه ؛ فإن مانيا تعيش فى سعادة هم محرومون منها. إنها أرض لا تعرف البخل، فى حين أن أرضهم لا تعرف العطاء ، ولم تدر لهم قط ما يمنع عنهم الحاجة إلى الآخرين . وصحيح أن هذا ليس ذنب المانيين ، فما يمكن أن تمنح الأرض خيرها لمن لا يمنحها عرق جبينه ، ونشاط ساعديه وقوتهما ، كما يفعل المانيون . ولكن حرمان جونو — مهما يكن سببه — يدفع أهلها إلى الحسد القاتل بجيرانهم .

وتأكد لدى الجونيين أن حقول مانيا قد جادت فى هذا الموسم بسخاء عظيم . فاجتمع كبارهم يتشاورون . . . والكبار — فى الغالب — لا يجتمعون إلا ليقرروا شرًّا للآخرين ، أو ليدفعوا عن بلدهم شرًّا من الآخرين . ولكن كبار الجونيين لم يكونوا

يخشون شرًّا من أحد؛ فهم إذن يجتمعون ليقرروا شرًّا لقوم مسالمين .

قال أحد شيوخهم فى أول اجتماع عقدوه :

ـ لقد طالت البطالة على شباننا ، وليس من الممكن أن نظل نعانى الفقر والبطالة ، فى حين يرتع جيراننا المانيون فى الخير ، ويغرقون فى الخمور . فلا بد من تفريج ضائقتنا بالاستيلاء على غلات مانيا فى موسمها هذا .

وقال شيخ آخر :

ـ بل الأفضل أن نستولى على القرية كلها ، ونجعل أهلها يصبحون خدماً لنا ، يفلحون حقولهم لكى يقدموا خيراتها لنا ، فنضمن بذلك شبعاً دائماً ، ليس لسنة واحدة ، أو لموسم واحد ، بل طول السنين .

فنهض شيخ ثالث يقول :

ـ ولكن كيف نعتدى على جيراننا بدون ذنب ، وبغير مبرر ؟ فلنرسل إليهم رسلا يعرضون عليهم حاجتنا إلى نصيب كاف من غلات موسمهم ، وننتظر ما يكون من جوابهم ، ومن مساعدتهم لنا .

وإذا بأحدهم يرفع صوته محتدًّا ويقول :

ـ نحن جميعاً نعرف أن أهل مانيا لا يفرطون بثمرات أتعابهم وجهودهم بسهولة . فمن العبث أن نستشيرهم . ثم إنه

من العار علينا أن نقبل من أيديهم مساعدة أو إحساناً ؛ ومن الخير والفخر لنا أن ننال ما نريده قسراً واقتداراً . والحياة كفاح فى سبيل البقاء ، والحق فيها للقوة وحدها ، فهى التى تقرر مصير كل شىء فى الوجود .

وتوالت اجتماعاتهم ثلاثة أيام متعاقبة ، حتى انتهوا من رسم الخطة للاستيلاء على مانيا ، واستغلال خيرات مواسمها لأنفسهم ؛ فإن رضى أهلها بمقاسمتهم الغلال والثمار وإنتاج المواشى والدواجن ، قبلوا بذلك وصالحوهم عليه ، وإلا فليس من سبيل سوى التدمير والنهب والحرب .

وكان مارس ــ الإله الضبابى ــ هو الذى ينظم اجتماعاتهم بيده السحرية غير المنظورة ، وهو الذى يسيطر بإرادته على أفكارهم وإراداتهم ، ويزين لهم الشر على اعتبار أنه سيكسب قريتهم مجداً وغنى ، ويمنحهم السيطرة على جيرانهم ، وعلى كل ما تملك أيديهم من خير ؛ ويوهمهم أن السلام الذى يعيشون فيه مع جيرانهم لا يفيدهم شيئاً ، ما دام جيرانهم يعيشون فى رفاهية غامرة ، فى حين يعيشون هم على ما يبيعه إياهم جيرانهم من فضلات خيرهم .

فالسلام مع الحاجة ذل ، ولابد من محو الذل ــ ولو ظلماً واعتداء لا مبرر لهما ــ بحرب يتمكن أهل جونو ، بكسبها ، من السيطرة على كل ما تملك جارتهم مانيا من مصادر الثروة .

لقد قرر مارس أن يبدأ عمله . . . فترك الغيوم وعليه خوذته ودرعه ، وبيده سيفه القصير العريض ذو الحدين ، واتخذ من قرية جونو مسرحاً لنشاطه ، فهو فى السوق ، وفى بيوت الشيوخ والزعماء ، وفى كل مكان فى القرية . . . يوسوس إلى هذا وذاك ، ويثير الطمع والحسد وحب الاستغلال والسيطرة فى نفوس الرجال والنساء ، والشيوخ والشبان ؛ فإذا القرية كلها رأى واحد ، وتصميم واحد : « الاستيلاء على مانيا وخيرات موسمها »

لقد نجح مارس . . .

وهذا وفد مؤلف من ثلاثة شيوخ يغادر جونو إلى مانيا ، وكل مهمتهم أن يعرضوا على المانيين مقاسمتهم غلات موسمهم ، إن سلماً وإن حرباً .

ونزل الوفد فى بيت الشيخ ساڤيو ، والد أنطونيو ، الذى استقبلهم بما عرف عنه من البشاشة والترحيب ، وأخذ يباسطهم فى الحديث ، ليعرف بغيتهم .

فما كاد يستقر بهم المقام قليلا ، حتى تكلم أحدهم فقال :

ــ لقد جئنا ، يا سيدى الشيخ الجليل ، فى مهمة عن جيرانكم الجونيين ، لما نعرفه فى قريتكم من الكرم وطيب النفوس . فنرجو أن تبعث فى طلب بعض كبار أهل القرية ، لنتحدث إليك وإليهم فى مهمتنا .

فبدت على وجه الشيخ سافيو علامات الاهتمام الكثير ، وأجاب قائلا :

ــ إذا كان الأمر ذا خطورة ، فسندعوهم حالا .

فقال الآخر :

ــ نعم ، إنه لذو خطورة بالغة .

فنادى الشيخ ابنه أنطونيو ــ وكان قد تخلف فى القرية ذلك الصباح ــ وطلب إليه أن يمضى حالا لدعوة ثلاثة من شيوخ القرية ، سماهم له ، وأمره بأن يسرع فى إحضارهم .

فانطلق أنطونيو لدعوة الشيوخ ، فى حين راح سافيو يحادث ضيوفه ، فقال :

ــ هل أستطيع أن أعرف غرض السادة الأجلاء قبل وصول المدعوين ، فقد تكون معرفتى إياه سبباً فى تسهيل قضائه ؟!

فأجاب الشيخ الجونى :

ــ أنت تعرف ، يا شيخ سافيو ، أن قريتنا لا تنبت لنا شيئاً ، فنحن فى حاجة دائمة إلى ما يجيئنا منكم ، لأن قريتكم لا تعرف الشحّ والجدب مطلقاً . وليس من الممكن أن نموت نحن ، وأنتم هنا تعيشون فى رفاهية دائمة . ولذلك جئناكم موفدين عن جونو ، نرجو أن تقاسموا إخوانكم الجونيين غلال أرضكم ، فتستمر صداقتنا ومحبتنا لكم . إن هذا واجب تفرضه

الإنسانية عليكم ؛ ولعلكم لن تروا فيه ما يسوء ، أو ما يصعب عليكم قبوله . . .

وكان سافيو يحملق فى وجه المتحدث فى أثناء كلامه ، ثم يغض من بصره ويبتسم بإشفاق تارة ، وبمرارة أخرى . وتدافع الغضب فى صدره ، ولكنه جاهد ليكتمه دون الانفجار . فلما انتهى الشيخ الجونى من حديثه ، كان سافيو قد شعر شعوراً أكيداً بصدق النذير المشؤوم الذى رأته القرية كلها فى المعبد قبل أسبوع . . . إن هذا الوفد لهو بداية العاصفة . . .

وراعته هذه الحقيقة ، ولكنه أجاب على كلام الشيخ الجونى بقوله :

ـ ولكنك تعلم ، ويعلم الجونيون جميعهم ، أن أرضنا إنما تعيد إلينا ، بخصبها ، العرق الذى نسكبه من جسومنا فى شقوق التراب ؛ وأن أرضكم لا يمكنها أن تقدم لكم شيئاً ، لأنكم لم تمنحوها منكم ما يمكنها أن ترده إليكم . فهل من العدالة ، فى نظركم ، أن يسطو الجدجد الكسلان على غذاء النملة النشيطة ، فى الشتاء ، لأنها عرفت كيف تجمع قوتها بدأب مخلص ، حين كان هو منصرفاً إلى غنائه وخموله طوال الصيف ؟ ! إنكم يا سيدى تحتقرون الأرض والعمل ، وقد أخفقت أنا وأخفق ولدى فى حملكم على الاقتداء بنا فى حبهما ؛ ومن يحتقر الأرض تبادله الاحتقار ، ثم تطويه فى ترابها للدود والعفن بعد حين ! ..

فاحتد الشيخ الجونى لهذه اللهجة التأنيبية ، وأجاب :

ــ نحن لم نأت لكى نهان فى قريتكم ، وفى بيت زعيمها الأكبر ، ولا لنسمع عظات ؛ وإنما جئنا لكى نبلغكم رغبة الجونيين . ونأمل أن لا تذهب زيارتنا عبثاً ! . . .

فأطرق سافيو لحظة ، وأدرك أن الشر سيطير من هنا . فأراد معالجة الموقف بحكمة . ثم رفع رأسه وقال للضيوف :

ــ معذرة أيها السادة عما سأقول . . . ما دام هذا غرضكم ، فأنا أرى من الخير أن تنصرفوا الآن وتتركونى وحدى أبحث الأمر مع شيوخنا . وستمهلوننا أياماً ، لأن الأمر جد خطير ، لا يمكن القطع فيه بسرعة ؛ وأخشى إذا شاع أمركم فى القرية قبل أن تنصرفوا ، أن لا أستطيع حمايتكم ؛ فالمانى يحب عرقه وجناه ، وهو يثور إذا اعتدى عليهما معتد . ولابد من أخذ الأمور بالحكمة .

فقال الشيخ الآخر وهو ينهض من مجلسه هو ورفيقاه :

ــ لك ما تشاء ؛ وسننتظر جوابكم بغير إبطاء . إن الجونيين فى حاجة ماسة إلى غلات مواسمكم ، وهم لا يستطيعون أن ينتظروا طويلا . . . تذكروا هذا جيداً ! . . ولا تنسوا أننا جيران . . . ومن الخير أن لا يقع بيننا وبينكم ما يسوء !

ثم خرج الشيوخ الجونيون ، فشيعهم سافيو بنظرة طويلة مليئة بالاشمئزاز والاحتقار .

ولما وصل أنطونيو وشيوخ القرية لم يجدوهم ؛ ولكنهم وجدوا الشيخ ساڤيو على غير ما اعتادوا منه ، فقد كان مطرقاً يفكر ، وعلى وجهه سحائب من الغم والأسى ، ولكن فى عينيه بريقاً من التحدى العنيف .

وتركهم الشيخ يجلسون ، ثم صرف أنطونيو ، وأخذ يحدثهم بحديث الشيوخ الجونيين . ثم طلب أن يعقدوا فى غد اجتماعاً كبيراً فى بيته ، يحضره الكثيرون من أهل القرية للمشاورة والبحث .

* * *

أما الشيوخ الجونيون فقد عادوا إلى قريتهم ، وجمعوا مجلس القرية ، وحدثوهم بما جرى بينهم وبين الشيخ ساڤيو ، شيخ مانيا وزعيمها . ولكنهم أبدوا اقتناعهم التام بأن المانيين لن يرضخوا لشىء من طلباتهم ، وأن مصلحة جونو تقضى بأن يتسلموا هم زمام المبادرة والمباغتة . فتقرر فى ذلك المجلس أن يقوم شبان جونو بحملة تدمير إرهابية ، على مانيا من تلك الساعة نفسها ، وأن يبدأوا بنهب ما يبيعه شبان مانيا وفتياتها فى أسواقهم .

وقبل أن ينفض المجلس ، كان الشبان الجونيون قد انتشروا فى الأسواق ، ينهبون كل ما كان يبيعه المانيون ، ويحطمون الأوعية التى يحملون فيها مبيعاتهم . فبادر المانيون إلى الفرار

مذعورين من هذه الحملة غير المنتظرة .

ومضى الجونيون يلاحقونهم ، ويعتدون بالأقوال والمحاولات الوقحة البذيئة على الفتيات . فلم تلبث أن دارت بينهم وبين المانيين معارك عنيفة بالحجارة والعصى والأيدى . فحدثت لهم الخدوش ، وسالت الدماء من وجوههم ورؤوسهم ، وأصيب عدد من الجانبين إصابات مختلفة ، ولكن لم يكن بينها أية إصابة بليغة خطرة .

وكان بين المصابين أخو لونا ، الذى كان قد رافقها فى ذلك النهار إلى السوق . وكانت إصابته بضربة عصا على أحد ذراعيه ، عطّلت قدرته على الحركة ، ومعها شج فى رأسه غير عميق .

لقد كان الجونيون أوفر عدداً ، وأكثر استعداداً من المانيين ؛ فلم يكن غريباً أن يتغلبوا عليهم ، ويخرجوهم من قريتهم فى حالة سيئة من الجراح والذعر .

فلما وصل هؤلاء إلى مانيا على هذه الحالة ، دب الغضب فى نفوس الجميع ، وامتلأ بيت الشيخ سافيو بالرجال والنساء ، وكلهم يرجون أن يشير عليهم بما يجب أن يعملوا ، وأن يبدأ هو بعمل شىء ينقذ الموقف . فهدأ الشيخ الطيب ثائرتهم ، وطلب إليهم أن ينتظروا صباح الغد ، ريثما ينتهى الاجتماع المنتظر .

وكان أنطونيو يعرف أن لونا كانت فى السوق فى ذلك

النهار ، فأسرع إليها ليسألها عما وقع لها ولرفاقها ؛ وحين رأى أخاها جريحاً متألماً كاد يطير صوابه . وراح يوزع نظراته المتسائلة الغضبي بينه وبين لونا . فحدثته لونا بكل شيء ، وهي ما تزال بادية الفزع من أثر المفاجأة الاعتدائية البغيضة ، قالت :

ـ لقد كان الجونيون يعملون بدون تفكير ولا وعى . ولقد هبوا علينا كالعاصفة الساحقة ، بعد أن كان الجو صحواً لا ينذر بشيء . وقبل أن نتمكن من الهرب أو الاستعداد لمقابلة هجومهم ، كانت أيديهم تنهب غلالنا ومبيعاتنا ، وأرجلهم تحطم سلالنا وأوعيتنا ؛ والذى كان يحاول أن يمنعهم من نهب ما معه ، أو يدافع عن نفسه ، كانوا ينهالون عليه بالضرب حتى ينجو بنفسه .

فسألها :

ـ وأنتِ ؟ هل أصابك شيء ؟

فقالت :

ـ كلا ، لأنى تخليت لهم حالا عما معى لأنجو بنفسى من أذاهم . ولكن أحدهم قال لى كلاماً بذيئاً ملأ نفسى اشمئزازاً ، وآخر قال لى ساخراً وهو يحطم سلتى : « غداً نلتقى فى مانيا ، فقولى لخطيبك إننى أرجو أن تكونى حصتى من الغنيمة » ! . . .

فانتفض أنطونيو من شدة الغضب ، وقال بحدة :

ـ النذل ؟ ! ليتنى أعرفه ، فأعلمه كيف يتأدب فى ما يقول !

* * *

وأوى الشيخ سافيو إلى فراشه ، ولكنه لم يستطع أن يغمض عينيه ، وأبى الكرى أن يراود أجفانه المثقلة بجهاد السنين . لقد كان بقلبه الكبير يفكر فى هذه المصائب التى تتوارد على قريته الحبيبة ، وهى تستعد لموسم الحصاد ، الذى كان عظيم الخصب والإغلال . إن جماعته قوم يعيشون على السلام مع جميع الناس ؛ فلماذا يأبى الآخرون أن يتركوهم فى سلامهم هذا ؟

وهذا الموسم ، إذا تلف محصوله كانت نكبة القرية فيه عظيمة ، وأحدثت لديهم مجاعة مروعة ، ستذهب ببهجتهم وأملهم واستبشارهم ، وقد تفقدهم الرغبة فى مواصلة العمل فى الحقول ، وتقتل إيمانهم بالأرض ، وبلذة الحياة .

ولكن لماذا يعتدى عليهم الجونيون بهذا الشكل المفاجئ ؟ ألم يرسلوا وفدهم للمفاوضة ؟ وقد وعدهم هو بأن يرد لهم الجواب غداً ، بعد أن يجتمع برؤساء قريته ويتبادل معهم المشورة ؟ !

أيمكن أن تتجرد نفوس الناس من الشرف ومن النبل إلى هذا الحد ؟ !

إنه لشديد الحبشية من أن تنساق قريته إلى حرب مجرمة ، تـُفقدها الكثير من الأيدى العاملة فى الحقول ، وتزرع الكآبة المرة فى كثير من بيوتها ؛ وهى فى أشد الحاجة إلى استمرار السلام مع نفسها ومع الآخرين . فكيف يمكنه أن يحول دون وقوع الكارثة ؟

أيمكن أن تذهب جهود العمر كله من العمل والجد ، فى لحظات طيش وأطماع عمياء من أناس خامايين مجرمين ؟ !

ليته يعرف ماذا يخبئ الجونيون للغد من غدرات جديدة ، ومن نوايا عدوانية دنيئة !

ما أطول هذا الليل ! لكأنه لا يريد أن ينبلج عن نهار ! . . . ليت الصبح يطلع حالا ، فيتشاور مع أهل قريته فى دفع المحذور !

إن ضميره لمثقل بالهموم ؛ وإنه لعلى استعداد لأية تضحية ذاتية ، لو كانت تضحيته تضمن سلام القرية واستمرار رخائها وسعادتها . . .

ولكن أيمكنه دفع المحذور ، ما دام الجونيون يتعمدون وقوعه ، ويصرون عليه ؟ !

إن مقابلة الشر بالشر ، فضيلة عظيمة ، حين لا يكون منها بد . والدفاع عن النفس والأرض والرزق والعيال ، واجب لا يمكن العبث به أو النكوص عنه .

فلتقض الآلهة إذن بما تشاء ، فستدافع مانيا عن نفسها ببطولة ، دون اعتداء جيرانها الغادرين .

* * *

ولم ينم رجل فى مانيا ، فقد أعدّوا سلاحهم ، وانتظروا داخل بيوتهم ما قد يقوم به الجونيون من مباغتات جديدة فى وسط القرية . ولم تذهب ظنونهم إلى أبعد من هذا .

فلما طلع الصباح ، ومضوا إلى حقولهم كعادتهم فى كل صباح ، كانت دهشتهم أعظم من أن يبلغ التصور مداها . . .

لقد جاء الجونيون فى الليل ، فحصدوا غير قليل من زروعهم ، وقطعوا وأتلفوا عدداً من أشجار بساتينهم البعيدة . والمواشى التى كانت تبيت بخارج القرية ، لم يظهر لها ولا لرعاتها أى أثر . . .

١٠

لم يكن من الممكن بعد هذه الحوادث الإجرامية المتتابعة ، أن تسكت القرية عن ثأرها . ولذلك لم يقتصر الاجتماع ، فى بيت الشيخ سافيو ، على شيوخ القرية وحدهم ، بل اشترك فيه عدد كبير من الشبان أيضاً . وكان الغضب بالغاً أشده من نفوس الجميع ؛ فلم يعد فى الإمكان أن يعرفوا السلام والهدوء ، قبل أن ينتقموا لما أصابهم .

قال الشيخ سافيو بصوت متهدج بالغضب والشيخوخة معاً :

ـ إن جيراننا لم يكونوا شرفاء فى معاملتنا ، فقد جاؤوا يطلبون منا أن نقاسمهم خيرات أرضنا بدون حق ؛ ولم يكتفوا بالطلب ، بل أنذرونا بكل جسارة ووقاحة ، كأنهم سادة ونحن عبيد لهم . ثم لم يكتفوا بالإنذار ، بل ضربوا عدداً من شباننا وفتياتنا فى قريتهم بدون ذنب ، ونهبوا ما معهم . وفى الليل جاؤوا لصوصاً إلى حقولنا ، يحصدونها ويتلفونها ؛ وبذلك سرقوا عرقنا وتعبنا .

إننا نحب السلام ، ونحرص عليه كل الحرص . وقد عشنا السنين الطوال فى سلام مع الجميع . ولكن إذا اعتدى الآخرون على سلامنا ، فإن صبرنا وحسن نياتنا لا ينقذان

أرضنا ، ولا يضمنان بقاءنا وسلامتنا .

فقاطعه شيخ آخر قائلا :

ــ أرى أن نرسل وفداً منا إلى الجونيين ، يطلب إليهم رد المساوىء ، ودفع التعويض عن الخسارة وعن الاعتداء والإهانة . إن الحرب جريمة فظيعة ، والذى يسببها يسىء إلى الآلهة وإلى البشرية ، وكذلك الذى يستطيع تجنبها بحكمة ولا يتجنبها ؛ لأنها مأساة مروعة ، تلد مآسى وشروراً لا حصر لها . فلنمنع نحن توالد المآسى عن أنفسنا وعن سوانا ، بالمساعى السلمية .

فأجاب سافيو :

ــ لو كانت المساعى السلمية تستطيع أن تأتى بجدوى ، لتوسلنا بها إلى حفظ السلام بيننا وبين جيراننا المعتدين . ولكنك تعلم أن رجال جونو يعيش أغلبهم على ما يكسبونه من ارتزاقهم بالجندية والتطوع أيام الحروب ، وبمزاولة أعمال الخدمة فى المدن ، إذا وجدت ؛ أما فى قريتهم فليس لهم عمل ولا مصدر كسب . ولقد مضت عليهم مدة طويلة لم يشتركوا فيها بحرب ، فهم فى بطالة متواصلة ، والبطالة تدفع دائماً إلى الشر . ولن تجدى مساعينا السلمية لديهم ، بل لعلها ستبرر قيامهم باعتداءات أخرى ، اعتقاداً منهم بضعفنا وخوفنا منهم .

فانتفض أنطونيو ، وهب من مكانه واقفاً ، وقال :

ــ ليعذرنى والدى الجليل ، ولتغفروا لى أيها السادة تدخلى

فى الحديث بين الشيوخ الأجلاء من قومى . ليس من حقى أن أتطفل على مجلسكم الكريم ، أيها السادة ؛ ولكننى إنسان منكم ، بذل نشاطه وشبابه مثلكم فى خدمة الأرض . ولقد عشنا طويلا فى سلام مع الأرض ، فمنحناها منا كل سخاء ، ومنحتنا خيرها بكل سخاء أيضاً . واليوم نجد جيراننا يعتدون علينا وعلى أرضنا ؛ فإن كنا نحن نصفح عن إساءتهم إلى أفراد منا ، فإن الأرض لن تصفح عن اعتدائهم عليها ؛ فقد سلبت خيراتها بأيد لم تسكب فيها قطرة عرق . ولهذا لن يستريح قلبها الطيب الأمين ، قبل أن ننتقم لها من أعدائها اللصوص ، وإلا فلسنا جديرين بها ولا بخيراتها .

ونهض شاب آخر متحمساً ، فقال :

ـ إن الحرب عندما يشنها معتد حسود طامع ، تكون جريمة عظيمة ؛ ولكنها لا يمكن أن تكون جريمة فى مثل حالتنا ، نحن المدافعين عن أرضنا وعن أنفسنا ، أمام اعتداء لصوص طامعين بنا ، وإنما تكون استرداداً لحقنا المغصوب ، ولكرامتنا المهانة .

ووقف أحد الشيوخ محتداً ، وقال :

ـ هذا حق ؛ فإن الحرب جريمة وواجب فى آن واحد : إنها جريمة من المعتدى الغاصب ، الذى يسوقه الحسد والطمع وحب السيادة والاستغلال ؛ ولكنها واجب مقدس على الذى

تنهب أرضه وتهان عزته ، وفى حالتنا الآن ليس لنا سوى القتال ، لأن جيراننا لم يمهلونا حتى نرد على مفاوضة وفدهم ، وما أراهم اليوم إلا عائدين إلينا فى اعتداء جديد للنهب وللقتال ، فلنستعد لهم الاستعدادالللازم ، قبل أن يفاجئونا بغدر جديد ، فتكون رغبتنا فى السلام شراً نقترفه نحن فى أنفسنا ، ونندم عليه طويلا حين لا تفيد ندامتنا شيئاً .

فتعالت الأصوات من كل فم ولسان :

ـــ فلنستعد ! فلنستعد !

* * *

انفض الاجتماع ، فمضى الشبان يحملون السلاح ويقفون على استعداد . وأسرعت جماعة منهم إلى أطراف القرية يترصدون غدرات العدو ، ريثما يستكمل رجال القرية تسلحهم . ومضت النساء يهيئن ما يلزمهم من طعام وعتاد .

أربعمائة رجل ، من سن السادسة عشرة إلى الخامسة والستين ، لم يبق منهم واحد لم يحمل سلاحه فى تلك الساعة .

لقد أصبحت مانيا الوديعة المسالمة الآمنة ، فى حالة حرب رهيبة ، لم يكن لها يد فيها . والحقول التى كانت إلى أمس طافحة بالسنابل الذهبية ، والثمار الزاهية ، والتى كانت مسرحاً ومقيلا للرجال والنساء ؛ والروابى التى كانت ملأى بالأغنام والأبقار ، ترعى آمنة مطمئنة ؛ أقفرت كلها إلا من بعض

البوم والغربان وبنات آوى ، تسرح فيها مذعورة مروّعة .

وعلى غيمة كبيرة سوداء كانت تقف عربة كبيرة من نار ، ينتصب فى وسطها إله جبار ، ذو لحية سوداء عريضة ، وجسم ضخم هائل ؛ على رأسه خوذة لامعة ، ويطوّق جسمه ثوب فولاذى قصير مزرد ، لا يصل إلى ما دون الركبتين ؛ وبيده سيف عريض قصير ذو حدين ، يرسل الشرر والبريق . وكانت تبدو على أساريره علائم الرضى والسعادة . ولم يبق إلا أن يضرب الغيوم بسيفه ، لتبدأ الصواعق والمآسى الدموية ، فى القرية التى اعتادت الدعة والسلام .

وقبل أن تتربع الشمس فى وسط السماء ، انطلقت رعود وبروق ، ونزلت صاعقة كبيرة ، أتت على مساحات واسعة من الحدائق والحقول ، وأصابت شرارات منها بعض أكواخ القرية المتطرفة ، وتلك التى تنتثر وسط الحقول ، فأحرقتها بمن كان فى بعضها من النساء والشيوخ والأطفال .

لقد تحرك سيف مارس ، فزال السلام ، وتلاشى الخير والبركة من أرض مانيا ، وآن للدماء أن تتفجر لتغمر أرضها بدلا من العرَق الغنى الجميل .

وها هى ذى جماعات من الجونيين مقبلة . . . مئات من الرجال ، بأيديهم سهام على أهبة الانطلاق ، وسيوف مسلولة مهيأة للضرب ، ورماح مشرعة على أهبة الطعن .

ورآهم الطلائع المترصدون ، وهم يقبلون من بعيد ، مثيرين الغبار من وقع أقدامهم . فأرسلوا رسولا إلى القرية ليجمع الرجال لملاقاتهم . فمضى الرسول يركض بأقصى قوته ، حتى وصل إلى القرية وهو يلوح بيديه ، وينادى بأعلى صوته داعياً الرجال إلى الخروج لمقابلة المهاجمين .

لقد وقعت الواقعة إذن ، ولم يعد فى وسع أحد أن يفعل شيئاً لتلافيها .

فخف الرجال مسرعين إلى حيث كان الغبار الكثيف يملأ الفضاء ، تثيره أقدام الجونيين القادمين للقتال . أما الشيوخ فقد اجتمعوا جميعهم فى المعبد يترقبون أنباء القتال على أحرّ من الجمر ، ويدعون جوبيتر إلى نصرتهم على أعدائهم الغادرين.

وكاد يلتقى الجمعان وجهاً إلى وجه ، فما عاد يفصل بينهما إلا مسافة قصيرة تكفى لإيصال الصوت القوى العالى . وارتفع إذ ذاك صوت من الفريق الجونى ينادى :

— أيها المانيون ! خير لكم أن تسلموا لنا قريتكم وحقولكم .. إننا رجال صناعتنا الحروب ، ولن نعرف فيكم الرحمة إذا أبيتم إلا أن نظل محرومين من خيرات أرضكم إلى الأبد . ولقد صممنا على قتالكم ، والاستيلاء على كل ما لديكم عنوة ، إلا إذا حكمتم عقولكم ، وسلمتم بما نريد منكم .

فأجابه صوت من الجانب المانى يقول :

ـ لن تنالوا شيئاً من أرضنا ، إلا إذا مشيتم على جثثنا . فافعلوا ما تشاؤون !

فردّ الصوت الأول يقول :

ـ إذن لا تلوموا غير أنفسكم . . . لقد أنذرناكم ، فخذوا حذركم . . .

وانقضّ الفريقان كل منهما على الآخر . وكان أنطونيو يقود الفريق المانى . . . أنطونيو الذى عاد من روما ناقماً على سادة الرومان الذين يعيشون بروح القتل والقتال . . . وناقماً على الحروب . . . هو الآن قائد قريته فى القتال ، وهو الذى يطوف بالمحاربين محمّساً ومحرّضاً ونافخاً فيهم البسالة والإقدام .

وكان القتال عنيفاً ضارياً لا رحمة فيه ، وأصوات المتحاربين تصل إلى أصوات الباقين فى القرية من الشيوخ والنساء الذين لا قدرة لهم على الاشتراك فى القتال ، والذين ظلوا البيوت للعناية بالجرحى الذين تعود بهم الفتيات من ميدان المعركة .

لقد كان الجونيون أكثر تمرساً بالحروب ، وكانوا أقسى قلوباً من المانيين ، وكان الطمع يعصف بنفوسهم ، فيزيّن لهم ارتكاب القتل والتدمير فى سبيل الحصول على خيرات المانيين ، أو ـ على الأصح ـ على ما بقى من خيراتهم ، ويبرّر لهم إقدامهم على هذا الاعتداء .

ولكن المانيين كانوا يدافعون عن حياتهم ، وعن أعصابهم

ودمائهم وعرقهم التى زرعوها فى تراب أرضهم ؛ فكان مجرد تصورهم أن جهودهم الطويلة ستذهب إلى أيدى سواهم بدون تعب ، يثير الدماء فى عروقهم ، ويمنحهم من القوة والضراوة ما لا تستطيع شراسة المهاجمين وضراوتهم الصمود أمامه .

ودار فى خاطر أنطونيو فكر مرعب جداً . . .

لو انتصر الجونيون فى هذا القتال ، فسيصبح المانيون عبيداً لهم ، يفلحون الأرض بدون أجر ، ليقدموا كل جناها لهم. عبيداً . . . عبيداً . . . تماماً كأولئك التعساء الذين كان مرآهم فى روما يجلد أحاسيسه بسياط قاسية . . .

كان هذا الخاطر يثيره إلى أبعد مدى . فإذا صيحاته فى رجاله تلهبهم ، فيندفعون على أعدائهم كالصواعق المحرقة .

لقد أبدى المانيون من ضروب البسالة والبراعة فى فنون القتال ، ما أدهش الجونيين ، وجعلهم بعد ساعات من المعركة يوقنون بأن ما جاؤوا لأجله ليس أمراً سهلا ، وأنهم أمام قلوب من الفولاذ ، وخصوم أبطال ، يدافعون عن أرضهم دفاعاً عنيداً هائلا لا يلين .

وكلما اشتد القتال ، كان المانيون يزدادون حماسة وضراوة ، وتظهر فى صفوفهم بطولات يكاد يطير لها صواب الجونيين .

وحينما أقبل الليل — ومن بين الغبار الذى يملأ الفضاء أشرق القمر يغمر بنوره الكئيب الجبال والسهول — ازدادت بسالة

المانيين ، وصمموا على أن يبذلوا كل جهد ممكن ، ويغامروا بكل جسارة ، ليعيدوا الجونيين المغترّين بشراستهم ومرانهم على الحروب ، مدحورين خائبين إلى قريتهم .

واستمر القتال كذلك طول الليل ، وأنين الجرحى الساقطين على الأرض يختلط بهياج المتحاربين ؛ فيتردد صداهما فى الجبال والأودية ، فتفزع له بنات آوى وطيور البوم ، التى لم تألف قبل هذه الليلة غير الهدوء والطمأنينة .

وقبل أن ينبلج الفجر ، كان الجونيون يفرون مذعورين إلى قريتهم كالأرانب المروعة ، وهم يحملون جرحاهم . وفى الميدان تركوا جثث الصرعى الذين فتكت بهم بسالة المانيين .

وبينما راحت فتيات مانيا ينقلن الجرحى والقتلى من إخوانهن إلى القرية للعناية بهم ، كان الرجال المحاربون يطاردون أعداءهم إلى قلب جونو ، ويعملون فيهم القتل ، لأن صدورهم كانت تشتعل بالثأر اشتعالا .

وفى قلب القرية راحوا يشفون ثأرهم بقتل كل من يجدونه أمامهم من الجونيين : الشيوخ والشبان على السواء ؛ لأن كل جونى كان يعتبر مشتركاً فى الاعتداء عليهم ؛ وكل معتد يجب أن ينال جزاء اعتدائه . أما النساء والأطفال فلم تمتد إلى أحد منهم يد بسوء .

والمواشى التى سرقها الجونيون منهم فى الليلة الماضية ،

عاد المانيون يسوقون أمامهم إلى قريتهم ما وجدوه منها ، بعد أن دمروا الحظائر والأكواخ التى كانت مخبوءة فيها .

وعند الصباح كان المانيون المحاربون يعودون إلى قريتهم مع ما استرجعوه من مواشيهم المسروقة ، وكانوا يحملون معهم خمسة من رفاقهم الجرحى ، وثلاث جثث .

والطريق التى اعتادت أن تستيقظ كل صباح ، على وقع أقدام الشبان والفتيات الذاهبين إلى جونو لبيع الثمار والألبان والحبوب ، وتغفو فى المساء على أغانى المرح والسعادة المنطلقة من حناجرهم ، عند عودتهم من جونو ؛ استيقظت اليوم على خيوط طويلة من الدماء المختلطة : دماء المعتدين يحملون صرعاهم إلى جونو ؛ ودماء المدافعين المنتقمين يعودون بصرعاهم إلى مانيا .

والتلال التى كانت على جانبى الطريق تردد أغانى الباعة السعداء ، وجمت اليوم ، فما يتردد فيها غير نعيب بومة عجوز عمياء تقف على حافة الطريق فوق صخرة عالية .

وحتى الوادى العريض ، الذى كانت الضفادع تزغرد فيه طول النهار ، خرست ضفادعه ، وتحول خريره ، كما تحول معه هدير الشلال ، إلى صلاة كئيبة صامتة ، ترتفع حرارتها فى الفجر والمساء ، بخاراً أبيض كدخان البخور ، يتصاعد صامتاً

خاشعاً إلى عرش جوبيتر ، طالباً عودة السلام إلى الأرض .

وفى ذلك اليوم دفنت مانيا عشرين من أبنائها المحاربين ، ومضت تعالج عدداً آخر غير قليل من الجرحى . ولكن بقية المحاربين لم يخلوا مشارف القرية من الطلائع ، المتناوبة على الرقابة والسهر ، ولم يرموا السلاح من أيديهم . فقد كانوا موقنين من أن أعداءهم سيعودون مرة أخرى ليثأروا لقتلاهم ، فقد سقط منهم فى القتال أكثر من أربعين قتيلا ، وأما الجرحى فقد زاد عددهم على الستين . ومنظر الدماء وذكرى القتلى سيبعثان فيهم رغبة الانتقام . فلا بد من أن يستمر استعداد المانيين للقائهم ، فما يدرون متى سيباغتهم الأعداء بغدرتهم التالية .

وخيم الحزن والدموع على القرية ، التى كان أهلها إلى ما قبل أسبوع واحد ، يخرجون الضحكات من أعماق قلوبهم ، ولا يعرفون غير المرح والدعة والسلام ؛ ففى كل بيت دموع وأحزان ، وفى كل قلب لوعة محرقة على قتيل أو جريح ، أو على حقل سليب . وكان الذى ينظر إلى الحقول والبساتين وقد خلت من بهجتها ، بلصوصية الجونيين وصواعق مارس ، وتحولت إلى تراب أجرد مصبوغ بالسواد ، يشعر بمرارة لا حد لها .

لقد خسرت القرية كل شيء ، وفقدت كل عزاء . وبعد أن كانت بملء الغبطة تغمر شقوق التراب بالعرق الحار ، فتمرع وتخصب ، أصبحت الآن تقدم لها القرابين من جثث الشباب ، وتسقيها بالدماء البريئة .

١١

مضى أسبوعان والقرية غارقة فى أحزانها ، والشبان لا يزالون فى سلاحهم ، مستعدين للفجاءات الغادرة ؛ والدموع لا تجفّ فى عيون النساء ؛ والشيوخ تدمى قلوبهم الطيبة بالمصائب التى قدر لهم أن تعمى بها عيون شيخوختهم بعد السلام الطويل ، ولكنهم لا يريدون أن يستسلموا إلى الأسى المحرق المميت ، بل راحوا يعملون ، محاولين بأيديهم المعروقة اليابسة أن يعيدوا إلى التراب الذى جفّ طراوة الحياة . فصرتَ تراهم يحملون المعاول ، ويجرون المحاريث ببطء ، مكافحين عوامل الشيخوخة الثقيلة ، يفتحون فى وجه الأرض اليابسة ثلوماً جديدة . ولكن الأرض المقطبة لم تكن تلين لأيديهم المرتجفة الواهنة . إنها فى حاجة إلى نشاط الشباب وعزمهم وعرقهم ؛ والشبان لا يستطيعون أن يعودوا إليها قبل أن يأمنوا غدر الأعداء .

وفى فجر أحد الأيام ، أبصر المراقبون فى الطرف الشرقى من القرية رجالا كثيرين قادمين إليهم ، وسمعوا قعقعة سلاح ، ورأوا غباراً كثيراً يثور من وطء أقدام القادمين . فأرسلوا رسولا يجمع المحاربين من القرية .

وما كاد يمضى وقت قصير ، حتى كانت أصوات القتال

الضارى تدوّى فى أسماع القرية كلها .

لقد أعد الجونيون عدتهم للانتقام المريع ، وللاستيلاء على مانيا مهما يكن الثمن . واستعانوا لذلك برجال مستأجرين من بعض القرى الأخرى ، ليخلفوا قتلى المعركة السابقة وجرحاها .

ولكن المانيين كانوا يدافعون عن أرضهم وعن أنفسهم ؛ والذى يدافع عن أرضه يستمد من حبها قوة وعزماً ؛ والذى يناضل عن نفسه وعن حريته وحقه ، يستمد منها جميعاً إيماناً يقهر الجيوش . والحق ، عند الذى يؤمن به بإخلاص ، هو القوة العظمى التى ليس فوقها قوة ؛ والمناضل دونه يستهين بكل تضحية مهما عظمت ، ويهزأ بالموت ، وبكل عذاب أليم .

واستمر القتال عنيفاً وحشياً طول النهار ، وطول الليل ، ثم طول اليوم التالى . ولم يتوقف سوى ساعة واحدة ، استطاع كل من الفريقين فى خلالها أن يرفع جثث القتلى والجرحى ، ويبتعد بها عن ميدان المعركة . وكان عددهم كبيراً من الجانبين .

ثم عادوا إلى القتال بضراوة وعنف طوال الليلة التالية . ثم طلع الفجر على مناظر مؤلمة جديدة ، من الجثث المتناثرة على الأرض بلا حياة ، ومن الدماء التى تؤلف فى التراب بركاً عديدة ، ومن الجراح التى تنزف بغزارة .

لقد كانت مجزرة لم ترحم أحداً ، ولم ينج منها سوى

الأقلّين ؛ فمئات الرجال المهاجمين لم يعد منهم مع الفجر إلى جونو غير عشرات ، لعلها لا تصل إلى مئة رجل ، وقد أعماهم الظلام ، وما عانوه من ضراوة القتال ، عن معرفة الحقيقة التي تركوها وراءهم . فإن المانيين أيضاً لم يبق منهم فى الميدان سوى عدد ضئيل ، ما كانوا يطيقون قتالا ؛ فلو صمد الجونيون للقتال إلى الصباح ، لاستسلم لهم هذا العدد الباقى من المانيين ، ولأصبحت مانيا بعد ذلك غنيمة لهم ، كما كانوا يريدون حينما بادروها بالعدوان .

لقد انتهى كل شىء . . . ولم يعد فى وسع القريتين أن تقوما بأى قتال جديد ؛ فقد ثكلتا أغلب رجالهما ، كما فقدتا سلامهما وهناءتهما .

وانطوى كل بيت فى القريتين على أحزانه وآلامه المريعة ، وأخذتا تعانيان إلى جانب الأحزان مرارة الجوع ؛ فقد بدأت المجاعة تعضهما بأنياب حداد قاسية ، نتيجة للدمار الذى أصاب مانيا وحقولها وبساتينها .

وتعددت مآسى الحرب والمجاعة ، فنتجت عنهما حوادث مريعة : فمرض كثيرون ، وفقد عدد من العجائز والأرامل والشيوخ عقولهم ، وهام البعض على وجوههم فى القفار من شدة الجزع وعظم المصيبة ، واضطر البعض أن يغادروا القريتين إلى أماكن أخرى هرباً من المجاعة .

والأطفال الذين ولدوا فى مانيا ، وعاشت طفولتهم فى أحضان السلام والطمأنينة ، غرقت الآن طفولتهم فى الشقاء والتعاسة ، وتحولت حلاوة حياتهم إلى مرارة لا تطاق .

* * *

وفى بيت الشيخ ساڤيو كان ابنه أنطونيو يعانى سكرات الموت ، من الجراح التى أصيب بها فى القتال الأخير ، وظل فاقداً وعيه مدة ثلاثة أيام متوالية ؛ ومن حول فراشه عيون لا تنشف فيها الدموع ، وقلوب لا تصمت فيها الصلوات .

لقد تهدمت حياة والده الشيخ ، وتحطم قلب فتاته لونا ، وجفت النضارة فى عودها الذى كان يطفح بالطراوة والحيوية والمرح ، وفى قلب والده ووالدة فتاته انغرست سهام قاتلة من الهم والأسى .

كان دمه قد نزف بكثرة ، وتكاد جميع العلاجات التى استعملت فى تطبيبه تفقد مفعولها ، والأمل فى شفائه أصبح أوهى من خيوط العنكبوت . وكانت لونا بجانب سريره ، تبذل له من حبها وحنانها ما هو أقوى أثراً من العلاج .

وفى لحظة يأس محرق ، نهضت لونا من جانب سريره وفى صدرها شهقات ، وفى عيونها دموع حارة ملتهبة ؛ وخرجت تسير ولا تدرى إلى أين تمضى ، ولكنها وجدت نفسها أخيراً عند الصخرة التى طالما شهدت خلواتها مع فتاها الحبيب ، هذا

الفتى الذى تخشى أن تفقده إلى الأبد .

وعلى صخرة الحنين جلست لونا ، تغمر الحرفين اللذين نقشهما يداها ويدا أنطونيو بالقبلات والدموع ، وتنزع من صدرها الزفرات اللاهبة حرة متفجرة فى وجه السماء . . .

إن كل ما حولها يبعث على الكآبة القاتلة . . . الأرض التى جفت وخلّفت لبقايا الناس فى قريتها قساوة الجوع . . . والسلام الذى فقدته القرية . . . والجمال والربيع الدائم فى المروج والحقول والروابى ، الذى امّحى ولم يبق منه سوى الذكرى الرهيبة . . .

كل هذا يطوف الآن بخيالها ، فتبكى له بحرارة محرقة . . . ولكن هناك ما هو أعلى وأحب من كل ذلك . . . إنه فتاها الذى لا تدرى : أتسمع صوته مرة أخرى ، أم يرحل عنها إلى اللانهاية ؟

والخلوات الجميلة التى كانت تستسلم فيها إلى أحضانه الحنونة ، وتتلقى فيها حرارة قبلاته اللافحة ، وتستمع فيها إلى صوته العذب يملأ حياتها بالأحلام والرؤى الحلوة الحلوة . . . أتصبح هذه كلها ذكريات تنحفر فى قلبها كالأخاديد العميقة فى التراب ؟ . . .

كل ما أمامها الآن كئيب كقلبها المعذب . . . وكل شىء يهمس فى نفسها بذكرى . حتى عروق السوسن والحبق التى

كانت فيما مضى تصغى إلى همساتها مع فتاها ، فى لقاءاتهما اليومية ، ثم لا تلبث أن تتحول إلى باقات صغيرة ، يحملانها إلى المعبد ليعطرا بها قدمى ڤينوس . . . هذه العروق الجميلة لم يعد لها وجود . . . فالأرض بعدها جرداء عابسة يابسة . . .

ومرت فى خيالها صور المعركة التى أصيب فيها فتاها إصابته الخطرة ، التى يخشى أن تذهب بحياته الغالية .

كانت المعركة فى يومها الثانى على أشد ضراوتها ، وأنطونيو يضرب بفأسه بشجاعة خارقة ، ويدوس هو ورفاقه على جثث القتلى والجرحى مستبسلين . وإذا صوت على مقربة منه يناديه بسخرية وشماتة وتحدٍّ قائلا :

ــ أنطونيو ؛ هل أخبرتك فتاتك بما قلته لها يوم حطمت سلتها فى جونو ؟ !

فاستدار أنطونيو بغضب وسرعة إلى مصدر الصوت ، كمن أحس بلدغة مؤلمة ، فرأى شابًّا من الجونيين يتقدم نحوه ، وفى يده سيف قصير حاد ، وعلى صدره درع حديدية تلمع بأشعة الشمس :

فقال أنطونيو بغضب وهو يخفّ لملاقاته :

ــ أكنت أنت أيها القذر الجبان ؟ !

ــ نعم ، أنا الذى سيستولى على عروسك ، بعد أن يقضى على حياتك ، كما سيستولى على أرضك . . .

ـ أيها الجبان الوقح ؛ ستعلم أينا الذى سيقضى على حياة الآخر .

ولا يدرى أنطونيو أية قوة عجيبة حلت فيه فى تلك اللحظة ؛ وقبل أن يدع لخصمه فرصة للاقتراب منه ، كان قد عاجله بضربة من فأسه على يده التى تحمل السيف ، فإذا هى تسقط معه إلى الأرض . وبسرعة البرق انقض أنطونيو ، وأهوى بفأسه على رأس خصمه الجونى بضربتين متتابعتين ، حطمتا خوذته الفولاذية ورأسه معاً ، ثم تركه يهوى إلى الأرض كالصخرة المتدحرجة من رأس جبل ، بعد أن استولى على سيفه الحاد .

ولكن الجونيين تكاثروا على أنطونيو ، فمضى يضرب بأقصى قوته ، بالسيف فى يد ، والفأس فى اليد الأخرى ، حتى كلت يداه فلم يعد فى وسعه أن يستمر فى الضرب . فجعل يتراجع إلى الخلف ، ليستجمع قواه قليلا ثم يعاود الكرة على خصومه ، ولكن طعنة رمح أصابته فى أعلى صدره عند الكتف ، وأخرى فى جنبه قريباً من القلب . فسقط على الأرض يتخبط فى دمه .

وهمّ أحد الجونيين بأن ينترع رأسه بسيفه ، لولا أن أحد المانيين بادره بطعنة فى صدره ألقته على الأرض صريعاً .

وأسرع بعض المانيين يحملون أنطونيو ، ويخرجون به من قلب المعركة إلى خلف الصفوف ، ثم سلموه إلى لونا وبعض

النساء اللواتى كن خلف خطوط القتال يعنين بالجرحى ، ويحملنهم إلى القرية لمعالجتهم .

فلما رأته لونا كادت تفقد وعيها ، وانطلقت منها صرخة قوية متفجرة بالذعر والألم . وانكفأت على جراحه بوجهها تغسلها بالدموع . ولكن رفيقاتها أسرعن ينهضنها ، وحملنها هى وأنطونيو فى عربة ذات جوادين كانت معهن لنقل الجرحى والقتلى ، وأسرعن بهما نحو القرية حيث سلّمنه إلى والده ؛ وبقيت لونا معه ، تغسل هى وأمها جراحه وتضمدانها .

* * *

وانقضى أكثر من ساعة ولونا وحدها على الصخرة ، لا تهدأ لها زفرة ، ولا تجف لها دموع . حتى إذا تعبت من البكاء ، نهضت لتعود إلى البيت لترى فتاها الحبيب . ولم تنس أن تعرج على المعبد . أو لعل قدميها قد قادتاها بغير قصد إلى المعبد ، كعادتهما فى الماضى الجميل . . . وهناك وقفت أمام تمثال ڤينوس ، وتذكرت كيف كانت تقف هناك كل مساء مع أنطونيو ، وفى أيديهما الأزهار الجميلة ، قربان الحب لهذه الإلهة الحلوة . .

تذكرت هذا فعادت العبرات تتدحرج من عينيها بحرارة شديدة : فانطرحت على وجهها أمام التمثال واستسلمت إلى اليأس والدموع ، حتى خف إليها الكاهن العجوز ، يسندها

قليلا ، ويؤاسيها بألفاظ رقيقة ، لكنها لم تشعر لها بأى معنى فى ساعتها تلك .

ومن خلال دموعها الثائرة ، رفعت عينيها إلى التمثال ، وقالت تناجيه بصوت متقطع من الألم :

ـ لماذا تخليت عنا هكذا يا إلهة القلوب البريئة ؟ لقد كنت أجىء إليك كل يوم وقلبى يرقص ببهجة الحياة ، ويداى مليئتان بالأزاهير ، أضمخ بها قدميك الطاهرتين . ولم أكن قط وحيدة ، فقد كان أنطونيو دائماً معى يزين لى الحياة ، إن لم يكن بشخصه الحبيب ، فبخياله الحلو الذى كان يملؤنى فرحاً ، ويشعرنى بأن الدنيا كلها لى وله . . . ولكننى الآن أجىء إليك وقلبى لا يستطيع احتمال وحشته وآلامه ، لأن رفيقى ليس إلى جانبى ، وخياله الآن يعذب روحى ويمزق قلبى بآلامه ؛ ويداى فى هذه المرة فارغتان ، لأن الأرض لم تعد تستطيع أن تمنحنى ما أهديه إليك .

وانخرطت من جديد فى البكاء المرير . فلما استطاعت أن تمالك نفسها قليلا ، عادت تخاطب التمثال وتقول :

ـ سأحتمل كل شىء بصبر ، يا إلهتى الجميلة ، إذا استطعت أن تعيدى إلى أنطونيو . إنه وحده الذى يحبب إلى الحياة ، ويمنح نفسى البهجة . ستزول وحشتى وأحزانى حينما أراه يضحك لى وللحياة كما كان ؛ وسنعود معاً ننعش الأرض

بتعبنا ، ونحيي بشاشتها من جديد بقوة سواعدنا ، لنقدم إليك باقات الزهر العطرة كل مساء . فهبيني إياه يا ڤينوس الحلوة الحنونة ، ودعينا نقدم لك شكرنا مدى الحياة .

ثم خرجت لونا من المعبد ، وهي تمسح الدموع المتحدرة على خديها اللذين أذبل الحزن نضارتهما . وعادت لترى أنطونيو ، وتجلس إلى جانب سريره تعنى به ؛ ولكنها تعود وهي تخشى أن لا تجد فيه نفساً يتردد . . . وكم كانت ترتجف حينما يمر بخيالها هذا الخاطر المرعب ، وهي تقطع المسافة القصيرة بين المعبد والبيت .

ولكن . . .

ما أشد ما كانت فرحتها حينما وصلت إلى البيت فوجدت أنطونيو قد فتح عينيه ، وصحا قليلا من غيبوبته الطويلة ، واستطاع أن يبتسم لها حينما رآها داخلة عليه . . . ولكنه لم يستطع أن يتكلم .

لقد استجابت ڤينوس لصلاتها . . . فما أشد سعادتها بهذا ! . . .

وأسرعت لونا فألقت بجسمها على سريره ، وطوقته بذراعيها وهي تشهق بزفراتها ودموعها وتهتف :

— أنطونيو ! أنطونيو ! ليس للحياة طعم ولا بهجة بدونك يا حبيبي !

ثم جلست إلى جانبه ، وفى قلبها صلاة دافئة ملؤها الشكر للإلهة الجميلة التى استجابت صلاتها ، وأعادت فتاها إلى الحياة .

١٢

فى الوقت الذى كان أنطونيو يتقدم فيه بخطى بطيئة نحو العافية ، كان والده الشيخ الحزين يبتعد عنها بخطى سريعة .

لقد تكاثفت على شيخوخته الهموم والأحزان ؛ فالسلام الذى فقدته قريته ، والشباب الذى طحنته أطماع اللصوص المعتدين ؛ والمآسى التى دخلت كل بيت فى قريتـــه ؛ والأرض التى عادت جرداء يابسة التراب ؛ والمجاعة التى أصابت بضراوتها كثيراً من بيوت القرية ؛ والجرحى الذين لا يزالون بين الموت والحياة من زهرات قريته ، وعددهم يزيد على المائة ؛ وإلى جانب كل ذلك ولده الممدد على سرير الآلام ، بعد الجراح العميقة التى أصيب بها فى القتال . . . كل أولئك صدمات أكثر وأقسى من أن يتحملها جسم ضعيف كجسم الشيخ سافيو .

ولو اقتصرت المصيبة على ولده وحده — وما أعز ولده عنده ! — أو اكتفت به هو نفسه وبولده معاً ، لكان يتقبل

التضحية عن قريته وأهلها بملء الرضى ، فكل تضحية فى سبيل سلام قريته وسعادة أهلها ، حلوة لذيذة .

والأرض التى ماتت . . . لقد كان يود لو عادت إليه قوته ونشاطه لكى يعمل فى الأرض من جديد ، ويعوض عن الرجال الأقوياء الذين فقدتهم القرية وهى أحوج ما تكون إليهم . . . ولكن أنى ليديه الباليتين أن تمنحا التراب حياة جديدة ؟! .. لقد كانت هذه الحقيقة تزيد من مرارة نفسه ، ومن آلام جسمه.

وهكذا لم ينهض أنطونيو من فراش المرض ، إلا ليشترك فى تشييع والده إلى القبر . وكانت تلك صدمة مؤلمة ، جعلته يصاب بنكسة ألزمته الفراش مدة أخرى . ولولا ما كان يجده من حنان لونا وحبها وعنايتها ، لما كان له أمل بالحياة .

لقد كانت لونا هى الخيط الذى جذبه إلى شاطئ الحياة ، فعاد بعد أن كاد يضع قدميه على الشاطئ الآخر البعيد .

ولكن عودته إلى الحياة لم ترافقها عودة البهجة إلى قلبه . إن كل ما فى قريته كئيب كآبة الموت :

الأرض والسماء . . .

الوادى والتلال . . .

الناس والحيوانات . . .

حتى طيور السماء خرست فى حناجرها الأغاريد .

لقد زالت البهجة من القلوب والوجوه ، وخيم الحزن القاتل

على كل بيت فى القرية . فمن أين يجىء لنفسه بالفرح ؟

إن وجود لونا إلى جانبه ، يبعث فى نفسه بصيصاً من العزاء ، ولكنه عزاء ضئيل . إن حب لونا هو اللذة الوحيدة فى حياته ؛ ولكن المآسى التى حلت بقريته ، أكبر من أن يستطيع إنسان أن يتعزى فى وسطها ، لا سيما إذا كان إنساناً كبير القلب ، بعيداً عن الأنانية ومحباً للآخرين ، مثل أنطونيو .

لقد كان والده شيخ قريته وقائدها وحكيمها ؛ بل لقد كان الجميع ينظرون إليه كأب لهم . فلما ذهب إلى الأبدية فى أتعس الظروف ، وشيعته القرية إلى القبر ببقايا الدموع التى لم تجف بعد فى مآقيها ، وقفت القرية كلها على القبر تضع ثقتها وأمالها من بعده فى ابنه أنطونيو . فكان على أنطونيو إذن أن يخلف والده فى المسؤولية الكبيرة ، وأن يعيد القرية إلى الحياة من جديد . وما أصعبها من مهمة فى مثل هذه الظروف .

إنها لمسؤولية أعظم من أن يقوم بها إنسان وحده ؛ مسؤولية يرزح تحتها الجبابرة . ولكن أنطونيو سيقوم بها ، أو على الأقل سيعمل كل ما فى طاقته ليقوم بها بإخلاص ، فيحقق ثقة القرية ورجاءها به . وما دامت لونا إلى جانبه ، فوجودها سيبعث فى نفسه العزم ، وسينفخ فيه النشاط ، وسيلهمه السير فى الطريق الأصوب

* * *

حينما استرد أنطونيو صحته ، بعد أربعة أسابيع من المعركة، ذهب مع لونا إلى صخرة الحنين ، ليتخففا قليلا من أحزانهما ، وليطيرا على أجنحة الخيال إلى الأيام الجميلة السعيدة ، التى فرت بعيداً بعيداً كالطيور المهاجرة .

وعلى الصخرة التى شهدت خلوات غرامهما البرىء الأمين ، وميثاق حبهما البكر ، تعاهدا مرة ثانية . . . ولكن على أن لا يتم قرانهما إلا بعد أن تعود إلى قريتهما حياتها القديمة وسلامها ، وتعود أرضها تضحك فى الفصول الأربعة ، كما كانت من قبل ، فتشترك القرية جميعها فى فرحتهما .

قال أنطونيو :

ـ ليس من السهل أن نطبع البسمات على الثغور التى جففها الحزن ؛ ولكن علينا أن نعمل معاً لنفهم الجميع أن الاستسلام إلى الحزن موت بطىء . ولذلك يجب أن يتعاون كل من لا يزال فى القرية من النساء والشيوخ والأطفال والرجال ، وكل من أبل من جراحه من المحاربين الجرحى ، على إنعاش الأرض من جديد . وما تنتعش الأرض إلا بالعمل النشيط المخلص ، كما كنا نفعل من قبل . فالعمل ينشط الجسم ، ويجعل المرء قادراً على تجاهل الألم والتغلب عليه ؛ وهو الوسيلة الوحيدة لإعادة الحياة إلى الأرض . ومتى ضحكت المروج

والبساتين ، عادت إلى النفوس حلاوة الحياة وسعادتها ، وانعكست بسمات الروابى والحقول ، بسمات تعزية على ثغور الحزانى والمتألمين .

فقالت لونا :

ـ وما الذى تريد منى أن أفعله فى هذا السبيل ؟

فقال :

ـ تدخلين كل بيت ، لتبثى الشجاعة فى نفوس الأطفال والنساء ، وتساعدى على تضميد الجراح فى أجسام الجرحى ونفوسهم ؛ كما أدخل أنا إلى كل بيت ، لأعيد الإيمان بالعمل وبالأرض إلى نفوس بقايا الرجال الأصحاء والذين أبلّوا من جراحهم ، والشيوخ . ومتى استطعنا أن نعيد إليهم الإيمان والشجاعة والثقة ، فستعود قريتنا تضحك لنا ، فننسى بضحكاتها أحزاننا بعض النسيان ؛ ثم يتغلب الجميع على الألم بمرور الأيام .

فقالت لونا :

ـ سأفعل ما تريد ، فإننى مقتنعة كل الاقتناع بصواب رأيك . وسيكون قلبك النبيل دليلى ومرشدى فى العمل . فلترفع عنا الآلهة غضبها ، ولتوفقنا فى مهمتنا الصعبة .

قال أنطونيو :

ـ سنبدأ عملنا حالا ، من اليوم ؛ فلا فائدة من التأخير .

ثم توقف قليلا ينظر حوله ، متأملا الأرض اليابسة ، التى كانت من قبل تضاحك الشمس وتغامز الكواكب؛ فعاد يقول:

— لم يعد فى الأرض أزهار فنحملها إلى المعبد ، كما اعتدنا سابقاً ، لنضعها على قدمى ڤينوس ؛ ولم يعد فى الأشجار ثمر ، ولا فى الحقول زرع ، فنحمل منه إلى هيكل سيريس . فلنحمل إليها إذن حفنتين من تراب الأرض لنضعه على قدميها ، ونلتمس منها أن تباركه ، وأن تعيد الطراوة والخصب والحياة إلى هذا التراب الذى جف .

وحمل أنطونيو ولونا حفنتين من التراب ، ومضيا إلى المعبد . وهناك وقفا أمام تمثال سيريس ، ورفعا أيديهما بالتراب ، وتمتمت شفاههما بصلاة قصيرة حارة ، ثم وضعا التراب عند قدميها .

واستدارا بعد ذلك معاً نحو تمثال ڤينوس ، وقد ترقرقت فى عيونهما دموع . وقال أنطونيو :

— سنعود إليك أيتها الإلهة الحلوة ، بعد حين ، وفى أيدينا الباقات الجميلة كعهدك بنا . فساعدينا ليعود السلام إلى قلوبنا ، والجمال إلى حياتنا ، والبهجة إلى نفوسنا ، والخير إلى أرضنا .

ثم خرج أنطونيو ولونا من المعبد عائدين إلى بيتيهما ، وفى قلبيهما أمل يشرق من ظلمة الأحزان الهائلة ، فينير أمامهما

المستقبل العابس ، ويمنيهما بسعادة لن يتأخر أوانها طويلا .

لقد كان أنطونيو يعتقد بأن البطولة الحقة ليست فى التغلب على الأعداء فى ساحة القتال فحسب ، ولكنها تكون أعظم كثيراً عندما يستطيع المرء أن يتغلب على الألم والضعف أيضاً .

وبدأ عمله وعمل فتاته من تلك اللحظة ؛ فهما يزوران كل بيت ، ويشيعان الابتسامات فى كل وجه حزين ، ويبثان التعزية والشجاعة والإيمان فى كل نفس ؛ فإذا حرارة الحياة تتمدد شيئاً فشيئاً فى النفوس التى هدها الألم ، والقلوب التى حطمتها المأساة ؛ فتقصف شيئاً فشيئاً ، وبكثير من البطء ، أغصان الكآبة التى خيم ظلها الأسود الكريه على كل بيت فى القرية .

١٣

ومرت عدة أسابيع على المأساة ، ثم طالت الأسابيع إلى أشهر ثلاثة ، لم يندمل فيها جرح فى قلب ، ولم يهدأ حزن فى نفس .

إن انتصارها الذى ضمن لها الحفاظ على أرضها ، لم يكن أحسن حالا من انكسار جارتها المعتدية ؛ فهما متساويتان فى النتائج الأليمة ؛ متساويتان فى الخسارة الآدمية الهائلة ، من الجانبين ، وفى عدد الجرحى والذين أصيبوا بعاهات سيطول أمدها ، أو ستستمر مدى الحياة ؛ ومتساويتان فى الآلام التى تخيم على بيوتهما بشكل قاتل .

ولكن آلام مانيا المنتصرة أشد وقعاً من آلام جارتها المنكسرة ، لأنها خسرت فوق الرجال ثروة الموسم كلها ، وجهود العمر الطويل فى الأرض ، والثروة النباتية الكبيرة من الأشجار التى كانت تملأ بساتينها . فهى الآن فى حاجة إلى البدء من جـــديد . وهكذا لم يكن هناك تعادل فى الخسارة بين الغالب والمغلوب ، بل زادت خسارة الأول كثيراً . . . أوليست هذه طبيعة الحروب ؟ !

وكانت الأيام تمر قاسية بطيئة ، وكأنها تطحن حبات

القلوب ونور العيون فى مانيا . ولكن أنطونيو ولونا لم يفترا عن العمل فى تأدية رسالتهما الجديدة ، رسالة التعزية وإعادة الإيمان والثقة إلى النفوس الجازعة القانطة .

ولم يكن شعور جارتهم جونو بالمأساة دون شعورهم بفداحتها . لقد دفع الحسد والغرور والطمع أهل تلك القرية الشقية إلى الاعتداء ، فكان اعتداؤهم وبالا عليهم ، كما كان وبالا على جيرانهم ؛ فبيوتهم غرقى فى الأحزان ، والتعزية استعصت على قلوبهم ؛ والمجاعة الهائلة زادت ضحاياها بينهم على ضحايا القتال ، وانتشرت معها الأمراض ، فأصبحت حياة الكثيرين مهددة بالفناء .

ولم تكن هذه الفجائع الهائلة التى نزلت بالقريتين مما يستطيع أن يحتمله قلب ، أو يرتاح إليه ضمير .

حتى ضمير الإله الشرير مارس عاد يتحرك ويخزه ، وهو الذى لم يتحرك قط لمأساة ، ولا اهتز لشر ، لأنه كان مصدر جميع الشرور .

كان مارس جالساً فى عربته الحربية ، على ظهر غيمة سوداء سريعة . ولكنه كان فى هذه المرة شارد الفكر ، ينظر إلى الأرض تحته ، فلا يرى إلا صور المآسى التى زرعها بيده ، فزرعت فى الأرض الصمت والوحشة والخراب والموت ، بفعل إرادته .

وإذا بصوت ڤينوس السماوى الحزين يقطع عليه شروده؛ وسمعه يقول :

— أرأيت أيها الإله الجبار ماذا فعلت يداك ؟ أتراك الآن قريراً بهذا المصير القاسى ، الذى فرضته بجبروتك على أناس أبرياء لم يعرفوا غير السلام فى حياتهم ؟

ونظر مارس ، فإذا الإلهتان ڤينوس وسيريس تقفان إلى جانبه . فتخاذل جسمه الجبار أمام نظرات العتاب الحزين التى كانتا ترميانه بها ، ودموع الألم التى كانت تندى بها عيونهما الجميلة . ولم يشأ أن يجيب بشىء ، فقد كان فى ضميره صراع أقسى عليه من ملامتهما .

وتكلمت رفيقتها سيريس بعدها ، فقالت :

— وهذه الأرض التى طالما ضاحكت الشمس والقمر والنجوم ، وأعربت للناس عن مقدرة الآلهة ومحبتهم لهم ، فأطلقت القلوب بالشكر ، والألسنة بالتسبيح ، والأيدى بصنع المعابد والمذابح والتماثيل المقدسة . . . أيرضيك الآن أنها جفت ، وقتلت بجفافها شكرنا من القلوب ، وتسابيحنا من الألسنة ، وأوقفت كل نوع من العبادة لنا ؟ أليس هذا عكس ما قلته لنا فى حضرة جوبيتر من قبل ؟

ولم يطق الإله الجبار هذا العتاب ، وما يعانيه فى داخله من عذاب الضمير ؛ فإذا به يستدير نحو الإلهتين الحزينتين ،

وينزع خوذته عن رأسه ، وقميصه الفولاذى المزرد عن جسمه ، ويلقى بهما وبسيفه عند أقدام الإلهتين ، ثم يجثو أمامهما قائلا :

ـ لقد آن لمارس ، المحارب الجبار ، أن يخلع درعه وخوذته ، وأن يقذف بمعدات حربه كلها إلى النار ، ويخرس الصواعق التى طالما روع بها البشرية الآمنة . إن قلبى قد تمزّق فى داخلى ، أيتها الزميلتان الطيبتان ، وضميرى أدمته الندامة من مناظر الدماء والأهوال التى ارتكبتها يداى فى الأرض . لقد عجنت الأرض بالدماء والمآسى ، وها أنا ذا أعود نادماً على شرورى الكثيرة . وهذه دروعى وآلات حربى ، أحرقها أمامكما ندامة ؛ ومركبتى النارية هذه سأحولها إلى تراب ؛ وسأكفّر عن آثامى المريعة بأن أحمل الرفش والمعول ، وأنزل إلى الأرض أعزقها وأفلحها مع بقايا أهلها ، لأعيد إليهم بيدى ما انتزعته منهم بهاتين اليدين المجرمتين نفسيهما . . . وعهد علىّ أن لا أجفف عن جسدى قطرة من العرق ، قبل أن يعود الخصب إلى الحقول والبساتين ؛ ولا أعود إلى امتطاء الغيوم ، قبل أن أرى الحبق والسوسن والشقيق ترجع إلى عروق الصخور ، وقبل أن تشرق الكؤوس الجميلة الملونة فى رؤوس الزنابق والأقاح ، فتمتلئ بها المروج ورؤوس الجبال ، وتضحك بها قبور المحاربين الأبرياء الذين ذهبوا ضحية جريمتى . ولن

تنفرج شفتاى عن ابتسامة ، حتى أطبع بهاتين الشفتين عديداً من القبل الدافئة على جباه الحملان والعجول الصغيرة ، وهى ترضع من أثداء أمهاتها التى ترعى فى المروج الخضر . . .

* * *

وفى الأفق البعيد شاهد السكان فى قرية مانيا حمرة كاللهيب العظيم ، تغمر أطراف السماء بشكل غريب . ولم تكن الشمس قد وصلت إلى هناك بعد ، فهى ما تزال تتربع فى صدر الجلد . فدهش الجميع لهذا المنظر المرعب ، وتوجسوا من شر جديد ...

وهرع الجميع إلى المعبد ليسألوا الآلهة أن تحميهم من كل شر جديد لا تزال تخبئه لهم الأيام ؛ فلم يعد لديهم قدرة على تحمل أى شىء مؤلم .

ولكن ابتسامتين مشرقتين على شفاه تمثالى ڤينوس وسيريس تستقبلانهم فى داخل المعبد ، فتعيدان الطمأنينة إلى النفوس التى أذهلتها المآسى الكبيرة . وإذا صوت حلو يتردد فى فضاء المعبد ، وحفيف أجنحة غير منظورة . . . وكان الصوت ينشد قائلا :

« لقد حرق مارس معداته . . . وسيمرع الخصب منذ اليوم فى أرضكم ، والحب والسلام فى قلوبكم إلى الأبد . . . »

* * *

وفى طرف الطريق المؤدية إلى جونو ، ظهر علم أبيض يحمله عشرة رجال قادمين إلى مانيا . فلما وصلوا تلقاهم المانيون

مستعلمين ؛ فإذا هم وفد من جارتهم جونو ، جاؤوا يلتمسون الصفح .

فأشرقت أسارير المانيين ، ومضوا بهم إلى المعبد . وأمام هيكل جوبيتر تصافحت الأيدى ، وتعاقدت على السلام والتعاون والمحبة .

وقال رئيس الوفد الجنونى :

– اتشهد الآلهة جميعاً على أن القاوب التى تمزق فيها السلام ، ستعود بعد اليوم لا تعرف غير الصفاء والحب الأخوى المخلص ؛ وأن دماءنا ودماءكم التى اختلطت على بقعة واسعة من ترابكم ، وعلى الطريق التى تصل بين قريتكم وقريتنا ، ستكون الرباط المتين الذى يوثق بيننا وبينكم . وقد جئنا نعلن لكم عن استعداد كل شاب وكل شيخ وكل امرأة أو فتاة فى قريتنا للمساهمة فى إصلاح الأرض التى كنا سبباً فى جفافها ، لتعود تمرع وتضحك لكم بالنعم كما كانت . هذا عهد لكم علينا ، وجميعنا فى خدمتكم تكفيراً عن إساءتنا إليكم ، وتعكيرنا للسلام فى أرضكم .

* * *

منذ ذلك اليوم ، عادت الفؤوس والمحاريث تفتح فى حقول مانيا شقوقاً جديدة ، ينسكب فيها العرق الغزير الحارّ ، وعادت العروق الصغيرة الخضراء تطل برؤوسها من شقوق التراب ؛

والشجيرات تتسامى بقاماتها الدقيقة ، وكأنما تواعد طيور السماء المشردة بيوم غير بعيد ، تصبح فيه أشجاراً ضخمة تمنح القرية ظلا وثمراً ، وتمنح طيور السماء أعشاشاً ومقيلا ، ومعابد للترانيم الحلوة .

وعلى صخرة الحنين جلس أنطونيو ولونا يتأملان الجموع العاملة فى الحقول ، وفى قلبيهما فرح ، وفى عيونهما بريق مسكر .

وقال لها وهما يغيبان فى عناق طويل سعيد :

ـ عندما تتفتح أكاليل الأقحوان ، وبراعم الحبق والشقيق فى عروق هذه الصخور ، وعلى المروج والروابى ، سيقوم فى مانيا أول عرس بعد المأساة ، وسيكون عرساً للقرية كلها ، ولجارتنا جونو كذلك ، تشترك فيه قريتانا معاً بأغاريد أهلهما ، كما تشتركان فيه بمروجهما الضاحكة ، وحقولهما التى لن يعود الخصب ينقطع عنها .

* * *

وفى الفضاء فوقهما ظهرت حمامة بيضاء ترفرف ، وفى فمها غصن زيتون صغير ، جاءت تحمله من مروج بعيدة . . .

مجموعة سيرة الرسول

مجموعة جديدة تضمنت حياة الرسول الكريم ، وجمعت فيها الحقائق التي يجب أن يعرفها كل مسلم حتى يكون على علم بأهم التطورات المختلفة التي لابست حياة النبي العظيم ويتبين ما كان له من أثر في العالم كله : قديمه وحديثه . وفى كل حادثة وردت مواضع للعظة والاعتبار ، ودلائل على أن حياة محمد كانت حياة مثالية كريمة على الله والناس وتصور لنا البذل والتضحية فى أسمى الصور وأرق المعانى .

١ — المولد
٢ — النشأة
٣ — الوحى
٤ — فجر الدعوة
٥ — مشرق الدعوة
٦ — سحاب وضباب
٧ — نور وضياء
٨ — مع القبائل
٩ — الهجرة
١٠ — غزوة بدر
١١ — غزوة أحد
١٢ — غزوة الأحزاب
١٣ — فتح مكة
١٤ — الوفاة

مجموعة قصص الأنبياء

مجموعة جديدة فى أسلوب سهل ممتع ، وإخراج أنيق جميل ، للصغار والكبار ، تصف حياة الأنبياء ، وجليل أعمالهم ، وتسرد ما صادفهم من حوادث مع أقوامهم ، خالية من الشوائب والإسرائيليات حتى تظل العقيدة سليمة نقية تمكن الإنسان من التقرب إلى الله تعالى وحده ، والاعتصام بدينه وتعاليمه ، والتحلى بالفضائل الحسنة ، والتمسك بالأخلاق الكريمة .

١ – آدم
٢ – نوح
٣ – هود
٤ – صالح
٥ – إبراهيم الخليل
٦ – إسماعيل الذبيح
٧ – يوسف الصديق
٨ – يوسف العفيف
٩ – يوسف على خزائن مصر
١٠ – موسى الرضيع
١١ – موسى والسحرة
١٢ – موسى و بنو إسرائيل
١٣ – داوود
١٤ – سليمان وملك الجزائر
١٥ – سليمان و بلقيس
١٦ – يونس
١٧ – أيوب

ثمن النسخة ٣ قروش

دار المعارف

روضة الطفل



١ أرنبو والكنز
٢ كتكت المدهش
٣ عيد ميلاد فلة
٤ فرفر والجرس
٥ ذيل الفأر
٦ البطة السوداء
٧ انتصار فيروزة
٨ حسن والذئب
٩ حبة القمح
١٠ زحاف الشجاع
١١ ذكاء سمسمة

أول مجموعة من نوعها باللغة العربية يجد الطفل فيها قصصاً مفيدة مزينة بالصور المبتكرة ومطبوعة بالألوان الجميلة

تصدرها

دار المعارف

اقرأ

فتحي رضوان

أخي المواطن

دار المعارف بمصر

أخي المواطن

فتحي رضوان

أخي المواطن

اقرأ ١٤٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٤٨ — سبتمبر سنة ١٩٥٦



تمهيد

تقول السيدة كويبل ، وهى من علماء الآثار المصرية ، فى كتابها « التاريخ والفن المصرى » : لقد وقفنا على قدر عظيم من الحقائق المثيرة للاهتمام ، من الفحص الدقيق للمومياءات المصرية التى احتفظت ببعضها كلية الجراحين بلندن ، ومتاحف التشريح الأخرى . . فقد قيل كثيراً إن الجنس المصرى هو مزيج من دماء أجناس مختلفة ، وإنه تأثر بالغزاة القادمين من الشرق ومن الجنوب ومن الغرب . وقد يكون هذا حقاً ولكن الحقائق التشريحية أثبتت أن أقدم فلاح سكن وادى النيل ، هو من حيث بنائه وطول قامته ، أشبه ما يكون بفلاح اليوم ، فمن الراجح أن الشعب المصرى ، يمتاز بقدرة على هضم العناصر الغريبة .

ولست أدعى أننى أفهم شيئاً فى علم التشريح ، ولا فى علم الأجناس ، ومع ذلك لست أظن أن من يعتبرهم الناس علماء تشريح وأطباء ، يلقون القول جزافاً حينما يقولون إن الصفات التشريحية للمصرى الذى عاش فى مصر منذ أربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة ، هو هو نفس الفلاح الذى يعيش اليوم . وإن

هذه الآلاف التي غيرت كل شيء ، حتى الجماد الذى لا ينطق ، عجزت عن أن تغيره .

وليس هذا وحده ، من حقائق العلم ، هو ما يساورنى ، وأنا أقدم هذه الخواطر ، التى تدور كلها حول « القومية المصرية » .

فأنا أذكر مثلاً أنه منذ أربعة آلاف سنة ، لاحظ المصريون ، أن الشعرى اليمانية ، وهى نجم فى السماء ، يشرق عند شروق الشمس فى يوم من أيام الصيف ، وهدتهم الملاحظة إلى أن هذا اليوم هو يوم اكتمال فيضان النيل . وتكرر شروق هذا النجم فى هذا اليوم من الصيف ، وتكررت مصاحبة شروقه ، لاكتمال الفيضان ، فاعتبروا هذا اليوم الذى يرد إليهم فيه الماء الذى يمد أرضهم بالخصب ، ويفيض عليهم بالخير ، ويزود واديهم بالحياة أول أيام السنة . وقسموا سنتهم مثل أية أمة أخرى إلى اثنى عشر شهراً ، وكل شهر ثلاثين يوماً ، كما قسموا السنة إلى ثلاثة فصول :

فصل الفيضان ، وفصل الربيع ، وفصل الحصاد . . .

فكان ذلك أول إدراك لمعنى الزمن ، وأول ضبط لزحفه المستمر ، الذى يطوى الأفراد والجماعات والشعوب . .

وبعد ذلك بقرون طويلة ، التفت غير المصريين إلى السماء

واستوقف نظرهم القمر وانتظام ظهوره فى السماء كل فترة من الزمن ، وحسبوا أيامهم على دوراته فى السماء ، فكان حساباً خالياً من الضبط والاستقرار .

فما الذى أوحى إلى المصريين ، فى هذه الحقبة الموغلة فى القدم ، أن يقيموا حسابهم على هذه الظاهرة الدقيقة من ظواهر السماء ، وبتلك الظاهرة من ظواهر الطبيعة ؟

قبل أن تجيب على هذا السؤال ، أدعوك إلى التفكير فى سؤال آخر هو : متى تمت وحدة المصريين القومية ؟ قد تقول إن هذه الوحدة كانت فى عهد مينا وعلى يده ، وهذا غير صحيح ، فمصر عرفت الوحدة مراراً قبل أن يولد مينا ، وقد توحدت مديريات الوجه البحرى قبل ذلك التاريخ بكثير ، واجتمعت حول عاصمتين ، دمن حور (دمنهور) فى الغرب . وأوزير (أبو صير) فى الشرق ؛ ثم اجتمعت كلها فى العاصمة (بونت) . كما توحدت مديريات الوجه القبلى فى حكومة العاصمة (ست) . ثم اندمجت المديريات فى الشمال والجنوب ، المرة بعد المرة ، قبل أن تصبح شيئاً واحداً ، بصفة نهائية ، حتى يومنا هذا على يد مينا . . .

فهل تعرف شعباً آخر ، عرف الوحدة الكاملة ، فى هذا العصر الذاهب إلى أبعد آماد القدم . . إن أكثر الشعوب التى

تقود اليوم العالم لم تعرف الوحدة القومية إلا من بضعة قرون ، وبعضها لم يمض على ميلاد قوميته إلا قرن من الزمان وقليل من السنين . . . ومع ذلك قد خاضت فى سبيل الوصول إلى هذه القومية ، فى بحر طام من الدماء ، وفوق جبال شامخة من الجماجم والأشلاء ، وهى لا تزال تحن بين – الحين والحين – إلى الفرقة والشحناء .

ولا تنس أنه حينما تمت وحدة الشعوب جميعاً ، والأجناس كلها ، كانت هذه الوحدة سيادة ولاية بعينها ، على بقية الولايات المكونة للوطن ، وإفناء غيرها فيها . إلا مصر ، فقد كانت الوحدة تزاوجاً ، بين الشمال والجنوب ، فالملك – وهو من الجنوب – وضع على رأسه تاجاً جمع ما بين تاجى الشمال والجنوب معاً ، وجعل لقصر الملك بابين ، أحدهما باب الشمال والثانى باب الجنوب ، وقد نسج الشعب على منوال الملك فأصبح لكل دار بابان ، ولكل معبد بابان ، ولكل مبنى للدولة بابان ، وكان اللونان الأحمر والأبيض ، وهما لونا الشمال والجنوب ، لونين متقابلين فى كل حفلة ، وفى كل مجمع رسمى ، وفى كل مكان .

ولقد أراد علماء التاريخ والآثار أن يعرفوا متى تبدأ الحضارة المصرية ، ومتى يبدأ ، فى مصر ، عهـــد ما قبل التـــاريخ . وأوغلوا ، فإذا بهم أمام حضارة لا يسبقها هذا الطور ، من

أطوار الطفولة الإنسانية ، أفلم تعرف مصر ، عهد ما قبل التاريخ ؟

قال علماء . نعم ، إنها لم تعرف هذا الطور ، ولم تمر به ، ولا دليل على أنه مرّ بها .

وقد كان هذا فرضاً غير معقول ، ولكن العلماء الذين عاشوا بين الحفريات والآثار وقضوا حياتهم يستقرئون الأصداف والأحجار هم الذين كانوا يقولونه ويؤكدونه ، حتى جاء عالم آخر هو « جاك دى مرجان » فناقض ذلك الرأى واستبسل فى الدفاع عن رأيه ، حتى كتب له الفوز . .

هذه الحقائق العلمية تواردت على خاطرى ، وأنا أقدم لك هذه الفصول التى تدور كلها حول القومية المصرية الحديثة ، وغاية هذه الحقائق جميعاً ، أن القومية بمعناها الصافى الرائق ، هى مرادف للمصرية . فمصر هى موطن أقدم القوميات ، وأخلدها ، وأصفاها .

موطن أقدم القوميات ، لأن الشعوب الأخرى جميعاً ، عاشت عشرات القرون وعناصرها تتقاتل بعضها مع بعض ، دون أن تحس بأن رباطاً ما يربطها ، أو إطاراً عامّاً يحتويها ، فى حين كان المصريون خلال هذه القرون نفسها أمة متحدة ، يتشابه أبناء الشمال منهم بأبناء الجنوب ، فى العادات والعقائد والأزياء والتقاليد

ولون الطعام ، وشكل الزى . وينبسط سلطان الحاكم فيهم من البحر فى الشمال ، حتى ما بعد الشلالات ، فى أقصى الجنوب . ولقد بقى حالهم هكذا ، فى كل عصر ، وفى ظل كل دين ، أو كل نظام حكم : يتغير الحاكم ، ويتغير الزمن ، ويتغير الفكر ، وتبقى مصر ، ويبقى المصريون . ولا أدل على خلود هذه الوحدة المتماسكة الصلدة ، وصفائها ونقائها من أن المصريين اليوم ، لا يختلف مسيحيوهم عن مسلميهم لا فى السحنة ، ولا فى اللهجة ولا فى طريقة الحياة ، ولا فى أسلوب المعيشة ، كما أن الأغلبية الساحقة من المسلمين ، يكادون يكونون على مذهب واحد من مذاهب الإسلام ، على الرغم من أن المذاهب نفسها ، لا تؤدى فى مصر ، إلى إقامة فرقة بين مصرى ومصرى ، ومع ذلك إذا تجاوزت بنظرك حدود مصر فى أى اتجاه ، وجدت الجماعات الصغيرة ، وقد تناهبتها أسباب الخلاف المذهبى والطائفى ، فقطعت الأواصر بينها ، حتى بات كل معسكر صغير منهم ، على ضغن وحقد ، يضمره للمعسكر الآخر ، ولسنا فى صدد بيان أسباب هذه الميزة الكبرى التى امتازت بها مصر ، وازدان بها تاريخها الطويل . ولكن قد يكون من الخير أن نشير فى عجل ، إلى أن عنصرين هامين هما اللذان تعاونا على توفير هذه الميزة الكبرى . وأعنى بهما الصحراء والنيل . أما الصحراء ، فقد قامت

على حدود مصر من الشرق والغرب ، كالحارسين الساهرين اللذين حميا مصر ، من الانمياع والذوبان فى غيرها . فبقيت لها داخل هذين الحدين خصائصها الجنسية والقومية . أما النيل فقد كان أساس الحضارة فى مصر ، وأساس الحضارة الزراعية بالذات . وهى حضارة أخص خصائصها ، وأظهر طوابعها ، الاستقرار والثبات والالتصاق بالأرض . فضلا عن أن ارتباط كل المصريين من البحر إلى الشلالات بهذا المنبع الأصيل للحياة ، قد أعان على إقامة حكومة مركزية ، وأعان وجود الحكومة المركزية ، على توحيد ظروف الحياة فى مختلف أنحاء الدولة .

وإذا كان فى التاريخ كثير من المتناقضات ، فإن من أكبر المتناقضات أن يتعاون النيل ، وهو مصدر الخصب وعنوان الرخاء ، مع الصحراء ، وهى الجدب نفسه ، على تحقيق نتيجة واحدة ، هى خلق أقدم القوميات وأخلدها .

ولقد أثمرت الوحدة القومية المبكرة فى مصر ، ثمرتها العظيمة فكانت هذه الحضارة الغريبة ، التى لا يزال الناس مأخوذى اللب بتبكيرها فى كل جانب من جوانب الحياة .

وبوقوفها على حقائق فى العلم والفن وأصول التشريع والحكم والفلسفة والعقائد ، لم نصل حتى اليوم إلى بعضها ، ووصلنا إلى

البعض الآخر منها متأخرين عنها بقرون .

وليست الغاية من تقرير هذا الواقع ، أن نفخر به ، وإنما لنستمد منه إيماناً .

ذلك هو إيماننا بأن مصر لم توضع فى هذه الرقعة من العالم ، ولم تتوافر لها هذه الخصائص ، إلا لتكون قاعدة حضارية . وقد كانت فى الماضى هذه القاعدة ، فحققت للناس من أسباب العلم بالحياة ، وقدمت لهم من وسائل التغلب على الطبيعة وإخضاعها والانتفاع بها ، ما أعانهم فى مستقبل أيامهم ، على أن يسيروا فى طريق التقدم والرقى . وقد كررت مصر خدماتها للإنسانية ، فهى لم تقف عندحد ابتداع هذه الحضارة الفرعونية القديمة التى عاشت أربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد ، بل إنها استمرت تنتج ألواناً جديدة من الحضارة ، وتحتضن مدارس من الفكر والرأى على تعاقب الحقب . وقد فعلت ذلك فى بعض الأحيان وليس فى يدها زمام أمرها كله . ولكن روحها وعقلها كان دائماً ، أقوى من الحاكم الذى يحكمها. إن جامعة الإسكندرية التى ورثت جامعة عين شمس ، كانت فى تاريخ العلم والحضارة ، منارة من منارات الفكر ، أخرجت رواد الإنسانية ، فجاء ينتهل من مواردها العذبة ، الشرق والغرب ، فلما ولدت الحضارة الإسلامية ، كانت مزيجاً من الحضارات ،

وتراثاً من فلسفات ، فلم تجد وعاء يضمها ، ولواء تسير فى ظله إلا الأزهر .

فهل نبقى أمناء أوفياء لهذا السجل الباهر ، أم نخون ما خلفه لنا آباؤنا وأجدادنا ، ونبايع غيرنا بالزعامة الروحية ؟

إننا إذا أجبنا بنعم ، كان الواجب أن نفهم مدى التبعات التى سنحملها على عواتقنا حينما نقول : « نعم » .

إننا لا نعنى بالوفاء لهذا التراث القديم ، أن نفخر به ، وأن نقول للناس فى مناسبة وغير مناسبة ، إننا أحفاد الذين صنعوا هذه الحضارات . فهذا الفخر ليس سوى طليعة العمل المنشود لأنه يدل على حبنا لهذا الماضى وإعزازنا له وحرصنا على الإبقاء عليه .

ولكن الأمر يقتضينا أكثر من الفخر . .

يقتضينا أن نعرف هذا الماضى وأن ندرسه ، ثم ندرس الحاضر على ضوئه ، وأن نفهمه بعقولنا نحن ،لا بقول الأجانب الذين لا يعرفون شيئاً عنا .

ولكن هذا لا يكفى أيضاً ، فالمطلوب أكثر من ذلك بكثير .

المطلوب أن نهيئ أنفسنا ، لأن نستأنف السير فى الطريق الذى رسمه الماضى ، وأن نعلى البناء فوق قاعدته ، وأن نكمله ، فنضيف إليه . ولا سبيل إلى شىء من هذا ، إلا إذا كمل يقيننا

بأن بلادنا فى المكان الذى وضعت فيه ، بين قارات الدنيا وشعوبها ، قد خصصت لتبنى الحضارات لا لتستهلكها ، ولتخلق لا لتعيش عالة على الخالقين . والصورة الأولى لهذا اليقين ، ألا نستسلم للحضارات الأخرى ، ولما تشيعه من مذاهب ، وما تروج له من مبادئ ، وما تدعو إليه من أساليب فى العيش ، وطرائق للفكر . وليس معنى ذلك ، أن نرفض ما ينتجه ويخلقه الغير ، رفض العناد والمكابرة ، فالعناد والمكابرة من صفات الصغار غير المجربين ، أو الجهال غير العالمين . وإنما أعنى أن نفكر فى كل ما يعرض علينا ، وأن نتأمله تأمل الفاحص الناقد ، وأن نعرضه على ما عندنا ، وما كان عندنا ، وبهذا الأسلوب الناقد الفاحص ومع التزود ، بعلوم ماضينا ، وتراث أجدادنا نستطيع أن نكون أمة موجهة ، وحسبك أن تتحرك عجلة الابتكار فى جهاز حياتنا الراكد ، حتى تتوالى حركاتها ، ويتتابع دورانها فإذا أيدينا قد وصلت إلى المعين الذى كان بعيد الغور ، عميقاً لا نصل إليه ، بل لا نشعر به .

هذا هو جوهر الرسالة التى لا بد أن نتواصى بالإيمان بها ، وبالدعوة إليها . ولا جدال فى أن الإيمان بها ، لا يغزو القلوب ، إلا إذا صدر من قلوب تؤمن هى أولا ، ففاقد الشىء لا يعطيه ؛ وأولى الناس بأن يؤمنوا ، ملء قلوبهم ، ليشيعوا الإيمان فى

قلوب الغير ، هم الكتاب والمفكرون ، هم القادرون على أن يتزودوا من هذا الماضى الباهر ، ومن أنواره التى لم تخفت أبداً ، بل حجبتها سحب كثيفة من الجهل ، والتخاذل ، والظلم والطغيان والخوف والريبة .

ولا عذر لأحد من هؤلاء ، بعد أن أشرق نور عهد جديد ، يريد أن يبنى مصر ، على أسس جديدة ، ويريد أن يفتح أبواب الخلق والإبداع على المصاريع لكل ذى موهبة أو كفاية . وهو لن يكون عهد حرية حقًّا ، إلا إذا انتهزت العقول فرصته ، فحلقت وارتفعت عن مستوى الأرض التى شدت إليها أجسامنا زمناً طويلا .

* * *

وفى سبيل إثارة هذه الروح المتحررة ، الطامعة فى مزيد من الحرية ، الراغبة فى بعث مصر ، وبعث أمجادها الروحية ، والنبش عن ذخائرها الذهنية والعقلية ، كتبت الفصول التالية ، وقد آثرت أن تكون على صورة خطاب موجه إلى « أخى المواطن » ، وأن يستقل كل منها بفكرة ، توحى بها حقبة من حقب تاريخنا القومى الحديث ، أو شخصية من شخصيات هذا التاريخ ، ولقد راقنى أن يكون الحديث على هذه الصورة ، لأنه عليها يشبه أن يكون مناجاة ، فإن الخطوة الأولى ، فى كل عمل كبير ،

أن تتلاقى القلوب . . وقبل ميلاد كل حركة ، كان يتلاقى قلبان ، ثم يجتمع على اجتماعهما قلوب ، يتزايد عددها ، ويتسع نطاقها اتساع الدوائر فى الماء ، عند سقوط حجر فيه .

فإذا استطاعت هذه الأحاديث الصغيرة الموجزة ، أن تثير فى نفس « أخى المواطن » الرغبة أن يقرأ من جديد ، تاريخ بلاده ، وأن يتأمل صوره ، وأن يتبين ما غمض من معانيه ، فهذه الرسالة الصغيرة ، تكون قد حققت الغرض المنشود منها ؛ والأمل المعقود عليها ، أما إذا اعتبرها قارئها ، رسالة فى التاريخ يحاسب كاتبها على قدر ما فيها من علم ، فإن التوفيق يكون قد أخطأها .

وإنى لأدعو الله بحق حبى لمصر ، وإعجابى بماضيها ، وثقتى فى حاضرها ، وأملى فى مستقبلها ، أن يكون النجاح حظ هذه السطور ، وأن يتلقاها « أخى المواطن » كما يتلقى رسالة من صديق عزيز ، يحبه ، ويضمر له الخير ويعلنه .

فتحى رضوان

١

أخى المواطن :

يظن بعض الناس أن الأمم لا تثور ، إلا حينما يهبط سوء الحال بها إلى أحط الدركات ، وقد أكد هذا الظن ، أننا نسمى عهد ما قبل الإسلام بعهد الجاهلية ، وأن ما نقرؤه عن الفترة السابقة للثورة الفرنسية ، والثورة الروسية ، وثورات المصريين فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، يرسم لنا صورة قاتمة ، شديدة السواد . صورة مظالم تترى على رأس شعب فقير ، تنتزع لقمة العيش من بين ضرسيه ، لتعطى للحاكم المتخم ، يزيد بها تخمته ، وتخلع عن جسمه الضئيل السقيم ، الخرقة التى تستر عورته ، ليأخذها غنى قوىّ ، لا لحاجة إليها ، بل لأنه لا يطيق أن يرى أجساماً تغطى ، أو عورات تستر . وصورة حكومة فاسدة ، لا تعرف من الحكم إلا أنه سبيل للكسب والثراء ، ومطية للإذلال والإرهاق . وفوضى ضاربة أطنابها ، لا تعرف معها حدود ، ولا حقوق ، ولا يستقر لها أمر أو حكم .

وهذه الصورة صحيحة ، ولكنها ناقصة : صحيحة ، لأن الظلم

يورث الأمم الغضب، ولأن الثورات لها أسبابها من ظلم الحاكم وفوضى الحكم؛ وناقصة لأن الظلم وحده لا يدفع الناس إلى الثورة. فكثيراً ما يطول عهد الظلم بشعب يتعاقب عليه طغاة قساة، لا يرحمون، ولا يتحرجون، يقترفون الآثام جهرة، ويجترحون الأخطاء، في استخفاف وهزء، والشعب ساكت صابر، ثم لا يلبث هذا الشعب المستنيم الخانع، أن تتولاه نوبة من الغضب الجائح، لا ينفع في دفعها نار أو حديد، ولا وعد أو وعيد. فما الذى يغير الشعوب من الخنوع إلى الثورة؟

إن الله هو الذى يغير الشعوب، فيخرج من صفوف أبنائها أناساً، يحركون فيها عناصر القوة، ويجمعون ما تفرق من غضبها، ويوحدون ما توزع من أفرادها، ولا يزالون بها، يرسمون لها طريق النجاة، ويحرضونها على سلوك سبيل الكفاح، حتى تثوب إلى نفسها، وتؤمن بحقها. ولا نظن أن هؤلاء الهداة والمرشدين، ينجحون منذ الوهلة الأولى، في سياسة إيقاظ الهمم الخامدة، أو تحريك العزائم الجامدة، بل إنهم يلقون من الناس عزوفاً وصداً. لأن المظلومين يفقدون ثقتهم بأنفسهم، حتى يهابوا كل مجازفة، ويشفقوا من كل محاولة. ويتوهموا أن في الحركة البوار والهلاك، وفي الجهاد، الموت المحتوم، أو الخسران المبين، وهم في خوفهم، يكرهون من يدعوهم إلى دفع الظلم، أكثر مما

يكرهون من يركبهم بالظلم نفسه ، ولكن الهداة والمرشدين لا ييئسون ، وإذا اختطفهم الموت ، بقيت تعاليمهم ، مدوية فى قلوب التلاميذ ، محركة لهمم الأتباع ، محرضة على القتال . وهكذا حتى يستيقظ فى الأمة أملها ، وتستبين طريقها ، وتتحرك فيها عناصر قوتها ، وتتهيأ لثورتها . فإذا نظرت إلى أمة من الأمم اجتمع لها ذلك الحظ ، قبيل ثورتها ، راعك أن ترى مظاهر الانحلال والضعف وآثار الظلم والذل ، تجاورها آيات القوة والفتوة ، ودلائل العزة والمجد . ترى الظلم ، وقد طاش صوابه ، يضرب يميناً ويساراً حتى تحسب أن الناس قد باتوا أعجز من أن يردوه ، وترى الأحرار ، يجهرون بالدعوة إلى المقاومة ، حتى تحسب أن الظلم قد أسلم آخر أنفاسه .

ولا أريدك أن تأخذ الثورة الفرنسية ولا الثورة الروسية ، ولا إحدى ثورات التاريخ القديم مثلاً ، إنما أريدك أن تأخذ ثورتنا الحديثة المثل على ما أقول . فنحن كلنا نعلم أن الثورة الفرنسية ، بذر بذورها الكتاب والمفكرون والأنسكلوبيدون ، أمثال روسو وفولتير ومونتسكيو وديدرو ، وأن إلى جانب سفه الملكية وطغيانها كان مئات وألوف من الفرنسيين يتحدثون عن الثورة وينتظرونها ، لا يحفلون بالسجن والاعتقال ولا يخافون ، كذلك كان الحال فى مصر ، فقد فتحت المعتقلات وصدرت التشريعات التى تجعل

من الملك والأسرة المالكة قدساً من الأقداس ، ومع ذلك فقد كان حديث الثورة يدور على الألسن ، وكأن كل إنسان كان يعلم أنها آتية لا ريب فيها ، ولكنه لا يدرى موعدها .

فليس صحيحاً إذن أن الأمم قبل الثورات تبلغ غاية الضعف ، بل الصحيح أنها تضع فى هذه الآونة قدمها على أول درج من درجات القوة ، فإذا جاءت الثورة ، صعدت باقى الدرجات تباعاً ، وكأن الثورة قد نفخت فيها روحاً من العزة ، وفتحت أمامها باباً مفضياً إلى المجد .

لنعد إلى مصر فنقول : إن أكثر الناس يتصورون أن مصر كانت — قبيل مجىء الحملة الفرنسية فى سنة ١٧٩٨ — قد استحالت إلى بلد قفر ، هلك فيه الحرث والنسل ، وانطفأت نور مدارسه ومعاهده وأغلقت أبواب معامله ومصانعه . وهذا حق ، ولكنه أيضاً حق ناقص . فالمماليك أتلفوا الزراعة والصناعة ، ونشروا الجهل والخرافات ، ولكنهم أهلكوا أنفسهم قبل ذلك فى صراعهم الصبيانى الذى كانت الحرب فيه لعبتهم المحببة ، فاستيقظ الفلاح ، لأنه أحس أن سيادة هؤلاء الحكام زائفة ، لأنها لا تمثل نبلا ، ولا شرفاً ، فأدرك أن الأمر سيئول إليه ، إن آجلاً أو عاجلاً ، وأن هذا البلد بلده ، فلما جاء نابليون إلى مصر ، بأسلحته الجديدة ، فر المماليك من وجهه ، وتركوا الفلاح

وحده ، فاغتبط لأن العبء سقط على كتفيه دون غيره، وأن الأيام أثبتت أنه أشرف من هؤلاء الذين كانوا يسومونه الخسف ويسلبونه القوت ويدلون عليه بأن صناعتهم الحرب، وصناعته هو الرى والحرث. فارتفع الفلاح إلى المستوى العالى الذى وصلت إليه الحوادث .

ومن يقرأ أحداث ثورة أكتوبر سنة ١٧٩٨ التى نظمها الشعب المصرى ضد الحملة الفرنسية، وكيف أدارها زعماء ذلك الشعب الذين لم تكن لهم سابقة فى الجهاد، ولا دراية بتنظيم الثورات ، يستقر فى يقينه أن ذلك لم يكن أبداً ثمرة تطور مفاجئ ، وأن الحوادث الكثيرة التى سبقته هى التى أدت إلى انبثاق هذه الروح الاستقلالية، التى حاول نابليون أن يداورها، فلم ينجح، فحاول أن يواجهها فلم ينجح، فنفض يده من هذه المحاولة الخاسرة على وجهيها، وفر إلى بلاده ، تاركاً كليبر، ليلقى فى مصر مصيره على يد سليمان الحلبى ، ومينو، ليبلغ فى منافقة المصريين إلى حد إدعاء الإسلام، والتزوج من مصرية مسلمة .

ولقد واصلت هذه الروح نموها ، حتى وضعت محمد على على رأس مصر ، كزعيم مختار . ثم كانت هذه النهضة التى يجب أن لا نخجل من تلاوة صحائفها : نهضة الصناعة والزراعة ،

وثبة الجيش ، وانطلاقه فى الشمال والجنوب ، مظفراً منتصراً .
إذ لم يكن فى وسع محمد على ، أن يصنع ما صنع ، ولم يكن
خبراؤه الأجانب الذين أرادوا أن يتخذوا من محمد على أداة
لضرب العالم الإسلامى بعضه ببعض ، قادرين على أن يصنعوا هذه
الفتوح ، وإنما الذى صنع هذا كله الشعب الذى كان يثور
على المماليك إبراهيم ومراد ، والذى ثار على الفرنسيين فى المرة
بعد المرة . وكانت مصر قد امتلأت ، واتسعت طاقتها ، وأصبح
من المحتوم أن تؤدى دورها .

٢

أخى المواطن :

إذا أردت أن تجعل من ابنك عاملاً صغيراً ، فأنت تلحقه بأحد «الأسطوات» ليدربه فى بضعة أيام أو بضعة أسابيع على العمل ، أما إذا أردت أن تجعل منه «أسطى» فأنت تبعث به إلى مدرسة صناعية ابتدائية يدرس فيها بضع سنوات لا تزيد على أربع ، أما إذا أردت أن تزوده بثقافة صناعية فلابد أن يتلقى العلم والتدريس فى مدرسة متوسطة سنوات أربعاً ، بعد أن يدرس دراسة ابتدائية ، سنوات أربعاً أخرى ، أما إذا أردت أن تخلق منه مهندساً فلا بد من دراسة طويلة ، يبلغ مداها أربعة عشر عاماً على الأقل ، أما إذا تمنيت أن يكون من أصلابك عالم فى الهندسة ، فالدراسة تطول ، بطول العمر .

وقد يتبادر إلى ذهنك أننى سأحدثك حديثاً فى الصناعة .

ولكنى أردت بهذه المقدمة الطويلة ، أن أشرح لك أن على قدر خطر الدور الذى يلعبه الإنسان فى الحياة ، يطول أو يقصر إعداده وتدريبه وتعليمه وتلقينه .

فالدور الصغير لا يتقاضى من الإنسان إلا جهداً صغيراً ، والعمل الكبير يتقاضى منه جهداً كبيراً . والأمم كالأفراد ، لا تستطيع أن تلعب دوراً هامًّا، بين الأمم والشعوب، إلا إذا طال إعدادها ، فمرت عليها تجارب وتعاقبت محن: إلا إذا حاولت وأخفقت ، وحاولت ونجحت، ثم تقلص النجاح من بين يديها ، وأفلت كما يتسرب الماء من أصابع الكف المقبوضة.

ومصر ، بلادنا العزيزة ، أغرب الأمم، لأنها تقفز من الحضيض إلى القمه ، وتنحدر من القمة إلى الحضيض ، بلا تدرج ، فتاريخها مفاخر ومآسٍ ، وكأن هذا التاريخ لا يعرف إلا العدو والقفز ، أو الهزل والكسل .

ذلك لأن مصر كالحسناء ، إما أن تكون عفيفة مصونة العرض ، قوية بمالها وجاهها وأهلها ، فترد عنها طمع الطامعين ؛ وإما أن تكون ضعيفة فقيرة، فتصبح نهباً مستباحاً لكل ذى شهوة .

ولذلك لا بد — لكى تنتقل من الحضيض الذى أوصلها إليه أسلوب حكم العثمانيين الذى بدأ سنة ١٥١٧ ، وأسلوب حكم المماليك فى القرن الثامن عشر — أن يطول إعدادها وتدريبها ، وأن يستيقظ شعبها على دوى هائل من الأحداث ، وأن يجرب ساعديه فى الضرب ، وساقيه فى الركل ، وأظفاره فى الوخز ،

حتى يتوافر له سيف يقطع ، ورمح يطعن .

ولقد بدأت هذه التجارب فى الحملة الفرنسية ، التى جاءت إلى مصر ، وعلى رأسها نابليون بونابرت ، القائد الشاب الذى كان يمثل عصرين فى وقت واحد ، كان يمثل الثورة الفرنسية ذات الشعار المثلث ، وكان يمثل نهاية الثورة الفرنسية ، وبداية عهد من الحكم الفتى ، تلهبه أحلام الحرية ، ويقيده ويكبله طموح إلى المجد الإمبراطورى .

انظر فقط إلى المنشور الذى وجهه نابليون أو بونابرته — كما كان يسميه الشيخ عبد الرحمن الجبرتى رحمه الله — :

« من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون فى الإقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شىء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم »

ثم يقول بونابرته : « قولوا للمماليك إن جميع الناس متساوون عند الله وإن الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم . . . فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم » .

فالغاصب المعتدى، يشعر أنه لا بد من أن يعلى هو دعوى المعتدى عليهم . فهو يحدثهم أن بلادهم أحسن بلاد العالم، وأنه لا نظير لها ولا ند . وهو يقول لأهل الوطن المعتدين : إن أرض هذا الوطن ملكهم. وليس ثمة شيء أخلد من الكلام وأبقى منه . لقد دالت دول ، وثلت عروش ، وتقوضت صروح ، واختفت قلاع وحصون ، وبقى شعر الشعراء ، وحكم الحكماء ، وخطب الخطباء ، وبقى القرآن الكريم ، وبقيت الأناجيل والمزامير ، تطالعها البشرية وتتزود منها ، وتتأثر بها . ولذلك لم يكن معقولا ، أن تذهب كلمات بونابرته ، هذا الفاتح الغازى ، الذى رأى أن جيوشه وجحافله وجنوده وبنوده ، لا تجديه فى تحقيق الغرض الذى قصد إليه ، فاضطر اضطراراً أن يقول للشعب المصرى : إنه صاحب الأرض التى يقيم عليها ،وإن بلاده خير بلاد الدنيا قاطبة . ولقد كان هذا الكلام ، كالبذرة فى الأرض الخصبة ، ذلك لأن المصريين فهموه على معناه الصحيح ، فانتووا أن يذودوا عن حوضهم؛ وفى هذا يقول عبد الرحمن الجبرتى :

« نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس وكرروا المناوأة بذلك كل يوم فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبر بولاق فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياماً ، أو يجلسون فى

مكان خرب أو مسجد ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التى جمعوها .

«إن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما فى قوتهم وطاقتهم» .

إلى أن قال :

« وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم فلم يشح فى ذلك الوقت أحد بشىء يملكه ، تهيأ الشعب إذن للنضال ، بلا قيادة ، وبلا سلاح ، لأنهم كانوا يجمعونه ، على قلته » .

ويقول الجبرتى أيضاً فى هذا الصدد :

« وغلا سعر البارود والرصاص بحيث بيع الرطل البارود بستين نصفاً والرصاص بتسعين وغلا جنس أنواع السلاح وقل وجوده وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصى والمساوق » .

فعل الشعب ذلك فماذا فعل القادة والأغنياء ؟ ماذا فعل الأمراء والمماليك ؟ يقول الجبرتى : «وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكابرهم وبعض المشايخ القادرين ، فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم » .

كانت هذه تجربة من تجارب الشعب ، أهلته لهذا الدور الذى لا بد أن تلعبه مصر ، فى العالم ، والذى لم تكن لترتفع إليه ، وتصلح له ، إلا فى وقت طويل ، لأن مصر لا تصلح لأن تكون بين الأمم صبى صانع ، ولا «أسطى» فى ورشة ، بل لا بد

أن تكون أستاذاً كبيراً موجهاً ، أو لا تكون شيئاً مطلقاً .

وقد اعترت هذه التجربة عثرتها ، بعد هذا الكفاح الفاشل فى بداية الحملة الفرنسية ، فإن زعماء الشعب الذين ملأوا الفراغ الذى كان المماليك يشغلونه ، ابتدأوا يحسون بتبعاتهم ، ويدركون واجباتهم . ويروى الجبرتى :

« طلب صارى عسكرى بونابرته المشايخ فلما استقروا عنده نهض بونابرته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلى فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى به إلى الأرض وامتعض وتغير مزاجه وامتقع لونه واحتد طبعه فقال الترجمان يا مشايخ أنتم صرتم أحباباً لصارى عسكر أى (القائد العام) وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة فى قلوبهم فقالوا له لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا » .

فالقائد الفاتح كان يود أن يستدرج زعماء الشعب ، إلى ما يريده ، بالملاطفة ، والتودد ، وزعماء الشعب كانوا يقبلون المجاملة ولكن لم يكونوا مستعدين أن يداهنوا إلى أبعد من ذلك ، ولو أدى الأمر إلى مجابهة الحاكم الغازى ، وإغضابه ، وكان ذلك أول السطر فى الصفحة الأولى من تاريخ مصر الحديثة .

خى :

كانت الزعامة الشعبية ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، زعامة وليدة ، وكانت تجربتها صغيرة ، ولكنها كانت موجودة ، على أية حال ، وقد دفعت ثمن الزعامة الحقيقية ، وارتفعت إلى مستواها الجدير بها ، وقد كانت حداثتها ، وقلة تجربتها ، سبباً فى أن محمد على سهل عليه خداعها أول الأمر ، ثم التخلف منها نهائياً آخر الأمر. ولكن لم يكن ذلك شعوراً كله ، فإن محمد على الذى صفى الزعامة الشعبية وقضى عليها ، صفى فى الوقت نفسه المماليك ، فلم تعد هناك إلا قوتان : قوة الحكم الأجنبى ممثلة فيه ، وفى عائلته من بعده ، وقوة الشعب . وكان الشعب يقاوم حيناً ويستسلم حيناً ، ولكنه بقى موجوداً يعلن عن نفسه . ويحمل الحاكم على أن يعترف به . وقد أراد محمد على أن ينشئ جيشاً من أولاد المماليك وأن يستغنى بهم عن أولاد مصر فلم يفلح ، وأصبح الجيش مصرياً ، وأصبحت البحرية مصرية ، وإن بقيت قيادتها أجنبية ، ولم ينقض على وفاة محمد على أكثر من عشر سنوات ، حتى أحس الذين جاءوا بعده أنه لابد من أن يفتح الطريق ، فى الجيش ، لأبناء الشعب ، فارتقى فى درجات هذا الطريق ، عدد من أبناء الفلاحين ، كان منهم أحمد عرابى.

أخى المواطن :

سأحدثك عن أحمد عرابى ، ولكنى أرجوك ألا تتوقع منى أن أجلى لك جوانب الثورة العرابية ، أو أن أتحرى معك بواعثها ودواعيها ، فهذا كلام سمعته مراراً ، وقرأته كثيراً ، وهو فى متناولك ، كلما شئت منه مزيداً . إنما أحاول أن أفضى لك بخواطر متناثرة ، توحى بها هذه الثورة ، وهى خواطر تبرز النواحى الروحية ، للثورة العرابية ، وتؤكد صلة تلك الثورة بثورة آبائنا فى عهد المماليك وقبيل تولى محمد على الملك .

قلت لك إن محمد على حاول أن ينشئ جيشاً من أبناء المماليك ، والضباط الأرناءود الذين جاءوا معه . وقلت لك إن هذه المحاولة لم تفلح ، فلم يكن المماليك قوم حرب وقتال ، وكان النظام ثقيلا على أنفسهم . فاضطر محمد على اضطراراً أن ينشئ جيشاً من أبناء الفلاحين. فعل ذلك وهو كاره . كره أن يكون الجيش من أبناء مصر ، لأنه لم يكن يتصور أنهم يليقون بهذا الشرف ، أو أنهم يقوون على احتمال تبعاته ومتاعبه . ولأنه

لم يكن يود أن ينشئ من مصر دولة لأبنائها ، بل كان أقصى ما يتمناه أن ينشئ فى مصر دولة له ولأبنائه . وهكذا أصبح فى مصر جيش مصرى ، فكتب لنفسه صفحة تزاحمت فيها المفاخر أكثر مما تزاحمت فى صفحة أى جيش آخر . فلقد حارب المصريون فى كل جو وفى كل ظرف . حاربوا فى الصحاري ،وفى الجليد ، وعلى ضفاف الأنهار ، وعلى شواطئ البحار ، وفى سفوح الجبال وفوق قممها . حاربوا فى العالم القديم والحديث فى أوربا وآسيا ، وأفريقيا وأمريكا : حاربوا عند خط الاستواء ، وفى الحبشة . وفى المكسيك حيث تتلظى الحرارة . وحاربوا فى صحراء السودان وفى صحراء الحجاز ونجد ، كما قاتلوا فى القرم ، وفى نزيب ، حيث تتجمد الأطراف ويأكل البرد لحم البشر . وقاتلوا تحت أسوار عكا بالشام ، وفى مياه نفارين باليونان .

ولكن لم يكن دور الفلاح ، ابن مصر ، فى هذا الجيش ليزيد عن دور الجندي التابع ، فقد خاف محمد على أن يصل المصرى إلى مركز القيادة ، أو ما يدانيها ، لأنه لو اقترب من تلك المكانة ، فقد كملت شخصيته واستيقظت فى نفسه رواسب القيادة والزعامة التى ورثها عن أجداده وأجداد الإنسانية وانتفض عملاقاً لا ترد له كلمة ، وأحاطته صنوف المجد ،

بهالاتها الكبرى ، وشرّق الجيش المصرى، وغرّب ، وغزى وفتح ، وأعان حيث تعز المعونة ، وأبلى حيث فر المقاتلون المحترفون ، ولكن التاريخ لم يجُد على الفلاح الذى تكون منه هذا الجيش ، وتغذى منه لحمه ودمه ، بحرف واحد ، وإنى لأسائل المؤرخين المحققين ، منصفيهم وظالميهم ، أن يذكروا لنا اسم مصرى واحد فى هذه المعارك الكبرى التى خاضها المصريون وحدهم .

وقد بقى الحال على هذا المنوال ، فى عهد إبراهيم وعباس ، ثم فى عهد سعيد ، الذى لقى من أسرته عنتاً ، وكانت تركيا ، تضيق عليه الخناق ، فلم يجد من يحميه ، إلا هذا الفلاح المصرى المهجور المفترى عليه . والإنصاف يقتضينى أن أعلن أن سعيداً فعل للفلاح المصرى أكثر مما فعل كل ولاة مصر ، بل أكثر مما فعل فيما بعد بعض رؤساء حكوماتها من الفلاحين . لقد فتح باب الترقى لأبناء الفلاحين فى الجيش ، وسوى فى الخدمة العسكرية بين أبناء الفقراء وبين أبناء العمد والمشايخ الذين كانوا يدلون على الناس بأنهم أكبر من أن يؤدوا فريضة الخدمة العسكرية . أو قل أصغر من أن ينالوا شرفها .

ولقد تحقق كل ما خمنه ، وتوجس منه محمد على ، فما كاد باب الترقى للفلاحين يفتح ، حتى دخل منه إلى المجد : أحمد عرابى ، ومعه جماعة من أبناء الفلاحين أمثال : عبد العال حلمى ،

وعلى فهمى ، والروبى ، ومحمود فهمى .

فوصول أحمد عرابى إلى رتبة القائمقام فى الجيش ، كان فى الواقع وصولا للشعب المصرى إلى هذه الرتبة ، فقد كان الشعب المصرى كله ، فى مجال الحوادث الدولية ، وفى مجال السياسة الداخلية ، « نفرا » يتحرك ولا يحرك، يسمع ويرى ، ويحس ويتألم ، ولكن لا يتكلم، ولكنه مع مر الأيام أخذ يفرض نفسه على الحوادث ، وعلى الناس ، وعلى الحكام ، فارتقى حتى كان فى رتبة الباشجاويش فى عهد سعيد، ومن ثم بدا يصعد سلم الترقى فى كادر الضباط .

وصل عرابى إلى رتبة القائمقام ، وكأن الشعب المصرى كله قد وصل إلى هذه الرتبة ، فقد أخذ الاستعمار والصهيونية العالمية تصفع الخديو إسماعيل صفعات ، لا تأديباً له ، فقد كان الخديو إسماعيل ، أحسن ما جاد به الزمن ، على هذه العصبة المتآمرة على مصر وعلى العرب وعلى المسلمين . وكان لا بد لإسماعيل من سند، فكان السند هو الشعب .

فعرابى فى الجيش كان فى الواقع رمزاً للفلاح فى الدولة. وسواء أكان عرابى قد اتجه إلى تزعم الثورة وقيادتها، أم لم يتجه ، فقد كان هو وإخوانه، عنوان طبقة من طبقات الأمة المصرية . وقد كان من المحتم أن يحس عرابى وإخوانه، أنهم غرباء فى الجيش

وأنهم وصلوا إلى هذه المكانة على الرغم من إرادة أصحاب الأمر والنهى. ولما توالت الإهانات عليهم تحرك فيهم شعور بحق الجماعة التى يمثلونها . وفى هذا يقول أحد الكتاب الإنجليز الذين شهدوا حوادث الثورة العرابية من مقدماتها :

« وكان ممن تزعموا التذمر ضد حركة التفريق الطبقى، فى الجيش، أحمد بك عرابى، الذى كان قد بلغ مرتبة القائمقام ، وهى مرتبة لم يكن من المألوف أن يتولاها فلاح . مما أكسبه نفوذاً وتأثيراً غير عاديين على مواطنيه من الناطقين بالعربية، وكان الدفاع عن حقوق الفلاح هو الميزة التى تفرد بها عرابى بين دعاة الإصلاح فى أيامه ، إذ كانت حركة الأزهر حركة عالمية دون تمييز بين العناصر... أما حركة عرابى فكانت حركة عنصرية من أصلها ، ومن ثم فهى أكثر اصطباغاً بالصبغة القومية .

« والواقع أن عرابى كان يمثل الفلاح المصرى أتم تمثيل، وكان هذا النوع من الرجال موضع إهمال تام لدى الباشوات من أتراك وشراكسة .

« إذ ظلوا أجيالاً يسترقونه ، ويسخرونه، فلم يكونوا ينظرون إليه كأكثر من أداة يستعملونها لمصلحتهم . وكان رياض (يقصد رياض باشا رئيس الوزراء فى ذلك العهد) من البداية حتى النهاية يزدرى عرابى . بل إن دعاة الإصلاح فى الأزهر لم

يكونوا يقيمون له كبير وزن كقوة سياسية؛ أما أبناء طبقته من الفلاحين ، فقد رأوا فيه واحداً منهم تضخمت فيه صفتهم. وجدير بنا أن نتذكر أن التاريخ المصرى ظل زهاء ثلاثمائة سنة على الأقل لم يشهد فلاحاً قحاً يرقى إلى مركز ذى أهمية سياسية تذكر ، أو يتألق كمصلح ، أو يجسر على أن يهمس بأية كلمة عن احتمال القيام بثورة . » فالثورة العرابية ليست ثورة دستورية كما كنا نحاول أحياناً أن نسميها ، أو ثورة ضباط يطلبون إنصافهم فى الترقيات والعلاوات فى درجة الأعمال التى توكل إليهم ، وليست هى حركة تحرير وطنى ، ولكنها شىء أعمق من ذلك ، هى حركة أهل الوطن الأصلاء ، هى حركة المصرى الذى عاش حياته أشبه شىء بالحيوان ، وأحياناً أقل درجة منه . هى حركة الفلاح الذى كان أقرب ما يكون إلى المحراث والساقية والشادوف والنورج يعمل كثيراً أو قليلاً ، يعمل بأمانة ، أو فى جو ملؤه الخوف والخديعة والرغبة فى الانتقام ، ولكنه على أية حال لا يعبر عن نفسه ، ولذلك كان فنه شكوى ، سواء أكان هذا الفن غناء أم موسيقى ، أم أدباً يجرى على الألسن كشعر أو موال أو زجل .

وقد كان الحكام الذين وضعوا الفلاح فى هذا الموضع ، غاية فى الذكاء وآية فى بعد النظر. لأنه على هوان مظهره ، وسوء شكله ، وضعف صحته وقلة حيلته ، مخزن هائل ملىء بالمتفجرات

والمدمرات . حسبه عود ثقاب واحد لينفجر ، وهو حين ينفجر يصل إلى آخر الشوط فى خطوة . ولا أعنى هنا بالانفجار الثورة ،و إنما العمل ، سواء أكان عملاً حربياً أم سلمياً ، فالمصرى الذى كان يفر من الجيش هو المصرى الذى هزم جيش تركيا ، أقوى جيش فى أوربا ، فى ذلك الحين . والمصرى الذى لا يطيق أن يسير بمركب فى البحر بضع ساعات ، هو المصرى الذى صنع أسطولاً ، جعل الإنجليز والفرنسيين يجتمعون عليه بأساطيلهم ، فى نفارين ، لأن أسطولاً واحداً لا يكفى لمنازلته .

وإذا أردت دليلاً على أن المصرى يثب من الحضيض إلى القمة دفعة واحدة ، فانظر ماذا فعلت فيه حرب الحبشة التى أعلنها الخديو إسماعيل فى أخريات أيام حكمه . فلقد احتمل المصرى الكثير ، احتمل السخرة . واحتمل نظام الإلزام الذى كان يسرق من الفلاح ماشيته ورزقه ومحاصيله . ولكنه حينما فكت قيوده ، لم يعد يطيق عشر معشار ما كان يألفه ، ويقول بلنت فى هذا أيضاً :

«وكان تدخل الجيش فى شتاء ١٨٨٠ — ١٨٨١ كقوة سياسية فى مصر ، من أهم الأمور . . ويرجع ظهور الجيش كعامل من عوامل التذمر ، إلى الحملة المصرية على الحبشة ، إذ أنها هدمت مكانة الخديو . . كما أن المتاعب المالية أدت إلى تخفيض

مرتبات الجنود وعدم انتظام دفعها . . ولم يعد الجنود الذين قدر لهم أن يعودوا من الحملة ، يحترمون قادتهم بعد أن ظهر عدم جدارتهم . . كما قرب التذمر من القادة بين الجنود وبين ضباط الصف ، لا سيما أن المناصب الرفيعة كانت وقفاً على الشراكسة الذين لا يجيدون غير اللغة التركية ، فى حين أن مراكز الجنود وصغار الضباط كانت مخصصة لأبناء الفلاحين ممن لا يتكلمون سوى العربية . . وزاد من الشعور بالفوارق أن تأخر المرتبات كان مقصوراً على هؤلاء الأخيرين دون الشراكسة . »

فواعجباً . . . المصريون لا يطيقون تأخر صرف مرتباتهم . . وقد احتملوا فى الماضى أكثر من ذلك أضعافاً مضاعفة . . بل إن عرابى اصطدم بوزير الحربية أول ما اصطدم ، لأن عرابى رفض أن يعمل جنود لوائه فى حفر ترعة التوفيقية . . .

ألم أقل إن حركة عرابى ، كانت حركة الجيش المصرى ، وإنها لم تكن ثورة ولم تكن انقلاباً ، ولم تكن نهضة . . إنما كانت حركة من حركات الطبيعة كانتقال الشموس فى أبراج السماء . . حركة ارتفاع بطيئة ، ولكنها مستمرة ، خفية ، ولكنها فعالة ومؤثرة . . .

٤

أخى المواطن :

لم تكن مصادفة محضة أن تتوالى مقدمات الاحتلال البريطانى وعلى مسرح السياسة العالمية ، جامبتا رئيس وزراء فرنسا ، ودزرائيلى رئيس وزراء إنجلترا ، وروتشيلد صاحب الملايين التى تكسبه نفوذاً لا حد له ، على الدول ورؤساء الدول ، فجامبتا ودزرائيلى وروتشيلد صهيونيون بالمعنى الدقيق لكلمة صهيونى ، فليسوا هم مجرد إسرائيليين ، يدينون بالدين اليهودى بل هم إسرائيليون ، يتوقون إلى أن يعيدوا بناء هيكل سليمان ، وأن يستعيدوا مجد إسرائيل ، على حساب سلام الناس وأمنهم . وهم على عادة الصهيونيين ، يحضرون للمسائل تحضيراً أكبر صفاته الأناة والصبر ، والتربص للفرص ، حتى إذا لاحت انقضوا عليها انقضاض الباشق ، من علٍ ، فينشب فيها أظفاره فلا يدعها ، حتى يلتهمها .

فدزرائيلى حينما اضطر الخديو إسماعيل لسفهه وسوء سياسته المالية ، إلى بيع ١٧٦,٦٠٢ من أسهم قناة السويس التى كانت

تملكها مصر ، أسرع إلى تدبير المال ، لإنفاذ هذه الصفقة ، ولم يجد من يبادر إلى مده بالمال المطلوب إلا روتشيلد ، وأنت لا شك تحس حينما تقرأ قصة شراء هذه الأسهم الباقية فى ملك مصر حتى سنة ١٨٧٥ ، أنها لم تكن إلا مؤامرة يدبرها دزرائيلى مع روتشيلد ، وهدفهما أن يحتلا مصر . فقد تم شراء الصفقة ودفع الثمن إلى الخديو إسماعيل ، فى غيبة البرلمان البريطانى ، وبغير علمه، أو موافقته . وقد أحيطت الصفقة فى كل مراحلها بالكتمان والسرية ، لأنها لم تكن صفقة مالية ، بقدر ما كانت مؤامرة سياسية .

وعلى الرغم من أن حديثنا يدور حول الثورة العرابية ، إلا أننا لا نستطيع أن نمر على صفقة شراء أسهم الحكومة المصرية فى قناة السويس ، مرور العابرين ، لأن النظر فى هذه الصفقة يؤكد لك أن الاحتلال البريطانى ، كان عملاً صهيونياً صرفاً ، تحالفت فيه الصهيونية مع الاستعمار ، إن كانت الصهيونية والاستعمار شيئين منفصلين .

وإليك إجمال القصة . . علم مالى فرنسى اسمه إدوار درفيو ، إن الخديو إسماعيل فى ارتباك مالى شديد ، فأرسل إلى أخ له فى الإسكندرية يدعى أندريه ليعرض على الخديو إسماعيل أن يبيع أسهم مصر فى القناة مقابل ٩٢ مليوناً من الفرنكات ، ولكن

ضخامة هذا المبلغ كانت تقتضى تعاون عدد من الماليين الفرنسيين الكبار ليجمعوه ، وتلكأ الماليون الفرنسيون ، وتلكأت السياسة الفرنسية كعادتها بصفة عامة وفى المسائل المصرية بصفة خاصة . وفى هذه الأثناء وصل نبأ هذه الصفقة إلى الإنجليز ، فكلف دزرائيلى الجنرال ستانتون قنصل بريطانيا فى ذلك الحين ، بأن يعرض على الخديو بيع الصفقة ، ووافق الخديو فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٥ على أن يبيعها بمائة مليون فرنك فرنسى أى بما يساوى أربعة ملايين جنيه استرلينى ، وأبرق قنصل بريطانيا بهذا إلى دزرائيلى رئيس الحكومة . .

كان البرلمان فى إجازة ، وكان اليوم التالى يوم أحد ، والبنوك معطلة . وكان لا بد لإبرام الصفقة من صدور قانون . . وفى بريطانيا تقوم التقاليد عموماً ، والتقاليد الدستورية خصوصاً ، كالحراب المسنونة لا يتخطاها ويتجاهلها إلا كل مجازف . إلا أن الصهيونية هى مقامرة أو مغامرة لا تحفل بالقيود التى يحفل بها الذين يسيرون على سنن من الأحلاف والقواعد المرعية . ومن هنا سأل دزرائيلى ابن عشيرته روتشيلد أن يقرض بريطانيا أربعة ملايين من الجنيهات على أن يقبض سمسرة قدرها ٢ ٪ من قيمة الصفقة ، ولم يتردد روتشيلد فى أن يدفع المبلغ مع ما فى دفعه ، من غير موافقة البرلمان ، على الصفقة من مخاطر . وعلم الناس من ذلك

بأمر تلك الصفقة فذعرت السياسة الفرنسية والعالم[١] كله لأنها فهمت أن الأمر فى هذه الصفقة يتجاوز المال، إلى احتلال مصر كلها بعد سبع سنوات من تلك الصفقة . وهذا ما قالته مجلة العالمين الفرنسية بعد شهر من عقد الصفقة ، فقد جاء فى عدد أول ديسمبر سنة ١٨٧٥ ، فى مقال ترجمه السيد الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ما يلى :

« إن هذا العمل سياسى محض ، وهنا وجه الخطر ، فإذا لم يكن فى ذاته احتلالاً لمصر فإنه الخطوة الأولى لهذا الاحتلال » .

هذا ما فعله روتشيلد فى الخطوة الأولى من خطوات الاحتلال فانظر ما فعله فى شأن خطوة أخرى من خطوات الاحتلال ، تلك هى المبادرة بخلع إسماعيل حينما تبينت الصهيونية أن الأمر لن يخرج عن أحد أمرين ، إما أن يتولى الشعب خلع إسماعيل بنفسه ، وهو احتمال على ضعفه فى ذلك الحين ، كان يطير له صواب الاستعمار والصهيونية ، لأنه إيذان بانفجار الشعب المصري وانطلاقه من قيوده ، وإما أن يحتمى الخديو بالشعب ، ويترضاه ، وهذا ما كانت بوادره وتباشيره قد لاحت فى الجو ، فقد كلف إسماعيل ، شريفاً ، بوضع « دستور » وأعلن أنه سيحكم من خلال مجلس الوزراء ، يقاسمه السلطة ، وترك جمال الدين الأفغانى يبذر بذور ثوراته الفكرية التى كانت تهز

الاستعمار من جذوره .

وكانت النتيجة فيما لو ظفر الشعب المصري بحقوقه الدستورية، أسوأ فى رأى الاستعمار والصهيونية مما لو خلع الشعب الخديو ، ولذلك كان لا بد من عمل سريع ، تتجه معه الأحداث إلى وجهة جديدة ، فيتولى الاستعمار خلع الخديو ، ثم يستفيد من اضطراب الأمور الذى يلى ذلك الخلع .

ولعلنا لا نجد صورة من صور تحالف الاستعمار البريطانى مع الصهيونية العالمية ، أكثر وضوحاً مما نراه فى حوادث الاحتلال البريطانى لمصر ومقدماته ، فقد كان فى مصر ، مراقب مالى بريطانى هو السير ريفرز ولسن الذى أصبح فيما بعد وزير المالية وقد اعتدى عليه الضباط المصريون الثائرون ثم طرد بفضل هذه الثورة من الوزارة ، وخرج من مصر مغضباً محنقاً . فانظر ماذا يقول بلنت فى شأنه :

« ولكن الذى لم يذع هو ذلك الدور الذى لعبه آل "روتشيلد" والذى علمته فيما بعد من "ويلسون" — وكان فخوراً بأنه انتقم لنفسه — فى عودته من مصر مخذولا يمم شطر آل "روتشيلد" فى باريس ، وبين لهم الخطر الذى يتهدد أموالهم من وراء الانقلاب الذى لا بد أن يترتب على قلاقل القاهرة والإسكندرية . . وأقنعهم بأن الخديو كان يعتزم أن ينفض يديه

من ديونه ويلغى التزامه بها ، متخذاً لنفسه ستاراً بإعلان الحكومة الدستورية فى مصر . . ومن ثم فإنهم ولا بد خاسرون كل مالهم ما لم يبادروا إلى الحيلولة بين الخديو وبين تنفيذ ذلك » .

« ونجح ويلسون فى إثاره ذعر آل روتشيلد وحملهم على استخدام ما كان لهم من نفوذ سياسى هائل لتحقيق التدخل الفعلى . . فعمدوا أولاً إلى جذب الخيوط التى كانوا يحركون بها حكومتى إنجلترا وفرنسا ، ولكن هذا لم يجدهم فتيلا ، إذ لم تكن الحكومة الإنجليزية على استعداد للتدخل ، ولا سيما أن الاضطرابات كانت قد شبت فى جنوب أفريقيا . . ومن ثم اتجه آل روتشيلد إلى برلين ، وإلى بسمارك بالذات ، الذى كان يبسط حمايته على المؤسسة اليهودية الضخمة . . وبادر بسمارك إلى الإيحاء إلى حكومتى إنجلترا وفرنسا بأن الحكومة الألمانية ستحتضن قضية آل روتيشلد إذا كانتا عاجزتين عن التدخل . . وكان هذا الضغط كافياً لتوجيه ضغط أوربى إلى الباب العالى ، أدى إلى البرقية التى تلقاها إسماعيل بخلعه . . وكان من نصيب لاسيل أن يحمل إليه النبأ » .

وإذا أردت أن ترى صورة أخرى من صور تعاون الاستعمار مع الصهيونية فى تبرير الاحتلال البريطانى فاقرأ ما يقوله بلنت عن موقف جامبتا ، من المذكرة التى أعدتها حكومتا بريطانيا وفرنسا

وأرسلتاها إلى الحكومة المصرية، بعد أن نجحت الثورة العرابية، واجتمع البرلمان المصري ، وباشر سلطاته ، على أحسن ما يرام من التوفيق والاعتدال . وكان ذلك النجاح قذى فى عين الاستعمار ، وفى عين جامبتا رئيس وزراء فرنسا ، وهو صهيونى ثالث كما مر بنا . فكان لابد من مظاهرة بريطانية فرنسية لتهديد حكومة مصر الدستورية التى تستند إلى تأييد من الشعب ، وإلى سند من الجيش ، ويقول « بلنت » :

« فإن غزو تونس جعل شمال أفريقيا بأسره يشتعل ثورة ، فجاء "جامبيتا" وهو عازم على أن يستخدم أشد الإجراءات ، لأنه كان يخشى أن تقوم ثورة إسلامية عامة ، لذلك رأى فى الحركة القومية المصرية مظهراً جديداً للتعصب الإسلامى . . كما أنه — لأصله اليهودى — كان على علاقة بالمصالح المالية العليا المتعلقة بمصر، فعوّل على أن يسعى لفرض التدخل الأجنبى على مصر ، ومن ثم كان راغباً فى أن تشترك معه حكومتنا فى حركة صليبية ضد الإسلام — باسم المدنية — تكون أولى خطواتها تشديد الرقابة الأوروبية المشتركة فى القاهرة »

فأنت أينما أدرت وجهك ، لا تجد إلا هذين التوأمين يسيران معاً ، ويعتمد أحدهما على الآخر ، حتى يثبت فى يقينك أنهما شخص واحد، يبغى هدفاً واحداً ، ويعمل بأسلوب واحد .

والحق أنهما كذلك . فإن فى العالم اتجاهين قديمين : اتجاهاً روحياً يرفع من شأن معنويات الحياة ، واتجاهاً يعلى من مادياتها . وقد بنيت على الاتجاه الأول حضارات ثم بادت ، وورثتها حضارات تجرى فى الاتجاه الثانى . ولكنها تشعر دائماً ، بأن الاتجاه القديم يهددها ، فهى فى أشد الحاجة إلى أن تفعل كل ما فى وسعها لتخنقه . . والصهيونية الاستعمارية هى المادية التى تكره غاية الكره أن يكون فى الشرق روحانية . ولذلك فهى تطارده وتقمعه . وما الاستعمار إلا استغلاله ، وقتل كل ضجة من ضجات الروح فيه . ولكن هذا الصراع القديم المتجدد ، صراع الروح والمادة ، محتوم النتيجة ، معلوم الغاية ، فالغلبة فيه للأقوى ، وليس ثمة شيء أقوى من الروح . . تغلب حيناً ، ولكنها لا تغلب إلى الأبد . . .

٥

أخى المواطن :

لم تكن مصادفة محضة ، أن يكون قبيل الثورة العرابية فى الحكم فى إنجلترا اللورد دزرائيلى ، وأن يكون على رأس الوزارة الفرنسية فى نفس الوقت جامبتا ، وكلاهما إسرائيلى ، وأن تكون خيوط السياسة العالمية فى يد المالى الإسرائيلى روتشيلد ، واجتماع الثلاثة على حلبة السياسة ، كان يؤدى حتما إلى التدخل العسكرى المسلح فى مصر ،الذى مهد للاحتلال البريطانى الذى دام اثنين وسبعين عاماً ،وقلت إن دزرائيلى وجامبتا وروتشيلد، من المؤمنين بالصهيونية العالمية فليسوا هم مجرد إسرائيليين .

وقد بينا ، كيف كان التعاون وثيقاً بين عمل هؤلاء الثلاثة ، وأحب أن أبين لك كيف كان تدخل جامبتا ، فى الشئون الداخلية المصرية البحتة ، تدخلا درست مقدماته ونتائجه ، قبل الإقدام عليه . وأن هدفه الواضح المباشر ألا تقوم فى مصر ، حكومة وطنية ، تستند إلى الشعب ، لأن قيام حكومة من هذا الطراز يهدد ، الاستعمار الغربى كله الذى يسنده روتشيلد وأمثاله

ممن يعتـــبرون الأمم مجرد أسواق ، وأن حقوق الشعوب لا تزيد عن أن تكون سلعة ، توزن لا بقيمتها فى ذاتها ، إنما بقدر ما تزيد أو تنقص ، فى قيمة الأسهم والأوراق المالية .

وقد قامت فى مصر سنة ١٨٨١ حكومة وطنية يرأسها شريف ويسندها الجيش بزعامة أحمد عرابى ، وكانت الحكومة قد دعت مجلس النواب للانعقاد ، بعد انتخابات جرت فى جو من المودة والوئام القومى ، فانعقدت جلسته الأولى فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ ، فعد المصريون انعقاده عيداً قومياً ، لأن الحكومة والجيش والشعب ، بدأوا فى ذلك اليوم كتلة واحدة ، لا يفرقها مفرق ، وتقدم شريف باللائحة الأساسية ، أى الدستور ، وشرع النواب يدرسونها . . كان كل شىء يبشر بأن الاستقرار قد عاد إلى البلاد ، وأن عهداً من الإنتاج ، والعمل المثمر ، سيشرق فجره ، ولكن الماليين الأوروبيين كان صوابهم يكاد يطير ، كلما شعروا بأن الفوضى بدأت تنحسر موجتها ، وأن إرادة الشعب أخذت ترتفع رايتها ، فأسرع الماليون إلى جامبتا ، فإذا هم يجدون عنده ، مثل ما عندهم من الهم والخوف ، فيتفقان على أنه لا بد من قذيفة تنطلق فى وسط هذا الجو الهادئ الصحو ، وانتهت مداولاتهم ومشاوراتهم ، إلى وجوب إرسال مذكرة إلى الخديو ، تفيض تهديداً للحركة الوطنية ، وتحرك

بواعث التفرقة بين الخديو والشعب ، بتأكيد حماية الأجانب للخديو ، ولاستبقاء سلطته فى يديه .

ويقول مستر بلنت فى صدد هذه المذكرة التى أرسلت فعلا فى الثامن من يناير سنة ١٨٨٢ :

« والواقع أن المذكرة كتبت فى كيه دورساى (أى وزارة الخارجية الفرنسية ، ولخدمة المطامع الفرنسية . . . فقد كان جامبتا فى ذعر من أن يتحد العالم الإسلامى أمام الثورة التى قامت فى تونس والجزائر ضد فرنسا ، وكان هو على ارتباط بالدوائر المالية العليا ، روتشيلد وكبار الماليين » .

ويقول مستر بلنت فى موضع آخر :

« إن غزو تونس جعل شمال أفريقيا بأسره يشتعل ثورة ، فجاء جامبتا وهو عازم على أن يستخدم أشد الإجراءات لأنه كان يخشى أن تقوم ثورة إسلامية عامة ، لذلك رأى فى الحركة القومية المصرية ، مظهراً جديداً للتعصب الإسلامى كما أنه لأصله اليهودى كان على صلات بالمصالح المالية العليا المتعلقة بمصر ، فعوّل على أن يسعى لعرض التدخل الأجنبى فى مصر ، ومن ثم كان راغباً فى أن تشترك معه حكومة بريطانيا فى حركة صليبية ضد الإسلام ، باسم المدنية » .

وهذه السطور وحدها كفيلة بأن تريك عناصر المؤامرة دائماً

وأسلوبها وهدفها ، فالاستعمار يرى نفسه وحدة ، ويرى الوطنية وحدة كذلك ، ففرنسا حينما تجد حركة وطنية فى مصر ، تفهم بالغريزة ، أن نجاح هذه الحركة معناه تأييد للحركة الوطنية فى تونس ومراكش ، فلا تقنع بأن تضرب الحركة فى تونس ومراكش ، وإنما تعمل على أن تضرب الحركة الوطنية خارجهما ، ولا تقنع بأن تقوم هى بهذا العمل وحدها فتسعى إلى أن تضم معها وإليها إنجلترا ، ومن خلف هذا المسعى كله ، ترى دائما الماليين ، والماليون الذين هم من طراز روتشيلد بصفة خاصة ، وتلقّى اللورد جرانفيل ، وزير خارجية بريطانية ، اقتراح المسيو جامبتا ، بالترحيب والتأييد ، وأرسلت المذكرة إلى الخديو توفيق وإلى رئيس الوزراء شريف باشا فى الثامن من يناير سنة ١٨٨٢ كما قلت لك ، وقد جاء فيها ، ما يستحق أن يتلى ، فقد جاء فيها مثلا :

« إن الحكومتين الفرنسية والبريطانية على تمام الاتفاق فى هذا الصدد ، وإن الحوادث الأخيرة ، وبخاصة الأمر الصادر من الخديو باجتماع مجلس النواب ، قد هيأت الفرصة لتبادل إنجلترا وفرنسا مرة أخرى الآراء فى هذا الشأن ، فأرجو أن تبلغوا توفيق باشا بأن الحكومتين الفرنسية والإنجليزية تعتبران أن تثبيت الخديو على العرش طبقاً لأحكام الفرمانات التى قبلتها

الدولتان رسمياً هو الضمان الوحيد فى الحال والاستقبال لاستتاب النظام ولتقدم سعادة مصر ورفاهيتها التى تهم فرنسا وإنجلترا » .

إن الاستعمار يعرف بالضبط خلف من يحتمى ، ولم يكن ثمة أفضل من الخديو فى ذلك الوقت ، ليقف الاستعمار خلفه، وليقذف بسهامه عن قوسه .

هذا بعض ما فعله جامبتا فى سبيل وأد الحركة الوطنية المصرية ،وتشتيت صفوفها ، وفى الحديث الماضى ذكرنا ما فعله دزرائيلى ، بشرائه أسهم حكومة مصر فى قناة السويس البالغ عددها ١٧٦ ألف سهم و ٦٠٢ من الأسهم بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات ، وكيف أنه بمساعدة روتشيلد المالى الصهيونى قد دبرا ثمن هذه الصفقة فى غيبة البرلمان البريطانى وبغير موافقته .

وأحب أن أروى لك ، كيف نقلت هذه الأسهم الغالية من مصر إلى بريطانيا ، فإن ذلك يريك كيف يجمع الاستعمار عناصر حملته على بلد ينتوى الوثوب عليه .

بدأت الحكومة البريطانية باشتراط عدم دفع الثمن إلى مصر إلا بعد تسلمهم الأسهم نفسها ، فأمر الخديو إسماعيل ، الذى باع هذه الأسهم ، بتسليم القنصلية البريطانية هذه الأسهم جميعاً مودعة فى سبعة صناديق ، وتم التسليم فى القنصلية بعد أن

بصمها إسماعيل باشا المفتش وزير المالية بخاتمه ثم بصمت بخاتم القنصلية البريطانية ومحكمة القنصلية ، وكانت الحكومة البريطانية فى لهفة على وصول هذه الأسهم إلى لندن ، فأمرت الأميرالية البحرية البريطانية الباخرة (ملابار) القادمة من الهند أن تعرج على الإسكندرية ، فلما وصلت الباخرة إلى قناة السويس ، استقل الجنرال ستانتون قنصل بريطانيا قطاراً خاصاً من القاهرة إلى الإسكندرية ومعه الصناديق السبعة التى احتوت الـ ١٧٦ ألف سهم ، وكانت قد فرغت فى أربعة صناديق كبيرة من الزنك ، وعند وصول الباخرة سلمت هذه الصناديق إلى قومندان الباخرة ، ولما وصلت إلى ميناء بورتسموث تسلمها مندوب كبير من الخزانة البريطانية نفسها . . .

هذا جانب من الثورة العرابية لا يجب أن نغفله . يجب ألا ننسى دائماً أن السياسة فى خدمة الاقتصاد ، هو السيد الآمر ، وليست سوى الخادم المطيع ، الذى وهبه الله أو الشيطان قدرة على التشكل والتلون ، والانحناء والالتواء ، لم توهب لسواه . فالاقتصاد حينما يحتاج لأمر يوحى للسياسة أن تختار الاسم والثوب اللذين تضفيهما عليه . فهى أحياناً تدافع عن حقوق الشعب ، وهى أحياناً أخرى تدافع عن حقوق الملك ، وهى تارة تدافع عن الفقراء ، وهى أخرى تدافع عن أموال الأغنياء ، وهى فى كل

حين تجد الجرأة والقدرة ، على أن تبدى دفاعها ، كأنه صادر فعلا من أعماق القلب ، ذلك لأنه صادر من أعماق الجيب ، وفى كثير من الأحيان يلهم الجيب ويوحى ، مثلما يوحى ويلهم القلب .

هناك جانب آخر ، أهمله المؤرخون فى بيان أسباب الثورة العرابية ، أو على الأقل أهملوا بيان شأنه فى تجمع أسباب هذه الثورة ، وجدير بنا ، ونحن نراجع تاريخنا ، لنراجع حاضرنا ونقيمه على أسس سليمة قوية ، أن نراجع هذا الجانب الآخر .

وأعنى به الحملة الحبشية وأثرها فى ضم صفوف الفلاحين إلى الجيش المصرى وفى تثبيت إحساس المصريين بتغليب العناصر الأجنبية عليهم وفى خلع هيبة الخديو إسماعيل ونظامه من أنفسهم .

لقد أنفذ الخديو إسماعيل حملة ، على رأسها الجنرال ستون ، إلى الحبشة . وكان إنفاذ هذه الحملة صورة نموذجية للتفكير الملكى ، فى كل عصر ، فقد أنفذت هذه الحملة ومصر غارقة فى ديونها ، وكان الأجانب يوسعون رقعة نفوذهم المستتر المتوارى باسم هذه الديون .

وقد كانت الهزيمة أمراً متوقعا وقد هزمت فعلاً هذه الحملة ، وتكبدت البلاد خسارة فى المال والأرواح والعتاد فادحة ، وعاد الجيش يحمل معه جراثيم الثورة التى بقيت مع الجنود الفلاحين حتى ٢٣ يوليو

سنة ١٩٥٢ . أقول ذلك ولا أهزل ، فإن الثورات ،أو على الأقل فكرات الثورات ، تتوارث كما يتوارث الناس الصفات والمواهب والخصال .

عاد المصريون ، جنوداً ، وضباطاً ، والسخط يملأ نفوسهم فقد أدت الضائقة المالية إلى تخفيض الأجور والمرتبات ، فلم يعانِ من هذا التخفيض سوى المصريين دون غيرهم من ضباط الجيش وجنوده. هنا قامت الوحدة بين الضباط المصريين والجند المصريين ، وشعروا جميعاً بأنه لا نجاة لهم إلا أن يكونوا شيئاً واحداً .

ولقد كشفت حملة الحبشة لهؤلاء الضباط ، ما كشفته حملة فلسطين فى سنة ١٩٤٨ لأبنائهم من ضعف القيادة ، وضعف النظام كله ، وخلوه من العقيدة التى تسيره فعجل ذلك بقيام الثورة .

فما أشبه الليلة بالبارحة ! وما أكمل التاريخ المصرى الحديث ! فإنه يكمل بعضه بعضاً ... يبدأ الآباء ، ويثنى الأبناء ، والأمل أن يرث الأحفاد وطناً قوياً ، خالياً من شوائب الضعف ، وآفاته قادراً على حمل رسالة القوة ، كأقوى ما يكون أبناء الوطن .

٦

أخى المواطن :

لقد عرفت كيف دبرت الصهيونية التدخل الأجنبى المسلح فى مصر ، وكيف تعاون روتشيلد وجامبتا ودزرائيلى ، وثلاثتهم من الصهيونيين ، على الدفع بالسياسة الإنجليزية الفرنسية ، إلى الوجهة التى تجعل الاحتلال العسكرى لمصر عملاً حتمياً ، لا فرار منه . فلقد جندت الأقلام والصحف ، ووكالات الأنباء لتصور الحركة العرابية كحركة تعصب بربرى ، تهدف إلى القضاء على الأجانب ، وذبح المسيحيين ، ولقد حارت حملة الطعن والتشهير ، فى النيل من أحمد عرابى ، فهى حينما ترى اجتماع الشعب حوله ، ومناداته بحرية المصريين ، تقول إنه إسبانى ، تبنى قضية مصر وأخذ على عاتقه الدفاع عنها ، وإن الشعب المصرى الذى طال الحكم الاستبدادى عليه ، عقم فلم يعد فى مقدوره أن يلد زعيما قويـًّا ، مؤمناً بنفسه وبأمته ، كما كان أحمد عرابى .

وهى حينما تراه مصمماً على أن يضيق الخناق على الحكم الاستبدادى القاسى ممثلاً فى شخص الخديو ، وبالتالى على الوقوف فى وجه أطماع الرأسمالية الأوربية رموه بالجهل، وبكراهية التقدم، وبالتعصب الأعمى، ولكنه فى الحالين ، كان يلقى فى قلب الاستعمار الخوف والهلع ، لأن هذا الاستعمار كان قد فرك يديه سروراً وفرحاً ، حينما عزل الخديو إسماعيل ، قبل أن تشب الحركة الوطنية الشعبية عن الطوق، فقد كان أملهم فى ضعف الخديو توفيق ، وتردده وتذبذبه وخوفه من المصريين ، وشدة تهافته على سلطان العرش . . وكان أملهم فيه عظيما ، وكان الخطر المحدق بهذا الأمل واكتماله ، هو استقرار الزعامة العرابية .

ولكن لا تظن يا أخى المواطن ، أن الحركة الوطنية التحريرية كانت شخص عرابى وحده تنبعث منه ، وتعتمد عليه وتتحرك به ، فمصر وعرابى فى هذه المرحلة ، كانت كالصوت والصدى ، والشخص وصورته فى المرآة ، فقد كانت مصر قبل الثورة العرابية تضطرم بحب الحرية ، وبالطموح إلى المجد ، وقد حاولت أن تحقق ما تاقت إليه ، وما طمحت له ، فى عهد الحملة الفرنسية ، وقبيل عهد محمد على ، وفى عهده ، ففعلت الأعاجيب فى فترة صغيرة من الزمن لا تزيد عن تسع سنين . .

فى هذه الحقبة التى لا تتجاوز عمر صبى هزمت الغزاة الفرنسيين وضيقت عليهم الخناق ، وألجأتهم إلى الفرار ، بين سنى ١٧٩٨ و ١٨٠١ ، وعزلت والى تركيا وألقت على كاهلها نير الاستعمار العثمانى فى سنة ١٨٠٥ وألقت بالإنجليز فى رشيد سنة ١٨٠٧ ، وهى أعمال لا تصدر عن شعب عقيم ، خانع ، ولولا أسلوب الحكم الذى انتهجه محمد على ، لاطّردت غزوات وفتوح هذا الشعب الماجد الأبى الخلاق .

ففترة محمد على لم تكن إلا تأجيلاً لكفاح الشعب ، استكملت خلالها مصر ، كيانها كدولة .

فكان حتماً إذن أن يعود الشعب إلى المسرح وأن يستأنف ما بدأه فى السنين الأخيرة من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

فثورة عرابى ، ليست إلا تجديداً لكفاح المصريين ، وحلقة جديدة فى سلسلة نضالهم الذى استمر حتى بلغ مرحلة عظمى من مراحله فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ ، ثم استرسل فى ميادينه التى فتحت أبوابها له ، وكانت حراماً عليه .

لقد درجت الكتب ، ودرج الكتاب ، على أن يتحدثوا فى الثورة العرابية عن كل شىء إلا دور الشعب المصرى ، فهم

يتحدثون عن مقدمات الثورة وأسبابها وعن يوم عابدين الذى اجتمع فيه الجيش ومن خلفه الشعب فى خلال سنة ١٨٨١ ، يوم أن أعلن عرابى ، أن الشعب ليس ميراثاً أو عقاراً ، وأن المصريين لن يورثوا بعد اليوم ، ويتحدثون عن حرق الإسكندرية وضربها وعن التل الكبير والهزيمة فيه ، وتبحث عن الشعب فى هذا كله ماذا فعل ، وبأى شىء ساهم ، هل كان يشاهد ويتفرج ؟ هل كان يساعد ويتطوع ويتبرع ؟

والجواب على ذلك يأتينا من الأجانب ومن عرابى نفسه . .

أما الأجانب كالسويسرى جون نينه ، وكالإنجليزى بلنت ، فقد افتنّا فى تصوير صورة رائعة ، لشعب مؤمن ، قوى الشكيمة ، حارب فى ظل أسوأ الظروف وأتعسها ، بلا سلاح ، أو عتاد ، أو خطة سابقة ، ومع ذلك احتمل واستبسل . أما عرابى ، فحسبك أن تسمع منه .

« قامت هذه الحرب الشعواء وليس فى خزانة الحكومة درهم لأن المراقب الإنجليزى المستر كلفن أخذ الأموال من خزينة المالية وأنزلها فى الدونمة الإنجليزية (الأسطول البريطانى) قبل إعلان الحرب بأيام ، وكذلك الأموال الموجودة فى صندوق الدين العمومى ، وقد حملها أعضاء قومسيون الصندوق إلى المراكب الحربية حيث أمنوا عليها .

« وبناء على ذلك تحرر فى المجلس العام إلى المديريات بتحصيل الأموال من الأهالى عن كل فدان عشرة قروش ، ومن شاء أن يتبرع بشىء إعانة لإخوانهم المجاهدين فى سبيل المدافعة عن وطنهم وحفظ كرامتهم وشرفهم يقبل منه مع إعلان الشكر . ولما أعلن ذلك للعموم جادت الأمة على اختلاف مذاهبها ونحلها بالمال والغلال والخيل والجمال والأبقار والجواميس والأغنام والفاكهة والخضراوات حتى حطب الحريق .

« ومن الأهالى من تبرع بنصف ما يمتلكه من الغلال والمواشى ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ، ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه ، وبالجملة فإن الأمة المصرية عن بكرة أبيها قدمت من التبرعات وأظهرت من النخوة والغيرة ما لم يسبق له عهد فى القرون الخالية ، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزى الأمة خير الجزاء وأن يرد لها حريتها واستقلالها » .

وقد نقل الأستاذ محمود الخفيف فى كتابه عرابى الزعيم المفترى عليه كتاباً أرسله من منفاه إلى صابونجى صديق المستر بلنت الكاتب الإنجليزى الذى كان على صلة بعرابى والعرابيين وقد جاء فى هذا الكتاب :

« أرجو أن تذكر صديقنا مستر بلنت فضلاً عما كتبناه إليه

بتاريخ ١٥ الحالى (يولية سنة ١٨٨٣) أن جميع النفقات التى لزمت هى ماثة ألف جنيه مصرى أثناء الحرب كانت كلها تبرعات من الأمة المصرية بغير تمييز بين العقائد . فقد بدأت الحرب ولم يكن هناك أكثر من عشرة آلاف جندى ولا أكثر من ألف ومائتى حلة عسكرية فى المخازن ، وحتى هذه لم تكن كاملة . ولم يكن لدينا أكثر من ألف وخمسمائة عدل من الحبوب ، ولكنه عند نهاية الحرب كان لدينا فى مستودعات الجيش وفى المديريات المختلفة والمخازن ما تزيد قيمته عن مليون من الجنيهات من المال والمنتجات الزراعية والبقر والجاموس والغنم والأقمشة ، وكل ذلك قدم هدايا من الأمة للجيش المدافع عن وطنها . ولم ينفق على الجيش أثناء القتال درهم واحد من خزانة الحكومة » .

تأمل فى هذه العبارة الأخيرة ، تتبدى لك الثورة العرابية ، فى ثوب آخر ، وتفهم الحرب التى قامت بين مصر وبريطانيا فى سنة ١٨٨٢ فى ضوء جديد .

فالثورة كانت ثورة شعب ، بكل ما فى كلمة شعب من معنى . شعب بجميع طبقاته وأفراده ، بكل طوائفه ، على اختلاف مراكزهم وعقائدهم ونزواتهم . يقفون جميعاً ، طواعية وبلا إكراه ، خلف مثل أعلى ، يؤمنون به ، ويعملون على تحقيقه .

وأى شعب هذا الذى يفعل ذلك ؟ شعب أثقلته ديون الأسرة

المالكة ، واجتمعت عليه دسائس الدول . واختلطت بين صفوفه أجناس شتى ، كل منها يبحث له عن مأرب ، شعب لم يكن يعرف من الحياة إلا السخرة ، والحروب التى يلقى إليها كحطب الفرن ، لا يعلم لها غاية ، ولا يدرك لها سبباً .

شعب يقف ملكه فى جانب ، وقائده فى جانب ، ويعبث به وبعقائده ، باسم الفضائل حتى أوشك أن يكفر بها جميعاً ، لولا عراقته ، وأصالته ، وثباته فى وجه الأحداث والمحن

شعب يحارب ، وخزانته التى اجتمع فيها المال ، من عرقه ، ودمه ، ينهبها أعداؤه حتى لا يجد قوت يومه . . .

هذا الشعب هو مجموع آبائنا الذين صورهم لنا التاريخ الزائف ، ضعفاء ، جبناء مترددين ، هذا الشعب ، هو نحن ، فلنثق به وبأنفسنا .

قد تحمل كلام الزعيم أحمد عرابى ، على محمل المبالغة أو المباهاة التى يضطر إليها الزعماء اضطراراً . ومن ثم وجب أن نقرأ ما يقوله الشيخ محمد عبده ، ولم يكن على اتفاق كامل مع زعماء الثورة العرابية . بل إن الأمر بينه وبينهم انتهى إلى ما يشير إلى الخلاف الصريح . اقرأه يقول فى خطاب أرسله من السجن إلى مستر برودلى المحامى الذى ترافع عن عرابى أمام المحكمة العسكرية الخاصة التى شكلت لمحاكمته :

«هل يقدر أحد أن يشك فى كون جهادنا وطنياً صرفاً بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان ؟ فكان يتألب المسلمون والأقباط والإسرائيليون لنجدته بحماسة غريبة وبكل ما أوتوه من قوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والإنجليز . . . إنى لم أعلم أنه قيل إن الخديو كان يحارب جيشه ، بل المعروف عند الناس أن الحرب وقعت برضاه وبأمره وقد رسخ هذا الاعتقاد عند ما علم الناس أنه أقال عرابى من منصبه (كوزير للجهادية أى الحربية) لأنه لم يمتثل أمره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز إتقاء لنزول الأعداء منها » .

٧

أخى المواطن :

لقد هزم الجيش المصرى فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فى التل الكبير ، وقد بقيت هزيمته تكوى جباهنا ، بنار العار ، اثنين وسبعين عاماً . ولكن هذه النار ، استحالت مع الزمن من نار العذاب ، إلى نار التطهر ، نفت عنا جنة التهاون والاستسلام ، إن هذه النار هى التى أشعلت فى عروق مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، دماءهما ، فتدفقت تحمل إلى قلبيهما ، مدداً من الإيمان بمصر ، والإيمان بشرف النضال فى سبيلها .

وقد بقيت حقائق هزيمتنا ، مغطاة بأكداس من الأكاذيب والأوهام ، والدعايات ، حتى لم يبق من أبناء مصر من يعرف بالضبط أمرها . كانت أشبه شىء بموطن الذل ، لا يحب أحد أن يتجه إليه ، أو يقترب منه ، فاستغل خصومنا ، هذا ، فأشاعوا أن مصر ، كانت فى هذه الهزيمة ، مثلاً للأمة المهلهلة التى استسلمت لأول ركلة من قدم الأعداء ، وهذا كذب صراح ، فإن أبناء مصر مهما ادلهمت الخطوب ، وتحالفت

عليهم الكوارث يلمع منهم فى ظلام مصائبهم نور ، يعلن ان شمسهم لم تنطفئ ، وإنما حجبتها سحب كثيفة فى السماء .

* * *

لا يجمل بنا أن نفر من مواجهة هزيمة التل الكبير ، فإن حياة الأمم ، لا تمضى كلها انتصارات ، بل علينا أن نقف أمام هذه الهزيمة ، وأن نفكر فيها ، ونتأمل عناصرها ، لنعرف ما إذا كان مردها ، لعيوب أصيلة فينا ، أم لأسباب طارئة ، عارضة ، تشبه ما يطرأ على الجسم الصحيح القوى ، من علل وأمراض ، قد تضعفه حيناً ، ولكنها تزيد على الأيام مناعته .

يجب أن نقرّ أولاً ، بأن عدتنا فى الحرب مع الإنجليز ، كانت جيشنا . فهل كان جيشاً كبقية جيوش الأمم ، تتولاه الحكومة بالرعاية وتهيئ له أسباب القوة ؟ وهل وجد من يحنو على إذكاء روحه المعنوية ؟ لقد كانت الأسباب المباشرة لثورة عرابى وإخوانه ، التفرقة الجائرة فى معاملة أبناء الفلاحين ، وأبناء الأتراك والشراكسة فى الجيش المصرى . فقد كانت المراتب الكبرى وقفاً على الدخلاء والأجانب ، وكانت أعمال السخرة التى لا تمت إلى شرف الجندية بسبب ، مهانة خاصة لأبناء الفلاحين ، وليس ثمة أقتل للجيش فى أن تسوده روح التفرقة وأن يضمر الجندى الكراهية لقائده ، وأن يعلن القائد الاحتقار ،

لعساكره ، وقد مر بنا فى حديث سابق ، أن مما عجل بإشعال نار الثورة ، فى قلوب الضباط المصريين الذين قادوها فيما بعد ، ما رأوه فى حملة مصر على الحبشة ، من استئثار الضباط والقواد الأتراك ، بالمرتبات ، دون الضباط المصريين وجنودهم ، الذين حرمهم الارتباك المالى قبض رواتبهم ومكافآتهم ، وقد نجحت الثورة العرابية فى إنقاذ الجيش المصرى من القيادة التركية الظالمة الجاهلة ، وبدأت تنفخ فى هذا الجيش روحاً جديدة ، وقد كان هذا التحول خليقاً ، بأن ينشئ من الجيش المصرى قوة عسكرية ، كاملة يحسب لها حساب ، لولا أن أحداث السياسية الداخلية والخارجية ، تعاقبت فى سرعة ، حتى كانت واقعة التل الكبير فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، ثم أعقبها الاحتلال .

فمن المستحيلات ، أن تكلف الجيش المصرى ، الذى لم يكن يبلغ ثمانية عشر ألفاً من الجنود بحكم القيود الدولية التى فرضت على مصر ، والذى كان قلبه وعقله أجنبياً لا ينبض بشعور مصر ولا يفخر بالانتساب إليها ، ولا يفكر فى سعادتها ورفاهيتها ، بل من المستحيلات بأن تكلفه بأن يخوض حرباً ناجحة مع دولة كبريطانيا ، كانت بلا جدال فى ذلك الحين ، أغنى دول العالم ، وأوسعها رقعة ، وكانت فى الوقت نفسه ، أكبر

قوة استعمارية ، مرنت على العبث بالأمم وتفتيت قواها بالدسائس وبث الفتنة .

لم تكن الروح المعنوية ، وحدها ، هى التى تنقص هذا الجيش ، ولم تكن قلة عدده هو العجز الوحيد الذى كان يشكو منه ، فإنموارده كانت أقل من أن تعينه على منازلة الإنجليز ، فقد أغلق الاستعمار والطغيان والإسراف ، أبواب المصانع الحربية ، فأصبح الجيش المصرى عالة على أوربا ، يستورد منها كل ما يلزمه من سلاح وذخيرة وعتاد . فلم يكن والحال هذه فى مقدور أحمد عرابى ، أن يزيد من سلاح الجيش، لأن باب هذه الزيادة مقفل فى وجهه للأسف الشديد .

وقد تسأل ، ومن حقك أن تسأل ، كيف لا تكون معنوية الجيش المصرى ، الذى حارب الإنجليز سنة ١٨٨٢ ، فى أعلى مراتبها ، وهو يخوض حرباً وطنية ، ضد غاصب أجنبى ، وكيف يتفق القول بضعف معنوية الجيش المصرى مع ما حدثتكم عنه فيما سبق ، من اشتعال مصر كلها حماسة وغضباً ضد الإنجليز ، ومع ما ذكرته من تسابق مصر إلى التبرع بالأقوات والغلال والثياب والعتاد ، للجيش المصرى حتى بلغ مجموعها أكثر من مليون من الجنيهات كانت مصدر الجيش والحكومة ، فى الإنفاق على الحرب بعد أن خلت خزائنها من

كل مليم ، بعد أن سطا المستر كلفن مراقب وزارة المالية الإنجليزى على هذه الخزائن ، فنقل ما فيها من مال إلى الأسطول البريطانى الذى كان راسياً فى مياه البحر الأبيض .

ولكن فى الواقع كان هنالك فرق شاسع بين تحمس الشعب للدفاع عن شرف بلاده ، واستعداده للتبرع ، وبين معنوية الجيش المقاتل . ذلك لأن الجندى الذى يطلب منه أن يجود بدمه وأن يحتمل أقسى المشقات وأن يكابد أفدح التضحيات ، يحتاج لشىء أكثر من الحماسة العامة ، لكى يثبت قدمه ، فلا يزيغ بصره ، ولا يهن إيمانه ، لابد أن يكون متبيناً الهدف الذى يحارب فى سبيله ، وأن يكون مدركاً القضية التى يدافع عنها ، وأن تكون لديه مناعة ضد دعاوى دعاة التردد والهزيمة ، فإن سمع منها شيئاً أصم أذنيه عنها ، ومضى فى طريق الكفاح ، لا يلوى على أحد . ولذلك تبذل الأمم الملايين على إعداد الجيش ماديًّا ، وتنفق المليارات لإعداد الجيش معنويًّا ، وهى لكى تنجح فى الإعداد ، تبدأ به فى المدرسة ، والمنزل ، ثم تتابعه فى الطريق والمعبد ، فليس كافياً أن تقول للجندى داخل الثكنة ، إنه يحارب فى سبيل بلده ، بل يجب أن تردد هذا على أذنه ، وهو بين أفراد أسرته ، وهو يطالع صحيفته ، وهو يتناول طعامه ، وهو يتسلى فى المسرح والملهى .

ولقد كان من سوء طالع الثورة العرابية ، أن الحرب دهمتها قبل أن تنفسح لها فرصة التربية القومية ، فقد بدأت الثورة فى أخريات سنة ١٨٨١ ، وشبت الحرب فى منتصف السنة الثانية ، وقد عجل الإنجليز بالهجوم على مصر فى يولية سنة ١٨٨٢ لأنهم أدركوا أن كل وقت يمضى على الثورة ، إنما هو تثبيت لجذورها وتمكين لعقائدها ، وتعليم لأبناء مصر ، وتلقين لهم .

ولا بد أن نذكر الظروف التى ولدت فيها الثورة . ولدت الثورة وليس هناك مثلى أعلى واضح للمصريين . فالدعوة إلى الإصلاح الدينى ، تستأثر بألباب بعض الناس ، والدعوة إلى الإصلاح الدستورى تستهوى فريقاً آخر ، والحديث عن القومية المصرية يتردد ضعيفاً ، على ألسن فريق ثالث ، ومن هنا انفسح المجال لعبث الأعداء وفتنهم ، فقد كان الإنجليز يضربون الشعب المصرى باسم الخديو ، ولى الأمر ، الذى أقامه على البلاد خليفة للمسلمين .

انظر مثلاً إلى البلاغ الذى أذاعه الجنرال ولسلى فى التاسع عشر من أغسطس إلى المصريين :

« بأمر الحضرة الخديوية، يعلن الجنرال قائد الجيوش الإنجليزية بأن مقاصد الدولة البريطانية فى إرسالها تجريدة عسكرية إلى القطر المصرى ليست إلا لتأييد سلطة الحضرة

الخديوية وعساكرنا يحاربون فقط حاملى السلاح ضد سموه ».
فالإنكليز هنا يتكلمون هنا باسم الخديو ، فإذا قلنا إن الخديو فقد فى نظر الشعب مكانة ولى الأمر لانحيازه إلى جانب الأعداء فماذا نقول فى محمد سلطان باشا ، الذى كان رئيساً لمجلس النواب ، والذى ناصر الحركة العرابية ، وقتاً حتى استحق أن يسمى « بأبى المصريين» ؟ ماذا نقول فى أنه أصبح رسول الخديو إلى الضباط المصريين ، يغريهم بالنكوص ، ويحرضهم على التمرد ويمنيهم بحسن العاقبة ، إذا هم انحازوا للخديو ، وتركوا عرابى ؟ لا شك أن محمد سلطان وأمثاله من أعيان المصريين ، لم يكونوا ليتذبذبوا هذا التذبذب لو لم يكن الخديو عدوًّا للمصريين ؛ ولم يكن الخديو ليجرؤ على مجاهرة المصريين بهذا العدوان ، إلا لأنه كان يطمع فى أن يصدر الخليفة — أى سلطان تركيا — إعلاناً بأن أحمد عرابى عاص للدولة الخلافة ، وقد حدث هذا فعلا ، فى السادس من سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، أى قبل وقعة التل الكبير بأسبوع ، وقد جاء فى هذا الإعلان : « أن الدولة العلية السلطانية ، تعلن أن وكيلها الشرعى بمصر هو حضرة فخامة دولة محمد توفيق باشا وأن أعمال عرابى باشا كانت مخالفة لإرادة الدولة العلية ، ثم التمس من جانب الخديو العفو فعفا عنه ، ونال أيضاً من الحضرة السلطانية العفو العام ، وإن الشرف الذى

ناله أخيراً من الحضرة العلية السلطانية إنما كان من تصريحه بالطاعة لأوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الأعظم، وقد تحقق الآن رسمياً أن عرابى باشا رجع إلى زلاته السابقة واستبد بالعساكر بدون حق فيكون قد عرض نفسه لمسئولية عظيمة لا سيما أنه تهدد أساطيل دولة الخليفة للدولة العلية السلطانية » .

فأنت ترى من هذا كيف تداخلت المثل العليا فى الثورة العرابية تداخلا يبطل بعضها بعضاً، إذ استغل الإنجليز كل فضيلة، ليفتتوا الوحدة المصرية، فاسم الخلافة، واسم ولى الأمر، واسم الدستور ، تعمل كلها فى جبهة ، ويعمل الفلاح المصرى وحده برياسة أحمد عرابى فى جبهة عزلاء من السلاح ، ومن المال ، ومن التحضير السليم الصحيح ، الذى يحتاج لفسحة من الوقت ، وتعاون بين العناصر. فليس إذن تجنياً على الواقع ، ولا تشويهاً له إذا قلت إن معنوية الجندى المصرى ، الذى كان يحارب دفاعاً عن بلاده أمام الإنجليز ، لم تكن من القوة إلى الدرجة التى كان يتطلبها حرج الموقف ، وشدة تألب الأعداء . ولو اتسع الوقت للثورة العرابية ، لقضت على الأوهام والأكاذيب ، التى كانت تثار تارة باسم الخلافة وأخرى باسم الخديو ، وأخرجت للناس ثقافة وطنية ثورية موحدة ، لجمع الصفوف ، وسد الثغرات فى وجه الأعداء .

ولا تظن أن هناك أمة من الأمم ، تؤمن بأى مثل أعلى ، فى يوم وليلة ، فإن الأمم ، كالأفراد ، تحتاج إلى الإلحاح فى الدعوة وكثرة ترديدها ، وتحتاج إلى التذكير بها وقت الشدة ، ووقت الرخاء حتى تثبت فى نفسها ، فإذا غشيتها بعد ذلك غاشية من المحن استطاعت أن تثوب إلى إيمانها وأن تستمسك به .

ولو نظرنا فى تاريخ الأديان ، لوجدنا أن المؤمنين الأوائل ، احتاجوا إلى حقبة غير قصيرة من التربية ، يتلقونها على يد الرسول نفسه ، ثم يتعرضون مع ذلك لمحنة الشك ، المرة بعد المرة ، حتى يثبتوا آخر مرة .

وإن أردت المثل ، على الفرق بين المقاتل الذى درب ، وتلقى تحضيراً معنوياً ، وبين من لم يسعفه الحظ بمثل هذا التدريب والتحضير ، فاقرأ ما يقوله أحمد عرابى نفسه فى مذكراته المخطوطة ، فى وصف ما أصاب الناس بعد وقعة التل الكبير ، يقول :

«ثم نظرت فوجدت الميدان مزدحماً بالخيل والجمال والعساكر مشتتين ومولين ظهورهم للعدو فذهبت إلى القنطرة التى على الترعة هناك لأمنع العساكر من الفرار وصرت أناديهم وأحرضهم على الرجوع والثبات والصبر على قتال العدو ، وأذكرهم بالشرف الإسلامى والعرض والوطن فما كان سميع أو بصير » .

ولكن لم يكن هذا حال الجميع ، فإن الضباط الذين لم تؤثر فيهم بلاغات خليفة ابن عثمان ولا دعاوى محمد سلطان ، ولا رشاوى محمد توفيق ، استطاعوا أن يسجلوا صفحة من أشرف ما انطوى عليه تاريخ الكفاح من أجل الأوطان على مر الحقب ، نعم استطاع محمد عبيد وأحمد فرح وعبد القادر عبد الصمد ، وحسن رضوان أن يثخنوا الأعداء جراحاً ، وأن يدفعوا عن بلادهم ذل العار.

٨

أخى المواطن :

لقد هزمنا الإنجليز فى التل الكبير سنة ١٨٨٢ كما حدثتك ، ولكن لم يكن ذلك لنقص فى رجولتنا ، أو لضعف فى وطنيتنا ، أو لخور فى عزيمتنا ، وإنما للأسباب التى ذكرت لك أكثرها .

قلت لك إن هزيمتنا قد جاءت بعد قتال مشرف ، كانت فيه مواقف للشعب وللجيش معاً تؤكد أن مصر ، دائماً ، حينما تجتمع لها زعامة ، مؤمنة مخلصة ، تستطيع أن تثب إلى القمم العالية .

وقد أنشر عليك صفحات من هذا القتال المشرف .

ولقد بدأت صفحات هذا القتال ، بوقفة الجيش والشعب ، فى معركة ضرب الإسكندرية فى ١١ يولية سنة ١٨٨٢ وبدأت مقدمات هذه المعركة حينما طلب قائد الأسطول البريطانى فى ١٠ من يولية سنة ١٨٨٢ ، من قائد الطوابى المصرية بأن يسلم له مدافع هذه الطوابى ، وإلا فإنه سيضرب المدينة .

فردت الحكومة المصرية على ذلك الطلب الذى كان مفتتح

القتال بين الأسطول البريطانى بقطعه الضخمة العديدة ، وبين الإسكندرية العزلاء ، قالت الحكومة :

« نحن هنا فى وطننا وبيتنا فمن حقنا ، بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التى تقول الحكومة الإنجليزية إنها باقية بيننا. ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح » .

أخذ الأسطول البريطانى فى الساعة السابعة من صباح يوم ١١ يولية ، يمطر طوابى المدينة القديمة التى لم تمتد إليها يد التعمير أو الإصلاح أو التسليح منذ أنشئت ، بقنابله ، وكان حماتها المدافعون عنها ، يعلمون أن مايخوضونه ليس حرباً ، وإنما هو مجزرة يذبحون فيها ، ومع ذلك لم يتردد واحد منهم ، عن القيام بواجبه غير طامع فى الحيـــاة ولا ساع للنجاة . ولست أملّ من أن أردّد على مسامع إخوانى الشبان هذه الصورة الرائعة التى رسمها ريشة الكاتب السويسرى جون نينه قال :

« ما أبدع هذا المنظر ! منظر الرماة المصريين ، الذين كانوا قائمين على مدافعهم ، وهى مكشوفة فى العراء ، وكأنهم فى استعراض حربى لا يرهبون الموت الذى يكتنفهم ، إذ لم

يكن لهم دروع واقية ، ولا متاريس ، وكان معظم الحصون بلا ساتر ، ومع ذلك فهؤلاء الشجعان من أبناء وادى النيل ، كما نلمحهم وسط الدخان الكثيف، كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا فى حومة الوغى، ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد، ويستهدفوا لنيران مدافعه » .

وإذا كان ذلك موقف المقاتلين فى الجيش ، فانظر كيف كان موقف أفراد الشعب : نقل الأستاذ عبد الرحمن الرافعى عن الشيخ محمد عبده :

« كان الرجال والنساء تحت مطر القنابل ونيران المدافع ، ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية ، الذين كانوا يضربونها ، وكانوا يتغنون بلعن الأميرال سيمور ومن أرسله » .

ونقل عن أحمد عرابى نفسه :

« وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية وإعطائهم المال وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات » .

ونقل عن محمود باشا فهمى فى كتاب البحر الزاخر :

« ورأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيه ، وطوابى باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر ، وخراطيش

البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهالى يعمر المدافع ويضربها على الأسطول » .

قل لى بربك أيها المواطن العزيز ، ماذا تطلب من شعب ، أكثر من أن يواجه الخطر ، بلا خوف ، ودون أن تثنيه الهزيمة المحققة عن مواصلة القتال ، أو ترهبه قوة العدو وتفوقه فى السلاح ، وتحصنه فى أسطول ضخم ؟!

ماذا تطلب من أعرق الجيوش وأشدها علماً بفنون الحرب ، وأقدمها عهداً بالمعارك إلا أن تصمد لأهوال المعركة ، فلا تضطرب ويختلط حابلها بنابلها ولا تفر وتهيم على وجهها ثم تواصل عملها ، فى مكانها ، وكأن الموت لا يحيط بها من كل جانب ، وكأن الإخفاق لا يتعقب منها كل خطوة ؟!

ولقد فعل مقاتلونا فى الإسكندرية كل هذا ، حتى تصور جون نينه الكاتب السويسرى أن من كان يواصل القتال من الجنود فى هذه الطوابى القديمة الخربة ، كان أشبه شىء بأرواح الذين استشهدوا وكأنما قد بعثت بعد الموت لتواصل القتال نفسه .

ظن الإنجليز بعد أن أشعلوا النار فى مدينة الإسكندرية بقذائف أسطولهم ، أنهم قادرون على أن ينحدروا إلى العاصمة فى غير عناء ولا جهد ، ولكن كانت للجيش المصرى وقفة فى كفر الدوار صدتهم وخيبت أملهم فى انتصار رخيص .

وعلى الذين تخجلهم هزيمتنا فى التل الكبير أن يعرفوا شيئاً عن كفر الدوار .

انسحبت حامية الإسكندرية بعد ضربها بمدافع الأسطول البريطانى فإلى أين تذهب ؟

قال محمود فهمى باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى وهو يستجوب فى السجن بعد إخفاق الثورة العرابية :

« توجهنا إلى كفر الدوار ، وطلعنا إلى المحطة ومنها إلى كنج عثمان ، وكان تقابل معنا حسن بلك بن الشيخ عثمان فوجدنا هناك تلاً قديماً فسأل عرابى عن اسم هذا المكان فقال له حسن بلك اسمه تل الناصر فالتفت إلىّ عرابى وقال إن ابتداء استحكاماتنا يكون هنا ، وأمرنى بإنشاء استحكامات وحرر بطلب العساكر وطلب الأنفار للعملية » .

واختيار هذا المكان المنيع ، على الفور ، يدل على فطرة عرابى العسكرية السليمة التى لم يكن ينقصها إلا تجارب حربية ، حتى تتفتح براعمها ثم تتوالى ثمارها .

ويقول بلنت فى الثناء على هذا الموقع :

« لم يكن فى وسع عرابى أن يصنع خيراً من اتخاذه هذا المكان مستقراً لمعسكره الجديد ؛ لقد كان بعيداً بعداً كافياً عن مدافع سيمور ، ولم يكن يستطيع جيش مهاجم أن يبلغه إلا عن الطريق

الضيق الذى مهده خط سكة الحديد، وبهذا لم يمكن اقتحامه من جهة الإسكندرية فى حين أنه من جهة الأرض كانت الدلتا مفتوحة للجيش بإمداداتها التى لا تكل، وكان الجيش حر الاتصال بالقاهرة. وهنا استطاع الجيش أن يثبت أمام الإنجليز بنجاح نحو خمسة أسابيع ، يصد كل الهجمات ، بل يدفع العدو بهجمات مضادة إلى ما يقرب من أبواب الإسكندرية ولو لم يكن هناك باب آخر لدخول مصر غير كفر الدوار لظفرت الحركة القومية بنجاح».

هذه العبارة الموجزة التى نقلتها لك عن بلنت ، تقطر حقاً ، وهى توجز فى الواقع مأساة مصر ، فلقد صد المصريون، غزو الإنجليز ، عند كفر الدوار ، هذه الأسابيع الكثيرة فتحول الإنجليز إلى المنفذ المفتوح أمامهم ، وهو قناة السويس . والجانب الشرقى من مصر ، ولهذا التحول ولآثاره حديث سأفضى به إليك فى حديث آخر ، فهو جدير بأن نفرد له ، وللملابسات الدولية التى أحاطت بانتصار الإنجليز علينا فى الميدان الشرقى ، فصلا قائماً بذاته لا سيما أن ما وقع فى هذا الجانب الشرقى من بلادنا سنة ١٨٨٢ بقى يؤثر على حياتنا العامة . وحياتنا السياسية، ومركزنا الدولى ، حتى أبرمت اتفاقية الجلاء فى اكتوبر سنة ١٩٥٤ ، وسيبقى يؤثر على حياتنا العامة، وحياتنا

السياسية ، حتى تؤول قناة السويس إلينا ، وتنبسط عليها إرادة مصر كاملة غير منقوصة .

اختار عرابى نقطة جبل الناصر ، لتبنى عندها استحكامات الجيش ، بعد انسحابه من الإسكندرية ، وعهد إلى محمود فهمى باشا فى بناء هذه الاستحكامات . ومن حق محمود فهمى على أبناء الجيل الجديد أن يعرفوا اسمه ، وأن يعرفوا العمل الجليل الذى قام به ، وهو فى الحق ، جدير بكل إعجاب وتقدير من أبناء مصر : تخرج محمود فهمى من مدرسة المهندسخانة (كلية الهندسة) ونبغ فى الفنون الهندسية وقد رشحه نبوغه ، وتفوقه ، لمنصب أستاذ لعلم الاستحكامات العسكرية ، ثم عهد إليه فى عهد سعيد بتحصين شواطىء مصر الشمالية ، ثم اشترك فى حرب البلقان التى نشبت بين تركيا وروسيا سنة ١٨٧١ ، فأضاف إلى خبرته النظرية ، تجربة عملية فى الحرب ، إلى جانب تجربته العملية فى السلم ، فاكتمل له كل ما يلزم لتفتح عبقرية أصيلة ، اكتمل له حب الدرس ، وفرصة التجربة الهادئة فى السلم ، وفرصة التجربة فى ظل الشدة أثناء الحرب .

وقد أمر محمود فهمى ، بسد ترعة المحمودية التى تمد الإسكندرية بالماء ، فانزعج الإنجليز لذلك إذ أحسوا أنهم مهددون بخطر لا قبل لأسطولهم برده ، فأنفذوا حملة قوامها

نحو ألف مقاتل يقودهم جنرال، فلما بلغوا موقعاً لا يبعد عن خطوط المصريين بأكثر من كيلو ونصف كيلو ، تصدى لهم المصريون بقيادة البكباشيين أحمد البيار ومصطفى حسان وأوقفوا زحفهم أول الأمر ، ثم ردوهم على أعقابهم، ففروا مهزومين، وجدد الإنجليز هجومهم فى اليوم التالى، وقد أعدوا له عدة قوية على وجه شرحه الأستاذ محمود الخفيف فى كتابه القيم عن عرابى وهو يقول فى هذا الموضع :

« وثبت لهم المصريون ثباتاً خليقاً بالإعجاب حقاً، ودافعوا فى هذه المعركة دفاعاً مجيداً. وأبلى البكباشى محروس بلاء حسناً فى صد ميسرة الإنجليز ولم يمنعه جرحه الشديد من أن يشد عليهم برجاله، وكذلك أظهر البكباشى محمد فودة بسالة وجلداً عظيمين فى الهجوم على قلب الإنجليز وميسرتهم . وجاءه المدد بقيادة أحمد عفت وتعيلب وحجازى ثم جاء طلبة باشا ومعه فرقة الفرسان بقيادة أحمد عبد الغفار ، وبعد ست ساعات من القتال الشديد، ارتد الإنجليز منهزمين ولحق بهم المصريون ، حتى حجبهم الظلام عنهم .

« وأخيراً ثبت للإنجليز أن اختراق هذه الاستحكامات ، يكاد يكون ضرباً من المستحيل؛ وكان الخوف من امتناع الماء العذب عنهم، ومن احتمال قطع البحر عليهم ، وإغراقهم ، كما

أغرقهم المصريون من قبل فى سنة ١٨٠٧ ، يزيد فى معنويتهم ضعفاً ، فاستقر عزمهم على أن يغزوا مصر من جانب القناة ، وأن يدوسوا فى سبيل هذا الغرض ، حياد تلك القناة ، وكل ما تقضى به الاتفاقات الدولية التى وقعوا عليها ، والتزموا بها .

إذن لم تكن هزيمة التل الكبير ، لضعف إرادتنا فى القتال ، أو تزعزع عزمنا على مواصلته ، وإنما للأسباب التى أوردتها لك ، والتى لا يسأل عنها المصريون كشعب ، إلا بقدر ما يسأل الجسم السليم الصحيح ، الذى تتسرب إليه ميكروبات الأمراض عن إصابته بالمرض .

كان أول التحام بين المصريين والإنجليز فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٨٢ فى قرية المسخوطة ، وقد سقطت هذه القرية كما سقطت نفيشة ، ولكن المصريين هاجموا معسكر الإنجليز فى القصاصين فى الثامن والعشرين من أغسطس ، فأجلوا الإنجليز عن المواقع الأمامية ، واحتلوها ، وكف الإنجليز عن الهجوم بعد الهزيمة نحو أسبوعين ، لأن سلاح الخيانة الذى أرادوا أن يضربوا به المصريين من الخلف لم يكن قد أثمر ثمرته بعد ، ولم يكن السلطان قد أعلن بعد قرار عصيان عرابى .

هجم المصريون على الإنجليز فى اليوم التاسع من سبتمبر ، فأخذ الإنجليز على غرة ، وكاد يقع دوق كنوت أسيراً ، وأبلى

اللواء على فهمى وراشد حسنى بلاء حسناً ، إذ لم يخرجا من المعركة إلا بعد أن أصيبا بجروح أقعدتهما عن مواصلة القتال .

وحل يوم التل الكبير ، وكانت الخيانة قد أفرخت ، وكانت جبهة الإنجليز والخديو والسلطان قد التأمت وسد ما فيها من ثغرات ، فأحيط بالمصريين من كل جانب ، ولكن بقى للشرف المصرى جماعة أبت إلا أن تموت ، وهى شاكية السلاح وإلا أن يمر الأعداء إلى حمى الوطن ، على جثمانها الهامد ، فأحاط الخلود هذه الأسماء بإطاره الباقى على الزمن . . نعم ، استشهد فى ذلك اليوم استشهاد الأبطال الأميرالاى محمد عبيد ، وأحمد فرج ، وعبد القادر عبد الصمد ، وحسن رضوان ، فلنحفظ أسماءهم ولننقشها على قلوب أبنائنا ، ليعرفوا أن مصر لا تتخلى عن الشرف حتى فى يوم الهزيمة .

٩

أخى المواطن :

السؤال الذى أود أن أطرحه عليك وأن أناقشه معك هو : هل كان يستحيل على الإنجليز أن يهزموا المصريين فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، لو لم تكن قناة السويس قد شقت ، أو لو لم تتردد قيادة الثورة العرابية ، فى ردم هذه القناة ؟ وسدها فى وجه الأساطيل الإنجليزية التى أنزلت جيوش بريطانيا ، على شاطئ القناة ؟ وهل أخطأ بالتالى عرابى وإخوانه إذ لم يبادروا إلى ردم القناة ؟

ولكى نستحضر معاً عناصر الموضوع ، أذكرك بما سلفت إليه الإشارة من أن الإنجليز عجزوا عن أن يخترقوا خطوط الاستحكامات التى أنشأها محمود فهمى رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى كفر الدوار ، وأن محاولاتهم التى بذلوها خلال خمسة أسابيع ، فى هذا السبيل ذهبت كلها سدى.

فاتجاه الإنجليز إلى الناحية الشرقية ، ومحاولة التسلل منها إلى بلادنا ، كان اتجاهاً مفروضاً عليهم ، ألزمتهم به هزيمتهم فى الجبهة الغربية .

ولقد أحس ديلسبس أن قناة السويس، ستلعب دوراً كبيراً ، فى المعركة بين مصر والإنجليز ، فوصل إلى الإسكندرية فى التاسع عشر من يولية سنة ١٨٨٢ ، أى بعد ضرب الإسكندرية، بثمانية أيام . ولم يفرح الإنجليز بمقدمه ، لأن فرنسا كانت خليقة بألا ترضى بانفراد إنجلترا بهذه الغنيمة الثمينة النفيسة ، لو كانت سياسة فرنسا فى ذلك الحين تفهم شيئاً ، أو تقدر على تنفيذ ما تفهمه . وديلسبس كان فرنسياً من ذوى العزم لا يتردد تردد وزراء فرنسا ، فكان من المحتمل كثيراً أن يوصى حكومة بلاده بشىء يعرقل مساعى إنجلترا ، وأخيراً كان ديلسبس رئيس مجلس إدارة شركة القناة، وكانت القناة موشكة أن تصبح مسرح الجريمة الدولية، التى تخوض بريطانيا أوحالها، وكان بحكم ارتباطه الوثيق بهذه القناة، قادراً على أن يحدث فى الموقف الدولى حدثاً ذا شأن لو أنه اعتصم بالعزم والإرادة .

وقد توقع ديلسبس، أن يقوم المصريون بردم القناة، وتوقع أن ينتصر المصريون، وألا ينجح الإنجليز فى فتح مصر، وتوقع أن تنطلق يد الحكومة الوطنية وقتذاك فى القناة ، بعد ردمها ، وتسترد الحقوق التى ضيعها الخديو على المصريين بسياسته الحمقاء ، أو على الأقل تثور صعاب جديدة فى وجه شركة القناة . لذلك حاول ديلسبس أن يمنع الإنجليز من أن ينزلوا جنودهم فى أية نقطة على

القناة، وهدد بأنه سيعطل القناة ، إذا خرق الإنجليز حيادها . والتعطيل الذى كان يقصده، ديلسبس شىء غير الردم . وقد شكت بريطانيا ديلسبس إلى حكومته على لسان سفير بريطانيا فى باريس. ولكن لم تضطر بريطانيا إلى تكرار الشكوى، فإن ديلسبس لم يفعل شيئاً جدياً ليمنع خرق هذا الحياد ، ولأن الأسطول البريطانى احتل مدخل القناة عند السويس وبورسعيد بقيادة أميرى البحر هوت وهوسكن فى التاسع والعشرين من يولية سنة ١٨٨٢ أى بعد وصول ديلسبس إلى الإسكندرية بعشرة أيام ، وفى ٢ أغسطس أنزل الأسطول البريطانى جنوداً إلى البر فاحتلوا السويس .

ويقول عرابى فى مذكراته إن ديلسبس أرسل إليه فى ١٤ يولية يسأله عن رأيه فيما يخص القناة فى العمليات الحربية، فأرسل إليه عرابى يقول إنه لن يتعرض للقناة ، إذا نجح فى منع مراكب الإنجليز من خرق حيادها . فرد ديلسبس فى اليوم نفسه ، بأنه ضامن ومتكفل بمنع الإنجليز من اختراقه ما دام فيه عرق ينبض. وقد عاش ديلسبس، وبقيت كل عروقه تنبض بعد أن احتل الإنجليز السويس ، وأنزلوا فيها جنودهم ، ولم يفعل شيئاً ، ولم يكن فى واقع الأمر يهمه من الأمر إلا أن تبقى القناة سليمة ، ما دامت حكومته لا تبغى أكثر من ذلك ، ولا تفكر فى أن

تقاسم الإنجليز السلطان فى مصر، أو تمنعهم عنها .

ولم تفعل إنجلترا لتخرق حرمة القناة، أكثر من أن تذيع عن طريق سفاراتها فى مختلف عواصم أوروبا ، أن المصريين بدأوا يقيمون طوابى وتحصينات فى غرب القناة ، ولكنها لم تكن فى حاجة إلى بذل مجهود جدى لإقناع الدول بأن خطراً يهدد القناة بعد أن ضربت الإسكندرية فى ١١ يولية ، على مرأى ومسمع من الدول جميعاً فلم تتدخل دولة واحدة فى هذا الأمر ، أو تحتج عليه ، أو تمنع بريطانيا من مواصلة سياستها التى كشفها هذا العدوان. كانت كل من فرنسا وإيطاليا وألمانيا قد قررت نفض يدها من قضية مصر ، وتركت بريطانيا حرة تفعل ما تشاء. فهل كان عرابى محقاً فى أن يخشى الرأى العام العالمى إذا هو أقدم على ردم القناة ؟

والحق أن هذه القضية، قضية الرأى العام العالمى ، من الأوهام التى احتلت قدراً كبيراً من تفكيرنا السياسى منذ قامت الثورة العرابية حتى هذه الأيام ، وأصبح من المتعين علينا أن نحلل هذه القضية إلى عناصرها الأصلية ، حتى لا نتعرض بسببها للضياع أو الخسران .

ويجب أن نثبت أولا : هل هناك فعلاً ما يسمى الرأى العام العالمى؟ وبغير تردد، أقول لأخي المواطن إنه موجود فعلاً ،

وإنه غير موجود أصلاً . . . غير موجود لأن العالم لم يكن فى يوم من الأيام معسكراً واحداً. فالمعسكرات الدولية المختلفة ، تخلق داخلها آراء عامة بطريق الصحافة وما تروجه من أفكار ومعلومات وإحصائيات . ولذلك فالمشكلة الواحدة ، ينظر العالم إليها من أكثر من زاوية. وما يعتبر جريمة فى معسكر ، يعتبر عملاً وطنياً فى معسكر آخر ، ويعتبر عملاً لا يستحق التعليق فى معسكر ثالث ، ولا يسمع به إطلاقاً أهل معسكر رابع . ولكن يحدث أحياناً أن تقوم حرب دعاية بين معسكرين ، وحول موضوع معين ، فينجح أحد المعسكرين ، فى غزو المعسكر الثانى ، بنشراته وصوره ، وإذاعاته ، وأحاديثه ، فيبدو أن العالم قد انحاز إلى الرأى الذى يمثله هذا المعسكر، فالرأى العام العالمى ، هو من خلق وصنع بعض رجال السياسة . هم وحدهم الذين يخلقونه . ثم يلونونه باللون الذى يعجبهم ، و يوجهونه إلى الوجهة التى تروقهم . ولذلك فإن تحدى هذا الرأى العالمى ، لا يخيف إذا كانت الدول التى تخلقه غير مستعدة لأن تقوم بحرب من أجل الدفاع عنه . وفى تاريخنا الحديث أمثلة كثيرة ، فقد ثار الرأى العام فى فرنسا على اتفاق هور ولافال على تقسيم الحبشة بين فرنسا و إيطاليا ، ولكن موسولينى احتل الحبشة ، ولم ينفع هذا الرأى العام فى رد جندى واحد من جنوده . وقد كان الرأى العام يعتبر إسبانيا فاشستية ،

تعاونت مع هتلر ، ولم تشترك فى الحرب ضده ، وصدرت قرارات من هيئة الأمم بقطع التمثيل السياسى بينها وبين الدول الأعضاء فى هذه الهيئة ، ولكن ذلك لم يمنع التعاون بين إسبانيا وبين الدول الديمقراطية من أن يزداد ويتوثق . وقد كانت ألمانيا منبوذة ، فأصبحت صديقة . وقوتها العسكرية تبنى بأموال الدول التى احتلتها وقررت نبذها .

فالرأى العام الذى تخلقه المصلحة هو رأى عام متقلب ، لا يحترم إلا الأقوياء ، ولا يعرف إلا الأمر الواقع ، فإن كنت قويًا ، تعرف مصلحتك ، وتحسن انتهاز الفرص المحققة لها ، غير محتفل بقيد من قيود الأخلاق أو العرف ، فأنت صديق هذا الرأى العام العالمى ، مهما حكم عليك فى الماضى ، أو تجهم لك ، تجهماً يبدو أنه يخفى قطيعة أبدية .

فالرأى العام العالمى ، يلعن الأميرال سيمور الذى يضرب مدينة الإسكندرية العزلاء فى ١١ يولية ، ويعتبر عمله إجراماً ويؤلف عن ذلك الإجرام كتباً ، تتزاحم فى سطورها الأدلة المثبتة للجريمة ، ولكن هذا الرأى العام نفسه حينما ينجح الأميرال سيمور ويحتل مدينة الإسكندرية ثم يحتل الجنرال ولسلى زميله مصر ، يعترف به وبزميله ، ويتعامل معهما ، ويغمض عينه وهو يرى أحمد عرابى مسوقاً إلى المنفى ، متهماً بالجرائم الغلاظ .

ولكن إلى جانب هذا الرأى العام المغرض ، الذى لا ضمير له ، يوجد رأى عام إنسانى ثابت مستقر ، يعرف العمل الصالح ويميزه عن العمل الطالح ، ويصدر على كل منهما الحكم الذى يستحقه ؛ ذلك هو رأى الناس المجرد عن الهوى .

ولكنه للأسف رأى لا يلعب أى دور فى عالم السياسة ، ولا وزن له فى توجيه أحداثها ؛ لأنه رأى العامة المتفرقين فى أنحاء العالم ولأنه لا يملك الوسيلة للتعبير عن نفسه .

هذه هى حقيقة الرأى العام العالمى ، فماذا كان يفعل هذا الرأى العام العالمى فى أحمد عرابى ، لو أنه ردم قناة السويس ؟ هناك فرضان ، لا ثالث لهما فى هذه المسألة ، أولهما أن يردم المصريون قناة السويس ، ثم يردون الإنجليز على أعقابهم وتستقر الأمور فى أيديهم فى الداخل . فى هذه الحالة ، لا يفعل الرأى العام إلا أن يضفر أكاليل الغار على رأس أحمد عرابى وتتألب دول أوروبا على إنجلترا لأنها جميعاً تضمر لها الكراهية والحسد ، ولأنها وإن كانت قد نفضت يدها من قضية مصر ، فإنها لم تفعل ذلك زهداً فيها ، ولا انصرافاً عنها ، بل خوفاً من تبعاتها وعجزاً عن منافسة إنجلترا ، فى مواجهة الأخطار ، والتهيؤ لها مالياً وعسكرياً . فلم تكن فرنسا ولا تركيا ولا إيطاليا تتمنى أن تزيد رقعة بريطانيا ، ولا أن يتسع نفوذها ،

ولم تكن ألمانيا، تود ذلك ، ولكنها ترى فى السكوت على نشاط بريطانيا فى مصر أن تتسع الهوة بين فرنسا وإنجلترا ، وفى السياسة ، كما فى كل شيء آخر ، يصدق قول الشاعر :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل

فعرابى مجرم يهدد أمن مصر ، إذ لم ينتصر ، ولكنه حينما يطرد الإنجليز وينجح ، يصبح بطلاً وطنياً ، ويصبح ردم القناة عملاً يمكن علاجه ، لاسيما أن ردم القناة شيء وتعطيل الملاحة فيها إلى الأبد ، وأضاعه مصالح حملة أسهم القناة فيها شيء آخر .

أما الفرض الثانى ، وهو أن يحاول أحمد عرابى ردم القناة فلا ينجح فيه ، أو ينجح فيه ، ولا ينجح فى رد الإنجليز عن البلاد فعاقبته نفس العاقبة التى ختمت بها أعمال عرابى ، حينما هزم فى التل الكبير .

فلا دفاع ينهض عن خطأ أحمد عرابى ، فى عدم ردم القناة ، والأساطيل الإنجليزية تنحدر منها ، وتصعد فيها لتحتل بلاده . البلاد التى جرى دم وعرق أبنائها مجرى القناة قبل أن تفتح . البلاد التى احتملت فى سبيل هذه القناة من الويلات والمصائب ، وأنفقت فى سبيلها من الأموال والجهود ، ما لم تبذله أمة أخرى فى عمل يعود نفعه على الناس أجمعين أكثر مما يعود عليها أو على أبنائها .

والرأى الذى نقول به نحن اليوم فى صدد هذا الخطأ قال به

المعاصرون لأحمد عرابى من المصريين والأجانب الذين كانوا يعجبون به، والذين لم يدخروا وسعاً فى الدفاع عنه . فالكاتب السويسرى جون نينه يقول « إن عرابى رفض فكرة سد القناة ، وتمسك برأيه على الرغم مما تقضى به الخطط الحربية والفنية ، وعلى الرغم مما ذهب إليه زملاؤه وما ذهبت إليه وكررته له تارة بشديد الكلم وتارة بالكتابة . على الرغم من ذلك كله ظل عرابى على رأيه، يمهد للجنرال ولسلى نصراً من أسهل ما عرف فى تاريخ الحروب » .

والثابت أن محمود فهمى باشا الذى أقام تحصينات كفر الدوار المنيعة، التى نجحت فى رد الإنجليز فى الميدان الغربى ، قد نصح عرابى مراراً بتحصين الميدان الشرقى ، وبسد القناة . وليس من الممكن الجزم بأن دسائس الخديو، ورشاويه ، ودعاة الفتنة، والساعين بالوقيعة، ومال الإنجليز ، وخيانة من خانوا — ليس من الممكن الجزم بأن ذلك كله كان سيؤدى إلى هزيمة الجيش المصرى فى الميدان الشرقى، لو أن قدراً معقولاً ، من التحصين، أقيم فى هذه الناحية ، ذلك لأن أسباب الهزيمة غير المشروعة، دائماً لا تفرخ ، إلا حيث تجد الجو المناسب لها ، من التخاذل والإهمال والتفريط فى الواجب ، وقد وجدت ذلك كله فى الميدان الشرقى .

ويقول الشيخ محمد عبده، إن أحمد عرابى كان يتصور أن مس القناة « سيهيج عليه جميع الأمم » ، فمصر ذهبت ضحية فهم غير صحيح، للسياسة الدولية من جهة ، وإلى تفريط من جهة أخرى. فإن عدم ردم القناة لا يستتبع أن تترك مصر من الناحية الشرقية ، بلا أى نوع آخر من الاستحكامات.

* * *

لقد رأينا كيف أحللنا أحمد عرابى ، مكانه العظيم اللائق به فى تاريخ مصر، وفى تاريخ كفاحها؛ لكن من حق مصر على عرابى ، ومن حق تاريخها علينا، ولا سيما أننا نستخلص منه العظات والدروس لنتسلح بها للمستقبل: أن نقول إن أحمد عرابى أخطأ هنا خطأ لا ينفع فيه دفاع، وإن كان يشفع له فيه أنه كان رجلا أمينا سليم النية أخذ العهود والمواثيق الإنسانية مأخذ الصدق ، فقد خفيت عليه حقائق السياسة الدولية بأقذارها، وأحابيلها، فسرى فى وهمه أن بريطانيا لا تجرؤ أن تدوس حياد القناة ، كما تخيل أن ديلسبس قادر على أن يحمى القناة .

فليفهم أحفاد عرابى، من أبناء مصر ، أن الحق الدولى وحده ، لا ينفع ما لم تعززه القوة المادية ، وما لم يؤكده استعداد الشعب للدفاع عنه .

١٠

أخى المواطن :

قبل أن يقع الاحتلال البريطانى لمصر فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ بثمانية أعوام ولد فى حى متواضع من أحياء القاهرة ، لضابط مهندس ، ولد ، كان ميلاده ، الوجه الآخر ، لحالة مصر ، فى الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر والسنين الأولى من القرن العشرين .

والحق أن الإنسان ليتصور ، وهو يقرأ تاريخ مصطفى كامل أنه كان على موعد مع الاحتلال البريطانى ، فإنه ما كاد يبلغ سن الشباب المبكر ، سن الخيال المشبوب والإحساس المرهف ، والإيمان بالمثل ، والتجرد عن المصلحة ، حتى وقع الاحتلال. ولا نحسب أن مصطفى كامل كان قادراً أن يسلك فى مناجزة الاحتلال ، ومقاومته وإثارة الناس عليه والتشبيب بمصر ، وجمالها ، وتاريخها ، والإشادة بمفاتنها ومفاخرها ، المسلك الذى اختاره ، لو أن مصر نكبت بالاحتلال وهو فى فترة متقدمة ، أو متأخرة عن السن التى بلغها ، حينما وافت سنة ١٨٨٢ . ولقد كانت مصر

فى أشد الحاجة إلى شاب ، ليوقظ فيها شبابها ، فقد كان كل شىء فيها ، عند ما وقع ذلك الاحتلال البغيض ، غارقاً فى القدم متحللا تحلل الشيخوخة والهرم . كانت الأمور والعقائد والأفكار والأساليب والأدوات كلها متخلفة عن الزمن تخلفاً لا ينفع فى رد الأحداث ، أو فى تخفيف وقعها ، وكانت الحضارة التى التى تغزو مصر وتغزو معها الشرق العربى ، حديثة غاية الحداثة ، فإنه لم يكن قد انقضى على تسخير البخار ، فى بناء هذه الحضارة إلا سنون لم تبلغ نصف قرن ، ولم تكن الكهربا ، ومنتجاتها ، قد عرفت بعد ، أو عرفت على نطاق واسع ، ومن هنا كانت حضارة فى طور صباها ، فلم تلق إلا قدماً متداعياً ، وماضياً متلكئاً ، فلو لم تسق الأقدار مصطفى كامل ، لكانت الكفتان غير متكافئتين إطلاقاً ، ولكن مصر ، التى كانت تعيش أكثر حياتها ، على مدى السنين ، على ما يشبه المعجزات ، وخوارق الأمور ، لم تخرج عن سنتها المألوف ، فأخرجت فى الوقت المناسب مصطفى كامل . ولا نعرف قدر مصطفى كامل على حقيقته إلا إذا أدركنا أنه منذ اللحظة الأولى عرف ماذا يطلب من بلاده ، وماذا يطلب من أعدائها الغاصبين.

طلب من الإنجليز الجلاء ، وطلب من أهل وطنه أن يثقوا من أن هذا الجلاء واقع ، لا محالة .

وقد يقول قائل : وأى غرابة فى أن يطلب الزعيم من أعداء الوطن ، أن يجلوا ؟ والحق أنه لا غرابة فى أن نتصور اليوم ، أى بعد اثنين وسبعين عاماً من وقوع الاحتلال ، أن الشىء الطبيعى الذى لا يتصور غيره ، أن يطلب أبناء الوطن المعتدى عليه من عدو بلادهم المعتدى ، أن يترك لهم وطنهم . ولكن للاحتلال والهزائم صدمة ، تذهل لها الشعوب عما يجب ، فتضطرب ويسوء فعلها كما يسوء قولها ، وتقع فيما لا تقره أو ترضاه حينما تثوب إلى عقلها .

وقد حدث بالفعل ، أن نظر كثير من الناس أول الأمر ، إلى دعوة مصطفى كامل كما ينظرون إلى من فقد بعض عقله . وإنى لأذكر أن المرحوم « ع » باشا ، بعد وفاة مصطفى بأكثر من أربعين عاماً ، وبعد أن غلبت الروح الوطنية على الأمة ، قال لى فى غير ما تحرج ولا تأثم ، إنه قابل مصطفى كامل على محطة حلوان فى ذات يوم ، فدعاه إلى الانضمام إلى الحزب الوطنى ، أو إلى جماعة الوطنيين وأن عبد العزيز باشا قال لمصطفى كامل : ابعد عنى . . . الله يحنن عليك . .

وقد أردف هذا بإشارة من يده ، وأخرى من عينيه ، معناها أن عقل صاحبنا كان خفيفاً .

ولقد بقى هؤلاء العقلاء ، خصوماً للحركة الوطنية لا عن

خيانة وإنما عن نقص فى الخيال، وفى الحرارة ، واختلال فى غريزة الكفاح عندهم ، وقد كان من الممكن أن يتقدم أحدهم صفوف الحركة الوطنية ، فى أعقاب الاحتلال البريطانى ، فيبتلى الوطن، بأكثر من الاحتلال نفسه . وقد حدث شىء من هذا ، فى تاريخ الأمم الأخرى، فقد سبق غاندى زعيمان أحدهما كوجهال والثانى تيلاك ، فلم يستطع أحدهما أن يجمع الشعب الهندى كله، حول زعامته ، مع أن أحدهما كان خالياً من العصبية الطائفية، إلى درجة تخيف أبناء دينه ، وكان الثانى متطرفاً ، فى هذه العصبية إلى درجة تخيف أبناء الدين الآخر ، وكان يعوز كلاهما هذا الخيال الممدود ، وهذه الحرارة المتجددة وهذا التجدد المستمر الذى كان لغاندى ، ومن ثم تأخرت الحركة الوطنية حتى وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها فى سنة ١٩١٨ .

وقد كان مصطفى كامل فى رأى خصومه ، خيالياً ، متطرفاً وقد كان هذا عين ما تحتاج إليه مصر ، بعد صدمة الاحتلال البريطانى، فقد أعانه خياله على أن يرى مصر ، بعد سنين طويلة . ولو لم يمتد نظره إلى مصر المستقبل البعيد، لما استطاع أن يدعو أحداً إلى المقاومة ، ولما لبى دعوته أحد . فقد كانت الديون قد بلغت فى إرهاق الفلاحين وأصحاب الأطيان ، إلى حد

لم يكونوا قادرين بعده، أن يفكروا فى مقاومة ، أو نضال ، خصوصاً بعد أن أضيف إلى هذا الإرهاق خيبة الأمل الناجمة من هزيمة التل الكبير ، وقد كان الجميع فى حاجة إلى فترة من الاستجمام ، فلما بدأ الاحتلال يدخل التنظيمات البدائية التى أدخلها على أداة الحكم ، كانت مظهراً من مظاهر النظام بدا أنه شيء عظيم فى أعقاب الفوضى التى أشاعها حكم إسماعيل وظلمه وإسرافه، مع أنها كانت البداية التى حددها الاحتلال لإقامة الحواجز بين الحكومة والشعب ، وجعل أداة الحكم جهازاً خاصاً بالأجانب والأغنياء .

ولا يظنن أحد الظنون بالمعنوية المصرية ، فيزعم أن الشعب المصرى ، انفرد وحده دون غيره من الشعوب باليأس والاستسلام عقب الهزائم ، فالشعب الأرلندى بعد أن قام فى ثورة مسلحة ضد الإنجليز فى أواسط القرن الثامن عشر ، كره كل من يدعوه إلى المقاومة ، ولذلك اضطر زعماء الشين فين فى القرن التاسع عشر إلى التحايل للوصول إلى قلب الشعب ، فبدأوا حركتهم بالدعوة إلى بعث اللغة الأرلندية التى اندثرت ، والآداب الوطنية التى طمرت ، وإلى تجديد الغناء والرياضة القومية ، وقد اجتمع الوطنيون أول ما اجتمعوا فى أندية الرياضة ، ومدارس اللغة القومية ، وفى حفلات التمثيل ، قبل أن يجتمعوا فى ساحات التدريب

العسكرى ؛ وقد تعارف المجاهدون الشبان ، كرواد للأدب الأرلندى وكأبطال فى الرياضة البدنية قبل أن يتعاونوا كجنود و كمقاتلين .

ولقد وصل مصطفى كامل إلى قلب الشعب المصرى ، من أيسر السبل، وهو سبيل الحديث عن الماضى ، والتغنى بجلائله ومفاخره، فإن المصرى شديد الحب لماضيه وشديد الحماسة له، عظيم الإقبال على الحديث عنه ، وقد عزز هذا بالتغنى بجمال مصر ، وفى المصريين ميل إلى هذا الحديث ، لأن عامتهم قبل خاصتهم، يتناقلون عبارات كجوامع الكلم فعامتهم يقولون « إن مصر أم الدنيا » وخاصتهم يقولون «مصر كنانة الله فى أرضه من أراد بها سوءاً قصمه الله » .

ولقد كان أسلوب مصطفى كامل آية فى السهولة ، واليسر ، خالياً من المحسنات اللفظية ، ومن الجمل الاعتراضية ، ومن الأفكار العميقة ، تسوده حماسة متدافعة ، تربط ألفاظه ومعانيه بقلب الإنسان قبل عقله، خذ مثلاً هذه القطعة عن مصر :

« ألا أيها اللائمون! انظروها وتأملوها وطوفوها واقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً وأسمى شاناً، وأجمل طبيعة وأجل آثاراً وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟

« اسألوا العالم يجبكم بصوت واحد أن مصر جنة الدنيا وأن شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها لأجنبي .

« إنى لو لم أولد مصرياً، لوددت أن أكون مصرياً » .

ولقد جرت هذه الفقرة الأخيرة على الألسن ، وحفرت فى الأذهان، وأصبحت شعاراً ذائعاً وهى إحدى العبارات التى قصد مصطفى كامل بها ، إلى تحقيق غرضين : الأول الإعجاب بمصر، والثانى الثقة بمستقبلها .

ولقد اشتدت حملته، بنفس الأسلوب على الناس ، فصور للأمل صوراً جميلة أخاذة، وصور للناس ، صوراً دميمة كالحة فقال :

« إن فى مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعى العمل فلبست ثياب اليأس وقضت بظنونها على مستقبل الوطن ، وجعلت مهمتها فى الأمة تثبيط الهمم وإقعاد العزائم فلا تنادي فى المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ فى المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية ، وأن شعبها قد مات من زمن طويل وليس لمفكر عاقل أن يؤمل له مستقبلاً جديداً. وترى رجال هذه الفئة اليائسة يتهمون كل رجل ينادى بالدفاع عن حقوق البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر. وعندى أن الرجال اليائسين وأن كانوا أقل من القليل

يضرون بلادهم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررونه » .

ثم قال فى موضع آخر :

« وثقوا أيها الوطنيون الأعزاء بأن المستقبل لكم ولها، فاعملوا لسعادتها وتذكروا دائماً قول جامبتا الشهير : ليس المستقبل بمستعص على أحد » .

ولقد كان من خصائص مصطفى كامل ، أنه خطيب وكاتب معاً ، وأنه هو هو فى حالتى الكتابة والخطابة . فحديثه فى الحالين خطاب إلى قلوب الناس وعواطفهم، وإثارة لخيالهم ، وإيقاظ لآمالهم ، وتهوين لمتاعبهم، واستحثاث لكامن قواهم ، والهادئ الخامد من عناصر قوتهم .

ولقد حدثنى من أتيحت له فرصة سماع خطب مصطفى كامل ، عن عظيم تأثيره فى السامعين، فقال إنه أقرب إلى تأثير الفنان ، منه إلى تأثير رجل السياسة ، فالسامعون باد عليهم عميق الحب للخطيب ، والاستمتاع بصوته وشكله ، وشبابه ، وهم يتذوقون حلاوة صوته ، وعذوبة لفظه ، وكأن الغاية من الاجتماع به ، هو الإنصات إليه ، ثم الانصراف بعد ذلك ، كما ينصرف رواد المسرح ، ولكنهم حينما يؤوبون إلى دورهم ، يحسون أن شيئاً جديداً قد دب إلى حياتهم ، وأن نظرتهم إلى الأمور قد تغيرت ، فشؤون الأمة والدولة ، وعلاقات الإنجليز بالخديو ، وعلاقة

الحديو بالشعب ، تبدأ فى الاستئثار باهتمامهم مقترنة بتململ من الاحتلال وقوة قبضته ، ومن تدخل المستشارين فى شؤون التعليم والمال والإدارة ، وهكذا دواليك حتى أصبح الإعجاب بمصطفى كامل الخطيب، كراهية للاحتلال ، والكراهية للاحتلال ضيقاً به ، والضيق به سخطاً عليه ، وهكذا أصبح مصطفى كامل رمزاً على فكرة وطنية ، استحالت مع الزمن إلى عقيدة ، والعقيدة أصبحت حافزاً للنضال الذى بدأ بيننا وبين الإنجليز .

لم يكن ينقص المصريين بعد هزيمة التل الكبير ، إلا أن يستعيدوا حب النضال وأن تتحرك فيهم غريزته . وأن يدعوا الاستسلام للهزيمة ، والرضا بها ، واليأس من تغيير نتائجها . وقد نجح مصطفى كامل ، فى أن يوقظ هذه الغريزة ، لأنه قطع كل ما يمكن أن يقوم بين الاحتلال وبين الشعب ، من أسباب التفاهم أو التلاقى أو المصاحبة : أبرز الاحتلال ، فى ثوبه الحقيقى ، فعرف كل مصرى أنه العار ، وأن الشرف والعار لا يتجاوران ولا يتهادنان ، ولا يتفاهمان ، ولا يتقاسمان شيئاً واحداً ، ولا أرضاً واحدة ، ولا يتنفسان فى هواء واحد ، أو يتغذيان من طعام واحد .

هذه جملة حياة مصطفى كامل ، وخلاصة زعامته وسر خلوده .

١١

أخى المواطن :

ما الذى كان يفعله مصطفى كامل ، كل عام ؟

أكان يتجول بين عواصم أوربا : باريس وفينا وبرلين وروما ، يوزع خطبه اعتباطاً ، على المحافل والنوادى ، ويوزع مقالاته على الصحف والمجلات ، بلا حساب ؟ إن بغض الذين يعرفون ظاهر حياة مصطفى كامل يتصورون أنه كان يفعل شيئاً قريباً من هذا ، أى أنه كان يحسن الكتابة والخطابة والحديث بالعربية والفرنسية ، وأن ذلك أعانه على أن يتنقل بين العواصم ، داعياً لمصر ، مشيداً بأهميتها ، منددا بالاحتلال وهذا أبعد شىء عن الواقع .

فالدعاية ليست مجرد كلام منطوق أو ملفوظ ، أو لعلها كذلك إذا كانت دعاية داخلية ، تجرى فى البلد الواحد ، ولكنها حينما تكون دعاية دولية ، إنما تعتمد أول ما تعتمد على تحرى مصالح الدول والمعسكرات ، وهذا يجرنا إلى مثل الكلام الذى قلناه عن الرأى العام العالمى ، حينما تحدثنا عن موقف عرابى من قناة السويس وسدها أثناء محاولة الإنجليز احتلال مصر .

فالدعوة التى توجه إلى أصحاب الرأى والمفكرين يجب أن تختلف عن الدعوة التى توجه إلى رجال السياسة وأصحاب المناصب وكلاهما يختلف عما يوجه إلى النواب خصوصاً إذا كانوا من الأحزاب المعارضة للحكومة القائمة فى بلادهم .

ويخطىء من يظن أن الداعى قادر على أن يحقق شيئاً للبلاد إذا هو نزل فى بلد من البلاد ، فطبع كتباً ، ومنشورات ، وحلاها بالصور ، والأرقام ، ووزعها على الناس . فإن الرأى العام فى معناه العام ، لا يفعل شيئاً ، ولا يملك شيئاً . فمن الخبل أن يتصور مثلاً أن كل بريطانى ، أو أن أكثرية البريطانيين مشغولون بمشكلة احتلال بريطانيا لمنطقة القناة ،أو أنهم يتابعونها ويقرأون أنباءها . ومن الخبل أن نتصور أيضاً أن كل أمريكى يعرف مشكلة إسرائيل ، ويهتم بها ، ويعرف أصل النزاع ، بين إسرائيل والعرب . فالواقع أن للفرد العادى فى البلد المتمدين من الهوايات ، والمشاغل ، والمشاكل ، ما يبعده عن شئون السياسة عموماً ، وشؤون السياسة العالمية خصوصاً . ولو أردنا أن نلمس فى نفوسهم الأوتار الإنسانية ، ليؤثروا فى الانتخابات العامة ، فإننا نكون أقرب الناس إلى من يحاول حفر بئر ، بسن إبرة ، ذلك لأن تحقيق هذا الهدف يقتضينا من الزمن وحده سنوات وسنوات .

فما الذى كان إذن يميز مصطفى كامل كداعية ؟ وما الذى

رفع قدره فى حلبات السياسة الدولية ؟

بدأ مصطفى كامل حياته السياسية الدولية ، بدءاً صحيحاً ، فقد درس الاحتلال البريطانى كمشكلة دولية ، فتوافر على تحرى آثاره ، على مصالح الدول الكبرى ، التى تتظاهر بعضها بصداقة الإنجليز ، والتى يجاهر بعضها الآخر بمخاصمتها وعداوتها .

وقد بدأ إنتاجه السياسى فى ١٤ أغطسس سنة ١٨٩٥ ، بإخراج كتيب صغير، هو خلاصة فهمه للدعاية السياسية فعلاً ، وقد عنون هذا الكتاب « أخطار الاحتلال البريطانى » .

نعم ، هذه هى نقطة الابتداء .

أخطار الاحتلال البريطانى ، فإما أن يكون للاحتلال البريطانى خصوم بين الدول والساسة وأصحاب الصحف وقادة الرأى ، فيكون للدعاية مبرر ، وإما ألا يكون له شىء من ذلك ، فلا نفع من الكلام .

وهو حينما بدأ يوزع هذا الكتيب ، لم يقنع بأن يتم هذا التوزيع اعتباطاً ، بل قصد أن تصل هذه الرسالة إلى أيد معينة من بين رجال السياسة وأهل الرأى ، وكان فى مقدمة الذين أرسل إليهم ، السيدة جولييت آدم . ذلك لأنها كانت عدوة لسياسة الانسحاب والتراجع التى سارت عليها فرنسا أمام إنجلترا وعدوة بصفة خاصة لإنجلترا . ولذلك تلقتها بسرور ، واحتضنت

صاحبها ، وأفسحت له مكاناً فى صالونها العظيم الذى كان يضم الساسة ورجال الفكر والقواد العسكريين والأدباء . فتعرف مصطفى كامل بفضله على النائب ديلونكل ، وعلى الشاعر الشهير بيير لوتى وعلى الكولونيل مارشان بطل حادثة فاشودة والكاتب أرنست حوديه وغيرهم وغيرهم من ذوى المكانة والحيثية .

ولعلنا نفهم ماذا تكون الدعاية ، إذا تأملنا فى التقدمة التى قدمت بها جريدة الإكلير الفرنسية الشهيرة لحديث مصطفى كامل معها فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، قالت الجريدة :

« ورد علينا فى الأسبوع الماضى تلغراف من الإسكندرية يفيد أن وزارة المعارف فى مصر ، قررت إلغاء البعثة المصرية فى فرنسا ، ولما كان لهذا القرار مساس عظيم بنفوذنا فى مصر فقد رأينا من المفيد أن نقصد من أجله إلى مصطفى كامل وهو الكاتب والخطيب المصرى الذى اشتهر اسمه فى باريس لأن آراءه فى مثل هذه المسألة يعول عليها » .

فالجريدة ، لم تقصد مصطفى كامل تشجيعاً له ، ولكن للانتفاع بصوته وقلمه فى مسألة تهم فرنسا ، وتضايق إنجلترا . وهذه المسألة الصغيرة ، ليست إلا أنموذجاً لكل مسألة أخرى كبيرة تهم السياسة والساسة .

فمصطفى كامل ، كما كتب لأخيه المرحوم على فهمى كامل

فى مايو سنة ١٨٩٥ ، كان يقضى ليله ونهاره فى مخالطة كبار السياسيين : « لأنتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين ورأيت من الجميع استعداداً لمعاونتنا وتحريك المسألة المصرية ، وطرحها على بساط المناقشة من جديد ».

ولقد حاول كثيرون بعد مصطفى كامل أن ينزلوا إلى ميدان الدعاية السياسية المصرية ، أو أن يتكلموا فيها ، ثم فتح هذا الباب على مصراعيه ، حينما وقعت كارثة فلسطين ، وأحسّ العرب ، بحاجتهم إلى تنظيم الدعاية ، فى أمريكا وأوروبا ، وشحذ سلاحها وتجميع العاملين فى ميدانها وتنسيق الجهد بينهم . وكان مصطفى كامل دائماً ، مثلا يتجه إليه الدارسون والمقلدون ، بأنظارهم ، لعظم النجاح الذى حققه . ولكن كان يغيب عن الدارسين ، والراغبين فى التقليد ، الأمور الرئيسية التى أشرنا إليها ، فيما تقدم ، وأمور أخرى لا بد منها لنجاح الداعية .

وأول هذه الأمور بلا مراء هى المغامرة ، فمصطفى كامل كان يسافر كل سنة إلى جميع عواصم أوروبا أو إلى أكثرها ، أو إلى باريس على الأقل . فكان رصيده من الصداقات والمعارف ومن الاتصالات ، يزداد يوماً بعد يوم ، وسنة بعد سنة . فكان من الميسور عليه ، كلما وقعت أزمة ، أن يجد المحبين والعاطفين والمؤيدين . فلم تكن دعاية موسمية ، تقع حينما تمر

بالبلاد ، محنة ثم تنقطع .

وثانى هذه الأمور أنها كانت ثمرة الاتصال الشخصى ، بعد تحرى المصلحة الدافعة للدولة التى يدعو فيها ، أو السياسى الذى يستعين به . فلم تكن وسيلتها الوحيدة ، المال المبذول . ولم يكن أعوان مصطفى كامل أجراء يدفع لهم المال . لشراء أقلامهم أو ذممهم ، بل كانوا من أصحاب العقائد الذين تلاقت مصلحة بلادهم أو أحزابهم مع مصلحة مصر ، ومع جلاء الإنجليز عنها.

وثالث هذه الأمور ، هى أن الدعوة التى كان يقوم بها مصطفى كانت عامة ، فلا تعتمد أبداً على الفرنسيين دون الألمان أو الطليان أو الأتراك أو حتى الإنجليز ، ولذلك كانت القضية المصرية ، دولية بحق ، فقد شغل بها كل محفل دولى ، وعرفها نواب ألمان ونمساويون وطليان ، وتحمس لها كتاب ومفكرون من كل جنسية .

ورابع هذه الأمور ، أن الأمر لم يكن دعوة صرفة ، فقد كان لنشاط مصطفى كامل الداخلى ، وتنظيمه الجبهة الوطنية ، وإنشائه جريدة اللواء ، والمجلات الأخرى الأسبوعية والشهرية ، ودفع الحركة التعليمية ، والدعوة إلى إنشاء الصناعة ، وتبلور الرأى العام الوطنى ، وتجميع الشبان والمثقفين حوله . . كان لكل ذلك أثر فى رفع قدر دعوة مصطفى كامل فى الخارج ،

فقد كان إحساس رجال السياسة ، فى المحافل الدولية ، أن هذه الدعوة ، هى دعوة حركة خيرية إيجابية ، تنمو وتزدهر ، فى وادى النيل. وأن مصطفى كامل هو لسانها المعبر عنها ، فالاحتفاء به والإقبال عليه ، هو كسب دولى .

ولكن مصطفى كامل لم يكن يقصر دعوته على مجرد الخطابة ، بل كان ينتفع بالخلافات الدولية ، فى خدمة بلاده ، ومن هذه الأمثلة ، انتفاعه بالتنافس بين الاستعماريين الفرنسي والإنجليزى على استعمار أفريقيا ، والتوسع فى بسط النفوذ على مجاهلها ، فقد كان يرجو أن يؤدى هذا التنافس إلى الاصطدام بينهما اصطداماً يؤدى إلى إجلاء الإنجليز عن السودان. وقد حدث هذا التصادم بالفعل فى سنة ١٨٩٨ عند فاشودة ، وكادت القوات الفرنسية بقيادة الكولونيل مارشان ، تصطدم بالقوات الإنجليزية بقيادة كتشنر ، ولكن فرنسا كعادتها ، كلما التقت مع إنجلترا ، خصوصاً ، بعد هزيمة نابليون فى واترلو ، لا تلبث أن تحنى رأسها وتنسحب . ولم يتأخر مصطفى كامل فى أن يبدى ألمه وخيبة أمله فى السياسة الفرنسية عند أقرب الناس إليه من الفرنسيين — كمدام جولييت آدام — كلما قضت المناسبة ، فقد كتب يقول لها من فينا فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ :

« إن الإنجليز يعملون فى وادى النيل كل ما يريدون .

ويرتكبون أفظع الجرائم على الإنسانية والعدل . ويسخرون أكبر سخرية من أوروبا وعلى الخصوص من فرنسا لأن خطة فرنسا فى هذه الأزمان الأخيرة قد دفعت بلا جدال الإنجليز إلى ظلمنا ظلماً أشد مما كان . والذى زاد الطين بلة أن هذه الخطة التى كلها فشل وخيبة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حباً لبلدكم الجميل الكريم . وفى الواقع إن سياسة فرنسا تظهر بمظهر من يريد كل شيء أو لا شيء » .

وقال لها فى خطاب آخر من بودابست ، فى ٢٨ يونية سنة ١٩٠٠ :

« اعتقدى أنى إذا ذهبت كل عام إلى باريس فلأراك
« أنت الوحيدة التى تمثلين أمام عينى فرنسا القديمة . فرنسا ذات
« الهمة والإقدام . إن السياسة الأوروبية تبغض إلى بكل
« جوارحى المدنية الحديثة ، ولكن السياسة الفرنسية تعكس
« أمرى وتجعلنى ذاهلا أمام التناقض الغريب المسطور فى
« تاريخها . عجباً أنسيت فرنسا فاشودة ؟ ! » .

« إن سياسة الحكومة الفرنسية لم تعمل عملا واحداً يجعلنى آملا
« فيها ، إنك كنت تذكرين لى مرشان فى خطابك ، فلا
« بد أن يتألم الآن أشد الألم من السياسة الفرنسية ؛ وماذا
« عسى أن يقول عن البوير » .

« إن اعتقادى الخصوصى أنه سينصب لأوروبا فى الصيد
« أشراكاً ، تندم عليها بكل تحسر . فقد حارت
« ألمانيا فى سياستها بالشرق الأقصى ، وهذا المرض الذى
« ابتليت به أوروبا وهو ورغبتها فى امتلاك كل شىء فى
» الوجود سيعود عليها بالوبال ، وإن الأنباء تحدثنا اليوم
« بالاتحاد الأوروبى فى الصين ، والارتباط الوثيق بين
« القوى الأوروبية ، فيا له من عار ! أما كان ينبغى أن
« يكون هذا الاتحاد وهذه الرابطة فى مسألة الترنسفال ، فأين
» شرف أوروبا من اتحادها وشهامتها أمام الصين وانقسامها
« ووجلها أمام إنجلترا ؟ » .

« ولما اتفقت إنجلترا مع فرنسا على تقسيم شمال أفريقيا بينهما
فى سنة ١٩٠٤ كتب لها يقول فى ١٥ أبريل سنة ١٩٠٤ :

أساء إلينا مسيو ديلكاسيه (وزير خارجية فرنسا) كثيراً
باتفاقه الإنجليزى الفرنسى ، لأن تعهد فرنسا بعد مطالبتها بالجلاء
دفن المسألة وحكم علينا من قبلكم . وقد كتبت إلى مسيو
مونتور جويل رأيى لينشره كحديث على بعد المزار ، فإذا كان قد
نشره فأرجو منك أن تلفتى إليه نظر درديون ، وروشطور ودوديه
وجميع أصدقائك لأنى أريد أن يقف الفرنسيون على التأثير الذى
أحدثه عندنا هذا الاتفاق » .

وكتب إليها يقول فى ١٠ مايو سنة ١٩٠٤ :

« إن مواطنى يكرهون اليوم فرنسا ، أكثر من إنكلترا نفسها . . . إنك لا تدرين مبلغ تشامخ الإنجليز فى الوقت الحاضر فإنهم يسخرون منا نحن صغار الأحلام الذين اعتمدنا على فرنسا ، ولهم الحق أن يسخروا » .

وكتب إليها يقول فى ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٦ :

« إنى أكون مجرداً من الشعور إذا اعتقدت لحظة أن فرنسا تصير صديقة مصر والإسلام » .

فليست صداقة مصطفى كامل لإحدى الدول ، هى فناء فى هذه الدولة ، ولا تسليماً بأخطائها ، ودفاعاً عن سقطاتها ، ولا سيراً فى ركابها ، إنما هى توجيه لساستها وانتفاع بمركزها ، وبخلافاتها وحروبها مع إنجلترا ، ولذلك فإن رسم سياسة الدعاية كان عملا شاقاً ، يحتاج إلى فهم عميق متجدد لبواعث السياسة ، وحوافزها الظاهرة والخفية وكان يحتاج فوق ذلك كله إلى خبرة فى استحثاث الساسة والمفكرين ، وتمكين كبريائهم وتبصيرهم بالأضرار التى تعود عليهم وعلى بلادهم ، فيما لو أهملوا مصلحة مصر ، وتجنبوها أو ضحوا بها . وفى السطور التى نقلتها لك من خطابات مصطفى كامل إلى مدام جوليت ترى إحاطته بالسياسة العالمية ، لا بالسياسة الأوروبية وحدها .

وليس أدل على انتفاع مصطفى كامل بالخلافات الدولية فى تحضير دعايته من الفقرة التالية من خطاب مؤرخ ٢٨ مارس سنة ١٨٩٧ عند زيارة له فى النمسا :

« رأيت القوم فى النمسا ابتدأوا يدركون أن الإنجليز كانوا يستغفلونهم زمناً طويلا . . . ! »

١٢

أخى المواطن :

من بلايا الاحتلال على الأمم ، أنه يطمس معالم تاريخها فى نفوس أبنائها، فلا يعودون يعرفون ما إذا كانوا فى ماضيهم القريب أو البعيد ، ثم يصيبهم بالتراخى والتخاذل فلا ينهضون إلى تعرف حقائق هذا التاريخ ، وبذلك يصبحون فرائس سهلة هينة للأكاذيب التى يشيعها الاحتلال ، فيأخذونها مأخذ الصدق ، ويتداولونها تداول الوقائع التى لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها .

ومن بين ما حارب به الاحتلال مصطفى كامل ، الفرية التى رسخت فى أذهان البعض وهى أن مصطفى كامل لم يكن يريد الاستقلال فى ذاته لمصر ، وإنما كان يريد الاستقلال فقط عن إنجلترا ، لا لتتحرر ، وتنطلق إرادتها ، وتتساوى بغيرها من الأمم والدول التى استقلت ، بل لتكون تبعاً لتركيا ، فتنبسط عليها حماية الخليفة التركى ، وتصبح إيالة من إيالاته .

والذين يقولون هذا القول أقوام ينطبق عليهم ، ما قدمته

لك من أن أبناء الأمم المحتلة ، يتقبلون الأكاذيب ويتجرعونها كأنها شراب سائغ ويحبونها لأنها أيسر من الحقائق المغطاة التى يحتاج الكشف عنها إلى مجهود ومشقة ، فهم بلا جدال جهال كسالى ، لم تمتد أيديهم أبداً إلى تاريخ مصطفى كامل ، ولم يقرأوا حرفاً واحداً من مقالاته أو خطبه ، وأحاديثه ورسائله ، أو مذكراته وكتبه ، أو شروحه المستفيضة ، ودروسه العديدة .

وهم يجهلون الأحداث الدولية التى أحاطت بالاحتلال البريطانى ، فى سنة ١٨٨٢ ؛ ومن الخير أن ننفض هنا غبار النسيان عن عقول إخواننا .

وقع الاحتلال البريطانى ، وعلاقة مصر بتركيا ، محكومة بفرمانين (أى مرسومين عاليين) أحدهما صدر فى سنة ١٨٤٠ أى فى أخريات عهد محمد على والثانى صدر فى عهد الخديو إسماعيل ، وخلاصة هذين الفرمانين أن والى مصر كانت تعينه حكومة إستانبول من أكبر أفراد أسرة محمد على ، ثم عدل ذلك فأصبحت ولاية العهد لأكبر أولاد الوالى أو الخديو ، وقد كانت سلطة الخديو فى الترقية فى الجيش لا تتجاوز رتبة الأميرالاى ، أما ما يعلو هذه الرتبة فيصدر الأمر به من سلطان تركيا .

وبذلك كانت مصر فى الظاهر فى حكم الولاية بالنسبة

لتركيا ، ولكنها فى الواقع كانت دولة مستقلة وإن لم يكن استقلالها ثابتاً بوثيقة ، ولكنه كان استقلالا فى الواقع ، بسبب تزايد قوة مصر ، وتناقص قوة تركيا ، أو تزايد ضعفها .

ولما أرادت بريطانيا ، أن تحتل مصر ، كان مما يحرجها دوليًّا ، أن مصر تابعة رسميًّا لتركيا ، ولذلك كان من الواجب ، أن تحتاط فى كل ما تفعل ، حتى لا يكون فى تصرفها فى مصر ، مساساً بحقوق تركيا ، لأن ذلك كان يمكن أن يؤدى إلى نزاع دولى ، وقد يؤدى إلى نشوب حرب ، لو أرادت إحدى الدول الكبرى المنافسة لبريطانيا أن تستغل هذا النزاع ، وأن تثير بسببه قتالا .

ومن يقرأ ماكان يحدث فى إستانبول ، قبيل احتلال الإنجليز لمصر ، يرى كيف كانت بريطانيا تسير ، بسبب تبعية مصر لتركيا ، على ما يشبه الحبل ، كما يسير البهلوان البارع .

كان على بريطانيا أن تطمئن الدول أنها لا تريد الانفراد بالعمل فى مصر ، وأنها لا تبغى الاستئثار بها ، وأنها لا تفكر فى المساس بسلطة تركيا عليها ، ولذلك ما كادت الأساطيل البريطانية تصل إلى مياه الإسكندرية حتى أسرع اللورد جرانفل وزير خارجية بريطانيا إلى أخطار الدول بأن « الحكومة البريطانية لم تفكر قط فى أن تنزل إلى البر جنوداً ولا أن تحتل

البلاد احتلالا عسكريًّا . وفى عزم حكومة جلالة الملكة ، متى أعيدت السكينة إلى مصر ، وزال الخوف على مستقبلها أن تترك مصر وشأنها ، وتسحب سفنها الحربية ؛ فإذا وقع عكس ما نرجو ، بأن تعذر حل المسألة حلا سلميا ، فإنها تتفق مع الدول ومع تركيا على ما تكون قد رأته والحكومة الفرنسية أنجح الوسائل .

ولكن حكومة فرنسا استرابت مع ذلك فى نوايا إنجلترا ، ورأت أنها تود الانفراد بالعمل ، فدعت إلى مؤتمر يعقد فى إستانبول عاصمة تركيا ، بوصفها صاحبة الولاية على مصر . ولبت بريطانيا الدعوة إلى المؤتمر ، ورحبت فى الحال بفكرته ، بل تظاهرت بالحماسة لها ، ودعت الدول إلى مناصرتها ، لأنها كانت تعلم أن المؤتمر إذا عقد فسيضم دولا بلا إرادة ولا سياسة مرسومة ، ومن هنا يصلح غطاء لها ولنواياها ، وجسراً تصل عليه إلى أغراضها وأطماعها ، فلذلك لم تر أن تجهر برفض الفكرة ، بل قبلتها وعملت على عرقلة المؤتمر سراً . ومن ثمَّ اقترحت على فرنسا أن تطلب من سلطان تركيا إرسال جنوده إلى مصر ، لحفظ النظام. وكانت بريطانيا تهدف من هذا الاقتراح أن تقبل فرنسا هذه الفكرة فتنعدم الحاجة إلى مؤتمر ، ما دامت تركيا صاحبة السيادة قد أخذت الأمر على عاتقها ، واستعدت لحفظ النظام فى مصر ، ولكن المؤتمر انعقد فى ٢٣ يونية ، أى قبل ضرب

الإسكندرية فى ١١ يولية بسبعة عشر يوماً .

وقد رفضت تركيا أن تشترك فى هذا المؤتمر ، فعقد فى السفارة الإيطالية، وفى جلسته الثانية التى انعقدت فى ٢٥ يونية وقع ميثاق النزاهة ، ووقعته بريطانيا كغيرها من أعضائه ، وقد جرى نصه كالآتى :

« تتعهد الحكومات التى يمثلها الموقعون على هذا أنها فى كل تسوية يقتضيها العمل المشترك لتنظيم شؤون مصر لا تسعى إلى امتلاك شىء من أراضيها ولا إلى أى إذن بأى امتياز خاص ولا إلى أى فائدة تجارية لرعاياها إلا ما كان عاماً يمكن أن تناله أية أمة أخرى » .

وفى هذه الأثناء حاولت تركيا أن تصرف الدول عن استمرار انعقاد المؤتمر بحجة أن الحالة فى مصر قد هدأت ، وأن وزارة راغب باشا قد ألفت بعد أن بقيت مصر أياماً بلا وزارة .

ومالت إيطاليا إلى هذا الرأى ، لأنها كانت متأثرة بألمانيا والنمسا اللتين كانتا تعملان ضد فرنسا وإنجلترا . أما روسيا فقد قال وزير خارجيتها المسيو دى جيير : إذا اقتضت الضرورة التدخل ، لعدم كفاية التأثير الأدبى فى حل الأزمة المصرية، فتركيا أحق الدول بإعادة المياه إلى مجاريها فى مصر ، فإن أبت تركيا ، فقد يعهد بالأمر إلى إنجلترا وفرنسا على شريطة أن يرافق

جيوشهما مندوبون من قبل جميع الدول الأخرى .

وكانت إنجلترا طوال هذا الوقت وبعده ، تصف الحالة فى مصر ، بصورة تشعر بأن الثورة فيها ليست وطنية ، إنما هى حركة تعصب دينى أحمق ،وأن الأجانب يقتلون وتتعرض أرواحهم وأموالهم للأذى ، ليتيسر لها الانفراد بالعمل فى مصر .

ولذلك تضايق اللورد دوفرين مندوب إنجلترا فى المؤتمر حينما اقترحت إيطاليا اقتراحاً نصه : « ينبغى أن يكون معلوماً أنه ليس لأية دولة أن تقوم بعمل انفرادى فى مصر ما دام المؤتمر منعقداً » . وما زال اللورد دوفرين بالمؤتمر حتى أضاف إلى هذا الاقتراح عبارة « ما لم تقتض الظروف القاهرة غير ذلك » .

وأخذت إنجلترا تذكر فروضاً مختلفة للظروف القاهرة التى تسمح بالتدخل الفردى ، حتى أحست الدول الأخرى بأن إنجلترا تنوى هذا التدخل الفردى ، فقرر المؤتمر أن هذا التدخل يجوز لتركيا وحدها .

فى ظل هذه الظروف الدولية وقع الاحتلال البريطانى ، ومن بيان هذه الظروف يتضح ما كان لدور تركيا من الأهمية الدولية ، وكم كانت الفرص متاحة لها لأن تمنع الاحتلال ، وأن تسد الباب فى وجه المطامع ، ولكنها لم تفعل ، وكان على مصطفى كامل ، وقد آلت إليه هذه التركة المثقلة من أعباء

الماضى ، وتقصير السلف ، أن يبنى سياسته على حقائق حياة أمته ، وحقائق السياسة الدولية.

لم تستطع بريطانيا حينما احتلت مصر ، أن تعلن أنها تتخذ إجراء دائماً ، لأنها أقدمت على ذلك الاحتلال ، وهى تشعر أنها خانت العهدالذى قطعته على نفسها فى مؤتمر النزاهة ، وأنها غدرت بالدول التى اشتركت فى هذا المؤتمر ، ولذلك أعلنت على لسان وزير خارجيتها ، ومندوبها اللورد دوفرين ، أن الاحتلال إجراء مؤقت. وكان من أكبر الأمور ضغطاً على بريطانيا من الناحية الدولية ، تبعية مصر فى ذلك الحين لتركيا. ولم تكن بريطانيا تود أن تتنكر لتركيا أو تدخل معها فى حرب ، ولذلك لم تتحدَّ هذه التبعية ، ولم تعمل شيئاً من الناحية الرسمية أو من الناحية الدولية يخالف مقتضاها ، أو يمسها مساساً جوهريا ، وبذلك كان مركز بريطانيا فى مصر قويًّا غاية القوة من الناحية الفعلية ، لأنه مستند على جيش احتلال قوى ، فى أمة جرد أبناؤها من السلاح وسرح جيشها ، وأغلقت أبواب مصانعها الحربية ، ولكن مركز بريطانيا فى مصر ، كان فى الوقت نفسه ، غاية فى الضعف ، من الناحية الشرعية الدولية ، لا لأنها اغتصبت مصر اغتصاباً ، فالقانون الدولى يعرف ألواناً من الاغتصاب ويقرها : يعرف الحماية ، ويعرف تبعية

المستعمرات للدول المستعمرة ، ويعرف الإلحاق ، ولكن بريطانيا لم تستطع أن تسمى وجودها المادى فى مصر ، بشيء من هذا .

لم تستطع أن تسمى وجودها حماية ، لأن هذه الحماية تتعارض مع حقوق تركيا الرسمية التى لا قيمة لها من الناحية الفعلية ، ولكنها كانت مع ذلك باقية على الورق ومعترفاً بها بين الأمم ، ولم تستطع أن تسمى مصر مستعمرة لأن ذلك أمعن فى إنكار سيادة تركيا الوهمية الرسمية .

ولسنا نحن الذين نقول ذلك فإن اللورد لويد فى ص ١٩٢ من كتابه « مصر منذ عهد كرومر » يقول وهو يتحدث عن إعلان إنجلترا الحرب على تركيا فى الحرب العالمية الأولى التى وقعت فى أغسطس سنة ١٩١٤ :

« كان يجب مواجهة أخطر وأصعب مشكلة فى وقت قريب وتلك هى مشكلة تحديد مركز مصر ، حينما تعلن الحرب ضد تركيا .

« وقد يكون من المفيد أن نذكر باختصار الحقائق العامة الرئيسية ، فيما يتعلق بمركزنا فى مصر ، كما كان فعلا فى تلك الآونة .

« لقد كان مركزنا غاية فى القوة من الناحية العملية ، وغاية فى الضعف من الناحية الشرعية ».

فمن الناحية الفعلية كان مركزنا يستند إلى احتلال الجيش البريطانى ، وهذا الجيش تعزز فى فترة الحرب بالقوات الإمبراطورية المختلفة ، التى كانت لازمة لمواجهة خطر غزو مصر من الخارج .

وفى فترة الحرب زاد نفوذنا الفعلى زيادته الهائلة بسيطرتنا على البحار التى كانت تعين على عزل مصر عن الخارج تماماً إذا أردنا . هذه الحقائق جعلت من حقنا أن يسمع رأينا فى توجيه الأمور فى مصر ، فقد استمد موظفونا وممثلونا من وجود الاحتلال البريطانى سيادة كافية .

أما مركزنا من الناحية الشرعية فكان مناقضاً تماماً لهذا المركز العملى القوى ، فمن الناحية الدستورية كان الحاكم لمصر هو الخديو ، وكان مجلس الوزراء هو ناصحه ومستشاره ، ولم يكن لقنصل بريطانيا وجود دستورى أو حقوق ناشئة عن أية معاهدة أو اتفاقية أبرمت بين البلدين ، مصر وإنجلترا ، ولم يكن الموظفون البريطانيون بالحكومة المصرية من الناحية القانونية أكثر من مرءوسين وتوابع للخديو . ولم يكن من قيد شرعى على سلطة الخديو ، سوى قيد واحد معترف به دولياً ، ذلك هو السيادة العليا لسلطان تركيا ، فمصر من الناحية القانونية

الفنية كانت ولاية عثمانية وكان الخديو يتلقى الملك بأمر من السلطان الذى يعترف هو لعظمته » .

فأى سياسى يجد هذه الناحية الضعيفة فى الاحتلال البريطانى ، أو هذه الثغرة المكشوفة ، ولا ينفذ فيها إلى مقتل فيه. لا يعمى عنها إلا أبله . ولم يكن مصطفى كامل هذا الأبله . بل كان سياسياً حاذقاً غاية الحذق، بارعاً غاية البراعة . ولذلك أحسن استعمال هذه الورقة الهامة ، فى حلبة السياسة الدولية . وكان يحرج بريطانيا بها ، فى خطبه وفى أحاديثه ولم تكن بريطانيا تستطيع أن تنكر أن وجودها غير شرعى وكانت أقصى ما تملكه هو أن تقول إنها ستجلو حالا .

ومن هنا تعددت وعود بريطانيا بالجلاء فبلغت أكثر من ٦٥ وعداً ، وقاربت أن تكون سبعين وعداً ، خلال سبعين عاماً أى بواقع وعد فى العام الواحد .

فالذين يزعمون أن مصطفى كان يدعو لتبعية مصر لتركيا ، هم كما قلت جاهلون ، وكاذبون .

جاهلون بهذا التاريخ الذى بسطت لك طرفاً منه ، وكاذبون لأن مصطفى كامل . قال وفعل ، عكس هذا الذى يفترون به عليه .

خذ مثلاً ما جاء فى خطاب مبكر أرسله إلى مدام جوليت

آدم فى ١٢ يولية سنة ١٨٩٧ وهو فى مطلع حياته السياسية :

« إنك تعلمين خطتى نحو تركيا ، وما أراه واجباً نحوها ، فقد أفصحت عن ذلك فى خطبتى ، وقد اعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة الوطنية لمصر ، أن نكون مع تركيا ، بما أن الإنجليز محتلون وطننا العزيز » .

فانظر أولا : ما دام الإنجليز محتلون وطننا العزيز، وانظر أيضاً : أن نكون مع تركيا .

فالأولى تدل على أن سياسته مؤقتة ، ومعلقة على وجود الإنجليز فى مصر ، فهى لا تمتد إلى ما بعد جلائهم عنها .

والثانية تدل على أن كل ما تعمله مصر ، هى أن تكون مع تركيا فى معسكر واحد ، وهو ما يقع بين الدول المستقلة ، وهذا ما قاله مصطفى كامل تقريباً بالحرف الواحد فى خطبته التى ألقاها فى الإسكندرية فى يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ أى قبل وفاته بأقل من ثلاثة أشهر .

رمانا الطاعنون أيضاً بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنقدمها لتركيا كولاية عادية ، أى أننا نريد تغيير الحاكمين لا طلب الاستقلال والحكم الذاتى .

وما هذه التهمة إلا تصريح بأن علوم الغرب وآدابه التى نقلت إلى مصر من مدة قرن من الزمان ما زادتنا إلا تمسكاً بالعبودية ...

فهذه التهمة هى مسبة للمدنية والمتمدينين .

« فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها ، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإننا نعمل كغيرنا فنتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون ، وإذا كانت إنجلترا تسعى للتقرب من الدولة العلية - تركيا - وتغير سياستها نحوها تغييراً محسوساً ، فمن الذى يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولاً وفعلاً وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا » .

فماذا يقول الكسالى الجاهلون وقد وضعنا تحت نظرهم هذين النصين اللذين يحدان حياة مصطفى كامل السياسية ، أحدهما صدر منه وهو فى السن المبكرة لهذه الحياة القصيرة ، وثانيهما كان ختاماً لهذه الحياة ؟ ؟

١٣

أخى المواطن :

ماذا كان يحدث لو لم يهاجر فريد من مصر إلى تركيا فى ٢٦ مارس سنة ١٩١٢؟ هذا سؤال ضخم ، لم يعرضه أحد من المؤرخين على بساط البحث ، لأن افتراضه عبث لا طائل تحته ، والحق أنه عبث، لأن فريداً لم يهاجر فعلا . فتصور عدم هجرته أمر أدخل فى نطاق الأدب ، منه فى نطاق العلم والتاريخ المحقق .

ولكن افتراض هذا الفرض، مع ذلك يفيد المؤرخ ، لأنه يعينه على دراسة تاريخ الحقبة الواقعة بعد سنة ١٩١٢ فى ضوء أكبر ، إن هذا السؤال يأخذ بيد الباحثين إلى تحديد أكثر كمالاً وعدلاً ، لدور محمد فريد فى تاريخ مصر.

لقد درجت على القول بأن مصطفى كامل فى تاريخ مصر الوطنى والسياسى الحديث هو كالسور القصار فى القرآن ، وفى تاريخ الإسلام. أما محمد فريد ، فكالسور الطوال فى كتاب الله العزيز ، وتزيدنى الأيام اقتناعاً بهذا التشبيه .

فمصطفى كامل ، كان كالشهاب الخاطف ، قصير العمر ! بدأ كفاحه الوطني شاباً ، ومات في ريعان الشباب ، وكان دوره الدعوة ، في شمول معناها ، وفي مستوياتها العامة المطلقة . كان أذاناً ، وتبشيراً ، وإيقاظاً ، وإهابة . كان كلامه حارا ، له طابع الشعر ، وفيه وزن الموسيقى وجمال إيقاعها .

فلما لحق بالرفيق الأعلى ، وآلت الزعامة إلى محمد فريد لم تعد الأمة في حاجة إلى من يدعوها ، فقد استجابت لدعوة مصطفى كامل ، وعبرت عن هذه الاستجابة مراراً : استجابت له حينما نفذ حكم دنشواى ، واستجابت له حينما خرجت تشيع جثمانه هو ، في جموع لم يشهد التاريخ المصري الحديث مثل احتشادها لحادث سياسي من قبل : إذن وقفت الأمة على قدميها ، ووقفت أمام الاحتلال وجهاً لوجه ، فلم يعد للاحتلال مفر من أن يختار أحد أمرين : إما أن يفسح لها الطريق ، لتغلبه على أمره ، وتقذف به من سماء قوته وإما أن يخنقها ، ويكتم أنفاسها .

وقد تريث الاحتلال في البطش الساخر بالحركة الوطنية ، لأن تقليد الاحتلال البريطاني في كل مكان هو أن يضبط نفسه ما دام الأمر مقدوراً عليه ، بغير العنف . فإن أنس من جانب الوطنية قوة ، تجاوز هو كل حد ، ولجأ إلى كل سلاح ،

وبطش بكل فضيلة ، وداس كل قانون . فما يبدو على أسلوب الاحتلال البريطانى من ميل إلى المسالمة ، وأخذ للمسائل برفق ، وعلاج للمشاكل بهدوء مرده أن حظ بريطانيا ساقها إلى أمم كانت الكوارث والمصائب قد خنثت رجالها وأفقدتهم الميل إلى النضال ، فإذا استعادت هذه الأمم غريزة القتال وقاومت ، نزل بها العذاب ألواناً .

ولم يترك مصطفى كامل مصر ، إلا بعد أن عاد إليها حب القتال ، واستيقظت فيها غريزة النضال ، فكان على محمد فريد أن يقودها فى هذه المعركة الشاقة المرهقة فكان كفئاً لهذه المهمة ، بل لعله تعجل المعركة قليلا ، قبل أوانها ، تحرقاً لمنازلة الأعداء .

لقد خرجت الحركة الوطنية ، من حجرات دار اللواء حيث كانت المقالات الوطنية تكتب إلى مجال الشعب العام . إلى الشوارع . . .

وقد بدأ هذا التدرج بسيطاً ، ولكنه وصل إلى غايته سريعاً ، وكانت البداية فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، يوم احتفال الجيش البريطانى فى مصر ، بعيد الإمبراطورية ، فقد هتف طلبة مدرسة الحقوق المجاورة لميدان عابدين ، مكان العرض العسكرى المقام لهذه المناسبة .

هتف الشعب ، ما أغرب ذلك وما أعجب !

فإن هذا الشعب كان دوره مقصوراً على أن يقرأ المقالات ويسمع الخطب . ولم يكن يصدر عنه شيء . فما الذى أنطقه . ثم ما الذى جعل أول ما نطق به تحدياً لجيش الاحتلال نفسه . وفى يوم الاحتفال بعيد الإمبراطورية ؟ ؟

كانت الحركة الوطنية ، قد جاشت . ووصلت إلى حافة الانفعال فى يوم وفاة مصطفى كامل ، وكان تدفق جموعها إيذاناً بأن الانفعال الداخلى أصبح تعبيراً خارجياً . .

ولكن هذا التعبير الخارجى الذى بدأ بالهتاف يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٠٨ استحال فى ٢٦ مارس سنة ١٩٠٩ ، إلى صدام مع قوة الاحتلال ممثلة فى البوليس المصرى الذى كان يرأسه ويشرف عليه ويديره حكمدار بريطانى .

وقع الصدام من أجل الأداة التى تعبر بها الحركة عن نفسها ، أعنى الصحافة .

ذلك لأن وزارة بطرس غالى التى ضمت سعد زغلول وحسين رشدى ومحمد سعيد ، أصدرت فى ٢٥ مارس قراراً بإعادة العمل بقانون المطبوعات الذى أصدرته حكومة الثورة العرابية لاعتبارات الثورة القائمة وقتذاك ، فانعقدت لجنة الحزب الوطنى الإدارية برياسة محمد فريد ، واستنكرت إعادة العمل بهذا القانون .

واستجاب الشعب فوراً لهذا التوجيه فاجتمع في حديقة الجزيرة آلاف من طلبة المدارس العليا والتجار والعمال وساروا في مظاهرة حافلة حتى ميدان الأوبرا . .

وفي يوم الأربعاء ٣١ مارس تجددت المظاهرات وخرج من صفوف المتظاهرين خطباء الشعب ، هؤلاء الخطباء الذين يعرفون كيف يلهبون الجموع بعباراتهم الحماسية التي ينتقونها ، وهم معلقون على أفرع الأشجار أو محمولون على أعناق الزملاء.

وجد الشباب إذن أداته للتعبير ، كما وجد من قبل أهل البيوت وأصحاب المكاتب، وسيلتهم لهذا التعبير ، وهي الصحيفة . وأحاديث المنتديات.

ولكن كيف حدث هذا التطور ؟

حدث لأن محمد فريد اتجه إلى الشعب ، وقد ربط نفسه بهذا المحيط الفسيح حينما جعل أساس سياسته هو مواجهة مشاكل الشعب ، ومحاولة حلها .

فأنشأ مدارس الشعب ، وأنشئت أول مدرسة من هذا النوع في حي بولاق ، والتي أول درس فيها المرحوم الأستاذ أحمد لطفي، في موضوع (شئون اجتماعية) ! وإني لأرجوك أن تقف أمام هذا الموضوع ، وأن تتأمل عنوانه ، لأنه ذو دلالة كبرى ، فإن الحديث في الشؤون الاجتماعية ، الذي هو طابع أيامنا هذه

كان أمراً نادر الوقوع فى أيام محمد فريد .

والتأمل فى برنامج هذه المدارس ، يزيد الإنسان فهماً لعقلية محمد فريد، والحزب الوطنى فى هذه الحقبة ، فقد كان البرنامج يتناول الشؤون الاجتماعية، وقانون الصحة، والصحة الوقائية ، ورعاية الطفولة، والقوانين المتصلة بالحياة اليومية ؛ وتاريخ مصر، والتاريخ الإسلامى .

فمدارس الشعب من ذلك التاريخ المتقدم حاولت أن تنشر الثقافة السياسية والثقافة الاجتماعية بين أفراد الشعب ، لتأهيلهم لفهم قضايا الوطنية ، ولقيادة الحركات الشعبية عن فهم وإدراك وبصيرة .

وكان طبيعياً أن يلتفت محمد فريد، وهو صاحب هذه النزعات الاجتماعية الأصيلة إلى الجناحين اللذين يحلق بهما كل حركة شعبية فى العالم، وهما الفلاحون والعمال، فأحس بحرمان العمال من كافة الضمانات والحمايات التى كان العمال فى غير مصر قد ظفروا بها . فكتب فى جريدة الديلى نيوز مقالاً قال فيه فى يولية سنة ١٩٠٨ :

« إلى الآن لا توجد بمصر قوانين خاصة بحماية العمال ، ولا قوانين تحدد سنهم ولا عدد الساعات التى يجب أن يقضوها فى العمل ، فتجد العمال مثقلى الكواهل بلا رحمة خصوصاً فى

معامل الدخان ومعامل حلج القطن حيث يشتغل العمال الأطفال ذكوراً وإناثاً فى وسط من أردأ الأوساط من الوجهة الصحية والأدبية . »

ولكى تستطيع أن تعرف مقدار تقدم عقل محمد فريد ، وسبقه لمعاصريه ، أقول لك إنى أستطيع أن اتحدى بهدوء واطمئنان أن كلمة كهذه عن العمال ، لم ترد على لسان أى زعيم حزب سياسى آخر من الأحزاب التقليدية بعد محمد فريد حتى كان ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ — فالحديث عن العمال ، وعن تشريعاتهم والمطالبة بضمانات لمستقبلهم ، ولتحسين الحالة التى يعملون فى ظلها ، أمر كان غريباً غاية الغرابة ، عن العقلية السياسية المصرية ، وقد طبعت جميع محاولات محمد فريد وجهوده السياسية بهذا الطابع الشعبى .

فهو لم يرد مثلا أن تكون المطالبة بالدستور ، عملا يقوم به الخاصة ، فطبع عشرات الألوف من العرائض تتضمن كلها المطالبة بالدستور ، ووزعها أعضاء الحزب الوطنى ، على الشعب ليوقعوها ، ويؤيدوها ، فنشرت حملة العرائض هذه الفكرة الدستورية ، فى أوسع نطاق ، فوجهت الشعور العام هذا الاتجاه ، وزادت من إحساس السلطات عموماً مصرية ، وأجنبية ، بضغط الشعب .

لم يكن ممكناً. وفريد هذا أسلوبه وطابعه ، أن يبقى على أية علاقة بالخديو .

صحيح أن العلاقات بين مصطفى كامل والخديو . كانت قد فترت بينهما قبل وفاة مصطفى كامل ، ولكنها لم تنقطع أبداً . ولما آلت الزعامة إلى فريد ، حاول الخديو أن يتلطف لفريد وأن يكسبه لصفه ، وقد قبل هذا التلطف محمد فريد أول الأمر ، إلا أنه لم يلبث أن أحس أن هذا التلطف من قبيل المصافحة الرسمية التى تتم بين المتلاكمين ، فى حلبة الملاكمة . فاستعد لها محمد فريد ، وكال للخديو كما كال للإنجليز لكمات مصيبة شديدة .

إنه لم يدع للخديو أبداً فرصة الانحراف عن طريق الوطنية المستقيم ، حينما أراد الإنجليز أن يعدلوا عن سياسة الشدة معه ، ليبدأوا سياسة التخدير والإغراء التى عرفت بسياسة الوفاق ، بعد أن عزل اللورد كرومر وحل محله السير الدون جورست ، كان محمد فريد يصلى الخديو شواظاً من نار كلما رأى هذا الانحراف .

وقد كان من حملاته على الخديو والإنجليز مقالا افتتاحياً نشره فى جريدة « الشعب » :

« لما بدأ السير جورست سياسته الجديدة الموسومة بسياسة

الوفاق كنت فى مقدمة من حذر الأمة منها فى أول خطبة عامة ألقيتها فى تياترو الشيخ سلامة حجازى فى ١٧ أبريل سنة ١٩٠٨ فأبنت ما يعود على الأمة من مضار بسبب اتفاق صاحب السلطة الشرعية مع المحتلين . »

وقد نفد صبر الخديو من ضغط محمد فريد المتجدد فرماه وبقية أنصاره من أبناء الحزب الوطنى بالتسرع ، فلم يسكت محمد فريد على هذا الهجوم، فرد عليه قائلا :

« لا أدرى ما الذى حمل سمو الأمير على اعتبارنا متسرعين وملحفين فى طلب الدستور مع أن مبادئنا لم تتغير من سنة ١٩٠٧ إلى الآن، بل ما زالت هى هى تلك المبادئ التى أساسها طلب الجلاء وطلب الدستور، والتى تم عليها الاتفاق فى حياة المرحومين لطيف باشا سليم ومصطفى باشا كامل فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٠٦ قبل أن يعلنها المرحوم مصطفى باشا كامل فى خطبته بالإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ؟ »

وقد أفضى ذلك كله إلى النتيجة الحتمية ، أن يكون محمد فريد هدفاً لاضطهاد الإنجليز والحكومة المصرية ، وهذا ما دعاه إلى الهجرة إلى تركيا فى ٢٦ مارس سنة ١٩١٢ . فهل أخطأ ، أو أصاب ؟ وماذا كان يحدث لو أنه بقى فى مصر حتى أعلنت الحرب العالمية فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ .

أما هجرته فى ذلك الحين . أى فى التاريخ الذى وقعت فيه . فلم يكن عليها غبار . لأن محمد فريد ، وهو طليق . بعد أن ارتبطت أسبابه ، بالمجال الدولى ، وأصبح معروف الاسم لدى المحافل الكبرى ، كان يستطيع أن يخدم قضية مصر ، وهو خارج مصر ، أكثر من الخدمة التى كان يؤديها لها . وهو داخلها ، وسيف الرقابة والاضطهاد والسجن معلق فوق رقبته . ولا شك أنه حينما سافر إلى تركيا ، لم يكن يتوقع أن الحرب الكبرى ستعلن بعد هجرته إليها ، بسنتين وبضعة أشهر . ولو تكشفت له حجب الغيب ، لفكر طويلا فى مشروع الهجرة الذى عزم عليه ثم نفذه .

ولكننا مع ذلك نرى أن وجود الزعيم على رأس الحركة التى يقودها ، واتصاله المباشر ، بضباطها وجنودها ، يزيدها قوة ، وكل اضطهاد يصيبه ، يرفع من قدره ، ويزيد من نفوذه ، فالهجرة لا تجوز إلا حين يثبت أن الخطر متجاوز حرية الزعيم إلى حياته ، فهنا تجب الهجرة ، لأنها تنقذ الحركة جميعاً ، وتبقى عليها ، وتضمن لها الحياة . وقد لا يكون من المصادفة البحتة أن يهاجر الأنبياء الثلاثة موسى وعيسى ومحمد ، فى الوقت الذى يبلغ الائتمار بهم إلى حد التفكير فى اغتيالهم ، وحينما لا يكون ثم سبيل للنجاة غير الفرار . ولست أشك فى أن محمد فريد ، إذا

فترة الحرب ، فى الاعتقال ، ولكنه كان سيبقى الزعيم المدخر للحركة الوطنية طوال هذه الفترة . ولكان استمرار اعتقاله بعد أن تضع الحرب أوزارها ضرباً من المجازفة لم تكن بريطانيا تقدم عليه ولم يكن الشعب فى حاجة إلى أن يبحث له عن زعيم فى سنة ١٩١٨ ، بل كان زعيمه المعترف له بالسبق ، والفضل والقدرة هو محمد فريد غير منازع . ولما قامت إلى جوار زعامته ، زعامة أخرى تنافسها ولكانت زعامة مهيأة فعلا للقيام بتبعاتها ، تعرف مبادئها وتعرف أساليبها ، وتعرف ماذا تريد .

ولم تكن مصر لتضيع الوقت الذى ضيعته فى الخلافات التى نشبت بين أبناء المدرسة المعتدلة الذين كانوا لا يرون خيراً من التعاون مع الإنجليز ، فى ذلك الحين ، مما جعل الخلاف بينهم مقصوراً على مدى هذا التعاون ودرجته ، والإسم الذى يسمى به فى الوثائق والمستندات .

ولا شك أن محمد فريد ، كان يتجه بالحركة الوطنية الاتجاه الذى تأخر ربع قرن من الزمان ، اتجاه الشعب الصريح وإفساح المكان اللائق للفلاحين والعمال وأبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة ، فإن رجلا يقول فى ٧ يناير سنة ١٩١٠ :

« العمال فى بلادنا مهملون كالفلاح فلا قانون يلزم المقاول

بقى فى مصر ، حتى إعلان الحرب العالمية ؛ فإنه كان يقضى بدفع تعويض لمن يموت شهيد عمله أو يفقد أحد أعضائه فيصبح عديم الكسب ، ومن الأمثال العامية أن الفاعل (ديته أجرته) ولا الحكومة تفكر فى الدفاع عنه فهى لاتشغل كما قلنا إلا بدفع فوائد الديون للدائنين الأجانب ، أو هى شبه شركة لاستغلال وادى النيل .

« نقابات العمال قوة هائلة تخضع لها الحكومات وتطأطئ رأسها أمامها وبفضل مجهودات هذه النقابات وضعت قوانين فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا تضمن لكل عامل فى الصناعة أو الفلاحة معاشاً سنوياً متى يبلغ سناً معلومة .

« ولم يكن لديه ما يسد به الرمق ويمنعه من التكفف ولقد كان هذا القانون بإنجلترا هو الباعث على تغيير أساس ربط الضرائب » .

إن من كان يقول هذا فى سنة ١٩١٠ .. ماذا كان يقول فى سنة ١٩١٨ ؟ وماذا كان يقول بعد ذلك ؟

إن محمد فريد ، لو عاش فى مصر ، وامتد به العمر ، لكان زعيما عالمياً ، يقى مصر ، ويقى الشرق العربى كله ، بل يقى الشرق الأوسط ، ما تورط فيه ، وما زال يعانيه من الحيرة بين المذاهب والمبادئ ، ولعرف هذا الشرق منه نفسه ، أو عاد إليها ، ولبقى كما كان ، مصدراً لمعرفة أصيلة ، ومنبعاً لحضارة منيعة .

اقرأ

قدري حافظ طوقان

بين البقاء والفناء

دار المعارف بمصر

بَيْنَ البقاء وَالفناء

قدري حافظ طوقان

بين البقاء والفناء

اقرأ
دار المعارف بمصر

اقرأ – ١٤٩ – مايو ١٩٥٥



الإهداء

إلى

أول من عمل على إيجاد الوعى الذرى فى مصر وسائر البلاد العربية .

ودعا إلى الاهتمام بالعلم وتطبيقاته .

وآمن بالأسلوب العلمى ورأى فيه مدرسة للخلق العالى وسبيلا إلى السموّ والإبداع .

إلى المغفور له الدكتور على مصطفى مشرفة.

أهدى هذا الكتاب إحياءً لذكراه وتقديراً لفضله وعلمه ونبوغه .

هذا الكتاب

رأيت أن الواجب القومى والواجب العلمى يحتّمان علىّ أن أتولى مهمة تحرير كتاب عن الذرة من الناحية الطبيعية (الفيزيكية) النظرية ، وهى المشروحة فى كتب الطبيعة العالية والمجلات العلمية ، والناحية العامة وأثر هذه الطاقة الذرية فى الصناعة والحياة وإمكانية استخدامها فى الأغراض السلمية ، وموقف العلماء والعالم منها . فكان هذا الكتاب وكان العنوان : « بين البقاء والفناء »

وقد بذلت الجهد ليكون سهل التناول بسيطاً غير مثقل بالمعادلات والقوانين والتفصيلات الفنية ، وكلى أمل أن يجد فيه القارئ العربى ما يجعله يؤمن بالأسلوب العلمى وأثره فى التقدم والاختراع ، وما يحفزه إلى إعداد عقله ونفسه لتحقيق رسالة الحياة وإعلاء كلمة الحق والخير وما يخرجه إلى الحقيقة التالية :

إن الحياة قد امتزجت بالعلم بحيث لم يعد لها معنى بغيره.

فلا خلاص للعرب إلا على هذا الأساس ، ولا كيان لهم إلا إذا سايروا الحضارة فى ركبها وشاركوا فى الارتقاء الإنسانى مشاركة فعالة تقوم على تسخير جهودهم وقواهم وقابلياتهم وإمكانياتهم فى تحقيق العدل الاجتماعى وفى ميادين الإنتاج الشامل والخير المشترك .

نابلس – الأردن　　　　　　　　قدرى حافظ طوقان

الفصل الأول

الطاقة الذرية

الإنسان المدمر — صغار الأشياء وكبارها — بناء الذرة — الكوْن فى الذرة — الطاقة المحبوسة — النشاط الإشعاعى — الانفجارات المستمرة — محطم الذرة — القنبلة الذرية — حرارة الشمس والنجوم — الطاقة المادية — عيون العلم — قنابل الهيدروجين — تحذير العلماء — قنابل الكوبالت — إفناء الذرة — التجارب الجديدة — الوقاية من أخطار الذرة.

١

حين سمع الناس بانفجار القنبلة الذرية فوق هيروشيما ونجازاكى فى أغسطس سنة ١٩٤٥ وعلموا بضحاياهما من عشرات الألوف من البشر ، وحين نقلت لهم الإذاعات أنباء الأضرار الجسام والتدمير الشامل والكوارث التى ألحقتها هذه القنابل اعترى الناس دهشة وسادهم ذهول .

تراهم مكذبين وما هم بمصدقين ، حيارى من هول فعلها وعظم أثرها لا يدرون ماذا يقولون . . . فالقنبلة مفاجأة لا كالمفاجآت . . . وهى خبر لا كالأخبار ، سرى ذكرها فى الناس سريان الكهرباء فى الأسلاك . . .

فقد شغلهم أمرها وكان — ولا يزال — حديث المجتمعات والطبقات فى جميع الأمكنة والجهات ؛ واستوى فى تلك الدهشة وذلك الذهول العالم والجاهل ، الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فلم يكن أحد منهم ينتظر أن يسيطر العلم على الذرة بهذه السرعة وفى هذا العصر .

وأذكر أنى اطلعت على كتاب صدر فى أميركا سنة ١٩٤١

يبحث فى مبادئ الطبيعة وضعه أستاذان من أساتذة الجامعات اشتهرا فى العلوم الطبيعية ولمعا فيها . فى هذا الكتاب نجد أن المؤلفين يستبعدان السيطرة على الطاقة الذرية ويعدان ذلك حلماً من أحلام العلماء وهدفاً بعيداً من الأهداف . ويقولان إنه ليس هناك من الأدلة ما يشير إلى احتمال السيطرة على هذه الطاقة فى هذا العصر .

لقد كان فعل القنبلة يفوق جميع ما أنتجه العقل من متفجرات ومهلكات ؛ فهى تمسح المدن مسحاً بمن عليها وما عليها من مبان .ونبات وإنسان وحيوان وتغير المعالم وتودى بالأوضاع . فالقوة الانفجارية تعدل قوة عشرين ألف طن من أقوى المتفجرات المستخدمة فى القنابل والقذائف ، وهذا ما جعل أثر القنبلة واسع المدى عريضه ، فالمدينتان اللتان قذفتا بالقنابل الذرية أصبحتا أكواماً من الأطلال ، والقتلى يعدون بمئات الألوف ماتوا حرقاً وبسبب الحرارة والضغط الشديد . فالدمار شامل والمسح تام والأضرار فوق كل تصور مما لا يخطر على بال إنسان .

ولا بد لنا من القول إن فكرة الدمار والمسح التام ليست حديثة العهد ، بل هى قديمة . فقد جاء أن (تيتوس) حين محاصرته القدس (وكان ذلك حوالى سنة ٦٠ بعد الميلاد) قتل

جميع السكان وأباد الحيوانات وأشغل المحراث فى أراضيها . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل بذر الأرض ملحاً حتى لا ينبت فيها نبات أو يعيش فيها حيوان .

وهناك من الوقائع ما يدل على أن الشر موجود فى البشر وصفحات الحروب فى العصور الماضية حافلة بأنواع التدمير والغزو والمصائب التى يشيب من هولها الولدان .

كان الغزاة فى القرون الخاليات يحملون معهم السيف والنار ولا يحسنون غير القتل والدمار والفتك بالإنسان والحيوان على السواء ، ويفتنون فى التخريب والفناء فى المدن حين يدخلونها فاتحين ناهبين محرقين مدمرين .

والآن تتحارب الأمم بالروح نفسها والفكرة ذاتها ولكن بوسائل تختلف مع الزمان وتقدم الإنسان فى فنون الهلاك والدمار فهم يتحاربون ويسيرون على الحديد ويدبون فى دباباتهم هادمين ويطيرون فى طائراتهم مدمرين .

برهم يتأجج بالحديد والنار .

وبحارهم تلفظ الحمم والهلاك.

وسماؤهم ترسل القذائف والصواعق وتكر الأطنان من اللهب والقنابل .

والإنسان فى القرن العشرين هو الإنسان فى القرون الماضيات.

فهو المدمر وهو المبيد وهو المبتكر لوسائل الإفناء وهو المتفنن فى التخريب والتقتيل .

لكن الإنسان فى هذا القرن أشد فتكاً وأعمى بصيرة من الإنسان فى القرون الماضية . فلقد اتخذ العلم مطية لإشباع شهواته وغرائزه فى الشر والفتك ، إذ وجه قواه نحو التدمير والإفناء حتى وصل فى ذلك إلى درجة لم يحلم بها أحد من المتقدمين مهما سما خياله وحلق به تفكيره .

ولا ندرى أيستمر الإنسان على هذا الحال فالحضارة مقضىّ عليها وعلى معالم المدنية والسلام ، أم يعود فيوجه العلم وقواه نحو البناء والإعمار ليبنى عالماً أفضل تسوده الرحمة والعدل وتتحقق فيه أغراض الروح من أمن وسلام واستقرار .

٢

ان إنتاج القنبلة الذرية قد قلب الأوضاع ، وهو بداية عصر جديد هو عصر الذرة ، ولا شك أن السيطرة على الطاقة الذرية نقطة تحول فى تاريخ العلم مما سيكون له آثار بعيدة فى سير الحضارة واتجاهاتها . ولهذه القنبلة خصائص وميزات هى فى حد ذاتها معجزات تقوم على الذرة وما فيها من قوى

عظيمة مخزونة قال بها بعض العلماء فى الماضى ، فكانت أقوالهم محل شك ، ولم يكن يأخذ بها ويصدقها إلا القليلون .

ولكن آثار القنبلة الذرية أثبتت صحة الأرقام والتجارب التى قام بها علماء الطبيعة فى المختبرات كما دللت على صحة النتائج التى وصل إليها علماء الفلك والكيمياء وغيرهم فى الإشعاع وقوانينه وحركات النجوم والكواكب وبنائها ونشاطها .

ونبحث الآن فى منشأ قوة الذرة الهائلة ، أو بتعبير علمى صحيح منشأ هذه الطاقة الكامنة التى مضى على العلماء عشرات السنين وهم يحاولون السيطرة عليها . فالقنبلة تنبئنا أنهم استطاعوا إلى حدّ ما أن يسيطروا عليها ، الأمر الذى كان يعده الكثيرون خيالا من الخيالات . ولكن هذا الخيال قد أصبح حقيقة واقعة ، فلقد توفقوا إلى إطلاق الطاقة بشكل انفجارى . ومن يدرى فقد يتوفقون فى المستقبل القريب إلى إتمام السيطرة عليها ـ وجرت محاولات فى هذا السبيل فى أميركا وإنكلترا وروسيا مما سيمهد إلى استخدام هذه الطاقة فى نطاق عريض فى العمران والأغراض السلمية .

إن المادة تتكون من جزيئات Molecules ، وهذه الجزيئات تتكون من ذرات Atoms العناصر التى تتكون منها المادة المركبة . فجزىء الماء مثلا يتكون من ذرتين من عنصر الهيدروجين

وذرة من عنصر الأوكسجين . والذرة أصغر أجزاء العنصر ، بل هى أصغر جزء يمكن أن ينقسم إليه العنصر مع المحافظة على خصائصه .

وهى صغيرة إلى حد كبير لا تستطيع العين المجردة ولا أقوى المجاهر رؤيتها . وقد حسب العلماء قطرها (قطر الذرة) – ولهم فى ذلك أساليب وطرق خاصة – فكان الحساب لقطر أكبر الذرات جزءاً من ١٠٠ مليون جزء من البوصة . أى أننا إذا صففنا مئة مليون ذرة الواحدة بجانب الأخرى بلغ طول الجميع بوصة واحدة . ولسنا بحاجة إلى القول إن هناك ذرات أصغر من ذلك بكثير .

والإنسان استطاع إدراك الأشياء الصغيرة من جهة والكبيرة من جهة ثانية . استطاع أن يعبر الفضاء بكواكبه ونجومه مستعيناً بعيون العلم الحادة من معادلات وقوانين وتحليل ومراقب وآلات رصد وتصوير . كما استطاع أن يقتحم الذرة فيحطمها ويقف على أسرارها . ولا عجب فى ذلك فهو متوسط بين الذرات والنجوم . فبينما هو كبير جداً بالنسبة إلى الجزىء إذ وزنه يعدل ألف مليون مليون مليون مليون جزىء ، نجد أنه فى الوقت ذاته صغير جداً بالنسبة إلى أحد الكواكب المتوسطة القدر التى يعدل وزنها عشرة آلاف مليون مليون مليون مليون رجل ! !

ومن هنا يتبين أن الإنسان يكاد يكون متوسطاً بين صغار الأشياء وكبارها .

ومن هذه النقطة المتوسطة استطاع أن يكشف عن طبيعة الذرات المتناهية فى الصغر من جهة ، والكواكب والنجوم من جهة أخرى بفضل ما وهبه الله من الصفات الروحية والعقلية .

٣

لقد تمكن العلماء – وعلى رأسهم العالم الطبيعى الأشهر (روذرفورد) من كشف بناء الذرة . فتوصلوا إلى أن الذرة تتكون من نواة يحيط بها عدد من الكهارب تتحرك حولها بسرعة هائلة ؛ والنواة تتكون من بروتونات ونترونات . أما فى الذرة الهيدروجينية فلا يوجد إلا بروتون واحد وهو النواة وكهرب واحد يدور حوله .

وتبين للعلماء أن الكهارب Electrons ليست إلا جسيمات سالبة التكهرب . بينما البروتونات Protons موجبة التكهرب . وليست النترونات Neutrons إلا جسيمات متعادلة الكهربائية أى لا هى موجبة الشحنة ولا سالبتها ، وقوامها بروتون وكهرب متلاصقان . . .

هذه هى الفكرة السائدة عن بناء الذرة الأساسى . وقد فسرت ظواهر كثيرة على أساسها .

وهناك اتجاه جديد حول هذا المبحث ويختلف عن الاتجاه المعروف بعض الشىء . فالكهارب التى تدور حول النواة لا تملك خاصيات المادة فحسب ، بل فى بعض الأحيان تتصرف تصرفاً يدل على أن لها خصائص تموجية . ومع ذلك يقول (هودجسون) إنه من المفيد أن يتجه العالم هذا الاتجاه ولكن عليه أن لا ينسى حدود الكهارب ونطاقها .

وبيّن بعض العلماء أن هناك جسيمات غير البروتون والنترون والكهرب (الإلكترون) داخل الذرة وهى تتمتع بميزات خاصة . من هذه الجسيمات : البوزيترون Positron وقد كشفه أندرسون خلال دراسته للأشعة الكونية ، وأوضح العلماء كذلك أن هناك من الظواهر ما يوحى لهم بأن فى الذرة أيضاً ميزوترون Mesotron وديوترون Deutron ونيوترتو Neutretto . وقيل إن العلماء عثروا على جسيم لا شحنة له وكتلته تعادل كتلة الكهرب أو أقل قليلا واسمه نيوترينو Neutrino .

وليس المجال مجال شرحها وكيفية الحصول عليها أو كشفها من الأشعة الكونية أو من انحلال بعض الذرات أو من وسائل أخرى .

ويمكن العثور على التفصيلات الفنية المتعلقة بهذه الجسيمات من المجلات العلمية أو كتب الطبيعة العالية التى ألفت حديثاً .

ونعود إلى الكهارب فنقول :

يختلف عدد الكهارب التى تدور حول النواة ويساوى دائماً عدد البروتونات الموجودة فى النواة ، فبينما هى كهرب واحد يدور حول بروتون واحد كما فى الهيدروجين ، إذا بها ٨ كهارب تدور حول ٨ بروتونات فى الأوكسيجين ، و ٢٦ كهرباً تدور حول ٢٦ بروتوناً فى الحديد . ويرتفع العدد فيصل فى بعض العناصر إلى ٩٢ كهرباً تدور حول ٩٢ بروتوناً موجودة فى نواه ذرة اليورانيوم ، ووصل العدد فى بعضها إلى ٩٨ كهرباً تدور حول ٩٨ بروتوناً موجودة فى نواة ذرة الكاليفورنيوم .

وكذلك تختلف العناصر بنوّاياها . فنواة الهيليوم تتكون من بروتونين ونترونين ويدور حول هذه كهربان . ونواة الأوكسيجين تتكون من ٨ نترونات و ٨ بروتونات ويدور حول هذه ٨ كهارب . ونواة الكربون تحتوى على ستة نترونونات وستة بروتونات ويدور حول هذه ستة كهارب . أى أن عدد الكهارب يساوى دائماً عدد البروتونات الموجودة فى النواة

ليحصل التعادل الكهربائى . وثقل العنصر يتبع عدد البروتونات والنترونات ، فذرة الهيدروجين أخفها لأن نواتها تحتوى على بروتون واحد ، بينا ذرة اليورانيوم من أثقلها لأن نواته تتكون من ٩٢ بروتوناً و ١٤٦ نتروناً ، ويدور حول هذه النواة ٩٢ كهرباً .

فالوزن الذرى للهيدروجين هو ١ ، والوزن الذرى لليورانيوم هو ٢٣٨ ، أى أن الوزن الذرى يساوى مجموع النترونات والبروتونات الموجودة فى نواة ذرة العنصر .

أما عدد الكهارب التى تدور حول النواة فهو العدد الذرى للعنصر . وعلى ذلك فالعدد الذرى للأوكسيجين ٨ وللهيليوم ٢ ولليورانيوم ٩٢ .

وترجع خصائص العناصر الكيميائية إلى عدد الكهارب وترتيبها حول النواة . فذرة الأوكسيجين مثلا تشتمل على ٨ كهارب تدور حول النواة فى ترتيب خاص . هذه الكهارب وكيفية ترتيبها حول النواة تعطى ميزات وصفات خاصة لعنصر يُطلق عليه اسم الأوكسيجين . وذرة الذهب تحتوى على ٧٩ كهرباً تدور حول نواته فى ترتيب خاص . هذا الترتيب الخاص وذاك العدد ٧٩ هما الأساس الذى تفسر به طبائع عنصر يُطلق عليه اسم الذهب .

إن هذا البحث يؤدى بنا إلى التعرض (بصورة موجزة وبسيطة) إلى موضوع النظائر Isotopes .

هناك عناصر لها نفس الخصائص الكيميائية لتساوى عدد كهاربها حول النواة ، ولكنها تختلف فى الوزن الذرى الناتج عن اختلاف عدد النترونات فى نواتها .

فالأوكسيجين الذى وزنه الذرى ١٦ له نظيران وزن أحدهما ١٧ والآخر ١٨ .

والهيدروجين الذى وزنه الذرى ١ له نظير وزنه الذرى ٢ ، ويسمى الهيدروجين الثقيل أو ديوترون Deutron والماء الذى يحتوى على الهيدروجين الثقيل يسمى الماء الثقيل . وله خواص تختلف عن خواص الماء العادى .

ويعتبر الهيدروجين الثقيل سلاحاً جديداً لمهاجمة الذرة وتحطيمها والكشف عن أجزائها وطريقة تركيبها .

وكذلك لليورانيوم نظائر تختلف فى أوزانها الذرية لكنها تتحد فى عدد الكهارب التى تدور حول النواة .

إن الوزن الذرى لليورانيوم العادى هو ٢٣٨ أى أن نواته تتركب من ٩٢ بروتوناً و ١٤٦ نتروناً . ومن نظائره اليورانيوم ٢٣٤ ونواته تتركب من ٩٢ بروتوناً و ١٤٢ نتروناً ، واليورانيوم ٢٣٥ ونواته تتركب من ٩٢ بروتوناً و ١٤٣ نتروناً . وهذا النظير

الأخير أى (اليورانيوم ٢٣٥) هو الذى استعمل فى صنع القنبلة الذرية واستخراج الطاقة الذرية لاحتوائه على مزايا وخصائص لا يتسع مجال هذا الكتاب لشرحها .

واليورانيوم ٢٣٥ موجود (بقلة) فى اليورانيوم العادى بنسبة ٧,١ فى الألف ، ويستخلص بطرق صعبة فنية معقدة منها (ما لا يزال) من الأسرار الحربية .

٤

لقد كشف العلماء أن النظام فى الذرة هو على غرار النظام الموجود فى المجموعة الشمسية ، أى أن الذرة ليست إلا مجموعة شمسية صغيرة تتوسطها شمس هى النواة ويدور حولها كواكب هى الكهارب . والنسبة بين الشمس والكواكب هى النسبة بين البروتون والكهرب . والذرة معظمها فراغ كما هو الحال فى النظام الشمسى . ومن الغريب العجيب أن المسافة بين البروتون والكهرب فى ذرة الهيدروجين كالمسافة بين الأرض والشمس على قياس نسبي . ومن الطريف أن أحد العلماء حسب أن حجم جسم الإنسان لن يتجاوز حجم رأس دبوس صغير فيما لو ضغطت ذرات الجسم البشرى فلصقت

البروتونات بالكهارب دون ترك أى مسافة بينها .

ويذكرنا هذا بالنجم رفيق الشعرى ، فالمادة فيه محشوكة إذ الكهارب البعيدة عن النوايا فى الذرة متداخلة فى مناطق الكهارب القريبة من النواة ، وهذا الحشك يجعل الجسم ذا كثافة عظيمة . فوزن البوصة المكعبة من مادة النجم المذكور ٦٢٠ طنًّا ، والرجل الذى يزن على سطح الأرض (هنا) ٧٥ كيلوغراماً يزن وهو واقف على سطح رفيق الشعرى ٢٥٠ ألف طن ، أى أن قوة الجاذبية بينه وبين أى جسم يأتى عليه هى من الكبر بحيث ينضغط وينبسط . ويقول جينز فى هذا الصدد : « . . . إن الفطرة لا تزال قادرة على أن تعلمنا شيئاً فى فن التكديس ، فلو استطعنا أن نكدس بضائعنا الأرضية تكديساً يقرب من تكديس هذا النجم وأمثاله عند مراكزها لأمكننا أن نحمل مئات الأطنان من التبغ فى علبة صغيرة ، وعدة أطنان من الفحم فى كل جيب من جيوبنا . فإذا قارنّا المادة الصلبة التى على الأرض بالذرات المسحوقة التى يتكون منها أمثال هذا النجم — وهى التى يطلق عليها الفلكيون الأقزام البيضاء — كانت مادة الأرض كأرفع خيوط العنكبوت وما هى إلا نوع من بيوت العنكبوت تسبح فى الفضاء . . . »

ولقد ثبت لدى العلماء أن النظام فى الذرات وما يسودها من قوانين يشبه النظام الشمسى بقوانينه وأنظمته . فالقوانين واحدة والأنظمة واحدة . وما يسيطر على السيارات والشموس هو بعينه فى الذرات فى كهاربها ونواياها . أى أن الكون فى أصغر موجوداته وأكبرها يسير حسب نظام وعلى قوانين ثابتة كشف الإنسان بعضها ولا يزال يحاول كشف بعضها الآخر مستعيناً بالأساليب المتعددة من طبيعية وكيمياوية وفلكية ورياضية .

٥

والنواة ثقيلة جداً بالنسبة إلى الكهارب . فوزن البروتون يفوق وزن الكهرب بمقدار ١٨٤٠ ضعفاً . ولذلك نجد أن أكثر من ٩٩,٩ ٪ من وزن النواة مستقر فى النواة ؛ فهى مقر طاقة الذرة وهى مقر كتلتها .

ويقصد من الطاقة Energy الحركة الموجودة بالفعل أو بالإمكان . أو بعبارة أوضح أن أى كتلة من المادة تتحرك بسرعة ما ، لها طاقة . وحين تزيد السرعة تزيد الطاقة تبعاً لمربع السرعة . وعلى الرغم من أن كتلة الذرة تتركز فى النواة ،

إلا أن النواة هذه صغيرة جداً بالنسبة إلى الذرة ، فلقد أبانت الحسابات الدقيقة أن قطر النواة أقل من جزء واحد من مليون جزء من قطر الذرة . وهذا يعطى فكرة عن ضآلة النترون والبروتون ، كما يعطينا فكرة عن الفراغ العظيم الموجود فى داخل الذرة . ولهذا لا عجب إذا كان هناك حركة ، أى حركة الكهارب حول النوايا . فالمجال لذلك واسع عريض .

والذرة فى حالتها العادية وحدة متزنة مستقرة وذلك بفعل التجاذب الكهربائى والمادى بين الجسيمات التى تتكون منها . ولا يخفى على الذين درسوا مبادئ الكهرباء أن كل جسم مشحون شحنة كهربائية موجبة يجذب كل جسم مشحون شحنة كهربائية سالبة . وإذا كان الجسمان مشحونين بشحنات من نوع واحد حصل تنافر بينهما . وتعرف هذه الظاهرة بقانون كولومب . وكلما زاد الاقتراب بين جسمين زادت قوة الجذب (أو التنافر) وتغيرت تغيراً عكسياً بحسب مربع المسافة بينهما .

وهذا القانون يسرى على جميع ذرات العناصر المختلفة ؛ فكهارب أى عنصر تنجذب إلى نواته المحتوية على بروتونات . وقوة الجذب تخضع لقانون كولومب . أى أن هناك قوة شد عظيمة بينها . ولكن العناصر عدا الهيدروجين تحتوى على أكثر من بروتون واحد . فالنواة فى ذرة الأوكسيجين مثلا

تحتوى على ثمانية بروتونات . إذن يجب أن يحصل بينها تدافع . وكذلك تحتوى نواة ذرة الهليوم على أربعة بروتونات . بينما تحتوى ذرة اليورانيوم على ٩٢ بروتوناً . وفى نواة ذرة الرصاص ٨٢ بروتوناً . وبحسب قانون كولومب يجب أن يحصل بينها تدافع فى نوايا هذه العناصر . ولكن الواقع غير ذلك فلا تدافع ولا تنافر . وبعد بحوث مضنية وتجارب معقدة وبعد تسخير التحليل الرياضى فى ذلك ، توصل العلماء إلى نتائج خطيرة تتلخص فيما يلى :

هناك مسافة يبطل عندها قانون كولومب ، وهذه المسافة هى جزء من ثلاثين مليون جزء من السنتيمتر أى نحواً من $\frac{1}{8}$ قطر أكبر ذرة أو أقل ، إذ يقع تغير فى علاقة البروتونات الموجودة فى النواة ، فيتحول التدافع إلى تجاذب ويصبح بينها قوة جاذبة . وقد حسب العلماء هذه القوة الجاذبة التى تفعل على هذه المسافة بين بروتونين فكانت أعظم من قوة الجذب حسب قانون الجاذبية بين كتلتى البروتونين بنحو 10^{36} مرة أى ألف ألف مليون مليون مليون مليون مليون من المرات .

وخرجوا أيضاً بنتيجة أخرى وهى : « ليست البروتونات خاضعة وحدها لهذه القوة بل والنترونات كذلك فيما بين بروتون

ونترون أو بين نترون ونترون آخر . ولكن يستثنى فى الحالة الثانية أن لا تدافع بين النترونين ، فكأن التجاذب بين النترونين على هذه المسافة أو أقل منها لا صلة لها إلا بكتلتها دون شحنتهما الكهربائية وهى متعادلة كما مرّ معنا . . . »

ولكى نوضح مبلغ هذه القوة الجاذبة بين أى بروتونين نقول إن البروتون جسيم صغير جداً جداً فكتلته لا تتجاوز جزءاً من ٦٠٠ ألف مليون مليون مليون جزء من الغرام . وعلى الرغم من تفاهة وضآلة هذه الكتلة التى لا يتصورها العقل فإن قوة الجذب بين بروتونين فى نواة أى عنصر تتراوح بين ٤ كيلو غرامات و ٢٠ كيلوغراماً . وهذه قوة عظيمة جداً للذين يتفكرون فيها .

ويقول أحد الرياضيين الطبيعيين : « . . . ولو بلغت قوة الجذب النيوتونية هذا المبلغ لكان وزن ريشة على سطح الأرض بلايين الأطنان . . . »

إذن هناك فى نواة الذرة طاقة عظيمة محبوسة بالإضافة إلى الطاقة الموجودة بين الكهارب والنوايا . والكهارب إذا انفصلت عن الذرة كانت الكهرباء بأفعالها وآثارها وتغلغلها فى جميع مرافق الحياة ونواحيها المتعددة .

ولقد عمل العلماء على الحصول على الطاقة من تحطيم

النواة أو تهشيمها فبذلك تنطلق هذه الطاقة المحبوسة التي هي فوق كل تصور .

ولتقريب ما نقول نأخذ المثل في القوس والنشاب . فما دام السهم مشدوداً إلى القوس فإنهما يكونان مجموعة ساكنة مستقرة لا خطر فيها . ولكن حين انقطاع قوة الشد بينهما تتحول الطاقة المحبوسة إلى طاقة حركة فينطلق السهم بسرعة عظيمة .

وفي الذرة حين تتحطم النواة تنطلق طاقة عظيمة قد تتحول إلى طاقة حرارية أو غيرها . وجهود العلماء تتجه نحو السيطرة على هذه الطاقة والانتفاع بها . فإذا تم لهم النجاح وتمت لهم السيطرة على هذه الطاقة تمكنوا من أن يستخرجوا من ماء يملأ فنجاناً صغيراً طاقة تكفي لتسيير بارجة كبيرة آلاف الأميال في المحيطات والبحار . ولقد ذكر غوستاف لوبون في كتابه تطور القوى المطبوع سنة ١٩٠٨ « . . . أن في غرام واحد من المادة من القوة ما يعادل قوة احتراق ٣٠٠٠ طن من الفحم . . . »

٦

إن إطلاق هذه الطاقة من الذرات المحطمة واستعمالها كان هدفاً بعيداً كما سبق القول . ولكن الأمر على ما يظهر أصبح قريباً . وها هم أولاء علماء الإنكليز والأميركان والروس والألمان وغيرهم بعد جهود جبارة استهلكت المبالغ ذات الأرقام الفلكية استطاعوا أن يبتدعوا من الوسائل والأساليب العملية ما مكنهم من إطلاق بعض الكميات الهائلة من الطاقة المحبوسة فى الذرة وتحويلها إلى قوى انفجارية .

وليس من السهل تحطيم الذرة أو نواة الذرة ، كما أن العناصر تختلف فى قابليتها . فالمواد الثقيلة كاليورانيوم والراديوم مثلا تتحطم ذراتها من تلقاء نفسها وباستمرار . ويترتب على هذا انبعاث جسيمات على صورة أشعة . وهذا ما يطلق عليه بالنشاط الإشعاعى أو الإشعاع الراديومى .

والأشعة هذه على ثلاثة أنواع :

أشعة (ألفا) ، وأشعة (بيتا) وأشعة (جاما) .

فأشعة (ألفا) عبارة عن مقذوفات مادية تنطلق من نواة الذرة هى فى الواقع نواة ذرة الهيليوم ، وتنطلق بسرعة هائلة

تتراوح بين ١٠,٠٠٠ و ٢٠,٠٠٠ ميل فى الثانية .

ومن هنا يتبين أن فى العناصر الثقيلة عناصر أخف منها . وهذه العناصر الخفيفة تخرج أثناء الانحلال .

أما أشعة (بيتا) فهى الكهارب أى (جسيمات) ذات شحنات سالبة تنطلق بسرعة تقرب من سرعة الضوء .

وليست أشعة (جاما) مادة بمعنى الكلمة ، بل هى موجات كموجات الأشعة السينية ولكنها أكثر نفاذاً منها . ولقد استخدم العلماء فى بادئ الأمر هذه القذائف التى تنطلق من ذرات البولونيوم والراديوم وغيرهما من المواد الثقيلة وأطلقوها على ذرات بعض العناصر . ونظراً لسرعتها العظيمة التى هى السبب فى طاقتها الهائلة فقد تخطت الحدود واقتحمت الذرة واجتازت قوة التماسك فيها وأتت إلى النواة فحطمتها . وبذلك توصلوا إلى ما لم يتوصل إليه غيرهم من الذين سبقوهم . وتمكنوا من إماطة اللثام عن بناء الذرة . وإن ذرة أحد العناصر الثقيلة كاليورانيوم غير مستقرة التركيب وهى معقدة لاحتواء نواتها على ٩٢ بروتوناً و ١٤٦ نتروناً .

وتطلق هذه الذرة آناً بعد آخر مجموعة من بروتوناتها ونتروناتها فتتحول إلى ذرة راديوم . وهذه تتحول على هذا الأساس إلى ذرة بولونيوم ، وذرة البولونيوم تنتهى فى تحللها

على الزمن إلى أن تصبح رصاصاً .

ومما لا شك فيه أن كشف المواد ذات النشاط الإشعاعى هو الخطوة الأولى التى مهدت السبيل إلى استغلال الطاقة الذرية وإنه لمن العرفان بالجميل أن نذكر فى هذه المناسبة مدام كورى وزوجها وآخرين من الذين فتحوا فتحاً مبيناً فى هذه الناحية الشائكة من العلوم الطبيعية العالية ، كما يجب أن لا ننسى جهود العالم الطبيعى (روذر فورد) أحد كبار علماء الطبيعة ، فلقد استخدم فى بحوثه فى تحطيم الذرة طرقاً مبتكرة دفعت بالطبيعة خطوات فاصلات إلى الأمام وكانت بداية لعصر جديد هو عصر الذرة .

وفوق ذلك لاحظ (روذر فورد) أنه قد صحب تحطيم الذرة انطلاق طاقة هائلة هى المحبوسة فى النواة فى نواتها وكهاربها .

وقد حسب الرياضيون هذه الطاقة فكانت فوق التصور . وجاء فى حساب (أينشتاين) أن الطاقة المحبوسة المختزنة فى ذرات غرام واحد من الفحم تكفى لرفع درجة حرارة أكثر من ٢٠٠ ألف طن ماء من درجة الصفر إلى درجة الغليان .

٧

ولم يقف العلماء عند هذا الحد . بل تابعوا بحوثهم بهمة لا تعرف الكلل ، وخرجوا بتجارب ونتائج أدت إلى إمكانية تحويل بعض العناصر إلى ذرات عناصر أخرى فتحقق بذلك حلم الكيميائيين القديم . وقد نجح (روذر فورد) فى تحويل بضع ذرات من النتروجين إلى ذرات أوكسيجين بعد أن قذفها بدقائق (ألفا) المنبعثة من الراديوم كما نجح غيره فى تحويل بعض ذرات من البلاتين إلى ذرات من الذهب .

وفى سنة ١٩٤٠ تمكن العلماء أن يحرزوا ظفراً هو فى الواقع أروع من أى ظفر أحرزوه حتى ذلك التاريخ إذ استطاعوا أن يستفردوا مادة اليورانيوم (٢٣٥) . وهى مادة عجيبة الخواص ، فى وسعهم أن يطلقوا منها مقادير كبيرة من الطاقة بعملية بسيطة فيستمر فعل انطلاق الطاقة من تلقاء نفسه . وقد ثبت أن هذه المادة أشد فعلا من الراديوم ملايين المرات . وتطلق طاقة تفوق الطاقة التى يطلقها الراديوم ألوف الملايين من المرات ، وانفجاراتها أقوى . ومن الغريب أن كل انفجار منها يسبب انفجارات أخرى ، وهنا تتوالى سلسلة

من الانفجارات المتزايدة عدداً ، وهذا يضمن انطلاقاً مستمراً
من طاقة يزيد قدرها خمسة ملايين ضعف قدر الطاقة
المنبعثة من حرق الفحم إذا تساوت الكتلة فى الفعلين .

٨

وتابع العلماء بحوثهم وواصلوا نشاطهم فى هذه المباحث
فتوصل العالم الأميركى (لورنس) إلى اختراع جهاز رحوى
وهو السيكلترون Cyclotron ، وهو وسيلة مستحدثة
لجعل الجسيمات المكهربة تندفع بسرعات عالية أو بعبارة أسهل:
السيكلترون هو مدفع لإخراج قذائف بسرعة عظيمة لتحطيم
الذرة . وقد يُستعمل لتحويلها أو تغييرها إلى ذرات أخرى .
ولعله من المستحسن شرح هذا الجهاز على الأساس الذى
شرحه الدكتور على مصطفى مشرفة :

« من المعلوم أنه إذا تحرك جسيم مكهرب فى مجال
مغناطيسى فإنه يتحرك فى دائرة . ويتوقف قطر الدائرة على
سرعة الجسيم فكلما زادت السرعة كبرت الدائرة . فإذا بدأ
جسيم فى الحركة ثم ازدادت سرعته فإن الدائرة التى يتحرك
فيها يكبر قطرها وبذلك يتحرك الجسيم فى شكل لولبى .

وقد استخدم لورنس فى جهازه قطبين كهربائيين كل منهما على شكل نصف دائرة بحيث ينتج من اجتماعهما دائرة كاملة . وتبدأ الجسيمات فى الحركة بالقرب من مركز الدائرة وتسير فى أول الأمر فى دوائر صغيرة قريبة من المركز بتأثير المجال المغناطيسى العمودى على مستوى الدائرة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن نصفى الدائرتين متصلان بجهاز كهربائى يجعل أحد النصفين يختلف عن الثانى فى جهده الكهربائى ويجعل هذا الاختلاف يتغير تغيراً دورياً سريعاً أو بعبارة أخرى يتردد تردداً عالياً على نحو ما يقال فى علم الكهرباء .

والسر فى المسألة كلها ينحصر فى ضبط زمن هذا التغير أو هذا التردد بحيث يتفق تماماً مع زمن دوران الجسيمات فى دوائرها . فإذا عبر جسيم القطر الفاصل بين نصفى الدائرتين ازدادت سرعته بفعل الفرق بين الجهدين الكهربائيين ، فإذا أتم نصف دائرة من حركته وعاد يعبر القطر فى الاتجاه المضاد كان اتجاه الفرق بين الجهدين قد تغير بحيث تزداد سرعة الجسيم مرة أخرى . وهكذا كلما عبر الجسيم القطر الفاصل ازدادت سرعته بفعل الجهد الكهربائى المتردد فتزداد سرعته مرتين فى كل دورة كاملة . وينشأ عن ازدياد السرعة اتساع

دائرة الحركة فيقترب الجسم تدريجياً من حافة الدائرة إلى أن يصل إلى النافذة الموجودة فى حافة الجهاز ، فيخرج منها وقد اكتسب سرعة هائلة . وما يحدث للجسيم الواحد يحدث لغيره من الجسيمات فتخرج جميعاً منطلقة على صورة شعاع أزرق . وفى التجارب الأولى التى أجراها لورنس وليفنجستون دار كل جسيم ١٥٠ مرة فى الجهاز قبل خروجه منه . ولما كانت سرعة الجسيم تكتسب إضافتين أو « علاوتين » فى كل دورة ، فيكون عدد العلاوات ثلاثمائة . وفى الأجهزة الكبيرة التى شيدت حديثاً يزداد عدد العلاوات عن ذلك كثيراً .

والميزة الكبرى فى السيكلترون أنها لا تحتاج إلى ضغط كهربائى عال . فالصعوبات العملية فى إيجاد ضغط يساوى مائة ألف فولت مثلا عظيمة . أما فى جهاز لورنس فيكفى استخدام بضع عشرات الألوف من الفولت لإحداث جسيمات تقابل طاقتها عشرات الملايين من الفولت . . . »

وتتنافس الدول فى صنع جهاز السيكلترون ، ومن هذه السيكلترونات ما يصل فيه الضغط الكهربائى إلى ما يقرب من ٣٠٠ مليون فولت ! !

وجاء فى الأنباء العلمية الأخيرة أن المهندسين فى مؤسسة الأبحاث الذرية فى هارويل فى إنكلترا هم الآن فى

طريق إتمام صنع جهاز جديد لاستعماله فى الأبحاث الذرية . وهو على هيئة مدفع طول ماسورته ١٠٠ ياردة . ويستخدم هذا الجهاز فى زيادة سرعة البروتونات الكهربائية التى تفجر الذرة وتحطمها . والضغط الكهربائى فى هذا الجهاز الجديد فى حدود ٦٠٠ مليون فولت . وهذا الضغط يجعل البروتونات تسير بسرعة تزيد على ٣٠٠ مليون ميل فى الساعة ! ! . . .

ويقوم الآن كذلك علماء تابعون لثمانى جامعات أميركية بوضع تصميم لبناء أكبر جهاز لتحطيم الذرة فى العالم . وسيكون فى مقدور هذا الجهاز توليد ضغط كهربائى يتراوح بين ٢٠ ، ٣٠ بليون فولت . . .

والمعروف أن الجهاز الذى فى معمل بروكهافن التابع للجنة الطاقة الذرية الأميركية ينتج ضغطاً كهربائياً قدره بليون فولت .

وفى جهاز السيكلترون العجيب يستطيع العالم الآن استحضار قذائف ذرية تنطلق بسرعات عالية جداً تتراوح بين ٣٠ مليون و ١٠٠ مليون ميل فى الساعة . وعند ما تنطلق هذه الجسيمات أو القذائف التى تتركب من الكهارب والبروتونات والنترونات إلى نواة اليورانيوم ٢٣٥ فإنها تحمله على أن ينشق . ومن العجيب أن اليورانيوم يتحطم إلى نفس

القذائف التى تحطمه ، فتقوم هذه أيضاً بتحطيم ما بقى منه . ويستمر الأمر على هذا المنوال . ويصحب هذا الفلق أو التحطيم المستمر مقادير هائلة من الطاقة لا قبل لنا بتصورها .

وقد يزيد عجب القارئ إذا قلنا إن الطاقة التى حصل عليها العلماء من اليورانيوم لا تمثل إلا جزءاً واحداً من ألف جزء من كتلة المادة . وإذا استطاع العلماء إيجاد طريقة لتحويل ٥ ٪ من كتلة أى مادة إلى طاقة فإنه يصبح لدى الأنسان طاقة تفوق الطاقة الموجودة الآن فى جميع أنواع الوقود ملايين من المرات . . .

٩

والقنبلة الذرية تقوم على هذا الأساس . ومع أن صنعها وكيفية استخدام قوى الذرة فيها لا يزال سرًّا من الأسرار ، إلا أننا يمكن القول أن الطاقة التى تنبعث منها هى نتيجة لسلسلة من الانفجارات فى الذرات وليس اتحاداً كيميائياً بين الأوكسيجين وبين العناصر المتفجرة الأخرى كما هو الحال فى القنابل العادية .

وأغلب الظن أن القنبلة الذرية تحتوى على كمية معينة

من معدن اليورانيوم ٢٣٥ وعلى جهاز خاص تتولد فيه قذائف أو نترونات ذات سرعة هائلة . فإذا أطلقت القنبلة انطلقت القذائف إلى معدن اليورانيوم ، إلى نواته ، وتنفجر الذرة وتتوالى الانفجارات فى جميع ذرات المعدن ، وتتحطم إلى قذائف تساعد أيضاً على تحطيم ما بقى منه . وينتج عن ذلك مقادير هائلة من الطاقة تفعل ما لا يفعله ٢٠٠٠٠ طن من أشد المواد المتفجرة . لهذا لا عجب إذا تحول البرج الفولاذى الذى أطلقت منه أول قنبلة ذرية إلى بخار .

وقد يكون من الطريف أن نذكر أن القنبلة الذرية لا تنفجر إلا إذا كانت من حجم معين . ودون هذا الحجم لا يمكن أن تنفجر ، فتصنع أجزاء كل منها أصغر من ذلك الحجم المعين ، وتضم بعضها إلى بعض . ولا تزال الأرقام الدالة على ذلك الحجم المعين سراً من الأسرار . ويرى بعض المعلقين العلميين أن القنبلة التى ألقيت على هيروشيما كانت أصلح قنبلة للتفجير .

ويدفعنا البحث إلى ذكر قصة التجربة الأولى لتفجير القنبلة الذرية ، فقد أصدرت وزارة الحربية الأميركية بياناً عن التجارب الأولى التى أجريت لاختبار القنبلة الذرية فى يوم ١٦ يوليو من سنة ١٩٤٥ جاء فيه ما يلى :

دخلت البشرية فترة التحول إلى عصر جديد ، عصر الذرة فى يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٤٥ إذ أجريت أمام جماعة من العلماء الذائعى الصيت وكبار الخبراء والقواد العسكريين تجربة القنبلة الذرية ، وتمت التجربة فى بعض المناطق الصحراوية فى ولاية نيومكسيكو من الولايات المتحدة الأميركية .

وقد كان يبدو هؤلاء العلماء والخبراء فى حالة نفسية هى مزيج من القلق والأمل ، ولا غرو فإن فشل التجربة كان ممكناً كما أن نجاحها كان معناه بالنسبة إليهم كشف سلاح جديد هائل لا عهد للعالم بمثله .

فى يوم السبت ١٤ يوليو صعد فريق من الخبراء إلى قمة برج من الصلب . وقضوا ذلك اليوم واليوم التالى فى الاستعداد للتجربة . وقد أقيم مركز للمراقبة على بعد ١٠ آلاف ياردة جنوبى البرج وعلى مسافة ١٧ ألف ياردة من البرج وقف أقطاب الفنيين الذين اشتركوا فى تصميم القنبلة الذرية فى المركز الذى أعد خصيصاً لهم . وفى أقل من دقيقة قبيل الشروع فى تجربة ذلك السلاح الجبار كانت مجموعة كبيرة من الأجهزة الدقيقة تعمل من تلقاء نفسها ، وكان أحد العلماء وهو جندى فى الجيش يقف أمام « محول » احتياطى على أتم

استعداد لوقف الانفجار إذا صدر إليه الأمر بذلك . ولكنه لم يتلق أمراً كهذا .

وفى الموعد المحدد انبثق بريقٌ خاطف للأبصار أعقبه دوى هائل وضغط بلغ من الشدة بحيث ألقى برجلين كانا يقفان خارج منطقة المراقبة على الأرض . وعلى أثر ذلك تصاعدت سحابة متعددة الألوان إلى ارتفاع ٤٠ ألف قدم فجرفت فى طريقها سحب السماء حتى لم يعد لها وجود .

أما البرج المصنوع من الصلب الذى رُفعت القنبلة على قمته فقد تبخر ووجد المراقبون تحته هوةً فاغرة .

ولم تكد تمضى ثلاثة أسابيع على هذه التجربة حتى ألقيت القنبلة الذرية على هيروشيما . وكانت مفاجأة كما أسلفنا القول وقف عندها العالم مذهولا حائراً فقد كانت ضحايا هذه القنبلة والقنبلة التى ألقيت على ناجازاكى فوق كل تصور مما لا يخطر على بال أحد من الناس مهما حلق به الخيال واشتط فى التفكير والأوهام . ولعل أبلغ وصف وأوجزه للدمار الذى أحدثته القنابل الذرية التى ألقيت على هيروشيما وناجازاكى ما أذاعه الراديو اليابانى فى حينه حيث قال ما معناه : إن القنبلة الذرية قد أذهلت الخبراء العسكريين اليابانيين الذين لم يصدقوا لأول وهله أن قنبلة واحدة من هذا النوع تنطوى

على قوة انفجارية تعدل عشرين ألف طن من المواد المتفجرة المستخدمة فى صنع القنابل العادية . وقد أصبحت المدينتان أكواماً من الأطلال والقتلى من الكثرة بحيث لا يمكن حصرهم . إن عشرات الألوف من القتلى والجرحى قد أحرقوا بحيث لم يعد تمييزهم مستطاعاً ، وليس فى إمكان السلطات عمل إحصاء عن الإصابات بين المدنيين . والقوة المدمرة للقنبلة فظيعة إلى درجة لا يمكن معها وصفها — وكان أثرها واسع المدى عريضه ، فقد قتل من كانوا خارج المنازل حرقاً وقتل من كانوا داخلها بسبب الضغط والحرارة التى لا يمكن أن توصف شدتها ، كما أن المنازل والمبانى تحطمت بما فى ذلك المنشآت الطبية الخاصة بحالات الطوارئ . أما الحرائق فقد شبت فى كل مكان . وقد أتت على مساحات واسعة عامرة بالمبانى والبيوت والمنشآت والمؤسسات .

وقد يسأل سائل : وما تكاليف صنع هذه القنابل ؟

لقد صرفت أميركا فى الحرب العالمية الأخيرة فى إنتاج القنبلة الذرية أكثر من ألفى مليون دولار ! !

وهذا مبلغ ضخم .

ولكن هذا المبلغ لم يعد شيئاً بالنسبة إلى المبالغ التى تصرفها الدول (أميركا ، إنكلترا ، روسيا وغيرها) فى هذه

الأيام على مواصلة إنتاج القنبلة الذرية والهيدروجينية والتفنن في صنع آلات الدمار وأدوات الهلاك والفناء . وعلى سبيل المثال نقول إن صنع القنبلة الهيدروجينية قد كلف أميركا مبالغ طائلة فلكية الأرقام . فهي في حدود ثلاثة متبوعة بتسعة أصفار من الدولارات .

ويمكن وصفها بشكل رياضي أوضح في الصورة التالية :

٣ × ١٠^٩ من الدولارات

أما ما تصرفه الدول في سائر الأنحاء على البحوث الذرية وإخراج أسلحة تدميرية على أساس الطاقة الذرية فهو ولا شك يتجاوز هذا الرقم إلى أرقام فلكية ذات أعداد متبوعة بأصفار تزيد على العشرة من الدولارات !!...

١٠

إن هذه الطاقة الهائلة التي تنبعث من تحطيم الذرات ، والحرارة العظيمة التي تعقبها تذكرنا بما توصل إليه الفلكيون بشأن حرارة النجوم والشمس . فالشمس تخرج من الطاقة عن طريق الإشعاع كميات عظيمة . وقد حسبوها فوجدوا أن

ما يتحول من مادة الشمس إلى طاقة يزيد على ٣٦٠٠٠٠
مليون طن فى اليوم الواحد ! ! وعلى الرغم من ذلك ففيها من
الطاقة ما يكفى لمدة عمرها آلاف الملايين من السنين .

وهنا يحق التساؤل : كيف تتولد هذه المقادير العظيمة
من الطاقة مع العلم بأن ما يصل الأرض منها على شكل
حرارة ونور يسير جداً وتافه جداً بالنسبة إلى ما تخرجه
إلى الكون .

لقد أجاب الفلكيون على ذلك فقالوا إن وجود الذرات
مهشمة ومحطمة وانطلاق الطاقة الهائلة المختزنة فيها هو السبب
الرئيسى فى حرارة الشمس ونورها وفى القوى العظيمة المدخرة
فيها . ولهذا قال بعض كبار الذين يعنون بالعلوم الطبيعية :
« . . . إن اختراع القنبلة الذرية لم يأت بقوة خارقة بل إنه
لم يفعل أكثر من أنه قلد رد فعل أشعة الشمس . . . »

ويمكن القول إن الحرارة العظيمة فى النجوم إنما تتولد على
هذا الأساس الذى ألمحنا إليه فى الشمس وعلى أسس أخرى
عرف العلماء بعضها (وسنتعرض لها) ولم يعرفوا بعد بعضها
الآخر . ويظهر أن الحرارة تتولد من مواد تكثر على سطح
الأرض وأهمها الكربون والهيدروجين . أما كيف تحصل
الحرارة من هذه المواد فهو على الأرجح بالطريقة التالية :

إذا أطلقت القذائف بسرعة خاصة وبكيفيات خاصة من ذرات الهيدروجين على ذرة الكربون فإنها تندمج بها . وهنا يزيد وزنها الذرى ، وبعد ذلك تنشق إلى ذرة كربون وذرة هيليوم .

ولذرة الهيليوم هذه وزن ذرى وهو أقل قليلا من أربع ذرات هيدروجين . ومن هنا يظهر أن ذرات الهيدروجين الأربع التى اندمجت لتوليد ذرة هيليوم قد فقدت شيئاً من مجموع كتلتها . وما فقدته هو شىء يسير جداً من الكتلة . وقد تحول إلى طاقة مقدارها عظيم جداً . وهذا من أهم الأسباب التى يعتمد عليها فى تعليل حرارة النجوم .

١١

وما دمنا فى حديث تحويل المادة إلى طاقة فلا بد لنا من القول : إن الذرة قد أصبحت مصدراً من مصادر الطاقة .

ولعل البرت أينشتاين أول من أشار إلى الطاقة الذرية فى بداية القرن العشرين .

لقد درسنا فى علم الطبيعة (الفيزياء) أن المادة لا تفنى وأن هناك قانونين ينصان على عدم فناء المادة أو الطاقة والواقع أن هذين القانونين ليسا إلا صورتين لقانون واحد . ذلك لأن

التفاعلات الذرية قد أثبتت أنه بالإمكان تحويل المادة إلى طاقة والطاقة إلى مادة .

وحين تنطلق الطاقة من المادة تفقد شيئاً من كتلتها .

هذا ما توصل إليه العلماء . وكان بين نتائج نظرية النسبية ذلك القانون القائل بتعادل الكتلة والطاقة . .

وعلى أساس هذا القانون تتغير كتلة الجسم بتغير طاقته . فالجسم الذى يفقد شيئاً من حرارته يفقد فى نفس الوقت شيئاً من كتلته . وكذلك بازدياد الحرارة تزداد كتلة الجسم . « . . . وهكذا نرى أن الكتلة والطاقة هما متلازمتان الواحدة للأخرى . . . فكل كتلة لها طاقة ملازمة . وبالعكس . . . »

وبموجب قانون تعادل الكتلة والطاقة فإن :

طاقة غرام واحد من المادة تساوى غرام واحد مضروب فى مربع سرعة الضوء، أى ما يساوى ٩ متبوعة بعشرين صفراً من الأرجات (والأرج وحدة من الوحدات التى تستعمل فى قياس كمية الطاقة)

وقد تثبت أينشتاين من تعادل الكتلة والطاقة فى درس الإشعاع الراديومى . وجاءت النتيجة أن الطاقة التى تنتج عن إبادة مقدار من الكتلة تساوى حاصل ضرب مقدار الكتلة فى مربع سرعة الضوء . أى أن الطاقة = الكتلة ×

مربع سرعة الضوء . وقد توصل أينشتاين إلى هذا القانون بالطرق الرياضية . ولم يخطر على باله أن تصبح هذه العلاقة شغل العلماء وغير العلماء من رجال السياسة والحرب والعالم أجمع .

إن إبادة كيلوجرام واحد من المادة يخرج عنها طاقة تعادل ٢٥ ألف مليون كيلو واط – ساعة ، أى ما يعادل كمية الحرارة المستمدة من احتراق ٢,٧ مليون طن من الكربون النقى ! !... وما يعادل مجموع ما تنتجه جميع مراكز التوليد الكهربائية فى الولايات المتحدة لمدة شهرين . فى حين أن الطاقة الناتجة عن احتراق كيلوجرام واحد من الفحم تعادل ٩ كيلو واط – ساعة .

والفرق عظيم بين ٢٥ ألف مليون و ٩ . . . . .

إن الدراسات الذرية والتجارب حول الكهارب السالبة والموجبة والإنتاج الصناعى للبوزيترونات وغيرها – كل هذه قد أثبتت صحة قانون أينشتاين أى صحة تعادل الكتلة والطاقة .

ويعلق الدكتور على مصطفى مشرفة على ذلك بقوله :

« . . . ومن المهم أن يفهم أن هذه الطاقة المختزنة فى بواطن الذرات ليست شيئاً يضاف إلى المادة ، بل إنما هى المادة ذاتها . فالحصول على ٢٥ ألف مليون كيلو واط – ساعة من الطاقة من كيلو جرام من المادة ليس معناه استخراج هذه

الطاقة من داخل الذرات مع بقاء الكيلو جرام كيلو جراماً ، بل إن معناه أعمق من هذا بكثير ألا وهو تحويل المادة إلى طاقة . فالكيلوجرام من المادة يعادل ٢٥ ألف مليون كيلو واط — ساعة من الطاقة ويساويها مساواة .

وإذا أمكن الحصول على هذه الطاقة فيكون ذلك على حساب المادة ذاتها فتفنى ويمحى أثرها من الوجود .

ومعنى هذا أن المادة والطاقة قد صارا مظهرين لشىء واحد أو صورتين مختلفتين لنفس الشىء أو معناه إن شئت أن المادة قد صارت فى نظر العلماء صورة أخرى من صور الطاقة كالطاقة الحرارية والطاقة الكهربائية فأضيف هذا النوع الجديد من الطاقة ألا وهو الطاقة المادية إلى الأنواع الأخرى . . . »

وعلى أساس تحول المادة إلى طاقة يمكن تعليل حرارة الشمس .

ولقد شرح الدكتور على مصطفى مشرفة هذه الناحية فى بعض مؤلفاته . وأبان أن من أوضح الأمثلة على تحول المادة إلى طاقة ما يحدث فى الإشعاع الصادر عن الشمس « . . . فمن المعلوم أن الشمس تشع كميات هائلة من الطاقة فى كل لحظة ؛ ولا يمكن تفسير هذه الطاقة على أنها ناشئة

عن عملية احتراق ، إذ لو أن الشمس كانت مصنوعة من أجود نوع من أنواع الوقود مختلطاً بغاز الأوكسجين بنسبة تسمح بالاحتراق التام ، لما زادت كمية الحرارة التى تنجم عن هذا الاحتراق على ما ينبعث من الشمس من الحرارة فى مدة ١٥٠٠ سنة أى أن عمر الشمس بناء على هذا الفرض لا يمكن أن يزيد على ١٥٠٠ سنة وهذا طبعاً ما لا يمكن الأخذ به .

ولو فرضنا أن الشمس تحتوى على حرارة مختزنة وأنها بدأت بدرجة حرارة مرتفعة ثم بردت تدريجياً أفكانت درجة حرارتها تنقص فى وقتنا الحالى بمقدار ٢,٥ درجة مئوية كل سنة . وعلى أثر ذلك فلا يمكن أن تستمر فى إرسالها حرارتها أكثر من بضعة آلاف من السنين بعدها تنخفض درجة حرارتها إلى ما يقرب من درجة الصفر المئوى . وكذلك ينجم عن ذلك الفرض أن الشمس كانت ترسل إلى الأرض من بضعة آلاف السنين أضعاف ما ترسله إلينا اليوم . وإذن فهذا الفرض أيضاً لا يستقيم .

أما التفسير الصحيح فيما نعلم لمصدر حرارة الشمس فهو تحويل جزء من مادتها إلى طاقة . وقد قدر أن ما ينعدم من مادة الشمس أو بعبارة أصح ما يتحول من مادة ذراتها إلى طاقة إشعاعية يبلغ ٢٥٠ مليوناً من الأطنان فى الدقيقة . وتبلغ

درجة حرارة مركز الشمس نحو عشرين مليون درجة مئوية .
ولا شك أن هذه الدرجة العالية من الحرارة مما يساعد على
تحويل المادة إلى طاقة .

وفى النشاط الإشعاعى لذرة اليورانيوم والراديوم والتوريوم
وأمثالها تتحول مادة الذرة إلى طاقة . فالجرام الواحد من
الراديوم تنبعث منه فى السنة من الطاقة ما يعادل نحواً من
١,٤ كيلو واط ـــ ساعة . وبذلك يبلغ ما يفقده الكيلوغرام
الواحد بسبب انبعاث هذه الطاقة نحو ٠٥٣, من المليجرام
فى السنة . ... »

ويمكن القول إن علماء الفلك والطبيعة استطاعوا بالوسائل
المختلفة الحديثة أن يعرفوا عن الشمس والنجوم (بالإضافة إلى
حرارتها) الشيء الكثير فى بنائها وإشراقها وحجومها وكتلتها .

ولقد كانت هذه كلها محل شك عند الكثيرين ، فلم
يكن الناس يتقبلون هذه المعلومات كل القبول على أنها صحيحة وغير
مبالغ فيها ، ولكن بعد أن ظهرت القنبلة الذرية وبعد أن
تبين الناس آثارها وفعلها ازدادوا ثقة بتجارب العلماء وبما
يصلون إليه من نتائج وثبت لهم أن بحوث علماء الطبيعة والفلك
وحسابات الرياضيين تقوم على أسس صحيحة وقواعد سليمة .

١٢

وليست الطاقة الذرية وكشفها والسيطرة عليها — واو إلى حدّ — بالحادث الأول الذى أقام الدليل على صحة القوانين الطبيعية والمعادلات الرياضية .

رأى فراداى بعين البصيرة النافذة أن هناك صلة بين الضوء والاهتزازات الكهربائية المغناطيسية فى الأثير ولكنه لم يثبت ذلك عملياً . وجاء مكسويل وأتى بالعجب العجاب إذ لجأ إلى الرياضيات فى حل هذه المعضلة .

هل هناك صله بين الضوء والاهتزازات المغناطيسية ؟

وكانت محاولة . . . ولكنها موفقة وانتصار عظيم للعلوم الطبيعية والرياضية . فلقد ابتدع معادلات أثبت بها أن فى الضوء اضطرابات كهربائية مغناطيسية تتصف بصفات الضوء . أى أن الاضطرابات الناشئة من شرارة كهربائية ، تبدو فى مظهر أمواج فى الأثير لا نراها ولكنها كالأمواج التى تحدث الضوء والحرارة وتسير جميعها بسرعة الضوء وقدرها ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية !!...

وبذلك وضع أساس الفنون اللاسلكية التى نرى آثارها

متغلغلة فى العمران ومنتشرة فى كل مكان .

إن اكتشاف الأمواج اللاسلكية بعيون الرياضيات ومعادلاتها أقام الدليل على صحة القوانين الرياضية والطبيعية ، وكذلك تنبأ العلماء ببعض الكواكب واستطاعوا أن يتبينوا من المعادلات والأرقام سيارات جديدة لم تكن معروفة . فقد رأى بعض الفلكيين أن هناك اضطراباً فى فلك (أورانوس) . وقالوا بقوة تقصيه عن الطريق التى تحددها الحسابات والأرصاد وأن هذه القوة ليست إلا نتيجة لجذب كوكب آخر غير معروف . وقام الفلكيون بالبحث فى هذه المسألة واستطاعوا أن يعينوا على (الورق) قبل (السماء) مكان السيار المجهول وأن يحددوا موقعه والطريق التى يسير فيها حول الشمس وذلك عن طريق قوانين الجاذبية والمعادلات .

وقد وجه الفلكيون فيما بعد مراقبهم إلى مكان السيار الجديد (نبتون) فوجدوه فى الموضع الذى حددته المعادلات والحسابات .

وكذلك لجأ الفلكيون إلى المعادلات وعينوا على (الورق) موقع سيار آخر جديد وتنبأوا عن حركته . وبعد ذلك ، وفى عام ١٩٣٠ أعلن نبأ اكتشاف سيار جديد أطلقوا عليه اسم (بلوتو) فى نفس المكان الذى قالت عنه الرياضيات وحددته الأرقام .

ومما لا شك فيه أن التنبؤ بوجود بعض السيارات واكتشاف الأمواج اللاسلكية قد زادا ثقة العلماء بأنفسهم . كما أقاما الدليل القاطع على صحة القوانين الطبيعية والمعادلات الرياضية .

لقد ثبت من هذا التنبؤ وذلك الكشف . ومن تحطيم الذرة أن علمي الفلك والطبيعة لا يقومان على الحدس والتخمين كما يتبادر إلى أذهان بعض الناس ، بل هما من العلوم الدقيقة القائمة على أدق الحسابات والمعادلات والنظريات الصحيحة كما ثبت أيضاً أن أنظمة الطبيعة واحدة . فما يسيطر هنا من النواميس يسيطر على الأجرام السماوية وعلى الذرات والنوايا والكهارب وأن جميع أجزاء الكون خاضعة لقوانين مماثلة وأن لا شذوذ ولا فوضى فى نظام هذا الكون .

١٣

أعلنت روسيا كشفها لأسرار الطاقة الذرية وقنابلها ، فاندفعت أميركا فى كشف سلاح آخر جديد يضمن لها السيطرة والتفوق ؛ فكانت أوامر الرئيس ترومان فى ٢ فبراير سنة ١٩٥٠ بصنع القنبلة الهيدروجينية حيث قال : « . . . إنه بصفته القائد الأعلى للقوات الأميركية المسلحة

يعتبر نفسه مسؤولا عن سلامة الولايات المتحدة وشعبها ومسؤولا كذلك عن جعل أميركا قادرة على الدفاع عن نفسها ضد أى معتد . . . لذلك فهو يأمر بالشروع على الفور بصنع القنبلة الهيدروجينية ليتمكن الشعب الأميركى من الرد على أى معتد قد تحدثه نفسه بالهجوم على الولايات المتحدة ... ... »

إلى أن يقول : « . . . وإننى قياماً بالتبعات الملقاة على عاتقى آمر كذلك بالمضى فى صنع القنبلة الهيدروجينية مع جميع أنواع الأسلحة الذرية إلى أن يتسنى للعالم الوصول إلى نظام دولى يشرف على هذه الأسلحة ويضمن سلامة العالم من أخطار التسلح الذرى وتسخير الطاقة العظيمة لأغراض عدوانية . . . »

وقد قابل الناس الأخبار عن هذا الاختراع الفتاك الجديد بالذهول والحيرة وبدأت غيوم التشاؤم تخيم على العالم وأهوال الحروب وفظائعها تتمثل للناس فى سائر الأنحاء .

ماذا جرى لعقل الإنسان ؟

لقد اقتحم هذا العقل السدود وفك القيود واتجه بجهوده إلى التمنن فى آلات الدمار والابتكار فى أدوات الهدم والفناء فقطع فى هذا أشواطاً بعيدة . والذى أخشاه أن يكون « الإنسان قد فقد الملاءمة بينه وبين بيئته » وأنه إذا لم يستطع

تكييف عقله مع البيئة المتجددة فمصيره كمصير الزواحف التى ظهرت على الأرض ثم اختفت .

والذى يظهر أن العقل يتجه بقواه نحو التدمير واختراع وسائل الإبادة والفناء وأنه مستمر فى هذا الاتجاه مما يؤدى إلى القضاء على الحضارة وإبادة معالم المدنية . هذا إذا لم يتمكن الإنسان من تكييف العقل مع البيئة وتوجيه قواه نحو البناء والإثمار لبناء عالم أفضل يسوده الأمن والعدل والسلام .

إن الطاقة الذرية التى تحدثنا عنها تقوم على أساس تحويل العناصر الثقيلة إلى عناصر أخف منها . بينما تقوم الطاقة فى القنبلة الهيدروجينية على أساس تحويل العناصر الخفيفة إلى عناصر أثقل منها . فالطاقة التى تنبعث من القنبلة الذرية هى فى الواقع نتيجة لسلسلة من الانفجارات فى الذرات وقد نشأت عن تحطيم (الذرات) وتحويل العناصر الثقيلة إلى أخف منها .

وهذه الطاقة الهائلة والحرارة العظيمة التى تعقبها هى بسيطة بالنسبة إلى الطاقة التى تخرج عن القنبلة الهيدروجينية والحرارة ذات الملايين من الدرجات التى تعقبها .

وعلى هذا الأساس أيضاً يمكن تعليل حرارة الشمس

والنجوم . ففى هذه تتحول العناصر الخفيفة إلى ثقيلة . لقد ثبت لدى العلماء أن الطاقة التى تأتينا من الشمس والنجوم تنبعث أثناء تحول الهيدروجين إلى هيليوم بعملية معقدة تشترك فيها عوامل أخرى عديدة .. والتحول الجوهرى هو فى اتحاد أربع ذرات من ذرات الهيدروجين لتكوّن ذرة هيليوم . وفى هذه العملية يحدث نقص فى الكتلة وتنطلق طاقة عظيمة ، ويتحول بروتونان إلى نترونين فتكون نتيجة هذا التحول انطلاق طاقة هائلة هى طاقة الشمس والنجوم وحرارتها العظيمة التى تقدر بملايين الدرجات المئوية . وقد يكون هذا هو الأساس الذى تقوم عليه الطاقة والحرارة المنبعثتان عن قنبلة الهيدروجين . وهذا ما جعل بعض العلماء يطلقون عليها اسم القنبلة الشمسية نسبة إلى الشمس .

ومن هنا يمكن القول إن قنبلة الهيدروجين لا تتولد من العناصر الثقيلة ، بل إنها تتولد من أخف العناصر وهو الهيدروجين الذى تتألف نواته من بروتون واحد يدور حوله كهرب واحد . وكذلك ليس فى مبدأ قنبلة الهيدروجين أى تفكك ذرى بل فى واقع الحال يشتمل على زيادة البروتونات بحيث يتحول الهيدروجين إلى مادة أخرى هى الهيليوم ، أى أن القنبلة الهيدروجينية تنتج عن اتحاد ذرات الهيدروجين

بعضها مع بعض ويخرج من هذا الاتحاد تكوين نواة الهيليوم التي يقل وزنها عن وزن ذرات الهيدروجين المتفاعلة . وهذا النقص في الوزن يعادل الطاقة المتولدة وهي تعادل ٠٠٧, من الوزن .

ولكن هذا التحول من الهيدروجين إلى الهيليوم يحتاج إلى حرارة عظيمة . وهنا تنشأ الصعوبة في صناعة هذه القنبلة فقد ذكر المعلقون في الإذاعات العلمية أن التحويل يحتاج إلى عشرات الملايين من الدرجات المئوية . ويظهر أن هذه المشكلة قد حلت على أساس تفجير قنبلة ذرية والاستفادة من الحرارة التي يولدها هذا التفجير في صنع القنبلة الجديدة .

أما كيفية التحويل وكيفية استعمال الحرارة للحصول على الهيليوم من اتحاد ذرات من الهيدروجين فهذا سر من الأسرار لا نعلم عنه شيئاً .

ويتصور بعض العلماء من الذين لم يشتركوا في صنع الأسلحة الذرية أن القنبلة الذرية هي القوة الدافعة التي تمهد إلى الحصول على الطاقة الهائلة من القنبلة الهيدروجينية .

وعلى ضوء ما توصلوا إليه في بحوث الذرة والعناصر يتخيلون — وهذا مجرد خيال — أن القنبلة الهيدروجينية تتركب من صاروخ ينطلق لتفجير قنبلة ذرية فتتولد من ذلك حرارة

شديدة تزيد على ستين مليوناً من الدرجات المئوية — أى ثلاثة أمثال الحرارة داخل الشمس — وعندئذ تلتحم ذرات الهيدروجين وتتكون ذرات من الهيليوم .

وعلى هذا يمكن القول إن القنبلة الهيدروجينية شمس صغيرة وإن لها من القوة ما يعدل قوة القنبلة الذرية مئات المرات إن لم يكن ألوفها .

إن تحوّل العناصر الثقيلة إلى عناصر أخف منها خاص بالأرض ويجرى عليها ، وقد كان هذا التحويل ينحصر فى عملية الإشعاع الراديومى .

وأخيراً توفق العلماء إلى فلك نواة اليورانيوم بشكل يجعل النوى الناتجة أخف من ذرة اليورانيوم فيتحول النقص فى الكتلة إلى طاقة هائلة أى أن طاقة هائلة ترافق عملية التحول .

وكان العلماء كذلك يظنون أن تحول العناصر الخفيفة إلى ثقيلة خاص بالشمس والنجوم . وهو يحدث فيها باستمرار وعلى هذا الأساس أمكنهم تعليل حرارتها العظيمة ذات الملايين من الدرجات .

والآن ... وقد تمكن العلماء من تحويل العناصر الخفيفة إلى ثقيلة ، وتحويل الهيدروجين إلى هيليوم ، أصبح هذا التحويل لا يخص الشمس والنجوم بل يجرى على الأرض

بفضل التقدم الكبير الذى أصاب العلوم الطبيعية والرياضية .

وهكذا يمكن القول إن نظرية القنبلة الهيدروجينية تقوم على انبعاث طاقة عظيمة من تحويل الهيدروجين — وهو أخفّ العناصر — إلى هيليوم . أى أنه تتولد الطاقة عند تجمع عدد من البروتونات والنترونات لتكوين عنصر آخر جديد . بينما تقوم نظرية القنبلة الذرية على تحويل العناصر الثقيلة كاليورانيوم إلى عناصر أخف منها ، أى على انبعاث طاقة من تهشيم الذرة وفلك بعض البروتونات والنترونات . وعلى هذه الأسس اتجهت الأفكار إلى إمكانية الحصول على طاقة هائلة من تفكك البروتونات والنترونات أو من تجمعها ، فعلى التفكك تقوم القنبلة الذرية ، وعلى التجمع والتحام الذرات تقوم قنبلة الهيدروجين .

وهذه العملية معقدة إلى أبعد الحدود ، وتكلف من النفقات ما لا يتصوره العقل ، فقد قدر العلماء تكاليف صنع القنبلة الهيدروجينية الجديدة بما لا يقل عن ثلاثة آلاف مليون دولار ! ! ...

وفوق ذلك ينبعث من القنبلة الهيدروجينية بعض المواد الإشعاعية التى قد يدوم إشعاعها مئات الألوف من السنين . ويقول وليم لورنس فى هذا الصدد : « . . . وتستطيع كل من

أميركا و روسيا أن تبيدا بعضهما إذا نشبت حرب هيدروجينية . ذلك أن الشمس هى فى الواقع قنبلة هيدروجينية ضخمة فى الفضاء ، ونحن نعد العدة الآن لصنع شمس صغيرة على الأرض . . . وإذا ضربت أية عاصمة أو مدينة بقنبلة هيدروجينية واحدة تعذرت الحياة فيها عدة آلاف من الأعوام . . . » وذلك بسبب المواد الإشعاعية التى تنبعث من القنبلة الجديدة والتى تزيل كل أثر للحياة على الأرض .

وعلق أينشتاين فى أحد أحاديثه العلمية فى سنة ١٩٥٠ على فكرة صنع القنبلة الهيدروجينية فقال : « . . . إنه إذا صنعت القنبلة الهيدروجينية فإن القضاء على كل أثر للحياة على وجه الأرض بالتسمم الإشعاعى يصبح ممكناً من الناحية العلمية . . . وكان المفروض فى بداية الأمر أن يكون سباق التسلح بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى من قبيل التدابير الدفاعية ، ولكنه أصبح ذا طابع جنونى ، فكل من البلدين لا يدخر وسعاً لصنع أسلحة الفتك والدمار بسرعة وفى جو من الكتمان الشديد . والمحقق أن فى الإمكان صنع القنبلة الهيدروجينية . ولولا ذلك لما أمر الرئيس ترومان لجنة الطاقة الذرية بالشروع فى صنعها . وإذا سارت الدولتان على هذا المنوال فسيأتى اليوم الذى يزول فيه كل أثر للحياة على وجه البسيطة ».

هناك فرق فى قوة التدمير بين القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية ، فالأولى هى فى الواقع الزند الذى يطلق الثانية . وأن الطاقة فى الثانية تزيد على ثمانية أضعاف طاقة الأولى . وإذا كان تدمير مدينة كنيويورك يحتاج إلى سبع قنابل ذرية محكمة التصويب ، فإنه – كما يقول (ليسلى جروفز) أحد الذين أشرفوا على لجنة الطاقة الذرية فى أميركا – يمكن الوصول إلى النتيجة نفسها بقنبلة هيدروجينية واحدة !! وهذا يعنى أنه فى الوسع الفتك بستة ملايين من الناس بتفجير قنبلة هيدروجينية واحدة .

ويظهر أن بعض الدول (آميركا وروسيا) لا تزال تواصل أبحاثها وتجاربها فى القنابل الهيدروجينية والذرية ، وقد سمحت أميركا بنشر معلومات (محدودة) عن أسرار القنابل الهيدروجينية فى المحيط الهادى فأشارت هذه المعلومات إلى أن قوة أحد الانفجارات كانت تعادل ١٥ مليون طن ديناميت . وقد محيت من الوجود الجزيرة التى جرت عليها التجربة وحفر فى قاع المحيط حفرة عمقها يزيد على ٢٠٠ متر .

وفى شهر شباط (فبراير) من هذا العام ١٩٥٥ أعلنت الحكومة البريطانية أنها سوف تصنع قنابل هيدروجينية ؛ وقد جاء فى الكتاب الأبيض الذى أصدرته الحكومة عن شؤون الدفاع أن

بريطانيا أصبحت لديها القدرة الآن على إنتاج الأسلحة الهيدروجينية ، وأنها بعد أن درست كل ما يترتب على هذه الخطوة رأت أن من واجبها البدء فى صناعة هذا النوع من الأسلحة ! . . . وأعلنت فرنسا كذلك أنها ستبدأ بصنع هذه القنبلة ! !

ومن الطريف أن التبرير الذى تلجأ إليه الحكومة البريطانية التى أقدمت على صنع هذه الأسلحة ، هو نفس التبرير الذى تقول به الحكومات الأخرى التى أقدمت على صنع هذه القنابل وهو حماية أوربا من العدوان وحفظ السلام فى العالم ! ! . . .

ويرى بعض المعلقين العلميين أن الحكومات التى تعنى بصنع القنابل تحتفظ بأسرار أخرى عن الانفجارات خشية أن يدب الرعب إلى قلوب الناس وخشية أن يفقدوا الرغبة فى المقاومة أمام الروس الذين يملكون هم الآخرون القنبلة الهيدروجينية مما يؤدى إلى انهيار الحلف الأطلسى . وفى شباط (فبراير) من هذا العام أذيعت أسرار نذكر بعضها كما جاءت فى الصحف والمجلات :

تشير هذه الأسرار إلى أن الانفجار الهيدروجينى أمر بسيط بالنسبة إلى الغمامة الذرية التى تنبثق عنه ، فهى ترش

على الأرض رذاذاً مسموماً ينشر السم فى مساحة قدرها ٨٠٠٠ ميل مربع ويمحو مقومات الحياة فى تلك المساحة .

وقد امتد مفعول قنبلة جزيرة (النويتوك) الهيدروجينية إلى مساحة من الأرض طولها ٢٢٠ ميلا وعرضها ٤٠ ميلا وهبط الرذاذ الذرى على مساحة سبعة آلاف ميل مربع فسمم كل ما على سطح الأرض والبحر .

وهذا يعنى — إذا صحت هذه الأنباء والأسرار — أن عشر قنابل هيدروجينية تمحو الحياة من أى دولة فى العالم .

١٤

وفى أواخر العام الفائت وجه العالم الذرى الفرنسى (شارل مارتان) رسالة إلى أكاديمية العلوم عن آثار القنبلة الهيدروجينية أشار فيها إلى الأخطار الشديدة التى تهدد الجنس البشرى بالفناء من استخدام هذه القنبلة ، وقال إذا فجرت قنابل هيدروجينية أخرى فإن هذا قد يسبب تغييرات لا حصر لها فى الطبيعة . وأشار الأستاذ (مارتان) كذلك إلى أن القنبلة الهيدروجينية تعادل فى قوتها ما يتفاوت بين ألف وألفين وخمسمائة قنبلة ذرية من النوع الذى فجر فى هيروشيما إذا

فجرت هذه فى وقت واحد . قد يكون فى هذا بعض المبالغة ، فالمعروف أن القنبلة الهيدروجينية فيها من القوة التدميرية أضعاف القوة التدميرية فى القنبلة الذرية . أما النسبة بين القوتين فلا تزال موضع التكهنات .

ويرى الأستاذ مارتان أن تفجير القنبلة الهيدروجينية يقذف بحوالى مليون طن من المواد الفتاكة إلى ارتفاع ٤٠ كيلو متراً إذا وقع التفجير على سطح الأرض .

وقسم الأستاذ مارتان الآثار البعيدة التى تتجمع من الانفجارات الذرية إلى أربعة أقسام : كيميائية ، وإشعاعية ، وجوية ، ووراثية . وقال إن هذه الظواهر لا يمكن تغييرها كما أنه سيطرأ اختلال على التوازن فى الكائنات الحية بعد عدة تفجيرات ذرية .

وأشار إلى نتائج التفجير فى مجال الوراثة والجنس وبين أنه جرى فى الولايات المتحدة منذ عهد قريب إحصاء عن دراسة ألفى حالة ظهر منه أن نسبة كبيرة ممن تتناولهم هذه التجربة أصيبوا باضطرابات مختلفة .

وأبدى العالم الفرنسى تخوفه من أن تتأثر القشرة الأرضية بانفجارات القنابل الذرية ، وقال : وعلى الرغم من أن التأثير قد يحصل بعد آلاف السنين إلا أن هذه الانفجارات من ذرية

وهيدروجينية ستحدث اضطراباً ملموساً فى الأحوال الجوية مما يؤدى إلى فقدان توازنها وتغيير الظروف التى استطاع الحيوان والنبات أن يكيف نفسه تدريجياً ليعيش وينمو فى رحابها .

وينهى الأستاذ مارتان رسالته بالتحذير قائلا : « . . . فلا يسعنى إزاء هذه النتائج العلمية المروعة إلا أن أحذر العالم من أن استخدام هذه القنابل سيقضى على المدنية . والجنس البشرى قد بلغ اليوم درجة الخطر . . . »

وتوصل العلماء اليابانيون إلى أن الروس قد فجروا نوعاً جديداً من قنابل اليورانيوم . وتباحث العلماء كذلك فى الأمطار المحملة بالإشعاع وعقدوا لذلك عدة اجتماعات ، وقد صرحوا على أثر هذه الاجتماعات بأنهم كشفوا نظائر مادتى البلوتونيوم ٢٣٩ واليورانيوم ٢٣٧ وأعربوا عن اعتقادهم أن هذه النظائر نتجت عن قنابل الهيدروجين التى أجراها الأميركيون فى منطقة بيكينى فى العام الماضى وفى صحراء نيفادا هذا العام . وقال العلماء إنهم كشفوا نظائر البلوتونيوم ٢٣٩ فى رماد أجمعت آراؤهم على أنه كان نتيجة للانفجارات التى أجرتها روسيا فى الخريف الماضى . وقال الدكتور (يوكومايا) العالم اليابانى إن الخطر الناجم عن التلوث بسبب تفجير هذا النوع من القنابل أعظم من الخطر الناجم عن تفجير القنبلة الهيدروجينية العادية .

١٥

ويقال إن العلماء الآن عاكفون على دراسة قنبلة (الكوبالت) . وهنا يجدر أن نشير إلى هذه القنبلة ،على الرغم من ضآلة المعلومات التى لدينا عنها .

إن قنبلة (الكوبالت) تقوم على قنبلة ذرية هى بمثابة مركز القنبلة الرئيسية ، وتعمل كأداة لتفجير قنبلة الهيدروجين حين توضع معها فى غلاف كثيف من الكوبالت ، ويتحول هذا الغلاف من تأثير الانفجار إلى ذرات من الغبار لها نشاط إشعاعي يحتفظ بقوته الاختراقية مدة عام على الأقل . ويشمل تأثيره العالم بأثره . وقد أعلن أحد علماء الذرة فى إحدى إذاعاته أن قنبلة الكوبالت تكفى لأن تبيد أكثر سكان بقاع العالم ذلك لأن الطاقة الكامنة فى الذرة تنبعث كلها فى قنابل الكوبالت بينما لا تبلغ جزءاً من ألف جزء فى حالة شطر الذرة . أى أن الطاقة المنبعثة فى قنابل الذرة هى جزء بسيط جداً من الطاقة الكامنة فيها بينما الطاقة المنبعثة فى قنابل الكوبالت هى مئة فى المئة من الطاقة الكامنة .

ومن علماء الذرة من يتكهن بأنه إذا تم صنع قنبلة الكوبالت فإنها تستطيع أن تطلق غباراً له نشاط إشعاعى دائم

تحمله الرياح والأمطار إلى جميع بقاع العالم تقريباً . وعلى ذلك فوسائل الوقاية متعذرة بل مستحيلة .

ويقول أحد العلماء إن صناعة هذا السلاح الفتاك لا تبدو صعبة فقد سبق أن نجح الإنسان فى إخراج قنابل الذرة والهيدروجين .

ويظهر — وهذا من باب التكهنات — أن العقبة الكبرى هى اختيار حجم القنبلة ، ذلك أن الإنتاج السنوى الحالى من الكوبالت فى العالم أجمع لا يتجاوز بضعة آلاف من الأطنان ، وعلى هذا الأساس فالكمية المطلوبة يستغرق جمعها عدداً من السنين .

وقد يكون (من باب العلم بالشىء) أن نذكر أن ثمن الطن الواحد من الكوبالت لا يزيد على ٢٥٠٠ دولار ! ! ...

وفى إذاعة للعالم الأميركى ليوزيلارد بين فيها أن قنبلة هيدروجينية تحتوى على ٥٠٠ طن من الهيدروجين الثقيل تستطيع أن تضفى النشاط الإشعاعى على غلاف داخلى من الكوبالت يكفى لأن يعطى نتائج تدميرية مروعة تفوق النتائج التدميرية للقنابل الذرية والهيدروجينية أضعافاً مضاعفة ! ! ...

وقد بنيت فكرة صنع قنبلة الكوبالت على أسس ثلاثة :

١ — فى الإمكان وضع كميات من الهيدروجين الثقيل

والكوبالت فى القنبلة لتحقيق النتائج النظرية .

٢ ــ فى الإمكان تفجير القنبلة .

٣ ــ أن غبار الكوبالت المشع الناتج من الانفجار يمكن أن يستقر فوق الكرة الأرضية.

ومن العلماء من قال إنه يستقر على الأرض بنسب متساوية ، ومنهم من قال : إنه من الخطأ الاعتقاد أن الغبار المشع سيكون له تأثير منتظم على جميع بقاع الأرض بسبب تغير الأحوال الجوية ، وأن هناك مناطق لا تصيبها الإشعاعات.

وعلى كل حال يمكن القول ــ من الناحية النظرية على الأقل ــ إن قنبلة الكوبالت أفعل وأشد من الناحية التدميرية من قنابل الذرة والهيدروجين ، وأن قوة انفجارها (انفجار قنبلة الكوبالت) تعدل مائة مليون طن ديناميت !!...

وقد قرأت أخيراً فى إحدى المجلات العلمية أن أميركا قررت أن لا تشرع فى صنع قنبلة الكوبالت إلا إذا ثبت أن الروس شرعوا فى صنعها . ولعل من أكبر العقبات التى تحول دون صنعها أنه يستحيل على العلماء القيام بأية تجارب لها دون أن تعرض جزءاً كبيراً من الكرة الأرضية إلى الدمار والخراب .

١٦

وهناك طريقة أخرى لتوليد الطاقة غير تهشيم الذرة وتجمع الذرات . وهى الآن محل دراسات نظرية وتجارب على نطاق ضيق محدود .

وتقوم هذه الطريقة على توليد الطاقة الذرية على أساس إفناء الذرة . وقد سبق أن أوضحنا أن الذرة تشتمل على كهارب (جسيمات تحمل شحنات سالبة) تدور حول النواة .

وهنا يبرز سؤال : ألا توجد فى الطبيعة جسيمات تحمل شحنات موجبة مماثلة لها ؟

وقد توصل العالم الطبيعى الأشهر (أندرسن) إلى كشف تلك الشحنات فى الأشعة الكونية التى تقذفها الشمس على الأرض بصورة دائمة ، وهى ناشئة عن التفاعل الذرى فيها . ووجد (أندرسن) بعد البحث أن هذه الجسيمات ذات كهربائية موجبة أى أنها تحمل شحنة موجبة وأطلق عليها العلماء الألكترون الموجب أو (البوزيترون Positron) .

وثبت بالبحث أن هذه (البوزيترونات) قليلة جداً فى الكون وأن مدة وجودها ضئيلة جداً ، قد لا تطول عن جزء

تافه جداً من الثانية الواحدة ! ! ...

ولقد تمكن العلماء من إحداث البوزيترونات بطرق معقدة فأطلقوا النترونات المنبعثة من البريليوم على لوح من الرصاص . وقد شرحها الدكتور على مصطفى مشرفة فى بعض مقالاته ، وكذلك يوجد فى كتب الطبيعة العالية دراسات ضافية حول إحداث البوزيترونات .

والبوزيترونات نادرة الوجود ، تتولد عن التفاعل ، ولا تكاد تهبط مع الأشعة الكونية بكمية بسيطة حتى يلتحم كل منها مع كهرب (أو ألكترون) ويفنى الاثنان . . .

ولما كان عدد الكهارب أكثر بمليارات المليارات ، تظل الكهارب سائدة ويختفى أثر البوزيترونات من المادة .

وقد يسأل سائل :

ماذا يحدث عند ما يلتحم البوزيترون بالكهرب ؟

إنهما يفنيان ، ويتولد عن هذا الإفناء طاقة هائلة فى شكل إشعاع .

وتمكن العلماء كما قلنا من إحداث البوزيترونات فى المختبرات وقاموا بتجارب فى إفناء البوزيترون فنجحوا فى توليد طاقة هائلة هى « . . . أقصى ما تستطيع الطبيعة توليده لفناء المادة أصلا . . . »

وهذا المبدأ يمكن استخدامه فى إفناء الذرة كلها « . . . بتسليط جسيمات متعادلة مع البوزيترونات الاصطناعية على الكهارب الطبيعية الموجودة فى كل ذرة ، ثم بتسليط بروتونات ونترونات اصطناعية على نواة الذرة حتى يلتحم كل جسيم ، وكل شحنة إيجابية بجسيم وشحنة سلبية ، والعكس بالعكس ، فتفنى الذرة تماماً وتتولد طاقتها الكاملة . . .

هذه الطاقة فى حالة تهشيم الذرة لا تزيد على جزء واحد من ألف جزء ... ولكنها عند الإفناء تبلغ الألف فى الألف ! !
وعندئذ يستطيع نصف كيلوجرام من المادة أن يولد من الطاقة ما يولده ١٥٠٠٠٠٠ طن من الفحم الحجرى .

واليوم وقد اجتاز السباق الذرى مرحلته الثانية باختراع القنبلة الهيدروجينية ، فمن الطبيعى أن ينتقل إلى « المرحلة الثالثة : مرحلة إفناء الذرة . . . »

١٧

ولسنا بحاجة إلى القول إن تجارب التفجير الذرى فى أميركا وروسيا تسير على نطاق واسع .

وفى كل يوم تطالعنا الصحف بوصف لانفجار ذرى .

وقد يطول بنا المطال إذا تعرضنا لوصف جميع هذه الانفجارات ولكننا نقتصر على وصف آخر انفجار حدث فى شهر مارس من هذا العام ١٩٥٥ .

أشارت الأنباء بأن التجربة السادسة من سلسلة التجارب الذرية قد أجريت فجر يوم ٢٢ مارس سنة ١٩٥٥ بصحراء نيفادا واشترك فيها ما يزيد على مائة طائرة و ٢٠٠٠ من مشاة الأسطول رابطوا فى خنادق تبعد ٤٠٠٠ ياردة عن مكان الانفجار .

وقد جرى تفجير القنبلة من برج ارتفاعه ٥٠٠ قدم فأضاءت السماء بضوء ساطع تحول بياضه الناصع إلى لون برتقالى . وشوهد الضوء من أمكنة بعيدة عن مركز الانفجار .

وقد أحدث الانفجار هزة عنيفة أحست بها المدن التى تبعد ٧٥ ميلا عن مكان التفجير ، ووصفها بعض سكان تلك المناطق بأنها تماثل فى قوتها الزلازل الأرضية الخفيفة ، ولم يشعروا بها إلا بعد سبع دقائق على ظهور الضوء . وكانت موجة الضغط تزحف على المدينة وهى تزأر زئيراً مخيفاً .

وتواصل الأنباء الواردة من (لوس فيجاس) وصف الانفجار فتشير إلى برج التجربة وكيف أنه عقب الانفجار ظهرت كرة نارية مروعة لمدة أربع ثوان أو خمس وارتفعت السحابة

الذرية المخيفة بسرعة خاطفة إلى علو ٢٥٠٠٠ قدم فى السماء وسبحت فى الاتجاه الشرقى فأثارت الرعب فى نفوس الأهالى الذين لم يستردوا أنفاسهم من أهوال التجارب الأخيرة .

ورأى بعض المشرفين على التجربة من نقطة المراقبة التى تبعد نحو عشرة أميال عن مكان الانفجار — قطعاً من البرج الذى صهرته الحرارة تتساقط من جذع السحابة على الأرض . وغالباً ما تنصهر أبراج التجارب أو تتبخر من حرارة الانفجار المروعة .

وجرت فى أمريكا تجارب أخرى لأنواع أخرى من الأسلحة لا تقل خطورة عن القنبلة الهيدروجينية ، فقد قامت لجنة الطاقة الذرية فى صحراء نيفادا بتجربة قنابل من نوع جديد وتم تفجيرها على ارتفاع قريب من سطح الأرض . ولكنها أحدثت كرة رهيبة من النيران التى تصهر كل شيء فى دائرتها وتقتل الكائنات الحية فى مساحات واسعة .

وأذيعت تفاصيل عن سلاح جديد اسمه (طلقة مايك) فى نشرة رسمية خاصة بتدابير الوقاية الواجبة . وجاء فى هذه النشرة بعض خاصيات السلاح الذرى الجديد المذكور وخلاصتها كما يلى :

١ — جرت تجربة هذا السلاح الذرى الجديد (مايك)

وهو من نوع حرارى ذرى وليس قنبلة تلقى من الجو . وكان مكان التجربة فى أرخبيل (نيوتوك) بالباسفيك .

٢ ـ حدث عند الانفجار كرة نارية هائلة قطرها أكثر قليلا من ثلاثة أميال . أما الدمار الجزئى فقد شمل دائرة نصف قطرها سبعة أميال .

وقد أحدث الانفجار حفرة فى الأرض قطرها ميل وعمقها ١٧٥ قدماً .

٣ ـ عقب الانفجار بربع ساعة ارتفعت سحابة ذرية من جراء الانفجار إلى ٣٠ ميلا وبلغ عرضها ١٠٠ ميل .

وعلى هذا الأساس فإن لهذا السلاح إمكانية تدميرية تمسح مدينة كبيرة كنيويورك .

وتحدثت الصحف والمجلات كذلك عن تجارب جديدة لأسلحة ذرية من أنواع صغيرة أجرتها لجنة الطاقة الذرية فى صحراء نيفادا . وهذه تستعمل للتدمير تحت الأرض وآثارها مروعة . ويقدر العلماء قوة هذا السلاح الذرى الصغير بما يقرب من قوة ألف طن من مادة ت.ن.ت. الشديدة الانفجار . . .

وتتحدث الصحف والمجلات عن أثر هذه الانفجارات التى تجرى فى صحراء نيفادا وفى روسيا ، فلقد أشارت بعضها إلى

مرور سحابة هائلة تحتوى كميات من الغبار الذرى الذى أثارته تجارب التفجيرات فوق بريطانيا ودفعتها الرياح التى وصلت سرعتها ١٦٠ كم فى الساعة فى اتجاه الدنمارك وجنوب السويد .

وأشارت الأنباء كذلك إلى تجارب روسيا الذرية فى أغسطس وديسمبر فى العام الماضى — وقد تسببت فى سقوط الأمطار المشبعة بالإشعاع الذرى على اليابان فى تلك الفترة . وقد قال أحد علماء اليابان الدكتور « مياك » : « إن كل الدول التى تملك الأسلحة الذرية وتنشر المواد المشبعة بالإشعاعات الذرية تتحمل مسؤولية مشتركة أمام الجنس البشرى » إلى أن يقول : « . . . إن الأرصاد الجوية واتجاه الرياح والتحاليل الكيمائية أثبتت ذلك بما لا يقبل الشك . . . »

وبين (الدكتور لينوس بولينج) العالم الكيميائى الحائز على جائزة نوبل فى أحد المؤتمرات الصحفية التى عقدها أخيراً أن الإشعاعات الذرية المنبعثة من الانفجارات الهيدروجينية تنتشر فى كل مكان ومن المستحيل الاحتماء منها ولا سيما أنها تنتقل بواسطة السحب .

واقترح الدكتور أن توقف أميركا وروسيا وإنجلترا التجارب الهيدروجينية التى تقوم بها فى هذه الأيام وذلك نظراً لانتشار الإشعاعات الذرية فى مساحات واسعة نتيجة لهذه التجارب .

وقال هذا العالم إن أشعة « جاما » التى تنبعث من الانفجارات الذرية تقضى تماماً على الأشخاص الذين لا يستطيعون مقاومة أمراض السرطان العادية أو سرطان الدم .

ويأمل الدكتور أن تكون هذه الأسلحة الذرية والهيدروجينية سبباً فى عدم قيام أى حرب فى المستقبل والوصول إلى سلم دائم .

وأذاع البروفسور (أوتوهان) أحد الجائزين على جائزة نوبل فى منتصف شهر مارس سنة ١٩٥٥ حديثاً علمياً فى الإذاعة الألمانية عن الأسلحة الذرية قال فيه :

« . . . ان عشر قنابل هيدروجينية مغلفة (أو ملبسة) بالكوبالت تكفى للقضاء على الحياة البشرية بأسرها . . . »

وذكر البروفسور أن الإشعاع الذرى الناشىء عن تفجير الكوبالت يظل فعالا مدة ١٥ سنة فتصبح الأرض موبوءة بحيث لا تستطيع الحياة الحيوانية والنباتية أن تتحملها. وأشار إلى أنه يمكن استخدام الكوبالت بنسبة ٦٠ ٪ للأغراض السلمية . وطلب من شعوب العالم أن تعمل على الاحتفاظ بالعلاقات السلمية فيما بينها « فهذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ البشرية . . . »

١٨

لقد خلفت تجارب الانفجارات عند الناس خوفاً وقلقاً وذعراً من الحرب وأسلحتها، واعترتهم عقد نفسية من القنابل الذرية والهيدروجينية وأسهبت الصحف والمجلات فى الأخطار والويلات التى ستنصب على العالم فيما لو وقعت حرب عالمية .

وهنا نجد الدول الكبرى التى تمارس صناعة الأسلحة الذرية بدأت توجه شيئاً من عنايتها إلى أساليب الوقاية وطرق الاحتماء من الانفجارات الذرية ، وتذيع على رعاياها أنباء اهتمامها لتخفف من الذعر وتضع حداً لهذا القلق المستحوذ على النفوس . وعهدت إلى الاختصاصيين بدراسة أنجع الوسائل التى تحمى السكان والبلاد من الدمار الذى تحمله الأسلحة الحديثة . وأصبح القواد وعلماء الذرة والمسؤولون فى شغل شاغل بخطط الدفاع العسكرى والمدنى . ويتنبأ بعض العسكريين بإجراء تجارب فى أميركا وروسيا وإنكلترا وكندا — لا لتفجير القنابل الذرية — بل لمقاومة الغارات الذرية . وفعلا جرت محاولات أولية لتجربة بعض الاختراعات الوقائية تحت إشراف لجنة الطاقة الذرية فى أميركا .

وأذاعت وكالات الأنباء فى أواخر شهر مارس من هذه السنة ١٩٥٥ أن غارة بالقنابل الهيدروجينية ستقع على ٥١ مدينة أميركية منها وشنطن ونيويورك فى هذا العام .

وتضيف الأنباء إلى ذلك أن هذه التجربة ستتطلب هجرة ١٥ ألف موظف بينهم رئيس الجمهورية وأركان الدولة إلى مراكز سرية للاحتماء من هذه الغارة وإدارة شؤون الدولة لغاية ١٧ يونيو .

وأعلن كذلك أن هذه الغارة ستكون مفاجئة لسبع مدن .

ويهدف المسؤولون فى أميركا من هذه التجربة إلى اختبار مدى تقدم الدفاع المدنى واستعداد الدولة لعمليات الجلاء السريع وعمليات الإنقاذ .

وستقوم منظمات الدفاع المدنى فى جميع أنحاء أميركا بعمليات الإنقاذ وإيواء الملايين . وستستمر الغارة ٣٦ ساعة .

وأذيع فى أوتاوه أن تجارب الغارة الهيدروجينية ستشتمل مدن كندا أيضاً .

ولقد وضعت الولايات المتحدة وكندا مشروعاً (فى أوائل هذا العام) يتكلف ٣٥٠ مليون دولار لإنشاء شبكة من الرادار على سواحل كندا الشمالية الغربية من القطب الشمالى . ذلك لأن الخبراء يرون أن هذا القطب هو أقصر الطرق بين

الجزء الشمالى من الاتحاد السوفييتى وبين كندا والولايات المتحدة. وبهذه الشبكة يمكن أن يكشف العسكريون فى أميركا وكندا سر أى سرب يغير أو يحاول الإغارة على المناطق الصناعية الهامة فى أميركا الشمالية . وذكرت الصحف وبعض المجلات تفصيلات هذه الشبكة مما لا مجال لعرضها فى هذا الكتاب .
وأعلن رئيس إدارة البحوث الكيمائية فى الجيش الأميركى أنه أمكن كشف طريقة جديدة تساعد على وقاية المدن والأهداف العسكرية من أخطار الانفجارات الذرية وتقوم هذه الطريقة الجديدة على عمل ستار كثيف من الدخان لحماية المناطق الحيوية من الإشعاعات الذرية القاتلة التى تنتج عن تفجير القنابل الذرية . ومن الطبيعى أن يكون هذا الستار غير واف بالغرض فهو لا يستطيع مقاومة امتداد الضغط الشديد فى مساحات شاسعة والوقاية من إشعاعات (جاما) القاتلة .
وأوضح الخبراء أن هذا الستار الصناعى من الدخان يفيد — فائدة محدودة — فى حماية الناس من الاحتراق الذى ينتج عن الحرارة القاتلة للانفجار ، كما يقلل عدد الحرائق التى تشب فى المبانى عند حدوث الانفجارات الذرية .

أما الدخان الذى يستعمل فى هذه الحالات فيمكن إنتاجه من نوع خاص من الزيت الذى ينتج ضباباً مشوباً بالدخان

كما يمكن استعمال دخان يشبه الدخان الذى يوجد فى المناطق الصناعية وهو دخان تنتشر فيه ذرات من الكربون . ويقول الخبراء إن الدخان الكربونى أكثر تحقيقاً لأغراض الوقاية . ولكن الواقع أن هذه الطريقة الوقائية أو أية اختراعات لحماية الناس والبلاد من الانفجارات الذرية لن يكون لها أثر فعال فى تخفيف الدمار أو الإصابات . وقد تدفع هذه بعض الضرر ولكنها لن تحول دون الدمار الشامل والأضرار الفادحة والخسائر المخيفة فى النفوس والممتلكات .

ولاشك أن أفعل طريق وقائية وأنجحها هى تحريم الأسلحة الذرية والحروب واللجوء إلى التحكيم والعقل والمنطق والعدل فى حل المشاكل والقضايا القائمة بين الدول ...

فالأسلحة الذرية قد أصبحت ذات حدين تصيب جميع الأطراف على السواء، وفى نفس الوقت، فلا غالب فيها ولامغلوب بل فيها شر مشترك ودمار شامل وهلاك عام .

هذا ما نعرفه عن القنابل الذرية والهيدروجينية وقنابل الكوبالت . ولا شك أن المعلومات فى هذا الشأن محدودة لا تشفى الغليل ، والعلماء الذين حطموا الذرة واخترعوا قنبلة الهيدروجين والذين يدرسون فكرة صنع قنبلة الكوبالت لا يستطيعون إذاعة ما توصلوا إليه ونشر الأساليب والوسائل العملية التى أخرجوا بها القنابل الفتاكة .

الفصل الثانى

الشر فى الخير

استخدام الطاقة الذرية فى التدمير – بوارق من آمال – الذرة فى الطب والتعقيم – الذرة فى المجال الصناعى – الكهرباء من الذرة – مزايا وإمكانيات فى مجال الصناعة والخير المشترك – نقطة تحول فى الصناعة والاقتصاد – تنبؤات ومفاجئات

١

إن العالم الآن على عتبة عصر جديد من حيث مصادر الطاقة واستغلالها فى سائر المرافق والميادين . وبدأ العلماء يوجهون بعض جهودهم للاستفادة من الطاقة الذرية بأنواعها فى خدمة الإنسان والسيطرة على الطبيعة سيطرة نافعة مثمرة . كما بدأ الرأى العام العالمى يضغط على الحكومات والعلماء للسير بهذه الطاقة فى طريق العمران والبناء لا التخريب والهدم والدمار .

وفعلا اتجهت بعض الهيئات والحكومات هذا الاتجاه وأخذت تشجع البحث الذى يؤدى إلى استغلال الطاقة فى الخير والعمران والأغراض الصناعية . ولكن لا تزال الحكومات تعمل على تسخير هذه القوى الهائلة فى الذرة فى صنع القنابل واختراع أسلحة فتاكة جديدة تقوم على الطاقة الذرية ، وتخصص لذلك الأرقام الفلكية من الدولارات والإسترلينى .

إن التنافس فى هذا المضمار واسع . وفى كل يوم نقرأ عن نبأ غواصة تسير بالذرة ، ونسمع عن مدافع ذرية من نوع جديد رهيب ، وعن وسائل تدميرية لا تخطر على بال إنسان.

فقد جاء فى الأنباء الحربية والعلمية أن الولايات المتحدة استطاعت أن تنتج أول غواصة ذرية عرفها العالم وأطلقوا عليها اسم (نوتيلوس) . بعد جهود ستة أعوام وبعد أن تكلفت من النفقات ما يزيد على ٣٠ مليونا من الدولارات . وستنزل المصانع الأميركية غواصة ثانية خلال عام ١٩٥٥ .

وعلى ذكر الغواصة (نوتيلوس) كتبت مجلة تايم فى عددها الصادر فى ٤ ــ ٤ ــ ١٩٥٥ نبذة عنها جاء فيها : إن اثنى عشر عضواً من أعضاء لجنة الطاقة الذرية التابعة للكونجرس الأميركى زاروا نوتيلوس فى أواخر الشهر الماضى (مارس سنة ١٩٥٥) واطلعوا على أجزائها المختلفة . ولم يتحدثوا عن حركاتها وسرعتها وما تستطيع هذه الغواصة أن تقوم به . لأن هذه تقع فى نطاق الأسرار العسكرية . ولكن أحدهم قال : « إن الطعام الذى أكلناه قد طبخ بالطاقة الذرية . والماء الذى شربناه كان مقطراً من ماء البحر بالطاقة الذرية ، وكذلك تضاء الغواصة بالطاقة الذرية ويكيف الهواء فيها بالطاقة الذرية . . . »

وسأل أحد الأعضاء قائد الغواصة : « كم يوماً تستطيع هذه الغواصة أن تسير تحت الماء وبأقصى سرعة ؟ . . . » فأجاب القائد : « إلى ما لا نهاية من الأيام أى إلى عدد لا نهائى من الأيام . . . »

لقد حققت المصانع أحلام صانعى الغواصات إذ أصبح فى استطاعة الغواصة أن تسير تحت سطح البحر عشرات الألوف من الكيلومترات دون أن تصعد إلى أعلى .

ويستخدم اليورانيوم فى تسيير هذه الغواصة . فيوضع فى خزان للوقود لا لينفجر (اليورانيوم) كما هو الحال فى القنبلة الذرية بل لكى يحترق ببطء فيولد الحرارة المطلوبة لتحويل الماء فى الغلايات إلى بخار .

ولهذه الغواصة الذرية مزايا أخرى تتعلق بالسرعة فتستطيع أن تحتفظ بسرعتها أياماً وأسابيع عديدة بينما لا تستطيع الغواصات غير الذرية أن تسير بسرعتها إلا ساعات معدودة .

ولقد أدى استخدام اليورانيوم والمحرك الذرى فى هذه الغواصات إلى الاستغناء عن حمل ما لا يقل عن ٧٠٠ طن من المازوت والآلات الكهربائية التى تحملها الغواصات الحالية غير الذرية . وبذلك توافرت مساحات كبيرة فى داخل الغواصة يمكن استغلالها فى حمل أشياء أخرى هامة .

ولسنا بحاجة إلى القول إن هذه الغواصة الذرية لا تحتاج لوقودها إلا إلى بضعة كيلوجرامات من اليورانيوم تكفيها بضعة أشهر ، ذلك أن الكيلوجرام الواحد من اليورانيوم يكفى لتسيير

الغواصة أكثر من ١٠٠ ألف كيلومتر بالإضافة إلى أن قوة المحرك الذرى تساوى أضعاف قوة المحرك المستخدم الآن فى الغواصات العادية . ويذكر المراسل العلمى لجريدة (الدايلى ميل) أنه قد طلب من علماء الذرة وضع تصميم لوحدة طاقة ذرية تجعل طيارة كاملة التسلح قادرة على الطيران مدة ستة أشهر دون حاجة إلى الوقود .

ومن المؤلم حقاً أن نجد أن بعض العلماء يتفننون فى صنع أسلحة الدمار والفناء، فقد بين أحد العلماء أنه يمكن أن توضع حول القنابل الذرية أو الهيدروجينية مواد سامة تكتسب صفة الإشعاع عند الانفجار ، وعندئذ تتطاير مقادير كبيرة منها فى الجو إلى مدى عشرات الأميال . وإذا اختيرت الظروف الملائمة فإنها تفتك بما يصادفها من إنسان وحيوان ونبات أو تصيبها بالمرض .

وأصدرت أخيراً الحكومة البريطانية نشرة جاء فيها أن لدى بريطانيا بعض أنواع من الأسلحة الذرية التى ليس لها مثيل . وكذلك يتحدث المسؤولون فى الاتحاد السوفييتى عن استعداد روسيا التام فى الأسلحة الذرية والهيدروجينية . أما أميركا فهى أكثر الدول إذاعة ونشراً لأخبار أسلحتها الذرية . فقد جاء فى أحد البيانات التى صدر فى أوائل شهر نيسان

(أبريل) سنة ١٩٥٥ : أنه نظراً لقوة الأسلحة الجديدة الخارقة التي اخترعتها فإن أسلحة الدفاع الذرية ستزيد في مقدرة أميركا على صد أي هجوم جوي معاد .

٢

وعلى الرغم من هذا كله فهناك بوارق من آمال نتبين منها رغبة العلماء والمخترعين في توجيه القوى العظيمة في الذرة إلى نواحي الخير والبناء .

ويفكر العلماء في جعل الطاقة الذرية تقوم مقام كثير من مصادر الطاقة المتنوعة، وعندئذ يحتاج الإنسان إلى قدر يسير من ذرات بعض اليورانيوم (مثلا) في جهاز خاص معد لذلك لتجهيز البيت بما يلزم من الطاقة للتدفئة في الشتاء والتبريد في الصيف .

وما يدرينا فقد يقود العلم إلى استعمال قدر من الذرات في سيارة فتتولد منها طاقة تدفعها إلى السير بالسرعة المطلوبة إلى ما شاء الله .

وتشير الأنباء العلمية إلى أن علماء الروس توصلوا إلى صنع محرك سيارة يسير بطاقة الحرارة الناتجة عن احتراق ذرات

اليورانيوم والبلوتونيوم وتزيد طاقة المحرك الجديد مليونين ونصف المليون مرة بالنسبة إلى طاقة محرك السيارة العادية . وتستطيع هذه السيارة التى تستخدم المحرك الذرى السير عدة أشهر ببضعة غرامات من اليورانيوم والبلوتونيوم .

وأذاع راديو موسكو منذ أمد قريب أن محطة القوى الذرية الروسية لا تستهلك فى إدارتها أكثر من ملء علبة ثقاب من اليورانيوم فى اليوم الواحد . مع العلم بأن قدرة المحطة ٥٠٠٠ كيلو وات ، وان المحطة المماثلة فى القدرة والتى تدار بالفحم يلزمها ما حمولته ١٢ قطاراً من الفحم يومياً !!...

وما ينطبق على السيارة والمحطات ينطبق على السفن والطائرات وسكك الحديد .

وكذلك من السهل على العلماء (إذا أرادوا) صنع مولدات صغيرة للطاقة بحيث يمكن استخدامها فى الأغراض السلمية من إنتاج السيارات وبناء السفن ، وفوق ذلك ، فإن المصدر الجديد للطاقة (الذرية أو الهيدروجينية) سيكون له أكبر الأثر فى أساليب الزراعة والصناعة على أنواعها ، وفى علاج كثير من الأمراض . ويرى بعض العلماء أن من المحتملات التى قد تفضى إليها هذه الطاقة هو توليد الكهرباء دون الاعتماد على آلات دوارة كالمولد الكهربائى .

وفى رأى الكثيرين من العلماء أن استخدام الطاقة الذرية حدث اقتصادى وعمرانى ستكون له نتائج خطيرة بعيدة المدى من شأنها أن تزيل مشكلة الوقود فى العالم . وليس فى هذا ما يوجب العجب إذا علمنا أن الرطل الواحد من اليورانيوم ٢٣٥ يعادل فى الطاقة خمسة ملايين رطل من الفحم أو أربعة ملايين جالون من البنزين . وعلى رأى الدكتور مشرفة أن استخدام هذه الطاقة حدث ذو أهمية بالغة . . . « فالقدرة الكهربائية التى يمكن توليدها من خزان أسوان لا تزيد على مليون كيلو واط . وكل ما يمكن أن يحصّل منه فى سنة كاملة لا يزيد على الطاقة المختزنة فى ذرات $\frac{1}{5}$ كيلوغرام من المادة . فلو استطاع العلم استخلاص جزء صغير من هذه الطاقة لتضاءلت أمامها أضخم المشروعات الهندسية . كما أن مشكلة الوقود فى العالم من فحم وزيوت معدنية وما ينتج عنها من ضروب اقتصادية وتسابق بين الأمم — كل هذا سيتضاءل أمره فى هذا العصر العلمى الذى نحن مقدمون عليه . . . »

وجاء فى رسالة « ماذا تخفيه نواة الذرة للإنسان » أن بعض العلماء يكتبون أشياء أشبه بالخرافات منها بالحقائق . فقد فكر — إرفنج لانجماير Irving Langmair فى « . . . استبدال قطارات السكك الحديدية بمركبات تقذف

داخل نفق كبير فتسير المركبات وسط مجال مغناطيسي قوى . فلا المركبة تصطدم فى طيرانها بسقيفة النفق ، ولا هى تلمس فى سيرها أرضه ، بل هى تسبح بسرعة فائقة فى هذا النفق المفرغ من الهواء بحيث يصل الراكب إلى طرف الأرض فى نصف ساعة . . . » بمعنى أن المسافر يقطع المسافة من القدس إلى دمشق فى حوالى دقيقة واحدة ! ! ومن القاهرة لأسوان فى حوالى خمس دقائق ! ! وصاحب هذه التنبؤات لا يلقى الكلام جزافاً بل هو عالم من الطراز الأول من حملة جائزة نوبل .

يفكر بعض العلماء فى استخلاص الطاقة الذرية من غير اليورانيوم ، فلقد أشار (جوليو كورى) فى إحدى إذاعاته من لندن سنة ١٩٤٩ أنه توصل للطاقة الذرية بطريقة تختلف عن الطريقة المعروفة حتى الآن . ومن يدرى ، فقد يرمى فى هذا إلى أنه استخدم مادة أخرى مشعة كالثوريوم أو غيرها ؟! أو أنه استخدم وسائل أخرى غير التى تشير إليها المجلات العلمية . وعنصر الثوريوم هذا موجود بوفرة فى رمال (كارولينا) . وهو زهيد الثمن حتى إنه استخدم فى ميناء الساعات . . . »

ومما لا شك فيه أن الطاقة الذرية ستؤثر فى أساليب الناس السياسية والاجتماعية وفى نظامهم الاقتصادى ، كما ستكون

عاملا فعالا فى تغيير نظرة الإنسان لكثير من مشاكل الحياة ومسائلها .

ويقول الدكتور غالى فى هذا الصدد : « أعتقد أن البون بين الإنسان الذى يعيش مستمتعاً بمدنية اليوم — وهى المدنية التى اعتمد فى كل علومها وفى كل تطبيقاتها من استخدام البخار والكيمياء والكهرباء على انتقال بسيط بين الذرات أو على وثبات تحدث بين الألكترونات — وبين الإنسان الذى سيعيش معتمداً على المدنية القادمة — وهى المدنية التى ستعتمد فى غالبية علومها وتطبيقاتها على الطاقة التى تخرج من النواة — كالبون بين هؤلاء البدائيين الذين لم يستخدموا النار ولم يفطنوا للزراعة وبيننا اليوم . . . »

٣

دخلت الطاقة الذرية الطب والصناعة الغذائية وتغلغلت فيها . وحاول الأطباء والعلماء ولا يزالون يحاولون الإستفادة من هذه الطاقة فى علاج الأمراض والقضاء على بعض الآفات التى تصيب الإنسان وتعكر حياته .

وهناك نواح عديدة سنذكرها عند البحث فى تسخير

الطاقة الذرية فى أغراض الطب .

هناك ناحية النترونات فى جسم الإنسان . فالنترونات تشبه الأشعة السينية بعض الشبه . فإذا عرض الجسم الحى إلى تيار من قذائفها مدة طويلة أثر ذلك فى كريات الدم البيض فيقوى فعل تدميرها أو يضعف فعل توليدها ، فتقل فى الدم فى الحالين فى المتوسط السوى . وقلما تضعف قدرة الجسم على مقاومة الأمراض . . . « وهناك ما يدل على أن النترونات قد تكون فعالة فى معالجة النواحى السرطانية ــ السطحية على الأقل ــ وقد أجريت تجارب أخرى تشير إلى أن تيارات النترونات قد تكون أفعل من الأشعة السينية فى الوصول إلى نوامٍ سرطانية دفينة فى الباطن . ولما كان اليورانيوم ٢٣٥ مادة تتولد منها النترونات بكثرة فاستعماله يمكن العلماء من استحداث الإشعاع فى عناصر غير مشعة ، ولذلك فقد تكون وسيلة فعالة لإحداث التحول فى العناصر ولتوليد العناصر المشعة بالصناعة المتصفة بفوائد طبية وبيولوجية كثيرة . . . »

ويظهر أن ما جاء فى هذه النبذة على شىء كثير من الصحة تؤيده آثار القنابل الذرية . فقد جاء فى جريدة الديلى إكسبريس فى ١٠ ــ ٩ ــ ١٩٤٥ بشأن فتك القنبلة

الذرية ما يأتى : « . . . إن العلماء الإخصائيين فى لندن ونيويورك يرون أن البيانات الرسمية الأولى التى وردت عن المدن التى ضربت بالقنابل الذرية تؤكد ما سبق أن قيل عن تسبب هذه القنابل فى إحداث موت مؤجل . . . ويلاحظ أن آلافاً من اليابانيين الذين حسبوا أنهم نجوا من القنبلة . . . لا يزالون يموتون الآن بسبب آثارها البطيئة . ويعتقد كبار الأطباء المتخصصين فى العلاج بالأشعة فى لندن أن كل العوارض التى حدثت إنما كانت نتيجة للوهج الشديد الذى انبثق على أثر إنفجار القنبلة . . . ولعل أشد عوامل هذه القنبلة خطراً كان أشعة (جاما) الناشئة من تحلل ذرة اليورانيوم . وهذه الأشعة هى أشعة نافذة من ذرات الموجة القصيرة التى تستعمل فى علاج السرطان . ويعتقد الأطباء أنه متى انفجرت القنبلة انتشرت أشعة (جاما) بشكل كثيف فى نطاق واسع المدى وشقت سبيلها بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية !! فإذا أصابت إنساناً ما نفذت خلال جسمه وأتلفت أنسجته . وهنا تموت أجزاء من جلده — وما هى إلا أيام حتى يزرق لونه ويأخذ فى الانحلال . . . »

وهناك بعض اختلافات وزنية طفيفة بين ذرات العنصر الواحد ، وتسمى هذه (النظائر) كما مر .

وبعض هذه النظائر ترسل أشعة ، وبعضها لا تشع . ومن النظائر المشعة ما نجده فى الطبيعة كالراديوم ؛ ومنها ما نجده صناعياً يتولد بواسطة السيكلترون والفرن الذرى .

« . . . هذه الإشعاعات التى تخرج من النظائر المشعة لها خاصية هامة . وهى إمكانية إدراكها بواسطة آلات خاصة كعداد (جيجر) . وعن طريق هذه الأجهزة يمكن رسم الطريق الذى يتبعه أى نظير مشع أثناء حركته داخل جسم ما . ويسمى النظير المشع فى هذه الحالة « رسام ذرى » . وبينما نجد المواد المشعة الطبيعية يتعذر استخدامها كرسام ذرى نجد أن المواد المشعة الصناعية كالصوديوم والفوسفور والإيودين والحديد والكبريت تعتبر عناصر حية كرسام ذرى . والرسام الذرى يتمتع بجميع الخواص الكيمياوية للعنصر التابع له . . . »

وللنظائر المشعة خصائص وميزات . وبواسطتها يمكن إدراك كثير من الأسرار فى نواحى الحياة المختلفة . وبفضلها تمكن الإنسان من التثبت من صحة النتائج التى يتوصل إليها عن طريق العمل . فهى تستخدم فى معرفة أسرار عمليات الجسم الحى وأجهزته . ويكون استخدامها على هيئة مركبات كيميائية يدخل فيها النظير المشع .

وبواسطة النظير المشع يمكن رسم المواد الكيماوية التى

تتولد فى خلايا السرطان « . . . وبمقارنة الفرق فى تمثيل الأعضاء الطبيعية والأعضاء المصابة بالسرطان يمكن إدراك الخلايا المصابة . . . »

وكذلك تستخدم النظائر المشعة فى معرفة كنه صفات الدم . ومن تقدير كمية الدم الموجودة فى جسم شخص ما وذلك عن طريق حقنه بكميات من دم تحتوى على هيموجلوبين به حديد مشع وعن طريق دراسة الإشعاع يمكن تقدير الكمية ..»

وبواسطة النظائر المشعة تمكن العلماء من دراسة الدورات الدموية . ومن معرفة الطريقة التى يتبعها الجسم الحى فى تحويل الطاقة الغذائية إلى أحماض أمينية ثم إلى بروتين .

وبفضل الإشعاع الصوديومى تمكن الأطباء من تقرير ضرورة إجراء جراحات البتر أو عدمه ، وتحديد مواضع البتر .

ويستخدم الأطباء الإيودين المشع فى علاج النشاط الزائد للغدة النخامية ، فتخرج منه أشعة (بيتا) التى تحطم كمية كافية من الخلايا وتهدئ النشاط الزائد . والفوسفور المشع يستخدم فى تحديد الأورام المخية وعلاج سرطان الجهاز الليمفاوى .

ولقد أعلنت جمعية أبحاث السرطان فى أمريكا خلال شهر

مارس من سنة ١٩٥٥ أن العلماء يجربون عدة طرق لتدمير الأورام السرطانية فى المخ بواسطة انفجارات ذرية دون أن يؤثر الانفجار فى أنسجة المخ .

وسبق لبعض الأطباء فى أميركا أن عالجوا منذ أعوام بعض المصابين بأورام سرطانية فى المخ وحالتهم ميؤوس من شفائها بواسطة حقن (بورون) وتعريض رؤوسهم للإشعاعات المنطلقة من الأفران الذرية .

ولقد تبين من البحث أن (البورون) كان يستقر فى الأورام السرطانية وأن الأشعة المنبعثة من الأفران الذرية تفجر ذرات (البورون) . ونجحت التجربة إذ استطاعت هذه الانفجارات الذرية أن تدمر أغلب الأورام المخية فى المخ ولكنها لم تقض عليها نهائياً دون أن تصيب الأنسجة الطبيعية بأخطار .

وتتركز بحوث بعض العلماء الآن على تحسين الوسائل التى تحول دون إصابة الأنسجة . واستغل النشاط الإشعاعى فى معالجة مرض اللوكيميا (تزايد كرات الدم البيضاء) ويقول سولمان فى هذا الشأن : « . . . إن أكثر النتائج المشجعة فى استعمال الطريقة الصناعية للعلاج بواسطة النشاط الإشعاعى قد ظهرت فى علاج مرض اللوكيميا . ومرض اللوكيميا هو مرض مميت .

وهو نتيجة لزيادة كبيرة فى عدد كريات الدم البيضاء ، وهو مرض شبيه من نواح عديدة بمرض السرطان ، الذى فيه أيضاً تتكاثر كرات الدم البيضاء بدرجة كبيرة ، ولم يعرف بعد علاج اللوكيميا وإن يكن استعمال أشعة إكس بطريقة متواصلة قد أفاد فى مدّ أجل المريض مدة من الزمن . ومن المعروف أنه بعد مدة معينة لا يمكن أن يتحمل الإنسان أشعة إكس فيستمر المرض متجهاً نحو النهاية المميتة . وفى حالة العلاج بواسطة العناصر ذات النشاط الإشعاعى ، نرى أن هذه العناصر ذات فعل كيميائى داخل جسم الإنسان . كذلك الفعل الذى لنظائرها العديمة الحركة . وتحتوى العظام فى العادة على كمية كبيرة من الفوسفور المختزن . ولقد أثبتت التجارب التى أجريت على الحيوانات أن للعناصر ذات النشاط الإشعاعى فائدة كبرى فى مضاعفة كمية الفوسفور الموجودة فى العظام ، ولما كانت العظام هى المنتجة لأغلب كريات الدم البيضاء ، فمن ثم يكون للعلاج بواسطة العناصر الفوسفورية ذات النشاط الإشعاعى أكبر الأثر ما دام يمكن أن تستعمل فى الحالة التى يحتاج فيها إليه . وهنالك حالة حديثة لمريض باللوكيميا استطاع أن يعيش بعد أن انتهى العلاج بأشعة إكس وذلك بواسطة عملية نقل الدم ، ولولاها

لمات . ولما عولج بواسطة عناصر فسفورية ذات نشاط إشعاعى :
محضرة على هيئة حقن فى هارفرد . ظهر التحسن فى حالته
سريعاً وعاد إليه السرور لأول مرة بعد عدة شهور . ولئن كنا
نتوقف الآن عن إعطاء نتائج أكيدة لتلك التجارب فإن
الأمر الذى لا شك فيه : « أن عناصر الفوسفور ذات النشاط
الإشعاعى تقدم لأول مرة علاجاً جديداً مهماً لمرض اللوكيميا
الخبيث . . . »

ويمكن القول إنه أصبح من الممكن استخدام الطاقة الذرية
عملياً فى الطب سواء كان ذلك للتشخيص أو للعلاج ، وتم
للعلماء بعض الانتصارات على الأمراض .

وفوق ذلك فإن النظائر المشعة « قد صارت فى أيدى الأطباء
وعلماء الطب أداة صالحة للبحث فى ميدان مجهول أو كالمجهول
من أسرار الصحة والمرض »

وكذلك يحاول العلماء الآن استغلال الإشعاع الذرى فى
تعقيم المواد الغذائية .

إن المواد الغذائية تتضمن طائفة من الميكروبات العضوية ،
وجرت العادة فى إبادتها ووقف تكاثرها البكتيرى بالتعقيم فى
العلب أو عن طريق الصقيع . وقد يحدث أن تبقى حية
فتتكاثر وتفسد المادة الغذائية المعلبة . ولكن إذا عرضت هذه

الميكروبات إلى إشعاع ذرى فقدت خاصية توالدها وتكاثرها وماتت خلال مدة تتراوح بين ٢٠ دقيقة وساعتين من الزمن .

ويجرى اليوم تعقيم المواد الغذائية بالإشعاع الذرى على طريقتين : الأولى بتعريض هذه المواد لأشعة (بيتا) . والثانية بتعريضها لأشعة (جاما) المنبعثة عن بعض الأجسام الذرية مثل الكوبالت .

ونشر العالم الروسى (بتروف) رئيس المصلحة التكنيكية فى وزارة صناعة المنتجات الغذائية فى الاتحاد السوفييتى مقالا حول حفظ المواد الغذائية بواسطة الطاقة الذرية جاء فيه : ليس باليسير دائماً حفظ الخضار والبطاطا بحالتها الطبيعية دون أن تفسد ، ذلك أنه من المحال حفظ البطاطا مدة طويلة دون أن يصيبها العطب وفى هذه الحالة تفقد طعمها وقيمتها الغذائية .

وثبت من التجارب التى أجريت فى المعهد الوطنى للصناعة الغذائية أن البطاطا إذا عولجت بالكوبالت الإشعاعى أمكن حفظها مدة تسعة أشهر وأكثر دون أن يصيبها أى عطب محتفظة بطعمها وقيمتها الغذائية .

وما يصدق على البطاطا يصدق على البصل والجزر وغيرها من البقول إذا عولجت بالعناصر الإشعاعية .

والواقع أن استخدام الذرة ومزايا طاقتها وأشعتها فى الصناعة الغذائية أصبح محل اهتمام العلماء وعنايتهم وقد قطعوا فى ذلك شوطاً بعيداً .

إن محفوظات اللحم والسمك والبقول والفواكه منتشرة فى الاتحاد السوفييتى على نطاق واسع ، ولأجل حفظها بحالة جيدة يتحتم تعقيمها . وتعقم هذه المحفوظات صناعيا فى مراجل مطبقة وتحت ضغط وحرارة بخارية لا تؤمن دائماً صيانة الشكل الطبيعى والطعم والنكهة كما تكون فى الفواكه والبقول الطازجة وغيرها .

إلا أن المنجزات الحديثة فى ميدان الطاقة الذرية تتيح إمكانيات جديدة فى هذا المضمار ، فمعهد صناعة المحفوظات يعمل الآن « . . . على إنجاز تيكنولوجيا التعقيم دون تسخين المنتجات . . . »

وجملة هذه العمليات تكاد تكون غير محسوسة فى الموجة الغزيرة من الطاقة الإشعاعية . فتعقيم اللحم والسمك والبقول يستلزم بضع ثوان ، وهو يجرى فى أوعية من الزجاج أو القصدير ، وهذه المحفوظات التى تظل متمتعة بلونها الطبيعى وجميع خصائصها الغذائية كالمنتجات الطازجة يمكن الاحتفاظ بها بسهولة إلى أجل طويل فى الأحوال العادية . . . »

وليس المجال مجال تفصيل الطرق التى تتصل بتعريض المواد الغذائية للأشعة وتعقيمها ، ولكن يمكن القول إن هذه الطرق ستتقدم وتجرى عليها تحسينات بحيث يسهل حفظ المواد الغذائية سليمة عن غير طريق العلب والثلاجات .

واستغل العلماء الخصائص المشعة لقنبلة الكوبالت فى إنقاذ حياة الكثيرين المصابين بداء السرطان حتى أصبح فى الإمكان تصدير بعض هذه القنابل إلى الأماكن التى تحتاج إليها . فلقد أخرجت المصانع فى إنكلترة قنبلتين من الكوبالت أنتجتا بواسطة إدخال معدن الكوبالت القاسى فى الأفران الذرية فى بريطانيا ، وصدرتهما إلى مستشفيات هولندة لمعالجة المرضى المصابين بداء السرطان ، ويساوى الإشعاع المنبعث من هذه القنابل ما يعادل الإشعاع الذى ينبعث من ٢٥٠ — ٣٠٠ غرام من الراديوم .

وأخرجت المصانع كذلك كميات أصغر تبلغ ١٠٠ وحدة إشعاعية من الكوبالت (أى ما يساوى مائة غرام من الراديوم) وهى الآن قيد الاستعمال فى بعض مستشفيات بريطانيا .

وخرج إلى الأسواق فى أميركا (اليود المشع) وهو أحد المنتجات السلمية الذرية كما أسمته بعض المجلات ، وهو يباع

على شكل (برشاهات) وقد أدى استعمال هذه (البرشامات) إلى الاستغناء عن العمليات الجراحية كما يفيد لعلاج الأمراض القلبية .

واخترع فى أمريكا جهاز أوتوماتيكى ذرى يتيح للأطباء تشخيص الأورام المخية وتحديد مواضعها بواسطة الإشعاع الذرى .

وصُنع فى جامعة كاليفورنيا ساعة ذرية يمكنها ضبط الوقت بدقة متناهية ، وقد حسب العلماء أن الفرق الذى قد يحصل فى هذه الساعة فى الوقت لا يزيد على ثانية واحدة كل ٣٠٠ سنة !!! وهذه الساعة ستساعد كثيراً فى تحسين الملاحة والمواصلات وذبذبات الرادار .

٤

ولم تقف المصانع عند هذه الحدود ، بل لقد امتد استخدام العلماء للطاقة الذرية إلى استخدام ما وفرته هذه الطاقة من الكثير من النظائر المشعة ـــ فاستخدمها العلماء فى الصناعة فى نواحيها المتعددة . نذكر بعضها : لقد استخدم العلماء هذه النظائر المشعة فى تقدير سمك الأجسام كالورق

والمطاط والبلاستيك والمعادن الرقيقة ، وفى تحديد مواضع الشروخ فى الأنابيب حتى لو كانت فى الحائط أو تحت سطح الأرض .

وكذلك يمكن استخدام هذه النظائر المشعة فى تقدير الشوائب فى المواد المختلفة وذلك عن طريق تحويل هذه الشوائب إلى مواد مشعة « . . . ويتعذر فى كثير من الأحيان تقدير هذه المواد بالطرق العادية . ويمكن تقديرها بهذه الطريقة بدقة متناهية . . . »

وتستخدم النظائر المشعة فى صناعة الأدوية . ويمكن استخدامها فى تعقيم الأدوية كالبنيسيلين دون استخدام الحرارة . وهناك أنواع جديدة من المركبات الكيميائية يمكن صناعتها باستخدام النظائر المشعة .

٥

لقد بدأ يتسع استخدام الطاقة الذرية فى الأغراض السلمية بعد أن رفع الكونجرس الأميركى سنة ١٩٥٤ بعض الحواجز التى كانت تحول دون الإنتاج الخاص للطاقة الذرية . ونتج عن ذلك ، الشروع فى تنفيذ برنامج السنوات الخمس لإنشاء الأفران الذرية . وستنتهى لجنة الطاقة الذرية من إنشاء خمسة

أفران للأغراض التجارية قبل سنة ١٩٦٠ . وستبنى هذه الأفران بطرق مختلفة للمفاضلة بينها ومعرفة أكثرها إنتاجاً للكهرباء .

وكانت الولايات المتحدة لا تنتج اليورانيوم منذ ست سنوات ، فأصبح إنتاجه الآن صناعة يستغل فيها أكثر من ١٠٠ مليون دولار . وتستخدم الآن أكثر من ألف شركة النظائر المشعة فى الأجهزة الصناعية والطبية الخاصة بالقياس والكشف الطبى بينما يستخدمها أكثر من ٧٥٠ مستشفى فى الأغراض الطبية . وكذلك أمكن إنتاج وحدات ذرية لأشعة إكس يسهل حملها ونقلها . وفى الوقت الذى تظهر فيه هذه المعلومات فى المجلات الأميركية نجد أن صحيفة (ردستار) الناطقة بلسان الجيش السوفييتى تشير إلى أن علماء الطاقة الذرية والمهندسين الروس سيتمكنون فى القريب العاجل من صنع محركات ذرية ومحطات لتوليد الكهرباء من الطاقة الذرية . وإن أول محطة كهربائية ذرية لمد المصانع بالقوى الكهربائية قد تم إنشاؤها فى روسيا وإنها بدأت فعلا بتزويد المصانع بالكهرباء . ويجرى الآن إنشاء محطات كهربائية ذرية تستطيع أن تولد ١٠٠,٠٠٠ كيلو واط .

وفى يونيو من سنة ١٩٥٤ افتتح المسؤولون فى الاتحاد السوفييتى أول محطة استخدمت فيها الطاقة الذرية لتوليد

الكهرباء . وبدأوا فى توريدها إلى المناجم والمزارع القريبة .

أما قدرة هذه المحطة فهى فى حدود ٥٠٠٠ كيلو واط . والنية معقودة لافتتاح محطات أخرى تتراوح قدرتها بين ٥٠ ، ١٠٠ كيلو واط .

ولا تحتاج المحطة التى قدرتها ١٠٠,٠٠٠ كيلو واط إلى أكثر من ٥٠٠ غرام من اليورانيوم بدلا من حمولة ثلاث مركبات من الفحم الحجرى . ويمكن لمثل هذه المحطة تغذية مدينة صناعية كبيرة بالتيار الكهربائى .

وكذلك أعلنت بريطانيا أخيراً عن برنامج ينفذ فى عشر سنوات لإنشاء ١٢محطة لإنتاج طاقة ذرية يمكن استخدامها فى الأغراض الصناعية . ويقول العلماء إن الطاقة الذرية التى تنبعث من إحدى المحطات تكفى لإضاءة ربع بيوت بريطانيا .

وتم فى بريطانيا سنة ١٩٥١ فى أحد المصانع الذرية فى هارويل تهيئة التدفئة لا بالكهرباء ، ولا بالفحم ، بل بالإشعاع الذرى . إذ استطاع بعض العلماء أن يستمدوا ذرات قليلة من البطارية الذرية التى يستخدمونها فى التجارب ، فأفردوا منها قوة إشعاع تعادل ٢٠٠ مدفأة كهربائية ، ونشروها فى المكاتب رأساً . وبذلك استطاعوا لأول مرة استخدام الطاقة الذرية فى التدفئة .

هذه الذرات القليلة تولد من الحرارة ما يغنى مصانع التدفئة فى (هارويل) عن ألف طن من الفحم فى الشتاء . ومن هنا تتجلى الفوائد التى تجنيها البشرية من الطاقة الذرية فيما لو استخدمت لأغراض إنشائية وعمرانية .

وامتد استغلال الطاقة الذرية إلى السفن ، فقد فرغت بعض الدول (بريطانيا وروسيا وأميركا) من صنع سفن حرب ذرية وجهزت بوسائل وقائية من الإشعاع الذرى .

وعلى ذكر الإشعاع الذرى لا بُدّ لنا من القول إن العلماء يصرفون الكثير من الجهود والأموال لاختراع الأجهزة والوسائل التى يمكن بوساطتها اتقاء تأثير الإشعاع الذرى على الإنسان . وقد قطعوا فى ذلك مراحل حاسمة . ولا يزال العديد من النتائج التى توصل إليها العلماء من الأسرار العسكرية .

٦

إن الطاقة الذرية قد أوجدت مزايا عظيمة وإمكانيات فنية هائلة يمكن الانتفاع بها فى ميادين الصناعة والطب والإنتاج مما يؤدى إلى السلام الشامل .

فالعصر الذى بدأ العلماء فيه يسيطرون على الطاقة الذرية

هو عصر الذرة ويتميز بمزايا ثلاث :

١ – ستكون الطاقة سهلة التناول كالماء والهواء وحينئذ تنعدم الأسباب التى تؤدى إلى الحروب والتنافس من أجل الفحم والبترول .

٢ – ستمهد الطاقة الذرية إلى استغلال المحيطات والصحارى لنحصل منها على ما يحتاج إليه البشر من معادن ومواد خام .

٣ – إن القوة التدميرية الهائلة فى الأسلحة الذرية وما ستصبه القنابل الذرية من أهوال ودمار شامل فيه نهاية الحضارة ستجعل الدول تفكر ألف مرة قبل الإقدام على الحرب.

وعلى هذا يمكن القول إن القنبلة الذرية قد بعثت على التفكير فى منع الحرب . وكيف لا تبعث على التفكير والعالم على عتبة العصر الذرى وفى أول مراحل السيطرة على الطاقة الذرية ؟! وقد قال برتراند رسل: « نعرف القليل من المعرفة ، ومن العجب أننا بهذه المعرفة بلغنا هذا المبلغ المحدود من العلم ومن أعجب العجب أن هذا القدر القليل من المعرفة والمبلغ المحدود من العلم قد وضعا فى أيدى العلماء هذا القدر الهائل من القوة والسلطان. » فإذا لم يتحكم الإنسان بالطاقة الذرية فلن يتحرر العالم من الخوف بل سيحيط به من كل جانب ويغرقه فى بحار من الأخطار والقلق والحيرة والمتاعب النفسية والمادية .

وإذا تحكم الإنسان بهذه الطاقة – والإنسان الآن فى طريق التحكم – فإن حياة الإنسان سوف تتعرض للتغيير كما تعرضت للتغيير خلال العصور بمعرفتنا للنظام الشمسى .

ويقول أوبنهايمر أحد كبار العلماء فى صناعة القنبلة الذرية : « . . . فى عالمٍ سلاحه الذرة لن تنشأ حروب . وهذا ليس بالشىء البسيط فى ذاته ، ولئن كان التغيير يبدو ضئيلا الآن فى علاقات الشعوب والحضارات والناس بعضهم ببعض فإن المستقبل لكفيل بإحداث ذلك الانقلاب الخطير المرتقب . وإنه لأمر يعود علينا بالفائدة إذا ما بصرنا بالنتائج العظيمة التى يتضمنها الاكتشاف الذرى . ولا بد من تقدير الصعاب حق قدرها إذا ما أردنا أن نخدم أنفسنا ونساعد على تقدم العلوم ونخدم إخواننا فى الإنسانية . وإذا كان السلاح الذرى لم يبلغ بعد فى أيامنا شأناً خطيراً فإنه لا يمكن أن يكون أملا صغيراً . . . »

ومن التغييرات المنتظرة استخدام الطاقة الذرية على مدى واسع فى ميادين الطب واستغلال النشاط الإشعاعى فى علاج بعض الأمراض .

وكذلك ستفضى الطاقة الذرية إلى تغييرات خطيرة وهامة فى المجالات الزراعية والصناعية .

فلقد تمكن العلماء بفضل النظائر من إدراك كثير من العمليات التى تحدث فى النبات « . . . فعملية التمثيل الضوئى التى تمدنا بالمواد الكربوهيدراتية والبروتينات وغيرها ، وهى مصدر فحمنا وزيتنا وطعامنا — هذه العملية تنشأ من مواد بسيطة ووفيرة كالماء وثانى أوكسيد الكربون وطاقة ضوئية . ولكن كيف يحدث ؟

لقد كان ذلك سرًّا مغلقاً ، ولكن بفضل الكربون المشع تمكن العالم من تتبع خطواته العملية . وبعد مدة سنسمع أن العلماء قد تمكنوا من تحضير المواد الغذائية فى المعمل وبأسعار رخيصة . . . »

وتجرى الآن بعض البحوث والدراسات والتجارب لمعرفة كيفية امتصاص النبات للأسمدةِ المختلفة . وبمعرفة قوة المخصبات المختلفة وحاجة النبات إليها — يمكن توفير كميات هائلة من الأسمدة الزائدة عن حاجة النبات « . . . ويمكن به تخير السماد المناسب للنبات المعين . . . »

ويأمل العلماء كذلك بواسطة النظائر تطهير التربة من الحشرات الضارة وعلاج أمراض النبات وإماتة الخلايا الجرثومية والحصول على أنواع جيدة من المحصولات وإنتاج سلالات جديدة من النبات .

وفى الأنباء العلمية أن بعض المهندسين يحاولون استعمال الطاقة الذرية فى تسيير القاطرات فقد وضع العالم الطبيعى الدكتور (لابل بورست) تصميمات لقاطرة من هذا النوع تستهلك فى سنة واحدة ٤,٩٥ غرامات من اليورانيوم بينما تزيد قوتها أربعة أضعاف على أحدث قاطرة ديزل .

ويقول مهندس القاطرة بأن قوتها ستكون فى حدود ثلاثة أرباع مليون حصان وسرعتها عظيمة تفوق سرعة أية قاطرة كهربائية معروفة . أما قوتها فتحصل بواسطة البخار الناتج عن الحرارة المتولدة من كمية ضئيلة من فرن ذرى أو كومة ذرية فيحرك البخار المولدات الكهربائية . وهذه بدورها تسير المحركات الكهربائية . ويفكر العلماء كذلك فى الانتفاع من الطاقة الذرية فى تسيير السفن الكبيرة . ويحتمل أن يعتمد هذا الانتفاع على حرارة الطاقة الذرية فى توليد البخار الذى يدفع السفينة ، وفى هذه الحالة تزول المدخنة والمواقد التى يوقد فيها الفحم إذ لا حاجة للسفينة لأن تحمل وقوداً من الفحم والنفط .

ومن الطبيعى أن هذا النظام يدخل صناعة السفن وشكلها فى طور جديد . فتزداد حمولتها وتصبح ممراتها وردهاتها أوسع وأقرب إلى راحة المسافرين، ويقول الأستاذ صروف فى إحدى

محاضراته عن الذرة : « ويومئذ ينقضى ما لبعض الأمم من سيطرة على ملاحة البحار والمحيطات بما لها من ثغور مزودة بما تحتاج إليه السفن من وقود فيومئذ تصبح البحار حرة حقاً ، وهذا يؤثر على الزمن فى خطط الأمم المرتبطة بالقوة البحرية ويفضى إلى تغيير أساسى فى الخطط وفى القوة البحرية جميعاً ... » .

ويتكهن بعض العلماء بأن الطاقة الذرية قد تفقد أحوال المناخ الكثير من أهميتها . وقد تساعد الحرارة والضوء المنبعثتان منها على إنتاج النباتات بطرق غير التى نعرفها كما قد تساعد فى تحويل الصحارى إلى أراض زراعية والكشف عن الذهب والمعادن فى بطن الصحراء .

وقد قرأت رأياً للعالم الذرى الأميريكى الدكتور (بول إليوت) يتلخص فى « أن انفجار قنابل هيدروجينية قد يحدث تغييراً فى فصول السنة ويزيد فى عدد الأيام بتغيير حركة الكرة الأرضية ، ويستدل الدكتور إليوت على نظريته هذه بأن الطاقة التى تصل من الشمس إلى الأرض فى كل ثانية تعدل الطاقة الناجمة عن انفجار كيلوغرامين من الهيدروجين .

وهذا رأى — قد تثبت التجارب صحته وقد لا تثبت . ولكنه رأى وجيه صادر عن عالم اشتهر فى بحوثه الذرية إبان الحرب العالمية الثانية .

ويأمل العلماء أن يستخدموا النظائر المشعة – أو كما كانت تسميها أحياناً مجلة المقتطف قبل أن تحتجب بالذرات الكاشفة – فى تمييز كتل الهواء . فالميتالورجيا الحديثة تتوقف على تتبع مسار كتل الهواء والتغيرات التى تحدث لها أثناء حركتها . وبذلك يتاح للعلماء التنبؤ بحالة الجو بعد أن يأخذوا بعين الاعتبار بعض العوامل التى تتغير كالرطوبة « . . . وسيساعد استخدام الذرات الكاشفة فى الملاحظة الدقيقة لانتقال تلك الكتل الهوائية وتمازجها . وما علينا إلا أن ندخل الكاشف فى شكل تراب دقيق أو فى صورة غاز داخل كتلة الهواء التى نريد أن نتتبعها . وباستخدام عداد (جيجر) ووضعها فى البالونات الصاعدة العادية فإنه يمكننا تعيين مكان كتلة الهواء . وبقياس كميه الإشعاع الذرى فإنها تعطينا فكرة عن مدى امتزاج كتل الهواء المتتبعة بالهواء غير الإشعاعى فى الكتل المجاورة . . . »

ويدرس الآن العلماء أثر المواد المشعة فى الفيضانات . فلقد اكتسحت السواحل الشرقية فى بريطانيا هذا العام والعام الذى سبقه فيضانات خطيرة ، ولوحظ كذلك أن أنهار فرنسا قد ارتفعت ارتفاعاً خطيراً من جراء الأمطار المتواصلة وذوبان الثلوج .

وأخذت بعض الأنهر فى أواسط أوروبا فى هذا العام فى الفيضان بدرجة تنذر بالخطر وتهدد المدن والقرى على السواء .

وفى سويسرا وقع تلف شديد وأضرار فادحة بسبب الأمطار المتواصلة . ووقع فى الصيف الماضى فى مقاطعات صينية فيضانات نتج عنها هلاك عشرات الألوف من البشر .

ولا شك أن هذه الظاهرة مما تلفت الأنظار ، وقد دفعت العلماء فى بريطانيا إلى دراستها وباشروا عمليًّا فى ذلك ، وبدأوا أعمالهم بإلقاء بعض المواد المشعة فى البحار المحيطة ببريطانيا ليكشفوا أسباب الفيضانات الخطيرة التى وقعت بريطانيا تحت رحمتها فى الأعوام الأخيرة .

٧

لقد أصدرت إحدى اللجان العلمية التابعة لجامعة شيكاغو كتاباً جديداً عن الاتجاهات الاقتصادية للطاقة الذرية فقالت إن المهندسين سيتمكنون خلال الجيلين القادمين من تحويل الطاقة الذرية إلى تيار كهربائى رخيص النفقات، وقد بدئ فعلا بهذا فى أميركا وروسيا وإنجلترا فى نطاق محدود ، وأنه سيكون شديد التأثير فى الاقتصاد الأمريكى

فيؤدى إلى إنعاش الألومنيوم الذى يحتاج إلى موارد كهربائية عظيمة حتمت إنتاجه فى القوة الحالية قرب مساقط مياه ضخمة تستغل فى توليد الكهرباء اللازمة له . وكذلك ستظفر صناعة الحديد والصلب بانتعاش وتتحرر من القيود التى تربطها بالفحم فاستخدام الهيدروجين والطاقة الذرية يمكننان صناعة الحديد أن تستغنى عن الفحم .

ويرى أعضاء اللجنة أن استخدام الطاقة الذرية سيؤدى إلى انقلاب اقتصادى فى العالم كله فإن بعض البلاد التى يتعذر عليها الإفادة من خاماتها كالهند والبرازيل بسبب حاجتها إلى مواد ووقود ستصبح أقوى إنتاجاً من سواها بفضل ما تملكه من مناجم المواد المشعة .

وهناك علماء تنبأوا بما سيتوصل إليه العالم بسبب العصر الذرى الذى دخل فيه والذى يتميز بتحطيم الذرة واستخلاص طاقتها . يقول (دافيد دايتز) وهو من أبرز الكتاب العلميين فى أميركا : « . . . إن الطاقة الذرية إنما تعنى بالنسبة لأميركا تحقيق مشاريع جبارة فى البلاد التى تستطيع معها أن توسع مساعداتها للبلدان الأخرى. ويكون من شأن هذه الطاقة أن تجعل العالم بمعزل عن أخطار الجوع والفقر التى يتعرض لها ، كما أنها ستكون أساساً وطيداً تبنى عليه دعائم سلام دائم فى العالم . . . »

ويقول (ستراوس) رئيس اللجنة الأميركية للطاقة الذرية :

. . . إن تسخير الطاقة الذرية لخدمة الإنسان وأغراضه السلمية قد يفضى إلى القضاء على ما يهدده من أخطار المجاعات فى كل زمان ومكان إذ أن توصل العلم إلى إطالة عمر الإنسان والتغلب على كثير من الأمراض يجعل البشرية وجهاً لوجه أمام مشكلة تأمين الغذاء لهذا العدد المتزايد من المخلوقات » . ويتوقع (ستراوس) أن تلعب الطاقة الذرية دوراً حاسماً فى التغلب على هذه المشكلة بما توفره من النظائر الذرية المشعة مستشهداً بالنبات الذى يستطيع عن طريق التأليف الضوئى أن يكون النشويات والسكر من جراء مزج الماء وثانى أوكسيد الكربون والتأليف بينهما بواسطة تفاعل نور الشمس ...»

ويرى (ستراوس) أن العلماء فى استخدامهم النظائر المشعة هم فى واقع الأمر فى طريقهم إلى حل هذه المشكلة المستعصية فإذا ما تمكن الإنسان من حلها قضى بذلك على ما يتهدده من أخطار المجاعة فى وقت يزداد فيه عدد سكان العالم ازدياداً كبيراً . . .

ويقول (ريتشى كالدر) فى كتابه الذى أخرجه سنة ١٩٥٥ والذى يحمل عنوان (العلم فى حياتنا) إن الطاقة الذرية إذا سخرت فى النواحى الصناعية والعمرانية — فستغير طابع

الصناعة فى العالم ، وتكون هذه الطاقة نقطة تحول خطيرة بالنسبة للبلاد المتخلفة اقتصادياً إذ تدفعها إلى التقدم الاقتصادى بخطى واسعة وتسارع كبير .

٨

أما الدكتور محمد محمود غالى فى محاضرته القيمة « ماذا تخبئه نواة الذرة للإنسان » فيقول : ومع ذلك فثمة أمور ثلاثة أعتقد أنها وشيكة الوقوع خلال حياتنا .

الأمر الأول : تحسن وسائل العلاج وإطالة العمر لبنى الإنسان وعلاج بعض الأورام المستعصية كالسرطان .

الأمر الثانى : يتلخص فى أن الناس سوف يستطيعون السفر بطائرات لم نألفها تتسع الواحدة منها لآلاف الأشخاص . وهذه الطائرة تسافر حول الأرض عند خط الاستواء مثلا حيث يبلغ محيط الأرض أقصاه – بحيث تسافر الطائرة حول الأرض لتصل إلى النقطة التى بدأت منها المسير – فى زمن مقداره ٢٤ ساعة. وهو الزمن اللازم لدوران الأرض حول محورها دورة كاملة . وفى هذه الطائرة سوف لا يتغير الوقت على المسافرين ، فإذا بدأوا رحيلهم الساعة ٦ صباحاً وقت شروق الشمس حيث

الجو يعتدل فى مثل هذه الساعة فستظل الساعة عندهم ٦ صباحاً دائماً وذلك لمواجهتهم الشمس بزاوية ثابتة لا تتغير . فلا ظهر هناك لهؤلاء ولا عصر ولا مغرب ولا عشاء . إنما يساعد على تحقيق مثل هذه الطائرة الجبارة فى حجمها وفى سرعتها عدم حاجتها لحمل هذا الوزن الثقيل الذى تحمله الطائرات اليوم من الوقود .

الأمر الثالث : إنه قد يصبح الصعود إلى القمر أقرب الأجرام السماوية لنا فى متناول العصر الذرى رغم علمنا ببعده عنا مسافة تبلغ حوالى ٤٠٠٠٠٠ كيلو متر أى حوالى أربعين ضعفاً للمسافة بيننا وبين نيويورك ، بل ثمة اعتبارات علمية رغم عدم وجود الهواء فى هذا السيار تجعل احتمال العودة منه أو عودة ما نرسله من الأجهزة أمراً غير مستحيل .

وتعرض علماء آخرون لعملية الصعود إلى القمر . ومنهم من بحث فى تفصيلات الوسيلة التى ستوصل إلى القمر . فقد أذاع أحد العلماء الروس من راديو موسكو فى النصف الأول من شهر مارس سنة ١٩٥٥ حديثاً قال فيه إن السفر بين الكواكب فى الفضاء أصبح الآن ممكناً . وإن الرحلة من الأرض إلى القمر ستحتاج إلى أوقيتين من اليورانيوم لدفع صاروخ فى الفضاء حتى يصل إلى القمر .

وأشار هذا العالم إلى إمكانية بناء طائرة صاروخية للانطلاق فى الفضاء باستخدام الطاقة الذرية . وقد أوضح كيفية الاستخدام « . . . بتزويد الطائرة بخزانين للوقود يحتوى أحدهما على نوع جديد من الوقود السائل كغاز الهيدروجين مثلا وتستبدل غرفة الاحتراق بمولد ذرى متصل بأنابيب خاصة بخزان الوقود . فإذا أدير المولد الذرى أثناء تمرير الوقود السائل فى الأنابيب المتصلة به ، تحول الوقود بتأثير الحرارة الناتجة من المولد إلى غاز يمكن إطلاقه من ماسورة بقوة كبيرة . وهكذا تنطلق الطائرة الصاروخية فى الفضاء . . . »

ولا بد لنا من تعليق بسيط على هذه الأقوال والآراء . فصنع طائرة صاروخية قد يكون ممكناً . ولكن صعود الإنسان إلى القمر أمر صعب . وليس من الهين — على الرغم من الطاقة الذرية — أن يتغلب العلماء على صعوبات تعترض الصعود.

ولعل أهم هذه الصعوبات أن يتحمل الإنسان (عند صعوده) السرعة التى تخرجه عن جاذبية الأرض وتدخله فى جاذبية القمر .

وهناك عقبات أخرى قد يستحيل معها فى الوقت الحاضر ولزمن طويل قهرها كخلوّ القمر من الهواء وتعرض سطحه للحرارة الشديدة والبرودة الشديدة .

وقد يتوفق العلماء فى الصعود إلى القمر . ولكن هذا

لا يتم فى هذا القرن على ما أرى وأرجح .

أما الدكتور على مصطفى مشرفة فيرى أن الطاقة الذرية — وإن طلعت على الناس بشكل قنبلة مدمرة — إلا أن لها مزايا اقتصادية وعمرانية لا يمكن نكرانها أو نسيانها « . . . فقد أصبح فى مقدورنا أن نستخرج من كيلو جرام واحد من المادة ما يعدل محصول ٢٠٠٠ طن من أجـــود أنواع الوقود . . . » ويتابع الدكتور مشرفة قوله : « . . . وإذا كنا قد حصلنا على هذه الطاقة على شكل انفجار هائل فإنما يرجع ذلك إلى أننا أردنا أن نحصل عليها على هذه الصورة. فبذلت الجهود ووجهت نحو هذا الغرض . أما وقد حلّ السلام وظهرت الحاجة الملحة إلى التعمير بدلا من التدمير فإنى لا أشك فى أن الجهود ستتجه إلى استخدام الطاقة الذرية كأداة محركة فى الآلات الميكانيكية كما أننى لا أشك فى أن التطورات الهندسية ستكون مليئة بالمفاجآت . . . »

ويرى الدكتور مشرفة أن القنبلة الذرية قد نسفت الحواجز وأزالت العقبات التى كانت قائمة بين العلماء وموكب الحياة . فقد كان يظن العلماء أن لاخوف على العلم من موكب الحياة إلى أن جاءت القنبلة الذرية فأصبح العلم فى خطر ، وأصبحت الحياة فى خطر من هذه الطاقة التى تهدد العالم بالدمار والفناء .

الفصل الثالث

السيطرة العالمية على الذرة

أميركا والذرة — الخطة الأميركية — الخطة الروسية — الذرة فى المجال الدولى — صيحات العلماء — مقاومة سرية الذرة — دعوة علماء الذرة إلى الإضراب — اليونسكو والذرة

١

إن الطاقة الهائلة التى توصل إليها العلماء فى الذرة قد أصبحت مصدر قلق ومشاكل للحكومات والجماعات . ويرى العلماء وبعض المسؤولين فى العالم أنه من الجناية فى حق الإنسانية الجمود أمام هذا التقدم العظيم فى تسخير الطاقة فى الأغراض الحربية والتدميرية ، فالعالم مقبل على عصر جديد هو عصر الذرة ، فهل تبقى هذه الطاقة تحت رحمة رجال السياسة ، وفى نطاق الأهواء والمصالح الاستعمارية ؟ أو يجب على العلماء ورجال الاجتماع والمهندسين أن يضعوا حلا يقوم على السيطرة على هذه الطاقة سيطرة عالمية نافعة تؤدى إلى استغلالها فى الأغراض الصناعية والعمرانية مما يعود على البشرية بالخير والتقدم .

فى أميركا عهدت الحكومة إلى فريق من كبار العلماء ورجال الصناعة والسياسة بدراسة مشكلة السيطرة على الطاقة الذرية ، وأنتجت الدراسة بعض الاقتراحات التى خرج عنها تشريع خاص بالسيطرة على الطاقة الذرية فى الولايات المتحدة الأميركية « . . . وأنشئت هيئة من خمسة من المدنيين جعل

لها سلطان مطلق على وجوه الطاقة الذرية فى الولايات المتحدة ، فإليها المرجع فى جميع الشؤون الخاصة بمصانع القنابل الذرية القائمة الآن وما يتبعها من مناجم ومعامل للبحث وفى جميع ما يعقد من عقود على الجامعات ومعاهد البحث فى الشركات الصناعية الكبيرة لمواصلة البحث فى أصول الطاقة الذرية وما يتصل بها من أجل نفعها فى الصناعة والطب وغيرها .

فهذه الهيئة تنوب عن الأمة الأميركية وحكومتها فى إدارة مشروع من أعظم المشروعات وأجلها شأناً وأعظمها خطراً على الناس لو ترك حبلها على الغارب . . . »

٢

وقام كثيرون يقدمون اقتراحات أخرى من أجل السيطرة العالمية على الطاقة الذرية بإنشاء هيئة دولية يحول إليها ملك جميع موارد اليورانيوم فى العالم وكل ما خزن منه فى سائر البلاد . وعلى ذلك وضعت أميركا خطة فى هذا الصدد . وكذلك وضعت روسيا خطة مقابلة .

فالخطة الأميركية تدعو إلى إنشاء هيئة دولية ذرية تعهد إليها جميع وجوه البحث فى الطاقة الذرية واستعمالها ، وتزود

بالسلطة الكاملة « . . . تدير وتملك وتسيطر وتفتش وترفض وتنشط الطاقة الذرية والتوسع فيها . . . »

لقد قال مندوب الولايات المتحدة الأميركية فى هيئة الأمم المتحدة فى الاجتماع الأول للجنة الطاقة الذرية فى يونية سنة ١٩٤٦ : وعند ما يتم الاتفاق على تزويد هذه الهيئة الدولية بالسلطة الكاملة فالولايات المتحدة توافق على ما يلى :

١ — وقف إنتاج القنابل الذرية .

٢ — التصرف فى القنابل الموجودة فعلا طبقاً لمقتضيات الاتفاق .

٣ — تزويد هيئة الرقابة الدولية بجميع المعلومات اللازمة لإنتاج الطاقة الذرية .

وتعرض بعد ذلك مندوب الولايات المتحدة إلى العقوبات فقال إن تطبيقها يجب أن يتم فى الحالات الآتية :

١ — امتلاك قنابل ذرية أو حيازتها على وجه غير مشروع .

٢ — حيازة المواد الذرية الصالحة للاستعمال فى صناعة القنابل أو استخلاص هذه المواد على وجه غير مشروع .

٣ — وضع اليد على أى مصنع أو متاع مملوك لهيئة المراقبة الدولية أو مرخص به منها .

٤ — التدخل العمد فى أعمال الهيئة .

٥ ـ وضع المشروعات الخطيرة أو تنفيذها دون ترخيص من هيئة المراقبة أو بشكل يتنافى مع الترخيص الصادر منها .

أما النظام الذى تقترحه أميركا لهيئة الرقابة الدولية على هيئة الأمم المتحدة فهو على الوجه التالى :

١ ـ تقوم الهيئة بوضع خطة شاملة للإشراف على شؤون الطاقة الذرية ومراقبتها مراقبة فعالة سواء من حيث الملكية أو الإنتاج أو الاستعمال أو الترخيص أو التفتيش أو البحث الفنى أو الإدارة .

٢ ـ تحتفظ الهيئة ببيانات وافية عن الإنتاج العالمى لمعدنى اليورانيوم والثوريوم ويوضع هذا الإنتاج تحت تصرفها .

٣ ـ يكون لها حق الإشراف الدقيق على مصانع المواد القابلة للتحطيم ويوضع إنتاج هذه المصانع تحت تصرفها .

٤ ـ تحتكر الهيئة حق إجراء البحوث الفنية فى ميدان المفرقعات الذرية ، وبذلك يتسنى لها رسم الخط الفاصل بين وجوه الاستعمال الخطرة وبين غيرها .

٥ ـ توزع اختصاصات الهيئة ومخازن المواد الخام والمواد القابلة للتحطيم على مختلف أرجاء العالم محافظة على دولية هذا النظام .

٦ ـ تشمل اختصاصات الهيئة تحسين استخدام الطاقة

الذرية فى الأغراض السلمية النافعة .

٧ ــ تعيد الهيئة بين وقت وآخر بحث الحد الفاصل بين وجوه الاستعمال المباحة ووجوه الاستعمال المحظورة على ضوء آخر التطورات العلمية .

٨ ــ يُختار موظفو الهيئة على أساس الكفاية المشهود بها مع مراعاة التوزيع الدولى قدر الإمكان .

٩ ــ تنفذ خطة الرقابة على مراحل ، ابتداءً من وضع نظام الهيئة إلى أن تصبح رقابتها رقابة منتظمة وفعالة . وينص النظام على شروط الانتقال من مرحلة إلى مرحلة .

١٠ ــ تدلى الولايات المتحدة إلى الهيئة بما عندها من المعلومات والبيانات عن الطاقة الذرية على مراحل متوازية مع مراحل الرقابة .

٣

أما الخطة الروسية فتقوم على أساس اتفاق دولى يمنع السلاح الذرى أو صناعته ، وعلى تدمير كل المخزون من الأسلحة الذرية خلال ثلاثة أشهر .

وقد قدم المندوب الروسى فى اجتماع لجنة الطاقة الذرية اقتراحين :

الأول : يؤدى إلى عقد اتفاق دولى يحظر فيه إنتاج

الأسلحة الذرية واستخدامها .

الثانى : يؤدى إلى تنظيم الرقابة على الطاقة الذرية .

وقد وُضع الاقتراح الأول فى شكل مشروع معاهدة تنص موادها على ما يأتى :

المادة الأولى : يعلن المتعاقدون أنهم يحرمون إنتاج الأسلحة المصنوعة على أساس استخدام الطاقة الذرية ويحرمون استعمالها . ونظراً إلى ذلك يأخذون على أنفسهم الالتزامات التالية :

(ا) أن لا يستخدموا أى سلاح ذرى فى أية حال .

(ب) أن يحظروا إنتاج الأسلحة المصنوعة على أساس استخدام الطاقة الذرية .

(ح) أن يدمروا خلال ثلاثة أشهر من نفاذ الاتفاق جميع الأسلحة الذرية المخزونة عندهم ، سواء أكانت تامة الصنع أم فى سبيل إتمامه .

المادة الثانية : يعلن المتعاقدون أن أى إخلال بأحكام المادة الأولى يعتبر جريمة خطيرة ضد الإنسانية .

المادة الثالثة : يصدر المتعاقدون خلال ستة أشهر من نفاذ الاتفاق تشريعات تنص على عقوبات قاسية على الإخلال بأحكامه .

المادة الرابعة : يعمل بالاتفاق إلى أجل غير مسمى .

المادة الخامسة : يظل الاتفاق مفتوحاً لانضمام أية دولة ، سواء أكانت من الدول المتحدة أم لم تكن .

المادة السادسة : ينفذ الاتفاق بعد موافقة مجلس الأمن وتصديق نصف الدول المتعاقدة .

المادة السابعة : بعد نفاذ الاتفاق ، يعتبر ملزماً لجميع الدول سواء أكانت من الأمم المتحدة أم لم تكن .

وينص الاقتراح الثانى الذى تقوم عليه الخطة الروسية بتشكيل لجنة الرقابة من لجنتين فرعيتين : إحداهما لتبادل المعلومات الفنية والحقائق العلمية والصناعية والجيولوجية ودرس الوسائل النافعة لتحقيق ذلك .

والأخرى لوضع نظام للرقابة والسيطرة بشكل يضمن منع الانتفاع بالطاقة الذرية فى أغراض الحرب .

٤

ولا تزال هذه الاقتراحات والخطط والأمور فى أروقة هيئة الأمم المتحدة وفى لجنة الطاقة الذرية التابعة لها بالنسبة للسيطرة الدولية على الطاقة الذرية و رقابتها وتسخيرها لأغراض

السلم — محل جدل ونقاش ومساجلات فلم تتجمد ولم تتبلور حول خطة من الخطط أو اقتراح مجرد أصيل أو عمل حازم .

لقد أعلنت بعض الصحف الروسية خلال شهر مارس من هذه السنة ١٩٥٥ أن روسيا تقدمت إلى لجنة نزع السلاح الخماسية التابعة لهيئة الأمم المتحدة التى اجتمعت فى لندن خلال شهر مارس بمقترحات جديدة لحظر الأسلحة الذرية وتخفيض الأسلحة العادية تحت رقابة دولية لضمان التنفيذ .

وتقضى هذه المقترحات أن توقع الدول على اتفاقية خاصة لخفض التسلح على مرحلتين :

الأولى : خفض الأسلحة العادية بنسبة ٥٠ ٪ وإبادة الأسلحة الذرية والهيدروجينية وغيرها من أسلحة الدمار خلال ستة أشهر من تاريخ توقيع الاتفاقية .

الثانية : إجراء خفض ثان بنسبة ٥٠ ٪ خلال فترة الستة الأشهر التالية . ولا ندرى ماذا سيكون موقف الدول من هذه المقترحات الجديدة . . . ! !

* * *

إن مجرد اتجاه الحكومات والهيئات إلى التفكير فى تحريم الأسلحة الذرية وغيرها من وسائل التدمير ووضع القيود والبنود لتنظيم مصادر الطاقة الذرية ومراقبتها — إن هذا يبعث

على التفاؤل والأمل فى أن تنتهى هيئة الأمم المتحدة فى المستقبل القريب لحل مشكلة الطاقة الذرية حلا يقوم على تسخيرها فى الأغراض الصناعية والخير الشامل .

٥

وبينما نجد أن عملا جماعيًّا دولياً بالنسبة للطاقة لم يتم بعد — وهو لا يزال فى دور البحث والجدل والفكرة — وعلى الرغم من اهتمام اليونسكو فى إنشاء منظمة دولية للطاقة الذرية — ترتفع صيحات من بعض العلماء والمفكرين بالدعوة إلى تحريم الأسلحة الذرية ومقاومة السرية فى بحوث الذرة وتسخير طاقتها لخير البشرية . وفى الوقت نفسه كذلك نجد بعضاً من الساسة والمشتغلين بالحروب ورجال شركات السلاح يحاولون فى كثير من المناسبات التقليل من أهمية الأسلحة المدمرة وأثر القنابل الذرية والهيدروجينية . ويزعمون أن الإشعاع الذرى أو الهيدروجينى لا يبقى أثراً أو عاهة دائمة فى الإنسان المصاب ويرون فى أقوال العلماء بأهوال القنابل تهويلا لا مبرر له . . . ولعلهم يقصدون من ذلك أن لا يدخل الرعب إلى قلوب الناس من آثار هذه القنابل حتى لا يشتد الضغط على الحكومات

بتحريم استعمال الأسلحة الذرية وملحقاتها من التى تخرجها المصانع ويشرف على إنتاجها تجار الحروب مما يعرض مصالحها إلى الخطر وشركاتهم إلى الإفلاس .

ولقد لاحظ البروفسور (ستورتفان) هذه الاتجاهات من بعض الساسة وأصحاب شركات السلاح وبدافع من إنسانيته وشعوره السامى قام بحماسة وفهم يردّ على هذه الأقوال والمزاعم يفندها ويبين فسادها معززاً آراءه بالأرقام والحقائق والدراسات الوافية .

لقد حصر ستورتفان بحثه فى تأثير الإشاعات فى الإنسان والجو الذى يستنشق هواءه والماء الذى يشربه ، ودلل على سخافة القول : « إن الأجيال المقبلة لن يصيبها شىء من رشاش أو أبخرة الإشعاعات المنطلقة من كل مكان تجرى التجربة فيه . . . »

وأشار البروفسور كذلك إلى أن الإشعاع الذرى هو الإشعاع الطبيعى (أى الإشعاع الأرضى) . وهذا الإشعاع لا يلحق بأحد (الإنسان أو الحيوان) أذى « ولكن حين يحصر هذا الإشعاع ويمزج بعناصر كيمياوية قابلة للانفجار ينقلب إلى سم زعاف ، فيدخل الجسم البشرى عن أى طريق حتى عن مسام الجلد ويتفاعل فيه ويتخذ ببطء شكل التموجات

الكهربائية الصاعقة ، ولكنه يجرى فى الجسد ببطء فيحدث عاهات وتشويهات فى مختلف أنحاء الجسم إلى أن يصل إلى القلب فيحدث فيه الانفجار الدموى . . . »

ويتابع البروفسور بحثه فيقول إن بعض التفاعلات يؤدى إلى إضعاف العقل والتأثير على الحيوية الجنسية عند الرجل والمرأة على السواء « ومن أشد الأمراض هولا بالإضافة إلى احتراق الجلد الذى يعقبه الجنون ثم العقم » .

ويوضح البروفسور ستورتفان بعد ذلك أن تفجير القنابل الهيدروجينية فى الباسفيك فى العام الماضى كان بداية أكبر كارثة تحل بالبشرية منذ بداية العصر الأول فى حياة هذا العالم « فقد ازدادت كمية الإشعاع الدائم فى الأرض بنسبة مخيفة ولا يمكن لأى عالم فاهم أن يتجاهل هذه الزيادة ولو أنها ما تزال فى بداية التجمع فقد زادت نسبة العناصر الإشعاعية الأرضية زهاء ٤ ٪ . . . »

« إن هذه الزيادة (ولو أنها تبدو تافهة) تعنى ولادة ٣٦٠ مليون طفل جديد فى حالة غير طبيعية فى العام من مجموع المواليد . . . »

ويقول البروفسور بعد ذلك « . . . وقد كشفت الدراسات العلمية عن حقيقة كانت مجهولة قبل اكتشاف عناصر الذرة

وتجمعها ثم تفجيرها . والحقيقة المحكي عنها هي أن الولادات غير الطبيعية التي كانت تحدث في الماضي مسببة عن الإشعاع الذرى والإشعاع الأرضى الطبيعي لا تصيب أناساً معينين . وهذا هو السر الذى يجعل علماء اليوم يبحثون عن كيفية التقاط الإشعاع الأرضى والأماكن .

وفى النهاية يحذر البروفسور من إجراء تجارب جديدة « ... على أن أية حرب ذرية مهما كان شأنها ضئيلا ، ستعرض الشعوب إلى الإشعاع الذرى ولو نزل جميعهم إلى الملاجئ . هذا مع العلم أن الإشعاعات لا ترحم ملجأ حتى لو كان تحت أدنى طبقة أرضية ومهما اتخذ فيه من أسباب الوقاية » .

ولم يكن البروفسور ستورتفان وحيداً فى دعوته ، بل نرى علماء آخرين كالعالم البريطانى البروفسور هيلدان يوضح الأخطار الناجمة عن استعمال القنابل الذرية ، ويرى أن تجمع الإشعاعات الذرية سيحمل إلى الإنسانية نتائج مؤلمة وخطيرة فى الحاضر والمستقبل ؛ ذلك لأن هذه الانفجارات الذرية ستحدث تبدلات سلالية تعود بأوخم العواقب على أكثر بلدان العالم ، وقد تظهر هذه التبدلات السلالية بصورة جزئية فى مواليد الجيل الأول ولكنها تأخذ فى الإشعاع

خلال الجيل الثانى والثالث . ومن دلائل هذه التبدلات تكاثر الحبل وانتشار الشذوذ الوراثى .

وبعد أن يفصل فى هذه القضايا يعلن تأييده المطلق لكل عمل أو نشاط يؤدى إلى القضاء على جميع القنابل الذرية . ودعا إلى استغلال الطاقة الذرية فى ميادين الصناعة والعمران . وأطلعت أخيراً على رسالة وجهها الدكتور شويترز إلى العلماء الذريين يقول فيها إن المشكلة الناتجة عن تجارب القنابل الهيدروجينية قد أوجدت ميداناً للقلق والرعب . وهو لا يرى فائدة فى عقد مؤتمرات لحل هذه المشكلة ، بل يرى أن يواصل العلماء توجيهاتهم فى تحذير العالم من الأخطار الناجمة عن القنابل الذرية والهيدروجينية وبيان حقيقة الوضع الذرى الذى يعيش العالم فيه مما يهدد البشرية بالفناء التام . وفى رأيه أن هذه التوجيهات والإكثار من التحذير والإنذار ستؤثر على الجماهير ويضاعف من وعيهم وتدفع الناس إلى الضغط على الحكومات لتحريم الأسلحة الذرية والهيدروجينية .

٦

وكذلك نجد أن بين العلماء من دعا إلى حرية البحث العلمى ومقاومة فكرة السرية فى العلم وطالب بإذاعة الأسرار الذرية . فقد كتب السير هنرى ديل رئيس الجمعية الملكية فى لندن إلى جريدة التايمز يقول : « إن العلماء وإن كانوا حافظوا على سر القنبلة الذرية أثناء مدة الحرب مدفوعين فى ذلك بدافع الولاء إلا أنه وقد انتهت الحرب ضد اليابان فإنهم جميعاً يرغبون فى أن يتخلصوا من هذا السر إلى الأبد ، فنحن (مشيراً إلى العلماء) قد تحملنا كثيراً ونقبل أن نتحمل أى شىء لنضمن الحرية . أما وقد كسبت فإننا نطلب الحرية التى كسبناها . . . » ويعلق الدكتور على مصطفى مشرفة على هذا القول : « والسير ديل إذ يتكلم باسم العلماء يعبر تعبيراً صحيحاً عما يجول بخلد كل عالم . فالعلم نور يجب أن يشع . وكل محاولة لكتم العلم إما أن تفشل أو تقضى على تقدم العلم ذاته . . . »

إن التطور الذى وصل إليه العلم والتقدم العظيم الذى أصابه وسيطرة العلماء على الذرة ونجاحهم فى تحطيمها

واستخراج طاقتها الهائلة قد ضاعف من مسؤولية العلماء تجاه المجتمع وأصبح العبء عليهم ثقيلا . ويقول فى هذا الصدد البروفسور برنال أستاذ الطبيعة بجامعة لندن « . . . فالمشتغل بالعلم اليوم قد اضطلع بالضرورة بمسؤولية خطيرة وقد نشأ شعوره المتزايد بهذه المسؤولية فى سنوات الحرب وفيما بعدها وتمثل فى تكوين الاتحاد الأميركى للعلماء الذى يضم علماء الذرة . وفى الوقت ذاته زادت أهمية جوانب العلم الدولية زيادة كبيرة كما يدل على ذلك تأليف هيئة الأمم المتحدة لشؤون التربية والعلم والثقافة (اليونسكو) التى ألقى عليها عبء العمل على نشر نتائج البحث العلمى فى أوسع دائرة بدلا من أن تكون مقصورة كما كانت فى الماضى على الدول الصناعية المتقدمة . وظهر نشاط العلماء على اختلاف مراتبهم فى المجال الدولى بتأليف الاتحاد العالمى للمشتغلين بالعلم وهو يضم الاتحادات القومية للمشتغلين بالعلم فى البلاد المختلفة وقد وضع الاتحاد العالمى نصب عينيه غرضاً هو أن يكون العلم لخدمة البشرية وليس للتدمير . . . »

وكذلك يأمل دافيد ديتز أحد كبار المحاضرين العلميين فى أميركا أن تدفع الروح العلمية العلماء إلى التمسك بالإخلاص للحقيقة ومقاومة كل احتكار لها . ويرى أن شجاعة العلماء

وإنسانية العلم والبعد عن الأهواء – كل هذه الصفات التى يحتمها العلم الصحيح ستدفع المشتغلين بالعلم إلى الاهتمام بمستقبل البشرية فيعملون على توجيه الطاقة الذرية توجيهاً مثمراً فى الأغراض الصناعية ومضاعفة الإنتاج مما يؤدى إلى السلام الشامل والخير العام .

ودعا العالم الذرى الأميركى (أوبنهايمر) إلى تسخير التقدم العلمى فى ميدان البحث الذرى فى أغراض سلمية فجلب عليه بدعوته هذه غضب المسؤولين فى بلاده (أميركا) مما دفع الحكومة الأميركية إلى تنحيته عن العمل فى الأبحاث الذرية .

وكان لتلك التنحية ضجة كبرى فى الأوساط العلمية . وانتقلت صيحات العلماء إلى جامعة السوربون فى باريس ، فاهتم أساتذتها ببحث مشكلة الذرة واستغلالها للخير أو للدمار ورأوا أن يشركوا فيها الرأى العام والعالم فى آن واحد . وقد نشرت جريدة الأهرام فى العدد الصادر فى ٤ – ٤ – ١٩٥٥ مقالا حول (العلم بين السلم والحرب) حرره أحد محرريها فى باريس نقتطف منه ما يلى :

« . . . ونظمت السوربون سلسلة من المحاضرات العامة وحلقة من الدراسات والمناقشات تدور كلها حول الموضوع

التالى : هل واجب العالم المعاصر أن يسخر جهوده وكفاياته لخدمة دولته وأطماعها ويجارى نزعة التسابق نحو الدمار أو ينبغى له أن يضع فوق كل اعتبار خدمة الإنسانية ومستقبلها وأن يرفع صوته محتجاً كلما رأى أن عمله الذى تكلفه به دولته أصبح يتعارض مع مثله الإنسانى الأعلى ويؤدى حتما عاجلا أو آجلا إلى الدمار والخراب !... »

وحول هذا الموضوع الرئيسى : « العلم ومسؤوليات البشر » دارت محاضرات العلماء والمفكرين التى ألقيت فى قاعة المحاضرات الكبرى بالسوربون فيما بين منتصف مارس و ١٩ أبريل . وقد لقيت المحاضرات التى ألقيت حتى الآن إقبالا منقطع النظير مما يدل أوضح دلالة على أن هذه المشكلة الحيوية تشغل الناس على اختلاف نزعاتهم وتعدد آرائهم السياسية ، ولا غرو فهى مشكلة مصير الإنسانية بعد أن حققت ما حققته من تقدم بالغ فى كثير من ميادين الحضارة . فالعالم الآن يتجاذب بين طرفين يدوران حول محور واحد هو الطاقة الذرية . أحدهما مشبع بالأمل فى توجيه هذه الطاقة التى كشفها الإنسان لسعادة أخيه الإنسان والآخر مملوء رهبة وخوفاً من مستقبل مظلم لو وجهت هذه الطاقة عينها إلى الحرب والدمار .

ومن أهم المحاضرات التى ألقيت محاضرة للأستاذ (جاستون برجيه) المدير العام للتعليم بفرنسا عن (تطورات العلم ومهمة العالم الاجتماعية) والمحاضرة الثانية ل (جيل موك) الوزير السابق ومندوب فرنسا فى لجنة نزع السلاح المنعقدة فى لندن عن (العلم وحرب الفناء) . ومما يذكر عن (جيل موك) أن له موقفاً بارزاً فى السياسة الفرنسية الدولية فهو الذى شهر حرباً عواناً ضد تسليح ألمانيا بل ضد مبدأ التسلح بوجه عام . وقد ألف فى هذا الموضوع كتاباً عن القنبلة الهيدروجينية كان له صدى عميق فى الدوائر السياسية والعلمية إذ تناول دراسة مشكلة الذرة من الوجهتين الإنسانية والاجتماعية . وفى هذا الكتاب عبارة مشهورة سارت مثلا ألا وهى : (إذا كان الناس مجانين فلا ينبغى أن يجاريهم العلماء فى جنونهم . إلا أن واجبنا أن نضع حداً لتسابق لم يسبق له مثيل نحو التسلح وذلك بنزع السلاح وبالتالى توجيه الأبحاث العلمية نحو التعمير والإنشاء لا الهدم والإفناء) .

كل هؤلاء العلماء المفكرين قد عقدوا العزم على أن يتوجهوا بالنداء إلى الضمير العالمى ليتنبه إن لم يكن قد تنبه بعد إلى الخطر الداهم المحدق به نتيجة تسخير العلم لحرب قادمة . وهم جميعاً معتقدون بقيمة التقدم العلمى إذا عول

الإنسان على أن يوجهه إلى سعادة البشرية بأن يكون هو نفسه مسؤولا عن توجيهه . إن البشرية جمعاء أطفالها ونساءها ورجالها تصغى إلى هذا النداء راجية أن يخفف العلم من آلام البشرية . . . وأن يحقق لهم حياة سعيدة مطمئنة . . . »

٧

وفى رأيى أنه لا يكفى أن يقف العلماء عند حدود الأمل والمحاضرات وتشكيل الاتحادات العلمية والمطالبة بحرية البحث العلمى والتحذير والإنذار تجاه الأخطار التى تهدد العالم من الأسلحة الذرية والهيدروجينية ؛ إن رسالتهم تفرض عليهم أن لا يكتفوا بالدعوة إلى تبيان القوى التدميرية فى الذرة ، بل عليهم أن يتجهوا فى أداة رسالة الحياة والعلم إلى عمل إيجابى وذلك بالدعوة إلى عقد مؤتمر يضم الاتحادات العالمية وعلماء العالم فى الذرة والعلوم الطبيعية والتجريبية ، يطالبون فيه بإيقاف العمل فى صنع الأسلحة التدميرية ، وتوجيه الطاقة الذرية فى البناء والخير وفى الأغراض الصناعية والإنتاجية ويهددون الحكومات صاحبة الشأن الأول (روسيا وأميركا وإنكلترا) بالإضراب عن الاشتغال فى مصانع الأسلحة

الذرية والهيدروجينية . فإذا لم تصدع الحكومات لتهديدهم قرروا الإضراب .

هذا ما يجب أن يكون وهذا ما تحتمه رسالة العلم الصحيح والروح العلمى الصحيح . لقد آن للعلماء فى جميع أنحاء العالم أن يثبتوا كيانهم ووجودهم وأن يفرضوا رسالتهم . فالمسألة بأيديهم وفى متناولهم وسيجدون أن العالم بأسره يؤيدهم ويشد أزرهم .

أليس من المؤلم أن يقع العلماء تحت تأثير الدعايات وأضاليل رجال الحرب والسياسة ؟ على العلماء أن يوجهوا وأن يعملوا على أن تكون كلمتهم هى العليا .

فليعملوا على إيقاف تسخير الطاقة الذرية لأغراض عدوانية وحربية وليكافحوا فى سبيل مقاطعة بحوث الحرب ، وإن نالهم من ذلك بعض الضغط والإرهاق .

فليكن ذلك . . .

ومتى كان العلماء يخشون الضغط والإرهاق ؟ والتاريخ ملىء بصفحات التضحية والبطولة من علماء أدوا رسالتهم ولم يخشوا أحداً ، ولم يترددوا فى إعلان رأيهم والدعوة إلى ما يعتقدون ، وقد نالهم من جراء ذلك العذاب والسجن وما هو أشد من العذاب والسجن .

٨

وبينما أنا عاكف على تحرير هذا الكتاب اطلعت على مقال أصدره قسم الصحافة باليونسكو يشير إلى قيام منظمة التعاون الدولى فى البحوث الذرية . وهذه خطوة إيجابية مثمرة يُشكر عليها القائمون على اليونسكو . ذلك أنها دعوة صريحة إلى إيجاد عهد جديد من التعاون بين المشتغلين فى البحوث الذرية واستغلال جهودهم فى ميادين العلم المختلفة وتقديم نتائج هذه الجهود إلى العالم بأسره دون إلقاء أى ستار من الأسرار على أعمال العلماء .

وقد جاء المقال النفيس على الصورة التالية :

« قام العلماء منذ خمسين سنة باكتشافاتهم الأولى التى مهدت الطريق إلى أكبر اكتشاف علمى عرفه العالم حتى اليوم ، ونعنى به الطاقة الذرية . وكانت تجرى بحوثهم فى ذلك فى معامل صغيرة باردة فقيرة فى ألمانيا أو فى باريس ؛ ويكفى أن نعلم مثلا أن بيير ومارى كورى قد اكتشفا الراديوم وهما يعملان تحت سقف خائر فى بيت من بيوت باريس القديمة . وأما اليوم فقد تغيرت الحال وأصبح الكشف عن معالم الذرة

يتطلب جهوداً جبارة وأجهزة معقدة باهظة النفقات . ولقد أدى هذا الوضع الجديد إلى مشاكل كبرى نستعرض بعضها فى هذا المقال . . . تطورت معرفتنا بالذرة خلال نصف قرن على التقريب تطوراً تاماً ، فنى نهاية القرن الأخير اكتشف العلماء الطاقة الإشعاعية والراديوم وأشعة إكس دون أن يتصور أحد منهم أن داخل الذرة ينطوى على أشياء جديدة . على أن العلماء قد أخذوا منذ ستين سنة يبحثون فى باطن النواة الذرية حيث اكتشفوا جزيئات جوهرية من مادة وطاقة . . . كالألكترونات والبوزيترونات والبروتونات والنترونات.

وفى هذه الجزيئات يكمن مستقبلنا بأكمله . . . ومن ثم اقتضى الأمر الكشف عن أسرارها والعمل على استغلالها لخدمة البشرية . وكان ذلك هو الحافز على استمرار البحث والكشف . فما زلنا حتى اليوم على عتبة عصر الذرة .

ولكن مشاكل عدة تعترض تقدم البحوث فى هذا الميدان ، وأهمها النفقات الباهظة التى تتطلبها مثل هذه البحوث ، والأجهزة الدقيقة التى يجب أن تزود بها معامل البحث الذرى . ولا يستطيع العلماء الوصول إلى نتائج كبرى إذا اقتصرت تجاربهم على استخدام أنابيب الاختبار والبواتق والأجهزة البسيطة التى كانت تستخدم منذ خمسين سنة فقط ، بل لقد

أصبحوا اليوم يحتاجون إلى جهاز (السيكلترون) مثلا ، وهو جهاز يقدر وحده بملايين الدولارات ، إلى جانب آلاف الدولارات التى تنفق كل يوم لإدارته . أضف إلى هذا ما يقتضيه البحث الذرى من تضافر جهود علماء الطبيعة والكيمياء والرياضة والهندسة والكهرباء ، وعلماء الحياة والأطباء أيضاً . نعم . . . لقد مضى ذلك العهد الذى كان يستطيع فيه بيير كورى أو بيكريل القيام ببحث مستقل فى ركن من أركان معمل قديم .

ذلك أن البحوث الذرية أصبحت تتطلب اليوم نفقات باهظة بحيث لا تستطيع أى جامعة فى العالم أن تشيد معملا حديثاً مزوداً بكامل الأجهزة دون أن تستعين فى ذلك بالحكومة . ولا نجد من ناحية ثانية إلا حكومات معدودة لها ميزانياتها الخاصة بتمويل برنامج واسع للبحوث الذرية . وأما الحل الأساسى الوحيد لمثل هذه العقبات فهو التعاون الدولى .

وقد بدأ اهتمام اليونسكو بهذه المشكلة منذ سنة ١٩٥٠ ، عند ما طلب إليها أن تنظم تعاونا بين العلماء والحكومات لإنشاء معامل ومراكز إقليمية للبحوث الذرية . ولعلنا نذكر هذه الاتفاقية التى وقعت خلال شهر يوليو الماضى فى باريس

بشأن أول هيئة إقليمية أوروبية . وقد بذلت اليونسكو جهوداً كبرى لتحقيق ذلك . وتعرف اليوم هذه الهيئة باسم المنظمة الأوروبية للبحوث الذرية أو GERN وهى الحروف الفرنسية الأولى من اسمها .

ومهمة هذه المنظمة الجديدة أن تقدم خدماتها لعلماء اثنتى عشرة دولة أوروبية على الأقل . وينتظر أن تنضم إليها دول أوروبية أخرى . وستشترك الدول الأعضاء فيها فى توفير نفقات هذه المنظمة التى تقدر بثمانية وعشرين مليوناً من الدولارات خلال السبع السنوات الأولى . وسوف يستخدم معظم هذا المبلغ فى تشييد معمل مركزى ضخم بالقرب من جنيف بسويسرا . وهناك عدة خبراء يقومون بوضع تصميم الأبنية والأجهزة الضخمة اللازمة لهذا المعمل .

ولا شك أن هذه الآلات المحطمة للذرة ستكون من أضخم وأحدث الآلات المعروفة فى العالم ، فقد وضع تصميمها فريق من عباقرة علماء أوروبا . وتعرف إحدى هذه الآلات باسم (البروتون — سينكروتون) ، ومهمتها توليد جزيئات الذرة بقوة تزيد عشر مرات عن قوة الآلات المعروفة فى الوقت الحاضر . ويأمل الخبراء فى أن تمهد لهم هذه الآلة كشف أدق أسرار المادة والطاقة .

وستنهض هذه المنظمة الأوروبية أيضاً بالبحوث النظرية الأساسية الخاصة بالذرة ، دون أن تلقى ستاراً على أسرار أعمالها ودون أن تتعلق بحوثها بأى نشاط حربى . . . أو بإنتاج أية قنبلة ذرية . ويأمل المنشئون فى أن تمهد منظمتهم لعهد جديد من التعاون الدولى فى ميدان البحوث الذرية . وسوف تمتد خدمات هذه المنظمة بآلاتها الثمينة إلى ميادين العلم المختلفة ، فتقدم نتائجها وتجاربها للعالم بأكمله . هذا العالم الذى يتوق إلى استغلال أسرار الطاقة الذرية استغلالا إيجابياً مثمراً . . . »

* * *

ومما يجدر ذكره الإشارة إلى المؤتمر الذرى العام الذى سيعقد فى جنيف خلال شهر أغسطس من هذا العام (١٩٥٥) بإشراف هيئة الأمم المتحدة . وتشترك فيه ٨٤ دولة حيث تعرض على بساط البحث مختلف البحوث الذرية السلمية : من الإشعاع والوقاية منه إلى الطاقة الذرية واستخدامها فى الشؤون الطبية والزراعية والصناعية . وفى النية إقامة معارض ذرية فى هذا المؤتمر تشترك فيها المؤسسات والمعاهد التى تهتم بالذرة .

الفصل الرابع

العرب والعلم والذرة والاقتصاد القومى

واجبات الدول العربية — مصر والذرة — اليورانيوم فى مصر والأردن — الوعى الذرى — العلم والاقتصاد القومى فى المؤتمر العلمى العربى الأول — الاتحاد العلمى العربى — مصر والانتفاع من الذرة — استغلال إمكانيات البلاد العربية .

١

إن أولى واجبات الدول العربية أن توجه اهتمامها وجهودها إلى العلم ونشر التعليم وإذاعة الروح العلمية فخلاصها يقوم على ذلك ؛ ولن يشاد كيانها فى هذا العالم المتحرك إلا إذا اتبعت أسلوبه وتشبعت بروحه وأذاعت رسالته . وعلى الدولة أن تسير مع العصر فى التقدم ومتابعة هذا التقدم فى سائر الميادين ، مما يحتم على الدول العربية العناية بالبحث العلمى وتشجيع الدراسات العلمية وإنشاء مجلس أعلى للبحوث العلمية . وعلى المسؤولين أن يمدوه بالمال ويسهلوا له الحصول على ما يحتاج إليه من أدوات وآلات ، فهو الذى يعبد الطريق لاستغلال إمكانيات البلاد العربية وهو الذى يوجه الصناعة التوجيه العلمى المثمر ويرشد إلى خير الوسائل لاستخدام القوى الطبيعية وتسخيرها لخدمة المجموع فتنمو الثروة القومية وتزداد الموارد فتعم خيرات البلاد ويرتفع مستوى المعيشة فيها .

ولقد أدركت مصر قبل غيرها من الدول العربية أهمية العلم وأسلوبه فى الحياة والصناعة ، فأنشأت مجلساً للبحوث

العلمية والصناعية ومجلساً للإنتاج وعهدت بإدارتهما إلى شخصيات علمية لها مكانتها ومقامها .

والأمل كبير أن تثمر هذه المجالس الثمار المرجوة لتقدم الصناعة واستغلال إمكانيات البلاد وتنمية مواردها وثروتها .

٢

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل قام فى مصر من يدعو إلى الاشتراك فى كل تنظيم دولى يُقصد به الإشراف على استخدام الطاقة الذرية . فقد دعا الدكتور على مصطفى مشرفة فى مقالاته ومؤلفاته إلى الاهتمام بالشؤون العلمية وتطبيقها فى سائر المرافق القومية « . . . وهذه القنبلة الذرية تؤلف لها الأمم لجاناً خاصة . فقد قرأنا أن فرنسا قد ألفت لجنة من علمائها للإشراف على مباحث الطاقة الذرية ، ونحن أحوج ما نكون إلى تأليف مثل هذه اللجنة فى مصر على أن تكون لجنة قومية تعمل على تشجيع البحوث الذرية وإمدادها بما تحتاج إليه من مختبرات وعدد وأموال ورجال . وفى مصر شباب متعطش للعلم قادر على البحث العلمى إذا هو أحسن إرشاده وتوجيهه . فلنعمل إذن على إعداد جيل صالح يؤمن بالحق ويستمد من إيمانه وعلمه قوة يستخدمها فى الخير فيعمل

على رفع مستوى الحياة بين مواطنيه ويسمو بنفسه وأغراضه نحو المثل العليا . ثم إن علينا أن نشترك فى كل تنظيم دولى يقصد به الإشراف على استخدام الطاقة الذرية فيكون لنا من العلم بهذه الطاقة وأوجه استغلالها ما يجعل لنا كلمة مسموعة فى المحافل الدولية . وعلينا أيضاً أن نعنى باستخدام هذه الطاقة فى مرافقنا الاقتصادية والعمرانية وأن نساهم فى ذلك بجهود علمائنا ومهندسينا فلا نأتى فى الذيل إذا رتبت الأمم . بل نتبوأ مكاننا كشعب يحفل تاريخه بكل مجيد فى ميدان العلم والعمران . وإذا كان العلم قد امتزج بحياة الأمم فى عصرنا الحديث بحيث لم يعد له معنى بدونها فلنذكر أن الحياة قد امتزجت هى أيضاً بالعلم بحيث لم يعد لها معنى بغيره . . . »

٣

وقد قادت صرخة الدكتور مشرفة هذه إلى أن يتعرض فى كتابه عن القنابل الذرية إلى اليورانيوم وهل هو موجود فى مصر ؟

فعرض رأيه فى هذا الشأن تاركاً الرأى الأخير للجيولوجيين والمهندسين وقال فى هذا الشأن :

« . . . إن العمل الذى قام به علماء الجيولوجيا والمهندسون فى كندا والذى أدى إلى العثور على مناجم بحيرة الدب الأكبر الغنية بعنصر اليورانيوم . إن هذا العمل أكبر حافز لنا على البحث عن هذا العنصر فى صحارينا المصرية بعد أن صارت له هذه الأهمية الكبرى فى حياة الأمم . وقد سبقت الإشارة إلى أن البورانيت أو البتش بلند يوجد فى صخور الجرانيت وفى بعض العروق المعدنية التى تحمل القصدير والنحاس والرصاص وأنه تكون فى العصور الجيولوجية من محاليل مجماتية . ومن الثابت أن القصدير والنحاس والرصاص موجود فى الصحراء المصرية ، كما أن من الثابت أيضاً أن طريقة تكون معادن بعضها حدثت بالقرب من الصخور الجرانيتية المجماتية . فخامات القصدير مثلا التى عثر عليها فى عام ١٩٣٤ فى منطقة جبل (مويلح) قد تكونت فى الغالب من حجر الجرانيت بفعل غازات وأبخرة بطريقة مشابهة لتكون اليورانيت . وإنى أبدى هذه الآراء (وكان ذلك فى أواخر عام ١٩٤٥) بكل تحفظ تاركاً الرأى الأخير لعلمائنا الجيولوجيين ومهندسينا . وإذا كانت خامات اليورانيوم تنقل بالطائرات من كندا فليس هناك ما يمنع من استخدام الطريقة فى مصر إذا عثر على هذا العنصر الحيوى فى مناطق منعزلة

أو صعبة المواصلات . . . »

وعلى ذكر اليورانيوم لا بد من الإشارة إلى احتمال وجوده فى الأردن . ويقول بعض الخبراء أن اليورانيوم موجود بنسبة (لم تعرف بعد) فى الفوسفات الأردنى .

وتجرى الآن وزارة الاقتصاد فى الأردن تجارب وتحاليل للتأكد من وجوده أولا وتعيين النسبة وإمكانية استغلاله اقتصادياً .

ومن المعلومات الأولية التى استقيتها من بعض الخبراء أن اليورانيوم موجود فى الفوسفات على شكل أحد المواد المعدنية التالية :

(الأوتونايت) وال (كارنوتايت)

وكلاهما أصفر اللون. ويكون اليورانيوم عادة فيهما زهرىّ اللون ويُرجح أن هذا اليورانيوم موجود فى الفوسفات الأردنى.

وإذا كان لى أن أبدى رأيا فى هذا الشأن فهو أن التحاليل والتجارب يجب أن يجريها علماء وخبراء من بلاد لا أهداف استعمارية لها فى البلاد العربية ذلك أن أكثر التقارير العلمية التى قدمها (ويقدمها) الخبراء الإنكليز والأميركان كثيراً ما تتأثر بالسياسة فتأتى بعيدة عن الحقيقة ، فيها مغالطات وفيها تحريف وتشويه للواقع .

٤

ان الوعى الذرى فى البلاد العربية يكاد يكون معدوماً ولكنه موجود فى مصر فى شكل بدائى . وقد بدأ هذا الوعى فى مصر ينمو فأرسلت حكومة الثورة فى مصر عدداً من علمائها الشباب إلى أميركا لدراسة شؤون الذرة واستغلالها فى الأغراض السلمية . وسيقام فى القاهرة قريباً مختبر الأبحاث الذرية ، وسيكون الأول من نوعه فى الشرق الأوسط . وهذا ما يحتمه روح العصر والتطور الذى أصاب العلم والحياة .

٥

لقد بدأت الدعوة إلى الاهتمام بالعلم والبحث فى مشاكله وربطه بالاقتصاد القومى تظهر فى المؤتمرات والدراسات وبعض المؤلفات . وقد تجلى هذا فى المؤتمر العلمى العربى الأول الذى عقد فى الإسكندرية عام ١٩٥٣ فتعرض لمشكلة العلم والاقتصاد القومى وتوسع فى هذه الناحية وخرج بتوصيات إلى الدول العربية تقوم على العلم والبحث والدرس .

لقد عالج الدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن مشكلة العلم والاقتصاد القومى فى المؤتمر العلمى العربى الأول وخرج بحقائق وتوجيهات خطيرة أذكر خلاصتها لأهميتها كما أوردها فى كتاب المؤتمر العلمى العربى الأول :

« العناصر الأساسية للتنمية الاقتصادية هى الثروات الطبيعية الغفل ، التى يمكن استثمارها وزيادة قيمتها بالخبرة الفنية واليد العاملة .

العلم ضرورى لاستقصاء الإمكانيات الزراعية والصناعية والتجارية توطئة للدراسة وإعداد مشروعات ناجحة تغرى رؤوس الأموال بالتجمع ثم التقدم للتنفيذ .

وتنفيذ المشروعات لا يمكن أن يكون صحيحاً إلا بالدراسة العلمية الصحيحة ، ولا يكفى فيه مجرد النقل والمحاكاة ، لأن كل عملية لها خصائصها ومشاكلها .

والعلم ضرورى فى إعداد الخبراء والعلماء اللازمين للدراسات الإنتاجية .

ولا تتم التنمية الاقتصادية إلا مقترنة برفع المستوى الاجتماعى والثقافى ، باعتبار هذا الهدف الأخير غاية فى ذاته ، وفى الوقت نفسه حلقة مكملة للتنمية الاقتصادية ، لأنه يعين إلى حد كبير الطلب على السلع والخدمات .

يلزم اتباع الأسلوب العلمى فى معالجة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ويقتضى ذلك دراسة المقدمات وجمع البيانات والإحصاءات ، وتوقع الاحتمالات وفرض الفروض ومراقبة النتائج وتتبع الأحداث ، واستخلاص الخبرة من النجاح والفشل سواء بسواء .

أهم المؤسسات التى تقوم بوظيفة فى إفادة الاقتصاد القومى بالنتائج العلمية ، هى المدارس والمعاهد والجامعات والمصالح والإدارات الحكومية ذات الصفة العلمية ؛ والجمعيات العلمية ونقابات المشتغلين بالعلم ؛ والشركات الصناعية والزراعية ، التى تجرى البحوث العلمية ؛ وجميع هيئات الاتصال بين العلماء والتعاون مع الهيئات العلمية الخارجية من دولية وغيرها .

ما تنفقه الدول العربية على البحوث العلمية ضئيل جداً لا يتناسب مع أهمية هذه البحوث ولا ضرورتها للنهضة العمرانية ، وتحرص الدول الراقية على إنفاق ٢ — ٣ ٪ من دخلها القومى على البحوث ونحن أشد حاجة إلى مثل هذا الإنفاق حتى نلحق بهم أولا ، ثم نسير معهم ثانياً .

وتعتبر الحكومات الراقية العلماء والباحثين ذخراً قومياً ، ترعاه وتعنى به كعنصر من عناصر الثروة الأساسية ، بينما

عندنا مكانة الباحث العلمى ضائعة أدبياً ومادياً وجهوده لا تجد التقدير الكافى ولا التشجيع ، وهذه أوضاع مقلوبة ستصحح ولا شك قريباً . »

* * *

وتعرض المؤتمر العلمى العربى الأول كذلك إلى بحوث أخرى هامة تتعلق بالثروة المعدنية والاقتصاد القومى فى البلاد العربية. وقد أفاض فيه الدكتور نصرى شكرى وخرج من بحثه ودراسته بتوصيات خمس تدور حول :

١ ـ استكمال الأبحاث الجيولوجية فى جميع البلاد العربية ودراسة ثروتها المعدنية وتقديرها تقديراً شاملا ، وذلك عن طريق إنشاء أقسام لأعمال المساحة الجيولوجية فى البلاد التى توجد بها ، وإمدادها بالمال والمعدات والخبرة الفنية اللازمة لها ، وكذلك عن طريق تشجيع الأبحاث الجيولوجية والتعدينية فى الجامعات ، والجمعيات العلميه ، والشركات والمجهودات الفردية .

٢ ـ استغلال ما هو معروف فعلا الآن من هذه الثروة على أحسن وأوسع نطاق بأن تدرس نواحى الاستخراج والاستخلاص ، والصناعات التى تتوقف على كل معدن موجود حالياً منها ، وطرق تمويلها ونواحى التسويق بين الدول العربية بعضها مع بعض وبينها وبين العالم الخارجى . ويكون هذا الاستغلال عن طريق الحكومات نفسها أو الشركات المحلية

أو العربية ، كلما أمكن ذلك ، مع الاستعانة بالخبرة الأجنبية حينما لا تتوافر هذه الخبرة فى البلاد نفسها . ونذكر فى هذا المقام ، أنه يمكن لمصر تزويد الأقطار الشقيقة إلى حد كبير بهذه الخبرة .

٣ ــ وضع اتفاق بين الدول العربية خاص بالثروة المعدنية ، على نمط اتفاق الفحم والصلب بين بعض بلاد أوروبا الغربية ، فيما يختص باستخراجها وبإنشاء الصناعات المتصلة بها وتبادل المواد الخام ومنتجات الصناعة مع منح تسهيلات خاصة تمنع مزاحمة الدول الأخرى ، ووضع سياسة موحدة للتعامل فيما يختص بهذه المواد ومنتجاتها مع البلاد الأخرى على نظام (الكارتل Gartel) . ويتبع هذا الاتفاق إنشاء هيئة فنية داخل هيئة الدول العربية تضم أعضاء فنيين تمثل الدول العربية كلها ، ويكون اختصاصها تنسيق النواحى المختلفة لتنفيذ هذا الاتفاق ووضع سياسة عامة للخطط التى يجرى عليها العمل وجمع الإحصاءات والمعلومات الأساسية الخاصة بالثروة المعدنية .

٤ ــ وضع أنظمة لمنح تراخيص البحث عن المعادن واستخراجها على أحسن وجه لتنشيطها ، وقد يكون فى القانون المصرى الخاص بالتعدين ما يحقق ذلك ، ويمكن

للبلاد العربية الأخرى أو للهيئة الفنية المقترحة الاسترشاد به . وكذلك وضع الاشتراطات الكفيلة لحصول الحكومات على أكبر حصة مناسبة من إنتاج الثروة المعدنية فى حالة منح التراخيص للشركات الأجنبية ، ومما يلاحظ أن عمليات تكرير البترول يجب أن تتم فى مواطن الإنتاج ، حتى تنتفع البلاد المنتجة نفسها بهذه الصناعة ، ذلك إلى جانب توفير مواد الوقود للبلاد نفسها فى حالة الحرب ولتشجيع الازدهار الصناعى فى حالة السلم ولذلك نوصى بأن يدرج شرط فى رخص التعدين فى جميع البلاد العربية بوجوب قيام هذه الصناعة فيها أو الاحتفاظ بهذا الحق للبلد نفسه .

٥ — تنمية الخبرة الفنية اللازمة للنهوض بالأبحاث وصناعة التعدين والصناعات القائمة عليها بالطرق العلمية .

* * *

وسيتابع المؤتمر العربى العلمى الثانى الذى سيعقد فى أيلول (سبتمبر) من هذه السنة (١٩٥٥) البحث فى دراسة مشروعات إنماء الثروة القومية واستثمار الموارد الطبيعية فى البلاد العربية ، وخصص لذلك شعبة تتناول موضوعات البترول وإمكانيات استغلال بعض المعادن وغيرها من الموضوعات التى تتصل بالاقتصاد القومى والثروة القومية .

٦

ومن المبهج حقـًّا أن نجد كذلك أن الوعى العلمى أخذ يشتد ويبرز فى المؤتمرات وعلى شكل اتحادات علمية ، وقد تم تشكيل الاتحاد العلمى العربى فى الصيف الماضى ، وهو هيئة مركزية ذات شعب قومية فى البلاد العربية تهدف إلى جمع شمل العلماء أفراداً وهيئات وتنسيق جهودهم لتحقيق نهضة علمية شاملة . وإشاعة الروح العلمية وتشجيع البحث العلمى وإمداد الباحثين بمساعدات مادية لتسهيل سبل البحث العلمى وإثارة الموضوعات التى تهدف إلى الإفادة من الثروات الطبيعية فى البلاد العربية وتنمية اقتصادها القومى .

٧

وتعرض بعض الباحثين إلى أهمية استغلال الطاقة الذرية فى المشروعات الصناعية ومشكلة تأمين الوقود اللازم لمصر مما يعود عليها بالفوائد الجليلة . ولقد كتب الكيميائى الأستاذ محمد سعيد مقالا فى مجلة رسالة العلم التى تصدرها

جمعية خريجى كليات العلوم فى مصر عنوانه (كيف تستفيد مصر من تنظيم الأبحاث الدولية) جاء فيه: «لا شك أن مصر والعالم كله سيرحب بتنظيم الأبحاث الدولية لتوجيه الطاقة الذرية لفائدة السلام . فكل جزء من هذا العالم معرض لخطر القنابل الذرية . . .

إن وجود المنظمات الدولية للذرة السلمية وتسلط هذه المنظمات على المواد المتفجرة الذرية بوجه خاص معناه أن العالم قد اتحد واتجه كلياً اتجاهاً عملياً نحو السلم والعمل على سعادة البشرية ورقيها . ونتيجة مباشرة لذلك ، أن المطامع الاستعمارية المبنية على إنشاء القواعد العسكرية وما شابهها سوف تأخذ طريقها نحو الضمور .

سوف تذهب البعثات العلمية من مصر للوقوف على أسرار الذرة جميعها وسوف يشارك علماؤنا علماء العالم التفكير فى الاستفادة من الطاقة الذرية فى النواحى السلمية . وفى هذا فائدة علمية وثقافية وفرصة عظيمة للتدريب العلمى فى الأبحاث ومجال جديد لظهور النبوغ المصرى .

ثم يبحث فى الطاقة الذرية وماهيتها .

وبعد ذلك يتعرض لبحث إفادة مصر من القوة الدافعة الذرية ويخرج من دراسة هذا البحث بعدم توقعه استخدام

مصر للطاقة الذرية كمصدر للقوة الدافعة الذرية فى مدة الخمسين أو المائة عام القادمة .

وأغلب الظن أن الأستاذ قد بالغ فى تقدير المدة لاستخدام الطاقة الذرية ، وما يدرينا فقد لا تحتاج مصر وبالتالى البلاد العربية — إذا وجهت عنايتها إلى تطبيقات العلم والبحوث الذرية — إلى المدة التى ذكرها الأستاذ ، وأغلب الظن أن الوعى الذرى فى مصر والبلاد العربية سيتضاعف وينمو نمواً هندسياً لا حسابياً ، وعندئذ سيتحقق الكثير من المشاريع الصناعية والإنتاجية وتعود على مصر مزايا عظيمة من استخدامها الطاقة الذرية والنظائر المشعة فى ميادين الزراعة والصناعة والطب وصناعة الأدوية وصناعة الأغذية وغيرها من الصناعات الحيوية .

ويعجبنى الأستاذ فؤاد صروف فى تفاؤله وإيمانه بقابليات العرب ، ويرى أنه فى الإمكان أن يساهم العرب اليوم وفى الأجيال القادمة فى توجيه الحياة الجديدة « ومشاركتهم مشاركة فعالة فى الارتقاء الإنسانى » . ولا يكون هذا إلا بترويض النفوس وإعداد العقول للمشاركة فى هذا الارتقاء وفى إنشاء عالم أفضل .

٨

وجماع القول أن العرب فى مصر وسائر ديارهم يملكون إمكانيات واسعة عريضة توجب عليهم أن يتجهوا بعقولهم وتفكيرهم وجهودهم إلى العلم وتطبيقاته . فهم يعيشون على أراض غنية تجرى من تحتها أنهار من الذهب الأسود السائل وتنتشر فى ثناياها المعادن (وفيها اليورانيوم) على أنواعها وألوانها .

ولسنا بحاجة إلى القول إن استغلال هذه الإمكانيات من حق العرب ، وعليهم أن يستفيدوا منها وأن يستغلوها فى تعمير بلادهم وتقدمها .

ولكن ذلك لا يتم إلا بالعلم والاهتمام بالبحث والدعوة إلى تشجيع الثقافة الصناعية وإرسال البعثات لدرس الصناعة وتقدمها فى أوروبا وأميركا لينشأ جيل يدرك أهمية الصناعة فى الحياة ويعرف كيف يستغل إمكانيات بلاده فى البناء والإصلاح ورفع مستوى الحياة بين مواطنيه ، وفى المساهمة فى خدمة الحضارة وإعلاء شأنها وإقامة دعائم الأمن والسلام فى العالم .

مصادر الكتاب

النجوم فى مسالكها تأليف جينز وترجمة الكردانى
الكون الغامض تأليف جينز وترجمة عبد الحميد مرسى
العصر الذرى سلسلة محاضرات فى العصر الذرى أصدره قسم الخدمة العامة فى الجامعة الأميركية بالقاهرة
الذرة والقنابل الذرية الدكتور على مصطفى مشرفة
الكون العجيب تأليف قدرى حافظ طوقان
النار الخالدة « فؤاد صروف
العلم والحياة « الدكتور على مصطفى مشرفة
العيون فى العلم « قدرى حافظ طوقان
النظرية الذرية « نيقولا شاهين
بين العلم والأدب « قدرى حافظ طوقان
ماذا تخبئه نواة الذرة للإنسان تأليف الدكتور محمد محمود غالى
رسالة العلم الاجتماعية تأليف برنال ترجمة الدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن
مجلة رسالة العلم تصدرها جمعية خريجى كليات العلوم فى القاهرة
ومجلة المقتطف ، والأديب ، والآداب ، والكاتب المصرى ، والأبحاث .
ومجلات أخرى أخرجت أعداداً خاصة عن الذرة .

الفهرس

اقرأ

واصف البارودى

وعى الشباب

دار المعارف بمصر

وعي الشباب

واصف البارودي

وعي الشباب

اقرأ ١٥٠
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٥٠ – يونيه ١٩٥٥



مقدمة

أقدم للقارئ العربي الكريم قصة « وعى الشباب » ، وفى نفسى رغبة ملحة فى أن أؤكد له بأن اشتراك الخيال ، فى تأليف حوادثها ، لم يكن ليؤثر مطلقاً فى إبعاد هذه الحوادث عن واقع الحياة . فهى حوادث واقعية ، باستطاعة المؤلف أن يذكر جميع ملابساتها ، من أسماء الأشخاص ، والأمكنة ، وفى تعيين الأزمنة . فهى حوادث وقعت فى صميم الحياة . وإذا ما ألفت ، فى قصة واحدة ، فلتثير بتواليها ، ما يثيره القصص ، من تأمل وتفكير واعتبار ، إذا ما توالت فيها الحوادث ، وتعاقبت !

لم يكن تأليف قصة ، بين القصص ، هدفاً لواضعها . وهو إنما يرمى لتحليل بعض الأوضاع الاجتماعية ، بتحليل ما يتصل بها من أنواع ، فى التفكير ، والشعور ، والسلوك ! ولتوضيح إمكانات الإنقاذ ! . . . فهى إذن ، محاولة ، فى الإصلاح ، اتخذت شكل القصة ، ويكفيها أن تثير أبحاث هذه المواضيع الحيوية ، فى نمو الحياة ، فى المجتمع ، وفى الأفراد ، ولا سيما فى الشباب . ويسرنى أن أعيد هنا قولا ورد فى مقدمة كتاب « الحياة والشباب » وهو :

« قد أكون مصيباً فيما ذهبت إليه ، وقد أكون مخطئاً . . . وليست الأهمية فى مظاهر الخطأ والصواب ، بل فيما يجب أن تثيره ، قضية الشباب ، من دروس وأبحاث ، تستمد مناهجها من واقع شبابنا ، ومن واقع مجتمعه ، وواقع البلاد التى يعيش فيها . وتقتبس مواردها مما يحتاج إليه الشباب ، فى حياته ، فردية واجتماعية ، على ضوء العلم الصحيح ، وتطور المجتمع ، فى التاريخ ، متجهين لما تهدف إليه الشعوب العربية من أمان وآمال ومثل ! ... »

ولعلك واجد فى هذا القول ما يبرر اتجاه المؤلف ، بجميع الشعوب العربية ، فى قصته هذه ، وفى كتاب « الحياة والشباب » ، وقد سبقها . فهو يعتقد ما عبر عنه الشاعر فى قوله : « كلنا فى الهم شرق » . فمشاكل العرب ، فى جميع أوطانها واحدة ! . . . وواحدة هى وسيلة الإنقاذ ! . . . وبتعاون البلدان العربية ، جميعها ، فى حقول الإصلاح ، تتحقق الآمال ! . . .

بيروت فى ١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٤

المؤلف

١

هى ؟ ! . . .

كاد البحر يتقد نوراً ، بفعل انعكاسات أشعة القمر ، وقد كان بدراً ، فى تلك الليلة الفاتنة ، بسحرها العجيب ! ! . .

إنها ليلة ساحرة ! . . . فهند تشعر ، فى أعماق نفسها ، بتبدل جذرى عنيف ؛ ولكنها ترتاح إليه ، على غموضه ، ارتياح الزهرة ، ينشق كمها عنها ، برعماً مسجوناً ، فى ظلمة الوجود ؛ فلا تلبث ، إذ تنفعل بنور الأجواء ، المحيطة بها ، أن تتفتح ، فتزهو بألوانها الزاهية ، ورائحتها العطرة ، وجمالها الحلو الجذاب ! . . وتدل على العالم بما وهبها الله من ألوان وعبير وجمال !

لم تكن الليلة الأولى ، تطل فيها هند من على شرفة غرفتها ، لتتمتع بهذا المنظر البديع ! فهى منذ سنوات تنعم بفتنة هذه الإطلالة ، وتغذى روحها بروعة هذا المنظر ، كلما اكتمل هلال القمر بدراً ! . . . ولكنها كانت ترى فيه منظراً من مناظر الطبيعة الجامدة . فما بالها ، الليلة ، تراه ،

وقد دبت فيه الحياة ، فأصبح مشهداً من مشاهدها ، يضطرب بالأماني والأحلام والآمال ؟ !

ما لهذه الجواهر الماسية ، وقد تكونت على سطح البحر ، أمامها ، بفعل انعكاسات أشعة نور البدر ، تتحول إلى أجرام حية تتحدى القمر ، فتبيت له أمراً ، وتضمر له شراً ؟ . . . . إنها ترسل من نورها المستعار سهاماً ، ترسلها إلى العلاء ، لتمد بها نجوماً ، كسفها هذا القمر الظالم ، ليظل وحده البارز فى سماء الوجود ؛ مع أنه أصغرها حجماً ؛ وهى تبعث النور أصيلا من ذاتها ، وهو يستمده من شمس ، يتسكع على أعتابها ! ! . . . وما كان القمر ليستطيع ذلك لولا قربه من الأرض، وبعد النجوم عنها !.. ولولا أن أسعفه الظلام !... الحالك ! . . . وما كانت هند لتبرر تمرد جواهر البحر على من يهبها النور ، وبه تتكون ، لولم يكن تمرداً على الظلم ! . . . وهى ترى أن مقاومة الظالمين قد تبرر كل وسيلة ! . . .

ظلت هند تسرح ، فى بيداء خيالها ، وتنعم بما يتجلى لها من مظاهر الحياة ، فى الجماد ، حتى انتبهت لذاتها ، فخجلت من ذاتها ! إذ لا يجوز ، وهى فى التاسعة عشرة من عمرها ، أن تتقهقر ، فى تحقق تكونها فى الوجود ، فتعود طفلة تخدع بحياة الجماد . والطفل لا يدرك أنه هو الذى يمنح

الجماد الحياة ! ... أدركت هند ، بعد أن عادت لنفسها ، أنها هى الحياة . وأنها هى التى منحت مناظرها ، الجامدة المألوفة ، هذه الروح الجديدة ، من حياتها . ولكن بهاء تلك المشاهد غيبها عن ذاتها ، برهة من الزمن ، فأعادها لحالة طفولتها ، فتوهمت الجماد يضطرم بالحياة ! ولولا وعيها لذاتها ، لما أدركت أنها هى التى تهب الكائنات الجامدة حياتها ! ...

فالشباب تنمو فيه الحياة بين الحزن والفرح ، وبين الغم والانشراح ، وبين الضيق والفرج ... ويتبدل نظره إلى الوجود ، بحسب ما تتوالى عليه الأحوال ، فكل شىء مظلم أسود ، إذا انكمشت النفس ، لحزن أو غم أو ضيق ؛ وكل شىء أبيض منير ، إذا ما انبسطت أسارير النفس ، لفرح أو فرج أو انشراح . . . وكل شىء جامد ، لا حياة فيه ، ولو كان من الأحياء ، إذا ما وضعت النفس على عينيها منظار اليأس والقنوط . وكل شىء حى متحرك ، ولو كان من الجماد ، إذا ما تلألأت العيون ببريق الأمل والرجاء ! . . . وصدق من قال : كن جميلا ، تر الوجود جميلا ! . . .

فأى جديد عرض فى حياة هند ، وجعلها تعود لمرح الطفولة ، فتمنح الجماد حياة ؟ . . . وهذه حالة ، كثيراً ما تعاود الإنسان ، ولا سيما فى دور الشباب ! ولولا الوعى ،

توقظه التفاتة إلى المستقبل ، لما بذل الإنسان أى جهد للتحرر من الطفولة ، ولما حاول إنقاذ ذاته من أوهام الأطفال !

هند طالبة فى الجامعة . ومن توفيقها أن المعهد الذى تنتسب إليه ، يتبنى مبادئ الاتجاهات العلمية الحديثة فى التربية . فلم يكن ليغيب عن ذهنها ، وهى تتخصص لتكون بين مربيات الجيل الطالع ، أثر ما يكنه الفؤاد[1] ، فى سلوك الإنسان . فما الذى بعث فى نفسها هذا المرح الطفولى ، فطفقت تتوهم كالأطفال ؟ وأى حادث ، غيبه الفؤاد ، يجعلها تشعر باطمئنان يشوبه الحذر ؟ ! . . .

عادت هند إلى ذاتها ، وأخذت تتأمل فيها . وإنها لتعلم أن التأمل الذاتى ، هو الذى يكشف للنفس ذاتها ، وينبش مكنونات الفؤاد . ولعلها كانت تعلم أيضاً ، أن فى تحول مكنون فؤادى ، إلى صورة وجدانية[2] ، إمكان الإنقاذ من أوهام بعض الأمراض المستعصية ، أو من أمراض بعض الأوهام المكبوتة . ولم تلبث

---

(١) نقصد بالفؤاد ما تعنى حديثاً كلمة «inconscience» وقد أوضحنا ذلك فى كتابينا «محاضرات فى التربية والتعليم» الجزء الأول ص٢٧٠ (الطبعة الثالثة) و«الحياة والشباب» الطبعة الثانية ص ١٤١ فليرجع إليهما .

(٢) الوجدان مقابل كلمة « conscience » راجع البحثين المذكورين فى الرقم ١ .

طويلا ، فى تأملها الذاتى ، حتّى ارتفع نظرها إلى الأفق البعيد
فاستغرقت فى حلم من أحلام اليقظة ، رأت فيه أن انعكاسات
أشعة نور القمر ، على سطح البحر ، هناك فى الأفق ، لم
تكوّن ، كما رأت عند الشاطئ ، جواهر ماسية منفرقة مترجرجة ،
ترسل سهام النور ! وإنما كونت كثيباً عظيماً من الألماس
المرصوف ، يتلألأ بأشعة وهاجة . . . وقد اعتلى ذروة الكثيب
قيس ! . . . نعم إنه قيس ، ذلك الشاب الطائش ، ينظر
إلى القمر ، متأملا ، وبهدوء عجيب ، بالنسبة إليه ، هو الذى
لا تسكن حركته ، فى وقوف أو قعود ، ولا يكاد يتأمل ، لكثرة
ما يصخب ويثرثر . . . ثم ما لبث أن التفت إليها . . . ولم
تتميز ، أكانت نظرة عاتب ، أم حانق ، أم معترف بالجميل
ولكنها كانت على كل حال ، نظرة رصينة ، فيها كثير من
التأمل ! . . .

لم تلتق عينا هند بعينى هذا الخيال الماثل أمامها ، شخصاً
سوياً ، مكتمل التكوين ، ومعبراً عن معانى قيس ، بتفاصيلها ،
حتّى اهتز قلبها ، حناناً ، وارتعش كيانها ، هلعاً وحذراً ! . . .
فأدركت أنه هو المستقر فى فؤادها ! وهو ، هو قيس ،
يوحى ، من أعماق ذلك الفؤاد ، بما بدل ، ويبدل ، فى
ذاتها من أحاسيس ومشاعر وتفكير ! ويخلق فى نفسها نوعاً

من المرح المطمئن ، يعيدها لعهد الطفولة ، فى تصور الطبيعة وفى منحها الحياة ! ! . . أتراه الحب ؟ ! . . وهى تعلم أن الحب هو إكسير الحياة ! فلا يزال يتسامى بالحياة ، حتى يحولها لأسمى ما قدر لها فى الوجود ! ؟ . . ولكن أيعقل أن يستقر ، فى أعماق فؤادها ، حب فتى ، ترى أنها قد آذته ، عندما وجهت إليه لومها العنيف ، منذ يومين ، وقد كان فخوراً بنجاح إضراب نظمه ، ومظاهرات صاخبة قادها ؟ ! . .

إن قيساً شاب طائش ، شديد الانفعال ، وعجول فى تصرفاته . ولكنه مقدام ، فى جرأته ، ذكى فى سرعة خاطره ، وفىّ لعهوده ، وصادق فيما يعد ! . . يثق به رفاقه ، ويعتمدون عليه ، وإن كانوا يتجنبونه لكبريائه وغروره ، ولقسوة صراحته فى أقواله ، ولشدته ، فى أفعاله !.. فهو للملمات ؛ ولا يكادون يتفرقون عنه ، فى الأحوال العادية ، حتى يشعروا بالحاجة إليه عندما يبدو لهم أن يقوموا بمظاهرة ، أو أن يقرروا إضراباً . فلا أحد منهم يستطيع أن يقوم بما يقوم به هذا الفتى الشرس المتغطرس المغرور ! . . لذلك يلتفون حوله ، عند الاقتضاء ، ولا يخيب لهم رجاء !

عرفت هند قيساً ، فيمن عرفت من طلاب الجامعة ، منذ سنة ، عندما التحقت بمعهد التربية ؛ وكان هو قد أتم

سنته الثالثة ، فى معهد الطب . وكانت دائماً تخشاه، كما
تخشاه سائر الطالبات ، من الأوانس ، لشراسته ، ولكنها
لا تفرط إفراطهن ، ولا تغلو بالنفرة منه ! . . . ولعل وثبة
عبقرية الجنس[١] ، وبها تتحقق أسبقية النضج فى الفتاة ،
على الفتى ، فتمتلك المبادرة فى الإرشاد والتوجيه . . . لعل
هذه العبقرية الخالدة ، هى التى جعلتها ترى ، فيما ينسب
إلى قيس ، من كبرياء وغطرسة وغرور ، سوء تفهم لمظاهر
الإباء النافر الحذر ، وهو ما يتميز به الشباب ! . . . ولعل
حدس هذه العبقرية أوصلها ، دون شعور ولا تفكير ، وبما
تلقته ، فى دراستها لعلم النفس ، من مبادئ ، إلى أن ما يتوهمه
الناس طيشاً ، فى الشباب ، مدللين عليه بمظاهر الانفعال والعجلة
والتشتت والذهول ، قد لا يكون سوى نهم المعرفة ، فى طلب
الحقيقة ، ليستمد منها القوة ، التى تساعده فى وثباته للذرى ،
وتسهل له طريق سيره ، فى تمايزه ، ليشعر بتبعة الحياة !.. بل
لعلها تأولت ذلك كله بحيوية الذكاء ، وباتقاد شعلة الطموح !...
ولعبقرية الجنس ، فى الفتيات ، عينان تخترقان الحجب ! . .
وهنيئاً لكل شاب ، تجده فتاته ، فتهتم بتفهم حقيقة ذاته ،

---

(١) فى كتاب «الحياة والشباب» للمؤلف ص ١٩٣ من الطبعة الثانية
بحث عن عبقرية الجنس فى المرأة .

ولا تخدع بالمظاهر ، ولا بما يراه الناس ، ويتقولونه ، فتكون له منارة إرشاد ، وملجأ إنقاذ ! . . .

إن هنداً كانت تثق بقيس ، ولكنها ما كانت تستطيع التنبؤ بأنه سيصبح حبيبها ، يوماً ! . . . لم يكن قلبها يحدثها بأى شيء ، قبل تلك الحادثة ، وقد وقعت منذ يومين ، إثر عودته من قريته ، بعد عطلة الربيع . إنه كان يتبجح ، على عادته ، بأن نجاح الإضراب الصاخب بالمظاهرات الداوية هناك ، إنما كان بفضل تكتيك ابتكره ، فأنقذت كرامة الزعيم ، وأفرج عمن سجن من أتباعه ! وقد كان هؤلاء قد اعتدوا على بعض من أتباع حزب معارض ، لا يؤمن بتلك الزعامة . لأنها ، فى نظرهم بؤرة استغلال ، تستنزف نشاط الشعب ، وتستعبد ضمائر أفراده ، وعقولهم ، لتثرى على حساب فقرهم ، ثم تزهو عليهم بترف سفيه سخيف ! ! . . .

لم تكن هند لتصبر على هذه المباهرة السخيفة ، تعتمد على شعبية رخيصة ، فى نظرها ، فخرجت ، خلافاً لعادتها ، عن رصانتها وهدوئها ، وكانت تزأر كاللبوءة المكلومة ، وهى تقول : كفاك هزءاً بإخوانك وبنفسك ! . . أجدير ، ذلك المتغطرس الدنىء ، بعطف الشعب وشبابه ؟ . . إننا نعرف من هو !.. ونعرف كيف جمع ثروته !.. وكيف فرض زعامته !...

أيليق بالشباب ، وهو إطلالة جديدة للحياة على هذا الكون ، إن يستكين لضغط الماضى ، ولا سيما فى بلادنا العربية ، وقد كان عهد انهيار وفساد وإفساد ، كما تعلمون جميعاً ، فيفرض علينا عقلية ذلك الماضى ، فى زعماء نستعيرهم منه ، ونعجز عن أن نكون لأنفسنا ، فى تفاعلنا الاجتماعى ، زعماء يعبرون عن وثبة النهضة ، والتجدد فى كيانها ؟ ! . . ليست صحيحة تلك الزعامة التى تفرض ذاتها ،على الشعب ، لنسب ، أو مال ، أو لمسايرة مصالح خاصة ، أو مآرب فردية ملتوية ! . . وإنما الزعامة الصحيحة ، هى تلك التى يفرضها الشعب ، بانبثاقها عنه ، لتعبر عن آلامه وحاجاته ، ولتقوده لدفع تلك الآلام وتحقيق تلك الحاجات .. إنها زعامة تعطى وتضحى ،لا استغلال يأخذ ، ويكون الشعب وحده ، الفداء . . . وأى فداء ؟ ! .. فداء لجشع فرد دنىء ، يستغله ويستعبده ،ويترف على حسابه... وليته يعترف له بالجميل ، فلا يخونه بالتقرب إلى من يتربص بالشعب الدوائر ، من الأجانب ! . . . وما نكبة فلسطين إلا أثراً من آثار أمثال زعيمك ! ! . . . فى استهتارهم وروغانهم ، واستغلالهم ، دونما أى تفريق فى الجهات التى تشبع جشع الاستغلال ! ! . . . فإلى متى تنحتون الأوثان وتعبدونها ، وهى تهزأ بكم ؟! . . . إلى متى تتلهون بانتصارات سخيفة رخيصة ،

نتائجها لغيركم؟ ! ... وإذا ما أصابكم من الغنيمة سهم ، فهو سهم المستخزى ! ... يدفعونكم ويتوارون . وإذا ما تم لكم النصر ، برزوا ليستولوا على النفوذ والمال والأطيان ، بالقوة أو بالخداع ، أو بالرشوة ! ! ... شمختم بأنوفكم بالأمس ، لانتصاركم فى تخفيض أسعار السينما ، فزدتم ويلاتها فى نفوس الشباب والأطفال ! . . . انتصار رخيص ، عطلتم لأجله الدروس ، ولا أدرى ما ذنبها ؟ وقاطعتم المدارس ، ومن يعلم ما هى علاقتها فى الأمر ؟ ! . . . فما الذى كان يمنعكم عن إلجائها إلى التخفيض بالامتناع عن ارتيادها ، أياماً معدودة ، وبنشر فكرة هذا الامتناع بين أهلكم وذويكم ؟ وكأنى بكم لا تستطيعون أن توحدوا كلمتكم ، إلا وسط الضجيج والشغب ! وبتجريم من لا علاقة له بما تشكون من حيف ! . . فتعرضون أنفسكم لاتهامات ، قد تكونون ، أو يكون أكثركم ، بريئين منها ، ولكن . . . فسحتم مجالا واسعاً للقول بأن سياسة خاصة لأناس ، فى الداخل ، أو فى الخارج ، قد دفعتكم ، لتستغل هى ، هذا الشغب ! . . . والثمن رخيص ، تأييد ظلم متزعم مستغل... أو تخفيض ضئيل ، ليته فى سبيل استكمال الثقافة الصحيحة ! . . . وليته تم عن غير طريق الإضرار بها ! . . .

وهنا ازداد انفعال هند ، فصرخت قائلة : عار على شبابنا ،

والمستقبل يستنجد بهم ، فى جميع بلاد العرب ، أن يتلهوا بالانتصارات الرخيصة ، وأن يبذلوا قواهم ، ويصرفوا طاقة وثبات الشباب ، فى نفوسهم ، فى توافه الأمور ! ... والخطر كل الخطر ، هو فى أن يتعود شبابنا المطل على الحياة ، الانصراف إلى الانتصارات الرخيصة ، والتلهى بالتراهات والتوافه ! . . . والحياة تدعوكم اليوم ، وفى وسط هذه النكبات ، لتعودوا إلى المساهمة فى تحقيق أسمى الغايات ، فى تقدم حضارة الإنسان ! . . . فإن أجبتم لانت لكم الأيام ، وإلا فقدتم وجودكم فى سلم الحياة ! ... وللشباب وحده أن يختار ! فإنه الأمل ! . . . وشبابنا لا يستطيع الاعتماد على جيل سابق ، أفسدته عقلية عهود الانهيار !

وما بلغت الثورة فى حديثها هذه الذروة ، حتى شعرت هند بانفعال شديد ، آثرت معه الانسحاب . فثبتت عيناها ، المتقدتان بشعلة الحماسة والإيمان ، وقد يكون من مصادر اللهيب شىء آخر ، لم تتبينه بعد . . . على قيس ، فوجدته صامتاً هادئاً ، وكأنه مطمئن بانفعاله ، يتأمل مطرقاً ! . . . فانكفأت منسحبة . . . وما بعدت قليلا ، مسترقة السمع ، حتى سمعته يقول : لعلها على حق ! . . . بل إنها على حق ، ولا شك ! . . فتجرأت واسترقت النظر ، بعد أن سارت قليلا ، فإذا الجميع فى دهشة المفاجأة : مفاجأة تحول الذئب حملا ، فى لحظة من

الزمن ! . . . وكلمة الذئب لقب ، كان يطلقه عليه رفاقه ، لظاهر شراسته ! ولكنهم كانوا يرون أنه شريف طيب القلب ! . . .

شريف . . طيب القلب . . كلمتان تذكرتهما ، فضربتا على أوتار القلب . . . فاهتز ، وعزف موسيقاه الخالدة ، فى أغنية الحب الأبدى فى أزليته السرمدية ، فصفق الجناحان ، وطارت النفس طرباً ، تحوم ، فلا ترى فى الوجود ، غير قيس ماثلا أمامها ! . . . توارى البحر ، وما عليه من جواهر وتحف . . . وغابت السماء ، وما علق بها من نجوم وكواكب وشموس . . . وحجب الحب ، فى تلك اللحظة السعيدة ، بينها وبين كل موجود على الأرض ، وفى السماء ، وما بينهما ، سوى موجود واحد ، هو قيس ! . . ذهب من خاطرها كل شىء حتى حلمها الذى هى فيه ، ما عدا قيساً ، فقد كان وحده ، الموجود ! . . إنها ، فى تلك الهنيهة الهادئة ، لم تعد ترى غير قيس ! . . . ولم تكن تستطيع أن تسمع سواه ، أو أن تحس بوجود غيره ! . . قيس أصبح كل شىء ! وفى كل جهة تكتنفها يهتف بها نداؤه ! . . . وياله من نداء عذب رقيق حبيب ، يبلغ القلب ، فى دهشة أذن ، يرتد إليها رجع صداه ! وما ذلك الرجع سوى أغنية ، يعزف القلب موسيقاها ، على أوتاره ، وقد حرك ألحانها كلمتان ، هما : شريف . . . طيب القلب . .

وما هما بكلمتين ، وإنما هما ، مع معان وكلمات أخرى ، كلمة واحدة ، هى . . قيس . . . وحده ! . . . قيس الذى أصبحت آمالها كلها متجهة إليه ! . . إن عاطفة خفية ، وقوية ، تدفعها إلى قيس ، وأنى لها أن تقاوم ، وهى قد أصبحت تشعر ، فى صميمها ، أن قيساً أصبح ضرورياً لها !. . وهل فى الوجود قوة ، غير الحب ، تجعل الإنسان ضرورياً لإنسان آخر ، فى تكامل إنسانيته ، وفى تكون ذاته ؟ ! . . .

ماذا أحبت هند فى قيس ؟ ! . . أهى طيبة قلبه ، واعتقاد الناس بشرفه؟ أم ما يراه الناس فيه من طيش وشراسة ، تراهما هى نشاطاً وإباء نافراً ؟ . . . أأحبت جماله فى جسمه ، أم هناك جمال روحى يستشف له الجسم ، فتبرز معالمه بريقاً فى العينين ، وملامح فى الوجه ، ونشاطاً فى حركات الجسد ، وسكناته ؟ ! . . أهى تحب ازرقاق عينيه ، أم التقاء حاجبيه ، أم رشاقة حركاته ؟ . . أكان لنبرات صوته ، فى حديثه ، ذلك التأثير على نفسها ، أم لتدفقه فى كلامه ، تدفق النهر فى هديره ؟ ! ... إنها فى الحقيقة ، لا تدرى ماذا تحب فى قيس ! .. إنها فى حيرة ، حاولت معها الفرار ، فإذا هى تفر إلى ذاتها ، فتجد قيساً فى فؤادها ، يملأ جميع الأرجاء ، فأدركت أن حبها هو حب كل لكل ، حب لا تجزئة فيه ! فهو إذن حب صحيح ، لا يقبل الزيف.

فلو أن هنداً تحب فى قيس جماله الجسدى ، كلاً ، أو جزءاً ، كحسن فى عينيه، أو حلاوة فى قوامه ، مثلا ؛ ولو أنها تحب روحه ، لخفتها ، أو لطلاوة فى حديثه ، أو عمق فى تفكيره فى مثل آخر ، لكان حبها جزئياً ، لا يستمر إلا باستمرار مظهر الجمال ، فى ذلك الجزء من الكيان ! فكيف إذا ما عرض له ملل ، يبعثه قبح ، جزئى ، كان مستتراً ، أو غيبته انجذابة هوجاء ؟! . . أما التعلق بكلية الإنسان، إذا كان أصيلا صادقاً ، فلا يزول وإن زال الكل ، بل يستمر بعده ، لأنه حب حياة لحياة ، قد يتجاوز فى قوته ، حدود الحياة ! . . هكذا وجدت هند قيساً فى ذاتها ، عندما فرت إلى ذاتها ، فاستقر الحب فى ذات المحب ، وانتعشت به الروح ، واطمأن القلب ، فى هزته ، وفى تصفيق جناحيه ، وارتعاش كيان ، ضمه . . ولو استقر فى ذات المحبوب ، لتعلقه بجزء من كيانه ، لكان اضطراباً ، قد يبلغ الهوس ، لا تعود معه الذات إلى الذات ، فتظل مستعبدة ، تحيا خارج كيانها ، بل تعيش ، ولا تعرف للتحرر معنى من معانيه ! فكيف بلك إذا ما كان الحب يتصل بأشياء تتعلق بالمحبوب ، لا بذاته كالثروة والجاه ، مثلا ؟ . . فإنه فى هذه الحالة ، لا يخرج عن هوس فى الحب ، يشقى به الناس ، غروراً ، وادعاء ،

وهم ، عن هيكل الحب الصحيح ، فى بعد سحيق ! !

ارتاحت نفس هند لحبيب استقر فى فؤادها ، بكليته . . . فهى تشعر بالسعادة ، على قدر ما فى هذا الحب من غموض . . ولكن ! . . . هل يضمر لها قيس الحب ذاته ، وهل هى مستقرة فى فؤاده ، بكليتها ، كما هو مستقر فى فؤادها بكليته ؟ ! هذه هى المشكلة التى ما فتئت تشغل بال المحبين ، ولا تفتأ تشغلهم ... وهى قد أخذت تشغل هنداً ، فبدا عليها الاضطراب والجزع ! ! . . التفتت إلى البحر ، مستنجدة ، فإذا البحر بحر ، والجواهر على شاطئه لا تزال تتلألأ ، وقيس ، على متن كثيب الماس ، يرنو إليها بنظراته ، الحنون الحلوة ، من بعيد ! ! . . فعاودها الارتياح ! . . ولكن السحاب عذول قاس ، على ما يظهر ؛ فإن هذا السحاب القاتم ، وهو لا يعرف الشفقة ، أسرع فحجب نور القمر ، فزالت الجواهر ، والكثيب ! . . . وبقى قيس وحده ! . . . يدافع الأمواج ، ويكافح الغرق ! . . .

٢

هو؟ ! . . .

إنه قيس ! . . . وإنها الليلة الثالثة لسيطرة ملاك الأرق على نفسه ! لم يكن ليتصور من قبل إمكان انقلاب الشيطان ، المخيف المزعج ، إلى ملاك يحرس ويهدئ ! . . . فالحياة أعجوبة الأعاجيب ! . . كان يهلع قلبه للأرق يستولى عليه ! وكان يلعن شيطانه ! . . وهو الآن يطمئن للأرق ، ويباركه ، ملاكاً ، يحرسه ، فلا يبعد عنه شبح الحبيب ! ويهدئ من أعصابه ، فيقوى على النعاس ، ولا يضطرب ! . . فيهنأ ، فى تأملاته ، وفى مناجاته : يناجى شبح هند ، تلك الفتاة الرصينة الفطنة ، والحكيمة اليقظة ... إنه أخذ يشعر بحاجة ملحة إلى رؤيتها ، وإلى التحدث معها ! ويكاد يشعر ، منذ هزت قلبه تلك الهزة ، بتأنيبها الصارم القاسى . . . بل الحنون ! . . إنه ليكاد يشعر أن الحياة ، أصبحت دون هند عبئا ثقيلا ! . . . ولم التمويه ؟ فقد أصبح ، فى واقعه ، لا يرى الحياة إلا فى انعكاساتها على ذلك الوجه الحبيب ! . . فالحياة تلمع فى تينك العينين البراقتين ، وتكاد تقفز منهما . . . وليس للحياة

أي معنى ، إذا لم يعبر عنها ذلك الفم الجميل ! . . . رباه ! . .
أي شيء هذا الذى غير ذاتى ، وقلب كيانى ، فى شعوره وتفكيره ونزوعه ، وبدل فى البواعث والحواس ؟ ! . . . تغير وانقلاب وتبدل . . . أشعر بذلك كله ، وأشعر ، مع ذلك ، بأننى ما زلت أنا . قد كنت ، وأعلم كيف كنت . . . وأنا الآن ، أشعر بما أنا عليه الآن ! وسأكون ، وأستطيع أن أحاول التنبؤ بما سأكون ، أو أن أتوهمه ! . . ومع ذلك أنا أجهل ما سأكون عليه ، أنا ، فى المستقبل ! وأنا هذه ، لا أجدها متعددة ، بتعدد التبدل والتغير والتقلب ، وإنما هى تظل واحدة بالذات ، متوحدة ، فى جميع الأحوال . . . رباه ! . . أنقذنى ، فكلى تناقض... وإن عصا سحرية لمستنى ، فلم أعد أنا ... بل ما زلت أنا . . . إنه السحر بذاته ، فهل هى ساحرة ! . . . وهل هذا من شعوذة السحر ؟ . . . وإذا هاتف يلقى فى روعه : أنه سحر الحب . . . والحب الصحيح لا يحتمل الشعوذة ! ففاتنتك ساحرة . . . ولكن ليس لها من الشعوذه أى نصيب ! وأنا ، فى ذاتك ، لم يتبدل جوهرها ! ولكن سحر الحب ، بدأ يدفعها للتكامل ، فى ذاتك ، لتتكامل فى ذاتك ، فظننت التفاعل تناقضاً . . . ولا خوف عليك إلا من الغفلة والجهل والغباء ! . . . فكن يقظاً ! . . .

وفيما هو يناجى ربه ، ويستغيث به ! . . وفيما هو ينصت خاشعاً ، لهاتف الفؤاد ، يخاطبه من السماء ! . . . وقع نظره على البدر بازغاً ، يختال فى هالة ، تتكون من نوره ؛ فاستغرق يتأمل فيه ، وغفل عن ذاته ! إنه لا يدرى ، أيصلح البدر ، فى حالته هذه ، موضوعاً لتأملاته؟ أم أنه قد أضاع هو صوابه ؟.. إنه البدر ، يراه كل شهر ، منذ سنوات . فما باله يرى فيه اليوم معانى ، لم يكن ينتبه إليها من قبل ؟ !. . إنه لم يكن يأبه للبدر ، إلا بقدر ما يأبه له سائر الناس ، وبدرجة اهتمامه بسائر المظاهر الطبيعية ، والأشياء . ولكن البدر اليوم ، أعظم قوة ، وأوفر إشعاعاً ، للمعانى والمغازى ، وأشد جاذبية من أى وقت آخر : إنه قد جذب قلبه ودماغه وفؤاده ، وجعله يدرك ما تعجز لغته عن التعبير عنه ! . . . أيكون بدر المحبين غير بدر سائر الناس؟ ! . . ولو علم أن السر فى التقاء العيون ، لغاب عن الوجود ! ! . . روحان تتعارفان ، على بعد الشقة ، بالتقاء النظرات ، يدفعها كل فؤاد ، سهاماً نورانية ، تمازج وتتفاعل ، فتمهد بها الحياة لذلك الائتلاف الروحى ، عند أول لقاء ! . . فتتعانق الروحان ، لتتكامل كل روح منهما بروح الآخر متسامياً إلى العلاء ، فتتحقق إنسانية الإنسان ، هدف الحياة فى إيجاد الأحياء ، ولله فى خلقه شئون ! . . .

علمنا أشياء عن قيس فى تأملات هند ! . . أفلا تطلعنا تأملات قيس على أشياء وأشياء ، تتعلق به وبمن يتجاوب معها عوامل الانجذاب ، فى حب إنسانى صحيح ؟ . . إن قيساً من أولئك الشبان الطائشين النافرين ، فى نظر الناس ، لما سيطر عليه من شراسة ظاهرة ، ومشاكسة ، قد تضيق بها الصدور . إنه عجول فى حركاته ، ومتسرع فى تصرفاته ! أخذ ينفر من المرأة ، ويحذرها ، منذ سنتين ، وقبل أن يتعرف بهند ! . . . وكان قراره أن لا يشرك فى حياته امرأة . . . أبداً ! . . . وأصبح لا يرى فى المرأة سوى وسيلة للعب والدعابة والمغازلة . . . فكانت حقيرة ، فى نظره ، وليست جديرة بأكثر من ذلك ! . . فما له اليوم ، وهو يكاد يعبد المرأة ، فى هند ، بعد أن أسرته بشدتها ، لا بلينها ، ولا بنعومة حديثها ، شأن أكثر الفتيات ، فى اجتذاب الشبان فى هذا العصر المائع ؟ ! . . ولم يكن قيس وحيداً ، بين رفاقه ، فى اتخاذ هذا القرار ، وفى احتقاره للمرأة !

عرف قيس هنداً ، منذ سنة . وكان يلتقى بها فى ساحات الجامعة ، وفى قاعات المحاضرات العامة . وكانت الزيارات العائلية تجمع بينهما أحياناً ، لما بين العائلتين من صداقة ، استحدثت ، بعد أن دخلت هند الجامعة ، بسبب مصاهرة

جديدة ، اقترن بها ابن عمها كريم ، بسلمى ابنة عم قيس .
حدثت قيساً نفسه ، أكثر من مرة ، أن يجرب مداعبة هند ، ومغازلتها ، كما يجرب مع فتيات اليوم ! . . ولكنه كان يرتد خائباً ، لرصانة كانت تتذرع بها ، ولخفر كان يحميها ويحرسها ! . . ولا يستطيع فتى ، مهما بلغت درجة استهتاره وإقدامه ، أن يجرؤ على فتاة ، تتذرع بالرصانة ، ويحميها الخفر ويحرسها ! . . وكان الطلاب ، وقيس منهم ، ينسبون إلى هند ومثيلاتها ، كبرياء الأنانية ، وجمود الرجعية . لأن الفتاة العصرية ، فى نظرهم ، هى الفتاة المتساهلة ، لاتأبه للحشمة ، ولا لما يستلزمه المجتمع ، من تحفظ وحياء ! . . ولو أدركوا أن هذه الأنانية ، على كبريائها ، هى أنانية مستملحة محمودة : « . . . إنها أنانية ثورة التحرر ، تكافح استكانة الاستعباد ! . . إنها ظاهرة من ظاهرات عبقرية الجنس فى النساء . . . »(١) وما هذه بالرجعية ، وإنما هى تجدد ما فى إنسانية الإنسان ، من مبادئ وقيم ! . . والفرق عظيم بين أنانية تحرر ، وأنانية تستعبد ... وبين رجعية تتجدد ، ورجعية تركد وتأسن ! . . فلنميز بين التقدم ، فى استمرار الإنسان ، وتجدد حضارته ، بالصلة بين العصور والأجيال . . . وبين

---

(١) « الحياة والشباب » ص ٢٠١ ، طبعة ثانية .

التأخر والتقهقر ، فى رجعية بالية جامدة ، تقطع ما بين روح الحضارة الإنسانية ، فى أجيالها ، وما بين الإنسان ، فى واقعه ، من صلات ! . .

لهذا ميز الخالق المرأة بعبقرية خاصة ، بجنسها فيها تنضج الفتاة قبل الفتى ؛ وبها تسبقه ، فى التكامل ! . . وبفضل هذه العبقرية ، ذاتها ، تتفتح زهرة الحب ، فى نفسها ، حباً خالصاً ، صافياً وصحيحاً . . . قبل أن تتفتح فى الفتى ! . . . ولعلها لا تتفتح ، فى نفس الفتى ، إلا بتأثير تفتحها عند الفتاة ! . . فهنيئاً لفتى تجده فتاته ! . . ويالشقاء فتى يضيع عن فتاته ، بما يشغله عن ذاته ، من طيش واضطراب ، وغرور ! . . ومن استهتار وفساد ! . . . وقيس أصبح سعيداً ، إذ وجدته فتاته ! . . واستمرار سعادته ، إنما يتحقق ، إذا لم يضعها ، استهتاراً ، وبفعل الطيش والفساد ! . . .

« هند ! . . إنها مقدسة ! . . كيف لا ؟ . . وكل رغبة تصمت فى حضرتها ! . . فكأنى أصبحت لها ، بكليتى ، أتمنى تلبية كل رغبة لها ، وكفى ! . . أو ليست لى رغبات؟ فما لها تصمت ، وكأنى ، تجاهها ، عدم ! . . عدم يهوى الوجود ، وهى وجودى ! . . بهذه الكلمات كان يناجى قيس نفسه ، على سرير أرقه ، وعيناه معلقتان بالبدر ، البارز وراء

النافذة . وما انبثق ، فى نفسه، خاطر مقاومة لهذا الضعف، وهو من عرفنا ، فى شدة مراسه ، وغروره ، حتى انتفض كل كيانه ، وارتعش ! فأدرك أن المقاومة لا تجدى، وأنه أصبح أسير حب لا مفر منه ! . . أراد أن يصيد ، على هوى طيشه وخفته ، فاقتنص ، كما يريد الحب الصافى ، فى سموه ورصانته وجده ! . . فأخذ يتأمل ، فى ذاته ، تأملا عميقاً ، لم يألفه من قبل... وهو من كان لا يفتأ يهتم بما هو خارج عنه ! .. ومن يدرى ماذا اكتشف قيس فى ذاته — وبالتأمل والعزلة يكتشف الشباب حقيقته ، فى الشابات وفى الشبان — حتى تأوه ، وقال بصوت المستسلم ، باطمئنان وحنين :

آه . . . لا أدرى ما الذى كنت أشعر به بقربها ! . . كنت أشعر باجتذاب غامض ، خفى عنى ، شهوراً . . . وها أناذا أدركه الآن ، وقد أوضحت حادثة ذلك الدرس القاسى الذى ألقته على ، منذ يومين ، إبهامه ، وجلت ما فى ذلك الشعور من غموض ! . . . كنت أمامها ، وأنا الذى لا يجرؤ أحد على معارضتى ، بله إرشادى ونصحى ، كالحمل الوديع ، يتملق صاحبه ! . . وأكثر من ذلك ، فقد كنت أجد فى حديثها ، على قسوته ، وشدته ، رقة تنعش روحى ! . . وحنيناً ينقلب معه كيانى ! . . ونعومة ، تتبدل بها ذاتى ! . . فما هو هذا

السحر ؟ . . سحرها ؟ ! . . ومنذ ذلك اليوم ، أصبحت أتشوق للقائها ! . . عفو الحقيقة ! . . فإننى ، فى وعيى لذاتى ، الآن ، أتذكر أنى كنت أتشوق إليها ، قبل ذلك ، ولكن لهيب الشوق ، تزداد حمياه ، منذ ذلك اليوم . . . الشديد القاسى ! ! . . . بل العاطف السعيد ! . .

نعم إنه سعيد ، يستمر امتداده إلى هذه اللحظة ! . . وما أروعه مستمراً إلى الأبد ! . . . فى هذه الحياة ! . . وبعدها ! إنه يوم سعيد ، ولا أستطيع أن أتصور أنه يوم كان ، وحسب ! إن سعادته ، تستمر متغلغلة فى كيانى ، على عنفها ! . . وما يضر السعادة أن تكون عنيفة تهز القلب ، فيهتز ، بهزته ، وجود الإنسان ! . . . ما أروع ذلك النور ، يشع من عينيها الشهلاوين ، فيبدد ظلام روحى ، وغرورى ! . . وقد كان الغرور ظلاماً يرين على قلبى ! . . وما ذلك اللحن الجميل ، طرب له قلبى ، فاهتز ، واهتزت بهزته تلافيف الدماغ ، فانقلبت الأعصاب أوتاراً تردد ذلك اللحن الجميل ، يلازم عباراتها ، على عنفها وشدتها ، فترفعنى موسيقاها القوية ، إلى الأعالى ، فأنجو من تشويش أفكارى ، ومن أوهامها؟ ! . .

نظراتها ، نظرات بلسمية ، تشفى ما فى النفوس من جراح مهما قست فى تصويب السهام ! . . فجراح سهام العيون ،

تشفى جراحات النفوس والقلوب ! . . ولوم عنيف ، ينقذ من تشويش وأوهام ! . . ومن شأنه ، فى مثل عنادى ، أن يزيدها ! . . فاعجبوا يا ناس . . إنها المتناقضات ! . . ولكنها ليست الذروة منها ! . . فأنا أسير ، تيمه الحب ، واستعبده ! ومع ذلك ، فإننى أتنفس الحرية بملء رئتى ! . . فاعجبوا من أسر يحرر ، ومن استعباد يتحرر به الإنسان . . . وإياكم أن تسخروا ! . . فهو الحب ، يقلب الأوضاع ، فيجعل الداء دواء ! . . صدقونى أننى كنت أعتقد ، قبل أن أسرنى الحب ، أننى كل ما يمكن أن أكون ! . . ولكن ما كادت عصاه السحرية تلمسنى ، حتى أصبحت أشعر أننى أتسامى على ذاتى ، ولا أزال ، لأننى صرت ممن يعتقدون بلانهائية التسامى ، فى إنسانية الإنسان ، وتوحيده ! . . فمرحى لمن تجده فتاته ! . . ولا يضيع عنها ! . . فهى التى يدفعها الحب الخالص الصادق لمساعدته ، فى تفتح زهرة الحب الصحيح . . . وهو حب منقذ محرر ، فى نفسه ! . . إنها الأم ، فى صميم طبيعتها . . . وبهذه العاطفة تكلأ فتاها بعنايتها ! إنها تحلم بالأمومة ، وبالبيت الذى ستنشر فيه الغبطة والطمأنينة والسعادة ، فتشع فيه نوراً ، يستضىء به رجلها ، فى مهامه الحياة ، فلا يضل سبيله ! . .[1]

---

(١) «الحياة والشباب» ، الطبعة الثانية ص ١٩٨ .

وقيس يشعر فى صميم ذاته ، أن فتاته قد وجدته ، لأنه حريص على أن لا يضيعها ! . . إنه وقد وعى لمن تتكامل بها ذاته ، بعد أن شعر بدوافع التحرر والتحفز والسمو ، فى بواعث الحب الصحيح ، أصبح جزءاً من أن لا تبادله هند عاطفته ، فتصبح الدليل المضلل ! . . وفى لحظة هذا الشك ، فى أمانيه ، وقد أصبحت ، فى كيان ذاته ، عنصراً مكونا من عناصر أناه الجديدة ، أحس بانتفاضة قوية ، وكأن تياراً كهربائياً لمسه ، فقام من سريره ، مندفعا إلى النافذة ، يتأمل فى مغريات البدر ، فى تلك الليلة ! . .

ماذا يغرينى بالبدر الليلة ! . . إنه أنيس المحبين ! فليكن أنيسى ! . . . ولكن ما هذا الإشعاع المتوهج فيه ، أشد مما ألفت ؟ . . وما لهذه الهالة الحلوة ، تستمد من قلب المحب ، أى من قلبى ، صفاءها ، وسعتها ؟ . . رباه ! . . إنها هند ! تحولت بدراً ، تكلل رأسها هالته ! . . ما أروعها فى عليائها تسطو على البدر ، فتستولى على كيانه ، وتحوله ذاتاً لها ، وتغنم الهالة ، مستأثرة بها ، وحدها . . . ألا تفكر بقيس ؟ ! . . ومن قيس ؟ ! . . إذا ظل بعيداً عمن أصبح لا يجد الراحة إلا بقربها ؟! . . إنها تنظر إلى . . إنها تشير بعينيها إلى الحرج ، حرج الصنوبر . . .

تذكر قيس ، فى هذه اللحظة ، أن نافذة غرفته ، تطل على ذلك الحرج ! فالتفت إليه ، وأخذ بروعة النور ، ينعكس على شجر الصنوبر ، فيغمر الأشجار كلها ، ويقتبس من أوراقها اخضراراً ، يمزجه بلونه المتلألىء ، فينقلب نوراً مختلطاً مؤتلفاً ، يشع إشعاعاً خفيفاً ، ينعش القلوب ! . . والأفئدة ! ولا سيما قلوب المحبين . . . وأفئدتهم ! . . ولم يتبين ، أكان لون ذلك النور المزيج ، هو نور مخضر ، فى بياضه ، أو مبيض فى اخضرار الشجر ؟ ! . . ولم يهمه أن يتبين ذلك ! . . وكل ما تحرك به خاطره ، هو هذا التعجب الهادى : ما أروع جمال امتزاج الألوان المؤتلفة ! ! . . وما وردت هذه العبارة فى خاطره ، حتى ارتجف ، وقال : فكيف بالحب إذا جمع بين أليفين ، فامتزجت بهما ألوان الحياة ؟! . . ثم التفت ثانية إلى البدر ، فرآه هنداً ، تشير إلى الحرج ، فوقع فى روعه ، أنها رسالة من الحبيب ! . . .

هم بأن يقفز من النافذة ، ناسياً شبكة الحديد ، وكاد يصدم رأسه بحديدها ، لولا أن سبقته عيناه فقفزت إلى الأرض ، فأشغل بما تريان : ظلال الشجر مع انعكاسات أشعة البدر ، تنفذ من فرجات تلك الأشجار ، فتكوّن مشهداً جميلا ، يمتزج به النور بالظلام ! فارتاح قلبه لهدوء هذا المزيج ، ولسكون

معنى الحياة فيه ، فانبثق ، فى نفسه ، أمل هادئ جميل : فالحياة لا تكون أكرم على الطبيعة ، منها على الإنسان ! . . فمن يؤلف بين النور والظلام ، مع ما هما عليه من تناقض ، لا يعجزه أن يجمع بين روحين متجانسين ، بل جزءى روح لا يكمل أحدهما إلا بقسيمه ! . . هند هى روحى ، هى حياتى ، هى كلى ، ولا أعلم ماذا أحب فيها ! . . إننى أحبها ، كلاً ، لا تجزئة فيه ! فلذلك أريدها ، كلاً ، يمتزج بكليتى فلا نعترف بتعدد ، ولا تجزئة ! . . هل تكونين لى ، يا هند ! بكليتك ، كما أصبحت لك ، بكليتى ؟ ! . . هل نهنأ معاً فى حياة مشتركة ، لا تزول ، ولو زالت السموات والأرضين ؟ !

وما بلغت اندفاعات خواطره هذا الحد ، حتى تراءت له هند ، تنزلق على أشعة النور ، حتى تصل إلى أرض الحرج بين الأشجار ، تتأمل فى تساوق الظلال مع نور البدر ، ثم تنظر إليه ، وبقوة سحرية وجد نفسه بجانبها ! . . وفيما هو يهم بالركوع أمامها ، ليستغيث بها ، منها . . . رفعته بيدها وهى تقول : ما أذل الحب الصادق حبيباً ، ولا رضى بأن تلحق به أية إهانة ! . . فاحتفظ بإبائك ، وحافظ على كرامتك ، فالحب الصحيح إباء وكرامة وتحرر ! . . .

وفيما هو يحاول تقبيل يدها ، فاجأهما السحاب ، وحجب

البدر ، فلا نور ولا ظلال ، ولا بياض ولا اخضرار ! فأخذ يفتش عن هند ، فإذا هو أمام النافذة، منقبضاً مشدوها ، يؤلمه فراق الحبيب ، ولو شبحاً ، فأخذ يقول : إذا كان الأثير عذيراً ، تتهادى فيه الرحمة ، فالسحاب عذول قاس ، لا يرحم ولا يشفق ! . . ثم التفت إلى مكان البدر ، وراء السحاب ، وناجاه بقوله : رأيتها فيك ، وكنت ، ولا تزال ، ملجأ المحبين ! وإن روحها الجميلة ، كلها ، كانت تنعكس فى عيونها الشهلاء وقد أصبحت رمزاً لتلك العيون ! . . .

٣

فى عالم الأحلام

يخطئ من ينكر على الأحلام تأثيرها فى تفاعلات الحياة ، ولا سيما فى مراحل الشباب . فهى ، سواء أكانت أحلام يقظة أم أحلام منام ، تعبر عن حالات ، تكون نتيجة لانفعالات النفس وتفاعلاتها . وإنها ، على كل حال ، تعبير ، قد يؤوّل ، إذا انتقلت صوره المتتالية لوعى الإنسان فى يقظته . وقد لا يحتمل التأويل ، إذا ما التبست صوره واختلطت ، فكانت أضغاث أحلام . ولا سبيل لتأويل حلم ، غابت صوره عن وعى رائيه . والتعبير فى الحلم هو تعبير رمزى ، ولذلك احتاج إلى التأويل . وحلم اليقظة ، على ما رأينا ، فى تصورات هند وقيس يكون عادة أوضح من أحلام المنام . وإذا ما لازم هذه شىء من الوضوح ، فلاتصالها بتلك ، فى حالة نشاط للفؤاد ، يبرز فيه الكامن ، بشكل يقرب كثيراً من الوضوح . والرمزية فى الأحلام ، قد تبعدها عن الوهم ، وإن اشترك فى تكوين صورها الخيال . والوهم ، هو بوجوده ، الحد الفاصل بين أضغاث الأحلام ، وبين الأحلام التى تتصل بواقع الحياة ، وبتفاعلاتها

فليس كل خفى وهماً ، وليس كل واضح حقيقة . والوعى ، إنما هو فى التمييز بين حقائق الأشياء ووهمها . ففى الأحلام ، إذن حقائق ، قد يثيرها الحدس ، فتتصل بمستقبل الحياة ، تنبؤاً ، قد يخطىء ، وقد يصيب . وهذا ما يبتلى به المحبون ، حتى إنهم ليتعلقون بالأحلام ، تعلقاً غريباً ، وقد يؤمنون بها ، إيماناً شاذا ، يتجاوز المعقول . ولا غرابة ، فانفعالات الحب ، إذا ما انحرفت ، تتصل بالأوهام ، فيجمح بها الخيال . ولعلنا ندرك شيئاً عن صلة الأحلام بواقع الحياة ، وبتفاعلها معها ، إذا ما قصصنا حلمى هند وقيس ، فى نومهما ، فى تلك الليلة ، بعد أحلام فى اليقظة ، قد قصصناها ، فيما تقدم .

فهند لم تستسلم ، بسهولة ، لبواعث النوم ، بعد أن تركت الشرفة لانحجاب نور القمر . وقد كان سخطها على السحاب ، ذلك العذول السمج ، يصارع خوفها على قيس ، يتخبط فى عرض البحر ، ويصارع أمواجه ! وما زالت تتقلب ، على فراشها ، صريعة تجاذب عنيف ، بين ضغط النعاس ، وبين مقاومة الأرق . وكل منهما يتخذها ميدانا لصراعه فى التغلب على خصمه العنيد ! وكانت الغلبة ، لسلطان النوم ، أخيراً ، لما أصاب أعصاب هنداً من إعياء ، بلغ حد الإجهاد ! . . .

استسلمت هند لسلطان النوم ! ومن يستسلم لسلطان

النوم ، ولاسيما إذا ما استسلم قهراً ، يستسلم ، حكماً ، لأحلامه سواء أكانت أضغاثاً ، أم وقائع للذات ، فى داخل الذات ، بسبب بواعث ، تستثير كوامن الفؤاد ! . . فهى حياة ثانية فى عالم آخر ، لا يتجاوز حدود الذات ، ولكن يمتد ، فى تصوراته ، إلى ما وراءها ، وأمامها ، وسائر جوانبها . فهى تصورات تكتنف الذات ، فتتصل بواقعها . . وقد تمتد لمستقبلها ، كما قلنا ، تنبؤاً مفترضاً . . . ربما كان أكثر صفاء فى بواعثه ، من تنبؤ اليقظ ، عند ما يفكر فى قضاياه وفى مشاكل غيره ! . . فهى محاكمة للروح ، قد تتحقق نتائج رؤاها ، فى واقعها اليقظ ، وقد تذهب بها رياح اليقظة ، كما تذهب وقائع الحقائق ، بما يجمح به الخيال ، من رؤى وأمان وآمال ! . .

تسلسلت الرؤى ، فى نوم هند ، كما يفرض أنها تتسلسل فى نوم كل نائم . ولكنها لم تع ، حسب طبيعة الحياة ، فى النائمين ، إلا للرؤيا الأخيرة ، وقد استيقظت عندها ! . .

رأت هند فيما يراه النائم ، أنها لا تزال على الشرفة ، تراقب قيساً يتخبط فى هذا البحر الصاخب ، ويعارك أمواجه المتعالية لهبوب عاصفة هوجاء ، هيجت كوامنه ! فلم يعد ذلك البحر الهادئ ، على ما عهدته فى حلم اليقظة ، ووعيها ! . . ما الذى

أرسل هذه العاصفة ، ودفعها إلى استثارة هذا الخضم الساكن ، فاضطربت أمواجه ، وهاج وماج ؟ ! .. لعله عذولها السحاب ، وهو إنما حجب عنها نور القمر ، ليحجب معالم قيس ، ويعمل على الفتك به ! . . كلا ! لن تستطيع ، أيها العذول الوقح ، أن تقضى على الحبيب ، وأنا على قيد الحياة ! . . وألقت بنفسها من الشرفة ، فإذا هى فى زورق ، موثقة حباله ، فى فجوات صخر مرتفع ، فقطعت بيدها تلك الحبال الثخينة ، المشبعة بمياه البحر ، بقدرة عجيبة ، لا يبعثها فى الإنسان سوى الحب ! . . الحب الصادق المخلص ، مانح القوى ، والقدرات ، وموجد العجائب والمعجزات ، فى اليقظة ، وفى المنام ! . . وفى الأفراد ، وفى الأمم ! . . .

أخذت هند تجذف ، دافعة الزورق بمجذافيه ، وبساعديها وهمّها ، وبحبها وقلبها . . . وما زالت تصارعها الأمواج ، ترتفع بالزورق وتنزل ، وتعلو به وتنخفض ، بسرعة عجيبة ، علها تحطمه ، أو تلقى عنه هنداً ! . . فما نالت الأمواج مأرباً ! وظلت هند تصادم البحر ، وتكافحه ! وخوفها على حبيبها يشدد من عزيمتها ، ويرفع همتها ، ويبعث فى كيانها القوى ، حتى بلغت ميدان كفاحه فى عرض البحر ، فوجدت قيساً على آخر رمق ! . . فألقت بنفسها عليه ، ورفعته إلى الزورق !.

وإنها لا تدرى كيف تركت الزورق ، ولا كيف عادت بحبيبها إليه ! .. فللحب عجائب ، لا تدركها العقول !.. وما زالت تعارك ذلك الخضم المائج ، فى عودتها ، وقد زادها وجود الحبيب قوة واقتداراً ، تتحدى معهما قوى الدهر ، حتى وصلت إلى الشاطئ الأيمن ! . . وهناك أخذت تعالجه ، حتى استيقظ من غيبوبته ، وفتح عينيه ، فشع منهما نور الأمل ، مستبشراً ، فصرخ قائلا : أنقذتنى من الموت ، فشكراً لك يا آنستى .. بل يا حياتى ! . . أنا لك فكونى لى ! . إنك روحى ! . . وأنت وحدك ، وجودى وأملى ! . . يا حياتى ! . .

وما سمعته يردد كلمات : أنت أملى وروحى ، وياحياتى . . . حتى غابت عن الوجود ! وفى غيبوبتها استيقظت ، من منام أرهقها ، وأحيا فى نفسها ميت الأمل ! . . . وكانت الابتسامة تغمر شفتيها ، وعينيها ، ووجهها ، وتهز كل كيانها .. إنها أنقذت قيساً ، وهو الحبيب وهو الأمل ! . . ولكن هل تتحقق الأحلام ؟ ! . . وفى سنوح هذا الخاطر ، تحولت الابتسامة عبوساً ، بدت معه أعراض التعب والإعياء . . .

أما قيس فقد قهره سلطان النوم ، كما قهر هنداً ، فى تلك اللحظة ، بعد أرق محبب ، كان يتمثل به شبح الحبيب ! وما انتقل لعالم المنام ، وهو من عوالم الفؤاد ، حتى دهمته

الأحلام ، وكانت كلها غامضة ، إلا ذلك الحلم المفجع ، وهو الحلم الأخير الذى استفاق عند فاجعته ! وقد حاول أن يعود لنومه ، ليستكمل ، على زعمه الرؤيا ، علها تنتهى إلى خير مما انتهت إليه ، ولكن ! . . . هل تجد كل أمنية لدى الحياة جواباً ؟ ! . . وفى تمنى المستحيل يتجلى الجهل والذهول ! . . .

رأى قيس فيما يراه النائمون ، أن البدر لا يزال بازغاً ، يرسل أشعته الفضية على الكون . وأنه هو لا يزال ممسكاً بيد هند ، يحاول تقبيلها ! .. ولكن هنداً رفعت يدها بلطف قائلة : لا تستعجل الأمور ، يا قيس ، فى العجلة الندامة ! . . فتراجع قيس ، منكسراً مضطرباً ، يسود نفسه القلق ... ثم عرض له خاطر التخوف من غضب هند ، فأخذ يعتذر ، على استحياء : عفواً هند ، فلم أقصد الإساءة ! . . ويوجعنى ، فى قلبى ، ويؤلم نفسى أن تسيئى الظن بمن يخلص لك الود . . وال . . حب . . . قالها بتردد الخائف ، وأردفها حالا بقوله : والاحترام ! . . .

فابتسمت هند ابتسامة الإشفاق والعطف والتدله ، وأجابت : بى مابك يا قيس ، ولكن ! ... ليس من الجائز أن نستبق الحوادث ! فمن عجل بالأمر ، قبل أوانه ، عوقب بحرمانه ! . .

دوخت قيساً عبارة هند : «بى ما بك» ، وغيبته عن ذاته ، وعن كل موجود ، إلا هى ، فوجم برهة ، ولم يعد قادراً على

الكلام ، ليعبر عما فى نفسه ، حتى فكت هند عقدة لسانه بقولها : مالك تخشى الحب ، فتقف عند مظاهر الجسد ، فى تعبيرك عن حالاته ؟ ! . . فأسرع بالدفاع عن نفسه قائلا : مهلا هند ! لا تقسى على ! . . فلا يقف عند مظاهر الجسد فى تعبيره عن حبه ، إلا الجبان الدنىء الفسل! وإن حبى أعمق مما قد تظنين ، فى تأويل حركتى هذه ! . . إننى أحبك حب كل لكل ، وهل الكل سوى الجسد والروح معاً ؟ ! . . وإلا فما معنى الزواج الذى ينتهى إليه كل حب صحيح ؟ ! . . . .

اصطبغ وجه هند بحمرة الحياء والخفر ، وكأنها قد ندمت على ما تسرعت به من التصريح عمّا فى فؤادها من حب ، وجوى ! . . فوجدت لنفسها مخرجاً فى التعليل التالى : أحسنت بقرنك فكرة الزواج ، إلى تصورك الحب حب كل لكل ، وأن الكل جسد وروح . . وأزيدك أن الزواج هو ، فى الحب الصحيح الصادق ، امتلاك كل لكل ، امتلاكاً شرعياً متبادلا . فلا يصح ذلك الامتلاك المتبادل ، ولا سيما فيما له علاقة بالجسد ، قبل أن يتم عقد الزواج ، وهو يعنى شركة فى الحياة . ولذا اعتبره علماء الاجتماع الشكل الاجتماعى للحب الصحيح . وإذا كان إنفاذ معاملات أى شركة ، لا يصح ولا يجوز ، إلا بعد عقد تلك الشركة عقداً شرعياً ، فإن

شركة الزواج أولى بأن تتقيد بهذا الشرط الأساسى ، لتسلم حياة الزوجين من المآسى والفواجع ! . .

ولكن ، ألا يسبق الحب الزواج ، يا هند ؟ . . وإلا فكيف يتعارف الحبيبان ؟ . . ويتآلف الجنسان ، لتكوين البيت ، وتأليف العائلة ؟ ! . . فابتسمت هند ، وقالت : ينشأ الحب الصحيح فى النفس ، أولا ، وينمو فى خفقان القلب وهزات الروح . . ثم يستكمل نموه جسدياً . . . وعندئذ يجب أن يتم الزواج . . . ولا يمكن لحب ، ينمو هكذا ، نمواً إنسانياً طبيعياً ، أن يعرض كرامة أى من الحبيبين للهوان والأذى ! . . فحب الروح ، وقد تكوّن فى الذات ، يحمى ذاته من دنس الميول الجسدية ورجسها . . فيضحى المحب الصادق بكل شىء فى سبيل شرف الحبيبة وكرامتها ! . . وكلاهما يغار على أن يظل الحب صافياً لا تشوبه شوائب الانزلاق ! . . . ودليلى على طبيعة هذا السلوك ، فى الإنسان ، أن المرأة لا تفكر فى الميول الجسدية الجنسية ، ولا تشعر بها ، إلا حين يفسدها الرجل ! . . .

صمتت هند . . وصمت قيس ، يفكر ، ثم تراءى له أنه سألها : وما الفرق بين حب يبدأ نموه فى الروح وحب يبدأ نموه فى الجسد ؟ ! . . فأجابته بقولها : لا تقل حبا

إذا ما بدأ الانجذاب جسدياً ، فإن هذا هو الهوس ، وهو حب مزيف[1] ، يطرد إمكان نمو الحب الصحيح ، فيسهل فيه على مدعي الحب ترك من يهواه . . ومن هنا تنشأ الفواجع ، والمخازى ، فى المجتمعات ! . . ويا ويل مجتمع ينهار فيه عفاف فتياته ، بجهلهن ، أو بإغراء فتيانه ! . . إنه مجتمع منهار ساقط ، لا يصلح لغير الذل ، ولا يكون جديراً بغير الاستعباد ! . . فالحب الطبيعى الصادق ، فى جميع أشكاله ، هو سر عظمة الأمم ، وباعث أمجادها ! . . .

لم تتراءَ لقيس قدرته على امتلاك هذا الكنز العظيم ، حتى أخذته نشوة الظفر . . . وفى خشيته من فقدان هذا الكنز ، وارتيابه بتطورات الحياة ، أراد أن يثبت ظفره ، ويؤكده بوعد صريح ، فناجى الحبيبة : أو تحبيننى يا هند ؟ . . . فكانت نظرة الإيجاب ، فى ذوات الخفر ! . . وهل تعاهديننى على الزواج ، فتكونين لى ، كلا لكل ، وأكون لك ، كلا لكل ، وإلى الأبد ! . . .

فأجابته ، أعاهدك على أن لا أكون لغيرك ، أبداً ! . . . فهاله الجواب ، وبعث فى نفسه الشكوك ، وأخذ يرتجف ويرتعش ، وأراد أن يستزيد جوابها وضوحاً ، فإذا يد جبارة

---

(١) «الحياة والشباب» ، ص ١٩١ ، الطبعة الثانية .

تمتد فتنتزع هنداً ، من جانبه ، بقوة قدير ! . . لم يدرك أين ذهبت اليد بهند ، فأخذ يركض فى كل جهة ، وهو يصرخ معولا : هند ! هند ! . . فلم يجبه سوى الصدى . وعلى رجعه استفاق ، وكأنه لا يزال يصرخ مردداً : هند ! . . هند ! . . أين أنت يا منى القلب ! . . .

٤

بعد الأحلام ! . . .

فى دور البلوغ ، يتخذ النمو اتجاهاً جديداً ، هو التمايز . ويستمر هذا الاتجاه إلى انتهاء أدوار الشباب . فيستقر كل فرد ، فتاة كان أم فتى ، راشداً متميزاً عن سائر الناس ، فى ميزات عدة ، تختلف حسب أجواء النمو ، ومتفقاً معهم فى سائر الصفات ، حسب أوضاع المجتمع . وفى استكمال هذا النمو طبيعته ، يتحقق تكوّن الأمة تكوناً منسجماً مع النظرية القائلة : « الأمة وحدة فى الاختلاف » . وتحيق الأخطار بالمجتمعات ، وبالأمم ، فى هيئاتها ، وكياناتها ، وأفرادها ، إذا ما قدر للنمو الجسمى ، بسبب أوضاع المجتمع وجهله ، أن يسبق النمو الذهنى ، فى الشباب . فى الغلو بالاهتمام بالنمو الجسمى ، مع إهمال النمو الذهنى والإدراك الذاتى ، يفسد الشباب . ولا يمكن أن يتحقق التوازن بين النموين ، الجسمى والذهنى ، إلا بوعى الشباب لذاته ، فى تأملاته الذاتية ، منطوياً على ذاته ، ليكتشفها .

ووعى الشباب لذاته ، فى انطوائه وتأملاته ، هو عامل استقطاب ، يحقق به ما يرغب فيه ، فى أعماق ذاته ، من توحيد ما يكتشف فيها من إغراآت وإمكانيات متعاكسة ! فلا يريد أن يحذف منها أى إغراء أو إمكان لئلا تتحقق ذاته ، أو أناه ، ناقصة ! . . وهو الراغب فيها كاملة ، لا يختل فيها ، فى تناقضاتها ، ولو ظاهرياً ، أى اتزان ! . . لذلك ترى الشباب الواعى يميل للانفراد والعزلة ، متحفظاً من الحياة الخارجية ، لئلا يصبح أداة انتهاز للوصوليين ! . . فهؤلاء يشغلونه ، بما هو خارج ذاته ، ويفقدونه وعيه ، أو يقفون دون تحقيق هذا الوعى فى نفسه . يريدونه لهم ، ولمآربهم ، فلا يتركون له مجالا للتأمل والتفكير . وإنما يعملون على استفزازه وإثارة انفعالاته ، بسحر الألفاظ ، وبفتنة المظاهر ، وسراب الآمال ، بالضرب على أوتار أعصاب الحس ، فيشلون بذلك أعصاب الحركة ، وهذه وحدها القادرة على تكوين رجال الأعمال ونسائها ، فى حين تكوّن تلك القوالين الثرثارين ، من أدعياء الأنوثة والرجولة فى الناس ! . . فإذا ما أثارت أعصاب الحركة أعصاب الحس ، وأشرفت على نشاطها ، بتفكير واقعى عملى ، تكوّن الإنسان المتزن المتكامل ، وهو إنسان الحكمة والرصانة والإنتاج !! . . وبه تتقدم الأمم ! . . .

وقيس كاد يفسد، ويضيع ذاته ، لولا أن تداركه الحب الصادق بعنايته ! . . والحب الصادق الصحيح إنما يكون ، فى نشاطه ، وثبة نحو المستقبل ، فلا يأبه للحاضر وشهواته ! واتجاهاً نحو المثل العليا ، يستقيم ، فلا يلتوى ، ولا ينحرف . . . والحب خير مثير لوعى الشباب ، العامل الفاعل فى استقطاب الذات .

لم يكن قيس ليتأمل فى ذاته ! ولم يكن ليستطيع الانطواء على نفسه ! . . لأن مستغلى الشباب استغلوه فيما هو خارج عن ذاته ، من ألفاظ تعبر عن مبادئ ، لا يدرك كنهها ، ولكنه يؤخذ بسحرها ، لكثرة ما حُشِيَ بها ذهنه ، حشواً . . فى البيت ، وفى الشارع ، وفى مناهج المدارس التقليدية ، وامتحاناتها ! . . فهى فكرات ، سبقت نموه ، فكانت أداة استغلال رخيصة ، لغيره ، لأنها لم تكن إنتاج حرث نفسى صحيح ! . . .

تأخر وعى قيس ، وقد أتم الثالثة والعشرين من عمره . . . وما كان ليعود لذاته ، فيعيها ، لولا أن وجدته فتاته . . . قبل فوات الأوان ! فأثارت كوامن الوعى ، فى أعماق فؤاده ! . . وكثيراً ما يتأخر الوعى ، فى الفتيان ، ويندر تأخره فى الفتيات ! فقدر لهن أن يكن هن الموجهات المرشدات ، وأن يقفن ، بفعل

عبقرية الجنس ، دون انتشار جراثيم بواعث الإفساد ! . . .
وقد حبتهن الحياة بكل وسائل الإنقاذ ! . . ولكن . . إذا
ما قضت أوضاع المجتمع ، بانحراف الفتاة ، انحرفت عبقرية
الجنس فيها ، واشتد الفساد والوبال ! . . شأن كل مبدأ سام
ينحرف عن حقيقته ! . . فيشتد فساد المجتمع ! . . .
بمن هيأتها الحياة لإصلاحه ! . .

فلا غرابة ، وقد وجد قيس ، فى نفسه ، آثار الحب
المنقذة ، المحررة ، أن يتعلق ، بمن أحب ، تعلق المريض
بطبيبه ! فهو لم يكد يستيقظ ، صباح ليلة الأحلام ، حتى
أخذته الرعدة ، خوفاً على ذلك الحبيب ، وقد انتزعته تلك
اليد المجهولة ! . . .

لم يتناول طعاماً ! بل أسرع فى اكتساء ملابسه ، وهرول
إلى الجامعة . آملا أن يجد هنداً ، على عادتها ، صباح كل
يوم مدرسى ، على ذلك المقعد ، تظلله شجرة الصنوبر ،
تفكر ، وتتأمل ، بانتظار بدء الدروس ! وكثيراً ما كانت
تبكر ساعة قبل موعد العمل المدرسى ، لتتمتع منفردة ، فى
تأملاتها ! إن مقعدها الطويل ، يطل على مناظر فاتنة ، منوعة ،
من حرج ، وبحر ، وملاعب ، وغيرها . وما كان يؤذيها سوى
أن يشاركها فى مقعدها هذا ، فى ذلك الوقت الهادئ ، ثقيلة

أو ثقيل، من الرفاق ! . . فى أى شىء كانت تفكر هند ! . .
إنه لسر يلازمها منذ دخلت الجامعة ! . . وسنعلم نبأه بعد حين .

لم يجد قيس هنداً ، فى مكانها ، ولم تكن لتتخلف عن التبكير إليه يوماً ! . . فضاع صوابه ! . . وأخذ يعد الثوانى ، والدقائق ، وهو يبعد عن المقعد ، ويقترب ، ولا يستطيع الجلوس عليه ، أو على غيره ! . . والخبثاء من الرفاق ، يفسرون ويتأولون ! . . ولا يجرؤ أحد منهم ، أن يتقدم إليه بحديث ، أو بسلام ، للاضطراب البادى على محياه ، وحركاته ! . . وهو من يعرفون فى حدته وشراسته ! . . ولو اقتربوا لأدهشهم ، ذلك الحمل ، بوداعته ، ورصانته ! . . ولأدرك الشباب ، فتياته وفتيانه ، فعل سحر الحب الصحيح فى النفوس ! . . . وعلى كل فإنهم سيعملون ! . . .

مرت الساعات كلها ، إلى الظهر ، ولم تأت هند ! . . ولم يكن ليجرؤ على سؤال أحد عنها ! لا لخوفه من الناس ، فإنه ما كان ليأبه لما يقوله الناس ، ما دام يعبر عن حالات ذاته ، أو يتصرف حسب أهدافه ! . . ولا يزال ! . . ولكن لخوفه على سمعة هند ، وقد أصبح يغار عليها ، أكثر مما يغار على نفسه . فقد رفعها الحب ، فى نفسه ، إلى مستوى المعصومات من القديسات ، ولم يعد يتمنى لها سوى الازدياد فى السمو ،

والعفة والطهارة ! . . غلّت ذاتها ، فى ذاته ، وأصبح يتألم لما قد يؤلمها ، ولو توهما ويفرح لما يظن فيه فرحها . . . ولا يألو جهداً فى تحقيق مسراتها ! . . لا يهمه أن تكون على علم بذلك أو لا تكون ! . . ويكفيه أنه يرتاح لحالته هذه، وقد أصبحت من أنجع بواعث مسراته ، ولا يتمنى لحالته هذه سوى شىء واحد، هو أن ترضاه هند شريكاً لحياتها . . . إذ يرى فى تحقيق هذه الأمنية ، استكمال حياته ! . .

احتار قيس : أين يذهب؟ . . ولكنه ، على غير وعى منه ، وجد نفسه فى بيته ، أمام أمه ، وهى تخفف من ملابس الزيارة ، لتستبدل بها ملابس البيت . وما رأته حتى سألته : لم تتناول طعام الصباح اليوم ! يا حبيبى ! . . فأجابها ، وقد أخذ يقبل يديها باحترام البنوة ، وتقبله بحنان الأمومة : أسرعت لموعد ، خفت أن يفوتنى ! . . فابتسمت ابتسامة من لا تخفى عليها مواعيد الشباب ، عندما تتفتح ، فى نفوسهم ، زهرة الحب ، وقالت : أرجو أن لا يكون من المواعيد الخطرة ! فتنهد قيس ، وقال : ما زلت تحذرينى من المواعيد الخطرة ، وقد كدت أقع فى شركها ، لولا أن يسرت لى العناية الإلهية من أنقذنى منها ! كنت أعلمك عن كل شىء ، لأنك أم تفتح لابنها ، قلبها ودماغها ، وتوسع له صدرها الفسيح !

وكانت أم قيس مثقفة، تدرك معانى الحياة، وتتفهم ماتتميز به أدوار الشباب من أحوال . فاستطاعت بفطنتها ، وحكمتها ، فى وثبات عبقرية الجنس ، تمتزج بعاطفة الأمومة ، أن تجعل من نفسها أمينة سره ، جديرة بثقة ابنها الشاب الطائش ! وقد كان لتوجيهاتها الهادئة أثر فعال فى إقالته من عثرات وعثرات ! . ومن تنبيهه لأخطار وأخطار ! . . ولكنها لم تكن تعلم بهذا الشرك الذى حدثها عنه ، وداخلها الحذر ممن أنقذه منه ! . . لعل المنقذة تكون هى نفسها، شركاً جديداً ، يعرض ابنها للمشاكل والمخاوف ! . . هلع قلب الأم ،وهل يهلع قلب الأم، وتضطرب أعصابها، فى حالات هى أشد من حالات تخوفها على ابنها ؟ ! لذلك سألته ، وهى تحاول امتلاك أعصابها : ما هذا الشرك ، يا حبيبى ! . . ومن أنقذك منه ؟ فأجابها : عفواً ، أماه ! . . فقد أخفيت عنك هيامى بفاتنة . . ثم علمت عنها ما يخيف . فجرت حادثة شعرت معها بمعنى الحب الصحيح ، وأصبحت أدرك الفرق بين هوس ، يدفع لتلبية شهوات الجسد ! وبين حب ، يرفع الذات ، ولا يحرمها ملذات الروح ، والجسد معاً . والذى ثبت جنانى أننى أصبحت أكثر إدراكاً لمعانى كلماتك ، فى وصاياك الحكيمة ! . . فابتدرته الأم : ولكن ، ألا تخشى أن يكون الشرك ، فى الثانية ، أحكم ارتكازاً

من الأولى ؟ . . قل لى ، بحق حبى لك : من هى المنقذة ؟ ! ..
فأجابها : لا أكتمك شيئاً ، يا أماه ، إنها هند ! . . وقص
عليهاخبره ، دون أن يخفى عنها أدق مايعتلج فى صدره من خواطر !

سمعت الأم حديث ابنها ، بانتباه واهتمام . ولم تكن تخفى
سرورها مما تسمع ! وما انتهى من حديثه حتى تنهدت تنهد
من يشعر أنه قد أفرج عنه ، وقالت : هنيئاً لك إن رضيتك
هند شريكاً لحياتها ! . . عيونى هند ! . . . كنت فى
زيارة أمها ، وأنا آتية من عندها الآن . وهند فى فراشها ،
لوعكة أصابتها . وقد علل الطبيب تلك الوعكة بأرق أصابها الليلة
الماضية ، لسوء الهضم ! . . وأشار عليها بالاستراحة يومين ،
أو ثلاثة ! . ولكن قل لى : أكان حبك لهند مفاجأة ،
أم كانت له ممهدات ! . . فأجابها قيس بقوله : حبذا
لو كنت مستنطق البلد ! . . أو طبيبته ! . . إذن لاستطعت
أن تكشفى ببراعة استجوابك ، أسرار المجرمين ، أو المرضى ! . .
إنى ظننت ، أول ما جذبت لهند ، أنها المفاجأة ! . . ولكننى
أتبين تدريجياً ، فى تأملاتى ، أنه حب ، ما زال يختمر ، فى
نفسى ، منذ عرفتها ! . . ولكن إباءها ، وقد كنت أظنه
صلفاً وكبراً ، واحتقارى للمرأة ، بعد أن اختبرت فى بعض
الفتيات ما اختبرت ، كانا فى مقدمة أسباب كبته فى فؤادى ؛

وما كنت أظن أنه سيأتى يوم أحب فيه فتاة ، هذا الحب الجارف ! . . إنه حب تملك قلبي وعقلى ، لا تملك إسفاف وشهوات . . وإنما هو تملك، تسمو معه ذاتى ! . . . وتسمو معه فى نفسى ، ذات من أحب، فلا أتصورها إلا فى أروع مجالى الطهر ، والعفاف ، والخفر . . ولا أريدها إلا كذلك ! ولكن ! . . أماه ! . . بدأت أتخوف ، من أرقها ، بقدر خوفى عليها من المرض ! . . أيكون لها حبيب يزاحمنى ؟ ! . . إن كان هذا فهلا كى محقق ! . . لم أعد أطيق عنها صبراً ! . . إنها روحى وحياتى ومناى وأملى ! . . فكيف يستطيع الإنسان أن يحيا ، بلا روح ولا حياة ؟ ! . . وهل يتسنى له أن يبقى، من دون أمل ، ولا رجاء ؟ ! . . عنايتك اللهم ! . . وعونك يا أماه ! . . وترقرقت عينا قيس بالدموع ، وما كان قبلها يعرف البكاء ! . . والبكاء فى حالة كهذه دليل على رقة الروح ، وصفاء الفؤاد ! فما بال الذئب يكتسى الريش ، ويهدر كالحمام .

أشفقت الأم على ولدها ، يعود لجزع الأطفال ، يبكون إذا مافقدوا شيئاً يتوهمون امتلاكه . . وأخذت تسليه ، وتشجعه بقولها : كن جلداً ، ولا تستسلم لتوهم السهولة فى الحصول على الرغائب ، ولاسيما فى الحب ! . . فلابد من عثرات ، وعراقيل ،

تعترض الطريق : وليست الشجاعة فى البكاء أمامها . . بل باجتيازها اجتياز الظافرين ، بعد جهود وتضحيات وصبر . . فكيف بك ، وأنت تتوهمها ، ولم تعثر بها قدمك بعد ! . . إن توهم العثرات والعراقيل أشد وطأة على النفوس من تحققها ، فمن أين جاءك أنها تحب غيرك ؟ ! . . أليس هو الوهم يصور لك ما يزعجك ؟ ! . . كن أكبر من وهمك ، واجعل الواقع مصدراً لتصوراتك ، تنج من كثير من الأحزان والشرور ! فالحياة للواقعيين ، وليست لمن تغزو نفوسهم الأوهام ، فيما يتصورون ! . . .

هدأت نفس قيس ، بفعل كلمات أمه فى نفسه ، ثم طلب إليها أن تهديه سواء السبيل ! . . ففكرت الأم ، مليا ، ثم قالت : سبيل سير الحب ، بينكما ، يوضحه أول التقاء ! فلا بد من التقائك بها ، فى خروجها من الدار ، بعد الوعكة .. وستعلمنى عما يدور بينكما فيه من حديث ! . . . وعندئذ أهتدى للطريق المستقيم . . . ! احذر العجلة ، والرعونة والأوهام ! أسمعت قيس ؟ ! . .

٥

اللقاء ! . . .

مر على قيس يومان ، تجاذبته فيهما ، فى اضطراباته ، المتناقضات ! . . . لا يدرى كيف يدفع الوهم ! بل لا يعلم كيف يميز بين الوهم والواقع ، ولا بين الخيال والحقيقة ! يأمل ساعة وييأس أخرى ! ويمنى النفس حيناً ، ويقنط حيناً آخر ! فيا ويل المحبين إذا ما اشتبهت عليهم الأمور ! . . . فهو لا يستطيع زيارة هند ، خشية من أذيتها ، إذا ما نمّت عنه عيناه أو شفتاه ، أو ما يعترى وجهه من انطلاق ، أو انكماش ! ... فهو لا يأمن على نفسه العثار ، والاضطراب ، فى حركاته وسكناته ! . . . وقد حذرته أمه مغبة الزيارة ! . . . وهو يشعر ، فى صميم ذاته ، أن عليه أن يعودها ! . . . أفلا تعتب عليه ؟ . . . وهل يستطيع تحمل عتابها ؟ . . . مسكين قيس ! أنه كان يدور حول بيتها ، كما يطوف المتعبد حول كعبته ! ... ولا يلبث أن يرتدع ، خوفاً من أن يسىء ظن الناس بها ! . . . مرحى بقيس ! . . . فهو الحريص على أن تظل جوهرته

سليمة ، حتى من الظنون والأوهام ! . . . ولا سيما أن أمه قد أخبرته أن أباها قاس عنيف ! . . .

ما أسعد قيس ! وقد أعلمته أمه ، فى اليوم الثالث ، من هذه الفترة أن هنداً ستخرج إلى الجامعة فى صباح الغد ، بعد أن أبلّت من وعكتها ! . . . وكانت الأم قد ذهبت لتعود هنداً ، فى هذا اليوم ، استجابة لإلحاح ابنها ، وتسكيناً لاضطراباته ! فما أهنأه بأم ، تساعده على تخطى طريق الحياة ! ! . . . سعيد من له مثل هذه الأم ! . . . وكاد قيس يجن من الفرح ، وقد أثنت أمه على استقبال هند لها ، وأخبرته عن حفاوتها بها ، حفاوة فيها من المعانى والمغازى ، ما يبعث الرجاء والأمل ! . . . والمحب ، كالغريق ، يحاول أن يتعلق ، ولو بخيط من هواء ! ... وفى غمرة هذا الفرح ، وقد استخفه ، سأل أمه عما إذا كانت قد حدثت هنداً عن حديثه ؟ ! . . . فابتسمت الأم وقالت : ما أصابك ، يابنى ؟ . . . أفى زحمة الزائرات ، يجرؤ عاقل على إفشاء هذا الخبر ؟ ! . . ما بك ، قيس ! . . . أنسيت ما قلته لك ، يا بنى : انتظر نتائج اللقاء ؟ . . . أنسيت . . . قيس ؟ ! لم ينس قيس ! ولكنها الرعونة . . . كثيراً ما تتغلب على المحبين ! ! . . .

بكرّ قيس فى ذهابه إلى الجامعة ، فى صباح نام على انتظاره ! . . . كان نومه هادئاً ، لم يعتوره قلق ، ولا أرق ! ولم يكن ذلك لما بعثه حديث أمه ، فى نفسه ، من أمل ، وحسب ! . . . بل إن الصراحة الصادقة ، وقد تبادلها مع أم حنون ، كانت له أماً وأباً ، بعد أن فقد أباه ، منذ سنتين ، قد أنقذته من هواجس الكبت المقلقة ، ومن أوهامه المؤرقة . . . والكبت آفة الشباب ، فى نمو الأنوثة أو الرجولة ، وفى تكونهما ! ؟ . . . الشباب صادق صريح متحفز ! . . . وإنما يفسده من يعوده الكذب والنفاق والانكماش ، فلايبقى له مجاله ، فى ضرورة انسجام نموه مع طبيعته . ويا ويل أمة ، تقتل شبابها ، بإفساد الشباب ! . . .

خرج قيس من داره ، فى ذلك الصباح ، بعد أن تناول طعامه ، وتبادل مع أمه قُبَل الحنان ! ولم يخرج مستعجلا مستخفياً ، كما خرج منذ أيام . ولم يكن بحاجة للعجلة والاستخفاء ، ما دام كابوس الكبت ، قد زالت آثاره ، فى بيته ، وفى صلته بأم ، يجلها ويحترمها ، ويجد فى قربها التعزية والحنان ! فما أقبح الكبت ، يورث العقوق ! . . . وما أروع الصراحة ، تنتج البر والتعاطف ! ! . . . وما أعظم الحب ، ترعاه طبيعته ! . . .

اهتز قلب قيس، وكاد يطير بجناحيه إلى لقاء الحبيبة ، وهى جالسة على مقعدها ، تتأمل كعادتها ، وتفكر ، وعيناها متجهتان إلى البحر المنبسط أمامها ! . . . إنه البحر ، تنعكس على سطحه ، الآن ، أشعة الشمس ذاتها ، لا أشعة القمر المستعارة ! . . فشعرت أنها أصبحت أقرب لحقائق الواقع . . . فلم تكن لتغرق فى تخيلات أحلام اليقظة ، ولا فى غموض أحلام المنام ! . . . إنها تجاه الواقع ، فى حقائقه الساطعة أنوارها ، سطوع أنوار الشمس ! فالأنوار المستعارة تذهب بالمرء إلى عوالم الخيال والأحلام . . . والأنوار الأصيلة هى التى تبقيه فى واقعه ، وتنير سبيله ! . . .

إن هنداً كانت تفكر ، شأن كل فتاة نضجت ، فى اكتمال نمو الشباب فى ذاتها ، فى البيت الذى ستخرج إليه ، وتكوّن فيه عائلة ، تستمد من روح المرأة فيه ، وهى الزوجة الأم ، سعادتها ! . . .هل تستطيع ، هى هند ، أن تكون تلك المرأة التى تحقق للبيت سعادته ؟ ! . . . وهل يتسنى لها ذلك بسوى قيس ؟ ! . . . اختاره قلبها ، بعد أن فكرت فى فتيان غيره ، فهل أصابت ، بسهام نظراتها ، وهى قد عبرت عن مكنون قلبها ، المرمى ؟ ! . . إنها لمهمة شاقة صعبة ، هى تلك المهمة التى ألقتها الحياة على الفتاة ، إذ أرادت لها أن تختار هى رفيقها

وشريكها ، فى الحياة ، ليكون زوجها ، بعد أن تتصور فيه فتى الأحلام ! ! ! . . ولكن البشر ، وهم فى مجتمعاتهم ، قد يقلبون الحقائق ، وقد يعكسون الآيات والعبر ، فيجعلون هذا الحق للفتى وحده ، ولا يعتبرون بالمآسى والفواجع ، تنتقم بها الحياة من جهلهم بنواميسها ، وتحديهم لها . . . فما أقسى الحياة ! . . . وما أشد ظلم البشر ! ! . . . فهم يظلمون أنفسهم ، ولا يعلمون ! . . بل هم ، فى دياجير ظلمهم ، يتيهون ويتكبرون . . . فيتيهون ويعمهون ! . . .

لم تدهش هند ، وقد سمعت قيساً يحييها . . . فإنه لم يفارقها ، منذ انسحبت من جلسة ذلك الحديث . ولكنها فوجئت بترسمه فى تحيتها : صباحك سعيد ، أيتها الآنسة ! . . فتذكرت أن مناجاتها له كحبيب ، لم تكن إلا فى عالم الروح ، فخضعت للواقع ، وأجابته : أسعدت صباحاً ، أيها السيد ! . . وكان بودها أن يقول : صباحك سعيد ، هند ! ! . . وأن تجيبه : أسعدت صباحاً ، قيس ! . . ولم يكن يود هو إلا أن يحييها ، لو استطاع بقوله : صباحك نور ، يا حبيبة القلب ! . . وأن تجيبه : ما أزهى صباحك ، يا حبيب الروح ! . . . فمتى يزول بينهما ذلك الترسم ، وقد أصبح سمجاً فى نظر كل منهما ؟ ! . . .

استأذن قيس هنداً فى الجلوس إلى جانبها ، على المقعد ،

متعللا بأن له معها حديثاً خاصاً . . . فأذنت له . . . ولكنه لم يكد يشعر بقربه إليها، حتى نسى كل ما كان هيأه ، فى خاطره ، من عبارات وكلام . . . فارتبك ، ولم يعد يعرف كيف يبدأ الحديث ؟ ! . . . فوقع فى خاطر هند أنه يريد عتابها على موقفها منه ، أمام رفاقه ، منذ أيام ، فوجدت مجالاً لأن تفتح له باب الحديث : ربما آذاك حديثى ، يا سيدى ، فأعتذر عن لهجتى تلك ! ! . . . فانطلق قيس ، بعد وجوم ، وقال : عفواً ، أيتها الآنسة ، فقد جئت شاكراً . . . لا شاكياً، ولا عاتباً ! . . .

هند : وعلامَ الشكر ، يا سيدى !

قيس : إنك قد أنقذتنى من وثنية ، ضاق بها صدرى ، وما كنت أشعر ، قبل كلماتك الحكيمة ، إننى كنت فعلاً من عبدة الأوثان ! . . . أشغَل بوثنيتى عن ذاتى ، فلا أتأمل فيها ، لأنضج تلك الفكرات المستعارة، وقد امتلأت بها حوافظى ، وأصبحت أسير ألفاظها ، أصفق لها ، ولا أدرك حقيقة كنهها ! ! ... كنت أسير وراء أفراد ، تعودوا استغلال سذاجة الشعوب ، آملاً فيهم لنفسى الخير ! . . . فجعلتنى أدرك أنه لا ينال الخير من يعقد آماله على غير ذاته !

كنت أتوهم أنهم يسيرون بنا نحو المثل العليا ، التى تتفتح عليها نفوس الشباب ! فإذا أنا أدرك ، فى تأملاتى ، وقد أوحت بهذا كلماتك ، أنهم إنما يعملون لمآرب خاصة ، ويستهدفون المال والجاه ، والتنعم باستعباد الناس ، متخذين تلك المثل ، وألفاظها ، عصا سحرية ، يفتنوننا بها ، لنسير فى ركابهم ، ونصبح من أتباعهم ، فنحقق لهم ما يشتهون ! . . . وكثيراً ما تكون المآرب على نقيض تلك المثل ! . . . فمنذ سمعت كلماتك الحكيمة ، تفتحت عيناى ، وتبدل فى نظرى ، كل شىء ! شعرت بأننا فى شباب جديد ، وأن الشباب إطلالة جديدة على الحياة ! . . . ليس له أن يرى العالم ، بعيون ، كلّت عن الإبصار !... فعليه أن يرى العالم بعيونه هو ، على ما يقتضيه سير التقدم ، فى عصره ، لا بعيون المشعوذين المستغلين ، وهم يدفعونه إلى الوراء ! . . . فأصبحت أتقبل الحياة كلها ، وبكل كيانى ، بجد ورصانة وصفاء ، تاركاً كل ما يتصل ، بالاستهتار والسخرية والاستخفاف ، بأى سبب ! ! . . . أدركت أن الحياة جد ونشاط وجهاد . وأنها هكذا فى داخل الذات ،

لا فى خارجها . فبدأت أحترم ذاتى ، وأكره النفاق والمجاملات ! . . . أدركت أن العرب ، فى جميع أوطانهم ، ضحية الاستخفاف والسخرية ، والمجاملات والرعونة . . . وأننا بهذه الصفات ، وبجحودنا ذواتنا ، خسرنا فلسطين ، ونخشى أن نضيع غيرها ! ! . . . إننى أؤمن الآن بأن لا إنقاذ للعرب ، إلا بتحطيم الأوثان ، أوثان الفكر ، وأوثان الكلمات ، وأوثان الأفراد والهيئات ! . . . هكذا أنقذوا ، فى نهضتهم الأولى ، وهكذا ينقذون ، فيستعيدون النهضة ، ويحتلون مكانهم ، فى سلم الحياة ! . . . وقد وقر فى روعى ، فى تأملاتى الذاتية ، أن لكل أمة وسائلها فى التجدد . وهى وسائل خاصة بها ، ينبثق عن مجتمعاتها ، ويعجز عنه الأفراد ، مهما عظموا ! ! . . فالعظماء للإثارة ، يستغلهم الناس ، ولا يستغلون ! ! ؟ . . .

هند : (وقد أخذ منها الإعجاب ، إعجاب الحبيب بحبيبه ، وطربت لأثرها فى تبدل قيس) أحسنت . . . يا سيدى ، (وكادت تقول : قيس) وأراك قد سرت شوطاً بعيداً ، فى تأملاتك ! ! . . .

قيس : (وقد امتلأ غبطة لانتصاره الأول فى استثارة إعجاب

الحبيب) : وهل كان سيرى هذا إلا بفضل كلماتك يا . . .
حضرة الآنسة (وكاد يقول : يا هند ! . . .)

هند : إنك تغالى ، فالفضل لذكائك وإخلاصك واستعدادك فما أخطأت فيك فراستى ! وإنى لأرجو لك كل خير ! . . .

قالت ذلك وقد علت وجهها حمرة الخفر ... فازدادت روعة فى جمالها ، وفتنة فى نضارتها ... وكادت نظرات قيس المشدوهة ، تفشى سر نفسه ، لولا أنه تماسك . . .ولا أظن أن حاله قد خفيت على فطنة هند ! . . .وأتوهم القارئ يحدس بذلك معى .

قيس : (وقد تشجع) وقد كان لكلماتك فضل آخر ، إذ أنقذتنى من فاتنة ! . . .

هند : (وقد ثارت فى نفسها الغيرة ، عند سماعها اسم فاتنة ، يلفظها قيس ... ولعله إنما استطرد لذكرها للإثارة !)
وما علاقة كلماتى بفاتنة ؟ . . . المسكينة ! ! . .

قيس : كادت فاتنة تغوينى ، وكدت أقع فى شركها ، كما وقع غيرى من الشباب ، على الرغم مما يعلمون ، وأعلم من سمعتها السيئة . ولكن أثر كلماتك الحكيمة ، فى

عودتى لداخل ذاتى ، متأملاً مفكراً ، جعلنى أؤمن بأن شرف الشباب إنما يصونه الزواج ، الزواج الصحيح الصادق ! ! . . فأصبحت أفكر بالتى أكون جديراً بها ، وتكون جديرة بى ، لعقد شركة الحياة ! ! . . وأشكر العناية الإلهية أننى لم أغو فتاة . . . ولم تغونى فتاة ! وكل ما جربت ، إنما هى مداعبات ومغازلات بريئة . . . وقد لحظت ، كما لحظ بعض رفاقى ، من الشباب ، فى جهل بعض الفتيات ، وفى ميوعتهن ، بجهلهن بالأخطار ، ما صرفنا عن فكرة الزواج . . . لأننا احتقرنا المرأة ، وأسأنا بها الظنون ! . . . ولكن تبين لى أنه لا يزال ، فى الفتيات ، من هن جديرات بالثقة ، وبتحقيق سعادة البيت ! فعقدت النية على أن أشرك فى حياتى فتاة الأحلام ! . . . .

هند : وهل اخترت فتاتك ؟

قيس : وهل يجوز أن أقول اخترت ، قبل أن أحظى منها بالقبول ؟ فالاختيار للفتاة ، على ما أعتقد ! . . .

هند : تفكر بفتاة ، لم تحاول التفاهم معها بعد ! . . إنها ، إذن ، لا تزال فتاة أحلام ! . . . ثم ابتسمت ابتسامة من يغريه حب الاستطلاع ، وهى تحاول أن تخفى ما أثار الحديث

فى نفسها ، من كوامن ، وسألته قائلة : هل أستطيع معرفة اسمها ؟ . . على أن أساعدك ! . . .

قيس : (وقد كاد يطير فرحاً ، وقد بلغ بيت القصيد من كل هذا الحديث) ومن هو الجدير غيرك بمساعدتى ، وأنت منقذتى ، من الرثنية ، ومن شرك فاتنة ؟ ! . . ولكن أريد منك قبل أن أبوح باسمها ، أن تعدينى وعداً صادقاً بأنك تساعدينى عليها ، بكل إخلاص ! . . .

هند : لمَ هذا التأكد ، وقد وعدتك ! . . .

قيس : ذاك رجاء ! . . وأريد وعداً كريماً ، من كريمة ، أعترف لها بالجميل ، ما حييت ! . . .

هند : أعدك ، إن لم تكن بعيدة عنى ، لا أعرفها . . . أو بعيدة عن هذه الديار ! ! . . .

قيس : إنها تلك التى نزلت ، من عليائها ، على أشعة القمر ، لتلتقى بى فى الحرج ، أمام دارنا ! . . منذ ثلاث ليال . . .

هند : هى شبح خيالى ! ومن يستطيع مساعدتك عليه ؟ ! . .

قيس : إنها واقع ، لا خيال فيه ! . . وإنها روحى وحياتى ، قبلتنى ، أم لم تقبل ! . . . فأنا لها ، بكليتى ، ما حييت ! ! . . . إنها قريبة منك ، قرب ذاتك من

ذاتك ! . . . إنها التي أشعر ، بجانبها ، أنني أتسامى على ذاتي ، فأصبحت ضرورة ملحة ، لاستكمال كياني ، كإنسان ! ! . . . إنها أنت ، يا هند ! ! . . واسمحي لي أن أذكر اسمك مجرداً عما يقتضيه الترسم من ألفاظ ! . . . هند ! إنني أصبحت لك ، بكليتي ! . . . فهل أطمع أن تكوني لي ، كما أنا لك ، كلاً ، لا تجزئة فيه . . . فنتعاون على مشاكل الحياة؟

هند : (صمتت واجمة ، على استحياء ! ! . . وهو صمت القبول والإقرار من ذاوت الأخدار !)

قيس : هند ، إن لك من ثقافتك ، ورجاحة عقلك ، ما جرأني على البوح بمكنون صدري ! . . . فهلا يدفعك على البوح ، بما تضمرين ، ما تملكين من صفات ، أيتها المنقذة الحبيبة ؟ ! . . . إنلك أنقذتني وحررتني ، فهلا تتحررين ؟ ! . . فتستكملين ، بصراحتك ، إنقاذك لفتى كان ، لولا حبك ، من أشقى المستعبدين ، في وثنية عمياء ! . . . ومن أحط المسترذلين ، سخفاً وطيشاً ! فاحمني ، بحبك ، أيتها الحبيبة المنقذة ! ! . . وارحمي من لم يعد تطيب له الحياة ، إلا بقربك ! ... فوالله ، ما كنت أستطيع أن أعتقد إمكان اتحاد المثل

العليا مع الحياة ، لولا أنك بعثت فى نفسى عاطفة الحب الصحيح الطاهر ! فشعّت فى روحى أنواره ، فأدركت معانى الحياة ، فى مثلها وقيمها ! ! . . . إننى سرت شوطاً بعيداً ، على ما ذكرت ، يا هند ، بفضل حبك ! . . فهل تقطعين علىّ الطريق ؟ ! . . يا حياتى !

هند : إن التى تحقق فيك حلمها ، وقد أنقذتك ، فى تلك الليلة التى ذكرتها ، من براثن الأمواج ، فى هذا البحر ، وكان مائجاً هائجاً ، يكاد يبتلعك ! . . . لا تستطيع أن ترفض يدك ! . . . ثق ، قيس ، أننى لن أكون لغيرك ، ما حييت ! ! . . . (وعبرت عن ذاتها بلهجة المنفعل المأخوذ ! . . .)

تفتحت نفس قيس ، إذ استبشر ، واتسعت حتى شملت كل العوالم ! . . . ملأ البشر قلبه ، وأفعمت الغبطة نفسه ، فلم ينتبه لما فى قولها : لن أكون لغيرك ، من ألغاز ، سيحلها الزمن . وإنما شاقه أن تمتد سعادته إلى ما بعد الموت ، فقال ، مداعباً : ولن تكونى لغيرى فى العالم الآخر ! . . . فأجابته ، بدعابة مثل دعابته : من يكن لك فى الحياة ، لن ينفصل عنك ، بعد

الموت ، فى العالم الآخر ! . . .

ثم أخذ كل منهما يقص ما كابده فى تلك الليلة ، ليلة الأحلام ، وفى الليالى التى اكتنفتها ، قبلاً وبعداً ، منذ ذلك الحديث ! . . . ثم انتقل بهما الحديث إلى كشف أسرار كل منهما للآخر ، حتى تنكشف له حياة رفيقه ، بصراحة وصدق ، فلا يظهر له ، بعد الزواج ، من أحوال رفيقه ، ما لم يعلم به قبلا ، وهذا شرط أساسى من شروط الزواج الصحيح . وأحاديث المحبين ، فى تشعبها ، لا تنتهى فى جلسة واحدة ، لتنكشف حقيقة كل منهما للآخر ! . . . إلا أن هندا علمت من هذا الحديث ، وهو الأول ، أن أم قيس باعت قسما مما ورثه عن أبيه ، ليكمل تحصيله . وأن هذا القسم يعادل معظم حصته ! وأن إخوته الصغار ، وأختيه ، لا يزالون قاصرين . وأكدت له أن أباها غنى ، ولكنه مغامر ، يقامر ، لا ترتجى أن يترك لها ثروة . فلم تكن تلك الاعترافات إلا لتزيد تعلق كل منهما بالآخر . فالحب ، إذا ما كان صادقاً ، يتحمل كل وضع ، ولا يشغله ما فى خارج الذات من أعراض ! . . .

دهش الحبيبان ، وقد سمعا ساعة الجامعة تدق الثانية عشرة ! . . . فقد مضى على خلوتهما هذه ، منذ السابعة ، خمس ساعات ، غابا فى أثنائها ، عن كل شىء ! . . . ولم تستطع دقات الساعة ، على قوتها ، وتعددها ، وهى تدق كل ربع ساعة ، أن توقظهما من تلك الغيبوبة ، عن كل موجود ، غيرهما ، إلا فى دقاتها الأخيرة ! . . . شغلا بذاتيهما عن كل شىء آخر . . . ولكن أين الطلاّب ؟ . . . لم يزعجهما أحد فى هذه الساعات الخمس . . . ترُى ، أهى الرحمة ، فى ملاك الحب ، جعلته يعطف على هذا الحب النامى ، المنبعث عنه ، فنشر أجنحته حولهما ، فحجبتهما عن أعين الناظرين ؟ . . . أم أن الشباب ، فى الطالبات والطلاب ، والشباب وثبة ، كلها سماحة ونجدة ، رأى ، فى تهذيبه الفطرى ، أن لا يزعج الحب ، فى تناجى المحبين فيه ، فى خلوة صريحة ساذجة ، كهذه ؟ ! . . . فغضوا الطرف ، ومروا كراماً ؟ ! . . . أتنشر أخبار هذه الخلوة ، بين الناس ، فيتقولون ، أم تظل سرًّا مصوناً ؟ ! . . .

احتار الحبيبان فى تعليل هذا الوضع ، وأوجسا خيفة

من عواقبه ! . . . فى الناس ألسنة ، لا ينقصها
الطول ! . . . وفيهم نفوس دنيئة ، لا يلذ لها إلا
تهشيم الآخرين . ومنهم الجهلة الذين يسيئون الفهم
والتأويل ، ولا يحترمون الكرامة فى الإنسان ! . . . وفى
غمرة هذه الحيرة ، وهذا الاضطراب ، قهقهت هند
وقالت : قيس ! ما أشد سذاجتنا ! ما لنا لم نذكر أن
هذا اليوم هو يوم عطلة ، فى الجامعة ؟ ! . . .
فانتبه قيس ، وقد كان أكثر اضطراباً من هند ،
لغيرته على سمعتها ، وانبسطت أساريره ، وقال :
صدق من قال : إذا أراد الله شيئاً يسر أسبابه ! ...
وقد يسر لنا النسيان ، ولولاه لما اجتمعنا هنا ، فى هذه
الصبيحة المباركة ! . . . فأل خير ، يا حياتى ! . .

هند : فأل خـــير ! . . . إن شاء الله ! . . .

قيس : وما هو الباعث على الشك والارتياب ، يا هند ! . . .
ألم نتفق على كل شىء ؟ . . .

قال ذلك باستغراب ودهشة ! ... فسألته هند : وأين تجد
الارتياب ؟ . . . فأوضح قيس : فى قولك إن شاء الله ،
وقد تعودنا أن نسمعها ممن يرتاب من العواقب ! . . .

هند : مهلاً ، قيس ! . . . لا تسرف فى التفاؤل ! . . .

ولا ترتب فى حبى لك ! . . . فهو حب ثابت ، لا يزول ولا يفنى ! . . . بل هو خالد فى عالمى الدنيا والآخرة ! . . . فحبى لك أكثر من وعد ، إنه أصبح هيأة نفسية ثابتة ، فى ذاتى ، ولن تتحول . . . ولكن لاضمان على الزمان ! فلابد من الحذر ... والاعتدال ! ... قلت لك : لن أكون لغيرك ، فثق بقولى ، وكن مطمئناً ! ! . . كاطمئنانى إليك ، وثقتى بك ! ... قلبان جمعهما الحب . . . وروحان اتحدتا به . . . لن يفرقهما سوى الموت ! ؟ ! . . . فنظر إليها قيس ، بتوله المتفانى ، فى حبه ، وقال : عفواً ، هند ! . . . فالمحب مولع بسوء الظن ! . . . فأجابته ، ونظراتها تنم عما فى الفؤاد من جوى : آفة الحب سوء الظن ، فارتدع عنه ! . . . فقال ، ولهيب القلب يتصاعد من عينيه : عفواً ، أيها الملاك الحبيب ... هفوة لن أعود إليها ... لن أعود . . . غفرانك ! ! . . . وفى نشوة الموله الظافر ، فتح قيس ذراعيه ، محاولاً أن يضمها إلى صدره ، وأن يطبع على فمها قبلة الحب ، حسب تقاليد هذا العصر ، فنفرت هند ، وقالت : ماذا أصابك ؟ أتريد أن نمثل حبنا دوراً سينمائياً ، قيس ؟ ! . . .

قيس : (وقد شدهته المفاجأة ، وحيرته) هند ! . . . وهل فى قبلة الحب إثم يقترف؟ ! . . . ما دام حبنا نقياً طاهراً على ما تعلمين ؟ ! . . . فهلا تزالين تسيئين الظن ، بحبيبك قيس ، وهو من يضحى بحياته ، محافظة على العفاف والطهر ، منذ تعلق بك قلبه ، يا ملاكى ، الطاهر ؟ ! . . . الأمين ! . . . ألم تثقى بعد ، بأن حبك بدل قيسا ، فأصبح يرى الحياة ، بغير العين التى كان يراها ، بها ، من قبل . . . ثم أضحى يتذوق المثل والقيم ، بروحه وقلبه . . . والعفاف والطهارة هما ، فى مفهومه الآن ، فى القمة من تلك القيم . . . ومن تلك المثل ! . . . أتخذلين ، يا حياتى ، من لا يزال يتسامى ، فى ذاته ، بفضل حبك ، وقد أنقذه وحرره ؟ ! . . . رحماك . . . هند ! ! . . .

وظهرت على قيس آثار ، من الانكسار والجزع والألم ، أثارت حنان الحب ، ورحمته ، فى هند ! . . . ولكنها وهى الواعية ، لم تنخذل ! . . . وإنما اتخذت الرقة واللين سلاحاً لها ، وبادلته الحديث التالى :

هند : قيس ! . . . من عجل بالشىء قبل أوانه ، عوقب بحرمانه ! . . . ولو تأملت فى المآسى والفواجع ، تقع ،

قبل الزواج ، أو بعده ، لعدت بأغلبها ، إلى سبب أساسى ، هو تلبية رغبات الجسد ، قبل عقد الزواج ! فمنه تنشأ المشاكل ، ويتولد الشك والارتياب ! . . . فتُطعن الثقة ، فى الصميم ، فلا يتم تبادلها ، بين الزوجين ! وإذا تم ، فلن يستمر ، لعقد نفسية تكتنفه وتستقر فى الفؤاد ! . . .

قيس : وهل تجدين فى قبلة الحب يتبادلها الحبيبان ، أى جرم ؟ ! . . . فأنا أتبادل القبل كل يوم ، مع والدتى ، وقد أقبل شقيقتى ، فلا يجد أحد منا أى حرج ، أو خشية من أن يتلبس بإثم ، أو يقترف جرماً ! ! . . . ولا أعلم فى الناس من يتأثم من هذه القبل ! ! . . . ولا من يصلها برغبات الجسد ! . . .

هند : (وقد احمر وجهها حياء) صه ، قيس ! . . . أبلغت بك السذاجة حداً ، تقابل بها قبل الأم ، بقبل الحب . . . بين حبيبين ؟ ! . . . والحب إنما يتكامل فى الجسد ! . . . ولذلك يحرص الناس على أن لا يطول أمد الخطوبة ، بله المعاشرة ! ! . . . فالقبلة بين الحبيبين ، إنما هى ، فى واقعها ، بدء رغبات الجسد ! وهى خطوة أولى ، تمهد لسائر الخطوات . . . حتى

المأساة ! . . . وبالمأساة كانت القبلة مفتاح شرور الفواجع ! ! . . . أنسيت حادثة فاتنة ، وقد كادت تغويك ! ! . . . وكم أغوت من فتى ! . . . وكم غررت بفتاة ! . . . بعد أن تحطمت ذاتها ، وانهارت إنسانيتها ! . . .

قيس : أو تعلمين ، يا هند ، حقيقة حادثة فاتنة . . . وهى فى جمالها ، تشبه الملائكة ؟ ! . . . أسمع الشباب يتهامسون ، إذا ما ذكرت ، ولكننى لم أجد من اطلع على حقيقة أسباب ذلك الانهيار ! . . . وما أشد شوقى لمعرفة السبب ! ! . . .

هند : مسكينة فاتنة ! . . . ويا لضياع روعة جمالها ، وحدة ذكائها ! . . . وما أشد خسارة المجتمع ، حين تستخدم أمثالها معرفتهن ، ولا أقول ثقافتهن ، فى خداع الآخرين ، والتغرير بهم ، وبهن ، لتنتقم من مجتمع ، لم يساعدها فى تنظيمه وتقاليده ، على أن تستكمل نموها ، على ما أرادته لها طبيعتها ، فى عبقرية جنسها ، وإنسانيتها ! فهى فتاة ، نبتت فى أسرة تواضع الناس على أن يعتبروها ، أسرة نبيلة ، بسبب الثروة والإرث ! . . . ولكن ما فى أفرادها من ترف وإسراف واستهتار ،

يبعدها ، فى الحقيقة ، عن كل ما فى النبل من معان وسمو ! . . . أدخلها ذووها المدرسة ، لا تقديراً للثقافة ، ولكنه الزى ، فى عصرنا هذا ، يقضى على كل فتاة وفتى بأن يسعى وراء الشهادات ، ويحصل عليها بأى سبب ، زهواً ، وحباً بالظهور ! . . . وقد استطاعت فاتنة ، لحدة ذكائها ، واجتهادها ، أن تحصل على أعلى الشهادات الجامعية ، إلا أنها كانت فى مدارس تقليدية ، تبعد طلابها عن تفهم الحياة ، بباعث الحياء المصطنع ، والحشمة المفتعلة ؟ ! فنشأت متعلمة ، تراكميا ، وساذجة ، فى تصرفاتها وسلوكها ! ! . . . خطبت إلى ابن عمها ، حسب تقاليد تلك الأسر . . . وأنّى لمترف مثله ، أن يتحسس بمعانى الحب الصحيح ، وأن يتسامى به ، تسامى من تغدق عليهم الحياة بنعم ذلك الحب ؟ . . . فما زال يستغل سذاجتها ، وهى سذاجة كانت تتفاعل ، فى التأثير فيها ، عوامل متعددة : من ترف الأسرة ، وتراكمية معارف ، بعيدة عن واقع الحياة ، حتى سلبها ، قبل عقد الزواج ، أثمن شىء تختال به الفتاة وتفخر ، وتسيطر وتزهو ! . . . ولم تقدر لسذاجتها ، المزهوة بشكلية المعرفة وشهاداتها ،

عظم ما فقدت ، إلا عند ما تحرك الجنين . . . وأجبرها
من كان يدعى حبها على الإجهاض . . . ثم أزورَّ
عنها ، وقطع ما بينهما من صلات ، معلناً انفصام
الخطبة لعدم الامتزاج ! . . . وهددها بالتشهير ، إذا
هى أقدمت على إفشاء السر ! وأفهمها أنها شريكة له ،
وللطبيب ، فى الجرم ، وقد ينالها وحدها العقاب ! . . .
لأنه لن يعدم حيلة يتوارى ، هو وراءها ، ثم ينقذ
الطبيب ! . . . وما قولك بالنفوذ ؟ ! . . . وقد
اعترفت فاتنة لإحدى صديقاتها ، بأن تلك القبلة ،
وقد كان حبيبها ، وخطيبها ، يعبر عنها بالقبلة البريئة ،
كانت بدء الشوط فى استغلال الظروف ، وإبداعها .
وشيطان الشرور ، لاتعوزه العبقرية فى إيجاد ظروف ،
تختلس روح المقاومة ، إذا ما نجح فى تمهيد
الطريق ! ! . . . واستعجال هذه القبل يعبد تلك
الطريق ! . . . ومتى استطاع الشاب قطف الزهرة ،
قبل الأوان ، رماها أرضاً ، وركلها برجله ، لأنها
تذبل بين يديه ! . . فلا يعود يستطيب لها رائحة ، أو
يعجب بلونها ! ! . . .

صمتت فاتنه ، وكبتت ، فتفتحت ، فى نفسها ،

زهرة سامة بشعة، هى زهرة الانتقام . . . من المجتمع . . . وأصبحت مولعة بإغواء الفتيان ، وتغرير الفتيات ، وما خبر انتحار الفتاة سلوى، عنا ببعيد! !

قيس : وهل لحادثة سلوى علاقة بفاتنة ؟ ! . . .

هند : نعم، إنها ضحية تغريرها، بباعث عقدة الانتقام، من كل فتى ، ومن كل فتاة ! . . .

قيس : والله ما سمعت بحب واعظ كحبنا هذا ! . . .

هند : كل حب صادق ، هو حب واعظ ، يا قيس ! . . . ولكن عظاته ليست كعظات من تعلم من القوالين الذين يزهون برصف الكلمات ، وتنميق العبارات ، وتزويق المقالات ، وتطويل الخطب والمحاضرات ! . . . إنها معان ، وفكرات ، تنبثق فى النفوس ، وتتجدد فيها ، بفعل تفاعل حب أصيل فى الذات ، مع سائر قوى الذات . . . ومن لم تعظه نفسه ، لا يتعظ بمواعظ الآخرين ! . . . وكل ما أقوله لك ، لا تصبح له أية فائدة أو أهمية ، إذا لم تحرثه نفسك ، فى ذاتها ! ومتى تم الحرث ، تنسجم معه هيأتك الذاتية ، فيتحقق عندئذ ثقافة تسمو بها ، وتهنأ ! . . . وإلا فهو كلام ينطلق فى الهواء ! . . . وإذا ما اختزنته

الحافظة ، دون حرث ، يصبح ثرثرة وغروراً وزهواً ...
وتتكون منه الشرور . . . فأعجب لخير المعرفة ،
تنبت منه شرور الآثام ! . . . ولا حارث كالحب
في صدقه ! ! . . . .

قيس : أهي ثاء أم سين ، يا هند ! . . .

هند : هي الاثنتان معاً : فالحب الصحيح إذا ما حرث
النفس ، وأنبت فيها البذور الخيرة ، كان حارساً ،
يحفظ النفس من الذل ! . . .

قيس : إنك مدهشة ، يا هند ! . . . تتكلمين وكأنك في
السبعين من عمرك ، لا في العشرين ! . . .

هند : هذا ما يجب أن تعرفه ابنة العشرين . . . وابن
العشرين . . . بل من قبلهما ، في العمر ، منذ
البلوغ ! . . . وإلا فأية فائدة يجنيها من يتأخر في تلقى
هذه المعارف ، بعد ذلك . . . أو إلى أن يقع في
الحفر ، ويتمرغ في الأوحال؟ ! . . . وفي الأوساخ؟ ! ...
وهل سقطت فاتنة ، وتبعتها سلوى ، إلا بسبب اعتقاد
ذويها بأن هذه المعارف ، هي معارف تليق بالكبار
الراشدين من الناس ؟ ! . . . فنشأتا على جهل بما
يمس الحياة ، في أشد حاجاتها ، في هذه الأدوار ،

من نموها ، فى الشباب ! . . . وهذه الأدوار ، هى أشد خطراً ، على كيان الإنسان ، من سائر أدوار الحياة ! . . .

قيس : ومن علمك ذلك ، يا هند ! . . . فالمدارس التى تعلمت فيها ، توازى المدارس التى تلقنت أنت فيها العلوم . ومع ذلك فلم أسمع شيئاً مما تقولين . . . من أى أستاذ ! . . . وقد يسخط الأهل إذا ما حاول الشاب أن يسأل ، أو يستفهم ! ! . . . بلْهَ أمى . . . الحكيمة الحنون ! ! . . .

هند : الفضل لخال لى متحرر . وهو عميق الثقافة ، واقعى التفكير . فقد كان يهتم بأن يرشدنى لذاتى ، ولما يحيق بى من أخطار ، مباشرة ، أو بواسطة والدتى ، شقيقته ، منذ أدركت البلوغ ! . . . فحررنى ، ومهد لى سبيل تفهم دروس علوم النفس ، ولا سيما نفس الشباب ، فى سنتى الأولى ، فى دراستى الجامعية ، فى معهد التربية . . . الحديث ! . . .

قيس : حبذا لو تصبح هذه الأفكار ، وهى تتعلق بصميم الحياة ، مادة من مواد الدراسة ! . . .

هند : لعلها تصبح ، يوماً ، وأرجو أن يكون قريباً ، لا بفعل

تأثرنا بالغير . . . أى بالتبعية ، لا بالأصالة ! . . .
فنظل مقلدين ، وابتفكير غيرنا مستعبدين ! . . .
لأننا لا نزال ، مع الأسف ، نقف فى طريق من
تقوم هذه الأفكار فى صميم ذاته ، منا ، أصالة لا
تقليداً ، فنسومه خسفاً ، ويضطهد ! ! . . . هذه
هى حكايتنا منذ عصور ! أى منذ بدأت جراثيم
الانهيار تفكك كياناتنا الاجتماعية، والسياسية!. . .
أنقذنا الله من ويلات اليأس ، فقد أورثنا فقدان الثقة
بذاتنا . . . وبرجال الفكر والعمل . . . عندنا ! !...
وما بلغ الحديث ، بهما ، هذا الحد ، حتى صرخت
هند قائلة :

هند : أوه ! . . . انظر قيس ! . . قد بلغنا دارى ، وكنت
أظن أننا لا نزال حيث بدأنا حديثنا فى الجامعة !...
ما هذا الذهول ؟ . . .

قيس : حقاً . . . ما كان يدور فى خلدى أننا خطونا خطوة
واحدة ، مع أننا سرنا ما ينيف على الكيلو متر !...
فما أروع الحب ، وما أكثر عجائبه ! . . . .

هند : إذا سير الإنسان قلبه ، لا يشعر بطول الطريق ! ...
والآن ، إلى الملتقى ، يا قيس ! . . .

قيس : مهلاً ، يا حياتى ! . . . ألا نزال على العهد ؟ . . .
غفرانك ، يا حياة الروح ! . . .

هند : الحب يا قيس ، لا يأبه للهفوات ، وإنما الخطر فى العناد ، والفساد فى الإصرار !

قيس : ثق أننى لن أعود لمثلها ، وأننى لك إلى الأبد ! !...
يا منقذة قيس ! . . .

هند : ولن أكون لغيرك ، يا حبيب الروح ! ! !. . . فإلى اللقاء ! . . .

قيس : إلى اللقاء . . . يا منى القلب . . . ويا روح الحياة !.
وليكن قريباً هذا اللقاء ! . .

٦

عاصفة !. . .

نصف نهار مضى . . وكأنه لحظة !! ... ولكنها لحظة جمعت الدهر كله ، بجميع أزمانه! وركزت ، فى نفسى الحبيبين ، جميع مسرات الحياة ! ... فتذوقا معانى الأبد والأزل والخلود!.. وآمنا بوحدة الحياة ، فأصبحت هند قيساً ، وقيس هنداً ، فكأنهما شخص واحد . . . وأنسا بتفتح زهرة الحب ، فى قلبيهما ، فأدركا سمو معنى التكامل فى الوجود : فهند تعلو بقيس ، وتنقذه : شأن كل فتاة ، سليمة الميول . . . تتفاعل ، فى ذاتها ، عناصر عبقرية الجنس ، فى المرأة الخالدة ! . . وقيس ، فى تكامله ، ينمى نفس هند ، فتتفتح ، فى ذاتها ، أزاهر معانى الحياة ، فتدرك أن قيساً جدير بحبها : شأن كل فتى تسيطر على نفسه شهامته ومروءته ونخوته ، فيكون جديراً بالسيطرة على ذاته . ومن يكون جديراً بالحب ، فهو الجدير بالسيطرة على ذاته ... ومن يسيطر على ذاته ، يسيطر على كل شىء!.. فلا تؤثر فى ذاته صغائر الهفوات تعبر ولا تستمر ، ولا تستقر؟!..

فى هذه اللحظة ، تجلى الحب ، على حبيبين صادقين ، فتكونت ، فى ذاتهما عوامل النهضة والسمو ، تفعل فى الفرد ، وتجعله جديراً برفع المستوى ، فى مجتمعه ! . . فيعلو المجتمع ، ويسمو . . . ويصبح جديراً بأن يحقق للأمة الأمجاد ! ! . . وهكذا يسمو الحب ، بالفرد وبالمجتمع ، إلى العلا ! ! . . . فيحقق للأمم قوتها واطمئنانها ، فى مجتمعاتها ... ويشعر الفرد بالسعادة ، تغمره ، لأنه أصبح يتذوق الحياة ، ويحسها ! .. بإجلال ! ...

لحظة سعادة مرت ، ولكنها استمرت نصف نهار ! . .

ولا أدرى إذا كان الشاعر قصد ما كان عليه قيس وهند من صفاء وسعادة ، عند ما قال :

ما صفا الدهر ، لقوم نصف يوم ، وأتمه ! ...

فبينما كان المحبان ، فى بدء التقائهما الأول ، على مقعد الجامعة ، يتناجيان ، فيكشف كل منهما عن قلبه لحبيبه . أخذ الدهر يهيء عناصر كدر ذلك الصفاء ، فى دار هند !

صبّح أبو هند زوجته قائلا : صباحك سعيد ، يا أم هند ! ... فأجابته : نهارك أسعد ، يا أبا هند ! . . . ومع أن العادة ، بين الأزواج أن يتخاطبوا بالاسم مجرداً ، مع ترخيمه أو تصغيره ، تحببا . . . فإن صخراً ، وهذا اسم الوالد ، وحناناً ، وهو اسم الوالدة ، قد تعودا على أن يتناديا بأبى هند ، وبأم هند ، منذ

شبت هند ، لما كان لها فى قلبيهما من حب ، بلغ درجة الولع . . . فهى وحيدتهما ! وهى ، كما يقولان ، دائماً ، وبمباهاة ترفع الرأس . . . جمال وذكاء ، واجتهاد ورصانة وأدب . . . فكيف لا يعجبان بابنتهما ، وهى موضوع لإعجاب كل من عرفها ، ولإ طرائه ؟ ! . . إنها فذة ، فى الفتيات ، جمعت كل المحاسن ! . . . خَلقاً . . . وخُلقاً ! . . . فلاعجب إذا أصبحت أهم موضوع ، فى أحاديثهما ، كلما اجتمعا .

وقد زاد فى ولع أم هند بابنتها ، تحسن معاملة زوجها لها ، بعد أن أدركت هند الفتاء ! . . فما كانت لتتحمل أن ينهر الأب أمها ، أو يصرخ ، فى وجهها ، على سابق عادته . . وما كان هو ليصبر على بكاء ابنته وحردها ! . . وقد جرأها حبه لها ، عليه ، فكثيراً ما كانت تقول له ، فى وثبة انتصارها لأمها : إنك قاس ظالم ، يا بابا ! . . فيسترخى ، إذا ما ثارت عليه ، ووصمته بالقسوة والظلم ، فيلين ، بعد قسوة ، ويضعف ، بعد شدة . . ولا عجب فقد كان لقول هند « يا بابا » فعل سحرى فى نفسه . . فكأنها تنومه ، بها ، تنويماً مغناطيسياً ، فلا يعود قادراً على أن يمنع عنها ما تريد ، أو أن يقوم بما يزعجها . . حتى إنه أخذ يستخفى ، فى مغامراته ، ويخفف منها ، إكراماً لقرة عينه ، فلا تتأذى ولا تتألم . . وقد امتنع عن المقامرة ،

فى داره مراعاة لعواطف ابنته ، بعد أن كانت هذه المقامرة فى الدار ، فى مقدمة أسباب خلافه مع زوجته ! . .

إن صخراً من الأشداء « القبضايات » ! .. وقد أصبح ثرى حرب ! .. وما كان ليستطيع هذا الإثراء المشبوه، لولا حماية وجيه متنفذ ، هو نسيب بك ، يكافئه بها على ولائه وإخلاصه . . فيطلق يده فى تجويع الفقراء ، وتعرية المحتاجين ،وتخدير عقول الناس..وكثيراً ما كان يشاركه فى مغامراته ، فيقتسمان الأرباح ! ... وقد رفعت تلك الأرباح ، أو إذا شئت الرشى ، قدر صخر لدى زعيمه ، إلى مستوى ، جعله جديراً بصداقة من يحميه ، فأصبحا صديقين حميمين .. وهى صداقة لا يفتأ صخر يفاخر بها الناس.. وهم ينقمون ، بسببها ، عليه وعلى صديقه الوجيه .. المتزعم ! .. لذلك رأينا هنداً، ولا رجاء لها فى ثروة أبيها ، لأنه ، على ما سبق ، وصرحت لقيس ، مغامر يقامر ! . . والحقيقة ، أنها ، لتهذيبها ونبل أخلاقها ، تتألم من ثروة أبيها . . . فزهدت فيها ، وأصبحت لا ترجو لها بقاء ! . . . وما كانت هند ، مع شدة دالّتها على أبيها ، لتستطيع الجرأة عليه ، فى أعماله الخاصة ، بعد أن حاولت ، مرة ، فردعها بتشدده وبهيبة أبوته . . ومن يجرو على صخر وهو الشديد الثرى ؟ . .

هناك شخص واحد يهابه صخر ، ويخشى جرأته عليه ،

فيداريه ويجامله ، ذاك هو أنيس ، خال هند ، إنه ثرى ، ولكنه نمى إرثه من أبيه ، بكده وعرق جبينه . فكان إثراؤه ، شريفاً مشروعاً . وهو من الأشداء ، أى من رجال الفتوة « القبضايات » ، ولكنه ما كان ايدين بالتبعية لأحد من الوجهاء والمتزعمين ، لثقافته ، وقد حققت فى نفسه خصائص مميزات الفتوة الصحيحة ، وهى : المروءة ، والنجدة ، والإباء ، وحضور القلب . وشدة البأس . . . مع تهذيب ونخوة ، ورصانة وبعد نظر ، واستقلال . . . واو أن حناناً كانت تعود إليه فى أمر مظالم زوجها صخر ، وقسوته ، لانحلت المشاكل ، قبل وعى هند ! ولكنها كانت تخشى سوء العواقب ، لا سيما أنه قد سبق وهربت من بيت أبيها ، لتلحق ، بطريقة الخطف ، بصخر ، وقد هوسها بمظاهر الحب المزيف[1] فقام بين العائلتين تقاطع عداء ، استمر سنة ونيفاً ، ثم عادت المياه إلى مجاريها . وكان عمر أنيس ، حينئذ ، لا يتجاوز الخامسة عشرة ، وصخر قد أتم الخامسة والعشرين . وكان ذلك منذ خمس وعشرين سنة ! وما فتىء صخر يعجب بفتوة ابن عمه أنيس ، ويتمنى لو استطاع أن يكون له تهذيبه وثقافته ! . . لم ينجب أنيس ولداً ، وقد

---

(١) فى كتاب « الحياة والشباب » (الطبعة الثانية) ص ١٩١ بحث عن هذا الحب .

مر على زواجه سبع عشرة سنة ، فانصرف حنوه ، وحنو زوجته ، لابنة أخته هند . . فكان لهما ، فى حسن تربيتها ، وتوجيهها الأثر القوى . . فشبت ، وهى ترى ، فى خالها ، خالا ، وأبا ، ومرشداً وحامياً . . .

وكأنى بهذا الحنان الرصين ، والشفقة المثقفة ، تنعم بهما هند ، من لدن خالها وزوجته ، قدأثارا عاطفة الأبوة ! فتفجرت فى قلب صخر ، القاسى ، ينابيع حب ورحمة وشفقة ، فانقاد لعواطف الحب الأبوى ، بكل ما فى هذا الحب من ولع ، وتضحية ، وفناء ! . . . فهند ، عنده ، هى كل شىء فى الحياة . على ما سبق وألمعنا ، فلا عجب إذا ما جعل اسمها رمزاً لسعادته ، وأصبح ينادى زوجته ، بأم هند ، ولا عجب إذا بادلته زوجته العاطفة ذاتها ، وهى إنما تهنأ بفضل ذلك الحب المنقذ ! . . منذ أكثر من عشر سنوات ! . . .

إن أبا هند ، فى حبه لابنته ، كان يكبت ، فى نفسه ، أشياء وأشياء . ولكنه كان كبتاً محبباً يسعد به ، إذ يسعد هنده ! . . أوهكذا كان يحاول أن يقنع نفسه ، فيرى سعادته فى دلال ابنته ودلعها ! . . .

كان أول سؤال ألقاه أبو هند على زوجته ، بعد تحية الصباح ، قوله : أين الحبيبة ، يا أم هند؟ . . . إننى لم أجدها فى غرفتها ! . . .

الأم : خرجت باكراً ، على عادتها ، قبل الوعكة ، وكانت نشيطة جداً ولله الحمد ! . . .

الأب : ولمَ لم تحيني قبل الذهاب ؟ ما تعودت منها ذلك ! . . وهى تعلم أنى أتشاءم من يوم ، لا تصبحنى ، فيه ، بوجهها الصبوح . . . الجميل ! ! . . .

الأم : أطلت على غرفتك ، فوجدتك مستغرقاً فى نومك ، فلم تشأ إزعاجك !

الأب : كان عليها أن توقظنى ... وما أحيلى استفاقة ، تفتعلها هند ، لتقبل أباها ! . . . أعوذ بالله من شؤم هذا اليوم ! ! . . .

الأم : لا داعى للتشاؤم ! . . يكفى أنها أطلت عليك . . . ولا بأس من تأجيل قبلة الصباح إلى الظهيرة ! . . .

الأب : تحظين بقبلة الصباح من هند ، معجلا ، وتريدين أن تكون حظوتى بها مؤجلة يا ظالمة ! . . .

الأم : أراك تغار من هند ! . . .

الأب : بل أغار عليها ! . . .

وابتسم الزوجان ابتسامة طويلة ... لا عرض لها ... ولا عمق . . . ثم استمر الحديث على الوجه الآتى :

الأم : ولم تأخرت فى نومك اليوم ، فقد أقلقتنى ! . .

الأب : أرقت أكثر الليل ، وأنا أفكر فى أمر هند ؟

الأم : لم يكن من موجب للأرق والتفكير ، وصحة هند على ما يرام ! . . . لعل مشروعاً جديداً يشغل بالك ! . .

الأب : نعم إنه مشروع عظيم ، وله بهند صلة كبرى ! . . .

الأم : مالك تدخل هنداً فى مشروعك هذا ، ونفسها تتقزز من كل مشاريعك ، وأعمالك ؟ ! . . .

الأب : (مفتعلا ابتسامة ، أرادها بيضاء ، فجاءت صفراء) ليس هو مشروع تهريب أو احتكار أو بيع أراض لليهود ، وإنما هو مشروع صناعى كبير ، عرضه على نسيب بك الجليل ، على أن يضمن القسم الأوفر من رأس المال ، وتكون الأرباح مناصفة ! . . ما أكرم هذا الرجل العظيم ، وما أعظم سخاءه ! . . إن النبل والشرف ليتقطر من فمه ، ومن عينيه ! . . .

الأم : (هازئة) أصدقته ، والناس يتهامسون إنه بدأ يبيع من أملاكه لعجزه عن دفع الديون ؟ ! . . .

الأب : (محتداً) مالك ولأعمال لم تخلق لها النساء ؟ ! . . وقد كان من كرمه ونبله ، حفظه الله ، أنه طلب يد هند لابنه جميل . . . فقدمتها له بكل فخر وغبطة . . . ستسكن هند قصر نسيب بك العظيم . . . وستغدو من النساء النبيلات . . .

الأم : أوعدت بيدها ، دون أن تأخذ رأيها ؟ . . . ضاع صوابك أيها الرجل ! . . . (وكانت الأم على علم بسبب أرق هند ووعكتها . وهى تعلم أكثر من ذلك، فإن هنداً تكره جميلا ، وتنفر منه وتحتقره) .

الأب : وهل للبنت خيار فى زواجها ؟ . . ولا سيما إذا كان لها أب حنون ، شفيق ، يعرف كيف يهيء لها سعادتها ؟ ! . . ثم إنه ابن نسيب بك . . . فهل تجدين فتاة ، لا يطير قلبها فرحاً ، حين يطلب يدها ، لابنه الشاب الجميل ، الأنيق ، المهذب ! . . إننى سأزف لهند البشرى ظهيرة هذا اليوم ، وقت الغداء . . .

الأم : لا تسرع ، أيها الرجل ، وافسح لى مجال مباحثتها فى الأمر ، فى ظرف ملائم ! . . . فإنها خارجة من وعكة ، أخشى عليها نكستها ! . . .

الأب : وممَّ تتخوفين ، أيتها البومة ؟ . . . وهل تنتظرين لهند حظاً يدانى هذا الحظ ؟ ! . . . إياك أن تتدخلى فى هذا الأمر ! . . . فأنا أكره تدخل النساء فى أعمال الرجال ! . . سأبقى هنا بجانبك إلى وقت عودة هند ، عند الغداء ، وسترين كيف أدخل على قلبها السرور ، والغبطة ، والسعادة ، حين أبشرها بأن نسيب بك

يريدها لابنه جميل بك . . وهل من إنسان أعظم حظاً مني ، ومنك ، ومن هند ، يا جاهلة ! . . . إنك حمقاء . . . لا تزالين تنذرين بالسوء ! . . والله ، لئن شوشت على مشروعي هذا ، أخمدت أنفاسك!

فسكتت ، لأنها تعلم قسوته ، ولا ناصر لها الآن! . . .

وسكت ، منتظراً الظهيرة ، ليزف بشرى السعادة . . لهند .

دخلت هند البيت ، والبشر طافح على وجهها ، بفعل الأمل... أمل تكوين عش غرامها ، في بيت ، تتعاون فيه مع من اختارته حبيباً ، ورفيقاً ، وشريكاً ، وكان جديراً بحبها ، ورفقتها ، ومشاركتها في الحياة ! . . .

المرأة أم قبل كل شيء! لا تحلم في فتائها وشبابها ، وفي طفولتها ، لحد ما ، إلا بالبيت الذي ستخرج إليه ، وبالولد الذي ستربيه ، وتحن عليه ، ويملأ ذلك البيت مرحاً ، وظرفاً ، وسعادة! . . . لذلك تراها تفكر في الفتى الجدير بأن يملأ قلبها فيكون جديراً بمعاونتها على تجديد الذات ، بتجديد الحياة ، وإخصاب المجتمع ، بإخصاب العائلة... وتبحث عنه.. إنه فتى الأحلام! ...

ملأ قلبها قيس ، واستقر فيه . وبرهن على أنه جدير بذلك القلب ، يملؤه حباً وعطفاً ومودة ورحمة... فهو الحري بأن

يسكن إليها ، وتسكن إليه ، ولن يفرقهما إلا الموت ! ... تفريقاً ظاهرياً عرضياً... لأن الحياة ، ولا سيما حياة المحبين ، تستمر إلى ما بعده ! ... وأى عائق يعيق توحيد حياتها بحياة قيس ؟ ... أمه راضية ، وأبوها وأمها لا يجدان هناء إلا فى سعادتها... فلن يعترضا طبعاً ، على ما تختاره فى أمور حياتها... وهى هند الحبيبة ! .. وما إن أطلت هند على أبويها حتى هتفت قائلة : يا ما أحيلى الماما . . ويا ما أروع البابا . . . ينتظران هندهما ! ... وأقبلت هند تقبلهما بمرح الفتاة ، تلهبها الأحلام ، ويهدئ روعها الأمل ! . . .

الأب : أهلا . . . أهلا . . . هند ! . . . إنك تعوضينى من قبلات الصباح ! . . . فما أجملك ابنة ، تعرف كيف تفى دينها لأبيها ! ! . . .

هند : (وقد أدركت موضوع عتابه) أطللت عليك ، فى الصباح ، يا بابا . . . ولكنك كنت غارقاً فى نومك فلم أشأ إزعاجك ! . . . لعلها أحلام حلوة ! . . . وابتسمت ! . .

وقد كانت تخاطبه برقة ودلع وغنج ، تجمعت كلها ، وضعاً حلواً ، يستطيبه الآباء ، ويأسر قلوب الأمهات ! . . . ثم أخذت تعبث

بشاربيه . . . وأخذ يستكين ، ويقول : ومن غير هند يستطيع اللعب بهذين الشاربين ؟ . . قالها ، مباهياً ! . . (والاعتزاز بالشوارب من مميزات الأشداء القبضايات ! . . والويل لمن يمسها بسوء ، ولو باللفظ !. .) فأجابته : يا ما أحيلى عطف الآباء ! والأمهات ! . . وراعها أن أمها كانت على صمت رهيب مريب ! . .

الأب : لا شيء أروع من حنان البنت ، ووفائها لأبيها ! . . ثم شزر إلى زوجته . . وأتم حديثه قائلا : كانت أحلاماً حلوة حقاً ، يا حبيبة الروح ! . . إنني كنت أحلم بك وبسعادتك !. . أرقت كثيراً ، قبل نومي البارحة ، ولذا استغرقت في النوم ! . . وما كان أرقي إلا لفرحي الشديد ببشرى ، كدت أوقظك ، لأزفها إلى قلبك العطوف ، فلم أشأ إزعاجك ، فانتظرت الصباح ، فخاب تقديري ، لما أسرعت في خروجك ! !...

هند : هي . . . إذن كانت واحدة بواحدة : لم تزعجني ولم أزعجك ! . . وبشراك ، ألا تصلح إلا لليل؟ !

الأب : بل هي تصلح لكل آن ! . . وما أنا في انتظارك إلا بسببها ! . . وهل تكمل سعادة الآباء إلا بمثل

هذه البشرى يزفونها إلى أبنائهم . . . وبناتهم ؟ . .

بدأت هند تدرك مرمى الوالد . وكاد يذهب بها الوهم إلى قيس ، لولا جمود أمها ، فظهر عليها شيء من نفور ، توهمه الوالد الأحمق تضجراً من تأخير بشراه ، فقال لها مترفقاً ، اجلسي ، إذن ، لنتناول حديث بشارة ، ما كنت أنتظر أن يسمح بمثلها الدهر ! . .

هند : أراك ، يا بابا ، مأخوذاً ببشراك هذه لدرجة الوله ! .. وقد أخفتني ! . . فماذا عساها أن تكون ؟ ! . . .

وجلست جلسة المتوجس الخائف ! . .

الأب : وهل يخيف هنداً أن تصبح ربة قصر عظيم ، حولها الخدم والحشم ، تأمر وتنهى ، وتلعب بالأصفر والأبيض ؟ ! . .

هند : إنه لخبر مخيف ! . . ومتى عرفت مني يا بابا ، أنني أهتم بالقصور والحشم والأموال ؟ ! . .

الأب : إنك ما كنت لتطمحين إلى ذلك ، يا هند ! . . فكيف بك إذا ما ضم إليه نفوذ الوجاهة ، والزعامة والسلطان ؟ ! . . . .

هند : كل هذا يخيفني . . . وإنني لأشعر بقشعريرة الرعب تدب في كل مفاصلي ! . . بابا ... دعني من هذا

الحديث ... بحق ابنتك هند عليك ! . .

الأب : مالك تتسرعين ؟ . . أعلمت يد من هى تلك اليد الكريمة، تتنزل لطلب يدك الحلوة ، يا هند ؟ ! . .

هند : تتنزل ! . . تتنزل ! . . بابا . . بابا . . لا حاجة لى لمعرفة صاحب تلك اليد ! . . يكفى أن يكون من أصحاب القصور ، والحشم ، والأموال ، والسلطان ، حتى أنفر من يده ، فلا أتنزل لمد يدى إليها !... بابا ، كن رحيما ! . . فالفتاة العاقلة المثقفة ، تطلب قلباً ، تفتخر بأن يضم إلى قلبها ، وتحتقر المال ، والجاه والسلطان ! . . بابا . . بابا . . لا حاجة لى لمن يتنزل إلىّ ، ولا لمن أتنزل إليه ! . . . إن كنت أريد قراناً ، فإنما أريد فيه من ألتقى معه فى مستوى واحد، لا أراه أرفع منى ، ولا يرانى أرفع منه ، بل يرى كل منا الآخر جديراً به ! . .

الأب : ما أفطنك ! .. وما أشد قوة الإحساس فى نفسك !... إذن أدركت ما أريد ! . . ولا أدرى إذا كنت أدركت من أريد ! . . . .

هند : وهل تريدنى بلهاء ؟ ! . . أما من تريد ، فبحقك لم أتبينه ، ولا حاجة لى لذلك ! . . فابقه فى سريرة

نفسك . واعفني من هذا الأمر ! بحق هند عليك ،
يا بابا ! . . . .

الأب : (متصبراً ، وهو لا ينى ينظر إلى زوجته شزراً)
أعذرك ، يا حبيبتى ، لأنك لم تعرفى بعد من هو
ذلك الشاب ! . . إنك على حق ، فليس كل أصحاب
القصور ، والمال ، والنفوذ يرغب فيهم الإنسان العاقل!
فليس هو من هؤلاء . وإلا لما فكرت فيه ، وأنا أبوك
الذى تعرفين ، حنواً ، وعطفاً ، وتضحية ! . . .
إنه أنبل شاب ، وابن أشرف رجل ، فى هذا البلد ،
إنه جميل بك ، بن نسيب بك ! . فهل ترفضين
الآن؟ !.. (قالها بفخر وهو يبتسم ابتسامة المنتصر).

هند : جميل أخو فاتنة ؟ ! . . ويلاه ! . . إنها لداهية ! ..
أنسيت فعلته بسلوى ؟ ! . . ألم تكن ضحية فجوره ،
بمكر من فاتنة ، ومن صغارها ؟ ! . . أنسيت بابا ،
ما كنا نتنادر به من أحاديثهما وسفاهتهما ! . . وما
لا يزال يتنادر به الناس ؟ ! . . بابا ، أفى هذه
القذارات تريد أن تلقى بهندك ؟ ! . . .

الأب : مهلا ، هند ؟ ! . . إنها لهفوات الشباب ! . .

هند : ولكنها ، فى فعلة جميل وأخته ، جرائم وليست

بهفوات ! . . والله ، لو أن غير ابن نسيب بك وبنته فعلا ذلك ، لكانا فى الهالكين ! . .

الأب : إذن أدركت معنى النفوذ والسلطان ! . . فلعله يعيد إلى نفسك صوابها ! . .

هند : بابا ! . . أجاد أنت ، فى قولك هذا ، أم أنت مازح ، هازئ ، على ما أتمنى ؟ . . .

الأب : بل أنا جاد كل الجد ! . . فمن كان من أسرة نسيب بك ، فهو النبيل الشريف ، مهما اقترف من هفوات . كل إنسان ، يا بنيتى الحبيبة ، يعود لأصله ! . . وجميل من أصل ، رأسه فى السماء ! . .

هند : وفروعه تتمرغ فى المقاذر ! . . أيرضى حنوك الأبوى أن يقودنى إليها ؟ ! . .

الأب : إنك تغالين ، يا هند ! . . قلت لك إنها هفوات ، لا تؤثر بشاب هو ابن نسيب بك ، ثراء ونفوذاً ، ونسباً ، وحسباً ، و و . . . إلخ . . .

هند : بابا ! . . . لا أعتقدك جاداً فيما تقول ! . . .

الأب : قلت لك إننى جاد كل الجد ! . . وقد طلبك نسيب بك بنفسه ، ووعدته ، وانتهى الأمر ! . .

هند : وانتهى الأمر ؟ ! أمر مستقبل حياتى كلها ، قبل أن

يؤخذ رأيي . . . في أمري . . . وأمر حياتي ! . . .

الأب : إنك ستوافقين ! وابنة مثقفة مثلك ، لا تعق والدها ، ولا تقف في سبيل نجاح مشاريعه ! . . .

هند : وما هي صلة مشاريعك في الأمر ؟

الأب : مشروع عظيم ! . . سيموله نسيب بك ، ونجني منه الملايين ! . . . الملايين ! . . . وهو يشترط لذلك يدك ، أفلا تعقلين ؟ ! . .

هند : إذن تريد أن تبيعني بيع العبيد ، في سوق النخاسين !

الأب : يا ألله . . . ما أشد سخفك ، وما أكثر ما تجادلين ! أهذا يقال له بيع ، أم يقال له زواج ؟ ! . .

هند : (بانكسار وألم) بل أراني أصبحت لديك سلعة تبيعها أو أرضاً تؤجرها ، أو عقاراً ترهنه ! . .
وما لبثت أن برزت أنفتها ، فقالت : أهذا ماتريده لهند يا أبا هند ؟ ! . . والله للموت خير من أن أجيبك لهذا الأمر !

الأب : أتهددين أباك ، يا هند ؟ ! . . (قالها مقهقهاً هازئا)

هند : حاشا أبي أن يهدد ، فموتي ، أنا ، أردت ! . . .

الأب : هند ترفقي بحالك ، وبأبيك ، ولا ترفضي السعادة ! .

هند : إنها كل الشقاء ! . . .

الأب : أبوك أدرى بمصلحتك ، وقد قرر ووعد ، فهل تريدينه ناقضاً للوعد ؟ ! . .

هند : لا أريد أبي ناقضاً لوعده ، ما وعد فيما يملك !

الأب : (وقد ابتسم ابتسامة من وجد لضيقه فرجاً) أليس الولد ملك أبيه ؟ . . .

هند : كلا ! . . . الولد ملك ذاته ، ويبر أباه ! . . .

الأب : (محتدًّا) لعن الله ساعة دخلت فيها المدرسة ! . . أمع أبيك تتفلسفين ؟ : . . إنه لعقوق ! . . عظيم . .

هند : وأعظم منه بيع البنات بيع السلع ، أو بيع العبيد ! . . هنا انفجرت عينا الأم بدموع سخينة ، وأخذت تجهش بالبكاء ، وهي تقول ؛ دعها الآن . . واتركها لى لأقنعها ! ... وامهلنى أسبوعاً واحداً ! . . .

الأب : ولكن نسيب بك مستعجل ، ولا أستطيع إزعاج خاطره بإمهاله ، إرضاء لك ولابنتك ! . . إننى قد وعدت ، ويجب أن ترضخا لأمرى ! . . . ولن أقبل ، بعد ، أى جدل ! (قالها بجزم وحزم وعزيمة)

هند : (وقد استجمعت كل ما فى نفسها من قوة وإباء) وأنا قد وعدت ، ولن أقبل فيمن وعدت الجدل ! . .

الأب : وعدت من ؟ يا عاقة أبيها ! . .

هند : وعدت قيساً ، ذلك الشاب النبيل !

الأب : وعدت قيساً ، ذلك القروى اليتيم الفقير ، يا خائنة ؟!

وأخذ الغضب من الأب مأخذه ، فهجم على ابنته ليصفعها ، ولكنها ارتدت ، وتوارت ، وأغلقت الباب وهى تجهش بالبكاء والنحيب !

وبينما كان صخر يصخب ويصرخ ، مهدداً بذبحها ذبح النعاج إذا لم ترضخ لإرادته ، دخل أنيس خالها ، فدهش مما رأى . . واستغرب مايسمع ، فسأل عن التى تستحق هذا الذبح . . . فأجابه صخر : إنها هند العاقة ، تتمرد على أبيها ، وتعصيه ! . .

ولما علم بما وقع ، استمهل صهره ، ليجتمع بابنة أخته . . . وفى حديثه معها تأكد أن أباها يسيء فهمها ويريد بضغطه ، أن يسلبها استقلالها ، ولا شيء أعز على الشباب من استقلاله ! . . وبإساءة فهم الشباب تستحكم فى النفوس العقد ، وتنشأ المنازعات ، فتفسد الصلات فى الأسر والعائلات . . ويضطرب المجتمع ، فتنهار الأمم ! . . وهنا يكمن الفارق بين تربية صالحة تسمو بالنفوس ! . . وتربية طالحة ، تسف بها .

رجع الخال إلى صهره ، وبادره بقوله :

الخال : أتعلم أن الحمى بدأت تتسرب إلى جسم هند ؟ . . .
وأننى قد اضطررت إلى استدعاء الطبيب تليفونياً ، الآن !
من غرفتها . . .

الأب : لموت البنت خير من حياتها ، عاصية ، عاقة ! . .
وإن حرمانها من إرثى هو أول ما قررت إذا استمرت
على عصيانها ! . . .

الخال : أتحكم عليها بما تقول ، بعد أن تحاول صفعها ،
وتهدد بذبحها ، وتتناسى أنى خالها ! . . .وأن مكانتها
فى نفسى مكانة الولد ؟ إنلك تعلم أننى لم أرزق ولداً
فى حياتى . . . وكل تعزيتى أن لى فى هند ولداً ، أحن
إليها ، وتملأ فراغ قلبى ! ... أفلا تراعى هذه العاطفة
فى نفسى ، إذا كنت لا تراعى عاطفة الأبوة ، فى
نفسك ! . . . إن كنت تقدر أن شعلة الفتوة قد
خبت فى نفسى ، إذ تعلمت ، شأن أكثر المتعلمين
اليوم ، فقد خاب ظنك ! .. فالتعلم إذا أصبح ثقافة ،
يزيد الفتوة تركيزاً ، ويحسن توجيهها ! فاحذر أن تمس
هنداً بسوء ، ولو بكلمة ، فإنك لن تأمن ، عندها ،
غائلتى ! . . ولن يأمن شرها ابن زعيمك ، ولا زعيمك
نفسه ! . . تهدد بحرمانها من ثروتك ، وهى أزهد الناس

فيها !. ولن تفقرها بذلك . . . فلها ثروتي وثروة أختي
معاً ، وفيهما ما يفوق ثروتك ، فاهنأ بثروة ، يعرف الناس
جميعاً كيف جمعتها ، نهباً و سلباً . . . وتذللا وتدليساً
بفضل طغيان زعيم ، تعتز باستعباده لك ! . . .
وبإشراكك في آثامه وجرائمه ! . . .

ولما كان صخر ، على ما أسلفنا ، من الأشداء الجهلة . . .
فقد كانت الفتوة ، في نظره ، صخباً وضجيجاً ، وعنجهية
وغروراً ، يعبر عنها شارباه ، وتبختر مشيته ! حتى إذا ما
جد الجد ، ولم يكن هناك من يحميه ، ظهر عجزه ،
وأسفر عن جبنه . لذلك رأيناه ، يلين لابن عمه ، مؤكداً له
أنه إنما أراد تربيتها ، خوفاً عليها من الشذوذ ! . . فانتفض
الخال وقال : ومتى أصبحت تخشى على هند ، تلك
الفتاة المثقفة الواعية ، من الشذوذ ؟ . . .

الأب : منذ علمت منها بأنها وعدت قيساً بالزواج ، دون
علمي ! . . أفليس في هذا كل الشذوذ ؟

الخال : ما أكثر محاولاتك ماكراً ! . . وما أقصر طرقك في
مكرك ! . . ألم تستبق تصريحها بقسوتك ، متجاوزاً
حدود الأبوة ، بالبغي عليها وبالتعدي على استقلالها . . .
كإنسان ؟ ! . . ثم هل أمهلتها حتى توضح ما وعدت
به قيساً ؟ ! . . .

الأ ب : ألم تعده بالزواج ؟! . .

وظهر على الأب شيء من ارتياح ؛ وأتم قوله: إذن يمكن الحصول على قبولها الزواج بجميل ! . .

الخال : أهذا كل ما يهمك من أمر ابنتك ؟ ! . . يكفيك أن تقبل جميل بك قريناً ، فلا تأبه لكل ما يساورها من خواطر ، وعواطف ووثبات .! . . ما لك لم تسلني عما وعدت به قيساً ؟ . . أليتمه وفقره تتنكب عنه ؟ فلا يهمك من أمره شيئاً ! . . يا لك من غر جاهل !

الأب : أتشتمني ، وتهينني ، يا ابن العم ؟ ! . . (وظهرت عليه أمارات الاضطراب والارتباك ، لا الغضب)

الخال : ما أريد الشتم ، وما قصدت الإهانة ، وكل أمنيتي أن تترك غرورك وتعود لصوابك ! . . اذكر يا صهري العزيز ، أن الأمر يتعلق بهند ، وحيدتك ! . . .

الأب : إذن تقر أنت أنها تتمرد على أبيها ! . .

الخال : وهل في التمرد الصادق عيب ، أو نقيصة ؟ ! . . والنقيصة في الشباب إنما تكون في العناد والعصيان !

الأب : فلسفة جديدة ! وهل من فرق بين التمرد والعصيان.

الخال : الفرق بينهما واسع الآفاق : فبالتمرد يدافع الشاب عن ذاته ، فيرفض ما لا يقتنع به ! وهو فضيلة !

أما العناد والعصيان ، فحالتان تتطوران عن تمرد ، ظهر خطؤه . . . وهما نقيصتان فى الشباب !

الأب : (وقد انفرجت أسارير وجهه) أليس فى تفضيل هند قيساً اليتيم على ابن نسيب بك ، الكبير الوجيه . . . المتنفذ . . أخطاء ؟! . . وليس خطأ واحداً ! . . فهل يكون إصرارها تمرداً صادقاً ، على زعمك ؟ ! . . ثم ألم يكن خطؤها عظيما ، وقد وعدت قيساً دون أن تستشير أباها ؟ ! . .

الخال : حقاً إنك صخر ، لا يتفجر ماؤه ! . . أى عاقل يقول إن تفضيل اليتيم الفقير المهذب ، على ابن السرى الغنى الفاسق ، خطأ فى معارك الحياة ؟ ! . . وهل كنت تجد فى تصرف أختى ، زوجتك ، خطأ ، عند ما فضلتك على فريد الغنى ، وقد كنت فقيراً ، آنذاك ؟ . . ما لنا لا نعامل أبناءنا بما سبق وأردنا أن يعاملنا به الآباء ؟! .. أنكون أشد بشرية من أبنائنا ؟ ! .. (وهنا ظهر على صخر انخذال وانكماش) ثم بأى شىء وعدت هند ؟ . . إنها ، على ما فهمت منها ، لم تعد قيساً بالزواج ! . . وكل ما فى الأمر أنها ، وهى الفتاة المثقفة الواعية ، وجدت فى قيس ،

فتى أحلامها ، بعد أن اختبرته، واختبرت غيره ، من شبان الجامعة ، وغيرهم . . . وأنت تعلم أنها سبق أن رفضت أن تستجيب لكثيرين من شبان، طلبوا يدها قبله، وكنت أول المحبذين لضرورة منح هند استقلالها، في اختيار من ترضاه شريكاً لحياتها ... فوعدت قيساً بأنها لن تكون لغيره ، لاقتناعها بأنها وجدت فيه فتاها ! .. وهي لم تحترز من وعد جازم حاسم ، إلا انتظاراً لموافقة والديها ، ومن تثق بهم من الأقربين ولا سيما موافقتك أنت ، يا صخر ! .. فإن وافقتم ، فبها ونعمت . . . وإلا فهي قد قررت أن لا تكون لأحد ! . . وهذا قرار تمرد صادق ، لاقرار عناد مفتعل ، أو عصيان . . . فهند ، لما هي عليه من وعي ، لن يخشى عليها الإصرار على قرارها ، عناداً إذا ما تبين لها ، مع الزمن ، أنها كانت على خطأ . . فهي تعلم أن الرجوع عن الخطأ صواب ، وفضيلة . . ولكن المهم لديها ، في كل ذلك ، اقتناعها هي ، أولا . . وهذا حق مقدس من حقوق كل إنسان ، وقد اعترفت به جميع الشرائع ! . . .

* * *

وهنا لحظ أنيس تبدلا في هيأة صخر ، أكد له حسن تأثير أقواله ، ولاسيما عندما فسح لصهره مجال الأمل ، في إمكان

الرجوع عن وعد عقدته هند، إذا ظهر خطؤه ، فأتم حديثه قائلا :

فأنت ترى أيها العزيز ، أن هنداً ما تزال برة بك ، و بوالدتها. و إنها لتعترف بأن لكما عليها أن لا تقترن بمن لا تريدان ، فلا تفعل فعلة أمها ، فى استسلامها إليك ، على الرغم من والديها ، وهذا بر عظيم . . (فتململت الأم واحمر وجهها) . . . وتضحية كبرى . . . يجب الاعتراف بها . . لأنها تضحية بالحياة ، فى سبيل إرضاء الوالدين ! . . وأما أن تجبرها على الاقتران بمن لا تريد ، فإنه بغى وعدوان . . . لن ترضاه . . . ويحق لها ، ولكل فتاة واعية مثلها ، أن تتمرد عليه ! . . .

وهنا توقف الحديث لوصول الطبيب ، وقد اختاره أنيس من بين من يعرف من الأطباء الأجانب ، لسببين : لأنه يستطيع أن يطلعه بلغته ، وهو يتقنها على جلية الأمر ، فلا يفهم صخر ما يقول . . . ثم هو يعلم أن صخراً ، وأمثاله ، من الجهلاء ، ومن المغرورين من أنصاف المتعلمين ، يتهيبون الأجنبى ، ويستسلمون إليه ، لأنه أجنبى ! . . وهى عقدة صغار ، تجعله يأمن على ابنة أخته من مفاجآت الوالد ! . .

تبين للطبيب أن حرارة هند بلغت الأربعين درجة ، فوطأة الحمى شديدة . . . فأوصى بأن لا تزعج ، وأن لا تثار . . .

وطلب ، بالاتفاق مع الخال طبعاً ، أن يخصص لها ممرضة ، تلازمها ... واختيرت أجنبية أيضاً للسببين ذاتهما ... فجعل أنيس ابنة أخته ، في حصن منيع ، إلى أن تبل من مرضها ! ..

وبعد ذهاب الطبيب ، رأى أنيس أن يلاين صهره ، فقال له : ياعزيزي ، إن حالة هند خطرة ، فعليك بمداراتها ، والحنو عليها . وإياك أن تثيرها بأي حديث .. يزعجها ! ...

الأب : ونسيب بك ينتظر جوابي ، وهو مستعجل . . . وأنت تعلم مقدار احترامي له . . . وأنني أضحي ، في سبيله ، بكل غال ونفيس ! . .

الخال : لك في مرض ابنتك ، مبرر للتأجيل . . . واترك لي تدبير الأمر . . . .

الأب : إذن تعدني بإقناع هند ! . . .

الخال : سأدرس القضية . . . وأحل المشكلة . . . ولن يكون إلا ما ترضاه ، أيها الصهر ، وأختي تساعدني على ذلك . . . (وغمزها)

الأم : سأعمل على إقناعها ، عند ما تشفى ، إن شاء الله ! .. فانفرجت أسارير الأب ، وقبل زوجته ، وأخاها ، وهو يقول : شكراً لكما ، فأوامر نسيب بك مقدسة . . . حرام أن لا تنفذ .. . وابنه جميل بك زينة الشباب . . . وسيدهم ... فما أسعد هنداً ، في ذلك القصر المنيف ! ...

٧

فى البيت الصديق

وهل هو سوى بيت كريم ، ابن عم هند، وسلمى ، بنت عم قيس ! . . ويذكر القارئ النبيه أن اقترانهما كان فى مقدمة الأسباب التى سهلت تقارب قلبى هند وقيس ، وتعارفهما ولا بد للحب من أسباب مهيئة ، تشغل الفؤاد ، قبل أن يتصل بالشعور والوجدان ! . . . وقد كان هذا التعارف فى وقته المناسب ، إذ كانت هند فى طور اتجاه الحب ، فى نموه فى نفسها ، نحو اختيار فتى الأحلام ، لتؤسس معه ، فى عهد غرامهما ، البيت الذى ينمو تخيله ، مع نمو الحب ذاته . فمن صورة البيت الذى ستخرج إليه ، ومن فكرة الأولاد الذين سينشأون فيه ، تتكون أحلام الفتاة ، فى شبابها ! . . . وإلا كان الحب هوساً ، لا أمل معه ! . . . فيفنى الشباب فى سكون عزلته الداخلية ، أو يفسد ، فتكون الأمراض ، والمآسى ! . . . ولا تكون الاضطرابات ، والشذوذ ، فى حب ، لا أمل معه ، سوى

انعكاس لما هو فى داخل الذات ، فى سكونها ، وخمودها ، من كبت وغم وألم ! . . . وقد وجدت هند فتاها ! . . . فعليه أن يحقق حلمها فى تكوين بيتها ، ليصبح عشاً لغرام خصيب ! ... يملأ قلبيهما ، ويسعد حياتهما المشتركة ! . . . وبذلك يتحقق معنى الزواج الصحيح . . . فى وعى سليم لوثبات الشباب ، فى الفتيات ، وفى الفتيان ! . . .

وقيس ، منذ تفتحت زهرة الحب الصادق فى قلبه ، لاينى عن التفكير فى البيت الذى يتحقق فيه هذا الحب ، عطاءً سخياً خصباً ، ترتاح إليه الذات ، روحاً وجسداً ، فتركز الحياة ... وتسمو . . . وتسعد . . . على ما يشاهده فى بيت سلمى وكريم ! فهذا البيت ، على بساطته ، لأن موارد عصفوريه لا تسمح لهما بالترف ، تشع السعادة فيه إشعاعاً ، لا يجده فى قصور المترفين . فالسعادة تنبثق من داخل الذات ، بفعل الحب ، لا مما نمتلك فى خارجها ! . . . وأصبح قيس يعتقد هذا ، بعد أن فجّر حب هند ، فى نفسه ، منابع فلسفة الحياة ، فى التصرف وفى السلوك ! فمورده الضئيل ، وهو ما تبقى من إرثه ، وما وعدته به أمه من مساعدة ، إلى أن يريش ، وموارد أعمال مثمرة ، صمم على القيام بها ، فى فراغه ، تكفيه لبناء عش غرامه السعيد ! . . فلا حاجة للتأجيل ! . . والتأجيل ، بعد التعارف الروحى العميق ، بين

حبيبين ، تفتحت فى نفسيهما زهرة الحب الصادق الصحيح ، خطر . . . وقد تصدر عنه المآسى . . . والفواجع . . . فليتنبه الأولياء . . . وليفطن لذلك من يهمه أمر صلاح المجتمع ! . . من شباب . . . وكهول . . . وشيوخ . . .

كان بيت سلمى وكريم مثالا ، يحاول أن يحتذيه قيس ، فى حياته المقبلة . فما فتئ ، منذ انبثقت ينابيع حب هند فى قلبه ، يرتاده كل يوم ! . . . ليستلهم جوه ، وليتسقط أخبار الحبيبة ، فى مرضها الأخير ! . . . عرف بكل ما وقع ، فاستولى على نفسه ألم حزين ، وازداد تولها ! . . وما كان يجد شيئاً ، من تعزية وسلوى ، فى غير هذا البيت الصديق ، بعد أن انقطعت أمه عن زيارة بيت هند ، على مضض ، بعد أن حدث ما حدث . . . وقد كان طائرا هذا العش ، الجميل فى بساطته ، والسعيد فى هدوئه واطمئنان نفسيهما ، كريمين ، فى عطفهما على حب ، شبيه بحبهما ، صدقاً وإخلاصاً . . . وكريمين فى مؤاساتهما لقيس ، وفيما ينقلان إليه من أخبار هند ، وصحتها ! . .

وهند ما كانت لتردد ، فى هذيان الحمى ، سوى كلمات هى : قيس ! . . . حبيبى ! . . . لن أكون لسواك ! . . . وكانت نفس أبيها صخر تتصدع ، عند سماعه تلك الكلمات ، ولكن . . . ماذا عساه أن يصنع ؟ ! . . . المرضة بجانبها . . .

وهى أجنبية . . . يهابها ! . . . والطبيب يأتى مراراً كل يوم . .
وهو أجنبى . . . يهابه ! . . . وخالها ، يكاد لا يغادر البيت .
وهو شديد . . . يهابه أيضاً . . . إن صخراً كان يفضل موت ابنته
هند على إغضاب نسيب بك ! . . . وحاول أن يستميل زوجته
لتقنع ابنتها ، مراراً ، ولكنها كانت تجيبه ، وهى تجهش بالبكاء :
أفى مثل هذه الحالة تستطاع محاولة الإقناع ! . . . أتريد أن
تقتلها ؟ ! . . . فيقول لها ، بصفاقة المهووس ، ولكن نسيب
بيك مستعجل ! . . . وكان يقولها بانفعال مكبوت ! ! . . .

عقد لسان قيس ، من دهشة المفاجأة ، عند ما رأى هنداً
تدخل ، مع الممرضة ، إلى دار سلمى وكريم ! ! . . . إنه
كان هناك ، تلبية لدعوتهما ، فى تناول طعام الغداء . . . فما الذى
جاء بهند فى هذه الساعة ؟ . . . أهى مدعوة أيضاً ؟ وهذا منتهى
العطف من صديقين كريمين . . . ولكنها المفاجأة ! . . . ولا
تخلو من خطر ! . . . أم أن هنداً علمت بأمر الدعوة ، فجاءت
هى تفاجئه ؟ . . . والحبيب لا يحاسب ، ولا يحاكم ! ! . . .
ولكن الواقع لم يكن هذا ، ولا ذاك ! . . . فقد كانت
دهشة هند أشد من دهشة قيس ! . . . فاستلقت على الأريكة
ولم تتكلم ببنت شفة ! . . . استولى الذهول ، مدة ، على
الجميع ، وكانت عيون هند وقيس تتبادلان نظرات الحب والحنو
والإشفاق ! . . . وما ذرفت الدموع ، حتى فتأ عنهما الحال ،

وتنفس الحاضرون الصعداء ! . . . فقالت الممرضة : ما أروع
لقاء المحبين ! . . . وقال كريم : وما أشد دهشة المفاجأة ، فى
الحب ! . . . فأكدت سلمى قائلة : إن أسعد لحظة ، هى تلك
التى يلتقى بها المحبان ، بعد فراق واشتياق ولوعة . . . فلا غرابة
إذا ما سيطر فيها الذهول . . . فالسعادة ، فى صميم القلب ،
تشغل الإنسان عن كل ما عداها ، فيذهل حتى عن ذاته ! .
فنحن الآن كلنا سعداء ! ! . . . أهلاً ! . . . أهلاً ! . . .
بك يا هند ! . . . ألست سعيداً يا قيس ، وهند أمامك ؟ ! . .
فلم يستطع جواباً ، فنابت عنه دموعه ! . . . فتحاملت هند ،
على ضعفها ، وقالت : ما بك ، قيس ؟ . . . فأجاب منكسراً :
ما بك يا هند ! . . . ألم وجوى ، وحرقة فؤاد ! . . . .

كان قد مضى على فراق الحبيبين ما ينيف على الأسبوعين .
وقد بلغ الإعياء بقيس حداً ، أوجعه وأضعفه . . . وكان الطبيب
الأجنبى ، وقد أصبح طبيبه ، منذ اعتمد عليه فى تطبيب هند ،
قد أوصاه بأن يلزم فراشه ! . . . ولكن أنى له ذلك ، وهو
مضطر لإتيان بيت سلمى وكريم ، مستأنساً ، مستعلماً ! . . .
فكان يتحامل على نفسه ، ويتقوى ، بإمداد وثبات الحب ، فى
فؤاده ! . . . وكم حمل الحب المحبين ! ! . . . وما رآها ، حتى
سيطر عليه الإعياء ، فلم يستطع الوقوف ! . . . وقد حاكى

هزاله هزالها ! ! . . .

ابتسمت هند ، فابتسم ، فى وجه قيس ، الكون كله !...
أليست هى كل شىء عنده ؟ . . . ثم قالت بحنو ظاهر ،
وإشفاق متألم : أراك هزيلاً ، يا قيس ! . . . أكنت مريضاً
أيضاً ؟ ! . . . فأجابها : أولسنا شريكين ، فى السراء والضراء؟
أتمرض الحبيبة ، ولا يمرض قيس ؟ ... فاستدركت ، مازحة ،
تقول : وكيف يتحقق التعاون إذا ما مرض الحبيبان ؟ ! . . .
معاً ! . . . فاتخذها قيس فرصة ، يبث بها وجده ، فقال :
يتحامل قيس على نفسه ! . . . وفى خدمة الحبيبة ، وفى عنايته
بهنده ، يجد القوة . ومن أنفاسها يستمد التشجيع . . . فتكون
مواساته لها شفاء له ! . . . كم غبطت هذه الممرضة المهذبة
الحنون ! . . . وكم تمنيت لو كنت مكانها ، فأقوم بخدمة من
أصبحت كل وجودى ، فى هذه الحياة ! . . . فقهقهت هند
قهقهة خفيفة حلوة ، وقد ظهرت على وجهها أمارات الانشراح ،
والارتياح ، وهدرت ، كالحمائم ، تقول : إنك شديد الأنانية ،
يا قيس ! . . . فأراد أن يدفع عن نفسه هذه التهمة . . . ولكنها
استمرت قائلة : ولم لا تتحامل هند على نفسها . . . وتعنى
بقيس ؟ ! . . . فاندفع يقول : ليت قيسا يظل المريض ،
والحبيبة هند الآسية . . . فابتسم الجميع ، وصفقوا إعجاباً ببراعة

التخلص . وابتدرته الممرضة ، برطانتها ، تقول : إذن كنت مزاحمة لك ، يا قيس . . . وما أدرى ماذا كنت تصنع ، لو كنتُ فتى ! فأجابها ، بتحمس المندفع : إذن لقتلت نفسى ، ولا أجرؤ على أذية من يخلص مثلك ، لهند الحبيبة ! ! . . فأعجبت الممرضة بذكائه ، ورأت أن تستمر فى مداعبتها له ، ترفيهاً عن هند ، فغمزتها بعينها ، كمن يريد أن يقول : لا تأبهى لما ستسمعين ، فإننى مازحة ، وقالت : وإذا قضت الحوادث بأن تقترن هند بغيرك (ولم تجرؤ أن تقول بجميل ، لأنها تعلم سوء تأثير هذا الاسم على نفس هند ، وشدة وطأته على قلبها ، فهل تتحمل ذلك ، فى سبيل راحتها ؟ ! . . .

هنا وقف قيس كالمأخوذ ، واتجه إلى مقعد هند ، وجلس بجانبها ، وأخذ يقول ، وعيناه تنظران إليها ، وقد غمرتهما الدموع : حياتى ، إن ممرضتك تداعب وتمزح . . . أما أنا ، فإننى جاد كل الجد : إن أى حل يريحك ، يسعدنى ! . . . فلا تتقيدى ، بأى وعد ، أو عهد ! . . . فإننى أحلك منها جميعاً ، فى سبيل راحتك ! . . . إنما يسعدنى أن تكونى سعيدة وكفى ! . . . فاتخذت هند هيأة الجد والتصميم ، وقالت : أو تعدنى ، إذا ما وجدت حلا أرتاح إليه ، فى هذه الورطة ، أن تحل نفسك من وعدك ، وتقترن بغيرى ؟ ! . . . فأجابها ،

والجد والحزم بارزان على وجهه : إننى أتحمل ، فى حبك ، يا هند ، ومن أجل راحتك ، كل شىء ، إلا هذا ! . . . ليس لأننى أتمسك بوعد ، أنت تحليننى منه ، بل لأننى لا أستطيع ! ولن أستطيع ! . . . فقد تملك حبك قلبى ، ولم يعد يهنأ إلا براحتك ! . . . على أى وجه ترتاحين ! . . .

هند : أتتحمل ، يا قيس ، أن أقترن بغيرك ؟ . . . ولا تتحمل أنت أن تقترن بسواى ؟ ! . . .

قيس : المهم ، عندى ، سعادتك ، وحدها . . . وحدها . . .

هند : أنتصارح ، يا قيس ! ! . .

قيس : إن فى أقوالى ، كلها ، كل الصراحة . . . وإننى جاد فى كل ما أقول ! ! . . .

هند : قيس ! . . . أحببتنى صحيحة سليمة . . . وقد تبين ، من توالى الحوادث ، أن جسدى ، لا يقاوم الصدمات ! . . . فجسمى أضعف من روحى ، وسيظل التوازن بينهما مختلا ، ولن يفارقنى المرض ، ولا الهزال ! . . . وإنى أجد هذا كافياً ليحلك من وعدك فتتحرر منه . . . وتسعدنى راحتك ، كما تسعدك راحتى . . . وأرى أن راحة كل منا أصبحت فى تحرره من وعده . . . أفلا توافقنى على هذا الحل ؟ !

قيس : وتتزوجين ؟ . . .

هند : ليس هذا موضوع البحث ! . . .

قيس : لمَ يحاول كل منا أن يخدع نفسه ، ويخادع حبيبه ، ليسابقه التضحية ؟ ! . . . أنا لم أحب فيك الصحة ، ليطفئ شعلة حبي المرض . . . ولم أحبك للسعادة ، لأخشى فى حبك الشقاء ! . . . إننى أحبك أنت ، لذاتك ، سعدت أم شقيت ! . . . أكنت مريضة أم صحيحة ! ! . . . فسعادتى فى أن أكون شيئاً مفيداً لك ، فى حياتك ، وأن أخفف عن نفسك ضغط كوارث الحياة ! . . . وبذلك أظل ، لك ، إلى الأبد مهما تطورت الحوادث ، وتعددت الكورث ! . . . فلا تلزمينى بما لا أستطيع ! . . . سيرى فى طريقك ، وفى سبيل إرضاء أبيك ، مطمئنة ، على ما تفضلين . . وليس لى ، وأنا الذى يملأ قلبه بهجة ما ترتاحين إليه ، أن أطالبك بأى وعد ، أو عهد . . . حبيبتى ! . . . لن تضامى ! ! . . . فأنا لك على السراء . . . وعلى الضراء . . . وفى البؤس . . . كما فى النعيم ! ! . . .

هند : شاورت قلبى ، فلم يوافق . . . أردته على الخضوع لما تجرى به الأحداث ، فلم يطاوع . . . إن حبنا أقوى

منا ، يا قيس ، فلن أكون لغيرك ! . . .

ثم أطبق فم على فم ، وطبعت على شفتى كل منهما قبلة حب ، لا هوس فيه ، ولا خداع ، ولا خفاء ! . . . قبلة صريحة ، لا تهيب العلن ، لما ، فى بواعثها ، من صدق وعفة وشرف ! .. شهدها الأصدقاء ، فكانوا شهود حب صحيح صادق ! لا زيف فيه . . . فخشعوا جميعاً ، إجلالاً لسلطان الغرام ، يجمع قلبين . . . فلا تستطيع تفريقهما الأحداث ! . . . واحتراماً للتضحية العظمى ، يخفق بها القلب ، معبراً عن صدقه وإخلاصه ! . . . غيبت تلك القبلة ، قبلة الصفاء والثقة ، ذينك الحبيبين عن الوجود . . . وما استفاقا حتى وجدا نفسيهما ، وقد أصبحت نفساً واحدة ، محاطة بالإجلال والاحترام والخشوع . . . وسلمى تقول : إن هذه القبلة الصادقة إن هى إلا إكليل ، يمجد انتصار الحب الصادق ، على هوس المشعوذين . . . وعلى تدجيل كل من يحاول استغلال الحياة ، بإيقاف انطلاقهما فى تحرير الأحياء ! ! . . .

وصفق الجميع ، وسادهم سرور وابتهاج وفرح ! . . .

* * *

ما لبث الذهول أن استعاد سيطرته على النفوس ، وما كادوا يباشرون تناول الطعام على مائدة ، توفرت فيها الأدلة على ذوق سليم ، يتحسس معانى الجمال ! . . . فما الذى حدث ؟ ! . . انكمشت هند ، وانطوت على نفسها ، فجأة ، وظهر على وجهها شىء من اضطراب ، يدل على ارتباك ! ! . . .

سلمى : ما بك ، يا عزيزتى هند ؟

هند : إننى أستفتى قلبى ! . . . ألم تكن تلك القبلة سبباً فى سقوط فاتنة ؟ ! . . . مالى لم أتحرج بها ؟ . . . وقد كنت أتحرج من أن يلمس قيس يدى ؟ ! . . . أتبلغ الشدة بالفتاة دركة ، تستسهل معها الشذوذ ، فلا تكترث بالإثم ؟ ! . . . ويل للفتيات من ظلم الأولياء ! ! . . . ولا سيما الآباء ! ! . . .

سلمى : هونى عليك ، أيتها العزيزة ! . . . فالفرق عظيم بين قبلتين : فالقبلة التى انهارت بها فاتنة ، إنما كانت تلبية لنداء الجسد ، ولم تكن قد تكامل الحب ، فى روحها ، بعد ! . . . أما قبلة اليوم ، فإنها استجابة لنداء الروح ، يتكامل الحب فيها ، فيتصل لهيبه بالجسد ! . . . وليست القبلة ، فى هذه الحال ، سوى مسكن للهيب النفس ، وتوقها . . . وإلى أجل ! . .

خلسة أخذت القبلة من فاتنة ، ففعل الكبت ، فى جو خادع ، فى الخفاء ، فعله . . . وسماحاً منحت قبلة اليوم ، وشهدها شهود من أصدقاء ، فعبرت عن الثقة فلن يكون لكبت الخفاء عمل ! . . . إنها قبلة بريئة ، ابتهجت لها قلوبنا جميعاً ، وليس بيننا من عرف عنه التساهل والاستهتار ! ! . . . إنكما زوجان ، بعرف ناموس الطبيعة . . . وإنكما بحكم الشرائع السماوية زوجان ، تغمرهما روعة الحب الصادق . . . والله حب وجمال ! . . . وفى الحب والجمال كل الحقيقة ، وهما جماع الخير ! . . .

هند : وهل يعترف المجتمع بما تقولين ؟ ! . . . (قالتها بألم ظاهر) .

قيس : ما لنا وللمجتمع ، يا هند ! ! . . . لم لا نتحرر كما تحرر الناس فى الغرب ؟ ! . . .

الممرضة : كنت أكتفى بالاستماع ! وأبتهج بما أشهد ، من تفتح النفوس ووعيها ، فى هذا الحفل ! . . . ولكننى أخشى أن تدركوا ، فى تحرير الغربيين ، الانفلات ، على ما سمعته من الكثيرين ، ممن رحلوا إلى الغرب ولم يعيشوا إلا فى بيئات منفلتة ! . . . وما أكثرها فى

الغرب ، اليوم ، مع الأسف ! . . . ولذلك نرى أننا بدأنا ، هناك ، ننحط وننهار . . . وإذا لم يتدارك الغرب أمره بالرجوع إلى معنى التحرر الصحيح ، بالمحافظة على الخلق المستقيم ، المنسجم مع تقدمية المجتمع ، فلا مناص له من التدهور ، بفقد عناصر الحضارة ، على الرغم من الثراء ، والقوة ، والعلم . . وهذا ما ينذرنا به علماؤنا ، على ضوء ما يكشف العلم ، في الحياة ، من أسرار ! . . . فعلى الشرق أن لا يخدع ، وأن ينزع إلى التقليد الأعمى ! . . . وإذا لم يكن من التقليد بد ، فليقلد الأمم ، في مآتيها ، إبان نهضتها . . . لا فيما كان سبباً في انهيارها . . . ولا فيما يخشى منه على انهيار حضارتها ، في هذا العصر ، الملىء بالأخطار ! . . .

كريم : لا تقل ما لنا وللمجتمع ، يا قيس ! . . . فبالمجتمع نتكون ، إنسانياً ، وفيه نعيش ونحيا ! . . .

قيس : وبضغط المجتمع ، وبعده عن الطبيعة ، في السلوك وفي التصرف ، تفسد الأفراد ، فيتعودون الخبث والرياء والنفاق ! ... أيجوز أن تربط الطبيعة والسماء بين قلبين ، وأن يحاول المجتمع ، بسخف بعض تقاليده ،

أن يفرق بينهما ؟ ؟ . . . (وكان فى نفسه أن يقول : بجهل بعض الآباء وسخفهم ، ولكنه أسرها لئلا تجرح هند !)

هند : لا يجوز لنا أن نتحدى المجتمع ، يا قيس . . . حتى فى تقاليده السخيفة . . . وإلا تنتقم منا الحياة . . . كما تنتقم من فاتنة ! . . . على ثرائها وثقافتها وجاه والدها ونفوذه ، لا يقدم شاب مهذب على طلب يدها . . . وهى لا ترضى بالدون من الناس . . . وتقابل ما تلوكه الألسن ، من عرضها ، بالنقمة ، وقد تعقدت فى نفسها ، فأخذت تحاول ، مكرهة متألمة ، تغرير الفتيات والفتيان ! . . وبدأت بأخيها ، فحولت جو بيتها إلى وضع شاذ ، ينسجم مع نفسيتها الفاسدة المنهارة . . . فلا يكون لأخيها عليها سبيل ! . . .

قيس : أيعتبر هذا انتقاما من فاتنة ، أم من المجتمع الذى أفسدها ؟ ! . . .

هند : إنك على حق ! ولكن من ينتقم به من مجتمعه ، يكون ، فى واقع الحياة ، شقياً . . . فينتقم به ، وينتقم منه ، فى آن واحد . . . وهذا من أسرار الحياة !... وليس لنا أن نتخذ أمثال فاتنة قدوة لنا . .

قيس : عفواً ! . . . لا أريد فاتنة قدوة لنا . . . فإنها القدوة السيئة ! . . . ولكنني أرى غلو المتزمتين ، في مراعاة السخف ، في بعض التقاليد ، حمقاً وإفساداً . . . فلم نتعلم ؟ . . . ولم نتثقف ؟ . . . لنستمر في عبودية السخف والحمق والفساد . . . وعلى علم منا ؟ ! . . . ألا يذهب المجتمع الجاهل المفسود بمكتسبات الفرد المثقف ، العلمية والاختبارية ، فينحط لمستوى مجتمعه السخيف ، وتتوارى شخصيته ، ويضيع ما اكتسب؟ أنسيتم كلمة شيلر : « يمكن أن يكون الإنسان ، كفرد ، ذكياً عاقلاً ، إذا ما أخذ بمفرده .. ولكن متى اجتمع هؤلاء الأفراد ، لا يكونون سوى سخيف واحد ! ! ... »

هند : ولكن ، أتستطيع الحياة خارج المجتمع ؟ ! . . . وهل تتحمل أن تعيش فيه مرذولاً ، مهاناً . . . كحالة أي فرد يتحداه ؟ ! . . . .

كريم : مالنا ننظر إلى واقعنا بهذه العين المزورة ؟ . . . فمجتمعنا في تطور صاعد . . . ولا يعترض على حبكما ، في الأسرتين ، وبين الأصدقاء ، سوى شخص واحد ، هو الأب . . . أفلا ننتظر حتى نستميله ، وكلنا عليه لا معه . . . فلم كل هذا التشاؤم ؟ ! . . . ألم نصفق

لكما ، ونحن من صميم الأهل ، ونبارك زواجكما ؟!.
وفى مجتمعنا اليوم كثيرون من الذين لا يتحدون الطبيعة
فى الحياة ! . . .

سلمى : علينا أن لا نتحدى المجتمع ، على أن لا يتحدى
المجتمع الطبيعة ! . . . والمجتمع يشعر أن سعادته منوطة
بانسجامه مع طبيعة الأشياء . . . ولهذا تحدث
الانقلابات فيه ! . . . وهى ، فى السير الطبيعى ،
للمجتمع ، تدل على حيويته وسلامته ! . . . فإذا ما
جمد وخمل ، فذلك دليل على المرض . . . وشفاؤه إنما
يكون فى تحرير الشباب ، الإطلالة الجديدة على
الحياة ، ورفع مستوى ثقافته ، وتوسيع آفاق تجاربه
وخبرته ! . . . ليعى ، فيعرف كيف يثور ، إذا ما
لزم الأمر ! . . .

الممرضة : ويجب أن لا ننسى أن خلقية المجتمع هى أسمى من
خلقية الأفراد ، التى تكونه . فالمجتمع ، مهما فسد ، فى
فى تصرفاته ، وانهار فى مظاهر حياته ، سيظل أكثر
حرصاً على الأخلاق السامية ، ولو نظرياً ، من الأفراد ،
ولا سيما من الذين يستغلونه منهم . . . فلا يجوز مطلقاً
لأى عاقل مهذب مثقف ، أن يسقط تقاليد المجتمع
من حسابه . . . على كل من يحب الإصلاح أن

يراعى ، ما أمكن ، أحكام مجتمعه ، أولا ، وأن
يعمل على رفع مستواه ، بتثقيفه ، وبنشر الفكرات
الإصلاحية ، لتتركز تقاليده ، وتنسجم مع النهضة !
وهذا ميسور ما دامت الاختبارات العلمية تبرهن على
أن فى المجتمعات ، على اختلافها ، ميلا للسمو ،
يبرز فى الأزمات ! . . . وإذا ما كمن هذا الميل ، فى
عهود الانحطاط ، فباستطاعة المصلحين استثارته ،
إذا ما أخلصوا . . . وأنتما يا عزيزىّ قيساً وهنداً ،
أراكما فى وضع ممتاز ، اجتماعياً ، فليس لكما أن
تيأسا ! . . . فلا بد من الجهاد والكفاح ! . . .
فالحياة لا تكون سعيدة إلا بهما . . .

كريم : ونحن كلنا معك ، ومع قيس . . . وخالك وأمك
يؤيدانكما . . . ولا بد للأزمة أن تنتهى على خير ! . .
والمهم أن نترك مجالاً لعمل الزمان ! . . . وإذا ما
وجبت الثورة . . . فيجب أن تشتعل نارها ، فى الوقت
المناسب . . . ولا أرى أنه قد حان موعدها بعد ! ..

بهذه المناقشات وأمثالها ، عاد إلى المجلس مرحه وبهجته ،
وأكل الجميع هنيئاً ، وشربوا مريئاً مستساغاً . . .
وأكثروا من النكات ، يوجهونها للحبيبين ، هند وقيس

على عادة الخلص من الأهل والأصدقاء ، فى مثل هذه الحالة . . . فساد الجو السرور والطمأنينة والانشراح!

* * *

قام الرفاق عن الطعام، وكانوا حقاً رفقاء ، وقد أخذتهم نشوة فرح ، لا تماثلها سوى فرحة العرس ! . . . وما لنا نتردد ؟ ألم يكن جو عرس حقيقى ، فى نظر طبيعة الحياة ، وبحكم السماء ، واهبة الحياة ؟ ! . . . ثم ألم تكن موافقة المجتمع بارزة ، فيمن مثله ، فى هذا المجلس . . . وليس الزواج ، فى حقيقته ، سوى الشكل الاجتماعى ، للحب الصادق السليم ! . . . ولم يبق ، ليستكمل هذا العرس عناصر طبيعته الاجتماعية ، سوى رضاء الوالد . . . فهل يرضى ، يوماً ، فيكمل الهناء ؟ ! . . . أم تسير الأمور على غير محورها ، بسبب عناد الوالد ، ووثنيته ، فيتضح لنا كثير من الأسباب التى تنتج العقوق . . . والشذوذ . والفساد فى الأفراد وفى المجتمعات ! . . . فتتوفر بذلك الشرور والنكبات والمآسى . . . والفواجع . . . رحماك ! اللهم ! ! . . . .

ما لبثت هند أن نظرت إلى الساعة ، فاكفهر وجهها ، وقالت : قرب موعد رجوع الأب . . . الحنون ! (قالتها بابتسامة صفراء ، وألم ! . . .) ثم أردفت قولها بهذا السؤال : لم يسألنى أحد عن مجيئى فى هذه الساعة الميمونة ؟ ! . . .

سلمى : (كالمستيقظة من نومها) حقاً ، شغلنا ، بلك ، عنك يا هند ! . . . ألا تخبرينا ، بحق قيس بكل ما وقع ؟

كريم : وإنه لقسم، لوتعلمون ، عظيم ! . . . بحق قيس ، يا هند ! . . . أفلا تخبرين ؟ . . .

فضحك الجميع . . . وضحكت هند . . . وكاد قيس، لفرط غبطته، يغيب عن الوجود ! . . . باسمه يقسم على هند ... وهند تضحك ،وتتهيأ للبر بالقسم؟! هي سعادة الخلود . . . فى حب سيخلده الدهر ! !..

هند : منذ اضطر والدى إلى الصمت ، بسبب مرضى ، وتهيبه ممن حولى من طبيب وممرضة وخال وأصدقاء وأقرباء ، كلهم يشعرون معى ، أخذ يبث الرقباء والأرصاد ،حتى لا أتصل بقيس ، ولو بالتليفون !... وقد أصبح تليفون البيت ،راقباً ! . . . ولكنه لم يستطع مراقبة تليفون لاسلكى ،حى أبى مخلص، هو هذا البيت الصديق . . . فقد كان الصديقان العزيزان ، سلمى وكريم ، وهما من أكرم من يتمثل فيهما الإخلاص والوفاء والنجدة ، صلة الوصل بيننا . . . فأطلع منهما على أخبار قيس ، وهواجسه . وينقلان إليه رسائل قلب ، يتحرق، ويلتهب حمى ، تكاد تذهب بالحياة .

وكان لمواساتها أثر فعال فى انعاش روحى ، وتقدمى نحو الشفاء ! . . .

أصبحت اليوم ، وقد ضقت ذرعاً بسرير المرض ، وبالدار كلها ! . . . فرأت ممرضتى الحنون أن تستأذن والدى ، فأخرج لنزهة قصيرة ، لأن دور النقاهة الذى أنا فيه ، يقضى بذلك . . . وأيدها الطبيب ، فى زيارته الصباحية ! . . . فارتبك الأب ، وأسر إليهما بأنه يخشى أن أجتمع بقيس ؟ ! . . . ولم يوافق ! . . . ولكنه ما لبث ، وقد أنذرته هذه السيدة الكريمة بسوء العاقبة ، وحملته التبعة ، أن تراجع ، مشترطاً أن تصحبنى هى ، وأن تكون النزهة فى هذا البيت الصديق ، لا أتجاوزه ! . . .

سلمى : ما أكرم الحياة ، وما أوفر عجائبها ! ! . . . لئلا يجتمع الحبيبان ، ترسلهما الحياة ، برغبة الأب الموسوس ، فى معارضته ، إلى حيث يلتقيان ، ويؤكدان ما عاهدا الحب عليه ! . . .

كريم : هكذا يقع الجاهل المغرور فيما يخشى من حوادث ... وهكذا تنصف الحياة كل مظلوم صادق . . وهكذا يكافأ المخلصون فى حبهم ! . . .

هند : وأراد أبى أن يستغل الفرصة ، فاشترط شرطاً ثالثاً ، وهو أن يكون غيابى عن البيت ، مدة بقائه عند نسيب بك فى تلبيته لدعوة الغداء ، فى دار ذلك الوثن ! ! . . . ثم اشترط شرطاً رابعاً ، وهو بيت القصيد ، من شروطه كلها . . . أن يوصلنى ، إلى هذه الدار الصديقة الحنون ، بنفسه ، وأن يعود بى بنفسه ، إلى البيت ! . . .

سلمى : وما هى أهمية الشرط الأخير ، حتى يكون بيت القصيد؟!

هند : أن أدهش بسيارة نسيب بك الجديدة وقد أرسلها ذلك الصنم المأفون ، لتنقل ضيفه إلى داره . . . ولذلك كان كل الطريق يتكلم عن عظمة تلك السيارة ، وغلاء ثمنها ، وأنه ليس مثلها ، عند غير الزعيم . . . وأنه سيهدى مثالها إلى ابنه ، فى حفلة زواجه . . . مسكين أبى ! . . إنه يتوهم أن الفتاة ، إنما يغريها أن تفتن بالسيارات ، أو القصور ، أو النفوذ . . . ولا يدرك لعامل الحب معنى ! . . .

سلمى : إنه لم يدرك ، مع الأسف ، درجة وعى هند ، فى شبابها . . . ولا يأبه لما ينتج عن وعى الشباب من انقلاب ، وتطور ، فى التفكير ، والشعور ، والنزوع . . .

وما بلغ الحديث هذا الحد ، حتى سمع صوت بوق السيارة ، فاسرعت هند قائلة : إلى اللقاء جميعاً ، أخاف أن أتأخر ، فيصعد الطاغية ! ! . . . والتفتت إلى قيس وأنذرته بأن لا يغادر منزل سلمى وَكريم ، قبل ساعة ، على الأقل ، خوفاً ممن يكون قد بث ذلك الوالد ، فى وسوسته ، من رقباء وأرصاد ! . . .

وقد عبرت قبلة ثانية ، تبادلها الحبيبان ، عما فى نفس كل منهما ، من تحرق ، وتوله ، وأمل ! . . .

٨

الفاجعة ! . . .

لكورنيش البحر ، فى بيروت ، مناظر رائعة أخاذة ، جعلت أنيساً يفضل السكنى ، فى أجوائها ، على دار نشأ فيها ، فى عين المريسى ، قريباً من دار صخر ، أبى هند . فابتنى فى ذلك الحى الجديد ، حى كورنيش البحر ، دارا حلوة ، تألفها هند ، وتأنس بالحياة فيها ، فلا يمر أسبوع ، لاتنعم فيه بمشاركة عائلة خالها حياتهم ، يوماً أو أكثر . وهى أيام تشعر فيها بسعادة وغبطة . . . يزيد فى إشعاعهما ، فى نفسها ، ما تلقاه من خالها ، ومن زوجته ، من تبادل فى الشعور ، والبهجة ، والمرح...

كان لهند فى تلك الدار غرفة خاصة ، عرفت عند الجميع ، بغرفة هند . ولشدة تعلق خالها ، وامرأته ، بها اختارا لها أجمل غرفة فى الدار ، وبذلا ، فى تأثيثها ، ما جعلها تشبه المتحف ، برياشها الفاخرة ، وفرشها النفيس ! ... فلا عجب إذا ما وجدت

هند فى تلك الدارة متعة وأنساً ، وبهجة وحبوراً ! . . . ولا غرابة إذا ما فكرت هند بدارتها هذه ، وبغرفتها فيها ، كلما شعرت بضيق فى صدرها ، أو ألمّ بها ما يكدر صفو النفس أو الخاطر ! . . .

لم يكن قيس ليجهل هذه الحقائق ، وقد أطلعته هند على دخائل ذاتها ، ومظاهر حياتها ، ومتعها . . . وعلى ما تكنه ، فى أعماق فؤادها ، لخالها ولامرأته ، من حب وحنين ، ومن إجلال وتعظيم . . . وعلى ما تعلق على حبها من آمال . . . وآمال ! . . فلم يترك السانحة تفوته . . . فكل ما للحبيبة به صلة ، فهو حبيب ! . . . فكيف إذا ما كان خالها ودارته ؟ ! . . وهل يستطيع القلب أن يجفو دارة ، لهند ، فيها حجرتها . . . أو أن يبعد عنها ؟ ! . . فما فتئ قيس ، منذ انبثق حب هند ، فى نفسه ، وبرز ، يحاول التقرب من خالها ، حتى نجح أخيراً ، وأصبح يجد فى تلك الدارة أنسه ، وسنده ! . .

وفى صبيحة يوم ، وهو العاشر ، من أيام مضت على اجتماعه بهند ، فى البيت الصديق ، اصطبح قيس ، فى تلك الدارة ، مع أنيس وزوجته . أو قل ، بلغة الشعور والحب : مع خاله ، وامرأة خاله !... فوجد عندهما من العطف والتفهم ، ما ملأ قلبه

بهجة وسروراً . . . وما أفعم نفسه ثقة وأملا ! . . . فكان ، وهو يسير الهوينا على رصيف الكورنيش ، بعد انتهاء الزيارة ، وخروجه من دارة الخال ، يجد نفسه أخف من النسيم ، يسير في الهواء ، خبباً ، لا على وجه الأرض . . . وكم للآمال ، في الأحلام ، من تأثير في تصورات المرء ، وفي تخيلاته ! ! . . . ولكنها ، على ما فيها من روعة ولذة ومتعة ، قد تعرض الإنسان ، ولا سيما في شبابه ، إلى أشد الأخطار عنفاً ، إذا ما وسّعت الشقة ، بينه وبين واقعه ! ! . .

كان قيس ، على ذلك الرصيف ، يتهادى ، بنشوة الظفر.. والانتصار . . . فيتنفس ملء رئتيه ، ويستعلي ، بخيلائه ، على البحر والجبل ، وعلى الشاطىء والأفق ! . .. وعلى الكون كله ! ... وهل من ظفر ، هو أشد إثارة ، لخيلاء النفس ، من ظفر المحب بحبيبته ، ولو توهما . . . في الخيال ؟ ! . . . إن للخيال أجنحة ، قد يرتفع بها الإنسان ، في لحظات انفعالاته ، إلى أجواء من الأوهام ، قد تسرف في بعدها عن الواقع ! . . . فينشط هو في البعد عن حقائق الوجود . . . ولكن . . . مهما امتد أمد البين ، بينه وبين واقعه . . . فإن للواقع قدرة جذب ، لا يتعذر عليه ، معها ، إعادة كل متمرد إلى حظيرته ، قسراً . . إذا لم يفطن ذلك المتمرد إلى أن استمرار الظفر ، منوط ، بالتزامه جانب الاختيار ! ! . . .

وهكذا . . . فما كاد ، صاحبنا قيس ، يسير خطوات ، من خيلاء واستعلاء واطمئنان ، على رصيف ذلك الكورنيس ، بين البحر والأشجار ، حتى لفت نظره شبح قادم ، من أول الرصيف ، من جهة عين المريسى ، يمشى مشية الخائف المذعور ، يتلفت وراءه ، كمن يرتاب بأن يدركه ما يتخوف منه . . . حدق قيس إلى الشبح القادم بنظره ، فخفق قلبه وهلع ، وما لبث أن عدا مسرعاً جهة الشبح ، وقد تحطمت أجنحة الخيال . . . وانهار الوهم المجنح . . . إنها هند ! ! . . . تسير خائفة وجلة . . . وليس فى هندامها ، ما ألفه من ترتيب وأناقة ونظام ! . . ولم يكن ذلك كله إلا ليزيد ، فى عينيه ، روعة الجمال ، فى نظراتها الحائرة . . . وحلاوة الحس ، فى رشاقة حركاتها المضطربة . . . وما أبدع ما فى نبرات صوتها ، فى هديل الفزع ، من رقة ونعومة وحنين ! ! . .

هند : قيس ! . . . أنت هنا ؟ ! . . توارَ ! . . توار ! . . . ولا تظهر لأحد . . . إلا حين أرسل فى طلبك ، فى بيت أملك ! ! . . . حبيبى ! . . حياتى . . أصبحت حياتنا فى خطر ! . . فلا تأمن لأحد ! ! . . ماأسعدنى ! أراك وأنذرك ! . . . حياتك ، وسعادتك . . . هما كل ما أفكر فيه . . . وما فتئنا ، منذ لمس حبك

قلبي ، كل همي . . . قيس ! . . انج بنفسك ! . . .

قيس : ما بك . . . يا حياتي ؟ ! . . ماذا جرى . . . بعد ذلك اللقاء . . . في البيت الصديق ؟ ! . .

هند : قلت لك : توار . . فما لك تزيد ، في رعبي ، فلا تنجو بنفسك . . . وإنقاذك أريد ؟ ! . . .

قيس : (وهو آخذ بيدها ، ليجلسا معاً على مقعد حجري ، في ظل شجرة ، أمام البحر . . .) حياتي ! . . . أتكون لي نجاة إلا بقربك... وهل ينقذني ، إلاّ أنت من الحوادث والأخطار ؟ ! . . بحق قيس ، على قلبك . . . إلا أخبرتني ، يا حياة الروح ، ماجرى ! !... ومم تخافين ؟ !.. فلست بالجبان !.. وما كان حبك إلا ليزيدني جرأة وشجاعة ، وإقداماً .. سكني من روعك . . . فلست بالطفل ، يهاب الموت ، أو يخشى الحوادث ! ! . . فالحب يتحمل كل شيء . . . ولا يتراجع أمام الأخطار ! . . وليس بمحب صادق من يتهيب ، في حبه ، الحوادث ! ! . .

هند : إن أبي ، ومن ورائه زعيمه ، يتهددانى بقتلك ، إن لم أقبل بابن ذلك الوحش قريناً . . . أفهمت الآن سبب هلعي وارتياعي ؟ ! . . .

قيس : ومتى أنذرت بذلك ؟ . . . ومن أنذرك ؟ . . . أخبريني يا هند بكل ماجرى . . . ولن تراعى ! ! . . (قالها وهو يبتسم ابتسامة الساخر المطمئن) وأردف قائلا : أيعتقد هؤلاء أن التعلم يعنى الجبن والخور ، وأن الفتوة وقف على الجاهلين ؟ ! . . فلا (قبضاى) بين المتعلمين ! . . . ألا خاب فألهم . . . فلسنا ، شبان اليوم المتعلمين ، من تخور عزائمهم ، فيجبنون عن مواجهة الحوادث ، ويهابون النذير ! . . أصبح ما نتعلمه حرثا وثقافة ، لا ثرثرة وكلاماً . . . فلا يزداد ما فى إنسانيتنا ، من جرأة وشجاعة ، وحب للمغامرة ، إلا نمواً وقوة وانسجاماً ! . . نحن من نعرف كيف يحافظ الإنسان على كرامته . . . وكيف يدافع عن فكرته . . . وكيف يحمى حبه وشرفه ! . . . ألا ساء ما يتوهمون ! . . .

هند : لا تعرض نفسك ، يا حياتى ، للخطر ! . . فسأتدبر الأمر مع خالى الآن ، وقد قررت أن لا أبرح له منزلا ، منذ اليوم ، إلا بحل المشكلة ! . .

قيس : (وهو يبتسم ابتسامة الهادئ المطمئن) والآن ، ألا تريدين إطلاعى على ما جرى ؟ . . إننى آت من بيت

الخال الآن . . . بعد أن نعمت بحنوه وعطفه . . .
وسعدت بموافقته ! . . .

هند : منذ التقينا فى البيت الصديق ، وصحتى فى تقدم محسوس.
وقد اعتقد الجميع ، فى الأمس ، أننى شفيت ،
فلم يعد ثمة حاجة للممرضة ، ولا للطبيب ، فصرفا ،
وفكر خالى فى أن أنتقل لدارته ، لأقضى فى حجرتى
الجميلة ، هناك ، أيام النقاهة . . . فأبى والدى ،
مقسما ، وهو ماسك بشاربيه ، حسب عادة القبضايات
فى تأكيد القسم ، بأنه لن يترك وسيلة للترفيه عنى . . .
وأنه لن يكون منه مايسىء إلى هند . . . حياته ! . . .
فخدع خالى ، بعد أن استوثق بأن والدى سيسمح لى
بقضاء شهر ، فى دارته ، بعد بضعة أيام . ووعده
والدى ، زيادة فى طمأنته ، ولدرء شروره ، بأنه سيحل
مشكلة زواجى بابن الزعيم ، فى إقامتى فى دارته . . .
وعلى هذا ودعنا خالى ، وانصرف ! . . ثم ذهب
والدى إلى قصر الوثن ، ليقوم بمراسم العبودية ، على
عادته ، بعد أن أوصى أمى بأن لا أبرح البيت مدة
غيابه : وقد خضعنا لأمره ، حتى لا نكون أول من
يبدأ بالإساءة !. . . ولكنه لم يعد إلينا فى المساء ،

إلا ليعيد الحديث ، ملاطفاً ، فى البدء . . . متدرجاً
بالجفاء ، حتى احتدم غيظاً ، وأنذر بأنه قرر ،
مع زعيمه ، محو قيس من الوجود ، إذا لم أخضع
لأمره ! . . . (وهنا تنهدت هند ، وذرفت عيناها
دموع الحزن والألم ، وقيس يلتقطها بمنديله ، واجماً)
ثم أتمت حديثها قائلة : فلم أحر جواباً . . . ويظهر
أنه وجد فى سكوتى إقراراً . . . فما أصبح اليوم حتى
أنذرنا بقوله : أنا ذاهب لآتى بالزعيم وابنه ، وبالمأذون ،
ليعقد العقد . . . فينقذ قيس من موت محقق . . .
فما خرج ، حتى تركت الدار ، على ما ترى ، ووجهتى
الدارة ، وأنا لا أدرى كيف أراك ؟ ! . . فما أرأف
العناية الإلهية بقلوب المحبين ! . . ولكن لمَ يُصبح
ما هو جدير بأن يكون هناء للإنسان ، مصدراً لشقائه . .

قيس : خفى عن نفسك ، يا حياتى ، وخفضى من غلوائك ،
ولا تجزعى على ! . . فلست بالذى يسهل أكل لحمه !
هند ألا ترين هذا الزورق ؟ . .

هند : إنه شبيه بذلك الذى أوصلنى إليك ، فى الحلم ،
لأنقذك . . . وهنا استغرقت هند برهة ، فى تأمل
لطيف أعاد إليها ابتسامتها الحلوة ، بإشعاع الثقة

والأمل ، ثم قالت : هذا هو البحر ، وهناك ، وأشارت إلى جهة بيت أبيها — (فى عين المريسى ، وهو حى متصل بحى الكورنيش) — الشرفة ! . . . ولكن أين القمر ؟! . . تلك ليلة ، امحى فيها العالم ، كله ، حولى ، ولم يبق سواك ، قيس ! . .

قيس : وذلك الحرش ، أمام دارنا ، كم أتمنى أن أنغمس ، معك ، فى ظلاله الآن ، عند ما نزلت إلى من عليائك ، على أشعة ضوء القمر ، وكانت مسرتى الذاتية ، فى داخلى ، مصدر إشعاع سعادة ، تستمر إلى هذه اللحظة ... ولن تقوى الحوادث على إزالة مصدر ذلك الإشعاع ، لأنه حب صادق صحيح !. . .
وما تذكر قيس تلك اليد الخاطفة ، حتى تملكه الرعب ، فوجم ، ثم افتعل المرح والانطلاق ، خوفاً على هند من سلطان الوهم !! . . فقال : وما رأيك فى أن نركب هذا الزورق الآن ، ونهيم به على وجهنا ، فلا نقف إلا عند مرفأ يؤوينا ، فنشرب كؤوس الحب والحياة ، بعيدين عن الرقباء ، وعن صخر ، وعن وثنه ؟ ! . . .

هند : أوجادٌ أنت فيما تقول ، قيس ؟ ! . . أترضى أن يجرح حبنا بتصرف ، كهذا ، يشين السلوك ؟ ! . .

إن كنت ترضى ، فلن أعارض . . .

قيس : حاشاك . . . هند . . إننى مازح ، بحق حبك ! ! . .
ثق أن قيساً لا يرضى إلا بما يزيد هنداً سمواً ،
ورفعة ، وشرفاً . . . فلن يجرؤ ، يوماً ، على الإقدام على
أى تصرف ، قد يجرح عفاف الحب ، وطهارته ! . .
ولو فيما يتوهمه الناس من عفاف مفتعل ! . . . أريد
حبى طاهراً نقياً ، فى نظرى ، وفى اعتبارات المجتمع ،
مهما كان سخيفاً ، فيما يذهب إليه من تقاليد ! . . .
يكفينى ، فى هذا الكفاح ، هذه النظرات الزاخرة ،
بمعانى الحياة ، وروحها . . . فإنها تلطف الآلام ،
وتبعث فى نفس قيس ، اطمئنان السعادة . . .

هند : ما أعظم الحياة . . . وما أروعها . . . فى تكامل
المسرات فى آلامها ! . . . وما أعجب النواميس ،
نواميس الحياة ، تتوالى ، فى النمو والبروز ، فيتحقق
بذلك وعى الشباب ! . . . فعبقرية الجنس ، فى الفتاة
تبعث فى نفس الفتى ، عاطفة الحب ، وتنميها . .
فيعى لذاته ، بوعى فتاته ! . . ولكن لا تكاد الفتاة
تمتلك فتاها ، حتى يمتلكها فيبرز ضعفها ، فى حبها . . .
ولا يحميها من العثرات إلا ما ينتفح فى نفس الحبيب

من شهامة ، ونخوة ، ونجدة . . . جماعها المروءة . .
فاهنأ . . . قيس . . بمروءتك . . . كما أهنأ بها أنا . .
وشكراً لك . . . أيها الحبيب ! . . . ثم وداعاً . . .

قيس : تقولين : وداعاً . . . يا هند . . . :

هند : فلنقل : إلى اللقاء . . . ثق أننى لن أكون لغيرك . . .
واذكر كلمتى لك ، فى يوم كنت فيه مسرفاً فى
تفاؤلك : لا ضمان على الزمان ، فلابد من الحذر ،
والاعتدال . . . فإلى اللقاء . . .

وتبادلا قبلة ، لم تكن أضعف نشوة ، من تينك القبلتين...
ولكن رافقها ، فى نفس قيس ، شىء من وجوم وارتياب
واضطراب . . . إذ ذكر معها تلك اليد . . . وقد
خطفت هنداً ، فى ظلال أشجار ذلك الحرش . . .
فبكت نفسه ، والتاع قلبه ، تشاؤماً ! وحنيناً ! . . .

* * *

قصت هند خبرها على خالها ، وهى تجهش بالبكاء . . .
فآلمه ما تمنى به هند الأبية ، فى حبها ، من نكبات . . . وأحزنه
ما هى عليه من هزال وكروب وانكسار . . فطيب خاطرها ،
وطمأنها . ونصحها بأن ترتاح فى غرفتها . . . فاستلقت ، فى
سريرها الناعم ، وبجانبها امرأة خال تواسيها ، وأم ، ما لبثت

أن انضمت إليها ، مؤكدة أنها لن تعود لبيتها ، ما دام صخر على رأيه فى أمر هند ، وزواجها . وهكذا هز صخر كيان عائلته هزة عنيفة ، بعناده ، وجشعه ، ووثنيته السمجة ، فابتعد عنه أقرب الناس إليه ! . . وغرس فى نفوس ، كان يسعده أن يتمتع بحبها وعطفها ، نفرة ، تعقد بها مركبات النقص ، فى الأفئدة . فتبرز ، فى فاعلياتها ، جفاء وحقداً ، ونقمة ، قد تبلغ العداء والبغضاء . . . والعقوق ! . . .

مكث صخر وحده ، فى قاعة الاستقبال . . . يفكر فى أمر هند ، وفى مخرج ينقذ هذه الحوادث ، من أن تنقلب مأساة ، أو فاجعة . . . ونسى ما عليه من أعمال . . . وعند ما ذكره الكاتب ، تليفونياً ، بالأعمال التى تنتظره فى محل عمله ، أجابه بأن يترك كل شىء إلى الغد ، لأنه فى شغل شاغل عن كل عمل . . . ولكن ، ماذا يخبئ الغد ؟ ! . .

وفيما كان أنيس يتأمل ، ويفكر ، محللا ، مركباً . . . مقارناً بين حادثة أخته مع صخر ، وما تتعرض له بنتها مع قيس . . مستوحياً الحاول من حوادث يعرفها . . . فوجئ بزيارة صخر . وما كان لهذا أن يستأذن على ابن عمه . . . فصخر من أهل البيت ، يأتيه متى شاء . . .

دخل صخر ، وعلائم الغضب تعلو وجهه . . . فقد كان

مكفهراً ، كالح الوجه ، مربّده . . . يتطاير من
عينيه شرر الشر ! وما وقعت نظراته التائهة على
ابن عمه أنيس ، حتى بادره ، بحدة ، قائلا :
أعلمت أن هنداً قد أبقت ، ولعلها أعادت سيرة أمها ،
فالتحقت بقيس ، ليهرب بها ، وتهرب به؟ !.. . ويظهر
أن أمها هى التى مهدت لها السبل ، وما لبثت أن لحقت
بها ! . . . أهذا ما أردتنى عليه ، حين أصررت على
بتعليمها ، يا ابن العم؟ !... يجب أن نجد حالا هؤلاء
الآبقين ، جميعاً ، وأن نقتلهم ، لنمحو بذلك وصمة العار...
إنه عار علينا جميعاً ، يا أنيس ! . . . ولا يستطيع فتى
شديد (قبضاى) مثلنا أن يتحمل ذل العار . . .
أدرك أنيس أن صخراً إنما يحاول تهييجه وتحميسه ، و إثارة
انفعاله ، ليشركه فى جريمة فاجعة . .. فابتسم ،
مطمئناً ، وفاجأ صخر بقوله :
ألا تحيي بالسلام ، قبل الكلام ، يا صخر ؟ ! . . .

صخر : وهل لدينا وقت لسلام . . . أو لكلام . . . يا أنيس ؟
إن أمرك غريب حقاً . . . إنى أراك ساكناً هادئا . . .
لم تحرك غضبك ابنة أخت تأبق مع أمها ، لتلتحقا
بشاب غريب . . . فتلحقا بنا العار ، وتثلما شرف
الأسرة ! . . وهو جرح لا يلتئم إلا بالدم . . .

فليُقتل قيس ، إذا كنت تحرص على حياة هند وأمها ! ! . . وأنشد بزهو واعتزاز :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم! .

أنيس : هون عليك ، يا صخر ! . . فهند ليست جارية مملوكة لتأبق . . . إنها أرفع مما تظن . . . إن هنداً هنا ، فى غرفتها ، وأمها بجانب امرأة خالها ، تواسيانها ! . . أوفيت بما وعدتنى به ، وقد أمسكت بشاربيك ؟ ! . . أهذا هو شأن رجال الفتوة الأشداء ؟ ! . . .

صخر : إذن هند عندك ، ولم يهرب بها قيس ؟ ! . . (وجلس مشدوهاً ، وقد خاب تدبيره)

أنيس : إن من أفاد من علمه ، كهند وقيس ، لا يتآمران على الهرب ، ولا يستخفيان ! . . وغمز بعينه غمزة ساخرة ، فهم صخر ما يعنيه ، فخفض رأسه ، وقال :

صخر : إذن اسمح لى ، يا أنيس ، أن أعود بهند وبأمها إلى البيت ! . .

أنيس : وما الموجب لهذه السرعة ؟ . . أفى البيت من ينتظر ؟ . .

صخر : كلا ! . . فإننى لم أجد البك ولا ابنه ، فى القصر ! .

أنيس : وما شأنهما ؟

صخر : (وقد تلعثم ، إذ أدرك أن ذكر البك كان فلتة لسان) لا شيء ! سوى أني أردت أن أجمع بين هند وجميل بك ، بوجود أبيه ، علها تلين ! . .

أنيس : وهل كنت على موعد معهما ؟

صخر : (مرتبكاً) لا ! . . نعم ! . . فأنا دائماً على موعد مع سيدى البك ! . . .

أنيس : كفاك تمويهاً ، ياصخر ! . . فإنك قد نقضت ما عاهدتني عليه. . وزدت على ذلك بأنك قد توعدت ، وتهددت . . .

صخر : عزيزى أنيس ، إنني أداور هنداً بمختلف الأساليب لتقبل . . . إن البك مستعجل . . . ولا أستطيع أن أترك ذلك المشروع الكبير . . . ويسر البك أن تشترك ياأنيس ، فى مشروعه. . . فينالك ربح وفير ! . . .

أنيس : أترشوني لأوافق على بيع وحيدتنا هند ، بيع السلع ! . . . أو بيع العبيد ، فى سوق النخاسين ؟ . . . يا لك من سخيف أحمق ! . .

صخر : إنك تهينني يا أنيس ! . . ما تعودت أن أتحمل الإهانة من أحد ! . .

أنيس : كفاك عتواً ، تتصنع فيه الغطرسة والصلف . . . وهل

أنت سوى عبد ذليل ، لوثن طاغية حقود ، شأنه أن يسمم بك ، وبأمثالك من الأتباع العبيد ، حياة الأبرياء من البشر ، أمثال هند وقيس ، فيفسد ما بين الناس ، ويفسد المجتمع ؟ ! . . والله ، لن تخرج هند ، ولن تخرج أمها ، من هذه الدارة ، منذ هذه اللحظة ، إلا بإنهاء القضية ، على ماتحب هند ! . . وتختار ! . .

* * *

واشتد النزاع بين صخر وأنيس ، وتبادلا قوارص الكلام ، حتى سيطرت الحدة على صخر ، وملكه الغضب . . وغلبته أعصابه ، فى أشد حالة انفعاله ، فشهر خنجره ، يلمع فى حده بريق الموت ، وهجم على أنيس يحاول طعنه ! ! . . ولكن أنيساً ، وكان لا يزال مالكاً أعصابه ، استطاع ، برشاقة الفتى الشديد ، أن يمسك بيد صخر ، وأن ينتزع ذلك الخنجر . . . ثم أجلس صخراً ، وهو يقول : ماهكذا يتصرف من يزهو بفتوته . . أيشهر الفتى الشديد سلاحه على أعزل ؟ ! . . أما كان من واجبك ، أى صخر ، أن ترمى سلاحك ، فى منازعتك لفتى مثلك ! . . لو كان نظام الفتوة نافذاً ، اليوم ، لاضطررت للاعتذار عارياً . . .

وفى هذه اللحظة ، أعلنت الخادمة مجىء سعيد ، صديقهما ، وانطلقت صرخة شديدة من هند ، ولكن دخول سعيد صرفهما عنها . . . وسلم سعيد . . . ولم يستقر به المجلس . . . حتى

التفت إليهما قائلا : أسمعتما بالخبر ؟ ! . . فنظرا إليه معاً ، نظرة المستفهم . . . فألقى إليهما بجريدة ، كان يحملها ، وأشار إلى موضوع فيها ، فإذا هو إعلان ، يتبرأ فيه نسيب بك من ابنه جميل ، ويرفض دفع ديون الناس عليه . . . فشده صخر ، وكاد يجن عندما علم من سعيد أن جميلا ، فى السجن ، لتغريره بفتاة ساذجة ، ثار لها أهلها ، وهاج الناس . . . وأن نسيب بك ، رهن أملاكه ، ليفى ديونه ! ولذلك يرفض دفع ديون ابنه المتراكمة . . . ويتبرأ منه ! . . .

فدهش صخر ، وكاد لا يصدق سمعه ! . . . ولكنه تذكر أن زعيمه كان غائباً عن قصره ، فى الموعد المضروب لعقد زواج جميل على هند . . . وأن جميلا وفاتنة ، كانا غائبين ، أيضاً . . . وأن الاضطراب ، والارتباك ، والحيرة . . . كانت جميعها بارزة على وجوه الخدم . . . وما كانوا يعلمون كيف يجيبونه على أسئلته . . . تذكر ، فى تلك اللحظة ، ذلك كله ، فازداد حيرة ، وارتباكاً . . . ثم تذكر ماله من مال ، فى ذمة نسيب بك ، على حساب المشروع « العظيم » ! . . وأنه تكتم فى تسليفة ذلك المبلغ ، لشدة ثقته به ، وبابنه . . . وحفظا لسرية الأعمال ! . . .

وفى غمرة ألم ، يضطرب بين الشك واليقين ، والندم

والاطمئنان ، التفت إلى ابن عمه وقال : أنيس ! . . أكاد لا أصدق ما أقرأ ، وما أسمع . . . إنها لدسيسة على ذلك الرجل العظيم ! . . ولكن لمَ لم أجد أحداً فى القصر . . . ولم بدا على الخدم ذلك الاضطراب ؟ ! . . عفوك أنيس . . . ابن عمى . . وغفرانك . . . أكاد أجن ، حيرة واضطراباً . . .أكنتُ حقاً ، ذلك الحب المخدوع ؟ ! . . أنيس ، لا أدرى ماذا على أن أعمل ! ! . . إننى أشعر أن عاطفة الأبوة ، وحنوها ، يهزان كيانى ، الآن ، لعلى كنت ظالما . . . ثق أننى لن أعارض هنداً ، بعد اليوم . . . وأننى أترك أمرها نهائياً إليك . .

وما كاد ينادى هنداً ، ليعلن لها ما قرر من ترك أمرها لخالها ، حتى سمع صوتاً من الداخل يقول : أسرعوا بطلب الطبيب ، فهند فى غيبوبة ، منذ هجم صخر على أنيس ، ولم تنجح وسائلنا فى إيقاظها ! ! . . .

وما أتى الطبيب إلا ليعلن أن هنداً ، قد فارقتها الحياة . . .

٩

صوت من الضريح ! . . .

فى هدأة من الليل... وسكونه ! .. وفى رهبة جلال الموت . . . ووجومه ! . . شهدت المقبرة إنساناً ، يسترق الخطى . . . متسللا بين القبور ! . . . إنه شاب يستهدى ، بنور البدر ، ضريحاً ، لم يجف بعد ، ما هيل عليه من تراب ! . . .

لم يكد المتسلل ، المتهيب ، يتبين معالم الضريح . . . ولم تكد تبلغ خطاه حرمه . . . حتى خفق قلبه ، وجفت حنجرته ، وأربد وجهه . . . فاصطكت ركبتاه ، وخارت عزائمه . . . فألقى ما كان يضم إلى صدره ، بيديه ، من باقات الورود ، على تراب يرتفع قليلا فوق رمس . . . واستولى ذهول . . . وجمود . . . انتهيا ، فى لحظة من زمن ، إلى دوار عنيف ، أخذ برأس الموله ، فصرعه . . . وأكبه على وجهه . . . يستنشق عبير تراب ذلك الضريح ! . . . وأريجه ! . . ويرطبه بدموع سخية ، سخينة ! . . وما استعاد المتيم وعياً ، يستطيع معه الكلام ، حتى انطلق يندب حبًّا ، غيبه الردى . . . فسحقاً للظالمين ! . . .

وذكرى الظالمين ، أثارت ذكريات ، فى تأملات الخيال ، فسالت دموع فى عبرات ، عبرت عنها ، روح قيس ، بهذه العبارات :

توهجت رائحة الطيب ، فى تراب اللحد . . . إنه أريجك ، يا هند ! . . . ما كان وهمى يرتفع إلى الظن بأن يغرم جماد التّراب . . . ويحنو . . فيتضمخ بالطيب الحبيب ! . . . لعله حن ، حنين المتيم الموله ، فى لوعة الشوق . . . فذكرت يا هند قيساً . . . فكان التّراب . . . تراب الضريح . . رسول حب . . يهمس طيباً . . . رسالة الأريج . . . أريج الغرام . . . أريج الهيام . . . أريج الصفاء . . . أريج الحياة ! . . .

تراب عذول . . . كذاك السحاب ! . . . وبالعبير ! ! . . عبيرك ، يا هند . . . صار العذير . . . كذاك الأثير ! . . . فما أروع الحب ، يجترح العجيبة ! . . . وما أشد إبداع الحياة ، تفتعل المعجزات . ولو بالخيال . . . خيال الوجود . . . خيال العدم . . . ليلهو الملوّع . . . ويتأسى الحزين . . . فيغدو حنيناً . . . ويغدو ارتقابا ! ! . . .

هند ، يامنى القلب ! . . . وياروح الحياة . . . أتتلك الورود ! . . . ألم تكن الوردة ، عندك ، فى حظوة الاصطفاء ، تلازم صدراً ، يمنحها الأريج . . . والنضارة . . . والحياة . . .

فتزهو اختيالا ، على سائر الزهور؟ ! . . وها هى ذى ، لا تزال . . تحنو ، لتزهو ، وتختال . . . على سائر الزهور مدى الدهور ! . . . فى صدر لحد ، ليس كسائر اللحود !. . . إنه لحد هند . . . سر الوجود . . . وسر الحياة ! . . .

هنئتم ، يا ساكنى اللحود . . . بجوار هند . . . أنس الحياة . . . وأنس الوجود . . . وأنس العدم ! . . . هاهى ذى الأرواح ، تصفق من طرب لمقدم ملاك الطهر ، ملاك العفاف. ثوى فى عالم الموت ، هذا الملاك ، فثوى معه أنسه . . . وطرد من اللحود وحشة القبور . . . فلجأت إلينا ، نحن الأحياء . . . فاستوحشت الحياة . . . وأنس العدم ! . .

وأنت ، أيها البدر ، مابلك اليوم ؟ ! . . أراك مكفهراً ، مبهوتاً . . . على الرغم مما تشع . . ولا عجب ! . . . أنسيت ليلة استقرت فى أرجائك هند ، فلم تعد العين تبصر ، فيك ، سواها . . . ألم تبهرك هند ، فأطللت على الكون ، معجباً . . . تتهادى ، فى بهاء ، استعرته من بهائها ! . . . وفى جمال . . . أمدك بالفتون . . . هو جمالها ! . . . وفى جلال . . . خشع له الكون ، لأنه جلالها ؟ ! . . .

إيه . . . يا بدر ! . . . أتنسى ليلة ، تلاقت ، عندك ، فيها ، النظرات ؟! . . . فمهدت طريقاً لذاك اللقاء ! . . .

وما أروع ذاك اللقاء ! .. لقاء الحنين . . . لقاء التناجى . . . لقاء انبعاث . . . تفجر فيه . . . عميقاً . . . عميقاً . . . معين الحياة ! . . . فأين اللقاء ؟ ! . . . آه . . . وأين الحبيبة ؟ ! وأين الحياة ؟ ! . . . أصحيح أن كل شئ قد انتهى ؟ ! . . . ولم يبق للنفس ، إلا أن تتشوق ، وتتوق ! . . . بحنين . . . واحتراق . . . ولوعة . . . وأنين ؟ ! . . . إيه يا بدر ؟ ! . . . ما للك لا تحير . . . ولا تجير ؟ ! . . . أترتاح للوعة ، تلهب القلوب ، قلوب المحبين . . . أم تهزأ منا . . . إذ تجهل قلوبنا .. فى هزة الخفقان . . . صروف الدهور؟! . . .

أيعلم هذا اللحد، يا بدر، يا قمر المحبين . . . المدلهين . . الموطين . . . ويامستقر أسرارهم . . . أى قدسية لزمته . . . وأى نورانية تشع عنه . . . بعدأن أصبح مثوى،ترتاح فيهنفس، هى أزكى النفوس . وروح ، هى أصفى الأرواح ، وجسم ، هوأطهر جسد ! .. . بين البشر؟ ! . . أيعلم هذا اللحد أنه أصبح ، منذ حلت فيه هند . . . مقراً لكل ما كان يهتز له قلب قيس . . . من أمان وآمال ؟ ! . . . ولكل ما كانت ترتاح إليه نفس قيس . . . من رؤى وأحلام ؟! . . . ولكل ما كانت تطمئن إليه روح قيس . . . من تفاؤل وثقة ؟ ! . . . ولكل ما كان يطرب له قيس ، بكل كيانه . . . من فتنة ، من

روعة الجمال . . . فى أوتار الخيال ! . . . ومن إبداع ، فى وثبات الحياة . . . بوعى الشباب ؟ ! . . .

ربى رحماك . . . ربى ! . . . لم يكون ما نتصور فيه السعادة ، مصدر الشقاء ؟ ! . . . اليوم أدركت أن القلب ، وحده ، هو مصدر سعادة الإنسان . . . فإذا ما فرغ القلب ، انتهى كل شىء ! . . .

* * *

وما بلغ قيس ما بلغ ، فى ذكرياته وتأملاته . . . وما شعر بفراغ قلبه . . . وقد انتهى كل شىء ! . . حتى خيل إليه أنه سمع صوتاً ، من الضريح ، يناديه : قيس ! . . فأجاب : لبيك ، هند ! . . سمعت النداء ! . . .

وما لبث أن أخذ يتلوى تلوى الثعبان ، تحرقه النار ، وأخرج من جيبه ورقة ، وضعها على الضريح ، وكانت تعبيراً عن آخر أمل له فى الحياة إذ يستعطف صخراً ، أبا هند ، ويرجوه بأن يسمح بدفنه فى لحد يضم الحبيبة . . . فيجمع الموت بين من أصر على تفريقهما ، فى الحياة ! . . . ثم انتضى خنجراً ، كان يخفيه ، بين ثيابه ، ليغمده فى قلبه ، مستلقياً على قبر هند ، ليمتزج دم قلبه بذلك التراب المضمخ بطيبها ! . . . وما كاد يصوب الخنجر إلى موضع القلب ، فى صدره ، حتى سمع صوتاً يهتف به ، قيس ارتدع . . . وألق سلاحك ! . . . فجمد ، ويبست يداه ! . .

وما تراءى له شبح هند ، حتى استرخى . . . فوقع الخنجر . . .
وركع على قدميه . . . وعقد لسانه . . . فلم يستطع كلاماً !..
تلاقت نظرات العيون . . . وتناجى الحبيبان ، فى صمت
رهيب . . وعلى طريقة الأرواح . . . فى عالمها ! . . . . فأفرج
عن قيس ، وأفرخ رعبه . . . فسمع هنداً تقول :
ما عهدتك جباناً ، يا قيس ! ! . . . ألأول إخفاق ، فى
حياتك ، يستولى عليك اليأس ، فتحاول الانتحار ؟ ! . . .
والانتحار جبن ، لا يليق بالشباب ! ! . .
جدير بالشباب أن يسترخص حياته ، وأن يفضل عليها
الموت ، فى سبيل كرامته ، ومجد أمته وبلاده . . . ولكن
بالكفاح . . . لا بالانتحار ! . . . والكفاح أمل ، يطيب
فيه الاستشهاد . . . والانتحار يأس تنتشر منه أخبث روائح
الضعف والجبن ، والاستخذاء ، والانهيار ! . . . وإنما ينتصر
على النكبات ، وعلى الموت . . . من يعرف كيف يموت ! . . .
قيس ، أتذكر إذ كنت تندب فلسطين ، وتعبر عنها
بأندلس العرب الثانية ؟ ! . . أنسيت أننى كنت أعلل فقد
الأمجاد ، وخسران البلاد ، بانتشار وباء روح الانتحار فى
الأمم ؟ ! . . ومالك فقدت وعيك ؟ وعهدى بك واعياً
فى شبابك ، فغفلت عما انتهت إليه المناقشة بيننا ، آنذاك ،

فأثبت ، أنت ، بأن الانتحار قد يكون مادياً ظاهراً بالسلاح أو بالمخدرات ! . . . وقد يكون معنوياً خفياً بالاستهتار ، والاستخذاء ، والغفلة واللامبالاة ؟ ! . . وأن الأمم الغافلة عن ذاتها ، تنتحر ، ولا تشعر ! . . . أين أنت الآن من حكمة ، عبرت عنها ، أنت ، إذقلت : الويل لأمة تنتحر بتخاذلها ! ! . . . فيمقت أفرادها الحياة ، لأنهم يجبنون عن مواجهتها ، فينتحرون إذا ما أخفقوا ، بالسلاح ! ! .. أو بمايفقدالوعى ، بالتخدير ! ! ... ألم تعدنى بأنك نذرت نفسك لأمتك ؟ ! . . فأين وفاؤك لنذرك ؟ ! . . أنسيت قيس ! ! . .

قيس . . . قيس . . . استمع ما أقوله لك . . . وفكر فيه ملياً فى خلوتك ، فلا تستطيع الآن مناقشة روح ، بادلتك الحب والحنان ، وثق بما أقول : إننى أنا الحياة ، ولم تكن هند سوى شكل اتخذته ، لأبعث فى روحك رسالتى ، فتكون رسول الحياة للعرب ! ! . . . لاتعجب ، فإن لقومك العرب ، عندى مقاماً ، ولى فيهم أمل . . . ولكنهم لايزالون عن حقيقتهم غافلين ! ... فهلا توقظ فيهم ما خدر من شعور ؟ ! . . .

قلت لك مراراً : لن أكون لغيرك . . . فلم تدرك ، من قولى هذا ، مفهوماً آخر ، هو أننى أكون لك أيضاً ! ؟ . . أنا لك بكليتى ، وأنا لكل الأحياء ، بكليتى ، دائماً . . . وسرى

أننى لا أتتحقق ، تحقيقاً صحيحاً ، إلا حينما تنسجم فى ذاتى المتناقضات . . . فأنا بكليتى ، فى كل إنسان ، وأنا بكليتى فى كل مجتمع وأمة ، وأنا بكليتى فى الإنسانية جمعاء ، بل فى جميع عوالم الأحياء ! . . والجماد . . . دونما تجزئة ، ولا تعداد فمن أدرك سرى ، اكتشف نواميسى . . . ومن يكشف نواميسى أخضع له ، بقدر ما يحسن السير على ضوئها ، وبما توجب من سلوك ، وتصرف . . . ومن يجهل النواميس ، يسىء التصرف ، لأنه يغفل عن حقيقة ذاته ، فأنتقم منه . . . وما أقسى ما تنتقم به الحياة ! . . . إننى الرحمة كلها . . . وإننى النقمة كلها . . . وهذا كله من مفاهيم المتناقضات . . . ولا تنسجم المتناقضات إلا بالوعى . . . ولذلك كانت الأمم بحاجة ، فى نهضاتها ، لوعى الشباب فيها . . . وكان الشباب ، فى تكامله وثباته ، أشد ما يكون حاجة لوعى الذات للذات ! . . .

فاستمر على وعيك لذاتك ، على ما تركتك ، إذ كنت هنداً ! . . . فستجدك فتاتك ، وستجد عندها الحب ، على أصدق ما يكون الحب ! وستذكر ما حييت ، دروس هند الحياة ، فى وعى الشباب ... وإياك أن تنسى تلك الدروس وإياك أن تنسى رسالة الحياة ، إلى قومك العرب ، فلعلهم يعودون لذاتهم ، ولحقيقتهم ! . . . وإلا ، فقل لهم أن يكفوا عن شكوى

الدهر . . . فهم الدهر . . . وعن بكاء الأمجاد . . . فهم قد ضيعوها . . . وعن الصراخ والنواح . . . فلا ينفع الغافل صراخ ، ولا نواح ، ولا بكاء ! . . . بل كثيراً ما تضره . . . وهذه كلها حمق ، وسخف ! ! . . . لا تحل مشاكل الحياة بالبكاء والنحيب . . . ولا بالشكوى ، ولا بالكلام ! . . .

قل لهم : إن الحياة تتشوق لإستعادة النهضة ... في وثبة للعرب تشبه تلك الوثبة ... فيعودون لسيرتهم الأولى ، في ركب الحضارة . . وفي المقدمة . . . إن الزمن قد استدار ، والفرص سانحة ! فلا يجدر بفطن ، تذوق المجد والعزة ، أن يضيعها . . . ولا إنقاذ إلا بتربية ، يوقظ أجواءها وعى الشباب ! . . والعاقبة للمتقين . . . يتقون نقمة الحياة ، باتباع نواميسها ! في وعى صحيح ! . .

وغاب الشبح . . . وعاد قيس ، يبلغ رسالة الحياة ، في وعى الشباب . . . أمل الحياة . . . وإطلالتها المتجددة . . . على الوجود ! ! . . .

